دارفور... والحق المُر

الماضى / الحاضر / المستقبل

(دراسة سياسية تحليلية من منظور تاريخى)

تأليف

د. سيد أحمد علي عثمان العقيد

عميد مكتبات جامعة النيلين

أستاذ مشارك في التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب



الدار العربية للنشر والتوزيع

دارفور.... والحق المر

الماضي / الحاضر / المستقبل

(دراسة سياسية تحليلية من منظور تاريخي)

دارفور .... والحق المر

الماضي / الحاضر / المستقبل

(دراسة سياسية تحليلية من منظور تاريخي)

تأليف

د.سيد أحمد علي عثمان العقيد

عميد مكتبات جامعة النيلين

أستاذ مشارك في التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب

الطبعة الأولى

٢٠٠٧



الدار العربية للنشر والتوزيع

حقوق النشر

اسم الكتاب : دارفـــور .... والحـــق المـــر

المـــاضي / الحـــاضر / المستقبل

(دراسة سياسية تحليلية من منظور تاريخي)

اسـم المـؤلف : الدكتور / سيد أحمد علي عثمان العقيد

رقـم الايداع: 20871 /2006

الترقيم الدولي : 977-258-267-8

الطبعـة الأولى : 2006

للدار العـربية للنشـر والتـوزيع

32 شارع عباس العقاد – مدينة نصر

جمهورية مصر العربية – القاهرة

تليفون : 2753335

فاكس : 2753388

مقدمة الناشر

يتزايد الاهتمام باللغة العربية فى بلادنا يوماً بعد يوم. ولا شك أنه فى الغد القريب ستستعيد اللغة العربية هيبتها التى طالما امتهنت واذلت من أبنائها وغير أبنائها. ولا ريب فى أن امتهان لغة أية أمة من الأمم هو إذلال ثقافى فكرى للأمة نفسها. الأمر الذى يتطلب تضافر جهود أبناء الأمة رجالاً ونساءً طلاباً وطالبات، علماء ومثقفين مفكرين وسياسيين فى سبيل جعل لغة العروبة تحتل مكانتها اللائقة التى اعترف المجتمع الدولى بها لغة عمل فى منظمة الأمم المتحدة ومؤسساتها فى أنحاء العالم لأنها لغة أمة ذات حضارة عريقة استوعبت – فيما مضى– علوم الأمم الأخرى وصهرتها فى بوتقتها اللغوية والفكرية. فكانت لغة العلوم والأدب، ولغة الفكر والكتابة والمخاطبة.

إن الفضل فى التقدم العلمى الذى تنعم به أوروبا اليوم يرجع فى واقعه إلى الصحوة العلمية فى الترجمة التى عاشتها فى القرون الوسطى. فقد كانت المرجع الوحيد للعلوم الطبية والعلمية والاجتماعية هو الكتب المترجمة عن اللغة العربية لابن سينا وابن الهيثم والفارابى وابن خلدون وغيرهم من عمالقة العرب. ولم ينكر الأوروبيون ذلك، بل يسجل تاريخهم ما ترجموه عن حضارة الفراعنة والعرب والإغريق. وهذا يشهد بأن اللغة العربية كانت مطواعة للعلوم والتدريس والتأليف، وأنها قادرة على التعبير عن متطلبات الحياة وما يستجد من علوم. وأن غيرها ليس بأدق منها، ولا أقدر على التعبير.

ولكن ما أصاب الأمة من مصائب وجمود بدأ مع نهاية عصر الوجود التركى، ثم الاستعمار البريطانى والفرنسى مما عاق اللغة عن النمو والتطور، وأبعدها عن العلم والحضارة ولكن عندما أحس العرب بأن حياتهم لابد من أن تتغير، وأن جمودهم لابد أن تدب فيه الحياة، اندفع الرواد من اللغويين والأدباء والعلماء نحو إنماء اللغة وتطويرها حتى أن مدرسة قصر العينى فى القاهرة، والجامعة الأمريكية فى بيروت درستا الطب بالعربية أول إنشائهما. ولو تصفحنا الكتب التى أُلفت أو تُرجمت يوم كان الطب يدرس فيها باللغة العربية لوجدناها كتباً ممتازة لا تقل جودة عن مثيلاتها من كتب الغرب فى ذلك الحين، سواء فى الطبع، أو حسن التعبير، أو براعة الإيضاح، ولكن هذين المعهدين تنكرا للغة العربية فيما بعد، وسادت لغة المستعمر. وفُرضت على أبناء الأمة فرضاً، إذ رأى المستعمر أن فى خنق اللغة العربية مجالاً لعرقلة الأمة العربية.

وبالرغم من المقاومة العنيفة التى قابلها، إلا أنه كان بين المواطنين صنائع سبقوا الأجنبى فيما يتطلع إليه، فتفننوا فى أساليب التملق له اكتساباً لمرضاته، ورجال تأثروا بحملات المستعمر الظالمة، يشككون فى

قدرة اللغة على استيعاب الحضارة الجديدة، وغاب عنهم ما قاله الحاكم الفرنسى لجيشه الزاحف إلى الجزائر: "علموا لغتنا وانشروها حتى نحكم الجزائر، فإذا حكمت لغتنا الجزائر، فقد حكمناها حقيقة".

فهل لى أن أوجه نداءً إلى جميع حكومات الدول العربية بأن تبادر- فى أسرع وقت ممكن- إلى اتخاذ التدابير. والوسائل الكفيلة باستعمال اللغة العربية لغة تدريس فى جميع مراحل التعليم العام والمهنى والجامعى، مع العناية الكافية باللغات الأجنبية فى مختلف مراحل التعليم لتكون وسيلة الإطلاع على تطور العلم والثقافة والانفتاح على العالم. وكلنا ثقة فى إيمان العلماء والأساتذة بالتعريب، نظراً لأن استعمال اللغة القومية فى التدريس ييسر على الطالب سرعة الفهم دون عائق لغوى وبذلك تزداد حصيلته الدراسية. ويرتفع بمستواه العلمى، وذلك يعتبر تأصيلاً للفكر العلمى فى البلاد. وتمكيناً للغة القومية من الازدهار والقيام بدورها فى التعبير عن حاجات المجتمع، وألفاظ ومصطلحات الحضارة والعلوم.

ولا يغيب عن حكوماتنا العربية أن حركة التعريب تسير متباطئة، أو تكاد تتوقف بل تحارب أحياناً ممن يشغلون بعض الوظائف القيادية فى سلك التعليم والجامعات ممن ترك الاستعمار فى نفوسهم عقداً وأمراضاً. رغم أنهم يعلمون أن جامعات إسرائيل قد ترجمت العُلوم التطبيقية الحديثة إلى اللغة العبرية وعدد من يتخاطب بها فى العالم لا يزيد عن خمسة عشر مليون يهوديًا، كما أنه من خلال زياراتى لبعض الدول واطلاعى على مناهجها الدراسية وجدت كل أمة من الأمم تدرس بلغتها القومية مختلف فروع العلوم والآدب والتقنية كاليابان، وإسبانيا، وألمانيا، ودول أمريكا اللاتينية، ولم تشك أمة من هذه الأمم فى قدرة لغتها على تغطية العلوم الحديثة، فهل أمة العرب أقل شأناً من غيرها ؟!.

وأخيراً .. وتماشياً مع أهداف الدار العربية للنشر والتوزيع. وتحقيقاً لأغراضها فى تدعيم الإنتاج العلمى باللغة العربية، وتشجيع العلماء والباحثين فى إعادة مناهج التفكير العلمى وطرائقه إلى رحاب لغتنا الشريفة تقوم الدار بنشر هذا الكتاب المتميز الذى يعتبر واحداً من ضمن ما نشرته – وستقوم بنشرة – الدار من الكتب العربية التى قام بتأليفها أو ترجمتها نخبة ممتازة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية المختلفة.

وبهذا ... ننفذ عهداً قطعناه على المضى قدما فيما أردناه من خدمة لغة الوحى وفيما أراده الله تعالى لنا من جهاد فيها.

وقد صدق الله العظيم حينما قال فى كتابة الكريم ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (106) ﴾ " سورة التوبة الآية "

محمد أحمد دربالة

الدار العربية للنشر والتوزيع

المحـــتويات

الموضوع **الصفحة**

الباب الخامس

العلاقات بين دارفور والحجاز والدولة العثمانية ومصر

مقدمة

لقد كانت دارفور وستظل إحدى ثلاث مناطق مفصلية في تاريخ السودان الوسيط والحديث والمعاصر، وتعتبر أيضاً من أغنى المناطق تاريخاً وثقافة وأرضاً وإنساناً وعطاءً وموضوعاً وواقعاً. سواءٌ من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية أومن الوجهة التاريخية والروحية والعرقية.

كما أنها تعتبر من المناطق الواعدة اقتصادياً واجتماعياً، بالرغم من ظلام الحاضر وضبابية رؤية المستقبل. فهي منطقة مفصلية من الناحية الموضوعية، ومن وجهة النظر التاريخية لأنها شكلت بوتقة انصهار عرقي وثقافي وروحي واجتماعي يرجع مداها إلى أزمان سحيقة. وقد ظلت دارفور حاضنة ومفرخة لهذا الإنصهار على نار هادئة وبدفء حنون لمدة تربو على الخمسة قرون من الزمان وهي فترة بكل المقاييس ليست بالقصيرة من تاريخ الأمم. ولقد ظلت دارفور باستمرار تشكل منطقة تمازج عرقي وحراك ثقافي وسياسي وإجتماعي متنام، وتداخل إقتصادي عبر التاريخ، كما كانت نقطة التقاء وتحول خطير في تاريخ المنطقة سياسياً واجتماعياً وروحياً وفكرياً واقتصادياً، فقد ضمت دارفور بين حناياها أعراق متعددة، عربية وزنجية منذ القدم. وتعتبر دارفور من الناحية الحضارية من المناطق المفصلية الخطيرة والهامة في بنية السودان الحديث باعتبارها إحدى الحاضنات الرئيسيات لمكونات هويته الحضارية والثقافية والاجتماعية. فهي منطقة تلاقح فكري وعرقي واجتماعي فريد.

وقد تلقت دارفور عبر القرون هجرات كثيفة من الشمال والجنوب والشرق والغرب على حد سواء لأنها كانت ذات مبادرات جريئة وفريدة في ذات الوقت، حيث مدت جسور التواصل فيما بينها وبين المغرب العربي بمعناه الواسع، فوفد إليها

ألقاصي قبل الداني. وشكلت دارفور من زاوية أخرى صورة مصغرة لسـودان اليـوم بكل أطيافه وأعراقه واتجاهاته وثقافاته وألوانه. حيث عاش فيهـا الشـمالي بجانـب الجنوبي والشرقي بجانب الغربي والمصري بجانـب التونسـي، والمغربـي بجانـب الحجازي. وقام الجميع بعزف سيمفونية اسمها سلطنة دارفور الإسلامية وميلاد سودان اليوم وانسان السودان. ففي دارفور المساليت وهم من مسلاتة بليبيا، وبهـا المحاميـد وهي قبائل مشتركة بين دارفور وليبيا. وبها قبيلة بني جرار وهي قبيلة مشتركة بـين السودان وليبيا . وفيها الزغاوة وهي قبائل مشتركة بين كل من تشاد وليبيا ودار فور، وفيها الكيرا والطنجور والدا جو والكنجارا وهي من القبائل المشتركة بـين السـودان وتشاد والنيجر، وهي في أصولها قبائل خليط بين د ماء زنجية وعربية، وفيها البديات والبرقد وبني هلبة وهم خليط من الدم العربي والزنجي والنوبي والجعلي. والبيقو وهي قبائل من بحر الغزال. وقد اختلطت كل هذه القبائل وتصاهرت مع بعضها الآخر فـي هذه الديار العظيمة، دون استعلاء أو تفرقة، أو فواح رائحة عرقيـة بغيضـة. وفيهـا الرزيقات والتاما والبرتي وللبعض منهم انتماءات شمالية لا تنكر، وعلى العموم فـإن دارفور ظلت وستظل تشكل سوداناً مصغراً من حيث البنية السكانية والتصاهر العرقي والموروث الثقافي والروحي والموروث الحضاري ومن حيث البعد التاريخي.

وقد قامت بدار فور سلطنة إسلامية دامت مدة خمسة قرون من الزمـان، فوفـد خلالها إلى دارفور عرب وزنوج وقوقازيين من داخل ومن خارج السودان. وشـكلوا نسيجاً اجتماعياً فريداً، وأوقدت في هذه الديار نار القرآن والعلم والكرم. فكانت دارفور قبلة للعلماء والفرسان والزهاد من الحجاز وتونس والمغرب ومصـر. ومـن شـمال وغرب وجنوب وشرق السودان الحالي دون استثناء، ومكثت بها هذه العناصـر فـي توائم وسلام ومحبة وأخوة صادقة وتصاهر القادمون مع أهل الـبلاد الأصـليين مـن زنوج وعرب، ونتجت عن هذا التمازج عناصر خليط هي شعب دارفور أو هو شعب السودان الحالي بكل خصائصه وسلبياته وإيجابياته وأحلامه وآماله وآلامه.

وقد أشار محمد بن عمر التونسي إلى أن له أخوة بدار فور. وذكر أن أباه قد وفد إليها في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد في بداية القرن التاسع عشر، يوم أن كانت عقيدة المسلم هي هويته ودينه جنسيته، قبل الارتباط بهذه الوريقـــات المزيفـــة التـــي أسموها جنسية، ومنحه يومها هذا السلطان حاكورة (القطاعية). وتزوج أبـــوه عمـــر التونسي واستولد من أهل البلاد الأصليين، وهذه هي روح الإســـلام الطـــاهرة التـــي تستنكف من نتانة العرقية والإثنية القبيحة التي ترتد بالإنسان إلـــي مســـتوي البهيمـــة العجماء، ولعل ما يدور الآن من أحداث يلاحظ المرء فيه سيادة قانون الغـــاب وهـــو يشكل انتكاسة خطيرة في تاريخ دارفور بل في تاريخ الإنسانية قاطبة ولا نقـــول فـــي تاريخ السودان فحسب. لأن معيار هذه الحركات هو معيار اللون والقوة ولا شيء غير القوة. أما في المقابل فان المعيار الإنساني في الإسلام هو معيار فكر وسلوك وقـــيم لا معيار جلود وألوان، وهو المعيار الإنساني المنطقي الذي يليق بالإنسان وتكريمـــه، لا المعيار الحيواني البهيمي الذي يعتمد على اللون والجنس والعرق كالضـــأن والمـــاعز والإبل والأبقار، والذي برز إلى الوجود بمطلع منتصف القرن التاسع عشر المـــيلادي في أوروبا. وانتقلت عدواه إلى العالم الإسلامي والعربي في بداية القرن العشرين تحت مسميات القومية والعرقية. واستمرت تفوح نتانته إلى نهاية هذا القرن، وبداية القـــرن الحادي والعشرين. ونحن كالعادة لا يبلغنا الصدى إلا بعد أن تتجاوز الأمم ذلك الأمـــر بعقود. فنتلقف ما يلقي في مزابل الآخرين بغير وعي راشد أو توجه قاصـــد. ولا أزال أذكر أستاذنا أستاذ الأحياء في سبعينات القرن الماضي في المرحلة الثانوية وهو يتكلم بحماس شديد عن نظرية داروين باعتبارها نظرية علمية، وهي عند أهلها افتـــراض لا يرقي إلي درجة النظرية وان كانت أوروبا في ذلك الحين قد تجاوزت هذه الخطرفـــة قبل مائة عام أو يزيد وبدا خطلها لدي كل راشد في أوروبا إلا أن واضعي المناهج في بلادنا وأساتذتنا ظلوا يرددون ألصدي دون مواكبة لا سيما قبائل اليسار المفتونون بكل ما يفت في عضد الدين وثوابت الأمة بصلة ومن لف لفهم ونهج نهجهم.

خلال خمسة قرون من الزمان حكمت دارفور أسرة الكيرا وهي فرع من الفـــور مع خلطة عربية واضحة القسمات، فوطدت نظاماً فدرالياً اعترف لكـــل بخصوصـــيته

العرقية والإدارية والاجتماعية، وأصبحت هذه المنطقة تسمى دار فـــور، نســـبة لهـــذه السلطنة العظيمة ذات العطاء المتواصل، والفضل المتجدد في إرسال محمل سنوي إلى كل من بيت الله الحرام، دعماً للحجاج الوافدين إلي بيت الله الحرام والسلطة الزمنيــة القائمة فيه، وزوار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد تجاوزت هـــذه الســـلطنة النزعة الإقليمية الضيقة وسمت فوق الدعاوى العرقية النتنة التي يحاول الأحفاد العاقون إحياءها وتغذيتها الآن فعلاً وقولاً عن وعي وعمالة أو عن غير وعي ورشـــد. ممـــا لاشك فيه ومن خلال هذا العرض يتضح أن دارفور هي ملك لكل السودان بـــل لكـــل المسلمين لأن تراثها وتاريخها وعطاءها وإنسانها هو شأن إسلامي بحت، فكراً وعقلاً ووجوداً وتاريخاً. فأهل دارفور كلهم مسلمون ولعلهم جميعاً يدينون بمذهب واحد وهو المذهب المالكي، والقرآن وخلاويه سمة فوراوية بارزة. وأن أي محاولة في دارفـــور لإدخالها في قمقم العرقية والإثنية النتنة أو الحزبية الغبية العوراء هي محاولة عميلـــة دخيلة على فكر وتاريخ وتراث إنسان دارفور، دارفور القـــرآن، دارفـــور الســـلطنة، دارفور المحمل، دارفور العطاء، دارفور التاريخ، دارفور الهوية ودار فـــور مفصـــل السودان الحضاري الهام.

ولعل الكتاب بالرغم من أنه في الأصل كان مشروع دراسة أكاديمية في ثمانينات القرن الماضي. ولم يكن يومها بهذا الحجم، ولا بهذه الرؤية ولكنه كان أصيلاً من حيث الموضوع ومن حيث المادة الوثائقية الكثيفة التي توفر عليها المؤلف في دور الوثـــائق العالمية والمحلية. فقد قطع المؤلف المسافات الشاسعة من السودان إلى مصر والمملكة المتحدة وإلي شمال بريطانيا حيث تقع جامعة درم، التي بها مكتبة الســـودان القابعـــة بمدرسة الدراسات الشرقية والتي بها كنوز من تاريخ السودان الحـــديث والمعاصـــر. ولبراءة الكاتب وثقته يومها في أمانة العلماء علي حسب ما تلقيناه من علم علي أيـــدي أساتذة كبار لا يشق لهم غبار من أمثال الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود والأســـتاذ الدكتور عبد الحميد البطريق والدكتور العالم الزاهد إبراهيم بشير رحمهـــم الله تعـــالي جميعاً وأجزل ثوابهم، والأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري وكوكبة مـــن العلمـــاء الأفذاذ الذين تزينت بهم جامعة الرياض في ثمانينات القرن الماضي الذين تلقينا علـــيهم علماً صافياً صفاء وجدانهم هذا أولاً، وجامعة الرياض التي أصبحت فيما بعد تعـــرف

بجامعة الملك سعود وهو اسمها السابق حين كان الملك سعود علي سـدة الحكـم فقـد جمعت فأوعت. ما كان يدور بخلدي أن عملاً علمياً كهذا قضيت فيه سـنوات عـدة، وأفنيت فيه لحظات من أغلي لحظات العمر يمكن أن يتعرض لنهب وسرقة بواسـطة أساتذة كبار من فصائل اليسار في السودان، لهم قامات ولكنها زائفة، وفي جامعة يزعم بأنها الأولي من نوعها في البلاد. فبعد نيل درجة الماجستير وليـت وجهـي شـطر السودان، وكانت تراودني فكرة التحضير للدكتوراه بنفس واحد دون انقطاع، فنصحني أستاذي الفاضل المرحوم بإذنه تعالي الدكتور إبراهيم بشير بالاتصال بزميله الأسـتاذ المشارك يومئذ الدكتور حسن أحمد إبراهيم والبروفيسور الآن. لا سيما بعد أن علـم أستاذنا الدكتور إبراهيم بشير أن زميله حسن قد أصبح عميداً لكلية الآداب من خـلال خطاب أرسله له الأخير يهنئه فيه بقرار إرجاعه إلي الجامعة. وطلب الدكتور إبراهيم بشير مني بعد وصولي السودان أن أكون علي اتصال به. وكان الدكتور إبراهيم بشير من القلائل من أولاد البلد السودانيين، إذ كان نعم الأستاذ والأخ الأكبر. فقد سألني عن مشروعاتي المستقبلية قبيل المجئ إلي السودان. فقلت له: سأشتري عربة مسـتخدمة في حدود إمكانياتي البسيطة وسأذهب إلي السودان وأرخصها عربة أجـرة وأقودهـا بنفسي. وكانت الفكرة يومها في عام 1984م غريبة بعض الشيء حتى لـدي بعـض رجالات الأمن يومئذ، لان التصديق يومها كان يتمّ في المعتمدية مكان مجلس الوزراء الحالي بشارع الجامعة، ولا بد أن يمر إجراء الترخيص لأي سيارة الأجرة عبـرهم، فسألني أحدهم كيف يمكن لشخص يحمل مؤهلاً بهذا القدر أن يقود عربة أجرة، فقلـت لهم: إن هذا أمر عادي في كثير من الدول وسيصبح الأمر في السودان في يـوم مـن الأيام أكثر من عادي. وقد كان فبعد قيام ثورة رجب (ابريـل) 1984م التـي قلبـت الطاولة على نظام المشير جعفر نميري وصعد من صعد وهبط من هـبط مـن أهـل وقبائل النظام المايوي. كما هو شان السلطة التي لا تدوم لأحد. أو كمـا قـال الفنـان السوداني المشاكس للنظام المايوي (ما دوامة). فدخل في مهنة التاكسـي عسـكريون ومدنيون وإداريون وأساتذة جامعات ممن كانوا بالأمس أصحاب سلطة وسطوة وأنـف شامخ، فسبحان مغير الأحوال الذي له الملك. يعز من يشاء ويذل من يشاء وفق حكمة

وعزة. وفي ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد. ولقد ولجـت هـذا المجال طوعاً ولقناعة مؤداها بأن اليد العليا خير من اليد السفلي، ولخبرة طويلة مـع التنظيمات العقائدية التي تدعي الشورية وهي أبعد الناس عنها. وتدعي الحريـة ولـم تمارسها ولو لحظة مع عضويتها. ووصلت إلي قناعة راسخة مؤداها أن التنظيمـات السياسية سواءً العقائدية أو الطائفية منها تتعامل مع عضويتها تعامل رعاة البقـر مـع الحصين. فما أن يكون الحصان قوياً يمتطي بواسطة القيادة إلـي أن يجـد المتسـيس الأوحد، وحيد زمانه وفريد أقرانه الذي يظن انه معصوم من الخطأ، والزلل ذو الرأي السديد والعمر المديد حصاناً أحسن أو اقوي من الأول يجيد الركض والنفاق والمسـح علي الجوخ فيهمل الأول ويمتطي صـهوة الثـاني. وتجـار السياسـة والمتسيسـون المتعطلون في بلادنا الذين يأكلون علي أكتاف الآخرين في هذا البلد هم أُذنٌ لكل سوء ولذلك لا يطيب لأهل الفكر الحر والرأي السديد الاستمرار معهم، والعيش في كـنفهم طويلاً. لذا لا يصانعهم إلا منافق أو من يملك صفات المنافقين، فيـزين لهـم أفعـالهم وأقوالهم وإن كانت باطلا. ونتيجة لذلك أصبح هذا الصنف الغريـب مـن الساسـة لا يحتملون صوتاً يعلو علي أصواتهم أو فكراً يزاحم فكرهم المريض. ولعل الأقدار هـي التي جعلت السودان ردحاً من الزمن تحت رحمة نفر من هذا النوع الذي لا يتجـاوز أصابع الرجل الواحدة، هم الفلاسفة وهم العالمون ببواطن الأمور وهم الساسـة وهـم المفكرون وهم الشيوخ وهم الأساتذة وهم الذين لم تلد حواء لهم نظيـراً، ديناصـورات هذا الزمان كانوا بلية هذا البلد لأكثر من ثلاثة عقود أو يزيد. هذا الفهم الراشد وهـذه التجربة الحية هي التي أوحت إلي بأن أشق طريقيَ في الصخر بلا كلـل ولا ملـل أو تزلف أو مداهنة لأحد كائناً من كان، ولذا لم أرهن إرادتي لأحد منذ البداية. واستغرقني أمر المعاش سنوات معدودات، ولكن لم يحل ذلك دون تحقيق الهـدف. وممـا جعـل شخصية أستاذي دكتور بشير تكبر في نفسي أن أرسل إلي خطاباً بعد ثلاث سنوات من قدومي إلي السودان يستفسر فيه عن أحوالي ويحثني علي مواصلة مشوار الدكتوراة. وذكر لي بأنه سيتكفل بأي مصاريف يمكن أن تشكل عقبة في طريقي. ووجهنـي لأن اتصل بالدكتور حسن إبراهيم عميد الكلية بجامعة الخرطوم بغية التسـجيل للـدكتوراة

بكلية الآداب. وبالفعل اتصلت به وطلب مني الشهادات الأصلية والرسالة لحاجة في نفس يعقوب قضاها. فأحضرت له أصول الشهادات ونسخة أصلية من الرسالة. وشغلتني عن ذلك بعض الشواغل أياماً عدداً. ولظروف قاهرة لم أتمكن من مواصلة الإجراءات يومها. وبعد أشهر معدودة طلبت منه أصول الشهادات وأصل الرسالة فطلب مني السماح له بإطلاع احد الطلاب الذين يشرف عليهم علي هذه الرسالة. ولثقتي المطلقة يومئذ في الأسماء التي تحمل لقب الأستاذية من أمثال الأستاذ الدكتور حسن احمد إبراهيم عميد كلية الآداب بجامعة الخرطوم في أوائل الثمانينات من القرن الماضي سمحت له بذلك. وكان مبعث تلك الثقة لاعتبارين أولاً: اسم جامعة الخرطوم. وثانياً: سمعة بعض الأساتذة الأفاضل كأستاذنا البروفيسور عبد الله الطيب الذي درسنا بالسنة الأولي بكلية الآداب جامعة أم درمان الإسلامية مادة الأدب العربي. وكنت أحسبه من هذا الطراز أو شبيه بتلك الكوكبة. بيد أن الأمر كان بخلاف ذلك حيث قام الأستاذ المذكور بإعطاء الطالب الرسالة كاملة والذي قام بدوره بسرقة الموضوع برمته والمصادر والمحتوي مع تقديم وتأخير تحت عين وبصر المشرف، وأرجع إلي الأستاذ الرسالة بعد فترة وكأن شيئا لم يكن. وبعد عامين من تاريخه كانت المفاجأة بان ظهرت الرسالة في قسم التاريخ كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية بصورة شائهة. ولبعدي يومئذ عن الأوساط الأكاديمية كان يمكن لهذا الأمر أن يمرر دون صخب أو ضجة لولا عناية الله التي جعلت أحد المناقشين وهو أستاذنا الفاضل النابه البروفيسور أحمد إبراهيم الذي قابلني صدفة ذات مرة في الشارع وقال لي: إن لديه رسالة ماجستير سيناقشها بعد أسبوع والمشرف عليها هو الدكتور حسن إبراهيم، ويشك دياب في أن هذه الرسالة هي عين الرسالة التي تقدمت بها إلي جامعة الملك سعود من قبل. وطلب مني نسخة، فقلت له: إن الدكتور حسن أحمد إبراهيم كان قد اخذ مني نسخة لأكثر من شهر قبل عامين. وبالفعل أحضرت له نسخة من الرسالة. ولدي إجرائه المقارنة كانت المفاجأة حيث وجد أن تلك الرسالة مخلوق مشوه مما قمت به في بحثي الآنف، وطلب مني حضور المناقشة. ولقد فاجأ البروفيسور دياب الحضور بأن قال بالحرف الواحد: إن هذه الرسالة هي مسروقة بكاملها من رسالة الأستاذ العقيد،

وأحضر النسخة الأصلية معه وقام بتمزيق أوراق من تلك الرسالة القمينة المقدمة مــن الباحث يومئذ. ومن المعروف أن بروفيسور دياب دقيق في مناقشته ومنهجيته. ونتيجة هذا الكشف لم يرض الدكتور حسن احمد إبراهيم وزمرته في جامعة الخرطـوم عــن بروفيسور دياب. وبالتالي حرم منذ يومها من أي مناقشة في جامعة الخرطــوم قســم التاريخ إلي هذه اللحظة لئلا يكشف البلاوي المخبأة والأبحاث المسروقة والادعــاءات الكاذبة من قبل صنائع كرتونية. ومن الغريب أن الباحث كان أستاذاً بجامعــة جوبــا والذي حاول عبثاً أثناء المناقشة أن ينكر السرقة. بيد أن السرقة قد تبدت في أنــه لــم يغادر السودان ولو أسبوعاً كما ذكر لي أحد المقربين منه إلي الأمــاكن التــي ســبق ذكرها. وهي الأماكن التي توجد بها تلكم الوثائق المستخدمة في هذا الكتاب وبعد أخــذ ورد، طلب المناقشون من الطالب أن يذكر بأنه قد استفاد من رسالتي لأنه اقــر أمــام الجميع بإطلاعه عليها. ومنح علي حسب ما أذكر الدرجة بعد ستة اشهر مــن تــاريخ المناقشة. وكان يفترض أن يطرد من الوسط الأكاديمي هو وأستاذه، لو كانــت هنــاك قوانين ونظم مرعية في هذا البلد. ولقد تحصلت علي نسخة الطالب وعرضت الأمــر برمته علي الأستاذ الألمعي أحمد سليمان المحامي، وكان يومها رئــيس مجلــس إدارة جريدة الراية التي كانت تصدرها الجبهة القومية الإســلامية فــي فتــرة مــا يســمي بالديموقراطية الثالثة. وبعد إلقاء سيادته نظرة علي العملين قال لي بــالحرف الواحــد: هذه صورة شائهة من عملك الذي تقدمت به من قبل. واستشرته يومها في رفع قضية ضد الأستاذ والطالب والجامعة، فذكر لي أن السودان لا يوجد به قانون حماية الملكية. كما أن المسألة يمكن أن تنال من سمعة الجامعتين إضــافة إلــي طــول الإجــراءات وتكاليفها. ففوضت أمري إلي الله في بلد تضيع فيه حقوق الضعفاء والمساكين كما هو شأن بيتي الذي هدمته حكومة الإنقاذ دون وجه حق ودون تعويض مجز، وظللت لأكثر من خمس سنوات من مكتب إلي مكتب دون جدوى، لأن المقصود أساســاً كــان لــيّ ذراعي الأيمن وإرجاعي إلي بيت الطاعة علي طريقة الإنقاذ ولكن هيهات. وبعد هــذا العمل الإجرامي الفريد من نوعه والذي تمثل في سرقة جهدي في وضح النهــار مــن غير استحياء قمت بجمع النسخ التي كانت مودعة ببعض المكتبات السودانية إلــي أن

هيأ الله لي هذه الفرصة بعد عشرين سنة أو يزيد أن أجد متسعاً من الزمان والمكـان لكي أخرجها في ثوب جديد مع استيعاب لما يدور من أحداث بقدر من التحليل المستقل غير المنحاز وغير مدفوع الأجر من احد أو جهة، وبقدر من التأمل الواعي وقدر من الدراسة ومستوى من الإشارات التي يمكن أن تعين من يريد أن يفهم التركيبة السكانية والطبيعة الجغرافية والخلفية التاريخية والثقافية والاجتماعية والسياسية لدار فور. وفي تقدير المؤلف أن هذه المذكورات تعتبر مفردات غنية ومهمـة فـي مربـع التحليـل والتعاطي مع أبعاد القضية القائمة الآن. ولا شك أن تجاوز أي مفردة منها وبأي قـدر كان يصب في خانة تعقيد القضية والبعد عن الحلول الموضـوعية والمنطقيـة لهـذه المشكلة.

فتركيبية دارفور السكانية على قدر من التعقيد الذي لا يمكن لـدارس لـه أدنـي معرفة بالمنطقة تبسيطه إلى حد السذاجة حسب ما روا ه وهدف إليه كتـاب الكتـاب الأسود في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي ممن يعانون من عقدة التعويق الـداخلي والنقص المعرفي. ونعني بها عقدة الشوفونية الناتجة عن عقدة نقص داخلـي، وهـذا النوع من التعويق يعتبر من الأدواء الخطيرة التي يصعب علاجها، وهو داء كثير ممن تصدي للعمل العام، وهو داء كثير من السياسيين في السودان، إذ لا يمكن لـدارس أن يصف أن الأمر في دارفور هو عبارة عن صراع بين عرب وزنوج، إذ لا تصدر هذه المقولة إلا عن جاهل بمفردات تاريخ المنطقة وتركيبتها السـكانية وخلفيتهـا الثقافيـة والاجتماعية والدينية.

ولعل أحدث الدراسات الجينية والتي قام بها فريق ألماني متخصص؛ قـد أثبتـت خطأ هذا الزعم الباطل الذي حاول ترويجه تلاميذ أبناء الثقافة الغربيـة العميلـة فـي بلادنا. وقد وردت الإشارة إلى هذه الدراسة في ثنايا هذا الكتاب وفي كتابنا: (العلاقات المكية السودانية) الذي أصدرته الدار العربية بالقاهرة عام 2005م. والذي تـم نشـره ضمن فعاليات الندوة العلمية الكبرى بمناسبة مكة عاصمة للثقافة الإسلامية في سبتمبر 2005م، وذكرنا هناك أن التي قامت بهذه الدراسة دولة استغلالية استعمارية لها ضلع كبير فيما يجري الآن في دارفور من أحداث ومن صرا عات ليسـت فـي مصـلحة

دارفور ولا في مصلحة المواطن الدار فوري ولا في مصلحة الــوطن الأم الســـودان. ولكنها كانــت دراســـة ذات أهــداف اســتراتيجية خطيــرة، وان تــدثرت بالعلميــة والموضوعية، إلا أنها كانت في الواقع تهدف إلي تحقيق أجندة خفية خفيت حتى علــى القائمين على أمر هذه الحروب من الطرفين على حدٍ سواء. وهــي ضــمن مخطــطٍ استراتيجيٍ كبيرٍ غايته تفتيت وحدة السودان إلي كيانات يسهل اســتقطابها واحتواؤهــا وإلي فئات يصعب لملمته. ولا يخفي علي متأمل أن أي تفتيت لوحدة السودان ينال في المقام الأول من سيادة مصر ويهدد أمنها القومي. ولذا كان ينبغي علي مصر أن تحسن اللعبة السياسية وأن تتعامل مع هذه القضية بمسؤولية وباهتمــام زائــد وبجديــة وإلا سيجرفها الطوفان.

ولقد جاءت هذا الكتاب في مقدمة وخمسة أبواب بفصولها، حيث تعرض لطبيعــة المنطقة وموقعها وسكانها وتركيبتها السكانية وخصوصــيتها الاقتصــادية والروحيــة والعرقية. وأورد خلفية تاريخية عن قيام سلطنة الفور ودورها التاريخي ومدي قدرتها على الاستمرارية لمدة خمسة قرون من الزمان. وأبانِ كيف أصبحت هــذه المنطقــة بفضل وجود هذه السلطنة، منطقة محورية على امتداد العــالم الإســلامي والعربــي والأفريقي. وهي خلفية هامة وضرورية لتفسير الأحداث الجاريــة الآن وفــق رؤيــة تاريخية عميقة، إذ يمكن من خلالها استشراف المستقبل وصناعة الحاضر.

وتعرض الكتاب لسلطنة الفور في الفترة الواقعة ما بين (1898 – 1916م) ومدي علاقتها بالحكم الثنائي ومصر والحجاز وتشاد والسنوسية في ليبيا وتركيــا باعتبارهــا بداية المقاومة الوطنية الجادة في السودان، والتي لم يكن لها بعد عمالة لجهة محتلــة. وأكد موضوع الكتاب على أن سلاطين الفور كانوا متقدمين فكراً علــى كثيــرٍ مــن القيادات السودانية في بداية القرن العشرين صنيعة الاستعمار، والقيادات الحالية ســواء أكانت في إقليم دارفور أو السودان عمومًا. ويأتي التفوق الفوراوي من حيث شــمولية الرؤية ووضوح الفكرة وإسلامية التوجه وقوة الإرادة. وتعــرض المؤلــف لعلاقــة دارفور بالطريقة السنوسية في ليبيا التي شكلت رأس الحربة في مقاومة المستعمر في

البلاد العربية والإسلامية والأفريقية في نهاية القرن التاسع عشـــر وبـــدايات القـــرن العشرين. هذا في وقت استسلمت فيه كثير من القيادات التقليدية يومئـــذ التـــي شـــكلت أصول الموجودات السياسية على الساحة السودانية الآن دون استثناء علـــي المســـتوي المحلي. وهذا الكتاب هو دراسة أكاديمية في المقام الأول إذ اعتمد المؤلف على الوثائق الخام، وعمل على تحليلها واستخلاص عبرها واستثمار مؤشراتها في تفسير الحاضـــر واستبصار المستقبل، لو كان لدينا ساسة يقرأ ون ويعتبرون بما يقرأ ون.أو يفهمون ما يقرأ ون، أو كانوا ساسة بالمعني والمبني لا تجار سياسة أو متسيسين كما هو الحـــال الآن، أولئك الساسة الذين يحسنون النقد والتنظير حين يكونون في المعارضة ومـــا أن يمتطوا صهوة السلطة حتى يخلعوا لباس الحق والعدل ومطالب الجماهير ويكون همهم أنفسهم ويضربوا بمطالب الجماهير عرض الحائط. حتى غدا السودانيون كالفئران في مشرحة المجانين كل من هب ودب يجـــرب علـــيهم خطرفاتـــه وتخيلاتـــه وأوهامـــه وهواجسه المريضة. ولا يقتصر الأمر علي السودان ولكنه – أي السودان – يعتبر أحد النماذج الأفريقية والعربية والآسيوية في عصرنا الحالي.

ولا يخفي علي ذي بصر وبصيرة أننا في عالمنا الثالث قد ابتلينا بتجار السياســـة الذين لا بصر لهم ولا بصيرة، ممن لا يقرأون، وإن قرأوا لا يفهمـــون وإن فهمـــوا لا يعتبرون، لأن العبرة قيمة إيمانية ومستوى عقلي راقٍ، وكلاهما عملة نادرة في دنيـــا شئون السياسة في زماننا هذا، لا سيما لدى الذين يتعاطونها. لأنه لا يتعاطى السياســـية إلا فاشل أو متسلق أو منافق أو نفعي له مآرب أخري، فشل في تحقيقها عـــن طريـــق الباب فلجأ إلي تحقيقها عن طريق النافذة، وذلك على مستوى السودان والعالم الإسلامي والعربي والأفريقي على حدٍ سواء. بل علي مستوي العالم. وما يمكن تقريـــره أن مـــا يدور في دارفور ليس هو حرباً عرقية أو أثنية بين عرب وزنوج، بقدر ما هو صنعة غربية مدفوعة الأجر. ولغفلة القيادات السياسية المعارضة والمؤيدة على حـــدٍ ســـواء بدأت تدق الطبول للحرب دون إدراك لإستراتيجية هذه العمَلية أو هذه الخطة الخبيثة.

فدار فور من الناحية الجغرافية والإستراتيجية تقع في منطقة الحزام الساري، وهو من المناطق الغنية بثرواتها وخاماتها، والواعدة بمبستقبلها، وقد لا يدرك ساســـة اليـــوم ممن لا نظر لهم ولا فكر أو عقل مدبر هذه الحيثية ذات البعد التاريخي والاستراتيجي إلا بعد فوات الأوان. ويؤمل الغرب أن تكون دار فور وتشاد بديلاً اســـتراتيجياً مـــن الناحية النفطية عن دول الخليج التي اشتعلت فيها نار يستحيل إخمادها. ونؤكد علي أن تجزئة دار فور وتفتيتها تقع ضمن استراتيجية أمريكية- بريطانية- ألمانية قديمة. أمـــا عن هذه الأدوات التي أعني بها القيادات السياسية علي المستوي القيادي، سواء أكانت مؤيدة أو معارضة من شتى ألوان الطيف السياسي في الســـودان، فهـــم أرجـــوازات وبطاقات وجياد صافنات غايتها أن تمتطي إلى حين. وبعد أداء دورها يلقى الغرب بها في قارعة الطريق إن لم نقل في سلة المهملات. وهذا شأن غربي قديم حديث، وهـــذا هو الموقع الطبيعي للمغفلين من الساسة والقيادات الفكرية والاجتماعية دون اســـتثناء، الذين لا يدركون الحقائق إلا بعد فوات الأوان. لا سيما تلك القيادات التي لا تعتبر بعبر التاريخ ولا تقرأ مفرداته بذكاء ووعي.

1- غرض موضوع الكتاب:

دراسة وتحليل سياسة السلطان علي دينار الخارجية في الفترة (1889 – 1916م) وعلاقاته مع كل من المهدية والحكم الثنائي وليبيا ووداي والحجاز والدولة العثمانية ومصر. هذا علي وجه الخصوص، وإبراز الدور الوطني المعاصر في المقاومـــة للحكم الأجنبي بالبلاد في محاولة غايتها قراءة مفردات هـــذه الفتـــرة فـــي ضـــوء الحاضر واستشراف رؤية المستقبل. وهذا هو دور المؤرخ. ومحاولة ربط الماضي بالحاضر والحاضر بالماضي علي نسق يمكن القائمين بالأمر من التوطن في اتخاذ القرارات المصيرية وفق رؤية موضوعية وإرث تاريخي ماجد.

2- المنهج المتبع في هذا الكتاب:

اتبع الكاتب منهج البحث التاريخي القائم علي جمع المـــادة وتوصـــيفها وترتيبهـــا وفرزها وتحليلها وفق منظور منطقي.

أما أقسام الكتاب فقد جاء في خمسة أبواب رئيسية، تحت كل باب فصلين أو أكثر.
الباب الأول من الكتاب: يتناول التركيبة الجغرافية والسكانية لدارفور وأحوال السلطنة وظروف نشأتها حتى سقوطها 1874م، ودور السلطان علي دينار في استعادتها 1898م. وهي قضية مفصلية في تفسير الأحداث التاريخية في منطقة دارفور. ويشكل ذلك خلفية ضرورية لتفسير كثير من الأحداث الجارية الآن.ولعل الفارق الجوهري بيننا وبين أعدائنا أنهم يعرفون تاريخنا ونفسية وميول شعوبنا أكثر منا . فقد ذكر لي بروفيسور أحمد حمو عميد القانون بجامعة النيلين أنه قد اطلع علي توصية من قبل واضعي القوانين الإنجليزية في فترة الاحتلال بأن يكون الغلاف لمجلدات القوانين عند طباعتها أخضر ليكون مقبولاً من قبل السودانيين ذوي الخلفية الصوفية والمهدوية.

والباب الثاني:

يتعرض للعلاقات الفوراوية المهدوية بإيجاز لفترة ما قبل علي دينار وبتفصيل لفترته. لا سيما موقفه من الجيوب المهدوية في الجنوب والغرب علي حدود سلطنته.

أما الباب الثالث:

يناقش موقف السلطان وعلاقاته بالحكم الثنائي في السودان الشرقي في الفترة (1898– 1916م). وقد تناول هذا الباب أهم الأحداث التي أثرت علي العلاقات الفوراوية الثنائية، سلباً وإيجاباً والقيام بتحليلها. ويبرز هذا الباب بفصوله مدى قدرة علي دينار علي الاستقلال عن الهيمنة الأجنبية. وتُمكنه من المراوغة وإدارة اللعبة السياسية باقتدار فائق.

والباب الرابع:

يدور حول العلاقات الفوراوية السنوسية. حيث يتناول علاقات السلطنة والسنوسية، والتقارب السنوسي الفوراوي في فترة السلطان علي دينار وتطوره وإيجابيات الحلف السنوسي الفوراوي في مواجهة الاحتلال وسلبياته. ويؤكد هذا الباب علي أن العقلية السودانية التي كان يمثلها علي دينار كانت ذات أشواق إسلامية أكثر منها غربية.

ويتناول هذا الباب أيضاً العلاقات الفوراوية الوداوية تحت السـلطنة الإسـلامية والاحتلال الفرنسي. حيث تعرض لطبيعة وتطور هذه العلاقات، عبر الفترات المختلفة، وبتركيز أثناء فترة السلطان علي دينار.

أما الباب الخامس:

فقد تناول العلاقات بين دارفور والحجاز والدولة العثمانية ومصـر. وفيـه نبـذة تاريخية عن طبيعة هذه العلاقات وتطورها وأسباب نجاحها وفشلها. هذا بالإضافة إلى خاتمة قصيرة أتت علي أهم نتائج البحث.

3- المصـــــادر:

اعتمد المؤلف علي مادة أرشيفية كثيفة تعددت مناطق وجودهـا بـين السـودان ومصر وبريطانيا. وهي التي شكلت المصادر الأولية لهذا الكتاب. **وتحوي المجموعات التالية:**

أ- مجموعة المخابرات السـودانية (GX): وهي تشمل وثائق مخطوطة ومطبوعـة. هذا بالإضافة إلى الوثائق الأخرى التي هي عبارة عـن رسـائل بـين السـلطان والحكومة الثنائية، أو بين الحكومة الثنائية والقاهرة أو لندن بشأن السلطان. وهـي في مجملها مادة غزيرة موضوعة في ملفات وفق ترتيب تاريخي، وان كانت هناك مجموعات تفتقر إلى التنظيم التاريخي. ولكن الآن وبعد بروز العمل الاليكترونـي ووسائله وأدواته وامكاناته يمكن أن يجري ترتيبها وفهرستها وصفياً وموضـوعياً وتوزيعها علي شكل أقراص مرنة علي مراكز الأبحاث. لا سيما وقد نمـي إلـي علمي أن مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة درم (در هام) تفكر الآن في الـتخلص من هذا الإرث القومي الهام لندرة الرواد السودانيين عليه. وهو مما سـرق مـن بلادنا شأن الكثير من الآثار والكنوز الأثرية الثمينة المودعة الآن بمتاحف أوروبا. وقد حدث ذلك فيما مضي تحت مسمي الانتداب أو البحث العلمي الأثري أو تحـت التأهيل للشعوب زوراً وافتراء كما يحدث الآن في أفغانستان والعراق تحت مظلـة الديمقراطية والحرية والمساواة ومنظمات المجتمع المدني إذ أن لكل فترة لبوسـها

ودثارها. حبذا لو تكاتفت جهود عدة مؤسسات علمية وطنية بالسودان لإنقاذ هذا الإرث التاريخي الهام عن طريق الشراء والتصوير الملون الذي يعطي صورة طبق الأصل بكيفية غير مسبوقة في التاريخ البشري. وهو في النهاية بضاعتنا قد ردت إلينا ويمكن لهذه الدول التي نهبت آثارها وكنوزها القومية أن تقاضي هذه الدول الاحتلالية أمام المحاكم الدولية. وان تشكل في هذه الدول جمعيات وإتحادات علي غرار منظمات المجتمع المدني لرد إعتبارها ومنهوباتها من قبل الدول الكبرى، والمطالبة بتعويضات مالية، ومعنوية علي غرار اعتذار الرئيس الأمريكي السابق كلينتون لدول غرب أفريقيا لدى زيارته جزيرة العبيد في ليبريا، وان يكون ذلك الاعتذار مكتوباً إضافة إلي التعويض المادي للخسائر التي لحقت بهذه الشعوب.

ب- **تقارير المخابرات (DF):** وهي عبارة عن تقارير شهرية رسمية ظلت تصدرها هذه الإدارة الاحتلالية منذ عام 1892م. وقد تم الإطلاع علي كل التقارير التي تتصل بموضوع هذا الكتاب، وهي في شكل مجلدات نظمت تنظيماً دقيقاً منذ مارس 1900م. ولها ملاحق تتضمن الرسائل بين السلطان والحكومة الثنائية.

ج- **أوراق ونجت (TL):** وهي عبارة عن المذكرات اليومية والرسائل الشخصية والرسمية التي تخص السير ريجنالد ونجت المسئول الأول عن الاستخبارات والذي أصبح فيما بعد الحاكم العام في الحكومة الثنائية البريطانية في الفترة ما بين: (1899- 1916م). ورسائله الرسمية والشخصية توجد في ملفات. أما المذكرات اليومية فتوجد في مجلدات. بيد أن الأوراق عموماً تحتاج إلي تنظيم شأنها شأن أوراق كل من سلاطين وما كمايكل الآتيتين.

د- **أوراق سلاطين باشا (ZY):** مفتش عموم السودان (1900-1914م): تشمل مذكرات سلاطين باشا (رودلف كارل النمساوي والذي شغل وظيفة المفتش العام في فترة الحكم الثنائي البريطاني بالبلاد مكافأة له علي مساعدته الإستخباراتية وكتابه السيف والنار الذي ملأه بالأكاذيب والأباطيل عن الدولة المهدوية) ورسائله الشخصية والرسمية.

هـــ- أوراق. هـــ. أ. ما كمايكل (RB): نعنـــي بهـــا الأوراق التـــي تخـص رجـل المخابرات الثنائي البريطاني هارولد ما كمايكل و الذي أصبح السكرتير الإداري في فترة الثلاثينيات من القرن الماضي. وهو الذي أصدر قانون المناطق المقفولة في السودان، الذي تسبب في تفجير قضية الفصل بين الجنوب والشمال لفترة من الزمن وفق إستراتيجية بريطانية بعيدة النظر. كانت من أهم ثمارهـــا وآثارهـــا مشكلة الجنوب الحالية بكل أبعادها وإفرازاتها وثمارها المرة. وهـــو أحـــد رواد دراسة تاريخ العرب في السودان بمنظور خاص، والذي يعتبره الـــبعض نتيجـــة غفلة وغباء مصدراً هاماً. وأوراقه تشمل يومياته ومذكراته ورســـائله بنوعيهـــا الشخصي والرسمي.

و- وثائق مجلس الوزراء (DC): هي عبارة عن الرسائل الرسمية التي تشمل برقيات ومراسيم ومكاتبات مجلس الوزراء المصري وقراراته وتوصياته. وهي في ملفات منظمة حسب ترتيب تاريخي دقيق.

ز- المصادر الأولية: كتب:

1- **عـــربية :** نعني بها ما كتبه الرحالة العرب في القرن السابع الهجري وما بعده عن دار فور. وتشمل كذلك جل ما كتبه عرب معاصرون مثل كتـــاب محمـــد عمـــر التونسي: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد السودان، وما كتبه رجل الاستخبارات اللبناني نعوم بك شقير وما كتبه زميله المصري إبراهيم فوزي اللذان كانا يعمـــلان فـــي جهاز المخابرات المصري الإنجليزي. الأمر الذي يقتضي قدراً من الحذر والدقـــة في التحليل لدي التناول لما أوردته هذه المجموعة من الكتـــاب مـــن معلومـــات تاريخية معاصرة. وذلك لتوفر الغرض الذي ينافي الحيـــدة التاريخيـــة والتحليـــل الموضوعي. وإن كان للأسف قد انخدع الرعيل الأول من المؤرخين الســـودانيين بكتابات هذه المجموعة، فريق منهم فعل ذلك عن قصد والبعض الآخر عن غفلـــة وبعض عن عمالة لأنه رضع من ثدي هؤلاء وأولئك الخبثاء ،أو نتيجـــة ميـــول فكرية مريضة من بقايا وبغايا اليسار التي أصبحت بعد سقوط الإتحاد الســـوفياتي

من أخطر عملاء الولايات المتحدة والغرب في السودان وفي العالم من غيرهم مما أسقط عن سواءآتهم القبيحة ورقة التوت .

2- **أجنبيـــــة:** وهي عبارة عن كتب كتبها إداريون وبـــاحثون أوربيـــون ورجـــالات استخبارات. تناولت تاريخ دارفور في فترة معاصرة وسابقة من هؤلاء ما كمايكل وسلاطين وتشرشل وونجت وكتشنر.

ط- الدراسات الحديثة: رواد البحث عن دارفور: يمكن القول أن الدراسة الحديثة عن دارفور قد استهلها نفر من الباحثين المؤرخين في النصـــف الأول مـــن القـــرن الماضي في عدة بحوث قاموا بنشرها في مجلة السودان في رســـائل ومـــدونات. نخص بالذكر منهم أ. ج. آركل الذي اعتمد في دراسته الآثار أكثر مـــن الروايـــة وجل كتاباته عن تاريخ دار فور القديم. وهي كتابات لا تخلو من ســـم أوروبـــي وغرض سياسي وبعد ديني علي وجه العموم :

و ج. د. "لامبين" "وبوستد" (وصموئيل عطية) الذين اعتمدوا الرواية في كتابـــاتهم عن فترة السلطان علي دينار وما قبله بقليل ويعتبر هؤلاء رواداً في هذا المجـــال. بيد أن أبحاثهم لا تخلو من غرض، وبالتالي فان المؤرخ النابه ينبغـــي أن يكـــون حذراً لدي مطالعته لكتابات هذا الرعيل من المؤرخين الفرنجة ومن لف لفهم وسار علي نهجهم.

المؤرخون المحدثون: منذ مطلع الستينات ظهرت دراسات حديثة عـــن تـــاريخ دارفور اعتمدت الوثائق والمادة الأرشيفية علي وجه العموم مصدراً أولياً لهـــا. وقـــد جاءت في شكل بحوث علمية ذات منهج ودراسة واضحة مثل أطروحـــة الـــدكتوراة للإنجليزي:

أ- **أ. ب. ثيـــــوبولد** : كتب رسالة دكتوراة قدمها لجامعة لندن تحت عنوان علـــي دينار آخر سلاطين دارفور (1898- 1916م). "ALI DINAR THE LAST SULTAN OF DARFUR 1898 -1916"

أورد فيه سيرة ذاتية للسلطان علي دينار. هذا بعد مسح جغرافي وسـكاني لـدار فور. وتعرض في هذا البحث للعلاقات الفوراوية الثنائية والمشاكل التي أثـرت علـي طبيعة هذه العلاقة. لاسيما مشاكل قبائل الحدود مع الحكومة الثنائية، وجبهـة الحـدود الفوراوية الوداوية أثناء الاحتلال الفرنسي. وقد استفدت من دراسته كثيراً فـي البـاب الأول والثالث والخامس من هذا الكتاب الذي بين أيدينا. وان كان لديه تعميمات وأحكام لا تمت بصلة للحيدة العلمية حيث يصف بعض القبائل علي وجه العمـوم بالغبـاء ولا يخفي أن التعميم بهذه الكيفية ينافي المنهج العلمي.

ب- **موسى المبارك**: وكتابه: تاريخ دارفور السياسي (1882- 1898م). اعتمد فيـه مؤلفه علي وثائق المهدية والمخابرات وغيرها. وركز فيه علي تاريخ دارفور في الحقبة المهدوية. وكتابه عبارة عن رسالة ماجستير قدمها لجامعة الخرطوم – كلية الآداب عام 1964م. وقد استفدت منه أيضاً بحسبانه دارساً لوثائق شبيهة وبعضها مطابق لما اعتمد عليه المؤلف. ويلاحظ أن موسى وثيوبولد كتبا بحثيهما في فترة متزامنة، لذا لم يستفيدا من بعضهما البعض الآخر.

ج- **يونان لبيب رزق**: وكتابه: السودان فـي عهـد الحكـم الثنـائي الأول (1898- 1924م). وقد إعتمد أيضاً وثائق المخابرات والتقارير ووثائق المهدية إلى غيـر ذلك من المادة الأرشيفية التي إعتمدها سابقاه. بيد أنه أتخذ منحى يختلف عنهما إذ يدور بحثه حول الإدارة الثنائية بدءاً بالحملة المصرية الإنجليزية (1897م) وانتهاء بثورة 1924م. وقد أفرد في بحثه الفصل السابع لعلاقة علي دينار بالحكم الثنـائي البريطاني. وقد استفدت منه في تأليف هذا الكتاب. وكتابه عبـارة عـن رسـالة دكتوراة قدمها لجامعة القاهرة فرع الخرطوم 1976م. وقد تمت طباعته كسابقيه.

ي- **كتابات عامة : أجنبية** : اعني بها الكتابات التي تتناول تاريخ السـودان عمومـاً وهي كثيرة استفاد الباحث مما له صلة بفترة دراسته علـي الصـعيد الثنـائي أو الفوراوي.

4- رحلات علمية:

في سبيل الحصول علي ما سبق ذكره من مادة ومعلومات قام المؤلف بــرحلات علمية **أولاها:** إلي القاهرة للإطلاع علي الوثائق ذات الصلة بموضوع الكتاب فــي دار الوثائق القومية بالقلعة. وكلية الآداب بجامعة عين شمس. وقد تم العثور علي وثائق لا بأس بها قد تضمنها البحث.

ثانيها: قام الكاتب برحلة علمية إلى بريطانيا زار فيها المتحف البريطاني ومكتبة جامعة لندن، قام خلالها بجمع ما توفر من معلومات. وبعدها قام بزيارة لجامعة (درم) شمال بريطانيا للإطلاع علي قدر هائل من الوثائق ذات الصلة الوثيقة بتاريخ السودان عموماً وتاريخ دارفور علي وجه الخصوص. وهي مودعة بمكتبة مدرسة الدراســات الشرقية (بدرم).

د. سيد أحمد علي العقيد
عميد مكتبات جامعة النيلين
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
الخرطوم – 2005م

البـاب الأول

تاريـــخ دارفور السِياسي إلي عام 1898م

الفصل الأول: جغرافية دارفـــور

أ- التضاريسّ والمناخ

ب- التكوين السكاني والنشاط الزراعي والعمراني

الفصل الثاني: السلطنة والنظام السياسي

الفصـل الثالـث: علـي دينـار وحلـم اسـتعادة السلطنة و دوره في الحركة الوطنية

الفصـــل الأول

جغـــرافية دارفـــور

تمهـــيد :

جغـــرافية دارفـــور :

أ - التضاريس والمناخ:

منطقة دارفور تعني بلاد الفور. والفور هو اسم القبيلة التي تقيم في هذا الإقليم[1]، وحدها من جهة الشرق أقصى الطويشة. ومن الغرب آخر دار المســاليت (وأول دار تاما وهو الخراب الكائن بينها وبين دار فرتيت ومن الشــمال المــزروب وهــو أول بئر يتعرض لمن يتوجه إليها من الديار المصرية)[2]. وتحد دارفور بخطــي العــرض 16° - 10° من الشمال إلى الجنوب، وهي مساحة كبيرة بكل المقاييس، كما تحد بخطي الطول 27.30 - 22° وغربا. وتشكل دارفور الحدود الدولية للسودان المعاصر الحالي مع كل من ليبيا وجمهوريتي تشاد وأفريقيا الوسطي. وشمالاً تجاور الولاية الشــمالية حالياً، وشرقاً تحدها ولايتي كردفان. وجنوباً ولايتي بحر الغــزال. وتمثــل دار فــور 20% من مساحة السودان الحالية[3]. وهذا مما يعطيها بعداً جغرافياً سياســياً جديــداً، ولهذا السبب ولغيره تبدو أهميتها الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية. ومــن خــلال إشارة التونسي يلحظ المرء الفرق الواضح بين دار فور الحالية والسابقة. وفــي عهــد

---

(1) Rex. Sean Ofahey- : the Growth and Development of the Kiera Sultanate (without date) Typescript, pp. 15, 16.

(2) محمد بن عمر بن سليمان التونسي: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان - تحقيــق خليــل محمــود عســاكر، مصطفى محمد مسعد مصر/ القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة 1965م ص 1360 .

(3) A.B. Theobald: Ali Dinar the Last Sultan of Darfur (1898-1916) First ed. Bristol Western Printing Service Ltd. (1965) p. 1.

الإنقاذ أيضا، ولذا تسهيلاً علي الباحث تم التعريف لحدود دارفور بالولايات الحالية وفق التقسيم الإنقاذي الراهن. ولا ندري ما تغيبه أهواء الساسة غداً.

تنقسم دارفور من الناحية الجغرافية إلى ثلاث مناطق ذات خصائص طبيعية متميزة:

أ- شمال دارفور:

هو عبارة عن منطقة شبه صحراوية تحد بالصحراء الكبرى شمالاً وتقع بين خطي العرض 14:30 – 16 شمالاً وأمطارها اقل من 10. وهذه المنطقة تتعذر فيها الزراعة المتوسطة ولكن بها حشائش وشجيرات تصلح للرعي. ويرفدها كل من وادي أزوم وبارى بالمياه في فصل الجفاف. وتسمي هذه المنطقة بالجيزو.[4] وبها جبل الميدوب وعدد من الجبال البركانية والسهول.

ب- وسط دارفور:

هو الإقليم الذي ينحصر بين خطي العرض 14:20 – 12 شمالاً ومتوسط الأمطار في هذا الإقليم 30 في السنة وتكثر به الشجيرات والأعشاب ويتوسط هذا الجزء جبل مرة الذي يعتبر أحد جنان السودان الفاتنة ومناطقه الساحرة لو صدقت العزائم وخلصت النوايا من أدران السياسة النتنة والتفت إليها المتسيسون ومنافقوهم بجد وعزم لأضحت تلك المنطقة منتجعاً سياحياً جاذباً، ولوفر ذلك للبلد عملات صعبة تساعد في عملية البناء الاجتماعي والعمراني. وتمتاز هذه المنطقة دون بقية دارفور بالارتفاع ووفرة المياه والحدائق الغناء والخضرة البهيجة. وفي الصيف يعتمد الأهالي علي أشجار التبلدي والحفائر والبطيخ. ولعل وجود وديان غنية بالمياه غرب جبل مرة شجعت علي إقامة قرى مستقرة علي ضفاف كل من وادي أزوم وبارى. وفي هذه المناطق يمكن حصول المياه علي عمق ثلاثة أقدام في حالة جفاف هذه الأودية[5]. مما يؤكد علي أن هذه المنطقة ذات مستقبل واعد إذا خلصت النوايا وشمر القوم في دارفور

(4) ibid

(5) موسي المبارك مصدر سبق ذكره، ص 17. أنظر ايضاً:

A.B. Theobald: op. cit. pp.

G.D. Lampen: History of Darfur, S.N.R. Vol 31 (1950) p. 177.

عن سواعد الجد والاجتهاد بدلاً عن المشاكسات السياسية التي لا تعمل علي تقدم البلاد والعباد. ولو حدث ذلك لجنبت البلاد شر التدخل الأجنبي ومكايدات تجار السياسة فـي الداخل والخارج. والساسة المتورطون في هذه الأحداث سواء أشعروا أم لم يشـعروا فهم أدوات ليس إلا، أما لقوي أجنبية أو لصالح تصفية حسابات داخلية لا تصـب فـي مصلحة السودان الوطن الأم أو دارفور علي وجه الخصوص . وأن ما يشـعلوها الآن من حرب ستقضي علي الأخضر واليابس وإن آثارها المدمرة ستتجاوز دارفور إلـي كل مناطق السودان دون تمييز، وقد أدت هذه السلوكيات الغبية بسرعة جنونيـة إلـي تدويل القضية دون مبرر اللهم إلا تحقيق مآرب رخيصة مقارنة بما تخسره البلاد مـن مدر وبشر ووقت وجهد ومال كان الأحري أن يصرف في التنمية وفي مجالات رفـع كفاءة المواطن الدارفوري.

ج- القطاع الجنوبي:

يحد هذا القطاع بخطي العرض 12° – 10° شمالاً وبالقوز وجبل مرة. وجنوباً يحد ببحر العرب ومناطق ذبابة التسي تسي، أمطاره منـا بـين 25- 35. وهـو مـوطن أصحاب المواشي والأبقار وأهم الأودية هنا وادي بلبل، إذ يذهب الرعاة إلى ضـفافه صيفاً للزراعة.[6]

وقد تمتعت دارفور بحدود طبيعية فريدة شمالاً وشرقاً وجنوباً. أمـا مـن ناحيـة الغرب فلا يوجد اختلاف مناخي أو نباتي أو تضاريسي. لذا نجد إن الحدود قد قررتها الأحداث السياسية أكثر منها العوامل الطبيعية[7]. وبالتالي كانت ولا تزال هذه الحـدود سبباً في كثير من المنازعات الإقليمية والمحلية علي حد سواء.

ورغماً عن هذه الحواجز الطبيعية فقد أصبحت دارفور في بداية القـرن التاسـع الميلادي بمثابة شبكة تخرج منها عدة طرق تجارية أطلت من خلالها دار فور علـي

[6] موسي المبارك مصدر سبق ذكره ص 20 أنظر أيضاً:
G.D. Lampen: (op. cit. pp). 177-8; Theobald: op. cit. p.2.

[7] موسي المبارك ص20 .
See also. Lampen: Op. cit. pp. 177-8; Theobald: op. cit. p2.

الخارج. ووفدت إليها عن طريقها الآثار الفكرية والحضارية إلي دارفور أولاً ومن ثم إلي السودان. فعن طريق الأربعين الذين يمتد من كوبي[8] إلى أسيوط في جنوب مصر، استوردت دارفور الأقمشة والملابس والأسلحة والقهوة من خارج الحدود، وصدرت السن وقرن وحيد القرن والصمغ والريش[9]. وعن طريق طرابلس - بنغازي - الكفرة - دارفور كان التبادل التجاري والثقافي مع ليبيا في الشمال أيضاً.[10] أما الطريق الثالث الذي يتجه من دار فور إلى وادي بورنو، فقد ظل يشكل الحزام السوداني غرباً وشرقاً إذ يتجه شرقاً إلي كردفان ومن ثم الي البحر الأحمر ثم الجزيرة العربية، وكان هذا الطريق يمثل معبراً تجارياً وثقافياً وفكرياً هاماً وخطيراً في ذات الوقت بين دارفور والحجاز. فعن طريقه وفد المذهب المالكي والأشراف الحجازيون والأثر الحجازي إلى دارفور، ومن جانبها رفدت دارفور الحجاز اقتصادياً مدة خمسة قرون من الزمان.[11] ومن ثم انتقلت هذه الآثار الحضارية إلى السودان عموماً مما يفسر مدي الأثر الثقافي والإجتماعي والروابط الروحية العميقة بين دارفور وبلاد الحرمين منذ أزمان بعيدة موغلة في القدم، والتي سبق وان أكدنا عليها في كتابنا العلاقات المكية السودانية عبر التاريخ الذي نشرته الدار العربية بالقاهرة 2005م وفي البحث الذي نشر ضمن إصدارات الندوة العلمية الكبري لمكة عاصمة الثقافة الإسلامية.

وبالإضافة إلي ذلك هناك عدة طرق أخري تمتد من دارفور إلى صوماليا وإثيوبيا فحوض النيل الأوسط. وبعض منها يتجه نحو هضبة البحيرات ثم شمالاً عبر بحر الغزال إلى دارفور. ونتج عن ذلك المنفذ تواصل ثقافي وعرقي عميق الجذور بين دار فور وجنوب السودان الذي حاولت فيما مضي وتحاول القوي الأجنبية أن تمزق أوصاله الآن. ولقد تجلي هذا التواصل العرقي في أبهي صوره في أم السلطان الفوراوي محمد الفضل ابن السلطان عبد الرحمن الرشيد (أم بوسة) البيقوية الجنوبية

(8) عاصمة الفور التجارية القديمة.
(9) G.D. Lampen op. cit. 177-8; Theobald'op. cit. pp. 1-2; R.S.O Fahey: op. cit pp. 219 .
(10) G.D. Lampen op. cit. 177-8; Theobald op. cit. pp. 1-2; R.S.O Fahey: op. cit pp. 219 .
(11) R. S. O Fahey: op. cit. pp. 219. ..

التي تعتبر الجدة الرابعة لعبد الرحمن المهدي. وهناك طرق أخري تربط بين الكونغــو ودار فور. وعلي هذا النحو من تجمعات الطرق التجارية ونجاح المسلمين في ممارسة التجارة تكونت لهم رباطات ذات دور هام في المراكز المتعددة في هــذه المنــاطق، الأمر الذي أدى بمرور الوقت إلى إسلام هذه البلاد في فترة مبكرة بسلام وهــدوء[12]. ودون حساسية عرقية أو احتكاك أو صراع ديني، الأمر الذي اقتضي وجــوداً مبكــراً للعنصر العربي والإسلامي بدارفور. والذي يمكن أن يدحض كل المحاولات الخارجية الحالية في دار فور لفصم عراها وإجبارها علي نزع جلدها وإغراقهــا فــي مســتنقع العرقية الآسنة الكريهة.

ونتيجة لاتساع دارفور وتنوع مناخها فقد لعبت دور الوسيط التجاري لعدة قرون وحتى نهاية القرن التاسع عشــر بــين دول المحــيط الأطلســي والبحــر الأبــيض المتوسط[13]. مما يعني أنها كانت منطقة محوريــة اقتصــادياً وسياســياً وإجتماعيــاً وأضحت منطقة مفصلية في ذات الوقت. وهي ستظل كذلك رغماً عن سحابة الصيف الحالية وإفرازات السياسة النتنة الراهنة.

ومن حيث التضاريس يلاحظ أن الفاشر وكتم تفوقان أركويت إرتفاعاً. وتصلحان لأن تشكلا منطقة سياحية أخري جاذبة في دارفور لو أحسن القائمون التدبير، وأحسن الساسة التفكير. لا سيما إذا ما توفرت دراسة جدوي وعبدت الطــرق، وتمــت إدارة اللعبة السياسية وفق معايير أخلاقية بعيداً عن المزايدات وحب الذات. أما مــن حيــث الأمطار فثلثا دارفور لايستطاع الاستفادة منهما في الزراعة لندرة الأمطار فيهما. أمــا الثلث الباقي من دارفور تبلغ أمطاره 800 ملم[14]. وهناك العديد من الأودية التي لعبت دوراً في الإستقرار وتيسير سبل العيش في زمان الجفاف[15]. وبهذا فقــد تضــافرت عوامل جغرافية عديدة مكنت دارفور **من أداء دورها التاريخي الحافل منها:**

(12) لشاطر بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط/ مصر/ القاهرة/ الهيئــة المصــرية للكتــاب القاهرة 1972م. ص 382 – 383.

(13) صلاح الدين محمد كر دوس، مصدر سبق ذكره، ص 9.

(14) مذكرة أبو سن عن دارفور، مصدر سبق ذكره، ص 14 – 15 D.S.A. Box /79.

(15) موسى المبارك، مصدر سبق ذكره، ص18.

أولاً: توفر المياه:

فقد أدى وجود كتلة جبل مرة إلى وفرة الأمطار بكثافة في بعض المناطق التي شكلت محور الحركة والسكون والصراع. وقامت الأودية بحمل مياه الأمطار غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالاً، ومن جانب آخر فقد أدى توفر الماء الباطني قريباً من سطح الأرض إلى استقرار مجتمع الفور الزراعي.

ثانياً: التنوع في الإنتاج:

فهناك محاصيل مطرية مثل الدخن والذرة الرفيعة والسمسم والشطة والبامية والقطن. وهناك محاصيل تزرع في فصل الجفاف بالإضافة إلى الإنتاج الحيواني الرعوي الأمر الذي يضمن نشاط الأسواق وحيويتها طوال العام دون انقطاع.

ثالثاً: حصانة موقعها الطبيعي:

إذ تحميها تلال الفور الشرقية من الغزو. ومن الشمال تحميها الصحراء الكبرى بيد أنها لم تحل دون اتصالها بجيرانها عن طريق الأربعين وسواه من الطرق العديدة التي تمت الإشارة إليها في ثنايا هذا الكتاب.

رابعاً: الموقع الجغرافي:

الممتاز لدارفور حيث تمتد من منطقة الغابات المدارية حتى حدود الصحراء الكبرى مما يقتضي ضرورة مرور تجارة أفريقيا المدارية بدار فور قبل أن تصل طرابلس أو القاهرة[16]. وهذه في حد ذاتها ميزة اقتصادية واجتماعية وثقافية هامة.

ب- التكوين السكاني والنشاط الزراعي والعمراني:

يشكل الفور أكبر مجموعة مستقرة في غرب دارفور. ويطلق اسم الفور على سكان دارفور الأصليين تمييزاً لهم عن الوافدين عليها، هذا باستثناء أسرة الكيرا المالكة التي اختلطت ابتداءً بدماء عربية[17]. ولقد تعددت الآراء حول أصل الفور لانعدام

---

(16) صلاح الدين محمد كر دوس، مصدر سبق ذكره، ص 5 – 7 .

(17) موسى المبارك، مصدر سبق ذكره، ص18 أنظر أيضاً:

المصـادر الأولية المكتوبة عنهم أولديهم. وكل ما جاء حول أصلهم لا يعدو عن كونـــه رواية مشوبة بقدر كبير من الأسطورة. ولقد حاول أحد الدارسين للآثار أن يســتخلص من أوجه الشبه والاختلاف بين الرواية والنذر اليسير من الأثر الذي عثــر عليـــه أن الفور ذوو أصول زنجية وينتمون إلي فيرات وهو أخ لفر. وكانوا في يوم من الأيـــام ذوي السيادة علي هذه المناطق. ويورد (آركل) تفسيراً آخر لكلمة فور بأنهم أبناء (فر) بينما ينتمي الفرتيت إلى (فيرات، وفر). وفر وفيرات أخوان، وتعني لفظـــة الفرتيـت الوثني. والفور إسم يميز المسلمين عن غيرهم من الوثنيين وهي لفظـــة أو مصـــطلح تعني أتباع[18].

والفور كما يذكر (ثيوبولد)[19] فيما يبدو أنهم خليط من السلالات الحامية والزنجية ولكن الذى يبدو لى انهم خليط من ثلاث سلالات هى الحامية والزنجية والسامية. وهم يعيشون علي امتداد السلسلة المعروفة بسلسلة جبل مرة. ورغماً عن الغمـــوض الـــذي اكتنف أصل الفور ولغتهم . وبالرغم من أن تاريخهم القديم لا يعدو عن كونه ضـــرباً من الأساطير، إلا أن رواياتهم قد اتفقت علي تعاقب ثلاث عوائل علي الحكـــم وهـــي: الداجو والطنجور والكيرا الفور. ولهذه الروايات ما يعضدها من الآثـــار. حيـــث قـــام هــ.ج (بأول)[20] بأول دراسة موضوعية عميقة توصل فيها إلي خمسة نتـــائج متفـــق عليها . **أولها:** افتراض أن الداجو سلالة سودانية تدين بالسيادة والسيطرة لجنس مهاجر دون تحديد لهوية ذلك الجنس. **ثانيها** : أن الداجو كانوا يحكمون في النصف الجنوبي من المنطقة المقصودة بالدراسة. والطنجور قد تألق نجمهم في النصف الشمالي. والكيرا برز وجودهم في الجزء الأوسط من دارفور. **ثالثها:** أن الأسر الثلاث خلفت بعضـــها دون إراقة دماء، بمعنيً آخر أنها قد تداولت السلطة سلمياً ودون إراقة دماء مما يعني أنها كانت تتمتع بوعي سياسي مقدر. **رابعها:** ثلاثتهم كان نظـــامهم أو توقراطيـــاً أي

H.A. MacMicheal: A History of the Arabs in the Sudan, and some account of the People who preceded them and of the tribes inhibiting Darfur, 2Vols. Cambridge 1922. vol. 1 P..99.

(18) موسى المبارك، مصدر سبق ذكره، ص18 . أنظر ايضاً:

A.J. Arkell: The History of Darfur. A.D. 1200-1700 S.N.R. vol. 33 (1952) P.152--4,182.

(19) A. B. Theobald, op. cit. PP.5.

(20) D.S.A .box 110/6 ,H.A : MacMicheal: notes on Darfur tribes. Khartoum. 191.5.(Typescript). P. 58-59.

فردياً استبدادياً. خامساً: بالرغم من أن الدين الإسلامي قد أصبح دين القصر خلال حكم الطنجور إلا أنه لم ينل قدراً من الانتشار الواسع والهيمنة التامة، ربما يعود ذلك لغياب المؤسسات الدعوية والتربوية الفاعلة. ولما تقرر أن الداجو والطنجور والكنجارا من أوائل الأجناس التي استوطنت هذا الإقليم وبسطت سلطانها السياسي عليه اقتضى ذلك تناولهم تفصيلاً بالدراسة.

1- الداجـــو:

لفظة الداجو من الكلمات التي أصابها التحريف كثيراً في كتابات المؤرخين والرحالة المسلمين وغيرهم ولم تخل كتابات الأوائل من الإشارة إلى بلاد الداجو باسم التاجو. ومما لا شك فيه ومما لا يختلف فيه اثنان أو يتناطح فيه قرنان فان قلب التاء دالاً والدال تاء أمر مألوف في اللهجات العربية علي اتساع نطاقها وفي لغة العرب الأم علي وجه الخصوص. لا سيما في حالة اتحاد المخرج في تقدير الكاتب. أما عن موطنهم يحدد الإدريسي موطن التاجويين بقوله: (ومن مدينة مانان إلى مدينة تاجوه ثلاث عشرة مرحلة (والمرحلة هي عشرون ميلاً) وهي قاعدة بلاد التاجويين. وهم مجوس لا يعتقدون شيئاً وأرضهم متصلة بأرض النوبة. ومن بلادهم سمنة.. وهي الآن خراب. ومن مدينة تاجوه إليها ست مراحل ومن مدينة نوايه ثمان عشرة مرحلة[21].

ويعرض ابن سعيد لموطنهم بقوله: "ومجالات التاجويين والزغاوين ممتدة في المسافة التي بين قوس النيل من الجنوب إلى الشمال وهم جنس واحد" [22]. وينقل ابن سعيد عن ابن فاطمة قوله: (إن الملوك من الكانم وتاجوه إنما هربوا بقواعدهم من النيل بسبب البعوض، فانه يكثر من مجاورة النيل – يقصد نهر النيل الحالي – فيشتد أذاه علي الآدميين والخيل) .[23]

---

[21] عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي ت 560هـ: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جزين، إيطاليا، نابولي، تحرير ونشر أ. كوريللي وآخرين معهد الدراسات الشرقية طبعة نابولي 1970 - 1971. جـ1، ص29 - 30.

[22] أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق وتقديم إسماعيل العربي. لبنان/ بيروت/ المكتب التجاري/ ا الطبعة الأولى، 1970م، ص 94-95، 97.

[23] المرجع نفسه.

هذه الإشارات في مجملها لا تبعد كثيراً عن بعضها الآخر، إذ تفيد أن الداجو قـد انتقلوا من بلاد النوبة، من منطقة شمال السودان، الأمر الذي يؤكـد علـي رباطهم العرقي بسكان شمال السودان. وبعبارة أدق فهم من شمال السودان الحـالي بتاريخه وتكوينه الديموغرافي المعروف وخلطاته العرقية المعروفـة، حيث أن سمنه اسم معروف في بلاد النوبة في شمال السودان في منطقة المحس. والأسباب التي قادها ابن فاطمة تبدو معقولة من الناحية المنطقية. إذ أن الهجرات خلال هذه الـديار لا تستبعد لتجاورها وقربها من بعضها. وأن سكناهم جوار النوبة أمر له مدلوله الاثني والعرقي وبعده التاريخي والحضاري. اذن يمكن أن نقول وباطمئنان شديد أن الـداجو وافـدون علي دارفور من شمال السودان الحالي وهم أبناء عمومة وخؤولة الدناقلـة والمحـس والحلفاويين الحاليين علي حسب ما أورد (ابن فاطمة) الذي نقل عنـه (ابـن سـعيد). ويذكر ابن سعيد أن مملكة الكانم كانت قاعدتها مدينة جيمي. وكانـت الكـانم مملكـة إسلامية اشتهر سلطانها (بالجهاد وأفعال الخير وهو محمدي من ولـد سـيف بـن ذي يزن ... أسلم منهم جده الرابع علي يد فقهاء الإسلام في بلد الكانم ولهذا السلطان هنالك ممالك مثل سلطنة تجوه ومملكة كوارو ومملكة فزان)[24]. ولا شك أن النسبة إلي سيف بن ذي يزن ذات دلالة تاريخية تشير إلي أن وجوداً عربياً سابقاً للإسلام بهذه المناطق. وتقع الكانم وفقاً للوحدات السياسية القائمة الآن ضمن دولة تشاد الحالية، الأمر الـذي يعطي العلاقة السودانية التشادية بعداً تاريخياً جديداً. إن هذه الإشارات مما لاشك فيـه ذات دلالة موضوعية وتاريخية وحضارية وعرقية تحتاج إلي قدر من البحث والتحليل والعمق في التناول. ويمكن أن ندرك من خلال مفردات هذه الإشارات مدى التـرابط بين دارفور وشمال السودان، وبين دارفور وجنوب ووسط الجزيرة العربيـة، وبـين دارفور وغرب أفريقيا، أو السودان الغربي كما كان يسمى سابقاً.

هذه خلاصة ما أورده الأقدمون بالإضافة إلى إشارات وشذرات آخر وردت فـي صبح الأعشى[25] وتاريخ ابن خلدون[26] تفيد أسلمة هذه البلاد منذ فترة مبكـرة مـن

(24) ابن سعيد المغربي مصدر سبق ذكره، ص97.

(25) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء – 14 جزء، المؤسسة المصرية العامة للتـأليف والترجمة والنشر – القارة 1963م، جـ5، ص280 – 281.

(26) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (808هـ) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر – 7 أجزاء – دار الطباعـة الخديويـة ببولاق القاهرة، 1284هـ، جـ5، ص 433.

الزمان، لاسيما بلاد الكانم والتكرور التي دخلت الإسلام منذ فترة متقدمة. كما تؤكد علي أن المذهب المالكي قد غزا بلاد الكانم منذ فترة مبكرة. الأمر الذي يدل علي الصلة التاريخية والتبادل الثقافي والحضاري بين بلاد الكانم وغانة الوسيطة وبلاد التاجو منذ فترة طويلة. أما من حيث المادة الأثرية فان المادة الموجودة عن الداجو تعتبر ضئيلة وهي تتمثل في المباني الحجرية في جبل مرة وأكوام قليلة من المقابر مبعثرة هنا وهناك. هذا بالإضافة إلي مدينة الحجر التي توجد في جبل سيميات الذي يقع علي بعد عشرين ميلاً شرق الفاشر الحالية. وتدعى البقية الباقية من الداجو نسبة عربية، ويذكرون بأنهم قد قدموا من الشرق ولا يستبعد ذلك الادعاء إذا أخذنا في الاعتبار ما سبقت الإشارة إليه من أنهم قد هاجروا من شمال السودان كما ذكر ابن فاطمة ونقل عنه ابن سعيد. وسكان شمال السودان هم خلطة عربية حامية. وان كانت تقاليد الداجو في الظاهر لا تمت إلى العرب بصلة ألا أنه لا مشاحة في هجرتهم وقدومهم من الشرق كما تقدم.[27] وفي تقدير الباحث لا تعتبر هذه حجة داحضة إذ لا تشكل دفعا قوياً في نفي نسبتهم العربية لأن مسألة التبني للغة وعادات وتقاليد المنطقة له شواهد في السودان. كما هو الحال بالنسبة للكنوز في الشمال والبجة في شرق السودان. إذ ربما وفد الداجو بعاداتهم العربية ولكن بكثرة الاختلاط وطول المعاشرة تبنوا عادات أهل البلاد الأصليين. وعلي وجه العموم فهناك عدة نظريات تقول: إحداها: بان الداجو هم سكان دارفور الأصليين. وتذهب ثانية: إلى أنهم هاجروا من شمال أفريقيا. وتقرر ثالثة: إن هجرتهم كانت من النيل واستوطنوا بدار فور حيث أسسوا ملكهم[28]. والخلاصة أنهم قبيلة زنجية حامية سامية. ولا يستبعد وجود دماء سامية أي عربية تجري في عروقهم، ويعيش جزء غير يسير منهم في نيالا. ويشتغلون بالزراعة ويربون الأبقار. وجزء آخر منهم يعيش في دار سلا وفي الجنوب لدار مساليت[29]. ولقد عمرت دولة الداجو ما بين القرن الرابع والسابع الميلادي[30].

---

(27) Gustav Nachtigal: Sahara and Sudán (Voyage 1824) trans, by A.G. &H. Fisher : 4. Vols. London (1971) Val 2. P .272-274 .

(28) موسى المبارك، مصدر سبق ذكره، ص24.

(29) A.B. Theobald. op. cit. PP.7.

2- الطنجـــور:

تضاربت الآراء وتعددت حول أصل الطنجور وأن كانوا يدعون كسابقيهم نســبة عربية، وأنهم قدموا من تونس. ويذكر (ناكتيجال) حين مروره بكانم تواجد عدد كبيــر من الطنجور بتلك المنطقة، هذا بالإضافة الي أنه قد وجد هناك منطقة تسمى تــونس. ومما لا شك فيه إن هذه الإشارة لها دلالتها التاريخية والمنطقية والتحليلية. وكما هــو معلوم أن القبائل أثناء تجوالها لا تنسى موطنها الأول وقد تسمى به مقامها الجديد[31]. ويبدو ذلك أكثر وضوحاً للمتأمل في المسميات التي عرفتها مناطق عدة في العاصــمة الخرطوم وضواحيها بعد الجفاف والتصحر في بــدايات ثمانينـــات القــرن الماضــي والهجرات القادمة من غرب السودان في أواخر عهد المشير جعفر نميــري الــرئيس الأسبق، من أمثال سوق: (كرور) وسوق: (خمسة دقائق) وسوق: (أم دفســو)، وهــي مسميات وافدة من غرب السودان مع من وفدوا. وكذلك أسماء الأشخاص في محاولـــة للارتباط بالأصل ولو عن طريق الأشواق الأمر الذي يدل علي الصلة بيــنهم وبــين الأصل. وهذا ما يمكن أن يقال عن الطنجور بان بينهم وبين تونس صلة. ويلاحظ أنهم يتمتعون خلاف رصفائهم برقي عقلي وذكاء يتمثل في استلامهم السلطة من أســلافهم بغير مقاومة، وعدم ذوبانهم في الشخصية الجاهلية الوثنية [32] السابقة لهم.وهذا في حد ذاته سلوك حضاي راق محمود وإرث سوداني ينبغي إبرازه.

ونسبة الطنجور العربية في تقديري لا تستبعد لاســيما وقــد أشــار عــدد مــن الباحثين[33] إلى الهجرات العربية المبكرة إلى هذه الديار – وقد سبقت الإشــارة إلــى ارتباط دارفور الوثيق بالعالم الخارجي بعدة طرق تجارية – ومــن هــؤلاء البــاحثين (بودج) الذي يقول ما ترجمته: (منذ القرن الثامن (الميلادي) من عصرنا لقد استوطنت

(30) موسى المبارك، مصدر سبق ذكره، ص26. أنظر أيضاً:

Gustav Nachtigal: op. cit. PP. 272-74.

(31) الشاطر بصيلي عبد الجليل، ص 383 أنظر أيضاً:

H.A. MacMicheal : op. cit. vol.1. PP. 274 -5 (Notes) op . cit. PP.1.

(32) Gostav Nachtigal: op. cit. PP.274.

(33) نفس المرجع السابق.

دارفور بعدد من القبائل، بعض منها عربي الأصول والبعض الآخر غير معروف الجذور، إلا أنهم علي أية حال لم يكونوا زنوجاً)[34] ويقرر (ناكتيجال) ما نصه: (لا أحد يستطيع أن يجزم متي جاء الطنجور إلى تلك المنطقة ولكن الذي لا يمكن الجدل حوله هو أنهم ادخلوا اللغة والعادات العربية في المنطقة)[35]. لعل هذه الإشارة أكثر إعراباً عن الحقيقة في هذا الموضوع، إضافة إلي إشارة ابن فاطمة وابن سعيد السابقتين إذ كلها تلقي الضوء وتزيح الستار وتزيل الغموض الذي اكتنف أصول الطنجور، فتجعل الباحث المدقق يطمئن إلي درجة كبيرة إلى عروبة أصلهم. لا سيما وأن الطنجور لا زالوا يوجدون في مجموعة ضئيلة وهم لا يتكلمون أي لغة أو لهجة أخرى غير اللغة العربية[36]. في تقدير الباحث أن هذه المفردات التاريخية الهامة يمكن أن تجتث أي دعوة عنصرية غايتها محاولة خلق فجوة عرقية في دارفور بين العرب والزنوج حيث يرجع الوجود العربي في دار فور بجذوره إلى أكثر من اثني عشر قرناً من الزمان.

وعموماً تكثر الآثار الطنجورية في دارفور. أهمها التي توجد في الشمال الشرقي من جبل مرة في كوستي ومدينة الحوائط الحجرية في أورى في أقصى الشمال. وهناك عدد من المباني في عين فارح أو عين فرح[37]. وعلي هذا التقرير يمكن القول بان الوجود العربي بدار فور سابق بكثير جداً لقيام السلطنة الفوراوية في القرن الخامس عشر الميلادي. مما يعطي الوجود العربي في دارفور بعداً وفهماً ونظراً جديداً، ينبغي أن تكون له نتائج ذات اثر فاعل فيما يدور الآن من أحداث في هذه المنطقة الحيوية والهامة في ذات الوقت بعيداً عن المزايدات السياسية الفارغة والتدخلات الإجنبية الفاجرة.

(34) E.A. Budge: Egyptian Sudan Its History & Monument. - First ED. Boston: Public Library New York (1976) Vol. 2. P. 23.
(35) ibid.
(36) Gostav Nachtigal: op. cit. PP.274-5.See also A.B. Theobald op. cit. pp.9.
(37) A.J. Arkell:. Op.. cit.. PP. 274-272 . See also A.B. Theobald. Op. PP. 15-18.

3- الكنجـارا:

تنقسم الكنجارا إلى خمسة أقسام :

أولاً: الكيرا : وخرج من هؤلاء الملوك والسلاطين، ويرجح أن جد الكيـرا هـو أحمد المعقور الهلالي الذي تزوج إحدى بنات الداجو وكان من أحفاده دالـي مؤسس عائلة الكيرا. وتنتشر الكيرا في كل من دارفور وكردفان علي حد سواء. ويرجع تاريخ هذه العائلة إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي. وشكلت حضـوراً سياسـياً واجتماعياً ودينياً وعرقياً وإقليمياً ومحلياً لمدة خمسـة قـرون مـن الزمـان فكانـت السلطنة التي وطدوا أركانها بؤرة وبوتقة انصهار عرقي منقطع النظير بـين عـرب وزنوج وحاميين وملتقي حضارات وثقافات وأعراق.

ثانياً: مورقينقا (Morginga)، وهؤلاء يقطنون ما بين جنوب وجنوب غرب جبل مرة. وهم أولياء ورثة المنطقة. وقد تفرعوا إلى عدة فروع اختلط جزء منهم بالتعايشة والآخر بالمسبعات ولهم اعتقادات في الأشجار والخرافات.

ثالثاً: أمنقا (Amunga)، أو أهالي دار أبو أمه حامل لقب ولي العهد. وهذا الفرع يتفرع بدوره إلى ثلاثة فروع ويقطنون غرب جنوب غرب الفاشر.

رابعاً: الموقانقا (Muganga) ويقطنون في داري كيرنو ودار فيا.

خامساً: كونيانقا ويقطنون دار التكنياوي التي تمتد من شمال الفاشر إلى منطقـة جبل مرة والتي يقطنها حالياً الزغاوة والبرقو والبرتي والعرب وهؤلاء يقومون بـدور الوزراء للسلطان[38] في تاريخ دارفور، ولعل هذا التجاور التاريخي والجغرافي ينفـي خبث الإثنية الجديدة التي أرادت أن تمزق أوصال أبناء العمومة وتذهب بريح وحـدة البلاد عموماً ودارفور خصوصاً إلي الفشل والتناحر بـدلاً عـن التواصـل والإخـاء والمودة.

---

[38] D.S.A. Box110/6. H.A. Macmicheal (Notes on History) op. cit. PP. 67-72.

ويقرر (ماكمايكل)[39] عروبة الكيرا وكذا ثيوبولد[40]. والكيرا يفتخرون بنسبتهم العربية. ويتجاهلون في الوقت ذاته أية صلة لهم بالعناصر الأخرى الزنجية[41]. ومما تجدر الإشارة إليه أن كل الفور مسلمون. وتنفرد كل قرية فوراوية في دارفور بمسجدها وأمامها وشيخها الذي يقوم بتدريس القرآن. وإن كان ذلك لا يعني إختفاء العادات الوثنية الموروثة قبل الإسلام في مجال إنزال الأمطار وتقليد السلاطين وبعض الأحكام.

هذه الإشارة تأتي أهميتها فيما يدور الآن من أحداث في دارفور حيث أن تمزيق دارفور يرمى إلى ضرب السودان التاريخ والثقافة والعروبة والقيم والإسلام في أهم مفاصله التاريخية والحضارية والثقافية والعرقية والاجتماعية.

ويربي الفور الأغنام والجمال، وتعتبر الجمال في دارفور مفخرة ومظهراً من مظاهر الغنى إضافة إلى ألبانها. والجدير بالذكر أن المرأة لدى الفور كانت ولا زالت تتمتع بمكانة اجتماعية هامة من حيث نشاطها العام ومشاركتها للرجل. وتشكل المرأة الفوراوية مفردة هامة وخطيرة في المجتمع الدارفوري. إذ تلعب دوراً هاماً في الحرب والسلم علي حد سواء. وتتمتع المراة في دارفور بملكية خاصة لقطعة من الأرض وان كانت أصغر نسبياً من الرجل. كما تتمتع بحرية اجتماعية تفوق رصيفاتها في بقية أجزاء السودان. وللمرأة في دارفور دور اقتصادي بارز أكثر من الرجل. فهي التي تزرع وهي التي تحصد، والرجل لا يفعل شيئاً يذكر بالقياس إلي إزاء ما تقوم به المرأة. ولعل ذلك هو الذي حدا بالكثير من أبناء الشمال الذهاب إلي دارفور ومصاهرة قبائلها والإقامة بين ظهرانيهم. لان الرجل بالنسبة للمرأة في دار فور هو سلطان وملك كما ذكر لي بعض الشماليين الذين استقروا بدارفور لأكثر من خمسين عاماً، حيث أكد لي بان الرجل لا يفعل شيئاً علي الإطلاق ويلقي من الإحترام من قبل المرأة مالا يلقاه سواه. فالمرأة هي التي تقوم بكل شيء في الداخل والخارج نيابة عن الرجل. ومعروف عن المرأة في دارفور بالإضافة إلي ما تقدم ذكره بحسن تبعلها لزوجها، وهذا ما أكدته

(39) المرجع نفسه.

(40) A.B. Theobald. op .cit. PP. 18-19.

(41) المرجع نفسه.

لى أحدى الميارم المسلاتية زوجة المرحوم أخ الدكتور حسن تاج الدين. ولذا نجد كـــل من ذهب من أبناء الشمال إلي دارفور لا يؤمل في رجوعه إلي أهله تارة أخري. لعل هذا القدر من الحرية الذي تتمتع به المرأة في دارفور قـــد يحتـــاج إلـــي قـــدر مـــن التأطير[42]. بيد أن أمر الرجل في دار فور في تقديري ونتيجة عدة دراسات يحتاج إلي عملية قيصرية ليملأ مقعده الحضاري ويمارس دوره الاقتصادي بفعالية لأن دارفـــور كنوز مطمورة وأنهر مغمورة وإمكانات فوق الأرض وتحت الأرض وعلـــي الأرض ضائعة. الأمر الذي قد يقتضي هزة ثقافية هائلة لكي ما يتمكن الرجل الدارفوري مـــن استثمار قدراته وإحتلال موقعه في البناء والتعمير والولاء لمنطقته وأهله وعشـــيرته. حيث نلاحظ أن كثيراً من المثقفين المنتمين لدارفور لا يولون المنطقة العناية اللازمـــة رغماً عن إحتلالهم لمناصب ووزارات متنفذة في ظل كل الحكومات التي تعاقبت علي السودان منذ الاستقلال إلي الآن. وإن كان البعض منهم قد تجاوز دارفـــور وارتـــبط بأجنبيات فانقطع عن أصله وأصبح بعيداً عن عشيرته. هذا بالرغم مما تتميز به المرأة في دارفور من مزايا تفوق بنات (جون البيضاوات والشقراوات) تبعلا وتواؤماً معيارياً وروحياً وثقافياً. وهؤلاء هم الذين أصبحوا يشكلون الطبقة الجديـــدة المعارضـــة فـــي دارفور. رغمًا عن بعدهم عن هموم إنسانها البسيط الذى يكدح من أجل لقمـــة العـــيش الكريم بعيداً عن نزلاء الفنادق وقرناء البيضاوات والشقراوات الأوروبيات.

يزرع الفور الذرة والفول السوداني، والشطة، والسمسم والبطيخ والدخن والبصل، والياقطين، والطماطم. كما يزرعون القمح مرتين في العام والبامية والبطاطس، ويزرع القطن علي نطاق واسع في دارفور. ولكل قرية في دار فور نسيجها ومحلجها[43]. مما يعني أن دارفور قد طرحت شعار نأكل مما نزرع ونلبس مما نصنع عملاً لا قولاً منذ فترة سابقة علي ما طرح من شعارات جوفاء للاستهلاك السياسي في الفترات اللاحقة في لحظات الغيبوبة السياسية. ولعل ذلك في تقديري يشير إلى أن منطقة دارفور هـــي منطقة من مناطق الاكتفاء الذاتي في السودان، وأنها تعتبر من المناطق الواعدة إذا تـــم إستثمار مخزونها التاريخي والثقافي والاقتصـــادي وتوظيفـــه بصـــورة موضـــوعية

[42] لمزيد من البحث والإطلاع يراجع كتابنا المرأة السودانية عبر العصور فصل المرأة فى دارفور وعلي وجه الخصوص بحثنا عن دور المرأة السودانية فى عصرى الفور والفونج الذى قدم لورشة كرسى لليونسكو بالسودان فى 2004م.

[43] A.B. Thcobald. Op. CIT. PP. 5-6 .

واستراتيجية بعيداً عن تجاذب القوى الخارجية ومشاكسات أطفال الداخل الذين لا هم لهم إلا أنفسهم أولاً وثانياً وثالثاً.

ويبني الفور منازلهم علي شكل مخروطي وتسقف بالقش. ولغة الفور هي خليط بين اللهجة السودانية العربية واللغة الحامية. فأضحت لغة متميزة عن العربية من حيث القواعد وتركيب الجمل(44).

ويعتبر الزغاوة من أقدم القبائل التي شاركت الفور سكني هذه المنطقة. وقد شاركت في حياكة الماضي وحفر مجاريه وغزل نسيجه وفي تشكيل الحاضر بجانب الفور والقبائل الأخري المجاورة لهم في السكني .

أ- المجموعات شبه العربية:

1- الزغـــــاوة:

يعتبر الزغاوة من أكبر قبائل دارفور. وهم خليط من التيبو والحاميين الزنوج ولغتهم من لهجات التيبو. وحدد ابن سعيد موطنهم بقوله: (وفي شرقي مانان مجالات الزغاوين ومعظمهم مسلمون تحت طاعة الكانمي)،(45) وهم يتحدثون اللغة العربية. ويرعي الزغاوة الأغنام والضأن مع قليل من الإبل ومنطقتهم غير ملائمة لتربية الجمال. ومنهم عدد مقدر متنفذ الآن في السلطة سواء في المجلس الوطني المركزي أو القيادة السياسة أو العسكرية أو التعليمية في عهد الإنقاذ وفي المعارضة أيضاً. ولكن للأسف فيما يبدو أن أثرهم الايجابى ظل ضعيفاً في مجال التأثير علي مجريات الأحداث الجارية. ربما لانقطاعهم عن أصولهم أو لربما لم يكونوا من الأسر ذات النفوذ التاريخي فكان وجودهم الحالي سواءً في الحكومة أو المعارضة تعويضاً عن إرث تاريخي لم يتمتعوا به من قبل. ويشكل الزغاوة الآن ثقلاً اقتصادياً مهولاً. قد ينذر بخطر عظيم يهدد أمن البلاد الإقتصادي والإجتماعي والسياسي لأن أيلولة أعنة الإقتصاد لفئة بعينها من دون الفئات الأخري يهدد بثورة وخروج علي السلطة القائمة كما يغري هذه الفئة باستخدام كافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة في سبيل

(44) ibid.

(45) أبو الحسن علي المغربي، ص96، أنظر شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت. معجم البلدان 10 أجزاء بيروت، دار صادر (1955 – 195م) (1374هـ) جـ8، مادة: كاوار (أشار إليها بقوله: " .... ولهم سلطان في عهد ملك الزغاوة").

الحفاظ علي وضعها المتميز علي حساب الآخرين . ولعل من أخطاء الإنقاذ الفادحـــة أنها ركزت الثروة في أيدي قلة محدودة فازداد الأغنياء من فئات بعينها غنــيً وازداد الفقراء عموماً فقرًا علي فقر. ولقد منحت حكومة الإنقاذ الزغاوة فرصة نفوذ إقتصادي وسياسي لم يحلموا بها من قبل. فأصبح نفوذهم الإقتصادي يضارع وينافس أي وجــود آخر في البلاد كلها. ولهم دور كبير فيما يدور الآن في دارفور من أحداث ويعتبــرون أحد اللاعبين الخطيرين علي مستوي الحكومة والمعارضة علي حد سواء. وإن كان لا يتناسب ذلك مع حجمهم ونفوذهم لأن احتراق دارفور يعنى احتراق الكــل مركــزهم وأفول نجمهم وهذا ما عنيناه بضعف أثرهم الإيجابى.

2- البديـــــات:

يقيمون في أقصى الشمال الغربي لدار فور قرب جبل العوينات الذي يقــع علــي الحدود السودانية المصرية – الليبية. ومنطقتهم تجاور دار الزغاوة شمالاً. وجزء منهم يصل إلي كتم وكبكبية أثناء تجوالهم. وهم لا يتكلمون العربية. ويعتبرون علي صــلة قوية بالزغاوة من حيث سواد البشرة والاستقلالية. ويرجح بأنهم زنوج[46].

3- البرتـــــي:

يقطنون شرق دارفور ولا تزال بقية منهم تعيش حول مليط . ويعتقد بأنهم خلــيط من الفور والعرب المتأثرين بالزغاوة [47]. ومــنهم والــي دارفــور الحــالي (كبــر) والبروفسور عبد الرحمن حسب الله عميد كلية الآداب / جامعة أم درمـــان الإســلامية (السابق)، ومنهم عدد متنفذ الآن في حكومة الإنقاذ. ولكن قد ظل أثرهم محــدوداً فــي مجريات الأحداث الجارية الآن. ولعل الغالب منهم وقع أسير الدعايـــة الغربيـــة دون وعي شان سابقيهم. وهذا ما نكرره دوماً من أن قضية دارفور هي قضية سودانية أولاً وثانياً وثالثاً وآخراً. ولو أنزل الله البركة علي أبناء دارفور لتمكنوا من النهضـــة بهـــا وحل مشاكلها لما لهم من امكانات علمية وسياســية واقتصـــادية واجتماعيـــة ونفــوذ

(46) D. S. A. Box110 / 6. Macmicheal :(A history). OP. CIT. VOL.2. PP. 55-65. See also: A.B. Theobald. OP. CIT. PP. 7-11.

(47) -S. N. A. Intel 128/5 H.A. Macmicheal: Notes on Darfur History (1916) typescript. P. 6-21.

وعضوية في الأحزاب الحاكمة والمعارضة في ظل كل الحكومات المتعاقبة منذ الاستقلال وحتي اللحظة التي خرج فيها هذا الكتاب إلي النور. شأن الزغاوة والفور والمساليت والبرتي وغيرهم.

4- الميما:

هم خليط من التيبو والزنوج العرب. ويشاركون بني فضل والمناصرة في منطقة ودعة. وقد وفد الميما إلى وداي من تمبكتو ثم إلى دارفور. الأمر الذي يؤكد علي التداخل العرقي بين السودان وجيرانه عبر الزمان وبين دارفور وجيرانها ولغة التيبو في ودّاي شبيهة بلغة الزغاوة والقرعان[48] وهاتانّ القبيلتان أيضاً لهما امتداد في تشاد. الأمر الذي يشير إلي انسيابية الحركة والاستيطان في هذا الحزام الإفريقي الخطير قبل قدوم الاحتلال المسمى زوراً وبهتاناً استعمار إلى هذه المنطقة وقيامه بترسيم الحدود داخل الغرف المغلقة في برلين (1884-1885م) وفقاً لأهوائه الاستغلالية الإحتلالية وتنافسه علي تسخير العباد والبلاد من أجل رفاهية الرجل الأبيض.

5- البيقو:

يرجح بأنهم قد نزحوا من بحر الغزال إلى دارفور منذ زمن بعيد وعوملوا معاملة العبيد في بداية الأمر في هذه المنطقة إلى أن حررهم السلطان محمد الفضل حيث كانت أمه أم بوسة منهم، ومنطقتهم تجاور البرقد والداجو[49]. وقد تزوج أبوه عبد الرحمن الرشيد منهم حيث تزوج أم بوسة الجدة الرابعة لعبد الرحمن المهدي من جهة والدته مقبولة بنت السلطان نورين بن السلطان محمد الفضل. ولعل هذه النسبة التي تربط آل المهدي بجنوب السودان تعتبر في تقديري أقوي من الانتساب إلي الأشراف عن طريق فاطمة الزهراء رضي الله عنها وعن أبيها من حيث المدة الزمنية وعدد الأجداد وكلا النسبتين هي نسبة إلي إمرأة عن طريق أم الأب. وهذه الأخيرة نسبة لا

(48) S. N. A. Intel 128/5 H.A. Macmicheal: Notes on Darfur History (1916) typescript. P. 6-21.

(49) موسى المبارك، مصدر سبق ذكره 25 انظر أيضا:

D.S.A. Box 110 /6 H.A. Macmicheal (Notes) OP. cit. PP.6-21.See also A.B. theobald, OP. cit. PP.18.

شك فيها لقربها بينما الأولي مثار جدل لبعدها، إذ أن معظم الأشراف في أفريقيا وفــي السودان على وجه الخصوص ينتسبون إلي الحسن العسكري ويشك في أنه قد خلـف أبناء من ورائه الأمر الذي قد يشكك في صحة النسبة من أساسها.ويتطلب الأمر مزيداً من البحث والتدقيق.

ب- المجمـوعات النـوبية:

1- البرقـــــــد :

يذهب ما كمايكل [50] إلى أنهم من أصل نوبي للتشابه بين لهجتهم ولغة النوبة وهم زنوج يشبهون مواطني أفريقيا الوسطي من حيث البنية الجسمية والعادات. ويقطنــون شمال وشرق نيالا ويشتغلون بصناعة الحديد ومن مراكزهم برنجيل.

لعل ذلك يعكس عدم جدية وواقعية ادعاء جنس واحد مهما تمتع بنفـوذ سياســي واقتصادي الآن بأنهم أهل دارفور الأصليين دون غيرهم. ولا شك في أن أي دعــوى من هذا النوع هي قدر من الخطرفة ونوع من تزييف الحقيقة التاريخية وقدر من أقدار ذوي الأفق الضيق. ومستويً من العمالة المكشوفة.

2- الميـــــدوب :

هم قبيلة شبه رعوية ويربون الماعز والضأن وبعض الأبقـار والجمـال وتقــع منطقتهم شمال شرق دارفور. ويعتقد بأنهم أصلًا قد جاءوا من دنقلا لتشابه لغتهم مــع لغة المحس[51]. وهذه مفردة أخري تنفي بصورة قاطعة بأن أهل دارفور هــم صـــنف خالص من الزنوج ولا شئ غير ذلك. فدار فور هي بؤرة وبوتقـــة انصـــهار عرقــي سوداني خالص تمازجت فيها كل الأعراق السودانية دون تمييــز. وتغلغلــت الــدماء العربية في كل شبر من دارفور وفي كل مليمتر من إنسان دارفور. كما دخــل الــدم الزنجي في كل مليمتر من إنسان السودان دون تفرقة. فالعرب من المعروف تاريخيــاً

[50] موسى المبارك مصدر سبق ذكره، ص 16، 25 أنظر ايضاً
H.A. MACMICHEAL (A history Of The Arabs) OP. cit. Vol.1 PP. 55-60.

[51] نفسه ibid .

أنهم جاءوا السودان دون نساء وتزوجوا من الزنجيات فأنجبن شعب السودان في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب لا سيما وان الدينكا يدعون نسبة جعلية. ولم يرتبط دخول العرب إلي السودان بدخول الإسلام، وإنما كان دخولهم سابقاً جداً للإسلام. بل إن الدم العربي نفسه في جزيرة العرب لم يسلم من مخالطة الدم الزنجي وبدرجات متفاوتة وان الوجود الزنجي في مكة والمدينة كان كثيفاً وفي بلاد النهرين ايضاً. وبالتالي تسقط كل دعاوى الجنس الخالص (the pure race). لا علي مستوي السودان فحسب وإنما علي مستوي العالم كله إلاماندر وندر جداً.

ولعل هذه الحقائق التاريخية تأتي أهميتها من أنها تشكل مفردات يمكن أن تكشف كثيراً من الحقائق وتصلح باعتبارها موجهات لإدارة الحوار بين الأطراف المتنازعة الآن في إقليم دارفور الذي شكل في الماضي بوتقة انصهار جاذبة لعناصر حامية وسامية وزنجية. وتمكنت هذه العناصر بفضل هذا التمازج التلقائي والتكامل الثقافي خلال أطوار تاريخية متطاولة أن تحدث قدراً حضارياً وثقافياً متماسكاً. ولكن تحاول الآن بعض الجهات الأجنبية تفتيته وتجزئته وزرع روح الكراهية بين فسيفسائه المعقدة المركبة.

ج- المجموعة العربية :

1- الرزيقات:

يقطنون في الركن الجنوبي الشرقي من دارفور ومن فروعهم الماهرية والمحاميد والنوايبة ولكل من هذه الفروع بطون وأفخاذ. ويشتغلون بالرعي وأرضهم كثيفة الشجيرات وهم من أغنى قبائل البقارة [52].

2- التعايشة :

ينقسمون إلي قلادة وعريج ويقطنون جنوب غرب دارفور. ولهم فروع عديدة كأولاد سرحان وأولاد أبو رحيمة والجوارحة وأولاد عباس[53]. وهؤلاء منهم الخليفة

---

(52) D.A.A. 110 /6. H.A. Macmicheal (Notes) op. cit. PP. 6-21.
See also A.B. Theobald. OP. CIT. PP. 11.18.

عبد الله التعايشي الذي خلف المهدي في السودان مدة أربع عشرة سنة من الزمان في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي. وهو الذي يرجع إليه الفضل في تثبيت أركان الدولة المهدوية، وإن أصبح فيما بعد عاملاً من عوامل هدمها نتيجة سياساته غير المتوازنة والاختراق الذي حدث لدولته من قبل الاستخبارات الأجنبية. هذا بالإضافة إلي تعاظم النعرات الجهوية والعرقية في فترة حكمه والتي أودت بوحدة البلاد إلي الهاوية فتمكن الأعداء نتيجة ذلك من النفاذ إلي تقطيع أوصالها وإذهاب ريحها.

3- الحمـــر البقـــارة:

هم أحد فروع المسيرية، ويعيشون بين الخط 12°، وبحر العرب وقد انفصلوا عن المسيرية الذين ينقسمون إلي (زرق[54]، وحمر) لعشرة أجيال خلت . ويقطن المسيرية الآن شمال شرق نيالا في منطقة صغيرة واقعة بين البرقد و الداجو وهم مستقرون نسبياً، أما بالنسبة للحمر فإن مدينهم الرئيسية المجلد. ويتنقلون شأن قبائل البقارة في دارفور شتاءً وخريفاً[55].

4- المعـــــــاليا :

ينقسمون بين دارفور وكردفان. وكانوا من المتمردين علي السلطان علي دينار، ولهم صلة قرابة بالحمر. ويجاورن الرزيقات في الشمال الغربي من دارفور[56].

5- المســـــاليت:

هذه القبيلة تقطن في أقصى غرب دارفور بين خطي العرض 12، 14°.ويدعون نسبة إلي الأصل العربي بالرغم من غلبة الصفات الزنجية عليهم وإن كان ذلك لا يعني اختفاء الصفات العربية لديهم تماماً وبروز الصفات الزنجية، والتي تكون قد حدثت

---

(53) موسى المبارك مصدر سبق ذكره، ص 22-23 انظر ايضاً:
A.B. Macmicheal: (A history).OP. Cit. Vol.1, PP.55-65.

(54) الأزرق: هو استخدام سوداني خالص ينم عن أدب جم وخلق رفيع، فالأزرق لدي السودانيين يقصد به الأسود. ولكن أهل السودان لا يقولون أسود من باب الإحترام ومراعاة لشعور الآخرين. وهذا جزء من التراث السوداني الأصيل النبيل والثقافة السودانية الأصيلة. التي ينبغي إبرازها.

(55) D.S.A. Box. 110 /6 H.A. MacMicheal (Notes) op.cit. PP. 27-33,43-44.

(56) A.B. THEOBALD. op. cit. PP. 11.13.

نتيجة المصاهرة والزواج. واللغة العربية مفهومة ومنتشرة بينهم. ويشتهرون بأنهم رجال حرب. ويزرعون الدخن والبصل. ولهم سلطنة بمراسيمها وتقاليدها وأعرافها. ولديهم عدد متنفذ في السلطة القائمة الآن وفي المعارضة ومنهم دكتور حسن تاج الدين عضو مجلس السيادة السابق والذي كان من اذرعة حزب الأمة فيما سبق ومن استشاريي القصر الحاليين في العهد الإنقاذي ودكتورة نجوي بحر الدين الأستاذة بجامعة النيلين وغيرهم كثير.

6- المسـلات:

يسكنون غرب البيقو والبرقد. وهم من عنصر المساليت إلا أنهم أكبر تأثراً بالعرب ويقطنون علي حدود دارفور الغربية ويشتهرون بالشجاعة[57]. مما لا شك فيه أن هذا الوجود العربي علي هذا القدر من الكثافة لم يشكل حدوداً حادة بين عنصر وآخر، وإنما ساعد علي التزاوج والانصهار والتمازج والتداخل. وتمكنت هذه العناصر فيما مضي بروح مدنية راقية أن تتعايش وأن تتبادل أقدارها الثقافية والإجتماعية والإقتصادية بهدوء وأن تحل مشاكلها بأريحية سودانية لا مثيل لها عن طريق الزعماء والشيوخ والسلاطين والشراتي. وفق نظام متوارث وهو نظام الأجاويد ورؤساء العشائر والقبائل والشيوخ والدمالج والعمد والنظار؛ في الوقت الذي عجز فيه تلامذة الغرب الجدد أن يحققوا نسبة 5% مما حققه أسلافهم الذين لم ينالوا 5% مما ناله الأحفاد من المعرفة. ولكن كما يقال في المثل السوداني القلم لا يزيل البلم. والعمالة لا تحتاج إلي ضوء يدل عليها.

ولعل من أخطائنا التاريخية المتمثلة في اتخاذ قرارات متعجلة وغير صائبة في ساعات الثورة والغليان دون روية: هي ستة قرارات علي قدر من الحماقة والعجلة والاندفاع المجافي لروح العقل أولها: أعقب ثورة أكتوبر حين انحرف الساسة دون وعي وإدراك ودراسة نحو الشعار اليساري (التطهير واجب وطني). فتخلصت البلاد من أحسن قدراتها الإدارية وخبراتها في مجال الخدمة المدنية التي ظلت كسيحة فيما

[57] موسى المبارك مصدر سبق ذكره ص14. انظر ايضاً:
D.S.A. Box 110 /6 H.A. Macmicheal. (Notes) OP. Cit. PP. 27-33.

بعد إلي يومنا هذا. **والقرار الثاني**: هو قرار تصفيةُ الإدارة الأهلية الــذي اتخــذ فــي لحظات غيبوبة الوعي المايوي دون وعي وبتأثر واضح بالطرح اليســاري الجــارف يومها. ونتيجة غفلة سياسية لازلنا نتجرع كؤوس هذه الغلطة لأن ما يدور في دارفور كان يمكن استيعابه وإمتصاصه إذا فكر انقلاب مايو تفكيراً موضوعياً بتطــوير الإدارة الأهلية بدلاً عن إلغائها. وفي بلدان كالولايات المتحدة الأمريكية لا تزال تحتفظ بهــذا الإرث التقليدي لكن مع العمل علي تطويره بإستمرار. وكذلك في بريطانيا في المراسيم الملكية تظهر مظاهر تعود في أصولها إلي القرون الوسطي ولكنها ذات دلالة ثقافيــة وتاريخية. والإدارة الأهلية اتفقنا أو اختلفنا حولها وحول نشأتها فهي موروث سوداني له دوره التاريخي والثقافي والإجتماعي الذي لا ينكر حكمةً وموضوعاً وواقعاً. ولــو كان لدينا سياسيون لديهم وعي تاريخي وحس سياسي أصيل وخلفية تاريخيــة واعيــة لأعيدت الإدارة الأهلية. لأنها هي الأقدر علي استيعاب ما يدور الآن في دارفور أكثر من بغال الفنادق التي لا أرضاً قطعت ولا ظهراً أبقت. **والقرار الثالــث**: هــو الســلم التعليمي الذي أصبح به الطالب منذ البداية يقرأ ولا يكتب وانتهي به المطاف الآن حتى غدا الطالب في بلادنا لا يقرأ ولا يكتب لأن السلم التعليمي لم تتم معالجته علــي نــار هادئة. وهذه مشكلة كل المشاريع الحيوية في البلاد التي أصيبت بالفشل نتيجة العجلــة وعدم التروي و إسناد الأمور إلي غير أهلها تنتج عنها مخلوقات شائهة وغريبة لا هي حصان ولا حمار ونتج عن ذلك ضياع أجيال هم حملة المشعل وبناة الحاضر وعــدة المستقبل. واضحي التعليم تجارة نخاسة فأمست هناك مدارس الخصوص وخصــوص الخصوص. إذ نسمع الآن عن الروضة التي تبلغ رسومها السنوية مليونان وثلاث علي مسمع ومرأي من الحكومة، ورجالات التربية والتأليم عفوا أقصد التعليم، ونسمع عــن مدارس الأساس الخاصة التي بلغت رسومها الدراسية ثلاثة ملايين وأربعة، والحصص الخاصة سواء في المدارس الحكومية أو الخاصة تبلغ أضعاف هذه المبالغ المهولة في بلد يكدح الناس فيه بالكاد من أجل الحصول علي لقمة العيش الكريم، هذا هو الواقــع والحق المر، في بلد يتصارع فيه الساسة علي جيفة السّلطة دون بــرامج ودون فكــر وحلول موضوعية لقضايا الأمة المصيرية ولا ندري ما يخبئــه المســتقبل لأفراخنــا الزغب تحت مظلة الطيش السياسي الذي لا يرعى إلاً ولا ذمة ولا يحقــق مصــلحة للأمة. وللأسف لا يزال هناك عدد من المتثاقفين والدهماء والرجرجة الــذين يلهثــون

وراء هؤلاء الساسة الذين لا خير فيهم ولا بركة. **والقرار الرابع:** قرار التـأميم وهـو شعار يساري أجوف فارغ المعني، وقد أضر بإقتصاديات البلاد ضرراً بالغـاً علـي المستوي المحلي والعالمي، وهو شعار قبائل اليسار البائد إذ دفع بقـوة بالمسـتثمرين الأجانب والمحليين إلي الإحجام عن الاستثمار في السودان. ولقد رجعت مايو عن هذا الطرح الأخرق بعد أن إستبان لها خطأه ولكن بعد خـراب مالطـة، واهتـزاز الثقـة بالقيادات السودانية ذات المزاج المتقلب. وللأسف هذا هو شـأن السياسـة السـودانية الخرقاء التي لا تهتدي بمشورة ولا تطيق سماع صوت الآخر حينما تكون في السلطة. وإنما تعتبر مقدرات البلد ومصلحتها وشعبها مختبر فئران يجرب فيه الساسـة فشـلهم وخيبتهم وعدم قدراتهم علي الإبداع في مجال تخصصاتهم. وهذا مصـير كثيـر مـن الأطروحات فى عهد الإنقاذ منذ 1989م وحتى الآن والتي تبخرت وتبددت، الشعار تلو الآخر. **والقرار الخامس:** قرار التحرير الاقتصادي في بلد متخلف إجتماعياً وقانونيـاً وإقتصادياً وسياسياً. فنتج عنه الإرتشاء وضياع الذمم والبضائع الفاسدة والكسب غيـر المشروع والإنهيار الأخلاقي المريع وإرتفاع الأسعار والتهريب لكل ما هو ممنـوع. كل ذلك حدث لأن القرار لم يتم نتيجة دراسة جدوي عميقة ومعرفـة معالجـة آثـاره الجانبية. وإنما كان نتاج نزوة سياسية وخطرفة فردية، ككثير مـن الشـعارات التـي رفعتها الإنقاذ وتم تردادها أثناء غيبوبة الوعي السياسي، وأصـبحت الآن فـي طـي النسيان إن لم نقل قد ألقي بها في مزبلة التاريخ السياسية. **إما القرار السـادس:** فهـو إلغاء النقل الميكانيكي والذي تم أيضاً دون دراسة أو تخطيط وحدث ذلك بذات الدعوي التي ألغيت بموجبها الإدارة الأهلية من قبل في ظل النظام المايوي البائد. مما يعني أننا أمة قدرها النسيان وعدم الإعتبار. ودرجنا علي أن نلـدغ مـن ذات الجحـر مـرات ومرات. وإلا فليسال أي سوداني في هذا البلد بلد المليون مربع ماذا قدمت لـه هـذه الأحزاب بشقيها الطائفي والعقائدي العلماني والديني، وقياداتها منذ الاسـتقلال وحتـي لحظة قراءته لهذا الكتاب، غير الوعود الكاذبة والخزي والخيبة والندامة والمشاكسـة علي كراسي الحكم بالمنطق الشارعي الصعلوكي (يا فيها يـا أطفيهـا). والإسـتئثار بخيرات البلاد دون الآخرين والإقتتال من أجل جيفة السلطة والإنفراد بهـا. ويكـون السياسيون أعطف ما يكونون وأرأف ما يكونون وأبلغ وأعرب مـا يكونـون حينمـا يكونون خارج السلطة، ففي أيام الإنتخابـات والأزمـات يمسـحون أحذيـة الشـعب

ويدغدغون مشاعره إلي أن يصلوا إلي دفة الحكم، وبعدها يضربوا بضروريات عرض الحائط. فالسياسيون منافقون ووصوليون إلي النخاع وإن تدثروا في الظاهر بألف قناع.

7- الهــــــبانية:

الهبانية ينقسمون إلى الطارة والسوط. وهم يقطنون غــرب الرزيقــات وجنــوب المسلات وشــرق التعايشـــة وشــمال بحــر العــرب ومركــزهم الكلكلـــة أو بــرام حالياً. ويعتمدون في نشاطهم الإقتصادي ومعاشهم علي الذرة الشـــامية وعلـــي قليـــل من الدخن(58).

8- بنو هلـــــبة :

يعيشون شمال التعايشة. وقد دخلوا مع السلطان علي دينار في حروب اقتضــت هجرتهم (59) من ديارهم.

9- القمــــــــر:

يسكنون شمال المساليت وجنوب الزغاوة في سهل رملي تكثــر فيــه الصــخور ويرجعون بنسبهم إلى الجعليين ولا يتحدثون غير اللغة العربيــة. ويرعــون الضــأن والبقر. ويزرعون الدخن.

10- المناصــرة وبنــو فضــل:

يقيمون في مثلث قمته الطويشة وقاعدته الفاشــر وجبــل الحلـــة بــدار فــور. تقلص نفوذهم في عهد المهدية والسلطان علي دينار وهجروا موطنهم حيث لــم يتبــق منهم إلا القليل(60).

11- الزيــــــــادية :

تعتبر الزيادية من أكبر القبائل صاحبة الجمال في دارفور، وينتسبون إلى فــزارة وهم يحتلون منطقة هامة بين الميدوب والبرتي(61). إن هذا الوجــود العربــي القــديم

(58) A.B. Theobald OP. CIT. PP. 13.
(59) ibid.
(60) A.H. MacMicheal: (History) op. cit. PP. 55.
(61) D.S.A. Box 110 /6 . H.A.Macmicheal (notes) Op. Cit. PP. 38.

والكثيف بهذا القدر وعلي هذا المستوي في آن واحد لا يمكن اجتثاثــه نتيجــة نــزوة سياسية طائشة أو محاولة غربية هادفة، لبذر بذور الفتنة بين أبناء الوطن الواحد. فالدم العربي الآن يجري في عروق كل دارفوري. والثقافــة الإســلامية والإرث العربــي يتفاعلان في تلافيف مخ كل دارفوراوي، فدارفور هي الحضارة وهي التاريخ وهــي نموذج التصاهر والتزاوج والتمازج الثقافي والاجتماعي والديني. وأن ما يحــدث الآن هو أشبه ما يكون بالجرح السطحي. فحرى بنا أن نقرأ تاريخ هــذه المنطقــة بــوعي وبذكاء بعيداً عن الإنفعالات والعواطف والنعرات النتنة، وأن نتفق علي قواسم مشتركة وأن نقف علي أرضية صلبة.

الفصـــل الثانـــي

السلطـــنة الفـــوراوية وظـــروف النشـــأة

كانت سلطنة الفور تشكل وحدة متماسكة ومستقرة. وقد ازدهرت لقـــرون عـــدة متواصلة. ولقد كان لموقع البلاد الممتاز، الذي يقع علي طريق الحج الأفريقي المتجـــه إلى مكة المكرمة، والذي يتوسط المسافة بين إقليم البحر الأبيض المتوســـط والأقـــاليم المدارية الاستوائية[1] أثر في ازدهار وشهرة السلطنة وإرتفاع شأنها. فهي تعتبر واحدة من أعظم السلطنات الإسلامية التي انتظمت وسط أفريقيا فـــي العصـــور الحديثـــة[2]. ومنطقتها تعتبر منطقة مفصلية في تاريخ السودان الحديث والمعاصر لانها شكلت بوتقة إنصهار فريد من الوجهة التاريخية والعرقية والثقافية والاجتماعية.

ولقد دار إختلاف كبير حول نشأتها، وهيمنة العنصر العربـــي عليهـــا، وبـــروز الشخصية الإسلامية فيها. ولعل إدراك أن العنصر العربي قد عرف طريقه إلى هـــذه المناطق منذ فترة مبكرة قبل الإسلام قد يلقي الضوء علي بعض جوانب القضية. فـــإن الإشارة التي أوردها ابن سعيد بقوله: (ومن مدن كانم المشـــهورة مانـــان ... وفيهـــا سلطان الكانم المشهور بالجهاد محمدي من ولد سيف بن ذي يزن ... ثم أسلم منهم جده الرابع علي يد فقهاء الإسلام. ولهذا السلطان هنالك مثل سلطنة تجـــوه)[3]. ذات دلالـــة علي الهجرة العربية والإسلامية المبكرة إلى هذه البلاد. أما ياقوت الحموي في معرض حديثه عن كانم ينقل عن البكري قوله: (بين زويله وبلاد كانم أربعون مرحلـــة، وهـــم وراء الصحراء ... وهم سودان مشركون ويزعمون أن هناك قوماً مـــن بنـــي أميـــة

[1] H.A. Macmicheal, (Ahistory) op. cit. PP.91.

[2] A. J. Arkell. Op. cit. PP. 52-4, 181.

[3] أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، مصدر سبق ذكره ص 94-95.

صاروا إليهم عند محنتهم ببني العباس، وهم علي زي العرب وأحوالها)[4]. ومن المعروف أن محنة بني أمية كانت في الثلث الأول من القرن الثاني الهجري أي في القرن الثامن الميلادي. الأمر الذي يدل علي أن الهجرات العربية قد جاءت في فترة مبكرة إلي هذه المناطق، وأن تغلغل العنصر العربي الاسلامي يرجع إلى القرن الثامن والتاسع الميلادي. أما الوجود العربي غير الإسلامي في تقديري يرجع إلى فترات سحيقة موغلة في القدم. ولعل إشارة القلقشندي تزيدُ الأمر وضوحاً وجلاء حيث ذكر أن: (مملكة الكانم هم مسلمون والغالب علي ألوانهم السواد. وبلادهم بين أفريقية (تونس) وبرقه (في ليبيا).. وسلطان هذه البلاد رجل مسلم. قال في تقويم البلدان: (وهو من ولد سيف بن ذي يزن. وأول من بث فيهم الإسلام الهادي العثماني، إدعى أنه من ولد "عثمان بن عفان" رضى الله عنه وملكها، ثم صارت بعده لليزنيين). هذه الإشارة تؤكد علي أن الوجود الإسلامي سابق لمحنة العباسيين. ومن جانب آخر يؤيد ذلك الرأي الذي يذهب إلي أن الوجود العربي سابق للوجود الاسلامي بكثير، لأن وجوداً بهذه الكثافة التي تجعله يبلغ حد الوصول إلي السلطة وبسط سلطاته علي أهل البلاد الأصليين وبهذه الكيفية لابد وأن يمر بأطوار تاريخية متطاولة وبأبعاد إجتماعية وسياسية وزمانية.

وذكر القلقشندي في التعريف بهذه السلطنة: (أن سلطان الكانم من بيت قديم في الإسلام، قال: والعدل قائم في بلادهم، ويتمذهبون بمذهب الإمام مالك رضى الله عنه، وقد بنوا مدرسة بالفسطاط ينزل بها وفودهم)[5]. ويشير إلي إستقرار القبائل العربية بهذه المناطق، كما يشير إلي هذا الوجود العربي الكثيف ملك البرنو في خطاب بعث به إلى سعيد برقوق سنة 794هـ ورد فيه قوله: (... وبعد فإنا قد أرسلنا إليكم رسولنا وهو ابن عمي، اسمه إدريس بن محمد من أجل الجائحة التي وجدناها وملوكنا فإن الأعراب الذين يسمون جذاماً وغيرهم قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان، وضعفاء الرجال وفي قرابتنا وغيرهم من المسلمين. ومنهم من يشركون بالله يمارقون للدين –

[4] شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت، مصدر سبق ذكره، جـ8 ص 422.
[5] أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، مصدر سبق ذكره جـ5، ص280-281.

هكذا- فغاروا علي المسلمين فقتلوهم قتلاً شديداً .... ونحن بنو سيف بن ذي يزن ... كذا ضبطناه عن شيوخنا، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها.. وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ويبيعونهم لجلابي مصر والشام وغيرهم ويختدمون بعضهم... فتبعثوا الرسل إلي جميع أرضكم ... ينظرون ويبحثون ويكتشفون فإذا وجدوهم فلينزعوهم من أيديهم ... قال الله تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر).

وقال عليه السلام: (المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه)[6]

هذا الخطاب يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك علي تغلغل النفوذ العربي والقبائل العربية ومدي توغلها في هذه المناطق منذ فترة ميكرة. كما يشير إلي رسوخ المفاهيم الإسلامية والمعرفية بدلالة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة الواردة في هذا الخطاب. ويدل أيضاً علي أن الإسلام عاد له نفوذ قوى في هذه البلاد. وغني عن القول أن الصلة بين دارفور وهذه الأقاليم لم تكن مستبعدة. لاسيما وأن جزءاً كبيراً من دارفور كان تابعاً من الناحية السياسية لدولة كانم المسلمة، حسبما تقدمت الإشارة. ولعل ما مضت الإشارة إليه يدفع أي تقدير يذهب إلي أن قيام السلطنة تم في القرن السابع عشر الميلادي الذي ذهب إليه كثير من الباحثين الغربيين وأيدهم فيه بعض الباحثين السودانيين وغيرهم. وفيه تأييد واضح لما قاده الأستاذ الشاطر بصيلي[7] من أن قيام السلطنة الفوراوية تم في القرن الخامس عشر الميلادي. **وقاد أدلة قوية علي صحة هذا الراي منها:**

1- أن هذه المنطقة كانت ملتقى لهجرات من حوض النيل الأوسط والأمثلة علي ذلك هجرة الأسرة الحاكمة في مملكة مروي (الواقعة شمال الخرطوم) في القرن الثالث عشر الميلادي، بعد استيلاء النوبة علي الحكم في المملكة.

2- خروج ملك علوة نحو الغرب في القرن الثالث عشر الميلادي. هذا بالإضافة إلي هجرات العرب المسلمين التي بدأت إلي سواحل أفريقيا الشرقية منذ القرن الأول

(6) المصدر السابق مصدر سبق ذكره ، جـ8، ص 116-117.

(7) الشاطر بصيلي عبد الجليل مصدر سبق ذكره، ص373-387.

الهجري بغرض التجارة، وقد أعادوا طرق القوافل فأسسوا المراكز والمحطات. لذا لا يستبعد هجرتهم غرباً منذ وقت مبكر. وقد أيد هذا الرأي كل من (ماكمايكل)[8] و(بودج)[9] ويزيد الأمر وضوحاً في تقدير الباحث أن الإسلام قد عرف طريقه إلى هذه البلاد قبل القرن الثالث عشر الميلادي، وأن هجرات القبائل العربية قد سبقت ذلك الوجود الاسلامي بكثير. كل ذلك يقتضي ترجيح التقدير الأسبق إذ أن مائتي سنة قد تكون كافية للتأثير ولبروز دور الإسلام في المنطقة. وبروز دور العنصر العربي الفاعل في التاريخ بعد الإسلام، لأنه من المعروف أن العنصر العربي عموماً والمسلم علي وجه الخصوص كان خلواً من التعويق الداخلي فيما يتصل بالمصاهرة والتزاوج مع أي عنصر آخر، ولديه القدرة علي التكيف مع كل الظروف القاسية التي قد لا تكون بأي حال من الأحوال أقسي وأصعب من الظروف الصحراوية التي عاش فيها. مما جعل أثرهم قوياً ودورهم فاعلاً في كل المناطق التي دخلوها تجاراً أو دعاة.

1- أصل الأسرة المالكة ومؤسس السلطنة:

يذهب (بيتون) [10] إلى أن سليمان سولون الهلالي هو الذي أسس السلطنة – وكلمة سولونج أو سولون أو صولون تعني في لهجة الفور: العربي- وذلك علي وجه التقريب في نهاية القرن الخامس عشر. وهذا الرأي في تقديري قريب جداً مما ذهب إليه (ناكتيجال)[11] حيث يقول: (إن تزاوجاً حدث بين الطنجور العائلة المالكة والكيرا الذين هم الفور. ونتيجة لهذا التزاوج استطاع الكيرا نزع الملك بالقوة – والكيرا كما قدمنا هم العائلة المالكة من الفور – وأن الإسلام لم تكن له السيادة إلا في عهد حكم السلطان سليمان صولون. وأول من حكم من هذه العائلة دالي واسمه الصحيح دليل. ولعل دليل هو الذي أسس قواعد الحكم وانتهى حكمه في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي). في ظني أوشك أن يتفق الرجلان من حيث زمن النشأة إلا أن هناك إختلافاً

(8) S.N.A. Intell 90/6-7 (Notes) (19.2).
(9) E.A. Wallies Budge OP. Cit. PP. 398.
(10) A. C. Beaton: The Fur. S.N.R. VOL. 29 (1948) P.4.
(11) Gostav Nachtigal. OP. Cit. Vol.4 P.74-76.

حول المؤسس. فنلاحظ أن (بيتون) أورد اسم "دليل" باعتباره المؤسس بيد أنه لم يتجاهل دور سليمان صولون في إدخال الإسلام وتمكينه. وعلي كل يكاد أن يكون هناك إجماع أو شبه أتفاق علي أن السلطنة قد قامت في القرن الخامس عشر الميلادي.

ويقرر نعوم شقير[12] أن المؤسس هو سليمان الأول وأن فترة حكمه بين (1445-1476م) (848-880هـ). وأشار إليه بقوله: (هو رأس سلاطين الفور... قيل لما تولى السلطنة لم يكن في جبل مرة مساجد للعبادة فبنى المساجد وأقام صلاة الجمعة والجماعة). وأورد في قائمته أسماء إسلامية مثل عمر وأحمد ومحمود وعبد الرحمن، ومما لا شك فيه أن الأسماء ذات دلالة تاريخية وثقافية بعيدة الأثر. الأمر الذي يدل علي إسلامية هذه السلطنة وتحديد هويتها منذ فترة مبكرة. إذ لا يخفي ما لهذه الأسماء من دلالة موضوعية وحضارية مفادها أن تبني الأسماء يدل علي الإعجاب والإفتتان والتقمص لثقافة وحضارة صاحب الأسماء. كما فيها دلالة علي تمكن الجانب الإسلامي والعربي في المنطقة وهيمنته الثقافية فأصبحت أسماؤه هي السائدة. واعتمد الفريق المعارض رواية التونسي[13] عن نشأة وقيام السلطنة. ويبدو أن سليمان الثاني قد قام بفتوحات ومجهودات أذهلت بعض الباحثين[14] وذلك خلال القرن السابع عشر الميلادي فحدا بهم ذلك إلى القول بأنه المؤسس. لاسيما وأنه قد قام بفتوحات جعلت حدود دارفور تبلغ أقصى اتساع لها في تاريخها في عهد السلطان محمد تيراب (1752-1787م) الذي استطاع أن يضم إلي سلطنته كردفان. وضمت السلطنة كل القبائل التي تقطن الرقعة الممتدة بين الصحراء الكبرى شمالاً ومملكة الفونج شرقاً وغرباً. وسبق أن دخل المساليت في الطاعة أيام سليمان صولون. واستطاع خلفاؤه أن يسيطروا علي دارفور ودار تاما اللتين أثبتهما التونسي في خريطته. كذلك شملت السلطنة دار كوبي والإمارات الشرقية من وداى[15].

---

[12] نعوم شقير، تاريخ السودان، تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم، دار بيروت الجيل، 1981م، ص 150-153.

[13] يرى التونسي أن الدولة الفوراوية نشأت في القرن السابع عشر الميلادي، التونسي مصدر سبق ذكره، ص 83-84، هامش 5.

[14] A.J. Arkell. op.cit. PP. 274-281.

[15] محمد عمر التونسي مصدر سبق ذكره، ص 141، 147. A.C. Beaton op. cit. PP.5.

يبدو أن سليمان صولون المقصود هنا في هذه الإشارة، والذي دارت حوله رواية التونسي وبنى عليه فرضيته في نشأة السلطنة هو سليمان الثاني. ومما مضى يترجح أن قيام السلطنة كان في القرن الخامس عشر الميلادي وأن المؤسس هو سليمان صولونج أي سليمان الأول. ولربما كان اسم دالي مرادفاً لاسم سليمان الأول.

ولعل مما يدل علي قوة النفوذ العربي والإسلامي أن خمسة عشر سلطاناً من الذين أعقبوا – سليمان الأول – أو دالي أن أسماءهم عربية وإسلامية مثل إدريس ومحمد وصالح وشريف، وابن عمر وسالم، ومحمود الخ [16]. وقد لا يقتصر الأمر علي دعوى وجود نفوذ عربي. وإنما يمكن الحكم بأن هذه السلطنة أضحت سلطنة إسلامية عربية وأنها قد تجذرت بعروبتها وبقياداتها في الوسط الفوراوي، وأن الدم العربي أضحى يجري في عروق شعوب المنطقة منذ تلك الفترة المبكرة من الزمان. وبالتالي تتضح سذاجة وبساطة دعوى من يرى أن دارفور زنجية خالصة أو أن الوجود العربي طارئ لا سيما من خلال نظرة عاجلة إلي الخريطة السكانية الماضية. لذا كل من يدعي أو يحاول إخراج العنصر العربي منها فهو أما بليد الحس التاريخي أو صاحب غرض سياسي أو عميل أو خائن لمفردات تاريخ أمته.

2- أيلولة السلطنة إلي عناصر عربية:

أما عن كيفية انتقال الحكم إلى أيدي السلاطين ذوي الأصول العربية يذهب الباحثون إلى أن سليمان سولون (صولون) الذي قام بالحكم قد ولد أصلاً من أم طنجورية. وأن والده عربي قد جاء من الشمال. وان الحكم قد انتقل إلى بنه جرياً علي عادة وراثة ابن البنت التي كانت ابنة للملك. والسؤال الذي يطرح نفسه بالحاح هل وراثة ابن البنت: عادة نوبية؟ أم عادة افريقية؟ هذا سؤال مشروع. والراجح عندي أنها عادة نوبية أصيلة لأصالة هذه الحضارة. هذا إذا علمنا أن هناك أبحاث ودراسات حديثة تؤكد علي أن الحضارة النوبية سابقة للحضارة المصرية القديمة. ومن خلال هذا الترجيح يمكن الربط بينه وبين هجرة الداجو ومعظم قبائل دارفور من شمال السودان

[16] G. Nachtigal op. cit. PP. 77.

إلي تلك المنطقة حسب ما تقدم منذ أزمان بعيدة. ولا يستبعد من أن الطنجور قد استفادوا من هذه التقاليد المحلية في الوصول إلي سُدة الحكم بسلام ودون مقاومة كما استفاد من ذلك في ذات الفترة أبناء عمومتهم في الشمال. فاقاموا دولة الكنوز.

وقد أغرب (اركل)[17] بقوله: (ولم يكن للقبائل العربية دور في توجيه سياسة أو مصير دارفور).لا شك أن هذا سم زعاف يتم حشره في ثنايا ما يسمي بأبحاث ظاهرها العلمية وباطنها العذاب والتشكيك في الحقائق . هذا القول لا يمكن قبوله إلا إذا كان يعني القبائل التي لا تزال تحتفظ بدمائها العربية شبه النقية. وهذه واحدة من مستحيلات الدنيا السبع إذ يكذب من يدعي نسبة عربية نقية سواءٌ في السودان أو في أنحاء الأرض من المعمورة، حيث لا يوجد في الدنيا كلها نسب خالص إلانادراً والنادر لا حكم له. وإن لا فإن العائلة المالكة في دار فور (الكيرا) فهي ذات أصول عربية لا يشكك في مصداقيتها أحد بما في ذلك آركل نفسه. وقد استطاعت القبائل العربية في دارفور عن طريق المصاهرة الوصول إلى سدة الحُكم كما حدث ذلك في أكثر من موقع وفي أكثر من زمان في أرض السودان عبر فترات تاريخية متطاولة. وفيما يبدو أن وراثة ابن البنت هي عادة نوبية قديمة انتقلت إلى هذه المنطقة مما يؤكد في نظر الباحث علي حسب ما سبقت الإشارة إليه علي وجود رابطة قوية تؤكد علي نزوح كثيف من الشمال السوداني إلى دارفور. مما يعطيْ الإثنية الفوراوية اليوم بعداً جديداً يقتضي قدراً من التحليل والدراسة. ويعطي قضية دارفور بعداً جديداً ينبغي أن تؤخذ في إطاره.

3- السلطنة والإسلام:

من خلال دراسة الآثار الموجودة بعين فرح[18] إحدى العواصم الفوراوية القديمة يتضح أن هناك مساجد كانت بالقرب من قصر السلطان، الأمر الذي يدل علي عمق الروح الديني لدى الهيئة الحاكمة ودورها في بناء هذه المؤسسات الإسلامية الهامة،

[17] A.J. Arkell. op. cit. PP. 274-281.

[18] تقع شمال دارفور علي بعد 50 ميلا غرب كتم بها آثار قصر السلطان شاور دور شيد وكما توجد بها آثار مدينة قديمة.

لأن من المعلوم أن المسجد في الحياة الإسلامية والمفهوم الإسلامي يشكل حجر الزاوية. حيث يقوم بأدوار تربوية وإجتماعية وسياسية وروحية وعسكرية. وقد اتسعت السلطنة في عهد سليمان الأول والثاني، وقد عمل سليمان الثاني علي نشر الإسلام واتخذ من (طرة) شمالي جبل مرة عاصمة له. وقام حفيده أحمد بكر بن موسى بن سليمان (1682-1722م) بجهود كبيرة لنشر الإسلام وتشجيع الفقهاء علي الإقامة في دارفور وتسهيل مهامهم بإعفائهم من الضرائب. وذلك بعد أن قام هو وابنه بنقل عاصمتهما إلى الفاشر[19] الحالية. أما عمر ليل بن محمد دور بن أحمد بكر (1732-1752م) فقد جعل عاصمته بالقرب من نيالا، وكذا أبو القاسم بن أحمد بكر (1739-1752). ولقد شهدت السلطنة قمة عظمتها واتساعها في عهد السلطان محمد تيراب (1752-1787م). ففي عهده تمت هزيمة الفونج واتسعت السلطنة حتى وصلت أم درمان[20] . ثم أعقبه أخوه عبد الرحمن الرشيد (1787-1802م) أصغر أبناء السلطان أحمد بكر الذي نشأ علي (أحسن حال، حفظ القرآن وقرأ في الفقه وعرف الحلال والحرام... ، كان صالحاً تقياً، يحب العلم والعلماء فعمل علي نشر المعرفة وتشجيع الفقهاء)[21]. (وفي أيامه انتشر العلم في دارفور واتسع نطاق التجارة وقويت شوكة الديانة الإسلامية لأنه كان عالماً ورعاً. وفي عهده في سنة 1793م زار السائح الإنكليزي بروان دارفور من طريق الأربعين)[22]. وكانت للسلطنة في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد صلات خارجية واسعة، وقد ذاع صيت هذا [23] السلطان، ولقد أسماه بهذا الاسم السلطان العثماني. لما ذاع عنه من عدل ورجاحة عقل وسداد رأي. ولا شك أن ذلك جانب إيجابي يحسب لصالح سلاطين الفور. ويؤكد علي أنهم كانوا في قلب الحدث وأنهم كانوا أرقاماً علي مستوي العالم الإسلامي والعربي.

---

[19] S.N.A. Intell 1/78 // 1282/2 G.D. Lampen. OP. Cit. PP.177-179.

[20] نعوم شقير مصدر سبق ذكره، ص 159-160.

[21] محمد عمر التونسي مصدر سبق ذكره، ص 99.

[22] نعوم شقير مصدر سبق ذكره ص 161-162.

[23] وهو من قبيلة الجميعاب التي ترجع بنسبتها إلى: (جميع أو جموع بن غانم) الذي رحل من بغداد (1280م) بعد تخريب المغول لها. فحط رحاله في الشام ثم مصر. وفي عصر المعز لدين الله الفاطمي رحل بعشيرته جنوبا حيث استقرت تلك العشيرة في أرض السودان الحالي. ولد الزبير بين جبل قرى والشيخ الطيب شمال أم درمان في 1831/7/8م. بعد السادسة من عمره تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن. وفي الخامسة والعشرين اشتغل بالتجارة وأظهر نجاحا في هذا المجال.

ومن أعماله البارزة علي المستوي الداخلي أنه قد نقل عاصمته إلى الفاشر ثم أعقبه أبنه السلطان محمد الفضل (1802–1839م) والذي نقل بدوره العاصمة إلى كوبي. وفي عهده تم تنظيم الإدارة والحدود القبلية وتم تعيين المقدومين. ثم جاء عقبه السلطان محمد حسين (1839–1873م). فقام بتثبيت نظام أبيه. بيد أن عاصمته قد حوصرت في عهده بواسطة الزبير ود رحمة أحد كبار تجار السودان يومئذ. في سنة 1856م اتصل بتاجر مصري أصله من (نجع حمادي) وقد اتجه إلى الجنوب وأصبح من كبار تجار بحر الغزال ويسمى (علي عموري). وأصبح الزبير وكيلاً له فيما بعد. وبعد وقت قصير استقل بتجارته عن (علي عموري). وتوغل جنوباً وتزوج بإبنة سلطان (نيام نيام) ولخوفه من السلطان الذي بدأ يتوجس خيفة من نفوذ الزبير ود رحمة الذي يمثل العنصر الشمالي المتفوق بالمعرفة وحسن الإدارة والدربة العسكرية والتنظيم، رحل الزبيرجنوباً إلى منطقة أخرى دارت بينه وبين ملكها معارك انتصر فيها الزبير في نهاية المطاف، وامتلك تلك البلاد نتيجة ذلك التفوق. بعدئذ دانت له كل جهات بحر الغزال وأسمى (بايه) عاصمة قولو بـ"(ديم الزبير). وحكم البلاد بالكتاب والسنة كما قال ذلك: (وحكمت البلاد بالكتاب والسنة وشرعت في تمدينها وعمارتها)[24]. ولعل ما قام به الزبير بإمكاناته المتواضعة قياساً لما يملكه الغربيون من إمكانات هائلة يعتبر تعميراً حقيقياً وإنجازاً حضارياً. إذ لم يعمل الغربيون أثناء تواجدهم بالبلاد علي تنمية إنسان الجنوب تحت أي مسمي من المسميات وإنما أبقوا عليه مغلقاً متخلفاً بغية استغلاله واستعباده. ومما لا شك فيه أن زواج الزبير ود رحمة من إبنة السلطان الجنوبي يدل علي حقيقة تاريخية وحضارية مؤداها أن العنصر العربي والمسلم أو العنصر شبه عربي في السودان قد تمتع بقدر وافر من التحرر من عقد التعويق الداخلي المتمثلة في التعالي علي أهل البلاد الأصليين مما مكنهم من النفوذ والسلطان وقبول الأهالي لهم دون حساسية عرقية آثمة.

---

(24) نعوم شقير، ص 285– 266. أنظر ايضاً: شوقي الجمل: تاريخ سودان وادي النيل: حضارته وعلاقاته بمصر من أقدم العصور إلي الوقت الحاضر في جزءين مصر/القاهرة مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1969م، جـ2، ص 168–170.

ومن الأسباب التي أحدثت خلافاً بين سلطان الفور والزبير ود رحمه تواتر اعتداء عربان الرزيقات علي تجار بحر الغزال. فقام الزبير بتجريد حملة عليهم بيد أن سلطان الفور كان يرى أن هذه المنطقة تابعة له لذا قام بإيواء من هرب من الرزيقات، لا سيما شيخين من شيوخهم وهما عليان ومنزل. فقام الزبير بإرسال سبعة خطابات إلى السلطان إبراهيم قرض الذي خلف والده في 1873م يحذره فيها من مغبة إيواء عليان حامد ومنزل رؤساء الرزيقات. هذا بعد إستيلائه علي شكا. وأفاده بأنهما كانا سبباً في قطع الطريق ونهب المسافرين، وتعطيل طرق التجارة.

لم يستجب السلطان إبراهيم قرض لذلك النداء وهذا التهديد، لا سيما وهو سليل السلاطين. لذا طلب الزبير إذناً من الإدارة العثمانية المصرية والتي قد استعصت عليها هذه السلطنة زمناً طويلاً بغزوها. فرأت الإدارة المصرية أن الفرصة سانحة فأضاءت النور الأخضر للزبير. ووجهت حكمدارها في الخرطوم بالتوجه إلى الفاشر لضم دارفور إلى الإدارة العثمانية. وقد دافع السلطان إبراهيم من جانبه بشراسة عن عاصمته دفاعاً مستميتاً إلي أن قتل في بلده منواشي في 25 أكتوبر 1874م[25].

وبالرغم من ذلك فإن هذه السلطنة لم تنقرض عائلتها المالكة حيث شكلت حكومة ظل وجبهة مقاومة سرية عنيدة. وتم اختيار أول سلطان لها في الظل وهو حسب الله محمد الفضل الذي احتمى بجبل مرة. ولكن الزبير لاحقه فقبض عليه وعلي عبد الرحمن شراتوت والأمير عبد الحامد. وأرسلهم إلى القاهرة مع بقية أولاد السلاطين. ومن ثم تابع الزبير ملاحقته للعائلة المالكة فلحق بعد ثلاث سنوات بالأمير بوش وقضي عليه في معركة فاصلة في أغسطس 1875م.

لقد حاول الزبير استئصال شأفة العائلة المالكة فلحق بسيف الدين وكان مع الأمير بوش في سرق الدجاج بكبكابية. وقد اختفى بعدئذ الزبير من المسرح نتيجة مؤامرة من قبل النظام القائم في مصر يومئذ. هذا وقد تمت تولية هارون بن سيف الدين سلطاناً وقائداً للمقاومة الفوراوية في (1875م.) وبعد القضاء عليه في (1880م) بواسطة

[25] A. C. Beaton OP. Cit. PP.4. see also D.S.A Box 110 /5 MacMicheal (Notes) op. cit. PP. 23, Moreover, see A.B Theobald op. cit. PP. 20-21.

النور عنقرة مدير منطقة كلكول خلفه عبدالله دود بنقه بن أبكر بــن الســلطان محمــد الفضل (1880– 1884م) كما سيأتي.

ثم جاء بعد مقتله أبو الخيرات (1888– 1897م). وقام بدور بــارز فــي قيــادة المقاومة الفوراوية أثناء الحركة المهدوية في البلاد. لا شك أن هذا الإصــرار وهــذا العناد علي المقاومة والبقاء يعطي صورة واضحة عن الشخصية الفوراوية علي وجــه الخصوص والدارفورية علي وجه العموم ومدي قدرتها علي الصمود والتنظيم والنفس الطويل في قيادة المقاومة. وقد استفادت الأحزاب الوصولية والجهوية بشقيها الطــائفي والعقائدي من هذه الميزة ووظفتها لصالحها دون إعتبار لمصلحة الوطن، فكانت هــذه النار التي اشتعلت في دارفور التي لم تبق ولا تذر.

وأبو الخيرات هو أخ ليوسف بن السلطان إبراهيم[26] الذي كان قائــداً لمعــارك ضارية ضد القائد المهدوي عثمان آدم المعروف بعثمان جانو. واتصل أبو الخيــرات بثائر آخر ضد الحركة المهدوية يدعي أبو جميزة والذي كان قد ادعى الخلافة إلي أن قضي نحبه ثم تبع أبو الخيرات بعدئذ أخا أبي جميزة المدعو أساغه يعني (أسامة) بلغة أهل دارفور. وبعد هزيمة أساغا ومقتله في 1889/2/22م. لجأ أبو الخيرات إلى جبل مرة يصحبه ابن عمه علي دينار بن زكريا وهناك ثار عليه رجاله فقتلوه. يتهم البعض علي دينار بقتله وقد أشار إلى ذلك ماكمايكل تلميحاً: (ويذكر أن قاتله كان مضجعاً علي عتبة علي دينار)[27]. الأمر الذي لا تزال صفحته حتى الآن مطويــةُ ولا يملك المرء دليلاً يجزم به علي صحة هذا الافتراض أو ذاك، هذا بالرغم من أن (بوستد) (ولامبين) قد جزما بقتل علي دينار لابن عمه[28]. ولما كان للمخابرات الثنائيــة دور لا يخفــي بصدد تشويه سمعة السلطان علي دينار، فان ذلك يجعل المرء يتحفظ قدراً ما في أخــذ مثل هذه الآراء والتحليلات بصورة قاطعة. بيد أنها شكوك مشروعة في مجال البحث والتحقيق، ذلك لأن الرماد يدل علي نار وكذلك الشكوك والقرائن التاريخية تدل علــي أن هناك حدثاً ما.

[26] A. S. A. 110/5 H.B. Macmicheal (Notes) op. cit. PP. 26.
See also A. B. Theobald op. cit. PP. 23-24.
[27] H. B. Macmicheal: (Notes). OP. CIT. PP. 27.
[28] J. E. H. Boustead: The Youth and Last days of Ali Dinar.

ووقع بعدئذ إختيار الفور علي السلطان علي دينار[29] الذي تمكن من إستعادة مجد السلطنة وإستعادة بنائها من جديد.

وقد قام بدور المجدد لبناء السلطنة في الفترة: (1898- 1916م)[30]، حتى بـذل روحه فداءً لذلك دفاعاً عن عقيدته وبلاده. وهو يشكل حلقة من حلقات الحركة الوطنية الحديثة والمعاصرة الواعية ضد الوجود الأجنبي في البلاد، استناداً إلى رصيد تاريخي وحق وراثي في حكم دارفور. ومهما يكن من أمر وجـدال حـول هـذه الأحقيـة أو واقعيتها أو منطقيتها فإن السلطان علي دينار قد لعب دوراً لا ينكر في الحركة الوطنية السودانية الحديثة والمعاصرة سواءُ اتفقنا أو اختلفنا معه، وقد تمتع بقدر مـن القـراءة الصحيحة لمجريات الأحداث في الوقت الذي اندفع فيه أبناء البيوت الدينية والسياسـية الكبيرة يلهثون وراء النظام الجديد بعضهم رغبة وتصفية لحسابات والـبعض الآخـر رهبة وطمعاً، وغدوا يمسحون حذاء السلطان ويمتدحون وجـوده ويرجـون بركتـه وخيره. وفي ظل الدولة المهدوية أظهر السلطان علي دينار قدرته الفائقة علي التنظـيم والاحتفاظ بقدر منظم من أتباعه داخل فسيفسـاء الدولـة المهدويـة دون أن يشـعر بخطورتهم أحد، بالرغم من الحس الأمني العالي للخليفة وشكه في كل أحد. تمكن علي دينار بواسطتهم وعن طريقهم استعادة سلطنة آبائه وأجداده بعيد معركة كرري التي لم يدخل في معامعها ابتداء لأنه رأى أنها خاسرة. وقد أثبت أنه سياسـي مـن الطـراز الأول، إذ استطاع في ظل تلك الظروف الدولية القائمة في نهاية القرن التاسـع عشـر وبداية القرن العشرين أن يلعب علي كل الحبال تحقيقاً لهدفه وإبطالاً لأهداف الاستعمار في المنطقة. وقد شكل دوره رأس الحربة في الحركة الوطنية الحديثة والمعاصرة. وقد استطاع بإقتدار أن يحافظ علي وجود السلطنة لمدة تزيد علي الستة عشـر عامـاً دون منازع، كما تمكن من تثبيت هوية السلطنة وتوجهاتها في العلاقات الدوليـة. وشـكلت حركته حركة المقاومة الأولى في تاريخ السودان الحديث والمعاصر دون منازع ، في وقت كممت فيه الأفواه ورضي فيه السادة والأشراف والزعامات ذات التاريخ بالأدنى

---

(29) S.N.R. VOL.22 (1939) P. 149-154.
(30) G.D. Lampen. OP. Cit. PP. 195-196.

من العيش والوجود والكرامة، وأصبحوا بوعي أو بغير وعي أدوات في يد الإستعمار دون استثناء. في ذلك الظرف ظل علي دينار الرقم الصعب في وجه الغزاة المحتلين وبدا أكثر وعياً وأقوي شكيمة وأبعد نظراً من كل هذه القيادات التاريخية التي أفرخت وتربت في أحضان الإستعمار ورضعت من ثديه لتحل محله بعد رحيله. وأخذت ترخيصاً علي ممارساتها ووجودها وقيام مؤسساتها وأفكارها من الإحتلال مقابل السلامة الشخصية والحواكير والدريهمات المعدودات.

الفصـــل الثالث

علي دينار ودوره في استعادة السلطنة وقيادة الحركة الوطنية

أ- المولــده - والنشــأة:

ولد علي دينار فيما بين (186، 1870م) بقريةً الشوايا بالقرب من الملوم مســافة ثمانين ميلاً جنوب غرب نيالا. ويعتبر أبوه أصغر أبناء السلطان محمد الفضـــل بـــن السلطان عبد الرحمن الرشيد وهو مغمور بين أخوته. ويعتبر علي دينار خـــالاً للســيد عبد الرحمن المهدي جد الصادق المهدي ووصال زوجة د. حسن الترابي لأبيهما. لأن علي دينار هو ابن زكريا بن السلطان محمد الفضل ووالدة عبد الرحمن المهدي هـــي مقبولة الفوراوية إبنة نورين بن السلطان محمد الفضل وبالتالي فهي إبنة عمه لزوماً.

ولا يعرف كثير شئ عن حياة علي دينار الأولى لاسيما في صباه وشبابه، ســوى أنه ظهر فجأة مع ابن عمه أبي الخيرات. وذلك حين إنضمام المقاومة الفوراوية إلـــى حركة أبي جميزة. ولجأ يومئذ إلى سلطان سلا واختلفا معه. هذا ما حدث بعد هزيمـــة (أساغه) بلغة الفور تعني (أسامة) ونتيجة لإختلافهم مع سلطان سلا، اتجهـــا صـــوب جنوب غرب جبل مرة في منطقة نائية في (كلمي)[1] . وكان علي ينار قد عرف بشدة المراس والعناد. ونتيجة هذا التمرد الطبعي في شخصيته درج علي القيام بعدة غارات علي التعايشة بمبرر ودون مبرر. ولم يسلم من غاراته واعتداءاته الجـــائرة الفـــور أنفسهم مما اقتضى تأنيبه بالكلمات الجارحة[2]. من قبل قيادته يومئذ مما يـــدل علـــي تكوين نفسي متمرد ممزوج بحماس وإندفاع الشباب. ولربما كان ذلك بداية الخلاف مع ابن عمه وركوبة الصعب للتخلص منه.

---

[1] A. B. Theobald. op. cit. PP. 26-28.

[2] J. E. H. Boustead. op. cit. PP. 149-150.

ب- علي دينار والنفاذ إلي السلطة:

هناك عدة خطوات دفعت بالأحداث قدماً لوصول علي دينار إلى السلطة. ورغم أنه مندرج تحت قائمة سلاطين الظل في العهد المهدوي إلا أن أمره جدير بالأفراد. لاسيما وأن هذا الكتاب يتعرض لفترة حرجة وهامة من تاريخ دارفور الجرح الغائر الآن، وهو في مجمله يدور حول الخلفية التاريخية لتاريخ منطقة أضحت تشكل محور الأحداث ليس علي نطاق السوان وإنما علي مستوي المجتمع الدولي وبالتالي فلابد من إلمامة سريعة بقدر من حياة هذا البطل القومي والوطني الذي كان لاعباً خطيراً وهاماً في السياسة السودانية والإقليمية في مطلع القرن العشرين وتفوق علي ذاته وأقرانه وزمانه لذا اختص أمره بهذا الفصل. وأولى هذه الخطوات التي قادته إلى السلطة تلك **التي سلكها لتسنم العرش:**

أ- علي دينار وابن عمه أبو الخيرات:

مما لا شك فيه أن وجود علي دينار في معسكر المقاومة الفوراوية بقيادة أبي الخيرات لفترة من الزمن وهو أحد أبناء السلاطين قد صقل شخصيته وأكسبه تجربة ومراساً وتدريباً عملياً علي ممارسة الأقدار السياسية والعسكرية والتنظيمية. وأهله ذلك التواجد في مراكز القيادة لبناء ذاته بناء أهله للقيادة منفرداً فيما بعد. إذ لاشك أن قيادته لعدة غارات مستقلة عن قيادة أبي الخيرات وبغير رضاه شكلت حجر الزاوية في اختلافه مع ابن عمه. وتلقي تلكم التصرفات الضوء علي تفرد إرادته وبحثه عن القيادة المستقلة وعدم انصياعه للنظام الفوراوي القائم في ظل القيادة الحالية. وفي الوقت ذاته تشكل تنافساً علي كرسي القيادة الفوراوية. ورأي (بوستد) في ذلك دليلاً قوياً علي أن السلطان علي دينار قد شارك فعلياً في إزاحة ابن عمه عن القيادة حيث يقول: (إن علي دينار قد دبر بليل خطة للقضاء عليه – أي علي أبي الخيرات – حيث جمع حوله عدداً من خدمه الفرتيت وقضى علي ابن عمه ودفنه في معسكره في وادي عريبو (Aribo) وسمى نفسه سلطاناً) [3]. وأياً كانت هذه الاتجاهات أو تلكم الادعاءات فإن السلطان

[3] J. E. H. Boustead .o p. cit. PP. 149-150.

علي دينار قد خلف سلفه ابن عمه أبا الخيرات في قيادة الفور وحقق ما كان يهدف إليه في 1891م[4]. ولكن هذا الأمر قد يقع في دائرة التخمينات، ولئن كان في الممارسة السياسية كل الإحتمالات غير الأخلاقية واردة وغير مستبعدة، إلا أننا في هذه الواقعة لا نجد دليلاً أو برهاناً قوياً يؤيد هذا الادعاء الذي يرمي إلى اتهام السلطان باغتيال ابن عمه والولوج إلي السلطة من هذا الباب القذر، وإن كنا في الواقع المعاصر نجد لذلك سنداً قوياً فيما حدث بين دكتور الترابي وزمرته، وما حدث بين الصادق المهدي وأفراد أسرته منذ الستينات ومروراً بالألفية الثالثة، ونقد وتيسير مدثر وشرذمتيهما سواءُ في الستينات من القرن الماضي أو في بدايات القرن الحالي. إذ أن القراءة التاريخية الواعية والقادرة علي ربط الأحداث تدل علي نماذج تاريخية تكاد تكون متشابهة ومتكررة في هذا التشرذم وهذا التجزؤ والتفتت وهذا الاغتيال الجسدي والفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والروحي، سواء علي مستوي السودان أو القارة الأفريقية أو العالم العربي والإسلامي. وهو في تقدير المؤلف يدل علي سوء التقدير وعدم وضوح الرؤية وذاتية النظرة وأنانية القيادة التي لا تعترف بكينونة الآخر وإن كان يقف معها في خندق واحد. وضيقها ذرعاً بالنقد الذاتي البناء وانخداعها بالمدح والثناء الزائف من قبل محدودي الأفق والقدرات والإمكانات .

ب- علي دينار مجبر أخاك لا بطل:

في هذه الفترة الدقيقة من تاريخ السودان الحديث فقدت المهدية أحد قادتها الكبار الذين لا يشق لهم غبار في منطقة دارفور. وبدأت أسهم المهدية تأخذ في الانحسار والنزول بعد هلاك (عثمان آدم). وعين الخليفة علي الغرب خلفاً له محمود ود أحمد ابن عمه وهذه بدايات دخول الدولة المهدية في النفق المظلم بتقديم الولاء والجهوية والعرقية علي الكفاءة، وهو اتجاه سبق للمهدي أن رفضه في تأسيس بناء دولته. وهو مؤشر ضعف في تاريخ الدول قديماً وحديثاً لأنه يولد أحقاداً وحسداً ويساعد على بروز روح العنصرية النتنة. فوصل الأخير إلي الفاشر في 27 يناير 1891م. وتولى القيادة مكان عثمان آدم الذي راح ضحية مرض فتك به. وكان مركز محمود قبلاً في

---

(4) تقارير المخابرات 1– 1920/1/31م انظر أيضا:
S.I.R. 90/ 8 . A.B. Theobald. op. cit. PP. 28-29 .

كردفان، لذا ولى علي الفاشر عبد القادر دليل. وحاول محمود ود أحمد استدعاء علي دينار الذي احتمى بأتباعه في جبل مرة لأداء فروض الطاعة لقائده عبد القادر دليل في دارفور. إلا أن علي دينار أخذ ينتحل الأعذار الواحد تلو الآخر. فتارة يعتذر ببعد المشقة وأخرى بترك أتباعه له. وكان علي دينار حينذاك قد لقب نفسه بعبد ربه أمير المؤمنين السلطان علي دينار بن المرحوم السلطان زكريا. ودرج علي المراسلة بهذا اللقب(5). يلاحظ المرء دهاء علي دينار ومدي قدرته علي التحايل علي القائد المهدوي، وأنه كان يخشى أن يتم الفتك به قبل تحقيق أمنية الفور في استرداد سلطانهم الضائع. ولكنه في الوقت ذاته كان يخشي بطش المهدية فقدر أنّ خير وسيلة ينتهجها في التعاطي مع هذا الواقع هو أسلوب التقية.

ولظروف خاصة به وبأتباعه لا تزال غامضة لم يكشف عنها النقاب بعد فقد تخلى عنه أتباعه(*). وما أن شعر علي دينار بالوحدة القاتلة حتي بدأ ينمق عباراته ويحسن ألفاظه في مخاطبة محمود ود أحمد تقية ومداراة ريثما يتمكن من استعادة أنفاسه ومركزه بين أتباعه. الأمر الذي يدل علي أنه قد نهج سياسة جديدة، ربما أراد بها أن يستفيد من تجربة ابن عمه يوسف بن السلطان إبراهيم قرض في مهادنة المهدية بغية انتزاع السلطة من أنياب الثورة المهدوية مرة أخرى. فأعلن ولاءه للمهدية وفقاً لما ورد في كلماته الآتية: (قلوبنا مليئة بحبكم هدفنا الاتصال بكم والتعاون معكم لرفع كلمة الدين، وإتباع طريق المهدية.. إلا أن الذهاب والانتظار بيد الله)(6) . ويؤكد علي أن خطابات محمود ود أحمد قد زادته رغبة في زيارته ورؤيته وتقبيل أياديه(7). إن هذه

---

(5) تقارير المخابرات 1- 1920/1/31م انظر أيضا:
S.I.R. 90/ 8: See also A.B. Theobald. OP . Cit . PP.28-29 .

(*) يبدو أن السياسة المهدوية المرنة قد نجحت في استقطاب أتباعه. والمعاملة الحسنة من قبل الخصم دائماً تكون لها أثار سلبية علي المقاومة التي صمدت فترة طويلة. بمعني آخر أن الحوار الهادئ نتائجه أقوي من استخدام القوي. وفي الواقع المعاصر توجد أدلة كثيرة في التاريخ القديم والحديث والمعاصر علي ذلك ففي التاريخ الاسلامى لقد استطاع معاوية إبن أبي سفيان أن يكسب الجولة لصالحه عن طريق أتفاق عام الجماعة. وفي التاريخ الحديث والمعاصر لقد تمكن النظام المايوي في سبعينات القرن العشرين من أضعاف الأحزاب المنضوية تحت لواء الجبهة الوطنية عن طريق التفاوض المباشر مع رئاسة الجبهة الوطنية (الصادق المهدي) دون علم وشورة الأطراف الاخري فضعفت الجبهة الوطنية وذهبت ريحها وتلطخ الجميع من أقصي اليمين إلى أقصي بالمشاركة في ذلك النظام الغابر ابتداءً أو انتهاءً ونجحت الإنقاذ في تشتيت شمل خصومها عن طريق التفاوض وإغزاءات المناصب لاسيما مع سيلان لعاب الكثيرين أمام المناصب والمكاسب الأنية من أحزاب وأفراد وهيئات.

(6) تقارير المخابرات 1- 1902/1/31م S. I. R. 90/8 .

(7) المرجع السابق.

الإشارات تدل علي أنه كان قارئاً جيداً لمعطيات الواقع لاسيما بعد أن تخلى عنه بعض أتباعه، وأضحي في موقف لا يحسد عليه. لربما كان للحركة المهدوية دور في هذه التعرية السياسية، فقبل أن يصاب بتصحر سياسي فتاك وتموت آماله وتقبر أحلامه في استعادة أمجاد آبائه، لجأ إلى المصالحة مع النظام المهدوي القائم باعتباره واقعاً لافكاك منه ولا مناص من التعامل معه. وهي قراءة سياسية ذكية قادرة علي التلون والتكيف مع الوقع دون إخلال بالأهداف. وهي في تقدير الكاتب لا تعدو عن كونها مصالحة مرحلية كما سنرى. وتحت ضغط الإلحاح والطلب والظروف التي أحاطت به استجاب علي دينار للتسليم عام (1893م). وركب الصعب متجهاً صوب الفاشر. وعند وصوله الفاشر استقبله عبد القادر دليل استقبالاً حافلاً. وأكد علي دينار في خطاب بعث به إلى محمود ود أحمد أنه: (وفقاً للتعليمات الصادرة من قبل مولانا وسيدنا خليفة المهدي عليه السلام ولكم فلقد أصبحت أحد أفرادكم وتحت حمايتكم والآن تحت أوامر عبد القادر ... وأسال الله أن يرينا وجهكم بأسرع ما يمكن)[8].

يلاحظ المرء أن الصيغة قد تغيرت لاسيما التي كان يعنون بها مراسلاته من أمير المومنين السلطان علي دينار إلى عبد الله علي بن زكريا[9]. ومما لا شك فيه أن هذا الأسلوب الفوراوي الجديد اقتضته الظروف الآنية. وحاولت القيادة الفوراوية أن تستمد مواقفها من الاستفادة من تجارب سابقة والاعتبار بما حدث للسلطان يوسف بن إبراهيم في مهادنته للحركة المهدوية واستطاعته التمرد عليها حين تمكن واشتد ساعده. ولعل الاستقبال الحافل له يدل علي أن القيادات المهدوية كانت علي مستوى رفيع من المسؤولية وقارئة جيدة للواقع فاحترام قيادة قومية مثل علي دينار واستقبالها له علي هذا المستوى له مردود ايجابي علي أتباع علي دينار ومحاولة جادة لسحب البساط من تحت قدميه بنعومة زائدة.

ومن جانب آخر قام عبد القادر بتزكية سلوك علي دينار لقائده محمود وطلب منه له الأمان. ونتيجة لذلك كتب علي دينار إلى ابن عمه إسحاق يطلب منه القدوم إلى الفاشر والخضوع للنظام القائم، وشرح له حسن الاستقبال الذي لقيه من قبل القيادة

(8) المرجع السابق.
(9) المرجع السابق.

المهدوية في الفاشر. من خلال الإطلاع علي هذا الخطاب يلمح المرء لفتة ذكية من علي دينار تؤكد علي أنه كان يعي طبيعة الفور واستعدادهم للالتفاف حول أي قيادة أخرى من أبناء السلاطين إذا تنازل هو طواعية عن هذا الدور القيادي وانخرط في سلك النظام المهدوي المرفوض من قبلهم. لذا لا غرابة أن أراد بذكاء ودهاء أن يحتفظ بحقه في القيادة والتوجيه وأن لا يدع الأمر يفلت من بين يديه. كما عقد العزم علي أن لا يدع مجالاً لأي منافس آخر خارج دائرة نفوذه يمكن أن يتحكم في الفور من وراء ظهره. وفي دعوة ابن عمه للانتظام في سلك المهدية يكمن مغزى تغيير اتجاه السياسة الفوراوية تجاه الحركة المهدوية التي استعصت وشكلت قوة ذات نفوذ ووزن في المنطقة. فلابد أذن من مهادنتها ومحاولة الإعداد والتنظيم داخل أراضيها وهدم بنيانها من الداخل، والاستفادة من مظلتها للاتصال بالأطراف الفوراوية الموجودة داخل تركيبة الدولة المهدوية، وهذا ما حدث بالفعل ونجح بصدده علي دينار. لا يختلف اثنان في أن هذا أسلوب سياسي ذكي لا زالت وستظل القوى السياسية القارئة الجيدة لمعطيات الواقع في ظل مواجهة سلطة قوية رادعة، أن تتعاطى هذا القدر من الجرعات السياسية في التعامل والتعاطي مع السلطة القائمة بغية هدمها من الداخل.

وقد لجأت إلى هذا الأسلوب الجبهة الوطنية السودانية في سبعينات القرن الماضي وعلقت خلافاتها مع المشير جعفر نميري يومئذ، وتمكنت بواسطة عناصرها الفاعلة من أن تهدم البيت من الداخل. وكذلك سلكت هذا السلوك بعض الأحزاب الجنوبية والشمالية مع حكومة الإنقاذ فتمكنت بذكاء أن تتشتت شمل الإسلاميين وان تلقي بينهم العداوة والبغضاء حتي وصل الحد بأحد المتنفذين في سلطة الإنقاذ بأن يستعدي نائبه وهو علماني فارغ ومغفل نافع بأن يضايق الإسلاميين الموجودين في كبرى احدي مؤسسات التعليم التي يقوم هذا الإسلامي بإدارتها وقد قام الأخير بواجبة علي أحسن وجه. ولعل الاتفاقات الأخيرة التي مهرتها الإنقاذ تصب في هذا الاتجاه، وبالتالي فإن كثيراً من المشاريع الكبيرة والتي فشلت سواء في ظل مايو أو في ظل الإنقاذ تصب في هذا الاتجاه حيث تم تنفيسها وإفراغها من محتواها. وهي من باب تهديد الحصون من الداخل. وتم كل ذلك تحت أشراف قيادات مناوئة داخل تركيبة النظام لإفساد

المشروعات الكبيرة وأضعاف البني الأساسية للدولة من الداخل بدلاً من معارضتها من الخارج. سواء في الخدمة المدنية أو مؤسسات التعليم العالي أو في الخدمة الإلزامية أو المؤسسات السياسية حتي أضحت رائحة الفساد تزكم الأنوف، تحت مظلة المشروع الإسلامي وتحت سمع وعين أرقام إسلامية كانت في نون من الأيلم. تملأ الدنيا طنيناً ووعظاً وتكلم الناس عن عفة اليد المتوضئة التي أضحت ملوثة بطينة خبال السلطة فنسيت ما كتب عليها في اللوح المحفوظ من عهودٍ مواثيق فشهد عليها أهل السماء والأرض سواء في الصحف أو في الجمعية التأسيسية الهالكة.

وتم اقتياد علي دينار بعدئذ مكرهاً أخاك ولا بطل إلى القائد المهدوي محمود ود أحمد في الأبيض. وكان الخليفة في عجل من أمره فكتب إلي علي دينار بعدئذ يستدعيه إلى أم درمان بيد أن الأخير قد تردد كثيراً في تلبية هذه الدعوة ولما لم يجد بداً لبي النداء. وخوفاً من هروبه جعله الخليفة ضمن حرسه الخاص وهذه سياسة درج الخليفة علي أتباعها إزاء الذين يشك في ولائهم، وتم إلحاقه فعلياً بفرقة إبراهيم الخليل أخ محمود ود احمد وهو إبن عم الخليفة. وفي هذه الفترة نشأت بينه وبين سلاطين باشا النمساوي الذي كان يحكم دارفور من قبل الدولة المصرية صداقة حميمة. مما كان له أكبر الأثر في علاقته فيما بعد بالحكم الثنائي في البلاد فيما بعد[10]. إن هذه الإشارة التاريخية لها دلالتها إذ تؤكد علي أن علي دينار لم يؤمن يوماً ما بالمهدية، ولكنه كان مجبراً علي التظاهر بما تظاهر به، تقية وتحيناً لفرصة استعادة مجد أجداده. ومن جانب آخر فإن الخليفة عبد الله بعينه الثاقبة كان يدرك ذلك. ومن هنا نلاحظ أنه احتفظ به في أم درمان وهذه سياسة اتبعها الخليفة إزاء كل المشكوك في ولائهم من أمثال سلاطين وغيره كما سبقت الإشارة إليه. ورغماً عن هذه المهادنة الظاهرة والخضوع الأسمى من قبل علي دينار للدولة المهدوية إلا أنه لم يغب عن ذهنه حكم بلاده واسترداد مجده وحضارة سلطنة أجداده.

---

[10] D.S.A. box 110/6 H.A. Macmicheal. OP. cit. PP. 22 See also: G.D. Lampen OP. cit. PP. 196.
تقارير المخابرات 1- 1902/1/31م S.I.R. 90/8 .

ج- علي دينار وعيون الخليفة:

سبقت الإشارة إلى أن علي دينار بعد تردد قدم إلى أم درمان في فترة مبكرة. وان كان هناك من الدلائل ما يشير إلى أنه ظل مع محمود ود أحمد في الأبيض حتى استدعائه لمواجهة الحملة المصرية الإنكليزية عام 1896م. حيث يذكر علي دينار بنفسه أنه قد شهد مع محمود ود أحمد معركة عطبرة. بيد أن ذلك لا يتفق وما تقدم من أن علي دينار بقي تحت عين الخليفة في أم درمان إلى لحظة ما قبيل معركة كرري بأم درمان. ولا خلاف بين الباحثين بأن علي دينار قد ألحق بفرقة إبراهيم الخليل[11].

مما تقدم يتضح أن الثورة المهدوية لم تقتنع هذه المرة باستتسلام قيادة الفور وبقائها في منطقة الغرب حتى لا تتكرر تجربة يوسف إبراهيم. لذا كان إصرار الخليفة على استقدام علي دينار إلى أم درمان وبقية أبناء السلاطين له ما يبرره. وتلكأ علي دينار أولا حتى لا يفقد قاعدته الجماهيرية. ولما لم يكن بد من الانصياع لتوجيهات الخليفة المعروف بحزمه وعزمه ونفاذ كلمته جاء علي دينار إلى أم درمان ولكن بنية الأعداد والتنظيم للفور وتجميع اكبر قدر منهم تحت قيادته والعمل على هدم النظام من الداخل. وكان الخليفة عبد الله من جانبه يرى أن وجود علي دينار تحت عينه يساعده على عدم تكرار تجربة (يوسف قرض) وتكرار محاولة الانفصال بدارفور مرة ثانية تحت أي ظرف أو تحت أي مسمى. بيد أن علي دينار خلال تواجده بأم درمان تمكن من أن يعمل على تجميع رجالاته حوله[12].

هذا وبالرغم من عدم وجود وثائق يمكن أن تكشف النقاب عن فترة أم درمان بالنسبة للسلطان علي دينار إلا أن القرائن وما تلي من أحداث تفسر وتؤيد ما سبقت الإشارة إليه. فإذا تقرر أن علي دينار لم يشترك في معركة أم درمان الكبرى بكرري 1898م، وأن ذهابه إلى الغرب لم يكن بمفرده وإنما تبعه رجالاته ولحقت به فرقة أخرى من أتباعه، فإن ذلك يدل في تقديري على وجود تخطيط مسبق، وتنظيم دقيق، وتوقيت مناسب. ولعل عبارة نعوم شقير اللبناني الأصل وهو رجل استخبارات من

(11) Ibid

(12) نعوم شقير مصدر سبق ذكره ص 845-846.

الطراز الأول ووصفه لعلي دينار الوارد في العبارة التالية يدلان علي أن علي دينار كان أثناء أقامته في أم درمان علي اتصال دائم بكبار رجالات البلاط الفوراوي والذين قد تبوأوا مكانة مرموقة في ظل الثورة المهدوية وحازوا علي ثقة الخليفة نفسه حيث يقول: (أما علي دينار فقد مر أنه فر من واقعة أم درمان بنفر من أهله وأخصائه وفيهم الأمير قمر الدين البرناوي من أمراء الأرباع والفقيه أمين الفلاتي وهو من رجال السلطان إبراهيم قرض الذين اشتهروا بالصلاح والتقوى وسداد الرأي. وقد كان عند الخليفة أميناً للجبخانة فسار بهم علي دينار إلى الترعة الخضراء وكانت فيها أبل الخليفة فأخذها وتقدم إلى كحمر فأقام فيها ثمانية أيام إلي أن تكامل الفارون من أهل دارفور من عرب وسود، وسار بهم إلى الفاشر)[13]. يلاحظ المرء أن دارفور طوال تاريخها الماضي كانت تحكمها قومية واحدة ولا تعرف التفرقة العنصرية والإثنية البغيضة إليها سبيلاً ، فالذين ساروا تحت راية علي دينار هم عرب وزنوج وفلاته.

هذه الإشارات في مجملها تقرر أن علي دينار كان علي صلة دائمة برجالات الفور الموجودين في أم درمان. وأن عملية الإعداد التي كان يقوم بها خلال تواجده في أم درمان أتت ثمارها بأن تجمع حوله كبار رجالات دارفور وكبار القيادات في الدولة المهدوية من الفور. واستطاع أن يجمع صفوفهم بعيداً عن عين الخليفة ورقابته وان يفر بهم عشية الحملة الإنكليزية المصرية علي أم درمان 1898م. ولعل خروجه في هذه اللحظات الدقيقة والحرجة من تاريخ الثورة المهدوية يؤكد علي أنه لم يكن في يوم من الأيام يكن وداً أو أخلاصا لها ولقياداتها أو يؤمن بأطروحات الثورة المهدوية. كما أن انتظاره في مكان معين لجمع صفوف الفارين من أهالي دارفور يدل علي التخطيط المسبق والتوقيت الدقيق. ولعل الدولة المهدوية بالرغم من حذر الخليفة الزائد لم تكن تملك جهاز استخبارات علي قدر من اليقظة والفاعلية، وإن لا فإن الذي قام به علي دينار يدل علي قدرته الفائقة علي الاستقطاب والجاذبية القيادية والاختراق الفاضح لاستخبارات المهدية وتمكنه من المحافظة علي سرية الإعداد والتنظيم في مركز الدولة. وفي ذات الوقت يدل ذلك علي غفلة الدولة المهدوية حتى في العاصمة. ولعل

(13) نعوم شقير، مصدر سبق ذكره ص 964-965.

كتاب (أوهر والدر) مما يمكن أن يفسر به ما يجري في أطراف الدولة المهدوية من انفراط عقد الأمن وضعف أجهزتها الاستخباراتية. وما كتبه (أوهر) عن الدولة المهدوية ونشره في أوروبا يؤكد علي أنها دولة كان يمكن اختراقها بسهولة وببساطة بواسطة أي إستخبارات خارجية، وهذا الضعف الامني في حد ذاته يفسر هروب كل من (أوهروالدر) (وسلاطين باشا). ويشير في الوقت ذاته إلي تورط عناصر داخلية وطنية في التعامل مع هذه الجهات الخارجية. ولعل ذلك نتج نتيجة جهوية الخليفة، الأمر الذي ولد مرارات وأحقاد وضغائن.

د- علي دينار والهيمنة علي دارفور:

مما سبقت الإشارة إليه يمكن القول بأن علي دينار لم يكن علي وفاق تام مع المهدية من أول يوم وحتى آخر لحظة من لفظ أنفاسها. وأن إذعانه لم يكن إلا توجهاً مرحلياً، ومهادنة مؤقتة، بغية تجميع وإعداد رجالات دارفور ومحاولة انتهاز أية فرصة مناسبة للانقضاض والاستيلاء علي دارفور. وإقامة نظام ومراسم السلطنة من جديد علي تربتها. علّ ذلك تبينه لنا مغادرته أم درمان في وقت كانت الثورة المهدية بحاجة فيه إلى أي جهد وطني وقوة أي رجل في قلبه ذرة إيمان بمبادئ المهدية. في هذا اللحظات الحرجة من تاريخ المهدية (فر السلطان بأنصاره إلى دارفور) [14]. الأمر الذي يؤكد علي وجود التنظيم والترتيب والتخطيط والإعداد المسبق. إذن كان علي دينار في أم درمان وقلبه في الفاشر ودارفور عموماً. وأن الكفاءات المقتدرة التي جمعها حوله تدل علي نظرته البعيدة. وكما تقدم فقد اتجه عشية الحملة الإنكليزية المصرية صوب الفاشر. وكان محمود ود أحمد قد ترك في الفاشر حامية مؤلفة من ثلاثمائة رجل بقيادة أمبدي الرضي التعايشي، وحامية أخري في كبكابية مسلحة بـ 50 بندقية بقيادة سنين التاماوي.

وفي 1897م هرب رجل من سلاطين الفور يدعي إبراهيم علي من جيش محمود ود أحمد ولجأ إلى السردار قائد الحملة الإنكليزية المصرية علي السودان. وأذن له

[14] نعوم شقير، مصدر سبق ذكره ص 823.

السردار بالذهاب إلي دارفور وجمع أهلها علي طاعة الحكومة. ولكنه تأخر وقبل وصوله أم شنقة كانت واقعة أم درمان 1898م. وفي هذا الأثناء أتى علي دينار الفاشر وطرد أمبدي الرضي منها، فأنضم الأخير إلي إبراهيم علي في أم شنقة، ورأي علي دينار أن دخول إبراهيم عليه في الفاشر يعتبر تعدياً [15] صريحاً وتجاوزاً للخط الأحمر. وأيضا كان هناك دعى فوراوي آخر يدعى حسين أبو كوده الفوراوي. بيد أنه بوصول علي دينار سلم إليه زمام الأمر فعينه الأول أميراً علي الكرنك[16]. أما إبراهيم علي فلم يجد بداً من التقهقر بعد أن جرد عليه علي دينار جيشاً فهزمه ورده علي أعقابه. فبعث إبراهيم إلى السردار يستعديه علي علي دينار ويطلب منه المدد. بيد أن السردار كتب إليهما يوفق بينهما حتى يتسنى للجيش التفرغ لإحتلال دارفور. ورأي إبراهيم علي أن لا مناص من التراجع فكر راجعاً إلى أم درمان[17]. يبدو أن المعلومات التي وفرها سلاطين عن علي دينار للجيش الغازي وقيادته لم تكن مطمئنة ولم تدفع بالجيش الغازي وقيادته إلى إختيار علي دينار اختياراً أوحد ليكون عميلاً آخر بديلاً عن إبراهيم علي. بيد أن سكوت الجيش الغازي ومحاولته التوفيق بينهما هو من باب التسكين المؤقت ريثما تنجح الحملة في مسعاها بالاستيلاء علي كل السودان وتوطيد أقدامها ومن ثم تلتفت إلى دارفور وتستولى عليها بالقوة.

هـ- علي دينار والاحتلال:

رأينا أن اختيار الجيش الغازي قد وقع علي إبراهيم علي ليقوم بإخضاع دارفور تحت راية الجيش المحتل. بيد أن علي دينار الذي أفنى ردحاً من عمره قائداً وهو من أبناء السلاطين وقد آلت خلافة قيادة الفور إليه لا يمكن أن يغفل دوره في مثل هذه الظروف الحرجة. ولا يسمح لأحد أن يتجرأ علي انتزاع القيادة منه. لذا سارع ودونما توجيه من أحد إلي الفاشر رأساً لاستعادة سلطنة آبائه. وكان مستعداً لأية مقاومة وهذا يفسره موقفه تجاه رجلين من أبناء السلاطين أولهما أبو كوده وثانيهما إبراهيم علي. فقد

(15) نعوم شقير، مصدر سبق ذكره ص 964-965. انظر أيضاً:
H.A. Macmicheal: (Notes) OP. cit. PP. 27.

(16) المرجع نفسه.

(17) المرجع نفسه.

أخذ من الأول زمام المبادرة وسحب البساط من تحت الآخر وجرد عليه جيشاً لهزيمته. ولم يكن علي دينار يومئذ في موقف يؤهله لمقاومة الجيش الغازي. ولكن الخطير في الأمر أنه قد ناصب مبعوث السردار العداء منذ الوهلة الأولي، الأمر الذي قد يجر عواقب وخيمة عليه وعلي بلاده. بيد أن الجيش الغازي لم يكن يومها في وضع يؤهله لمواصلة غزو بقية بقاع السودان الشاسعة ودارفور علي وجه التحديد. وكانت قوات الاحتلال ترمي إلى إيجاد شخصية فوراوية كارزمية خلاف علي دينار تستطيع القضاء علي نفوذ المهدية في دارفور وتحكم البلاد وتخضعها للحكم الثنائي دونما خسائر. لذا نلاحظ أن خطاب السردار إلى كل من إبراهيم وعلي دينار كان يعني قدراً من المرونة. ويوحي بأن هناك خيطاً ممدوداً يمكن التعامل من خلاله.

لقد اهتبل السلطان علي دينار هذه الفرصة وبعث بخطاب إلى السردار يعلن فيه طاعته. ويبدي رغبة أكيدة في أنه سيحكم دارفور مقابل ضريبة يدفعها لحكومة السودان[18]، وللمرة الثانية يكرر علي دينار ذات اللعبة السياسية الذكية التي لعبها من قبل مع المهدية، ولكنه هذه المرة يكررها علي مسرح آخر، ومع قيادة جيش الاحتلال الجديد، مما يدل علي قراءته الجيدة لمعطيات الواقع ووضوح رؤاه المستقبلية. فبذات القدر الذي ظلت تلعب فيه السلطة المحتلة معه دوراً مرحلياً كان هو من جانبه يقوم بمغازلتها بذات المستوي من الذكاء وكان كل منهما يتعامل مع الآخر من زاويته التي تقاطعت فيها مصالحه مع الآخر. وهو دور أشبه ما يكون بدور القط والفأر، الكل يتربص بالآخر ويرى أن الأيام كفيلة بحسم الأمر لصالحه. وبمجرد وصول علي دينار إلي دارفور عمل ختماً نقش فيه: السلطان علي دينار بن السلطان زكريا بن السلطان محمد الفضل بن السلطان عبد الرحمن الرشيد بن السلطان بكر 1316هـ[19]. فيما يتصل بالنقطة الأولى ومراسلته ومبادرته للسردار بإعلان الطاعة أمر له مدلوله من الناحية السياسية إذ كان ينشد بذلك الخطاب نزع اعتراف مبدئي بسلطانه علي سلطنة

---

(18) نعوم شقير مصدر سبق ذكره ص، 965. انظر ايضاً:

H.A. Macmicheal. (Notes). op. cit. P.27.

(19) نعوم شقير مصدر سبق ذكره، ص 965. انظر ايضا

A.C. Beaton op. Cit. PP.5

Moreover see: S.I.R. 90/8-9 Ist to 31st January, 1902

آبائه وأجداده من هذا الغازي المحتل الذي لا يرحم. هذا بالرغم من عدم قناعته بلزوم ذلك، حيث أعلن نفسه سلطاناً علي دارفور من أول يوم وصل فيه إلـى ديـار آبائـه وأجداده وعمل الخاتم الرسمي وهو مظهر سيادي مما يدل علي تصميمه المسبق علي استعادة مجده وإحياء سلطنة الآباء. ولكن المصلحة العاجلة، والدهاء السياسي يقتضـي منه ذلك السلوك المرحلي. أما محاولة إثبات شرعية سلطانه ليست بحاجة إلى إقـرار الحكومة الثنائية ولكنه كان يدرك مدى الخطر الذي يحدق ببلاده في حالـة مناصبته العداء لهذا النظام السياسي الجديد في البلاد. فقد رأي بأم عينيه ما حاق بالثورة المهدية من تقتيل دون رحمة أو معيار أخلاقي وتشريد وخراب ديـار. لـذا حـاول انتـزاع الاعتراف من الحكومة الثنائية وضمن خطابه إقراره بدفع جزية سـنوية ليضـمن استقلالاً شيئاً ما، وليضفي شرعية قانونية علي نظامه وجوده. في رأي المؤلف أن هذا السلوك من علي دينار في وقته يدل علي واقعيته وقدرته علي التعاطي مع الواقع بذكاء ووعي فما لا يدرك كله لا يترك كله، والسياسي الناجح هو الذي يستطيع التضحية بالأهداف الثانوية في سبيل تحقيق الأهداف الاستراتيجية الجوهرية.

إذن كانت دبلوماسية علي دينار دبلوماسية ناجحة لا سيما في ظل علمه بأن وجـود سلاطين باشا في صفوف الجيش الغازي وصداقته بعلي دينار القديمة لقد أفادته في انتزاع الاعتراف من الحكومة الثنائية بسيادته علي بلاده[20]. وتمكن علي دينـار مـن توظيف واستثمار هذه العلاقة إلي أقصي مدي ممكن.

ومن المعروف أن سلاطين باشا كان حاكماً سابقاً لدارفور في الفترة التركية، وقد تناول في تاريخ دارفور بشيء من التفصيل وبقدر من التعاطف في كتابه السيف والنار المطبوع (1895م) . وقد قام صديقه ونجت (ريجنالد) بترجمة هذا الكتاب إلـى اللغـة الإنكليزية (1896م)[21]. فلعل لصداقة علي دينار وصلته بسلاطين أثر في ذلك، أي في تناول سلاطين لتاريخ دارفور بشئ من التعاطف. كما أثرت تلك الصداقة علي الإسراع بانتزاع الاعتراف من الحكومة الثنائية بسيادته علي بلاده باعتباره سـلطانا مسـتقلاً:

---

(20) Sir Reginald Wingate, OP. Cit. PP. 10366.

(21) نعوم شقير مصدر سبق ذكره، ص845-847.

(أسس حكومته علي مثال سلطنة أجداده وصنع ختمًا للسلطنة كأختام أجداده)[22] هـذه العبارة أوردها نعوم شقير في كتابه تاريخ وجغرافية السودان ومن المعلوم أن كتابه قد ألفه (1903م). وهو رجل يتبع للمخابرات الثنائية، لذا فإن ورود هذه الإشــارة وبهـذا القدر من قبل رجل الاستخبارات في الحكم الثنائي تدل علي استقلالية السلطان بــبلاده منذ اليوم الأول وأن الحكومة الثنائية كانت علي علم بذلك. وبذا نستطيع أن نجزم بــأن علي دينار استطاع ومنذ اليوم الأول أن ينتزع الاعتراف به من قبل الحكومة الثنائيــة باعتباره كياناً مستقلاً وباعتباره أمراً واقعاً ورقماً لا يمكــن تفاديــه أو تجــاوزه فــي المعادلة السودانية. بيد أن مناقشة هذا الجانب وطبيعة العلاقــة بــين الطــرفين، فقــد خصص لها الباب الثالث من هذه الكتاب. لا شك أن هذا القدر من الحقيقة التاريخية في دارفور يمكن أن تفسر من خلاله أحداث دارفور المعاصــرة إذ تخطــئ أي حكومــة تتجاوز الفور أصحاب السلطة التاريخية في موازناتها السياسية وفي تركيبتها الإدارية. فالفور كانوا ولا زالوا وسيظلوا يشكلون محور الأحــداث والفاعليــة الإيجابيــة فــي دارفور. فهم أصحاب سلطة تاريخية ومجد حضاري فاعل في المنطقة كلها.مما يعني ضرورة إعطائهم مساحة من الحركة في أي معادلــة سياســية قائمــة. وإن لا فهــم جاهزون لإحداث هزة في النظام السياسي القائم مهما كان توجهه ولونه وطبيعته.

و- السلطنة والحفاظ علي الهوية:

لقد استطاع السلطان علي دينار انتزاع الاســتقلال مــن قبــل الحكــم الثنــائي 1900م[23]. ولعل وجوده بأم درمان قد كون لديه شعوراً بضرورة أحياء العقيدة فــي مجال سياسة الرعية. فبوصوله الفاشر أطلق علي نفسه ألقابا ذات صلة وثيقة بالنظــام السياسي الإسلامي مثل قوله: (فمن... أمير المؤمنين... السلطان علــي دينــار)[24]. وقوله في خطاب آخر: (فمن عبد ربه الراجي عفوه المعتصم بــالله أميــر المــؤمنين

(22) نعوم شقير مصدر سبق ذكره، ص 965.

(23) Sir Reginald Wingate op. cit. PP. 10366.

(24) خطاب من علي دينار بتاريخ 1316/4/1هـ الي كافة من يطلع علي هذا الرسم

S.N.A. Intel 1/30

وسلالة الطيبين الطاهرين)[25]. وفي خطاب ثالث جاء قوله: (فمن حضـرة السـلطان الأعظم والخليفة الأكرم من دانت له جميع الأمم وخضعت له رقاب العـرب والعجـم أمير المؤمنين)[26].هذه الإشارات لها دلالتها الموضوعية والواقعية والتاريخية والعرقية والحضارية، فدارفور كانت ولا تزال وستظل هي موطناً ومـوئلاً للعـرب والعجـم والإسلام والقرءآن. ولأن دماء كل فريق سواءً أكانوا عرباً أم عجماً قد جـرت فـي شرايين الفريق الآخر تزاوجاً ومصاهرة ومؤاكلة ,ومشاربة وثقافة وديناً. ولا يخفي أن أي محاولة تتجاوز هذه المعرفة التاريخية وهذه المفرادت الثقافية مصيرها الفشل. وأي حزب يتبنى طرحاً خلاف ذلك هو حزب منبت الأصل والفكـر تاريخيـاً واجتماعيـاً وثقافياً عن موروث دارفور السياسي والاجتماعي والثقافي. ومعظم خطابات السـلطان علي دينار التي كتبها في فترة مبكرة تحتوي علي مثل هذه العبارات الإسلامية التـي تفوق الحصر. وهذه دلالة إسلامية تلقي الضوء علي هوية السـلطنة والسـلطان منـذ الوهلة الأولي. وهناك دلالة أخرى تتمثل في استخدامه التـاريخ الهجـري فـي كـل مكاتباته الرسمية والشخصية علي الإطلاق. وهو بهذه الكيفية قد تجاوز عقدة الدونيـة التي شكلت رؤي كثير من الساسة وقادة الفكر الحديث والمعاصر وبعـض الكـاديمين الذين مسخ الغرب هويتهم فدفعوا ثمناً لنيل الشهادات منه أخلاقهم وقيمهم ومـوروثهم الروحي والحضاري فاضحوا كالبغال وشكلوا مخلوقاً شائهاً لا إسـلامياً محضـاً ولا غربيا محضاً، وللأسف والأسف الشديد هم الذين تبوأوا المناصب العليا الآن سواءً علي مستوي السودان أو العالم الإسلامي ممن أصبحوا يقدمون فـي مراسـلاتهم التـاريخ الإفرنجي علي التاريخ الإسلامي. ودلالة ثالثة تؤكد علي إسلاميته التي لا تقبل الجـدل تتجسد في تطبيقه الأحكام الشرعية دون هوادة، وقد أشار إلى ذلك بقوله: (فهـو أنـي معاهد الله أن الذي يغير أو يبدل الأحكام الجارية حسب الأصول العادلة من جماعتنـا التي تحت ركاب دولتنا ولو يكون ابني لو انحرف عن الحق الشرعي لا أرفـع عـن إيقاع أحكام الجزاء اللايق به كما يقتضيه الشرع المحمدي)[27].

---

[25] خطاب من علي دينار في 1317/4/8هـ S.N.A. Intel 1/30

[26] خطاب من علي دينار في 1316/8/4هـ S.N.A. Intel 1/30

[27] خطاب من علي دينار إلى سلاطين في 1321/3/3هـ S.N.A. Intel 7/1/5

إذن دولته كانت تحكم بشرع الله وتنفذ أحكامه العادلة ولا تتعامل إلا بمصطلحات القاموس الإسلامي. ولا يكاتب علي دينار أحداً إلا بالتاريخ الهجري. وهذا التوجه فيه محاولة جادة لإبطال المشروع الغربي في السودان وفي العالم الإسلامي والذي شكلت كلية غوردون التذكارية ووريثتها جامعة الخرطوم والغالب الأعم من خريجيهما أحد دعائم هذه الانهزامية الحضارية والثقافية في البلاد حيث كان الإداريون ورجالات الاستخبارات البريطانية هم الأساتذة فيهما والمشرقون علي رسائل رعيلهما الأول والثاني والثالث والرابع. ودلالة رابعة علي وطنيته وأصالته: وهي أن حكمه لا يعدو عن كونه امتداداً طبيعياً لسلطنة آبائه وأجداده وهي سلطنة إسلامية ويقرر ذلك بقوله: (أن مملكة دارفور في العادة القديمة ملوكها وكافة أهل الوظائف التابعين ركاب السلطنة لهم عوايد تجري عليهم من آبائنا وأجدادنا السلاطين الماضين. كانت قبل خراب دارفور موجودة .. والآن بعودة أهل الوظائف من الملوك والشراتي والدمالج وسلاطين ديار رغبوا منا إعمال عوايدهم لهم كالعادة القديمة) [28]. بهذا النص أراد السلطان أن يقرر قيام نظام إداري جديد أصيل علي غرار ما كان سائداً في السلطنة قبل خرابها. وهذه التسميات لم يسبق لنظام آخر قيامه بها، وهي مصطلحات إدارية تفردت بها سلطنة الفور تاريخياً عن غيرها فالشراتي: هم المدراء. والدمالج: تعني مأمورين. والملوك هم رجالات الإدارة المركزية في البلاد [29].

وبهذه الإشارة أكد علي أن النظام قد استكمل بناءه وفقاً لما كان في عهد أجداده ودل علي أنه امتداد طبيعي لما انقطع من مشوار هذه السلطنة ونظامها السياسي والإداري. وهذا بدوره يعطي بعداً استقلالياً متميزاً. ويوحي بأن التبعية الفوراوية للحكومة الثنائية كانت تبعية إسمية. إن هذه المفردة التاريخية الهامة تأتي أهميتها في أنها تشير بوضوح لا لبس فيه إلي أن دارفور يغلب عليها النظام السياسي التقليدي من حيث الإذعان والطاعة للأرقام التاريخية أكثر من استجابتها للعناصر الحديثة منبتة الأصل أو التي تحمل ثقافة وقيماً غربية مخالفة للموروث السياسي والمعرفي في

(28) D.S.A. Box 110/6 Macmicheal (Notes) OP. Cit. PP. 27-33.

(29) نعوم شقير، مصدر سبق ذكره ص 176- 177. انظر أيضاً: محمد بن عمر بن سليمان التونسي: (ملحق جومار)، ص 416-417.

دارفور. وبالتالي فإن فرض أي نظام حديث يتجاوز هذه الأطر التقليدية يكون خاطئاً إلا بعد حدوث تحول ثقافي عميق وتحول إجتماعي دقيق. ولعل الغالب الأعم من الساسة عندنا في السودان إنفعاليون مرتزقة وتجار سياسة نفعيون أكثر منهم عقلانيين والبعض الآخر مغفل نافع وجزء آخر نفعي فاشل. وان أمر السياسة في السودان وفي كثير من الدول العربية والإسلامية يقوم علي الأفعال وردودها، وعلي الارتزاق والكسب الرخيص مقابل التضحية بالأهداف القومية والوطنية. فبعد أكتوبر في السودان رفع اليسار شعار التطهير واجب وطني ففقد السودان بذلك خيرة كوادره المدنية نتيجة حسد وغيرة وتصفية حسابات شخصية لا تمت للمصلحة الوطنية بصلة. وفي عهد مايو رفع اليسار مرة أخري شعاراً آخر ألا وهو تصفية الإدارة الأهلية دون دراسة واعية وتحليل موضوعي ففقد السودان أحد ركائز الاستقرار. ولم يكن البديل واقعياً أو فعالاً والذي تجسد في خطرفات جعفر محمد علي بخيت والتي قبرت بزواله وهلاكه. وتمت أنفاذ عملية السلم التعليمي دون دراسة فأصبح الطالب يقرأ ولا يكتب إلي أن جاء الوقت الذي لا يحسن فيه القراءة ولا يجيد فيه الكتابة كما قدمنا. وتمت تصفية النقل الميكانيكي في عهد الإنقاذ دون دراسة. فامتلأ السودان بقدر هائل من الحديد والسيارات التي لا تناسب البلد من حيث الطرق والمناخ والاستخدام والاحتياج الفعلي للبلد. فقد تم استيرادها بعملات صعبة خصماً علي مقدرات هذه الأمة ودخلها القومي. وتم التوقيع علي اتفاقية نيفاشا دون أخذ رأي الأمة. فأصبح الشعب السوداني عبارة عن قطيع تقودة زمرة أو شرزمة قليلة يمنة ويسرة سواء من المعارضة أو الحكومة فلا خير في احمد ولا حاج احمد. وأمست الأمة مغيبة حتي في مجال البت في القرارات المصيرية، وهكذا ما حدث في القاهرة من أتفاق لا يعدو عن كونه تهافت من أجل الحصول علي كراس في الحكم دون مراعاة حقوق ومصالح الشعب. ويجتمع في الخرطوم ثلاثة من الشيوخ الذين تجاوزهم الزمن من أقصي اليمين إلي أقصي اليسار ليقرروا دون تفويض مصير أمة ويزعمون بأنهم قادرون علي إيقاف الحرب في دارفور وهم فتيلة إشعالها وهم ديناصورات السياسة السودانية وكان الاحري أن يودعوا في متاحف التاريخ السوداني لتجاوز الزمن لاطروحاتهم وتخريفاتهم. والسؤال من الذي أعطاهم التفويض ليتحدثوا باسم شعب السودان وهم ما بين تعيس وخائب الرجاء ولعل من مصائب هذه الأمة أن يتسلط عليها أمثال هؤلاء المتسيسون الأنانيون.

ز- السلطنة بين سندال الاستقلال والتبعية:

لعل نقاشاً حاداً قد يدور حول مدي الاستقلالية التي تمتعت بها هذه السلطنة. ويا ترى هل هذه السلطنة كانت مستقلة أم لا؟ في تقدير الكاتب أن هذه السلطنة قد تمتعت باستقلالية تامة وواضحة سواء أكانت دستورية أم إدارية أم عسكرية أم شكلية، ومارستها السلطنة فعلياً وواقعاً لا مراء فيه. الأمر الذي اقتضى دراسة علاقاتها علي ضوء هذا التقدير. ولهذا الاستقلال براهين وملامح غاية في الوضوح والجلاء.

◆ **الملامح الاستقلالية:**

أولاً: مما لاشك فيه أن التسميات [30] التي وردت في وثائق هذه السلطنة تعكس روحاً استقلالية عن النظام الأوربي المزمع قيامه في البلاد جملة وتفصيلاً. وينافي وجودها من جانب آخر التبعية بأي مستويً للخديوية المصرية أو الحكومة الإنجليزية. وتعتبر هذه المصطلحات ذات دلالة تاريخية في النظام السياسي الإسلامي.

ثانياً: لا يخفي علي ذي بصيرة بأن الحكم بشرع الله له مغزى استقلالي عن النظام المطبق في بقية أجزاء السودان الخاضعة للحكم المصري الإنكليزي.

ثالثاً: لقد أراد السلطان باستخدام التاريخ الهجري داخل حدود سلطنته أن يضفي عليها بعداً استقلالياً واضحاً.

رابعاً: إقدام السلطان علي دينار ومنذ الأيام الأولى علي صك عملة خاصة بدولته يعتبر ذلك عاملاً استقلالياً هاماً[31]. لا يستطيع أحد إنكاره حتي بمقاييسنا الحالية. لأن العملة مظهر سيادي في أي دولة في العالم اليوم وغداً.

خامساً: ظل السلطان وبصورة مزعجة للنظام الثنائي يكرر مطالبته المستمرة بتحديد الحدود الفاصلة بينه وبين الحكومة الثنائية. وطفق يكرر الإشارة إلى أن حدود دارفور قديماً كانت تشمل كذا وكذا يدل ذلك علي قناعته التامة بالاستقلال وعدم التبعية للحكم المصري الإنكليزي في البلاد[32].

---

(30) J.E. Boustead. OP. Cit. PP. 142-149.

(31) نعوم شقير مصدر سبق ذكره، ص 189. وقد قام السلطان علي دينار بصك العملة لأول مرة في 1317هـ- 1899م.

(32) السلطان إلي سلاطين في 1901/2/7م S.N.A. Intel 7/3/7

سادساً: إن ورود كلمة دولتنا الأنفة وقوله: (ولكنني مما صار جلوسي في كرسي مملكة آبائي وأجدادي ...)[33].

كل ذلك فيه دلالة إعلامية للحكم المصري الإنكليزي بأن السلطان في دارفور مستقل بحكم بلاده. وهو مقتنع في قرارة نفسه بهذه الكيفية الاستقلالية وكل ما عدا ذلك يفسر لصالح هذا الاستقلال.

سابعاً: قيام نظام إداري يعتبر صنواً لما كان سائداً في السلطنة قبل سقوطها 1874م فيه دلالة قوية علي استقلالية هذه السلطنة، وبذا تعتبر هذه الفترة امتداداً طبيعياً لسلطنة الفور بتقاليدها وإداراتها وأقاليمها[34].

ثامناً: حلما وصل علي دينار دارفور قام بتكوين جيش وعليه فإن وجود جيش مستقل عن جيش الاحتلال شكلاً ومضموناً، ولا يخضع جملة أو تفصيلاً لأوامر الخرطوم وحكومتها الثنائية البريطانية يعتبر ذلك في تقدير الكاتب دلالة استقلالية.

تاسعاً: إتباع علي دينار لسياسة داخلية تقتضي تثبيت دعائم حكمه مثل حملته علي كل من المعاليا والرزيقات وكاجا سروج، ومحاولة إخضاع هذه القبائل وتلك المناطق لسلطانه دون أذن أو علم الحكومة المصرية الإنكليزية يضاف إلى ما مضت الإشارة إليه. وإن كانت هذه النقطة في تقدير المؤلف ذات بعد موضوعي هام في تفعيل الأحداث في دارفور بعيداً عن الاستغلال الأجنبي الحالي. فإن دارفور منطقة رعي وزراعة كانت ولا تزال، ومنطقة قبائل رحل وقبائل مستقرة. ومن المألوف في ظل هذه الظروف أن تحدث منازعات وتمردات وخروج علي السلطة المركزية، وهي قضية قديمة حديثة من باب تنازع الزعامة، أو من باب الاعتداء الفردي أو الجماعي علي أراضي أو مزارع الغير. وهي مسألة طبيعية في ظل ظروف مكانية واجتماعية بهذا القدر. ولا يمكن تجاوزها أو حلها إلا إذا حدث تحول اقتصادي واجتماعي وثقافي. لأن مشكلة دارفور هي مشكلة ثقافية أكثر منها عرقية. ويخطئ من يريد تحويلها إلى مشكلة بين العرب والزنوج لأن نسبة الدم العربي في كل سكان دارفور دون

---

[33] السلطان إلي سلاطين في 9 رمضان سنة 1330هـ S.N.A. Intel 7/2/14

[34] نعوم شقير مصدر سبق ذكره، ص 189.

استثناء هو ما بين 40% إلى 80% حسب الدراسات الجينية الحديثة التي قامت بها بعض الدول الأوربية (ألمانيا) لتحقيق أجندة خفية وما أن جاءت الدراسة مخيبة لآمال الدولة الممولة لهذه الدراسة حتي قامت بإخفائها ولمزيد من البحث يمكن الرجوع إلى بحثنا عن العلاقة المكية السودانية عبر القرون المقدم لندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية في أغسطس 2005م أو كتابنا عن ذات الموضوع وبذات العنوان والذي نشرته الدار العربية بالقاهرة 2006م لإجلاء الموقف أكثر مما هو وارد في هذه العبارة الموجزة[35].

عاشراً: كان السلطان حذراً إزاء الإنجليز وهذا يفسره عدم سماحه لأي مسؤول مصري أو أوروبي بدخول بلاده طوال فترة حكمة وكذا عدم خروجه لمقابلة أي مسؤول من الحكومة المصرية الإنكليزية، هذا الموقف يعتبر مظهراً استقلالياً واعتداداً بالذات وإدراكاً لما وقع فيه الزبير ود رحمة من أخطاء حين سافر إلى القاهرة بحسن نية، فتم احتجازه هناك إلي أن قضي نحبه، هذا مما يؤكد علي قدرة السلطان علي دينار علي الاعتبار بمفردات التاريخ ووعيه لمرامي الإنجليز في المنطقة، وقدرته علي المراوغة والمرونة في التعاطي مع الأضداد دون التفريط في مكتسباته التي حققها بعزم واقتدار. مما مضى يتضح أن السلطان علي دُينار أفلح إلي حد كبير في استعادة السلطنة الفوراوية فأقام فيها نظاماً إدارياً شبيهاً بنظام إلسلطنة في عهد أجداده. وأنشأ بها نظاماً قضائياً مستقلاً يعتمد الكتاب والسنة باعتبارهما مصدراً للتشريع الإسلامي. وعين علي كل جهة مقدوماً يتولى الإدارة السياسية والاقتصادية والعسكرية. وقسم البلاد إلى حواكير، وأنشأ جيشاً لحماية البيضة في البلاد. وقام بإزاحة كل العقبات التي تعترض هيمنته علي البلاد. فقام بطرد عربي دفع الله من دارفور[36]. واخضع القبائل التي لم تدن له بالسيادة. وفي مجال العلاقات الخارجية كان له نشاط وافر اقتضى تخصيص هذا السفر للإلمام بأطرافه حسبما توفر للكاتب واستطاع جمعه من وثائق ومراسلات ومطبوعات.

---

(35) يراجع في ذلك كتابنا العلاقات السودانية المكية عبر القرون الذي صدر مؤخراً عن الدار العربية للنشر بالقاهرة 2005م وبحثنا الذى نشرته الندوة العلمية الكبرى لمكة عاصمة الثقافة الاسلامية / سبتمبر 2005م / المحور التاسع.

(36) A.B. Theobald. OP. Cit. PP. 34.

الباب الثاني

خطر التنظيم الفوراوي والدولة المهدوية

الفصل الأول: علي دينار ومقاومة القائد المهدوي عربي دفع الله

الفصل الثاني: علي دينار والمواجهة مع الفكي سنين ود حسين

الفصـــل الأول

عـــلي دينـــار ومقاومة القائد المهدوي عـــربي دفـــع الله

بعد استيلاء علي دينار علي الفاشر عاصمة أجداده. وتحقق الحلم الفوراوي النزاع إلى الاستقلالية تتويجاً لمقاومة شرسة دامت لأكثر من أربعة وثلاثين عاماً. سقط فيهـا خيرة رجالات الفور وقياداتهم، واجه علي دينار أخطاراً أهمها الجيوب المهدوية فـي الجنوب والغرب. ولا شك أن تعامله مع هذه الجيوب يكشف لنـا جانبـاً هامـاً مـن شخصيته وعلاقاته بالمهدية فكرة ودولة.

وأحد هذه الجيوب المهدوية كان علي رأسه عربي دفع الله وهو من قبيلة البقارة. وهو من القيادات المهدوية المخلصة المؤمنة بالفكرة المهدوية إيمان العجائز كما يقول أهل أصول الدين من شيوخنا، وكإيمان كثير من أهلنا الغبش المخدوعين والمغيبين عن الحقيقة المرة والمنتمين إلي أحدي الطائفتين أو ممن ينتمون إلي الطبقة الجديـدة مـن الأحزاب العقائدية التي خدعت قطاعاً كبيراً من المتثاقفين. بيد أنها بشقيها قد سـقطت في أولي عتبات التجربة العملية واستبان أمرها لكل ذي بصيرة. ولله در عمر الخليفـة الراشد حين جاءه أحد الناس يزكي آخر فسأله عمر رضي الله عنه بقوله: هل سافرت معه؟ هل تعاملت معه بالدرهم والدينار؟ فقال الرجل لا. فقال عمر أنـت لا تعرفـه. ونحن نشهد علي أن من كنا نحسبهم في مقامات السلف الصالح تقوي وورعاً اكتشـفنا أنهم فراعنة ودجالي سياسة ليس إلا. وقد ترقى عربي دفع الله في مناصب عدة ونـال ثقة القيادة المهدوية. ولقد كان بحق من الأفذاذ الذين لا يبيعون مبادئهم بالدرهم والدينار كما هو حال كثير من القيادات السياسية المعاصرة سواءُ أكانت إسـلامية أو علمانيـة عقائدية أو طائفية. فعمل عربي دفع الله مساعداً لوكيل أمارة دنقـلا مسـاعد قيـدوم

1307هـ . وفي 10 ربيع الثاني 1311هـ، 21 أكتوبر 1893م أرسله الخليفة بدلاً من أبي قرجه عاملاً علي بحر الجبل فوصل الرجاف في أوائل 1894م. وكان القصد من إرساله صد الهجوم البلجيكي ومحاولة إيقاف تقدم البلجيكى في هذه المناطق. وظل يحمل الراية المهدوية مدافعاً عن حدود دولتها. ودخل في معارك ضارية مع البلجيك ولم يثنه عن عزمه تخلي بعض القيادات المهدوية غير المخلصة لمبادئها من العملاء أو هروب أفراد من قواته والتحاقهم بالبلجيك. الأمر الذي يدل علي ضعف الانتماء للفكرة وأن الدولة المهدوية بدأت تتهدد حصونها من داخلها. وأن المهديون قد تم اختراقهم بصورة أو أخرى وأن البعض كان يدين للمهدية كرهاً لا طوعاً. وهذا النوع من الولاء السياسي سرعان ما تتكشف عورته ويصّبح فيه الصديق عدواً ويخر السقف علي الجميع. ولعل خير مثال علي ذلك في عصرنا ما حدث في العراق وما جرى وما يجري في السودان الآن يعطي قراءة صحيحة لهذه النظرية. وعند دخول الحملة الإنكليزية لأم درمان ومطاردتها للخليفة غرباً علم عربي دفع الله بذلك ففر بجيشه إلى شكا. وأرسل السردار قائد الحملة الإنكليزية المصرية في أثره مجموعة من الباشبوزق لمطاردته[1] ولما كانت شكا واقعة ضمن حدود دارفور لذا فكر علي دينار بعد تسنمه العرش في ترسية أركان حكمه. وأولى أمر هذا القائد العنيد الذي استطاع أن يحمي الدولة المهدوية من شرور الهجمات البلجيكية ردحاً من الزمن عناية خاصة حتى لا يشكل خطراً علي وجوده في المنطقة. وهناك دافع آخر وهو الحصول علي السلاح الذي معه حتى يتقوى به علي دينار في مواجهة ما يستجد من أحداث وتأميناً لحدود سلطنته الجنوبية. وليضاعف من عدديته العسكرية.

وفي هذا الأثناء ووجه عربي دفع الله بقوات متعددة المقاصد أولاها: الباشبوزق بقيادة كل من عبد الرحيم أبو دقل الحمري والقائد حسن وراق وقد تم ابتعاثهم بإيعاز من السردار لإستئصال شأفة المقاومة المهدوية في البلاد. وهؤلاء اساساً كانوا من القيادات المهدوية ولكنهم لم يكونوا من أصلب العناصر لأصلب المواقف. وثانيتها: بقيادة محمد على الدادينقاوى في أواخر 1899م وهو مبتعث من قبل على دينار. لذا

[1] نعوم شقير: تاريخ السودان، تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم، بيروت دار الجيل، سنة 1981م، ص 848، 849، 951. أنظر أيضا: يونان لبيب رزق، السودان في عهد الحكم الثنائي الأول (1899 – 1924م) مصر/ القاهرة/ معهد البحوث والدراسات العربية، 1976، ص 241.

هجر عربى (شكا) إلى كالاكا [2]. ويرجح أن عربى دفع الله قد ترك الرجاف قبل قدوم كل من حسن وراق وعبد الرحيم أبو دقل لضغط البلجيك المتكرر عليه وتفرق رجالاته عنه. لا سيما بعد واقعة الرجاف واستبساله وهزيمته أمام أعدائه. وقد فر في معيته عدد من الأنصار. وحاول الاتصال بقيادته في أم درمان بيد أن الحملة الإنكليزية كانت قد وصلت أم درمان وسيطرت علي الموقف تماماً. ولم يكن أمام الخليفة بد ففر في وجهها تجاه الغرب [3] في 2 سبتمبر 1898م.

ويؤيد الرأي السابق ما ورد في تقرير سابق للمخابرات جاء فيه: (قاعدة عربى دفع الله من المحتمل أن تكون في شكا .... ترك شكا إلي كالاكا) [4].

وتبدو درجة اهتمام على دينار بتصفية الجيوب المهدية بإنفاذه حملة بقيادة محمد على الدادينقاوى وفضل الله ودغور في بداية حكمه لاستئصال شأفة أذناب الدولة المهدية وتصفية جيوبها في المنطقة، ووأد أية مقاومة مهدوية يمكن أن تتخذ من حدوده نقطة انطلاق لعملياتها التنظيمية أو العسكرية. وقد تم ذلك في أواخر 1899م.

وبذل السلطان جهدا جديراً بالملاحظة تجاه تصفية وجود قوة عربى دفع الله في المنطقة بإنفاذ ثلاث حملات متوالية في أقل من أربعة اشهر. ودارت بين هذه الحملات وعربى دفع الله معارك ضارية كسب عربى أولاها. بيد أنه واجه نقصاً في المواد التموينية وحاول خلق جبهات إمداد فطلب العون من سلطان دارسلا (أبو ريشة) الذي تمكن من إمداده بإمدادات محدودة. بيد أنه لم يستطع الاستمرار في ذلك الموقف حتى مارس 1900م.

وفى 17مارس بعثت الحكومة الثنائية في الخرطوم خطاباً إلى عربي حيث كانت حريصة على استئصال جذور المهدية من البلاد بأي وسيلة وبأسرع فرصة ودون هوادة. وفي الوقت ذاته كانت جادة في القضاء على أية قيادة ذات صبغة دينية بإمكانها

---

(2) يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 241، أنظر أيضا:

G. D. Lampen. OP. Cit. PP. 196-197.

(3) نعوم شقير، مصدر سبق ذكره، ص 950 – 951.

(4) يونان لبيب رزق مصدر سبق ذكره، ص242 أنظر أيضا:

S.I.R. 65 /2 Ist Sep to 20th Nov, 1899.

أن تشكل خطراً على الوجود الإستعماري في البلاد. إذ كانت تخشى من تفـريخ مثـل هذه الجيوب وتشكيلها خطراً لا يدفع، فطلبت منه ابتداءً الاستسلام وحاولت إغراءه بأن العفو سيشمله إن استسلم. وبعثت بخطاب آخر لعلي دينار طلبت منه فيه عدم التعرض لعربي دفع الله في حالة قدومه صوب أم درمان(5). في هذه الحالة تضاربت مصـالح الفريقين فحاول علي دينار أن يلعب الورق لصالحهٔ بذكاء وبوعي. فلم يستجب لطلـب الحكومة الثنائية بالكف عن ملاحقة عربي دفع الله لأن له أجندته الخاصة.

وفيما يبدو أن هذا الحل لم ينل رضا علي دينار. إذ أنه كان يرغب في القضـاء علي عربي بنفسه والاستيلاء علي ما معه من أسلحة ورجال لتقوية نفـوذه وتعزيـز موقفه. لذا لا غرابة أن أبدي تذمره من إجراءات الحكومة الثنائية بإرسالها قوة مكلفـة بمطاردة عربي دفع الله تتكون قيادتها: من حسن وراق وعبد الرحيم أبو دقل. ولإفساد مسعى الحكومة بذل علي دينار وشاية للحكومة الثنائية فحواها أن عبد الرحيم أبو دقل لا يزال يبطن اعتقاداً مهدوياً وأنه أحد إتباع الخليفة الهـارب (6). ولعلـه قصـد مـن الضرب على هذا الوتر الحساس لمعرفته بحساسية الحكومة المفرطة تجاه كـل مـن تشتم فيه رائحة المهدية. وذهب بعيداً في اتهامه لأبي دقل الذي قال عنه بأنه قد ارتكب أعمالاً غير إنسانية أثناء مطاردته لعربي دفع الله. وذكر بأنه قد ارتكب أيضًا أعمـالاً هددت أمن المنطقة عموماً ودارفور خصوصاً. ومما قاله في حق أبي دقل ما يلي: (أن شخصاً مثله غير جدير بتولي وظيفة صغيرة في الحكومة .... وإني لأوصي بمحاكمته بدلاً من أن يوظف في الحكومة) (7).

في مواجهة هذا النص وهذا الموقف من قبل علي دينار تجاه أبي دقـل لا يجـد المرء له تفسيراً سوى العداء والتنافس ومحاولة القضاء على أية قوى محلية يمكـن أن تشكل خطورة علي وجوده. إذ كان يرى في استسلام عربي دفع الله لأبي دقل تقويـة

(5) S. I.R. 68/2 9th March to 9th Apr. 1900.

(6) وحتى منتصف سنة 1899م لم يتم القضاء علي الخليفة عبد الله التعايشي الذي كان علـي رأس الدولـة المهدويـة فـي السودان.

(7) من علي دينار إلي الحاكم العام بتاريخ 22 جمادي الأولى 1318هـ.،

S.I.R. 75/5-1 8th August to 8th Nov. 1900 .

لمركز الأخير وإضعافاً لموقفه هو تجاه الحكم الثنائي في البلاد. وأن ذلك سيكون بداية النهاية للقضاء على الصرح الذي يرغب في بنائه. ويبدو أن علي دينار كان يلعب بذكاء لصالح أوراقه.

لذا ضرب صفحاً عن خطاب الحكومة السابق بالأعراض عن عربي دفع الله والسماح له بالقدوم إلى أم درمان. حيث كان يرغب في هزيمته وضمه إلى معسكره تقوية لنفوذه، وتعزيزاً لموقفه. فحاول أن يركز في خطاب أرسله إلى المفتش العام علي نقطة مفادها انشغاله هذه الأيام بقضية: (المخذول الشقي عربي دفع الله بالحدود) [8]. هذا بعد أن أعلن الحكومة بتعزيزه لقواته وتجهيزها بالمعدات الكافية لمهاجمة عربي دفع الله بقوله: (لقد قمت بإرسال أربعة آلاف بندقية للهجوم علي عربي دفع الله وطرده. وأني لآمل في القضاء عليه حالاً) [9]. هذا الخطاب أرسل بغية أن يؤدي دورين أولهما: إشعار الحكومة بأنه مستمر في ملاحقته لعربي دفع الله. وثانيهما: إشعار الحكومة الثنائية بقوته وقدرته على تطهير حدود دارفور من أي وجود غير مرغوب فيه. وأن لديه من العتاد والرجال ما يمكن أن يرد به على كل معتد على بلاده.

وعلى الجانب الآخر صمد عربي دفع الله صمود الأبطال. ولم يتنازل عن قناعته بدعوته أو يمتثل بالاستسلام لمن حطم دولته، وهزم قيادته. وفي الوقت ذاته لم تحدثه نفسه بالاستسلام لعلي دينار إذ كان يرى في ذلك خيانة لمهدويته فلا عجب أن ظلت علاقته بعلي دينار رديئة. وتحت ضغط الظروف أصابه قلق تجاه الاستسلام للحكومة الثنائية لاسيما بعد انفصام العلاقة بينه وبين حليفه أبو ريشة سلطان سلا الذي كان يمده بالسلاح. ووردت إشاعات قوية بأن عربي دفع الله عزم اللجوء إلى سلطان بورنو طلباً للأمان عنده [10]. بيد أن هذه الشائعات لا أساس لها من الصحة حيث ظلت مقاومة عربي صامدة حتى يوليو 1902م. وما يمكن قوله أن عربي دفع الله نموذج رائع

---

[8] خطاب من علي دينار إلي المفتش العام في 29 رمضان 1318هـ S.N.A Intell 7/1/2

[9] من علي دينار إلى القائم بأعمال الحاكم العام في 12 جمادي الأولى 1313هـ S.I.R 75/6

[10] خطاب من أحمد سالم النور إلي أخيه شيخ الأضية علي جمعة بتاريخ 1901/4/14 S.I.R. 75/6

للوفاء والإخلاص للفكرة والدعوة المهدوية رغماً عن أنه لا ينتمي إلي قبيلة المهـــدي. وقد ظل مخلصاً في وقت تنصل فيه الجميع عن إنتمائهم السابق للمهدية، وإن كانوا من قبيلة الدناقلة التي جاء منها المهدي. أو من الأشراف أو من التعايشة.

ونتيجة لصمود عربي دفع الله فقد طلب كرم الله شيخ محمد من علي دينار السماح له بقيادة جيش ضد عربي دفع الله. بيد أن شكوك علي دينار في حديثـــه وهـــو قائـــد مهدوي سابق ورجل إدارة محنك وخوفه من إنضمام كرم الله إلي عربي بعد وصـــوله إلى معسكره وتشكيله قوة مرهوبة الجانب يمكن أن تهدد وجوده في المنطقة لـــذا لـــم يوافق علي اقتراحه و أرجأ طلبه[11].

أن هذا التقرير بإشارته المتقدمة يلقي الضوء علي فترة علي دينار في أم درمــــان إذ أن وجود كرم الله شيخ محمد وهو أحد القيادات المهدوية الدنقلاوية في معسكر علي دينار أمر له أهميته. حيث نلاحظ أن علي دينار قد أفلح في أن يضـــم إلـــى تنظيمـــه السري كل العناصر سواء أكانت عربية أو فوراوية، شمالية أو جنوبية. مما يدل على قدرته على التأثير حيث تمكن من اختراق حصون مهدوية قيادية وكسبها لصفه، مـــن أمثال كرم الله شيخ محمد وهو قائد مهدوي وذو مكانة مرموقة في الدولـــة المهدويـــة. وهو من التجار الدناقلة الذين استقروا في بحر الغزال واستجاب للدعوة المهدوية وبايع المهدي الذي أرسله أميراً على بحر الغزال التي استسلمت ودانت له وبقي فيهـــا إلـــى 1886م حيث استدعاه الخليفة. فأنضم إلى أخيه كرقساوي في شكا وبقيا فيهـــا بـــأمر الخليفة إلى 1888م[12] بعدئذ دعاه الخليفة إلي أم درمان[13]. فوجود كرم الله بعدئذ في معسكر علي دينار يعني انضمامه لأنصار السلطان علي دينار أثنـــاء تواجـــدهما فـــي أم درمان، ويدل ذلك أيضاً على أنه قد فر مع علي دينار عشية معركة كرري – وربما يشير هذا الأمر إلى أن عدداً من (جلابة) بحر الغزال القدماء كانوا يدعمون علي دينار في قضيته العادلة المتمثلة في إحياء سلطنته ويرون في ذلك فرصة جديدة لهـــم فـــي

[11] S.I.R 93/78 Ist Apr, 1902.

[12] نعوم شقير، مصدر سبق ذكره، ص412 –419.

[13] نفسه، 726.

الانتعاش التجاري وممارسة مهنتهم القديمة. وبقراءة متأنية يتضح أن الولاء الديني والفكري والمعنوي كان ضعيفاً لدى بعض القيادات المهدوية. وأن الدين لم يتمكن في النفوس بالقدر اللازم لاستمرار الدعوة والفكرة المهدوية بعد أن أفلت شمس القائد الملهم الذي أدعي أن أمره موصول بالسماء وحاول خليفته من بعده أن يأخذ القفاز ويلعب علي ذات الوتر ويغزل علي منوال سلفه. بيد أن الرياح قد أتت بما لا تشتهي السفن. ولربما لعبت الظروف السياسية بعد وفاة المهدي دوراً بالغاً في التفكير المصلحي الذاتي، حيث شعرت بعض العناصر بالغبن فبدأت تفكر في مصالحها أكثر من التفكير في الدعوة والفكرة والدولة. ولأن نبوءات المهدي قد استبان زيفها وتحطمت علي صخرة الواقع. وبالتالي فأضحي الأمر أمر سياسة ومصالح . وهذا لا يبعد عن الحقيقة كثيراً لأن ما حاق بالإسلاميين في عهد الإنقاذ بعد وصولهم إلى السلطة وتخليهم عن كثير من مبادئهم يصب في صالح هذا التحليل الموضوعي والمنطقي في آن واحد. ونلاحظ انه في عهد الخليفة خمدت روح الحماسة والدافع الديني القوي الذي أشعل المهدي جذوته بشخصيته الكارزمية الجذابة. وظهرت الجهوية فأفسدت صفاء الدعوة وهذا بالضبط ما حدث في عهد الإنقاذ حين سقطت ورقة التوت عن الإسلاميين، وظهرت كثير من القيادات على حقيقتها دون رتوش ووقفت أمام مرآة السلطة بقبيح سوأتها الكريهة دون حياء. وصدق من قال: إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

ولا تبدو أية غرابة في شكوك علي دينار تجاه كرم الله. إذ أن الشك في مثل هذه المرحلة ضرورة يقتضيها الوعي السياسي والقراءة الذكية لمعطيات الواقع، فإن من بايع صاحب الفكرة والدعوة كان حرياً به أن لا يتحول تحولاً كاملاً. كما أن من يبيع فكرته ودعوته بهذه الكيفية لا يستبعد أن يبيع غيره ويكون شخصاً نفعياً، وهذا النوع من البشر من أسوا خلق الله إنسانا إذ ينبغي أن لا يعتمد عليه من قبل القيادة الواعية الذكية. وإذا لم تستبن الأمور ولم تتباين الخيوط فإن الحذر لازم والتحقق واجب. وهذه مشكلة السياسة السودانية أمس واليوم وغداً وبعد غد ما لم يمسك بزمام الأمر قادة على مستوى من الوعي والإدراك اللازم إزاء من يغيرون ملابسهم وجلودهم ومواقفهم بين الحين والآخر من أجل السلطة والسمعة والمنصب والدراهم المعدودة. فهؤلاء لا يؤمن

لهم جانب ولا يمكن الاعتماد عليهم فهم أخس خلق الله علي الإطلاق إنساناً. وبالتالي ويل للإنقاذ من شر اقترب.

وفي الوقت ذاته كان اهتمام الحكومة الثنائية بخضوع عربي دفع الله لا يقل عن اهتمام علي دينار. وكانت ترجح كفة علي دينار باعتباره أهون الشرين ولعل ذلك يفسره خطاب الحاكم العام إلى علي دينار مهنئاً إياه بانتصاراته الأولية على خصمه عربي دفع الله بقيادة محمد علي الدادينقاوي وودغور والتي تم بموجبها إجلاؤه عن شكا. هذا بعد أن قام علي دينار بإعلان انتصاراته,تلك[14] بهذا الإعلان أراد السلطان أن يرجح كفته في موازين حسابات الحكومة الثنائية في المنطقة لعل ذلك يردها عن أية نية تجاه بلاده، وأن تنظر إليه بعين الاحترام والتقدير.

أما عربي دفع الله رغماً عن شح الموارد وانقطاع السبل عن إمداده لم يرق له التسليم. بيد أن الظروف التي أحاطت به كانت أكبر وأقوى من عزمه الصارم، والهجمات المتوالية على قواته كانت أعتى من رجالاته وعتاده. إذ أحاط به الأعداء من كل جانب. وكان تصميم علي دينار قوياً لإخضاع كل الجيوب المهدوية بغية إرث ما لديها من خبرات وعتاد ورجال[15]. وتحت مطارق هذا الضغط المتواصل استطاع عربي دفع الله أن يصمد وأن يقوي قبضته على داركارا مدة سنتين ونصف من الزمان، ولما لم يكن من التسليم بد لأحد المعسكرين فضل الانضمام إلى علي دينار أبن وطنه ودينه[16].

و في محاولة لإخراج الاستسلام في ثوب مقبول كتب عربي دفع الله خطاباً إلى علي دينار يطلب منه فيه الإتحاد معه فأجابه علي دينار بالقبول. حيث رأي علي دينار في ذلك نصراً لمجهوداته لكي ما يتفرغ لجبهات أخرى. فقدم عربي الله الفاشر في 5 ربيع الآخر 1320هـ الموافق 1902/7/9م يصحبه ستمائة رجل ومائتا فارس وثلاثة آلاف بندقية وخمسون صندوقاً من الذخيرة[17]. لقد عزز ذلك الانضمام من

---

[14] S.I.R. 65/2 Ist Sep. to 20th Nov. 1899

خطاب من علي دينار إلي الحاكم في 1 رمضان 1317هـ S.I.R. 67/19 D/A

[15] A.B. Theobald OP. Cit. PP. 54-55.

[16] نفسه، ص 54 –55 أنظر أيضا: S.I.R 98/6 Ist to 30th, Sep. 1902

[17] نفسه S.N.A intel 7 1/4

موقف علي دينار ورفع من روحه المعنوية. ونفخ روحاً جديدة في سلطنته الناشئة وقوته الصاعدة.

وخرج علي دينار بنفسه لاستقبال القائد المهدوي بعد أن عسكر الأخير خارج الفاشر يوماً كاملاً. لاشك أن ذلك السلوك من قبل علي دينار يدل علي اهتمامه البالغ بهذا الحدث ومدي قدرته على التعاطي مع الواقع بايجابية. وقد كان استقباله لعربي دفع الله حفلاً مهيباً إذ لقيه بحفاوة بالغة[18]. ودخل القائد المهدوي الفاشر معززاً مكرماً فأدى قسم الولاء للسلطان. وذكر يونان لبيب رزق: أن استسلام القائد المهدوي كان في 1903م. إلا أن الراجح لدى الباحث بناء على ما ورد في المصادر الأولية لا سيما خطاب علي دينار نفسه إلى المفتش العام مخبراً إياه بانتصاراته علي عربي دفع الله وخضوع الأخير واستسلامه له[19]. وأن ذلك قد تم في يونيو 1902م كما تقدمت الإشارة إليه. ولم يقتصر خطاب علي دينار إلى الحكومة الثنائية علي الخبر فقط باستسلام عربي دفع الله. بيد أنه قد أشتمل على إشارة مقصودة إلى أن الاستسلام لم يتم عرضاً وعن رضيً وقناعة من قبل عربي دفع الله. وإنما جاء عربي دفع الله قهراً وغلبة وعن غير رغبة [20].

هذه الإشارة تؤكد أن علي دينار كان يهمه أن يشعر الحكومة الجديدة بقوته، وأنه قد انتصر بعدده وعتاده على هذا القائد المهدوي العنيد. مما يدل على أن هذا الأمر لا يعدو عن كونه مجرد دعاية غايتها إشعار النظام الجديد في الخرطوم بأنه رقم صعب ينبغي على النظام الجديد أن يضع له وزناً في المعادلة السياسية القائمة في البلاد. ولكننا في الوقت ذاته لا ننسى أن نقرر صحة الجزء الأخير من تقريره. إذ أن الظروف المحيطة بعربي والعقل الراجح هو الذي اقتضى تجاوبه معها فأدى إلى تسليمه لعلي دينار. أما فيما يتصل بالمبادرة لإعلان الاستسلام فلقد جاءت ابتداءً من

---

(18) نفسه S.N.A intel 7 1/4

(19) علي دينار إلى سلاطين 29 شعبان 1320هـ، 30 نوفمبر 1902/12/1م.

G.D. Iampen Op. Cit. PP. 197-198 .,

(20) الخطاب السابق، أنظر أيضاً: يونان لبيب، مصدر سبق ذكره، ص 241 ~242 أنظر أيضا:

S.N.A. Intel 7/1/2.

عربي دفع الله وكان بإمكانه لحظتئذ الانضمام إلى أية قوة أخرى في الجنوب أو الغرب بل إلي الحكومة الثنائية نفسها. ولكنه بموازنات صيائبة قدر أن الإنضمام إلـي علـي دينار هو أفضل الأطروحات التي بين يديه. وقد سبق أن طلبت الحكومة الثنائية خطب وده وأقدمت على إغرائه ببذلها له العفو والأمان بيد أنه قد آثر الانضمام إلى إبن جلدته على الغريب، وهو تقدير صائب بكل المقاييس ومتقدم على فهم كثيـر مـن القيـادات السياسية الحالية. وبالرغم من محاولة الحكومة الثنائية تسهيل مهمة استسلامه لها بيـد أن نفسه لم تساعده أو تحدثه بالميل والإلتحاق بها فأختـار أهـون الشـرين إذا جـاز التعبير. وبهذا التصرف الحكيم أثبت وطنيته وقوميته وأصالة دينه حين قرر الإنضمام إلى بني جنسه وبني وطنه. وقدر أن الانضمام تحت أي مسمىً إلى الحكومة الثنائية فيه خيانة لفكره ودعوته التي ظل مخلصاً لها رغماً عن إختفاء رموزها وزوال رسومها. هكذا في تقدير الباحث غير المنتمي يكون أصحاب الدعوات الذين لا يتزحزحـون ولا يتلونون ولا يركعون ولا يركبون مع الموجة الغالبة يتقلبون معها ذات اليمين والشمال، كما هو حال كثير الآن ممن ذاقوا طعم السلطة فكل يوم يخلعون جلداً ويلبسون جلـداً آخر بغير حياء ولا خلق ولا كرامة ولا دين. وقد فاق عربي دفع الله بهذه التصـرفات أهل زمانه وكل القيادات التاريخية والزعماء الطائفيين الثلاثة ورؤساء العشائر الـذين ارتموا بلا خجل ولا حياء في أحضان الغزاة المحتلين. وشكلوا طابوراً خامساً داخـل البلاد وعملوا بجد واجتهاد علي تخدير الجماهير باسم الدين، وبـذلك كسـبوا موقعـاً مرموقاً في ظل النظام الاحتلالي البغيض، وملكوا أراض وريعاً في العاصمة المثلثـة ثمنا لطاعتهم وتسويقهم لفكره وتسويغهم لوجوده. وأحسب أنه قد آن الأوان لأن توضع النقاط فوق الحروف وأن يكتب التاريخ بلا رتوش أو أصباغ زائفـة ودون خـوف أو وجل بغية إعطاء كل ذي حق حقه، فكفي نفاقاً وكـذباً وتزييفـاً للحقـائق وللتـاريخ، فالوثائق لم تعد طلسماً أو سراً من الأسرار المقدسة التي لا يصل إليهـا أحـد، وهـي موجودة في كل من دار الوثائق القومية بالخرطوم وبدرم بانجلترا بمدرسة الدراسـات الشرقية وبالقلعة بجمهورية مصر العربية. لقد آن الأوان ليتم فضح أصـحاب المجـد الزائف في هذا البلد الأبي. لأن تاريخ هذا البلد وهذه الأمة هـو ملـك لهـذا الشـعب

ولأبنائه البررة. لقد انتهي عهد تاريخ أصحاب الجاه والسلطان، وعهد أولئك المنافقين من الأكاديميين الذين يتزلفون على موائد أصحاب المجد الزائف ويطلبون كسباً رخيصاً وثمناً بخساً عن طريق ليّ الحقيقة وتزوير التاريخ الذي يكتب وفق أهواء هؤلاء السادة وإرادتهم الزائفة. ينبغي لهذه الأمة أن تطلع على الحقيقة التاريخية العارية من كل لبوس زائف، وعلى حقائق الماضي كما هي دون تزييف أو تزوير من قبل مساحي الجوخ ومن ماسحي أحذية الأنظمة والأسر الكبيرة الحالية والغابرة، لأن التاريخ حقائق ووقائع ينبغي أن يكتب كما هو دون مجاملة أو نفاق لأحد، ولا نامت أعين الجبناء والخونة الآكلين على كل الموائد، وهم ولا شك من شر خلق الله إنساناً سياسياً واجتماعياً ودينياً وأخلاقياً وأكاديمياً.

وعلي صعيد آخر فإن هذا الظرف الذي أدي إلي استسلام عربي دفع الله أيا كانت أبعاده يعتبر فرصة سانحة للسلطان علي دينار للاستفادة منه واستنفاذ أغراضه. بعد وصول نبأ استسلام عربي دفع الله للحكومة الثنائية لم يكن أمامها بد من الاعتراف بالأمر الواقع وتهنئة علي دينار على هذا النصر. وبذلها له الأمان وموافقتها له على حسن استقباله والإحسان إليه[21]. وإن كانت في الواقع تعض الأنامل غيظاً وحنقاً ولكن الأمر أصبح واقعاً لا بد من التعاطي معه بعقلانية وبطول بال.

هذا الموقف يبدو أنه من قبيل المجاملة حيث من المعلوم أن إستسلام عربي دفع الله من شأنه تعزيز موقف سليل السلاطين وتقوية شوكته. ولم تكن الحكومة الثنائية يومئذ راغبة في تعزيز أي قوة وطنية بإمكانها أن تشكل خطورة على مستقبل الموقف الثنائي في البلاد عموماً. ولا يغيب عن الذهن أن إستسلام عربي دفع الله في حد ذاته قد أزال كابوساً أقلق منام الحكومة الثنائية ردحاً من الزمن. لاسيما وهو أحد جيوب الأعداء الألداء الذين يستندون إلى مستند ديني. وكانت الحكومة الثنائية لحظتئذ تتمتع بحساسية مفرطة ضد القيادات المهدوية التي أذاقت كلاً من مصر وبريطانيا السويلات. الأمر الذي أفقدهما رجالاً وكبدهما خسائر مادية ووقتاً وجهداً. لذا لا عجب أن كان

[21] S. I .R. 66/6 Ist to 3Ist oct. 1902.

اهتمام الحكومة الثنائية بهذه الجيوب المهدوية يفوق أي اهتمام آخر، يتضح ذلك من استعجال السردار بإرسال مجموعة من الباشبوزق لمطاردة عربي دفع الله عقيب دخول القوات الغازية العاصمة المهدوية. بيد أن الأخير كان صامداً عنيداً. وكان أنموذجاً رائعاً من حيث التضحية والوفاء للمبادئ والفكرة والدعوة التي آمن بها. فقد نذر نفسه لهذه الفكرة التي أخلص لها ولم يتزحزح عنها قيد أنملة ووفق معادلة موضوعية ومنطقية وواقعية وزمانية، رجح بموجبها الإنضمام إلى علي دينار كما قدمنا بدلاً عن العدو الغازي الذي كان رمز الكفر والطغيان والإستبداد والعدوان والإحتلال وقانون الغاب.

هذا وبالرغم من إستسلام عربي دفع الله وإنخراطه في خدمة علي دينار إلا أنه بذلك لم ينج من الشكوك التي أحاطت به كما أحاطت بغيره من قواد المهدية الذين استسلموا لعلي دينار وانخرطوا في خدمته. حيث تم إعدامه1915م لشكوك دارت حوله[22]. ونتيجة لهذه الشكوك رأي علي دينار التخلص منه . أما عربي وهو قائد مهدوي مجرب فلربما قد شعر بدقة موقف السلطان، فحاول اتخاذ موقف معاد له مما أودى بحياته.

وبذا انطوت صفحة قائد من قيادات المهدوية المخلصة. وأثبت علي دينار أنه كان مستقلاً في تفكيره وفي موقفه. وأن علاقته بالمهدية لا تعدو عن كونها رضىً بالواقع. ولكنه في الوقت ذاته كان يضمر لها العداء. هذا خلال تواجده في الفاشر أو أم درمان على حد سواء.

(22) G . D. Lampen OP. cit. PP. 198.

الفصـــل الثانـــي

السلطان علي دينار والمواجهة المسلحة مع الفكي ود حسين

سبقت الإشارة إلى أن علي دينار بعد استرداده لعاصمة سلطنة بلاده وإرث أسلافه اتجه أول ما اتجه إليه إلى تصفية جيوب الوجود المهدوي في المنطقة. وكانت أولاهـا بقيادة القائد المهدوي العنيد عربي دفع الله في الجنوب والذي مرت قصته في الفصـل الأول من هذا الباب. وكان الجيب الثاني في الغرب بقيادة الفكـي سـنين ود حسـين التاماوي.

سنين التامـــاوي:

أصل سنين ود حسين: هو عربي الأصل قدم جده الأكبر من الشـرق إلـى دار تاما، فأقام بها وهو من قبيل الأشراف وتزوج من قبيلة تامـا. وبـذا أصـبح يعـرف بالتاماوي نسبة لأمه وهذا شأن عربي وسوداني مكّين إذا قدر للشـخص أن يعـيش أو يزور أهل أمه فإنهم ينادونه بنسبة أمه وأهل أبيه ينادونه بنسبة أبيه. وأصـبح لسـنين نفوذ عظيم وسط قبيلة تاما لهذه النسبة إلى الأرومة الشريفية. وهذا شأن عربي قديم في السودان فإن العرب حين قدموا إلي السودان شرقه وشماله وغربه قدموا فـي الغالـب الأعم رجالاً دون نساء. ولخلوص العناصر العربية الوافدة من داء التعويـق الـداخلي والتي قبلها أهل البلاد الأصليين طوعاً وحباً فقد تزوجوا من أهـل الـبلاد الأصـليين وتكاثروا معهم دون استعلاء أو ازدراء، عكس العنُصر الأوربي المتصلف الذي جـاء متسلطاً ومحتلاً ومستغلاً للعباد والبلاد ومستعلياً على أهل البلاد الوطنيين وزارعاً بينهم

الفرقة والشتات. وهذا الوجود العربي الكثيف في دارفور يؤكد ما سبق تقريره من جريان الدم العربي في عروق كل سكان دارفور دون تمييز بين قبيلة وقبيلة أو عرق وعرق.

وما أن سمع الفكي سنين ود حسين بدعوة المهدية حتي آمن بمبادئها ولبى مطالبها سراعاً، لاسيما وأن القائم بأمر هذه الدعوة يدعي نسبة الأرومة الشريفية. ولقد تمكن الفكي سنين في وقت وجيز من أن يجمع حوله عدداً ضخماً من أفراد قبيلته التاما، معلناً ولاءه المطلق والصادق للدعوة المهدوية الجديدة دون شرط أو أدنى تردد. واتجه فوراً صوب أم درمان حيث وصلها بعد وقت وجيز من سقوط الخرطوم يوم الجمعة ساعة الصلاة في يد الجيوش المهدوية. فرأي المهدي بأم عينيه ذلك العدد الضخم بصحبة الفكي سنين ود حسين وهو قادم لمبايعته فسأل عنه فأخبر به فدعا له ولهم وأمرهم بالإلتحاق بعبد الرحمن التاماوي تحت قيادة حمدان أبو عنجة وهما يقاتلان يومئذ في جبهة جبال النوبة [1].

ولقد أصبح سنين من المخلصين لدعوة المهدية فقاتل ببسالة تحت قيادة حمدان أبو عنجة. وبعد وفاة المهدي، استدعى لأم درمان فاستجاب لنداء الخليفة دون أدنى تردد وقام بتجديد البيعة على يد الخليفة. وأرسل إلى الغرب مرة أخرى. وقاتل في القلابات (1887- 1889م) ومن ثم صحب الأمير عبد القادر دليل الذي أرسل في عهد الخليفة عبد الله ليحكم في غرب دارفور تحت إمرة عثمان آدم في كبكابية[2]. وبعد وفاة القائد المهدوي عثمان آدم استدعى عبد القادر دليل إلى الفاشر ليحل محال الفراغ السياسي الذي خلقه موت القائد المهدوي في الفاشر. وقبل مغادرة الأخير كبكابية موقع عمله عين في مكانه سنين حاكماً علي غرب دارفور تاركاً لديه أسلحة كوديعة. وعقب معركة أم درمان القاصمة في كرري 1898 ومقتل الخليفة غدراً في جديد (أم دبيكرات) في 24 نوفمبر 1899م، اتجهت أعداد من الأنصار بعد مقتل قائدهم

[1] Samuel Bey Atiya: Senin and Ali Dinar S.N.R. Vol.7 (1924) Part2 P. 63.

[2] أنظر: كلاً من: يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 242 .

A. B. theobald. OP. cit. PP.35 .

الأعلى إلى الفكي سنين، وظل (الفكي) سنين على عهده متحمساً للمهدية حتى بعد سقوط الخليفة وارأس رسوم الدولة المهدوية رمز السيادة. وقد ذاع صيته باعتباره رجل دين مهدوي غيور[3]. وتسربت إليه أفواج من الأنصار تباعاً زرافات ووحداناً حتى تجمعت لديه قوة مهابة الجانب طرقت بذيوع صيتها أسماع علي دينار من حيث قوتها وصمودها وإخلاص إفرادها ومصداقية قيادتها[4]، الأمر الذي أقلق مضجع السلطان وجعله يفكر جاداً في القضاء علي نواة هذه القوة المنافسة له الخطرة في غرب دارفور، وأصبح الفكي سنين التاماوي الملجأ والملاذ لكل (الأنصار) حتى صار من معه يصل إلى أربعة آلاف من الأنصار، لذا خشي علي دينار على نفسه ودولته من تعاظم قوة سنين ونفوذه وتسلح أتباعه بالعقيدة الدينية ذات الاتجاه المهدوي الصارخ[5].

كان عمر سنين في عام 1900م إحدى وخمسون سنة وهو طويل القامة فارع الطول ذو شكل مهيب وذو أثر قوي فيمن حوله [6] مما يدل علي تمتعه بصفات القيادة والرياسة، لاسيما بعد خلو الساحة المهدوية من الرموز الفاعلة ممن ينوء بحمل عبء المقاومة، واستعادة الدولة وكرامة الأمة التي مرغ انفها الوجود الأوروبي الآثم. واستطاع سنين بشخصيته القوية الجابة وملكاته القيادية المتميزة جمع أعواناً مخلصين كانوا بمثابة مستشاريه ويده اليمنى من أمثال (أبو كابيرا) التاماوي وجبريل هواري، وعبد الله ود أزرق التاماوي[7]. إن وجود أربعة الآف مقاتل منهم ألف أنصاري صادقين على إستعداد للتضحية بأرواحهم في سبيل الله ودعوتهم المهدوية، والثلاثة الآف الآخرون لا ينكصون ولا تخور لهم عزيمة إن وجدوا الدافع القوي مع وجود شخصية قيادية متمرسة ذات لبوس ديني واضح، لا شك أن ذلك كان ولا زال وسيظل من الأمور التي كانت وستظل محط أنظار الباحثين. هذا بالرغم من سقوط الدولة

---

(3) نعوم شقير، مصدر سبق ذكره، ص 930، 945، أنظر أيضا:

Samuel Bey Atiya: OP. Cit. PP. 64.

(4) A. B. Theobald OP. Cit. PP.36.

(5) يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 242.

(6) Samuel Bey Atiya: OP. Cit. PP.67.

(7) Ibid.

المهدوية واستشهاد قادتها واستسلام قياداتها ووقوع كثير من جيوبها في أيدي الحكم الثنائي البريطاني. هذا بالرغم من أن أجزاء كبيرة من غرب السودان قد وقعت في أيدي السلطان علي دينار، إلا أن الفكي سنين ود حسين ظل محافظاً علي عهده وولائه للمهدية وتمسكه بمبادئها. وبالرغم من أنه قد انقطعت عنه الأخبار وأصبح في شبه جزيرة معزولاً بكل المقاييس، بيد أن ذلك لم يفت من عزمه علي الصمود وإستجابته الفاعلة للتحدي الراهن. كما لم يستجب لدواعي الإستسلام والخضوع وإغراءات السلطة الزمنية القائمة سواءً أكانت فوراوية أو بريطانية. وقد ظل الفكي سينين على هذه الحالة مدة عشر سنوات ما لانت له قناة ولم ينكص لحظة عن الدفاع عن عقيدته ومبادئه. كما لم يلق بالاً لتهديدات السلطان علي دينار المستمرة وهجماته المركزة. وقد أثر ذلك الموقف على دارفور سياسياً واقتصادياً وإدارياً وعسكرياً[8].

ولقد تعاظمت قوة سنين إلى درجة شكلت تهديداً دائماً لخطوط مواصلات علي دينار إلى كل من المساليت وتاما ودار قمر. إضافة إلى أن علي دينار راوده الطمع في الأسلحة التي ورثها سنين من سلفه عبد القادر دليل. وما حصل عليه الفكي سنين من جيش عمر آدم أثناء انسحابه من دار تاما 1890م. لذا طلب علي دينار من سنين الإستسلام والخضوع له وتسليم الفكي سنين كل ما لديه من أسلحة للسلطان حيث كان على دينار يعتبر دار تاما جزءاً لا يتجزأ من سلطنته. وقد جاء رد سنين على ذلك بقوله الصريح الخالي من النكهة الدبلوماسية والرافض للحلول الوسطية: (إنه يرفض الإستسلام لرجل ترك العقيدة المهدوية وهرب من ميدان المعركة)[9]. لقد كان سنين من خلال منظوره العقائدي الواضح المعالم يرى في سلوك علي دينار خيانة للمبدأ والوطن وخروجاً على العقيدة. وقد كان هذا الرد الحاسم من قبل سنين هو السبب الأول والمباشر في إشعال نار الحرب بين الرجلين. حيث اقتنع علي دينار بأن سنين لا يعرف لغة في التعاطي مع الواقع سوى لغة الحرب. فاختار السلطان علي دينار الطريق الصعب لحسم الأمر.

---

[8] 1/Ibid.

[9] يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 242.

ويمكن إدراك دقة موقف الطرفين إذا أخذنا في الاعتبار وجهة نظريهما معاً.
أولاً: يستند السلطان علي دينار في دعواه على حق تاريخي وحضاري وموروث ثقافي وسياسي وجغرافي، ويهدف بمحاولاته تلك إلى إسترداد السيادة الفوراوية المسلوبة. والسيادة الفوراوية في نظر السلطان وحدة موضوعية وتاريخية وسياسية وإدارية وعسكرية وجغرافية لا تقبل التجزئة أو التنازل. وينبغي أن تبسط على أجزاء دارفور بأكملها. أما الفكي سنين فكان مستنده ديني وفقاً للدعوة المهدوية التي يؤمن بها بأن السيادة في البلاد لله، تمارسها القيادة المهدوية خلافة عن الله في الأرض بشروطها. وأن المهدية هي خاتمة المطاف، كما أن الحكم في الإسلام لا يعرف الإرث، وأن الحركة المهدوية بحلولها في السودان قد قضت على كل الحقوق التاريخية دينياً وسياسياً واجتماعياً، وخلقت واقعاً جديداً يقوم على الكسب الديني والإخلاص للدعوة الجديدة والتضحية والاستبسال في سبيلها، كما قضت على كل الرؤى التقليدية في البلاد قاطبة. وعلى صعيد آخر فقد رأى سنين في ترك علي دينار للدعوة المهدوية في لحظات محنتها خيانة عظمي يشيب لها الولدان، وينبغي أن ينبذ نتيجة ارتكابه لهذه الجريمة النكراء لا أن يصبح قائداً في البلاد يتطاول على المخلصين من أمثال سنين ويطلب منه الإستسلام. بالتأكيد هذه هي الرؤية المهدويه الصادقة والحقيقية بيد أن آل المهدي فيما بعد نكصوا عن ذلك وجعلوا الأمر وراثة مجد ودعوة مما يعتبر مغالطة تاريخية، إذ لو أراد المهدى ذلك لجعل الأمر فى أهل بيته كما فعل حفيده الصادق وأحفاده الباقين. وما كان لأهل السودان أن يدينوا للمهدي الدنقلاوي بالطاعة لنسبه أو لقبيلته أو لشرفه وإنما دانوا له بالدين وبالدعوة الصادقة والإخلاص والزهد الذي بدا عليه، وإلا فقد كان دنقلاوياً فقيراً مغموراً إبن أسرة فقيرة صناعتها المراكب الشراعية تتحصل على قوت يومها بالكاد. وبالتالي على أحفاده أن يدركوا هذه الحقيقة المرة وأن يسيروا على ركب جدهم من حيث التدين والزهد والإخلاص، إن أرادوا أن يتقدموا الصفوف ويصافحوا الكفوف ويحرزوا سبقاً سياسياً وإجتماعياً، وألا فإن التاريخ لا يرحم والحقائق التاريخية وإن طال الزمن لابد أن تنبش وأن تبدو عارية من كل الرتوش.

ومن جانب آخر فإن موقف علي دينار من المهدية ومنذ اليوم الأول كما مر كان عدائياً وأن خضوعه لم يكن سوى إستجابة آنية للأمر الواقع وقد مجبراً أخاك ولا بطل. ولقد كان في قرارة نفسه يتحرق شوقاً للساعة التي يرى فيها تضعضع الدولة المهدوية وأفول نجمها. لذا كانت الحملة الإنكليزية المصرية وهزيمتها للجيوش المهدوية بمثابة إشعال فتيلة المقاومة لديه وشكلت ساعة الصفر لتحركه، الذي ظل يعمل من أجله جهراً وسراً سنوات عدداً من غير كلل أو ملل ودون أن يفت في عضده ما فعلته به الأيام والسنون. ولم يكن فراره في اعتقاده خيانة، وإنما كان تصرفاً طبيعياً. وقد كان في معيته يومها عدد من إتباعه بعضهم كان يتبوأ مناصب قيادية في الحركة المهدوية. حيث اتجه من أم درمان صوب سلطنة آبائه وأجداده. وما كان يظن بعد سقوط العاصمة المهدوية وتشتت شملها أن يصمد في وجهه رجل كسنين ويشكل حجر عثرة في وجه تحقيق طموحاته وأحلامه الغالية التي ظل ينتظرها ويخطط لها كل هذه السنوات. ويبدو أن المعادلة كانت تشتمل على طرف ثالث كما هو الحال مع عربي دفع الله وهو الحكومة الثنائية البريطانية. بيد أنها حتى هذه اللحظات كانت تعتمد على الشائعات وما تنقله أقلام مخابراتها حيث وردت في عام 1898م إشاعات مغزاها: أن السلطان علي دينار استطاع بقواته أن يهزم سنين وأن يحاصره في كبكابية[10].

ويتضح من قراءة وثائق هذه الفترة أن الحكومة الثنائية البريطانية وأقلام مخابراتها في السنوات الأولى لم تكن تملك ما يمكنها من معرفة ما يدور علي الجبهة الغربية بدقة. لذا لا عجب أن ورد في بعض التقارير البريطانية الرسمية عن سنين ما نصه: (وأفاد الحجاج الذين وفدوا بأن لسنين ميولاً مهدوية) (Dervish Leanings) [11] . بيد أن الملفت للنظر أن وجوداً مهدوياً علي هذا القدر لم يكن علي مستوى من التنسيق والتخطيط اللازمين في مثل هذه الظرف الحرج، فلو قدر الإتصال والتنسيق والتخطيط بين كل من عربي دفع الله في جنوب دارفور والفكي سنين ود حسين في غربها لحدث تحول ما في تاريخ السودان الحديث والمعاصر ولو

(10) S. I. R. 67/2.
(11) Ibid.

إلى حين. بيد أن ذلك لم يحدث مما يدل علي ضيق الأفق لدى تلك القيادات المهدوية ذاتها وعدم مقدرتها علي التعاطي مع المعطيات الواقعية بفاعلية واقتدار واستراتيجية.

وفي الوقت ذاته كان السلطان علي دينار علي إحاطة تامة بما يدور في غرب دارفور ومدركاً لإبعاد ما يتهدده من خطر. وبدأ يشعر أنه في سباق مع الزمن. لذا عجل بإيفاد حملة عسكرية بقيادة كيران الرزيقي في عام 1900م. وتقدر عددية تلك الحملة بأربعة الآف جندي. وقد قام هذا الجيش بثلاث محاولات باءت كلها بالفشل. وكان حصادها هزيمة السلطان علي دينار الذي فقد صوابه حيث أقدم علي إعدام قائده عقوبة له[12]. هذا السلوك من قبل السلطان على دينار يدل علي هيمنة عقلية بدائية عليه في ساعات الإخفاق والتي لا تؤمن بأن الهزيمة والنجاح متلازمان عكس توازن العقلية العلمية التي تؤكد علي أنه لا ينجح الإنسان أو ينتصر على الدوام، كما أنه يستحيل أن يكون الإنسان منهزماً علي الدوام، وللنجاح أسبابه ووسائله ومؤهلاته، وللهزيمة كذلك أسبابها ووسائلها ومؤهلاتها فكان ينبغي عليه البحث عن أسباب الهزيمة بدلاً من إعدام قائده وفقدان صوابه.

وبالنظر إلى خطابات سنين الواردة إلى الحكومة الثنائية البريطانية أراد أن يفتح بها مغلقاً وأن يدرأ بها خطر الحكومة الثنائية ولو إلى حين معلناً الولاء الظاهري لها، كما أن الإشارة إلى غلبة الحكومة الإنكليزية المصرية والقضاء على قادته في العاصمة المهدوية لم تنل حظاً وافراً من الثناء علي الحكومة لفعل ذلك. وإنما جاءت الإشارة عابرة في خطابه، مما يدل على أن سنين أراد من خطاباته هذه أن تكون بمثابة تقاة يدفع بها شر هجوم الحكومة البريطانية وخطر علي دينار. بيد أن البطاقة الرابحة يومها لم تكن في صالحه وكذلك الوقت وبالتالي فإن الأوراق التي لعبها في تلك اللحظات كانت غير رابحة. وحتى اللحظة ما فتئ السلطان علي دينار يعد عدته ويتأهب بكامل قواته للقضاء علي الفكي سنين في مهده قبل أن يستفحل أمره. ولم يطلب حتي تلك اللحظة أدنى عون من الحكومة الثنائية البريطانية حين قام بإنفاذ حملة

---

[12] يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 242.
نظر أيضا: S. I. R. 67/3. 10th Apr. to 2th May 1900.

عسكرية ثانية تحت قيادة آدم علي رجال في عام 1901م. وكان تعداد هذه الحملة قد بلغ ستة الآف جندي وخلال معركتين متتابعتين في ظرف خمسة عشر يوماً تمت هزيمة الجيش الفوراوي للمرة الثانية.

وتجرع علي دينار كئوس الهزيمة للمرة الثانية ولكن لم تلن قناته أو يضعف عزمه. كما لم يصل إلى قناعة مؤداها الكف عن مواجهة هذا المارد الجبار. لذا جهز حملة عسكرية ثالثة بقيادة محمود آدم الدادينقاوي في عام 1902م علي رأس جيش تعداده اثنا عشر ألفاً. وفي معركة واحدة تمت هزيمة الدادينقاوي[13]. لعل هذه الحقيقة تؤكد ما ذهب إليه الباحث من أهمية وضرورة وجود تنسيق بين عربي دفع الله وسنين في هذه الفترة إذ لو وجد ذلك التحالف لأحدث تحولاً خطيراً في تاريخ السودان الحديث والمعاصر ولانقلبت موازين معادلات كثيرة في المنطقة، كما لو حدث تنسيق بين هذه القيادات وبين رابح الزبير (رابح فضل الله) في تشاد لتغير تاريخ المنطقة بالكامل. وان كانت هذه هي مشكلة السياسة والقيادات السياسية الحالية في العالم الإسلامي والآسيوي والتي دفعت بأعدائنا للاستهانة بنا. إذ لا يوجد لدى الدول العربية أو الإسلامية أو الأفريقية أو الآسيوية تخطيط أو رؤى استراتيجية محددة للنظرة المستقبلية التي تحدد السقوف الائتمانية من حيث التعاون والتكامل والتكاتف فيما بين هذه المجموعات الإقليمية، وتوحيد المواقف الاستراتيجية مما جعل الأعداء يستهينون بهم. ويضربونهم الواحد تلو الآخر. إذ أن ما حدث في أفغانستان هو ذات (السيناريو) الذي حدث في العراق ويمكن أن يحدث في سوريا ولبنان لأن ما يجري الآن في لبنان ومقاومة حزب الله الفدائية المصادمة التي استطاعت لأول مرة أن تضرب في العمق الإسرائيلي وتثبت قدرة الآمة على أنجاب أبطال أشاوس بالرغم من ضباب خيبة القيادات الموجودة على السطح والتي هي أشبه ما تكون بزبد. ولا شك أن مواقف الدول العربية المخزية والمحزنة في ذات الوقت الحالية تؤكد على ما سبق ذكره. والدور القادم سيكون على السودان ومصر والسعودية وإيران. والساسة والقادة العرب دون استثناء يعيشون في غيبوبة الوعي التاريخي والبلادة الحسية والغباء منقطع النظير.

(13) Samuel Bey Atiya : OP. Cit. PP.67.

وبعد فشل الوسائل الجديدة لجأ علي دينار إلى استغلال حساسية الحكم الثنائي البريطاني المفرطة ضد كل من تشتم فيه رائحة التنظيم والقوة المهدوية طالباً منهما المساعدة وعلل تباطؤه في الالتزام بواجباته تجاه الحكم الثنائي البريطاني بانشغاله بأمر الفكي سنين حيث قال: (... وان ديارنا الذي عليها المدار هما كبكابية ودار مسلاة (مسلات) موجودين بها شخصين يزعموا أنهم من بقية الدراويش[14]. وساعين في أحياء ثورتهم فهما سنين حسين والمسلاتي وصارت لهم نايحه وقد رأينا إذا تغافلنا عنهم زيادة عما مضى يسحرون الناس ويفسدون الديار وتهيج بأهلها[15] أن الضرب علي نغمة الدراويش يعتبر أمراً مثيراً للحكومة الثنائية البريطانية التي لم تلعق أياديها بعد من جراء تصفية الثورة المهدوية وقياداتها في البلاد، وتتحفز للقضاء علي كل من يطل برأسه من القيادات المهدوية الفاعلة. وجاء خطاب السلطان علي دينار متأخراً حيث كان ينوي القضاء علي سنين أولاً ثم يزف أخبار هذا النصر للحكومة الثنائية البريطانية. بيد أن تلك الأحلام قد تحطمت علي صخرة الواقع وعناد هذا المهدوي الصامد. وبالتالي فإن حسابات السلطان لم تأت بثمارها أو بنتائجها المرجوة، لذا لم يكن أمامه من سبيل سوى استجداء الحكومة الثنائية البريطانية، مستعدياً آياها ومثيراً لحفيظتها بالعزف علي وتر الدراويش الذين يوشكوا أن يحيوا الثورة المهدوية من جديد ويقتلعوا جذور الوجود البريطاني من البلاد كلها. الأمر الذي سيفزع الحكومة الثنائية البريطاني، فتبادر إلى مساعدته لا باعتباره حليفها بل لأنه أهون الشرين وأفضل الخيارين. وأشار السلطان في خطابه المتقدم إلى أن نصره هو نصر للحكومة وهذا أسلوب إغراء ذكي، ووفقاً لما تقدم يطلب من الحكومة مدداً وعتاداً بغية تقوية مركزه وهزيمة سنين الذي دوخ جنوده وهذا ما ورد في العبارة التالية: (... فما دام اليد واحدة والنتاج منذاك عايد للحكومة نرغبوا الالتماس من سعادتكم وسعادة أفندم السردار إرسال واحدة مكنة حربية بمؤنتها من الجبخانة للمساعدة وإزالة أهل المفاسد)[16]. وفي هذا الأثناء وصل علي دينار إلى قناعة مؤداها القيام بغارات خاطفة والاكتفاء بالسلب

(14) من علي دينار إلى مفتش عموم السودان شوال 1320هـ / 1902م. S.N.A. Intell 7/1/6

(15) Ibid.

(16) S.I.R. 107/2 Ist July 1903

أنظر أيضا: Samuel Bey Atiya : OP. Cit. PP.68.

والأسر فقط دون الدخول في المواجهة المباشرة مع جيش الفكي سنين. ولعله لجأ إلى هذه الخطة ريثما يبني قواته من جديد بناء يؤهلها للتغلب على سنين وقواته.

وفي المقابل قابل سنين خطة السلطان علي دينار بخطة مشابهة حيث قام في عام 1903م بغارات خاطفة على قرى شمال كتم والواقعة شمال غرب دارفور. حيث تمكنت تلك الغارات الخاطفة من زعزعة الأمن في المنطقة ونهب ثلاثين قرية ودفعت بأهلها إلى الهجرة إلى كبكابية. وفي هذا الأثناء وإمعاناً في التصدي والصمود بنى الفكي سنين مقبرتين إحداهما لدفن السلطان علي دينار والثانية له إن حاول علي دينار أن يثأر لهذه الغارات التي قام بها سنين ولعله بذلك أراد أن يبعث برسالة قوية ومعبرة إلى السلطان علي دينار مقادها دون استلامه روحيهما معاً. وسبق القول أن سياسة السلطان علي دينار الحربية قد اكتفت بالغارات الخاطفة. لذا قام بإنفاذ حملة في عام1903م عدديتها خمسمائة رجل وكان من مهامها القيام بهجمات خاطفة دون الاشتباك المباشر. وبالفعل استطاعت هذه السرية أن تفاجئ سنين. بيد أنه سرعان ما استجمع قواه ولملم شتات رجالاته حتى تمكن من استرداد ما سلب منه وتشتت رجالات علي دينار شذر مذر. وغنم رجالات سنين خمسمائة وعشرين فرساً من جيش السلطان علي دينار بعد فرار فرسانها[17].

وأنفذ السلطان علي دينار قوة أخرى لاسترداد كرامة جيشه بيد أنها منيت بهزيمة كسابقاتها وطاردتها قوات سنين حتى جبل أساغا (أسامه بلغة أهل دارفور)[18]. إن هذه الحروب تؤكد على طبيعة أهل دارفور العنيدة التي لا تعرف المهاودة، وتشير في الوقت ذاته إلى عنف المعاملة وشراسة الطبع ولعل هذه الإشارة تفسر ما يدور الآن من حروب عصابات ومعارضة وغيرها.

ويبدو أن السلطان علي دينار بعد هذه الهزائم المتكررة قد شعر بقوة خصمه وبفشل كل وسائله للقضاء عليه في حرب خاطفة كما كان يحلم، لذا تفرغ لإعداد وبناء قواته تجويداً للأداء وإستعداداً للقاء الحاسم من جديد. ولا عجب إذن أن رأينا أن

(17) Ibid.
(18) Samuel Bey Atiya : OP. Cit. PP. 68.

الحرب بين الفريقين قد هدأت لمدة خمسة أعوام متوالية. واكتفى السلطان خلالها بالغارات الخاطفة التي اعتادت على غنم كل ما تجده من نساء وأطفال وأغنام بغية الفت في عضد الفكي سنين ود حسين، أما الرجال من أتباع سنين فقد درج السلطان على قطع أيديهم وأرجلهم ويتركون تحت رحمة الموت. لعله بهذه القسوة قصد إقلاق سنين حتى لا يتمكن من استعادة بنية قواته ودخال الرهبة والخوف في نفوس أتباعه للتفرق عنه[19]. وهي ذات الظاهرة الماثلة الآن بكل تفاصيلها ودقائقها. قتل وسلب ونهب وسبي للنساء بين أبناء المنطقة الواحدة من أجل الزعامة وتوحيد الإرادة. هذا بالرغم من العلاقات العرقية والاجتماعية والتاريخية القائمة فيما بين الأطراف المتضادة.

وفي منتصف عام 1906م جاءت إشاعات مؤداها أن علي دينار أخذ يعد العدة لإنفاذ حملة ضد سنين. وبالرغم من قلة عددية سنين إلا أن أهالي غرب دارفور كانوا يعتقدون أن النصر سيكون حليف سنين[20]. لا يخفي أن هذه المنطقة كانت ولا تزال ذات تاريخ عريق في الاعتقاد في الشيوخ والإيمان بالخوارق، وللسحر فيها صولات وجولات والدين في هذه المناطق يختلط فيها بالخرافة، لا سيما وأن سينين فكي ويدعي نسبة شرفية. ومصطلح فكي في غرب السودان على وجه الخصوص والسودان على وجه العموم ذو نكهة خاصة تفوح منها رائحة التأثير في الأرواح والأجساد بفضل القوى الغيبية .

ولقد شكل هذا الاعتقاد عاملاً نفسياً قوياً لدى جنود سنين ورفع من روحهم المعنوية. وفي الوقت ذاته فقد ألقى في روع جنود علي دينار الخوف. وقد أنبنى هذا الافتراض علي التجارب التي خاضتها جيوش السلطان ضد سنين. لاسيما وأن سنين من أتباع محمد أحمد المهدي. هذا الرجل الذي علي يديه ظهرت أمور لا يمكن قياسها بالمعايير الظاهرة فقط مثل انتصاره على هكس باشا وخلاف ذلك. ولا يخفى أن سنين في منطقة للاعتقاد فيها أثر كبير علي نفسية الأمة بمثل هذه الأمور التي يعدونها ضرباً من الخوارق كما قدمنا.

(19) Ibid.
(20) S. I. R. 138/4 .

ووردت أخبار في أواخر عام 1906م تفيد بأن سنين قد اتحد مع المساليت وقام بإغلاق الطريق بين دارفور ودار برقو[21]. إن هذه التدابير تبدو أنها ضرورة اقتضاها ظرف سنين الحرج. وأن اتحاده مع المساليت كان أمراً لابد منه إذ لا يقوى علي المقاومة والصمود طوال هذه الفترة دون ظهير يشد من أزره.

وقد شعر سنين بأن هذه التدابير والاحتياطات التي قام بها لم تكن ذات جدوى. لذا لا غرابة أن وجدناه يطلب من الحكومة الثنائية إنقاذه من الحالة غير السلمية التي يعيشها. لا سيما بعد ورود أخبار تفيد بأن علي دينار قد عزم علي إعداد حملة كبيرة يقوم بقيادتها بنفسه. بيد أن رجاله من المستشارين أقنعوه بالعدول عن ذلك وتولى قيادة الحملة آدم رجال. إلا أنها لم تخرج بعد، وفي المقابل ورد خطاب من المفتش العام إلى علي دينار[22] يطلب منه فيه إقامة صلح بينه وبين سنين وذلك بقوله: (فإننا نرغب كثيراً أن يتم الصلح بينكم ولابد لي أن أذكر لكم، أنه يجب عليكم عدم محاسبة أو إدانة الناس الذين يبقون في الدار. بل يجب أن ترسلوا إليهم أمانكم وعفوكم عن كل ما مضي من أفعالهم ضدكم وعدواتهم لكم والعفو من قيم الكرام)، وأرسل إليه صحبة ذلك خطاب سنين الذي طلب فيه السماح له بالذهاب إلى بيت الله الحرام والوساطة له لدى علي دينار للسماح له بذلك. فيما يبدو أن سنين قد بلغ حداً من اليأس والقنوط، ومن الغريب أن هذه هي ذات النغمة التي كررها علي دينار حين ضاقت به الحال عام 1916م. وما أن علم دينار بهذا الأمر حتي تجدد عزمه علي قيادة الحملة بنفسه. ولكن في تقدير الباحث أن ذلك كان من باب الحرب النفسية والدعاية التي يراد بها التأثير علي نفسية أتباع سينين لأن علي دينار لم يتصد ولو مرة لقيادة حملة ذات شأن بنفسه. ومعظم الحملات المصيرية أوكل أمرها إلي قيادته وما أن يفشل احدهم حتي يقوم بإعدامه أو إقصائه شأنه في ذلك شأن الخليفة عبد الله التعايشي. إذ لم يخرج لمعركة إلا مضطراً. لاسيما إذا كانت إحتمالات هزيمته واردة، فإنه لا يخرج لئلا يعرض نفسه لفقدان الثقة وتفرق أتباعه عنه. وذكرت بعض المصادر بأنه قد تخلى عن هذه الخاطرة

[21] S. I. R. 147/3 Oct. 1906.

[22] من المفتش العام الي السلطان بتاريخ 12 فبراير 1907م S. N. A Intell 7/3/8

أنظر أيضا: S. I. R. 148/6. 6th Dec. 1906

لاسيما وأن بعضاً من قادته يعارضون هذه الفكرة [23]. هذا من باب التبرير الذي يـتم اللجوء إليه في ظل الأنظمة الشمولية.

وقد ترجحت لديه يومئذ فكرة مؤداها الحصار الطويل المدى للفكي سنين وتجويع أتباعه وإجبارهم علي الهجرة إلى معسكر السلطان. وأعد لهذه الخطة عـدتها، حيـث أرسل حملة ضخمة بقيادة كل من آدم رجال ومحمود الدادينقاوي. فجاء أحـدهم مـن الجنوب والثاني من الشرق وحفر كل منهمـا خنـدقاً حـول معسـكر سـنين وبنـى زريبة[24]. للإيحاء بأن أمد هذا الحصار سيطول.

وهذا الإجراء في حد ذاته هو ضرب من الحرب النفسـية المـؤثرة علـي روح الخصم المعنوية، لاسيما إذا كان المرء في وضعية سينين الذي ظل يسبح ضد التيـار وحده في هذا الوقت الصعب، وفي هذا الأثناء كانت الحكومة الثنائية تتابع الأمور عن كثب وتترقب الموقف بحذر. فلربما كانت تريد ضرب و تحطيم القـوتين الـوطنيتين المتصارعتين ببعضهما الآخر. ويدرك المرء أبعاد هذه السياسية الأجنبية فـي الـبلاد بالنظر لما ورد في أحد تقارير المخابرات الآتي نصه: (لقد أعلن علـي دينـار مـرة أخرى نيته بمهاجمة سنين وبقيادة الجيش بنفسه ولكنني أشك فيما إذا كان سيتولى القيادة بنفسه. ومن المؤكد أن جيشه سيهزم مرة أخرى إذا كان هو في القيادة وسيعني ذلـك نهايته. ولكن في حالة إرساله أميراً فسيمكنه عزو الهزيمة إلى خطأ القائـد)[25]. مـن خلال هذا التقرير يلاحظ المرء أن الحكومة الثنائية ترغب في فناء القوتين ولا تبـدي تعاطفاً واضحاً مع أحداهما. إلى حد المساندة المادية والعسكرية. وفي ذات الوقت يقرر ما سبقت الإشارة إليه في الفقرة السابقة.

باستطاعة المرء الادعاء بأن موقف الحكومة،من القوتين المتصارعتين هو موقف المراقب أكثر منه المناصر. وإن كانت هناك ميول ظاهرة تجاه علي دينـار بإعتبـاره

---

(23) S. I. R. 157/4 Ist Sep. 1907- 8159/4 4th Nov. 1907.

(24) S. I. R. 157/4 Ist Sep. 1907-8. 159/4 4th Nov. 1907

انظر أيضا كلا من: Samuel Bey Atiya: OP. Cit. PP. 68-79

يونان لبيب رزق ، مصدر سبق ذكره، ص 243 A. B. theobald OP. cit. PP. 76.

(25) S. I. R. 157/4 Ist Sep. 1909.

ممثلاً لها، فإن ذلك لا يعدو عن كونه خط رجعة، ولصيرورته أمـراً واقعـاً ولعـل عداوتها له تدفعه للاتحاد مع هذه القوة المانعة ذات النزعة الدينية الواضحة.

وقد حاول سنين أن يمد جسور التفاوض بينه وبين الحكومـة الثنائيـة. بيـد أن خطاباته قد قوبلت بفتور شديد لأن الحكومة الثنائية كانت لا تهدف إلـى إشـارة علـي دينار[26]. وليست لديها رغبة في التعاون مع من تعتقد أن جرثومة المهدية ما زالـت تجري في عروقه. والقضية لا تعدو عن كونها موازنات سياسية مدروسة، فعلي دينار بكل المقاييس في تقديرها أهون شراً من سينين في تقدير الحكومة الثنائية.

وقد شغل حصار سنين جزءاً كبيراً من تفكير السلطان علي دينار ولا أدل علـي ذلك من قوله أنه مشغول بـ (تمهيد البلاد وتنظيفها من الأشرار ولا يخفي ذلك لمسامع سيادتكم ما نحن عليه الآن من أمر الشقي سنين وما معه من بقية الدراويش وأما مـن أسباب طول المدة التي حصلت في حصاره ..... وأرجو عن قريب مساءلتهم تنتهـي لأنه قد حصل عليهم الضيق الشديد من الجوع)[27].

ويعكس هذا لخطاب غيظ علي دينار وانفعاله من وجود شخصية عنيدة مثل سنين في جزء من أجزاء سلطنة آبائه. ويرى ضرورة أزاحته فسخر كل إمكاناته لتحقيق هذه الغاية. ثم لم يلبث أن أرسل خطاباً آخر يذكر فيه أنه قد أوشك أن يقضي علي سـنين بقوله: (إن الأحوال إن سألتوا عنها فالشقي سنين تلاشي أمره وصار في حالة ضـعف وأشرف على الهلاك، وما فضل له إلا القليل وقريباً إن شاء الله ستقضي مسألته علـى أحسن حال)[28].

من خلال هذه المراسلات كان السلطان علي دينار يهدف إلى انتزاع الاعتراف به من قبل الحكومة باعتباره كياناً مهاب الجانب. كما أراد أن يثبت أنه أقدر من يحكم في دارفور، ومن يقضي علي التمرد والعصيان في سلطنته.

---

[26] موسى المبارك، مصدر سبق ذكره، ص 233. أنظر أيضا: يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 243.

[27] من علي دينار إلى المفتش العام بتاريخ 20 ربيع الأول 1326هـ ، 1908م.
S. N. A. Intell 7/1/9.

[28] من علي دينار إلى المفتش العام بتاريخ 13 ذو القعدة 1326هـ ، 1908م.

وكان سنين علي الصعيد الآخر يمثل شخصية قوية وعنيدة في آن واحد، شخصية مؤمنة بأهدافها ومبادئها وصادقة في اعتقادها وتوجهها. الأمر الذي مد من طول فترة الحصار حيث بلغت سبعة عشر شهراً. ودارت خلال هذه الفترة مناوشات لم يقلل من حدتها سوى الخريف. وقد كان لطول فترة الحصار أثر عكسي علي جنود سنين إذ لجأوا إلى أكل الحشائش والحيوانات المختلفة دون تفريق، وأوراق الأشجار وذلك خلال الخمسة عشر يوماً الأخيرة من الحصار. وقبل ذلك هرب عدد كبير من جنود سنين وانضموا إلى معسكر علي دينار الذي آواهم واتبع معهم سياسة العفو دون عقوبة[29]. وهي سياسة ناجحة وجاذبة في ذات الوقت وفي مثل هذه الظروف بالذات.

أما سنين فلم يقف مكتوف الأيدي أمام تطور وتجدد الأحداث في البلاد عموماً وقد كان مدركاً لأبعاد الواقع الذي أحاط به. ونزولاً عليه فقد حاول عدة مرات إنفاذ رسله إلى الحكومة الثنائية باعثاً بخطاباته لها. إلا أن علي دينار كان له بالمرصاد. حيث قام بقطع أية صلة بينه وبين الحكومة. وصادر كل خطاباته المرسلة. ولم يفلت من خطابات سنين إلا خطاب واحد استطاع رسل سنين بسرية تامة إيصاله إلى الحاكم العام، وفي هذا الخطاب شرح سينين موقفه بالتفصيل. فعرض لطبيعة المشكلة القائمة بينه وبين علي دينار. وأوضح أن الأسلحة التي لديه هي عبارة عن أمانة أودعها أياه قائده عبد القادر دليل. ولهذا السبب لا يمكن أن يفرط فيها أو يعطيها لعلي دينار. لاسيما بعد ما علم بسقوط الدولة المهدوية. وأشار إلى المحاولات العديدة التي بذلها علي دينار لقطع الطريق على رسله ومصادرة خطاباته المتكررة إلى الحكومة.

ونفى أن يكون قد نصب نفسه ملكاً أو شيخاً وإنما هو علي استعداد لأن يكون موظفاً خادماً في الحكومة الثنائية، لعله بذلك أراد التعريض بعلي دينار حيث أراد أن ينفي عن نفسه التشبث بالسلطة أو السعي لها، وأكد أنه علي إستعداد لتسليم ما لديه من أسلحة للحكومة أو من تفوضه لأخذها إن أرادت. و بهذا الأسلوب أراد أن يستعدى الحكومة على علي دينار ويبدي إستعداده لإرسال خمسمائة جندي إن اقتضى الأمر.

---

(29) Samuel Bey Atiya : OP. Cit. PP. 68-69.

أنظر أيضا: S. I. R. 164/11 March 1908.

وإن لا فيطلب من الحكومة الضغط على علي دينار للسماح له بالمرور، وفتح الطريق ما بينه وبين الحكومة. ولم يغفل الإشارة في خطابه من باب الإعتداد بالذات إلى الهزائم التي ألحقها بعلي دينار في أكثر من معركة[30].

وقد أثرت تلك الخطة والاستراتيجية التي أتبعها السلطان تجاه سنين على قوة الأخير ونفسية جنوده. لذا ما أن دخلت الجيوش الفوزاوية عاصمة سنين كبكابية بعد ذلك الحصار الطويل حتى أدركت أنه لم يتبق معه إلا حوالي أربعمائة أنصاري صمدوا صمود الأبطال الأشاوس مع قيادتهم لمواجهة قدرهم المحتوم. ولقد أبت نفس قائدهم إلا أن تسقط في ساحة المعركة ليكون صاحبها شهيداً دفاعاً عن عقيدته ومبادئه، صادقاً مع نفسه، ومعه من رجالاته ابن أخيه وقائده الشهير شيخا وعبد الله أزرق. ورقصت دارفور طرباً بسقوط هذا الحصن المنيع[31].

وقد تم ذلك الاقتحام في يناير عام 1909م بعد أن تأكد قادة علي دينار من ضعف سنين وقواته. وقام السلطان علي دينار بتسجيل تاريخ هذا الانتصار في خطاب بعث به إلى مفتش عموم السودان معلناً إياه بهزيمة سنين بقوله: (انه في يوم الأربعاء الموافق 5 محرم عام 1327هـ. قد أيد الله جنودنا الذين كبكابية ونصرهم وأظفرهم بالشقي سنين وقتلوه هو وكبراء قومه وجميع من معهم ... وبيوم الجمعة 7 الجاري أحضرت لنا رأس الشقي سنين ورؤوس كبراء قومه وراياتهم وتعلق بالسوق وارتاحت أفكارنا من شواغل الفتن والضلال)[32].

يعبر هذا الخطاب عن الفرحة التي غمرت السلطان بانتصاره وتجاوزه لهذه العقبة الكئودة. وفي الوقت ذاته يعكس لنا مدى الغيظ والكراهية التي انتابت السلطان من جراء مقاومته له. وبهزيمة السلطان لسنين تنفس الصعداء وارتاحت أفكاره.كما يلقي ذلك الضوء علي مدى الجهد المبذول والإمكانات التي سخرها السلطان بغية القضاء

---

[30] هذا الخطاب جاء في 1907/6/27م S.I. R. 6412/06

أنظر ايضا: D. S. A. Box 131: Samuel Bey Atiya OP. Cit. P. 64-66.

[31] Samuel Bey Atiya: OP. Cit. PP. 68-69.

أنظر ايضا: S. I. R. 164/11 march 1908. 163/7 10/2/1908

[32] من علي دينار إلي مفتش عموم السودان في 14 محرم 1327هـ ، 1909م.

S. N. A. Intell 7/1/11

علي هذه المقاومة العنيدة التي لم تلن لها قناة طوال عشر سنوات متواصلة. ففي سبيل القضاء علي سنين فقد السلطان مالاً ورجالاً وجهد وتعبيراً عن هذا الغيظ الكامن فإن من أخذهم من نساء وأطفال جيش سنين وسمهم باعتبارهم أرقاء (33).

ولم يقتصر الأمر علي الإعلان فقط وإنما بعث برأس سنين وعلمه إلى المفتش العام لإثبات انتصاره عليه وبعث برسله إلى الخرطوم ليحملوا البشرى بالانتصار إلى الحاكم العام. وقد وصلوا الخرطوم في 15 مارس 1909م(34) وبذا أراد أن يثبت قدرته علي قهر معانديه وأنه الأقوى في الساحة وبإمكانه سحق كل معارضيه، وأنه مستعد لقهر أية مقاومة أو أية قوة تحول دونه وعرش سلطنه أجداده. كما أنه أراد بإرساله رأس سينين إرهاب المفتش والحاكم العام.

وبنهاية الحرب بينه وبين سينين قام علي دينار بتعمير المسجد الذي تهدم في كبكابية نتيجة هذا الصراع الذي ألحق بالمنطقة الخراب، وعين للمسجد إماماً للصلاة مما له دلالة علي عمق الروح الديني لدى السلطان.

وبذا انطوت صفحة آخر معقل مهدوي في البلاد. ونعم السلطان علي دينار بعدئذ بالسيطرة الكاملة علي مملكة آبائه وأجداده. وأثبت أنه أقدر وأجدر من يحكم هذه البلاد. واستطاعت جيوشه بعد لأي أن تهد قلعة ظلت صامدة لأكثر من تسع سنوات وأوشكت هذه القلعة أن تكون شرارة مهدوية وأن تعصف بأحلامه أدراج الرياح.

وتجدر الإشارة إلى أن سنين بالرغم من انقطاع كل السبل وانسدادها في وجهه كان قوي الإيمان بمبادئه، شديد التمسك بدعوته، صادق الاعتقاد بمهديته، الأمر الذي شكل وقوداً مرحلياً ضمن له البقاء كل هذه الفترة وهو يقاوم لا تلين له قناة. بيد أن العزلة التي أحاطت به والهجمة الاستعمارية علي المنطقة، والحساسية المفرطة ضد دعوته وما أحدثته من تغيير وما سببته من متاعب للوجود الاستعماري في المنطقة كان طبيعياً أن يؤدي به إلى هذه النتيجة لاسيما وهو قد واجه طموحاً فتياً تمثل في شخصية السلطان علي دينار.

(33) Samuel Bey atiya: OP. Cit. PP. 69.
أنظر أيضا: R. 163/7 10 FEB 1908

(34) S. I. R. 176/5 March 1909.
أنظر أيضا: Samuel Bey Atiya OP. Cit. PP. 69.

البــاب الثالث

عــلي دينـار ومقــاومة الإحــتلال الثــنائي

الفصل الأول:

الفترة الأولي 1898 – 1901م

الفصل الثاني:

الفترة الثانية 1902 – 1908م

الفصل الثالث:

الفترة الثالثة 1909 – 1913م

الفصل الرابع:

الفترة الرابعة 1914 – 1916م

الفصـــــل الأول

الفـــترة الأولـــى 1898-1901م

مقـدمـــة:

لقد تميزت علاقة السلطان علي دينار مـــع الحكـــم الثنـــائي فـــي الفتـــرة بـــين 1898-1916م بسمات عدة. إذ تفاوتت هذه العلاقة بين الود والشد والجذب. وشـــكل بحثها مادة ثرة بالنسبة للباحث، وتعددت المؤثرات الإيجابية والسلبية علي هذه العلاقـــة مما اقتضى تفصيل ذلك واستقصـاء جوانبه. فجاءت دراسة ذلك وفق فترات متمايزة كل فترة لها سماتها ومشاكلها وسلبياتها وإيجابياتها وأثرها الواضح علي مـــا يليهـــا مـــن فترات. لذا اقتضى الأمر تقسيم ذلك إلى أربع فترات أتى الباحث في نهاية كـــل فتـــرة منها بخلاصة احتوت علي أهم مظاهر تلك الفترة وما اقتضـــته طبيعـــة الموضـــوع. ونوعية المؤثرات علي العلاقة الفوراوية الثنائية.

والحكم الثنائي البريطـــاني هـــو ذلكـــم النظـــام الإداري والسياســـي والقـــانوني والاقتصادي والتربوي الذي أصبح علي رأسه حاكم عام إنجليزي يعتبر مسؤولاً أمـــام الحكومتين المصرية والإنجليزية في تصريف شؤون السودان المصري الإنجليزي بعد القضاء علي الثورة المهدوية في البلاد. وبذا حل ما خلفته من فراغ. والحكم الثنـــائي البريطانية وبدعة إنجليزية خالصة، وكان يومها يجسد أحدث ما أنتجته وابتدعته العقلية الإنجليزية المحتلة من غش وخداع ولعب على الذقون لفرض هيمنتها وسيطرتها علي السودان ومصر. وتم إخفاؤه تحت لبوس براق وجلباب فضفاض فكان ذلك النظام بدعة في القانون الدولي، وتحايلاً علي الشركاء الأوروبيين، شأنه شأن ما ابتدعتـــه أمريكـــا والمملكة المتحدة في نهايات القرن العشرين والحادي والعشرين من مسميات وأحلاف

ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب وغايتها فرض سيطرتهما علي العالم الإسلامي والعربي من مسميات الشرعية الدولية والحريات العامة وحقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدني. وللأسف قد انطلت الخدعة الجديدة علي الكثيرين ممن لم يعتبروا بالماضي ولم يقرأوا مفردات التاريخ بذكاء ووعي لازم، ولدغت الأمة من ذات الجحر أكثر من مرة نتيجة غباء وغفلة القيادات السياسية وغياب القيادات الفكرية الفاعلة والتي غيبت في بعض الأحيان بقصد وعمد.

ويعتبر الحكم الثنائي بكل المقاييس ردة دينية وفكرية وسياسية وقانونية واقتصادية، وشكل تسلطاً لا مبرر له من قبل قوة قاهرة غالبة أرادت أن تصبغ البلاد بصبغة علمانية غربية، وأن تصدها إلى حظيرة الذيلية والتبعية البغيضة للغرب. ولعل علي دينار في هذا الخضم كان يمثل إنعتاقاً جديداً من هذه المحاولة الجائرة ويعكس تفلتاً من تلك المحاولة الظالمة، ويبرز وجهاً مشرقاً لأمتنا في تاريخها الحديث والمعاصر برفضها للذيلية والتبعية وقدرتها علي التعبير عن هويتها الإسلامية بذات القدر الذي عبرت عنه في المهدية. ولكن من موقع غير الموقع الأول وظل يلعب دوراً لا يقل أهمية عن الدور المهدوي السابق ولكن علي مسرح جديد وبممثلين آخرين. وليت القيادات السياسية والفكرية والإجتماعية علي مستوي دارفور والسودان ككل تقرأ هذه المفردات وترقي إلي مستوي المسؤولية التاريخية في التعاطي مع مشكلة دارفور خصوصاً والسودان عموماً دون مزايدات رخيصة.

السودان والصراع الغربي:

في سنة 1890م وقعت اتفاقية بين بريطانيا وألمانيا تم بموجبها تحديد أكثر دقة لحدود المناطق الواقعة تحت نفوذ كل من البلدين في شرق أفريقيا. ووقعت كل من بريطانيا وإيطاليا بروتوكولاً في النصف الأول من 1891م. يعين مصالحها والحدود الفاصلة بين كل من السودان وإريتريا المستعمرة الجديدة لإيطاليا، وفي ذلك الوقت اشتد نشاط البلجيكيين والفرنسيين[1]. وبتغييب متعمد لإرادة الآهلين والتصرف في

[1] يونان لبيب زرق، مصدر سبق ذكره، ص 69-72. أنظر أيضا: محمد عمر بشير: تاريخ الحركة الوطنية في السودان (1900-1969) ترجمة هنري رياض، وليم رياض، الجنيد علي عمر، دار النشر والتأليف، جامعة الخرطوم – الخرطوم 1980، ص27-26.

أملاكهم دون مشورتهم. لم يحدث ذلك في القرون الوسطي التي سادها قانون الغاب في أوروبا ولكن حدث ذلك في بدايات القرن العشرين ومن قبل دول تدعي الديموقراطية والدستورية واحترام الشرعية الدولية. وبالتالي فإن ما جري في نهايات القرن العشرين وفي بداية القرن الحادي والعشرين لا يختلف كثيراً عما حدث قبلاً لكننا أمة لا تقرأ مفردات تاريخها للاعتبار.

ففي عام 1892م عبرت حملة كنغولية الأراضي الواقعة بالقرب من نهر النيل الكونغولي[2]. وفي 1897م احتل البلجيك مدارج جبل لادو أو حاجز لادو. وبحلول شهر فبراير 1899م احتل الفرنسيون بحر الغزال [3]..واشتد أوار المنافسة الأوروبية. لعل هذه الإشارات السابقة تلقي الضوء علي طبيعة الصراع والتنافس الإستغلالي الإستعماري للاستيلاء علي السودان. الأمر الذي دفع ببريطانيا للتستر بالسيادة الخديوية[4]، وببدعة الحكم الثنائي للإنفراد بالسيادة والسيطرة علي السودان خلال فترة زمنية وجيزة وبتخطيط مدروس.

ونتيجة لاشتعال المنافسة الاستعمارية في المنطقة، فان بريطانيا غلفت استعمارها للبلاد بقولها: (نظراً للمساعدات المادية التي قدمتها الحكومة البريطانية للحكومة المصرية من الناحيتين الحربية والمادية فقد قررت حكومة جلالة الملكة رفع العلم البريطاني إلى جانب العلم المصري في الخرطوم)[5] علي ضوء هذه التعليمات ووفقاً للاتفاقية الإنجليزية المصرية المبرمة في 19 يناير 1899م فقد منحت بريطانيا نفسها بقدرة قادر الوصاية علي السودان بناء علي حق الاحتلال. وأضحت بريطانيا وفقاً لذلك تمثل الشريك الأقوي والمسيطر، وفي معظم الأحيان وعلي أرض الواقع وهي السيد الوحيد والي ذلك أشار اللورد كرومر بقوله: (إنجلترا – وليست مصر – هي التي قامت فعلاً بفتح هذه البلاد ... كانت القيادة العليا والطولي لبريطانيا)[6]. وفي الواقع قد أوجدت هذه الاتفاقية مخلوقاً جديداً وفريداً وهو ما يسمى بالحكم الثنائي في السودان

(2) المرجع السابق
(3) المرجع السابق.
(4) نفسه.
(5) يونان لبيب زرق، مصدر سبق ذكره،ص 43، أنظر ايضاً: محمد عمر بشير، مصدر سبق ذكره، ص 26، 27، 28.
(6) محمد عمر بشير، مصدر سبق ذكره، ص 29.

وقد استمر لمدة خمسين عاماً[7] من الزمان أحدث خلالها تحولات إجتماعية وسياسية وفكرية وأقتصادية وقانونية وإدارية وثقافية.

ولم تجرؤ بريطانيا علي وضع النقاط فوق الحروف وتكشف عن وجهها الكالح منذ الوهلة الأولي وتنفرد بحكم السودان للأسباب التالية أولها: الأطماع المصرية في البلاد لتقرير المصير السياسي. ثانيها: أن عملية الغزو تمت تحت اسم الخديوي عام 1898م. ثالثها: خوف بريطانيا من اعتراضات الدول الأوربية الأخرى التي كانت تسعي لذات الغرض.

أما أهدافها من الاحتلال بهذه الصورة فهي تتمثل أولاً: في الرغبة بأن تحكم بلا مسؤوليات أو تكاليف لئلا تثقل كاهل الخزانة البريطانية. ثانياً: تأمين وضعيتهم في مصر بالسيطرة علي منابع النيل. ثالثاً: إن سيطرة بريطانيا علي السواحل الغربية للبحر الأحمر التي تشمل مصر والسودان تشكل صمام أمان لخط مواصلاتها مع الهند. رابعاً: أن السودان كان يشكل حجر الزاوية في المشروع البريطاني لربط شمال القارة بجنوبها بواسطة خط حديد الكاب - القاهرة [8].

وركزت بريطانيا القيادة العسكرية والإدارة المدنية في يد ضابط يسمى حاكماً عاماً ويتم تعيينه بمرسوم خديوي بناء علي موافقة حكومة جلالة الملكة البريطانية. وجعل ذلك بالإمكان استمرارية التوصية من قبل بريطانيا بحاكم بريطاني توقع مصر علي تعيينه دون اعتراض أو إبداء رأي، كما أنها لا تملك حق استبعاده دون موافقة بريطانيا. ومنح هذا الحاكم بموجب هذه الاتفاقية وملحقاتها سلطة مطلقة سياسياً وعسكريا وإدارياً وقضائياً وأضحت أحكامه وقراراته غير قابلة للنقض، حيث لا توجد سلطة تملك حق إيقاف المراسيم التي يصدرها، ونتيجة لذلك فرضت علي السودان أحكام عرفية. وأصبح الحاكم العام ملزماً بإطلاع حكومة جلالة الملكة علي كل ما يتصل بسياسة السودان الخارجية، أو اتخاذ أي قرار يتعلق بمصائر البلاد. ويقوم برفع تقرير سنوي عن الإدارة في السودان إلى حكومة جلالة الملكة[9]. وأمسي وجود مصر

[7] نفسه، ص 28.
[8] يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص44 - 48.
[9] المصدر السابق، ص 84 -86.

صورة وحكمها إسمياً إذ غدا أمر السودان جملة وتفصيلاً يقرر في بريطانيا وليس في مصر، تقرره حكومة جلالة الملكة وليست حكومة الخديوية. هذه هي الصورة المتفق عليها، والتي سادت السودان بعد الحملة الإنجليزية المصرية بقيادة (هربرت كتشنر) سردار الجيوش المصرية الإنجليزية، والتي قضت على الدولة المهدوية بعيد معركة كرري 1898م ومقتل الخليفة في أم دبيكرات عام1899م.

بيد أن دارفور قد تميزت طيلة تاريخها الطويل بوضع متميز. لذا فمن الطبيعي أنه بمجرد سقوط الدولة المهدوية أن ظهر علي السطح عدد من أدعياء سلطنة الفور، كان من بين هؤلاء إبراهيم علي الذي هرب من الجيش المهدوي والتحق بالحملة الإنكليزية المصرية 1898م. ونال رضا كتشنر وحصل من القيادة علي الموافقة المبدئية لاستلام دارفور بيد أنه قد تلكأ بعض الشيء وانشغل بمناوشات جانبية [10]، مما يوحي بأنه لم يكن الرجل المناسب للقيام بهذه المهمة التاريخية، وبهذا الدور الخطير في تاريخ السودان الحديث، وأن القيادة الإنجليزية قد أخطأت الحساب بإختيارها لهذا الرجل الصنيعة، ولربما كان يمثل أفضل الخيارات المتاحة لها يومئذ، ولمعرفتها بخطورة علي دينار أرادت بإنفاذ هذا الدعي أن تسحب البساط من تحت أقدام علي دينار. بيد أن هذا الخيار غير الموفق قد خيب آمال القيادة الإنجليزية.

وفي عشية 2 سبتمبر 1898م، 23 صفر 1316هـ والناس مشغولون بالتأهب لمعركة كرري تسلل علي دينار ومعه ثلاثمائة رجل من أتباعه حتى وصل إلى مشارف الفاشر[11] وحقق قصب السبق علي مبعوث الحملة الإنكليزية المصرية. وتسلم زمام الأمر من دعى آخر يدعى أبو كوده كما تقدم في الباب الأول والثاني. ولم يبق أمام السلطان علي دينار من أدعياء السلطنة سوى إبراهيم علي الذي كتب إلى كتشنر مستعدياً إياه على علي دينار وذلك في 5 نوفمبر 1898م ،23 جمادي الأولى 1316هـ. وأشار في خطابه إلى أن أهالي دارفور يقفون معه ما عدا أولئك المقيمون في الفاشر وما حولها. وأمعن في عدائه فوصم علي دينار بميول مهدوية بغية إثارة

[10] أنظر أيضا: A. B. Theobald: op. cit. pp. 34

[11] يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 230.

الحكومة الثنائية ضده. إلا أن القيادة الثنائية كانت علي إطلاع واسع ومعرفة تامة بعلي دينار[12] من خلال صديقه القديم سلاطين الذي هرب من قبضة الدولة المهدوية في 1895م. وشغل سلاطين في الحملة يومئذ وظيفة مساعد مدير المخابرات الثنائية في الفترة ما بين: (1896-1898م). وفي 1898م منح سلاطين وسام الفارس من الملكة فكتوريا ورقي إلى رتبة لواء في الجيش المصري مع منحه درجة باشا بواسطة الخديوي. وفي أكتوبر عام 1900م تم تعيينه مفتشاً عاماً علي السودان في الفترة (1900- 1914م) وأعطيت له صلاحيات واسعة وأصبح بمثابة المستشار الخاص للحاكم العام في السودان في كل الأمور التي تتصل بإدارة البلاد [13].

في هذا الأثناء لم تكن الحكومة الثنائية على استعداد للدخول في معارك جانبية هذا بالإضافة إلى إلمامها بحقيقة علي دينار. لذا كتب كتشنر خطابين إلى كل من علي دينار وإبراهيم علي في 23 نوفمبر 1898م. ففي خطابه إلى إبراهيم علي أوضح له أن علي دينار لم يكن يوماً من أعداء الجيش الغازي. وفي الوقت ذاته يلومه على عدم أدائه لمهمته على الوجه المطلوب ويحذره من الاعتداء عليه أو منازعته بعد الذي حدث [14]. وأداء المهمة علي الوجه المطلوب المشار إليها في هذا الخطاب أن يسبق علي دينار ويستولي علي دارفور وهذا ما لم يحدث. مما يوحي بندم الحاكم علي اختياره له لمهمة لم يكن في قامتها التاريخية. وفي خطاب كتشنر لعلي دينار حاول أن يزكي سلوكه بعدم المقاومة لجيش الاحتلال والاتجاه إلى دارفور عشية المعركة ومعه مجموعة من رجالاته. ويطلب منه عدم إثارة الفتن في المنطقة. وأشار إلى أنه قد علم حاله من (رودلف فون سلاطين). لاسيما ظروف إحضاره إلى أم درمان والذي قد تم كرهاً. وطلب منه الرد على خطابه، ومعاملة إبراهيم بالحسنى إلى أن تجئ الجيوش الغازية لترتيب وتنظيم دارفور وتولية الأصلح من أبناء السلاطين [15].

---

[12] المصدر السابق، ص 231- 232 . أنظر أيضا: A. B. Theobald OP. Cit. PP.31-32

[13] D. S. A. 223/1. Written by Wingate. 403/6. Šalatin to H. B See also: H. A. Macmicheal march 1909

[14] خطاب من السردار إلى إبراهيم علي بتاريخ 23 نوفمبر 1898م ، جمادي الثانية 1316هـ . S. I. R. 60/140

[15] من السردار إلى علي دينار بتاريخ 23 نوفمبر 1898م، 15 جمادي الثانية 1316هـ . S. I. R. 60/140

هذا الخطاب يمتاز بأهمية خاصة باعتباره أول خطاب رسمي يتسلمه علي دينار من سردار الجيش الغازي. وقد وردت فيه عبارات تحدد العلاقات بين الأمير علي دينار وسردار الجيوش الغازية. بيد أن الإشارة إلى أن الجيش الغازي قادم لترتيب الأمور في دارفور مما يقلق مضجع علي دينار. كما أن الأمر بالتزام السكوت تجاه إبراهيم بعد طرده من الفاشر وإمكانية محاولته تكوين مقاومة ضد علي دينار لم يرق له. أما تولية الأصلح من أبناء السلاطين هذا ما يرفضه علي دينار جملة وتفصيلاً. إذ أنه يرى أحقيته بذلك المنصب دون سواه. وقد بذل في سبيل ذلك وقتاً وجهداً. لذا لا غرابة أن ضرب بهذه الأوامر عرض الحائط فهاجم إبراهيم علي. وذلك بعد أن أدرك من كلمات السردار أن كتشنر لا يمانع في توليته أمر دارفور. وأن الحكومة الثنائية لا ترغب في تأييد إبراهيم علي، هذا بعد أن تبين لها عدم صلاحيته لخذلانه لها واشتغاله بقضايا جانبيه دون بلوغ الغاية التي بعث من أجلها. ورأي علي دينار أن إبراهيم علي في وضع لا يحسد عليه لذا عاجله فألحق به هزيمة بواسطة قائده كيران الرزيقي[16] في فوجه في 26 يناير 1899م، 9 رمضان 1316هـ. بعد هذه الهزيمة صدرت التعليمات لإبراهيم علي بالقدوم إلى الخرطوم الأمر الذي يشعر بأن الحكومة أصيبت بخيبة تجاه مبعوثها، وفي الوقت ذاته قد اقتنعت بأن السلطان علي دينار لا يسمح لأي دعي آخر بالتواجد في تلك المنطقة. ومن جانب آخر خشي علي دينار أن يكون قد أغضب الحكومة الثنائية، لذا أرسل خطاباً إلى السردار ذكر فيه بأن المبادرة بالمهاجمة كانت من قبل إبراهيم الذي حاول قطع خطوط المواصلات بينه وبين الحكومة الثنائية. وأن كيران لم يرسل للقتال وإنما أرسل للإطلاع علي حقيقة الأمر بيد أن إبراهيم فاجأه بالحرب. ولم ينس أن يختم خطابه بالمطالبة للاعتراف به سلطاناً علي دارفور. فبعثت الحكومة وفداً للتأكد من صحة ولاء علي دينار فأعلن علي دينار ولاءه مرة أخرى[17].

---

[16] الخطابين مؤرخين في 19 أبريل 1899م انظر أيضاً S. I. R. 63/6 16 May to 15th July 1898. يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 231 –232 A. B. Theobald. OP. Cit. PP. 32.See also . موسى المبارك الحسن: تاريخ دارفور السياسي (1882 – 1898م)– السودان– الخرطوم، جامعة الخرطوم 1964م، ص 229 – 230.

[17] الخطابان مؤرخان في 19 أبريل 1899م S. I. R. 63/6 16 May to 15th July 189 يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 231 –232 A. B. Theobald. OP. Cit. PP. 32 موسى المبارك الحسن: مصدر سبق ذكره، ص 229 – 230.

يبدو أن علي دينار قد سلك مع الحكومة الثنائية التي تملك العدة والعتاد ومنذ اللحظة الأولى أسلوب التقية رغماً عن عدم قناعته بشرعية سيطرة الوضع الحالي. بيد أنه كان يتحين الفرص. ولا أدل علي ذلك من مخالفته الصريحة لأمر السردار بالقضاء علي إبراهيم علي مبعوث الحملة الإنكليزية المصرية. وحاول تبرئة نفسه من مبادأة العداوة للحفاظ علي شعرة رقيقة بينه وبين النظام الجديد. واشترط منذ البداية لولائه أن يعترف به سلطاناً.

وفي هذا الأثناء كانت المشاورات والمداولات بشأنه تجري بين الحاكم العام في السودان والمندوب السامي البريطاني في القاهرة ووزير الخارجية البريطاني. ورأت السلطات البريطانية إحياء اقتراح غوردون باشا عام 1884م بضرورة اختيار سلطان أو حاكم من أبناء السلاطين لإدارة دارفور. ولا سيما وأن دارفور شاسعة وأن دخلها غير ذي بال. ومن المحتمل أن تصبح عبئاً ثقيلاً علي الخزانة وبالإمكان مواجهة كل احتياجات السودان إذا هدأت هذه المديرية وسمح فيها بالاتجار[18]. من هذه الإشارة يتضح الفارق الشاسع بيننا وبين الغرب في تعاطيه مع السياسة والإدارة، حيث نلاحظ أن اتخاذ القرار لديهم ينبني علي المعلومة الصحيحة بينما الأمر عندنا ينبني علي الانفعال الآني والخاطرة العابرة دون تقدير ماض أو رؤية حاضر أو استشراف مستقبل. هذه جملة المبررات التي سيقت لإعطاء دارفور نوعاً من الحكم الذاتي. لاسيما بعد تجربة طويلة أوضحت أن المقاومة المحلية لأية نوع من أنواع الحكم الأجنبي لا يهدأ لها بال. وأن المقاومة الدارفورية كانت تتمتع بتنظيم دقيق وسط العائلة المالكة.

ومن جانب آخر كان هناك صراع عنيف حول السيادة علي السودان بين مصر والحكومة البريطانية وكانت مصر تمثل الجناح المهيض والشريك الذي ليس له رأي والشاهد الذي لم ير شيئاً. وفي زيارة لكرومر المندوب السامي البريطاني في القاهرة للسودان في يناير عام1899م ألقى خطبة في أم درمان، أكد فيها أن حكم السودان سيتم بواسطة حكومة جلالة الملكة وخديوي مصر. ولكنه عاد وأكد بأن النائب الوحيد في

[18] يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 233 – 234.

السودان عن الحكومتين البريطانية والمصرية هو السردار. وقد نددت في اليوم التالي الصحف المصرية بهذا الوضع وبهذا التصريح. ويبدو أن الذي حدث من كرومر قد تم دون علم الخديوي بل من وراء ظهره، هذا بالرغم من الموافقة المبدئية علي رفع العلمين البريطاني والمصري[19]. وحتي رفع العلمين كان المقصود منه خداع الشركاء الأوروبيين لئلا يجدوا فرصة للاحتجاج علي الوضع الغريب علي العرف الدولي يومئذ.

في هذا الأثناء استطاع علي دينار أن يهزم منافسه كما تقدم ورأت الحكومة الثنائية عدم الوضوح في موقف علي دينار تجاهها[20]. ويبدو واضحاً أن موقف الحكومة في هذه اللحظة هو أن تترك خياراتها جمُيعاً مفتوحة فيما يتصل بمن يحكم دارفور – وصلة الحكومة بالإقليم –. أما ما يؤرق علي دينار فهو ضرورة انتزاع اعتراف سريع من الحكومة والعمل بسرعة علي إستكمال سيطرته علي الإقليم برمته، ولا يتم ذلك إلا بالقضاء علي جميع المعارضين. وبعد رجوع إبراهيم علي إلى أم درمان وصل خطاب آخر من علي دينار إلى السرّدار يعلن فيه ولاءه وولاء قائده كيران لأوامر الحكومة [21] هذا الخطاب يؤكد حرصه علي انتزاع الاعتراف به. وسحب البساط من تحت أقدام منافسه إبراهيم علي.

بيد أن الحكومة الثنائية لا تزال مواقفها متأرجحة وشكوكها متصاعدة تجاه علي دينار. لذا فقد قامت باستجواب بعض الأشخاص القادمين من دارفور حول الأوضاع فيها وعن إذعان الناس لعلي دينار. فأكد هؤلاء القادمون بأن علي دينار محبوب من قبل رعيته وأكد علي أن سلوك السلطان عادل جداً"[22]. ولكي يدفع السلطان علي دينار الشك حول تماطله في الرد علي خطاب السردار ألقى باللائمة علي إبراهيم ووجوده في المنطقة، حيث عمل علي قطع خطوط مواصلاته بين السلطان والحكومة الثنائية، ولئلا يشكل وجود إبراهيم في أم درمان خطورة علي الكيان القائم في دارفور نسب

(19) المصدر السابق ص 50 – 53.

(20) المخابرات S. I. R. 60/1-2 15th Jan. to 15th Feb. 1899

(21) S. I. R. 62/2 16th Feb. to 30th Aprill 1899.

(22) S. I. R. 62/2 16th Feb. to 30th Aprill 1899.

إليه السلطان أعمالاً ذكرت الناس بعهد الدراويش فلعله أراد بذلك استثارة السردار ضد إبراهيم. وضمن خطابه نفياً قاطعاً لنسب إبراهيم علي وصلته بالعائلة المالكة وادعى أنه من عبيده[23].

بهذه الإشارات أراد علي دينار دفع خطر وجود منافس آخر نال حظوة لدى الحكم الثنائي. فان نفى نسبه أمر مقصود، كأنه أراد أن يقول أن هذا الرجل لا يصلح لحكم دارفور ما دام غريباً عن العائلة. وبالإشارة إلى الأعمال التي ذكرت الناس بالدراويش أراد بها أن يشير إلى ظلمه وعدم عدله في الأحكام. وبالتالي فإن الواقع يقتضي عدم صلاحيته لحكم هذه الأقاليم. وليدفع خطر الحكم الثنائي نفسه أعلن خضوعه مرة أخرى وولاءه التام [24]، للحكم الثنائي.

في17 ديسمبر 1899م استولت الحكومة الثنائية على الأبيض عاصمة مديرية كردفان بعد هزيمة الخليفة عبد الله التعايشي في 24 نوفمبر 1899م. ومن ثم أصبحت حدود الحكومة الثنائية مجاورة لحدود دارفور [25]. الأمر الذي شكل معادلة جديدة واقتضى حسابات جديدة، وكان من عزم الحكومة الثنائية التقدم نحو دارفور بيد أن قوة علي دينار التي غدت قوة ذات وزن كفكفت من أطماعها في دارفور في الوقت الراهن فاقتنعت الحكومة الثنائية بحدود كردفان[26]، من باب التعاطي مع الواقع وإن كان دون الأهداف الإستراتيجية للوجود الإنجليزي بالبلاد.

وعاش الطرفان في جوار يسوده ارتياب مستمر، فالحكومة تتلقى تقارير منتظمة عن أحوال دارفور بواسطة عملاء مخابراتها في الفاشر. أما علي دينار فقد قام بدعوة كل الأعراب للالتحاق بقواته رغماً عن ميولهم للحكومة الثنائية. وقد اتخذ مثل ذلك الإجراء تحسباً لما كان يراوده من أن الحكومة تهدف إلى الاستيلاء على دارفور أرض أجداده ومهد سلطنة أسلافه[27].

---

(23) S. I. R. 63/6 15th May to 18th July 1899 .

(24) A. B. Theobald. OP. Cit. PP. 33.

(25) A. B. Theobald. OP. Cit. PP. 33.

(26) Ibid. P. 35-37.

(27) حسن وراق إلي المخابرات في 10 / 12 / 1899 S. I. R. 62/3

ففي 28 ديسمبر من عام 1899، 25 شعبان 1317هـ أرسل السلطان علي دينار خطاباً[28] أراد به جس نبض الحكومة. حيث صدر الخطاب بقوله: (من علـي دينـار سلطان دارفور إلى الحاكم العام). وأفاد فيه أنه قد استلم خطاباً من الحاكم العـام فـي 1899/9/22م، 17 جمادي الأولى 1317هـ. وأكّد السلطان في هذا الخطاب أنه قـد أقام الاستقرار والأمان في المنطقة وأنه قد أصدر أوامره إلى أتباعه بعـدم الإعتـداء. ويطلب في النهاية ترقية من الحاكم العام.

هذه التأكيدات كانت تهدف إلى نزع الإعتراف بسلطته علي دارفور، والتأكد مـن عدم وجود نوايا بغيتها إقصاءه. وفي الوقت ذاته حاول اسـتخدام حقـه فـي البقـاء بإطلاق لقب سلطان علي نفسه باعتباره حقاً ذاتياً وشرعياً وتاريخياً. أما طلب الترقيـة الوارد في هذا الخطاب لا يعدو عن كونه مراوغة أو تقية، وإلا فإلي أي درجة وظيفية يمكن أن يرقي من أسمى نفسه سلطاناً؟!! إلا إذا كان ذلك من باب المزايدات اللفظيـة في الخطاب الدبلوماسي.

ولعله بالخطاب الماضي أراد التمهيد للمطالبة بحدود دولته وفقاً لحدود السـلطنة، كما أراد أن يؤكد علي أن فترته هي أحياء وامتداد طبيعي للمسـيرة الفوراويـة فـي المنطقة. وأرسل خطاباً آخر[29] وبنفس التاريخ ورد فيه: (وأن الحدود التـي ممكـن رفعها لعدالتكم ... هي من جهة الصباح – أي الشرق – حدها ولد بنده وما يليه مـن الريح – الشمال – داركاجا .. والأضية موقف الحد من جهة الصـعيد – الجنـوب – ولاكن من قربها شكا ومن شكا قربا – غربا – وريحا وصعيد لحد الحفـرة – حفـرة النحاس – وكاره وديار الصعيد عموماً تبعاً لدارفور وما يلي الفاشر من جهة الـريح. والغرب جميعه كذلك ومتى فتحنا فتوح بهذه الديار. فهو لنا تبعاً للحكومة السـنية. لأن المحسوب (منضمن) خدماءها فتنظم بسلكها الرفيع. وهذه الحدود فـي (زمنـا) هـذا اختصاراً عن المدة السابقة ودار حمر أفندم أنها من ضمن الحدود التابعة لدارفور فـي

---

[28] S. I. R. 67/22-23.

[29] علي دينار إلي الحاكم العام 28 ديسمبر 1899م، 25 شعبان 1317هـ

S.N.A. Intell 2/3. S. I. R. 67/D/G A letter Dated 25 Shaaban 1317h.

see also: H. A. B. Theobald. OP. Cit. PP. 24-25.

المدة السابقة ونظراً لقيام رؤساءها في خدمة ركاب الدولة ومساعدتهم لو أنهـا مـن الحدود ونظرا لذلك تركناها لهم ليسئلوا عنها دون واسطتنا ونحن اختصرنا في الحدود الموضحة لسعادتكم).

يكتسب هذا الخطاب أهمية قصوى في مجال علاقة دارفور بالحكم الثنائي حيـث حاول السلطان ومنذ أيامه الأولى أن يرسم حدود سلطنته شرقاً وجنوباً وشمالاً وغرباً. وورود عبارة (الحدود السابقة) إشارة ذات مغزى إذ تفيد أن هذه الديار هـي مسـرح السلطنة السابقة، وأن السلطان مدرك لهذه الحقيقة. ويعبر ضمناً عـن تضـجره مـن إختصار حدوده بقوله: (ونحن اختصرنا في الحدود الموضحة لسعادتكم). وقد شعر بأن هذه الحدود هي دون حدود سلطنة آبائه وأجداده. وقد بذل محاولات جـادة فـي هـذا المجال لإستعادة حدود أجداده وذلك حين أو عز إلى كل الأعراب بالإنضمام إليه. بيـد أنه أمام القوة العددية والعتادية الغاشمة تراجع وفق حسابات صحيحة. أما حدوده فـي الشرق فإن (ود بندا) تبعد عن الفاشر أربعين ميلاً شرقاً والأضية حوالي ثمانين مـيلاً جنوباً. أما دعوى دار حمر فانها تعيد للأذهان اتساع دارفور حتى بارا والأبيض فـي كردفان. وهذا حلم يراوده كما راود من سبقه من سلفه من السلاطين.

أما الإشارة إلى الغرب دون تحديد نقطة بعينها يوحي بأن مسألة الحدود الغربيـة في تقديره قضية قابلة لكل الاحتمالات ولأي تفسير [30] حيث أتاح لنفسه فرصة التحرك في حرية دون إعتراض. هذا بعد أن شعر أن حركته شرقاً وشـمالاً وجنوبـاً غـدت محكومة بعوامل طبيعية وسياسية وهو في بداية طريقه لترميم بنـاء تهـدم واسـتعادة سلطنة شاخت فتكالبت عليها القوى الخارجية التي أودت باستمراريتها. بيـد أن أبنـاء سلاطينها لا تزال فيهم بقية من قوة وعزم، ولهم تنظيم غايـة فـي الإحكـام والدقـة والمرونة استطاع الصمود طوال هذه الفترة بصورة لم تعهدها مملكة أو سـلطنة مـن السلطنات الأخرى التي سادت ثم بادت.

[30] A. B. Theobald. OP. Cit.PP. 35.

وقام بإرسال خطابين آخرين [31] طلب في أحدهما استعادة (الدارفوريين) الذين هجروا دارفور بسبب الثورة المهدوية إلى كردفان وغيرها من المناطق الأخرى لتعمير دارفور. بهذا الطلب هدف إلى تعزيز موقفه الداخلي ومضاعفة عددية سكان بلاده.

وفي الخطاب الآخر طلب إرسال نحاس وجبخانة رامنتون وأسلحة وبنادق والنحاس الذي طلبه هو نحاس أجداده الذي أخذه المهدويون. يتضح مما سبق ذكره أن السلطان لا يدع خيطاً يربطه بماضي أجداده يفلت منه. وتبدو حنكته السياسية واضحة وواقعيته في المعالجة غاية في البيان. حيث أن مالا يدرك كله لا يترك كله فقنع بما حصل عليه من مكاسب، وبدأ يتطلع ويحلم ما شاءت له أحلامه أن يحلم، ويعمل ما وسعه الجهد من مطالبات ومحاولات لا يكل ولا تلين له قناة في سبيل بلوغ غاياته المرسومة.

وحاولت الحكومة ترضيته بإرسال أثنى عشر ألفاً وخمسمائة ظرف فارغ، ومائة اطلاقة رامنتون [32]. هذا بالرغم من عدم اطمئنانها من ناحيته لا سيما بعد حدوث إضطرابات أثارتها الحكومة الثنائية بواسطة مندوبها (مختار عوض) **والذي قد وصل من خلال وجوده في الفاشر إلى نتائج مؤداها:**

أولا: معظم الناس بحاجة إلى الحكومة الثنائية

ثانياً: أن علي دينار سلطان مستقل والناس خاضعون له خضوعاً تاماً.

ثالثاً: أظهر علي دينار خضوعه للحكومة الثنائية، ولكنه متى ما شعر بأن الحكومة تنوي غزو دارفور سيتخذ واحدة من اثنين أما الهروب إلى جبل مرة أو الصمود في وجه قوات الحكومة.

رابعاً: طلب علي دينار إمداده بأسلحة وذخيرة فإن لم تجب الحكومة طلبه ستكون موضع شك وريبة لديه مما سيضعها في موضع حرج.

---

(31) السلطان إلي الحاكم العام بتاريخ 25 شعبان 1317هـ، 28 ديسمبر 1899 S.N.A. Intell 2/3

(32) Ibid .

خامساً: إذا نوت الحكومة غزو دارفور من الأفضل أن يكون ذلك في فصل الخريف.

سادساً: أشار إلى أن علي دينار كان حذراً تجاه الوافدين من قبل الحكومة الثنائية لذا لم يتح له الفرصة بالتجوال في الفاشر كما أنه لم يسمح له بالسير في الطريق المعتاد وأعطى في صلب ذلك التقرير وصفاً دقيقاً لدارفور (33).

احتوى هذا التقرير على معلومات وتفسيرات ونبوءآت قد تكون صحيحة في كثير من عباراتها لاسيما استقلالية السلطان وأن خضوعه كان ظاهرياً وإمكانية هروبه إلي جبل مرة إذا ساءت علاقته بالحكومة الثنائية. ويلقي ذلك الضوء علي حذره تجاه موفدي الحكومة الذين يعتبرهم جواسيس وهم حقيقة كذلك. أما الإشارة إلى أن الناس بحاجة إلى الحكومة الثنائية مع قوله بأن الناس خاضعون لعلي دينار فهاتان عبارتان متناقضان مقدمة ونتيجة ولا تستقيمان معنىً أو واقعاً. لاسيما مع ملاحظة ما سبقت الإشارة إليه من أن السلطان عادل ومحبوب لدى رعيته. وأن حقه في الحكم هو حق تاريخي معترف له به من قبل مواطنيه. ومهما يكن من أمر فهو من بني جلدتهم وملتهم عكس الوجود البريطاني بالبلاد الذي يعتبر احتلالاً قاهراً.

وأورد التقرير قراءة ذكية لما سيقدم عليه السلطان في حالة غزو الحكومة لبلاده. ولا يقل عنها اقتراح إرسال الجيوش خريفاً. وهذا ما سيأتي بيانه وتتحقق صدق نبوءته بنهاية هذا الباب. حيث أن الحكومة الثنائية والسلطان علي دينار كانا يلعبان لعبة القسط والفأر، الكل يتربص بالآخر وينتظر لحظة الغفلة ليتمكن منه ويدبر الحيل ويراوغ من أجل خداع الطرف الآخر ويخفي حقيقته.

وأن الإشارة إلى استقلال السلطان هي إشارة ذات مغزى في معرض هذه الدراسة التي افترضت استقلال السلطنة بدءاً. وورود عبارة كهذه من مصادر حكومية شبه رسمية وتعمل في أخص أجهزة الحكومة الثنائية تظاهر غيرها من أدلة بأن السلطان كان إمتداداً طبيعياً لسلطنة مستقلة عن كل دول الأرض وأن حكمه كان إستئنافاً لمسد استوقفته الأيام.

(33) تقارير المخابرات S.I.R. 67/24 D/L.

حاول علي دينار أن يتقدم بقواته شرقاً حيث قام بإغراء الحمر بالتمرد، رغماً عن تأكيده الماضي بأنه قد تخلى عن جزء من حدود سُلطنة آبائه ما دام خاضعاً للحكومة، بيد أن الحكومة الثنائية واجهت الأمر هذه المرة بحسم زائد حيث قامت بإرسال قواتها إلى الحدود. وبذا رأى علي دينار أن الحكومة الثنائية ستشكل عقبة في سبيل استرداد حدود دولته الفوراوية التي يحلم بها [34].

بحلول عام 1900م اخترقت قوات الحكومة الثنائية حدود دارفور أثناء مطاردتها لعربي دفع الله فجأر السلطان بالشكوى ضد هذا الاختراق. وأوضح بأنه ليس هناك قوة بإمكانها القضاء علي دفع الله غيره. وهذه الشكوى كانت لعدة عوامل. أولها: أنه يريد تحقيق قصب السبق في انتصاره علي عربي دفع الله لتقوية نفوذه. ثانيها: أصابه ذعر من هذا التحرك الذي لم يدرك أبعاده فلربما كانت للحكومة نوايا عدوانية. وفي نهاية شكواه أشار إلى أن دارفور بلد فقير، فليس من صالح قوات الحكومة دخوله وسلب أهله ومواطنيها [35].

أراد بهذه الإشارة الأخيرة دفع خطر الحكومة عن بلاده بتزهيدها فيها لإدراكه مغزى وجود القوات الأجنبية في المنطقة حيث أن الهدف من وجودها لا يعدو عن كونه هدفاً مادياً بالدرجة الأولي وغايته الاستفادة من خيرات البلاد وثرواتها.

وفي 2 يناير أرسل الحاكم العام خطابين إلى السلطان شدد فيهما علي: أولاً: ضرورة فتح الطريق بين كلٍ من دارفور والأبيض ودنقلا. وثانياً: فتح طريق البريد مع الخرطوم فوراً بإنشاء محطات بريدية. ثالثاً: أهمية إقامة الاستقرار والسلام في دارفور. رابعاً: دفع الالتزامات المالية وفي المقابل ستحافظ الحكومة الثنائية علي حدود وسلامة دارفور [36].

المراد من فتح طريق التجارة الاستفادة من ثروات دارفور الحيوانية والنباتية إضافة إلي تسهيل إمكانية الاختراق الأمني. أما المقصود من فتح طريق البريد فهو

(34) يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 246.

(35) خطاب من علي دينار إلي مدير المخابرات 7 رمضان 1317هـ، 1900/1/9م S.I.R. 67/36-37.

(36) الحاكم العام إلي علي دينار في 7 رمضان 1317هـ 1900/1/2 S.I.R. 67/19-20

أيضاً للإطلاع علي أحوال دارفور بصورة مستمرة وبالسرعة المطلوبة مما يساعد علي أخذها علي غرة متي ما حانت الفرصة، فتح طريق البريد يعني فتح الباب علي مصراعيه أمام عمل الاستخبارات الثنائية واستطلاع أخبار دارفور أولاً بأول.

ومع تزايد شكوك السلطان حول نوايا الحكومة الثنائية لم يشأ الموافقة علي طلب الحاكم بمقابلته، فلجأ إلى أسلوب المراوغة[37]، هذا بالرغم من اقتراحه السابق الذي أكد فيه أنه علي استعداد لمقابلة الحاكم العام أو أي مسؤول حكومي آخر[38]. ويبدو أن ذلك كان من باب الاستهلاك السياسي إذ لم يدر بخلده تحقق ذلك، لإستفادته من عبر التاريخ المعاصر حين استسلم سليمان الزبير لجسي الإيطالي غدر به، ذلك لأن الأوروبيين لا يحترمون العهود والمواثيق حيث أكد التاريخ الحديث والمعاصر هذه الحقيقة بأن يقظة العرب المزعومة كانت كذبة غربية، والشرعية الدولية بالونة غربية، وأثبتت الوقائع هذه الحقيقة التي لا مراء فيها، سواء علي مستوى عصبة الأمم أو هيئة الأمم أو بريطانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية الآن. الأمر الذي يؤكد على ذكاء السلطان علي دينار ومدى قدرته على المحاورة والمراوغة وعدم انخداعه بوعود الحكم الثنائي. إذ كان أذكي من كثير إن لم نقل من كل ممن عاصروه من حكام المنطقة العربية كلها، الذين انخدعوا بوعود بريطانيا الخلابة والتي كانت سراباً، ولم تجن أممهم من وراء تلكم الوعود البراقة الكاذبة سوي الحنظل المر استعماراً وتأخراً وإذلالاً. وفي فبراير عام 1900م قام السلطان علي دينار بتهنئة سلاطين بوصوله السودان ويشكر له جهود الحكومة الثنائية لإقرارها وإنقاذها البلاد بقوله: (ولو لا الحكومة وحلول ركابها لكنا في حالة العدم من بطش التعايشة الأشقيا واختراعاة أحكامهم وأفعالهم) [39].

وفي مارس عام 1900م رد الحاكم العام علي تهنئة السلطان له بالقضاء علي الخليفة ويطلب منه إقامة الأمن والاستقرار في دارفور، ويلوح له باختياره مدى الحياة حاكماً على دارفور إن قام بتنظيم الزراعة وفتح المساجد وإستعادة الأراضي إلى أهليها

[37] علي دينار إلي الحاكم في 7 رمضان 1317هـ 1900/1/2م S.I.R. 67/ 21

[38] علي دينار إلي الحاكم العام 7 رمضان 1317هـ 1900/1/2م S.I.R. 67/19

[39] علي دينار إلي سلاطين باشا في 18 شوال 1317هـ 1900/2/19 S.N.A. Intell 7/1/1

وتزويد الحكومة الثنائية بكل ما يهم دارفور زراعيا وتجارياً وعن مسار العلاقات بينه وبين وداي [40].

في المقابل حاول علي دينار التنصل من التزاماته تجاه الحكومة الثنائية لضعف العباد وفقر البلاد. وبعث مندوباً عنة لتقرير ثلاث مسائل أولها: الإعفاء عن الضرائب. ثانيتها: تحديد الحدود لسلطنة الفور. ثالثتها: استجلاب مدافع وبنادق وذخيرة. وأبدى موافقته حينئذ على الشروط التي تبرم بينه وبين ممثلى الحكومة [41].

هذه المطالبات في مجملها تتعلق بالاعتراف بأستقلالية بلادة وتثبيت نفوذه وتعزيز موقفة تحسباً لما يجد من أحداث.

ولعل من أعقد المسائل التي عكرت صفو العلاقة الفوراوية الثنائية هي قضية القبائل الحدودية ذات النزعة الاستقلالية. ففي منتصف عام 1900م قامت القبائل التي تقيم على الحدود ببعض الغارات وقام على دينار بمطاردتها. بيد أنها توغلت في كردفان فطلب على دينار إسترداد السلاح الذي نهبوه والرجال الفارين. فردت الحكومة السلاح بيد أنها لم ترد الرجال. ومن جانبه قام علىٰ دينار بمهاجمة المسيرية والحمر فأشيع بأنه غير موال للحكومة الثنائية لأن هذه القبائل كانت أساساً تقيم في كردفان [42].

ومنذ يونيو عام1900م بدأت العلاقات الثنائية الفوراوية يعتورها فتور، حيث بدأت الحكومة الثنائية تتشكك في نوايا على دينار واتجاهه نحو السنوسية والاستقلال عنها[43]. وحاول على دينار من جانبه أن يثبت حسن نواياه إزاء الحكم الثنائي معلناً ولاءه التام له ومحذراً الحكومة من الاستماع إلي المغرضين [44].

---

(40) يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 232-233. انظر أيضاً: S.I.R. 63/6 15th May to 15th July 1900

(41) علي دينار إلي الحاكم العام S.I.R. 6721 Ist January to 5th March 1900

(42) S.I.R. 71/2 9th June to 8th July 1900.

(43) الحاكم العام إلي علي دينار بتاريخ 1900/4/21 (D) S.I.R. 68/12 ..

(44) S.I.R 72/14 9th June to 8th Apr 1900.

واستطاع السلطان على دينار بصورة ملفتة للنظر أن يؤثر على الصحافة الرسمية فى الخرطوم حيث دبجت جريدة اللواء في عددها (172) الصادر بتاريخ 1900/6/29م مقالة تزخر بمدح السلطان وإبراز دوره القيادي والوطني فى دارفور[45]. وهذا مما يؤدي إلى إعطائه حجماً وجعله رقماً صعباً فى المعادلة السودانية. وهذا ما لا ترغب فيه الحكومة الثنائية بحال. وقد يجعل منه ذلك (التلميع) المتعمد نواة لشرارة ثورة وطنية في البلاد. وهذا ما كانت تخشاه الحكومة الثنائية وتحسب له ألف حساب وترفضه بشدة ويقع فى هذا الإطار رفضها لنشر كتاب يحكي سيرته بدعاوى واهية مقدمة ونتيجة.

ومع تزايد مشاكل قبائل الحدود ندّد السلطان علي دينار بالإدارة الثنائية في النهود. وعزا ذلك إلى انهماك حاكم النهود في شرب الخمور والأعمال غير الأخلاقية. وطالب بإعطائه صلاحيات واسعة لاجتثاث الفساد في تلك الأنحاء [46].

وفي سبتمبر عام 1900م أرسل السلطان هدايا للحاكم وبضاعة لبيعها فصادرت الحكومة الثنائية كل ما تم إرساله مما اقتضى احتجاجه واستعلامه عن ذلك، وحاولت الحكومة الثنائية استغلال رسل السلطان والشخصيات المقربة من البلاط الفوراوي بغية استخدامها كطابور خامس ضده. ولكن علي دينار كان حذراً تجاه هذه المخططات والتدابير الثنائية، وبناءً على حيثيات هذا الإجراء الثنائي قام بتجريد وزيره محمد فضل الذي استقطبته الحكومة الثنائية وأرسلته قافلاً إلي دارفور وبصحبته أحد ضباط المخابرات[47]. مما يعني أن علي دينار لم يكن غافلاً عن تدابير الحكم الثنائي بحال، لذا كان رده سريعاً وحاسماً ومن غير هوادة، بيد أنّ هذه الأعمال غير المبررة لدى العامة هي التي زادت من حدة إتهاماته بالقسوة والظلم. وإن كان أمره فيها مبنياً على معلومات وحقائق موضوعية، ولم يحدث أن وقف خائن أمام الناس يوماً، وقال أنه خائن، لأن هذا الوزير الذي تم استقطابه أو قل تجنيده بواسطة الاستخبارات الثنائية فهو

---

[45] يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 239 – 240.

[46] S.I.R. 75/4 8th Oct. to 8th Nov, 1900.

[47] من علي دينار إلي الحاكم العام بتاريخ 22 جمادي الأولى 1318، 1900/9/21. . S.I.R. 75/4 (A).

على اسوإ تقدير وفى كل أعراف الدنيا وقوانينها يعتبر خائناً لاسيما إذا كان ذلك لصالح دولة أجنبية وهذا ما حدث، والخيانة أو التخابر لصالح دولة أجنبية عقوبته الإعدام إذا كان يشكل تهديداً خطيراً للأمن القومي لبلده. وعلي صعيد آخر لقد كانت هذه التصرفات في الواقع لا تعدو عن كونها ضرورة أمنية اقتضاها أمنه الداخلي وحماية حكمه الوطني فى دياره. ولعبت المخابرات الثنائية دوراً بارزاً فيما قام به من أحكام ونفذه من إجراءات[48]. بإتباعها أساليب معادية لوجوده ومحاولتها المتكررة لاستغلال أقرب الناس إليه بغية القضاء عليه وتسويره بسياج من الجواسيس. ولكنه دوماً كان يتطلع إلى الانعتاق من القيود المكبلة لحركته. وكان شديد الحذر إزاء الحكومة في الخرطوم وقد تمتع بحس أمني عال ويقظة فائقة.

وبنهاية سنة 1899م تم تعيين سلاطين باشا مفتشاً عاماً بعد إختيار ونجت حاكماً عاماً علي البلاد وسرداراً للجيوش المصرية الإنكليزية. وكان ونجت يشغل منصب مدير المخابرات أثناء وبعد الحملة الإنكليزية المصرية. ففي 23 ديسمبر 1899م، 20 شعبان 1317هـ أصدر الخديوي أمراً بتعيين الفريق السير ريجنالد ونجت باشا سردار الجيش المصري حاكماً عاماً للسودان بدلاً من اللواء كتشنر[49].

ولأهمية دوره سنأتي علي نبذة قصيرة من سيرته فهو ريجنالد ونجت ولد 1861م. التحق بالمدفعية الملكية 1880م. ثم التحق بالجيش المصري 1883م.

اشترك في حملة النيل (5- 1884م). واشترك في استعادة طوكر 1891م. ثم أصبح حاكماً عاماً لساحل البحر الأحمر وسواكن 1894م. ثم مديراً للمخابرات العسكرية في حملة السودان (6- 1898م). وكان قائد العمليات ضد الخليفة 1899م. ثم سرداراً للجيش وحاكماً عاماً للسودان (1899م- 1916م) ثم مندوباً سامياً لبريطانيا في مصر.

(48) المخابرات S.I.R 79 /10-11

(49) دار المحفوظات المصرية 305 /3.

أصبح كولونيلاً في 1889م. ثم لواءً 1903م. ثـم فريقـاً 1908م ثـم جنـرالاً 1913م. ونال أوسمة عدة وألقاباً كثيرة [50].

بتعيين سلاطين باشا مفتشاً عاماً تم الإعتراف بعلي دينار سلطاناً علـى دارفـور وأعطى حرية التصرف. وأعلم بأن تعيين سلاطين قد تم بموافقة حكومة جلالة الملكـة وخديوي مصر، وورد في خطاب ونجت إليه ما يلي: (وقد قلت في بعض مخـابراتي أني سأغتنم فرصة وأسعى لحصول مقابلة بيننا وبينكم والآن قد تعين سـعادة اللـواء سلاطين باشا مفتشاً عاماً للسودان وكلفته شخصياً بأن يقابلكم في مكان تعينوه له للنظر معكم شفاهياً .. أن يقركم إسمياً علي جميع بلاد دارفور ويصادق على جميع المطالب التي فيها راحتكم وخير بلادكم)[51].

هذا الاعتراف لم يكن صريحاً لان الحاكم العام لا يزال في انتظار رد المداولات الدائرة بين المندوب السامي البريطاني ووزير الخارجيـة حـول وضـعية السـلطان وعلاقته بالحكم الثنائي في الخرطوم. أذن القضية بالنسبة للحاكم كانت تزجية وكسـب وقت ليس إلا، ووصل سلاطين النهود علي أمل اللقاء بعلي دينار إلا أن الأخير لم يشأ مقابلة أي مسؤول أوروبي خارج أو داخل بلاده. ومكث سلاطين فترة حتـى أصـابه اليأس. فبعث بخطاب إلي السلطان جاء فيه: (تراكمت على الأشغال المهمة ... حتـى أني صرت أرى أن ذهابي لمقابلتكم غير متيسر فى الحالة الراهنة ولذلك الأحسـن أن ترسلوا من تعتقدونهم من رجالكم .. لينوبوا عنكم فى مقابلتنا بالنهود أو المحل الـذى أكون موجوداً فيه لأجل المداولة معهم)[52].

ولئلا يغضب تمنع السلطان السلطات الثنائيـة حـاول علـي دينـار أن يوسـط شخصيات لها صلات وثيقة بالحاكم فمن هؤلاء، الزبير باشا ود رحمة الذي كتب لعلي دينار خطاباً ورد فيه: (وجميع ما ذكر لنا من سلطتكم الفخيمة .. عرضناه علي دولتلوا سردار الجيوش المصرية والحاكم العام فسر بذلك .. فلذلك أمرنا أن نعلـم سـلطنتكم

---

[50] A.B. Theobald. OP. Cit. PP. 34.

[51] من الحاكم العام الي علي دينار في 9 نوفمبر 1900، 16 رجب 1318 S.N.A. Intel 7/3/1

[52] سلاطين إلي علي دينار في 1900/12/15 S.N.A Intel 7/3/1

بفايدة عمومية تنفع البلاد ... وتقوى روابط علاقات سلطنتكم الوديــة مــع الحكومــة السودانية)[53] أن ورود عبارة (وتقوى روابط علاقات سلطنتكم الودية مــع الحكومــة السودانية) ذات دلالة تاريخية وموضوعية هامة، إذ تعني أن مفهــوم الســودان غيــر سلطنة الفور ولا يتضمنها. وأن حدود سلطنة دارفور خارجة عن حدود السودان. فــي هذا الأثناء تصاعدت مشاكل القبائــل الحدوديــة التــي اســتغلت الظــروف، وأرادت الإصطياد في الماء العكر. فتسببت فى إحداث شروخ فى العلاقات الفوراوية الثنائيــة لقيامها بالنهب والسلب واحتمائها بالطرف الآخر. لذا قام سلاطين بإرسال خطاب فــي ديسمبر عام 1900م إلي السلطان بغية معالجة أمرها[54].

وقام مدير كردفان بشكوى القبائل الدارفورية "إلى السلطان [55] ورد السلطان بقوله (وأجرى اللازم فى أمر الحدود كما ذكرتوا وإن شاء الله لا تكون منازعة فى المستقبل نحوى الحدود المذكورة كما الظن) [56]. أن هذه الأحداث التاريخية ســواء فــي فتــرة السلطان إبراهيم قرض في سبعينات القرن التاسع عشر أو في بداية القــرن العشــرين تؤكد علي أن مشكلة دارفور هي مشكلة ثقافية أكثر منها إثنية كمــا يــراد لهــا الآن. وميزة هذه الإشارات التاريخية أنها تؤصل وتجذر لأبعاد ما يدور الآن في دارفور.

وطلب علي دينار من الحكومة الثنائية أن تزوّده بأعلام وشدد على قضية الحدود، بيد أن الحاكم حتى الآن كان في انتظار موافقة المندوب السامي البريطاني في القاهرة ووزير الخارجية البريطانية. وأكد للمسئولين في كل من القاهرة ولندن بــأن دارفــور إقليم بعيد وأن دخله ضئيل وأن الاعتراف بالسلطان علي دينار من قبل الحكومة الثنائية تم مؤقتاً باعتباره أمراً واقعاً، ويحث الجانبين علــى الموافقــة علــى الإدارة الذاتيــة لدارفور. وبعد مداولات وأخذ ورد جاءت موافقة المندوب السامي على الاعتراف بعلى دينار حاكماً على بلاده، فتم الاعتراف به سلطاناً في عام 1901م. وفي هــذه الســنة بالتحديد قام بإرسال أول ضريبة في حدود خمسمائة جنيه[57].

---

[53] من الزبير باشا ود رحمة إلي علي دينار في 12/ 1900م، 1318/8هـ S.N.A Intel 7/3/1

[54] د. يونان لبيب رزق، مرجع سبق ذكره، ص 243.

[55] من مدير كردفان إلي علي دينار في 8/ 1318هـ، 12/ 1900م S.N.A Intel 7/3/1

[56] من علي دينار إلي مدير كردفان في 1318/7/2هـ، 1900/10م S.N.A Intel 7/3/1

[57] من الحاكم العام إلي علي دينار في 1901/1م S.N.A. Intell 7/1/2

وبحلول 1901م تجددت مشاكل القبائل مرة أخرى، وتدخل سلاطين للعفو عن موسى مادبو زعيم الرزيقات. وحينها قد وصل علي دينار إلى قناعة مؤداها أن موسى شخصية: (لا يصلح معنا ولا مع الحكومة) [58] وان العفو عنه لا يتم إلا بشرط أن (يحضر عندما يقابلنا ومن عندنا يتوجه إلى جهة شكا) [59]. ولا يخفى أن الرزيقات مشكلتهم مع الغارات والتعدي هو شأن كل القبائل الرعوية الموجودة بدارفور وهي مرعى وأرض.

وتجدد طلب سلاطين بضرورة مقابلة السلطان بيد أن الأخير كرر إعتذاره[60] فرد سلاطين بقوله (واني أخبركم بأني لا أقدر أن أبقى هنا طويلاً .. وطالما أن الأحوال لم تسمح بنوال رغبتي في مقابلتكم فإني أتامل بعون الله من تدبير أمر المجيء إليكم ومشاهدتكم في الشتاء المقبل)[61]. يبدو أن السلطان كان على وعي تام بأن محاولات الحكومة الثنائية لمقابلته، لها ما وراءها مما لا تحمد عقباه وأن هؤلاء الأوروبيين لا يؤمن لهم جانب. ولربما كان يعتقد أن خروجه سيفقده مركزه فلذا كان يماطل في مقابلة أي مسؤول أوربي.

وضن السلطان بأن يبعث بمن ينوب عنه لمقابلة سلاطين [62]. ورأى في وجود سلاطين خطورة على عرشه إذ من المعلوم أن سلاطين كان حاكماً للإقليم فيما قبل المهدية مما يعني بأن له صلات ومعارف قديمة بالأرض وبالناس يمكن أن يوظفها لصالح الحكم الثنائي ضد علي دينار، وبالتالي لم يكن علي دينار مغفلاً حتي يجهل هذه الحقائق. وفي اختيار الحكومة الثنائية لسلاطين باشا لأداء هذه المهمة أخطار واضحة على علي دينار. لان سلاطين خير من يقوم الوضع في دارفور والسلطنة على حد سواء إلى جانب إمكانية مقابلته لشخصيات لا يطمئن إليها علي دينار من أمثال مادبو

[58] D.S.A 110/5. H.A. Macmicheal: Notes on tribes of Darfur Khartoum Dec 1915. Typescript. انظر أيضا A.B. Theobald OP. Cit. PP. 38-39. أنظر أيضا: موسى المبارك، مرجع سبق ذكره، ص 230-231. السلطان إلي سلاطين في 1318/9/14هـ، 1901/1/1م S.N.A. Intel 9/1/2

[59] المرجع السابق.

[60] المرجع السابق.

[61] سلاطين إلي السلطان في 1901/1/13م، 7/9/ 1318هـ S.N.A. Intel 7/1/2

[62] السلطان إلي السلاطين 1318/7/29هـ، 1901/16م S.N.A. Intel 7/1/2

زعيم الرزيقات. لذا حاول السلطان الإيقاع بين سلاطين ونائب الحاكم العام بغية إبعاده عن المنطقة حتي لا يؤثر في قياداتها الفاعلة، فطلب من نائب الحاكم العام إصدار أمر عاجل لإيقاف رحلة سلاطين المستقبلة إلي دارفور لعدة اعتبارات أولها: إن هذه البلاد لا يقدر علي إدارتها إلا هو – علي دينار– ثانيها: إن قدوم سلاطين إلي المنطقة سيثير الأهالي باعتباره قادماً لخراب البلاد. ثالثها: إن غياب السلطان عن دارفور ولو لمدة يسيرة سيحدث فتنة، ويشير إلى ذلك بقوله (لا يخفي أن في هذه الديار أهالي أشبه بأعجام ولم يرد أحد له مزية خلافنا لما جرت عادتهم من زمن آباءنا السلاطين وإذا أردت خرجنا لأي جهة من الديار ولو مسافة قريبة لا يرضوا ... إذ كان بلغهم قدوم سلاطين فيظنون أن سلاطين قد حضر للخراب) [63].

ويبدو أن السلطان كان يدرك تماماً خطورة سلاطين لذا طالب بإيفاد شخص آخر[64]. وان كان في الواقع لا يهدف إلى مقابلة أي مسؤول أوروبي بغض النظر عن إسمه أو رسمه لذا اعتذر حين قدوم الحاكم العام نفسه إلى الأبيض عن مقابلته بالظروف المحلية وصعوبة حركته[65]. وفي خطاب لسلاطين استصوب رجوع سلاطين إلى الأبيض[66]. إن هذه المراوغة وهذه الدبلوماسية التي أتبعها السلطان إزاء الحكم الثنائي وقدوم سلاطين بالرغم من العلاقات الحميمة التي ربطت بينهم في أم درمان لم تثنه عن تخوفه من سلاطين، ولربما كانت حساباته علي قدر من الصحة. ولذا قدر من الأصوب أن لا يقابله وأن يحول دون قدومه إلى دارفور.

ولا يزال يلح طالباً تحديد حدود سلطنته بقوله: (فإنني أرغب ..... أن .. تصدروا أوامر معاليكم بأعمال هذا الشرط. فأولاً يكرم علينا بإيضاح فصل حدود بلادنا ويتقدر ما يطلب منا.. اللوازم اللازمة لمساعدة العسكرية خدماً للدولة)[67].

(63) السلطان إلي نائب السردار في 1318/9/29هـ، 1901/1/16م S.N.A. Intel 7/1/2

(64) المرجع السابق.

(65) خطابين من السلطان إليّ كل من الحاكم العام والمفتش العام بتاريخ 1318/10/6هـ، 1901/1/22م S.N.A. Intel 7/1/2

(66) المرجع السابق.

(67) خطاب آخر إلى الحاكم العام في نفس اليوم S.N.A. Intel 7/1/2

في هذا الخطاب أراد السلطان أن يقوم بمقايضة مع الحكومة الثنائية، وأن يتبع أسلوباً إغرائياً، بغية حصوله علي الاعتراف بحدوده التي يحلم بها. وفي هذا الأثناء تصاعدت مشاكل الحدود وقضية القبائل الحدية والتي استغلت ظروفها[68] وظروف العلاقة القائمة بين كل من الحكومة الثنائية والسلطان وأرادت الاصطياد في الماء العكر، فلجأ علي دينار إلى مطاردتها داخل الحدود الثنائية، الأمر الذي استدعى تنبيهه من قبل الحاكم العام [69] واستجاب السلطان لهذا النداء علي مضض. وأعلن إيقافه لغاراته للمعالية[70]. وتبدو أهمية هذه الخلفية التاريخية لتفسير كثير من أحداث دارفور الجارية الآن والتي تحاول كثيرٌ من الجهات الانحراف بها عن مسارها الطبيعي وعن جذورها التاريخية.

وبدأ السلطان يشعر بتعاطف الحكومة الواضح مع التحرك القبلي علي الحدود بغية إضعاف قوته، لذا لجأ إلى التخلص من هذا الوضع بالبحث عن وسائل ناجعة لتقوية موقفه بشراء أسلحة وذخيرة عن طريق زوجات جنود الحكومة الثنائية في كردفان، والقيام بتهريبها في أكياس بلح إلى دارفور. ومن ناحية أخرى بدأ يتطلع إلى الإستعانة بقوة عظمى في المنطقة بإمكانها حماية عرشه إذا ما جارت الحكومة الثنائية علي بلاده. وقد جاءته نصيحة من سلطان وداي بطلب الحماية الفرنسية ليتسنى له البقاء سلطاناً مستقلاً[71]. ويعكس هذا الطلب طبيعة التنافس الحادث في هذه المنطقة بين الدول الإستعمارية، ويكشف عن مدي الأبعاد الموضوعية لما يجري الآن من أحداث، ويفسر دور كل دولة أوروبية في هذا الصراع المدمر للإنسان والبنيات التحتية في دارفور وهو أمر في حد ذاته مقصود، ومدبر بإحكام من قبل الأعداء وبغفلة من قبل أصحاب المصلحة الحقيقية وهو المواطن الدارفوري البسيط الكادح من أجل البقاء ولقمة العيش الكريم.

---

(68) من علي دينار إلى مدير كردفان في 1318/12/21هـ، 1901/4/18م S.N.A. Intel 2/3/2

(69) تلغراف من السردار إلى علي دينار ابريل 1901م S.N.A. Intell 6/3/ 2

(70) خطاب من علي دينار إلى السردار S.I.R. 82/8-9 Ist to 3Ist May 1901

(71) خطاب من أحمد النور إلي شيخ الأضية بتاريخ 1901/4/14م S.I.R. 82/4 Ist to 3 Ist July 1901.

من خلال ما مضى يتضح أن السلطان بدأ يشعر في دخيلة نفسه بخيبة الأمل تجاه الحكومة الثنائية من حيث مماطلتها في تحديد الحدود ومعالجتها لمشكلة القبائل الحدودية. تلك المشكلة التي كانت وما زالت وستظل قضية دارفور الأولى، وإن حاول البعض الآن الانزلاق بها إلي مسارات جديدة، وتحت سقوف جديدة من الإثنية والعرقية والتفرقة العنصرية البغيضة.

وبعد أربعة أشهر تالية قام السردار بالرد علي خطاب علي دينار السابق في 1901/5/12م بما يلي: (إني أخبركم أن الحدود ستكون كما كانت عليه في الأيام السابقة أعني تكون الحدود من أم شنقة إلى التوايشة – الطويشة ودار المعاليا – ودار الرزيقات لغاية بحر العرب والكلكلة، الملم ودار التعايشة والحدود السابقة مع برجو (برقو) .... أن الحكومة ليست في احتياج للمال لتساعد به وإنما... أن ذلك يكون دليلاً علي خضوعكم... فقد فرضنا عليكم مبلغ مائة كيس تقومون بتأديتها للحكومة سنوياً... وبناء عليه قد اعتمدنا تعيينكم حاكماً علي دارفور من قبل الحكومة طالما أنتم خاضعين لأوامرها وممتثلين لأحكامها) [72].

أتى الخطاب الماضي علي بعض المكاسب التي استطاع السلطان انتزاعها من الحكومة، أولها: الإعتراف بحاكميته لبلاده. وثانيها: تحديد حدوده وإن كانت هذه التحديدات تنقصها الدقة فالحدود الغربية والحدود الجنوبية لم تحظ أياً منها بإشارة دقيقة وواضحة وجلية. إذ من المعلوم أن الحدود مع وداي دوماً كانت مجال تنازع وان السلطنات الصغيرة مثل دار قمر ومساليت وسلا كانت دوماً ميدان تنافس بين كل من وداي ودارفور[73]. وهي سلطنات تغلب عليها التوجهات القبلية والعشائرية، وغالباً ما تقع أسيرة لهذه الأهواء أو تلك، ولقد ظلت دارفور لقرون طويلة تحتفظ بهذا الطابع الفدرالي، وهذا المستوى من الحكم القبلي العشائري المحلي، في ظل سلطنة أمّ، ألا وهي سلطنة دارفور الإسلامية.

---

[72] خطاب من السردار إلي علي دينار وكذا خطاب آخر من سلاطين بتاريخ 1901/5/21. S.N.A. Intel 7/3/22.
[73] A.B. theobald Op. Cit. PP. 42-43.

أما بشأن نظرة علي دينار إلى الأوربيين عموماً والمسيحيين الذين يحكمون في المنطقة يلقي الضوء عليها ما أشار إليه وزيره قمر الدين عبد الجبار والذي كان عميلاً للحكومة الثنائية بأن علي دينار كانت نظرته إلى المسيحيين تعتورها الشكوك. وكان دوماً يوجه حاشيته بالانتباه إلى مكايدهم وتدابيرهم (74). إن هذه الحساسية مبعثها موروث تاريخي في دارفور ومعطيات حية عاشها هو أثناء الفترة المهدوية مما يؤكد على أنه كان قارئاً جيداً وذكياً للتاريخ والأحداث، وأنه كان أوعى من كثير من القيادات والزعامات الوطنية يومئذ على مستوى السودان والعالم الإسلامي والعربي عموماً.

يمكن القول أن حساسية السلطان علي دينار تجاه المسيحيين بإمكانها أن تفسر جزءاً كبيراً من سياسة السلطان تجاه الحكومة الثنائية والفرنسية وموقفه الفاصل في الحرب العالمية الأولى. مما يوحي بأن موقفه موقف أصيل وينم عن خبرة وحنكة سياسية فريدة وتنبه وحذر دائم تجاه المخططات الاستعمارية في المنطقة. وهو شك وحذر له ما يبرره من معطيات التاريخ المعاصر والحديث للسلطان.

وفي يونيو عام 1901م تجددت أزمة القبائل الحدودية، وعقد علي دينار العزم على تأديب زعيم الرزيقات تارة أخرى، بيد أن الحكومة الثنائية تدخلت مرة أخرى مما اقتضى عدول السلطان عن خطته لضرب كاجا سروج (75).

وفي محاولة لتنقية جو العلاقات قام السلطان بالاعتذار عن شكواه ضد سلاطين إلى كل من سلاطين والحاكم العام. وذكر في خطابيه بأن سبب الشكوى هي أخبار وصلته بواسطة مبعوثي الحكومة والمقربين إليها. ولو شاءت الحكومة الثنائية معرفة أسمائهم لذكرها ولكنه الآن لا يفعل (76).

---

(74) قمر الدين عبد الجبار وزير علي دينار إلي سلاطين في 2/24/ 1901م وخطاب باشمعاون كردفان إلي سلاطين في 7يوليو 1901م S.N.A. Intel 7/5/2

(75) خطابين من السردار وسلاطين باشا إلي السلطان علي دينار في 1901/5/12م S.N.A. Intel. 7/3/2

(76) خطابين من علي دينار إلي كل من السردار والمفتش العام في 28/صفر 1319هـ 1901/6/17م S.N.A Intel 7/1/3 .

هذه الإشارة في تقدير الباحث على قدر من الذكاء وهي تعني مواجهة التدابير الثنائية بما هو كفيل بإحباطها، وذلك بغرس بذور الشكوك بين الحكومة الثنائية ومبعوثيها وعملائها في دارفور. وبذا يكون قد ضرب عصفورين بحجر في آن واحد.

وفي يوليو عام 1901م قام علي دينار بإرسال عدة أشخاص يحملون خطابات منه إلى الحكومة الثنائية بغية ايهامها بحسن العلاقات معها.بيد أن القصد الأساسي من إرسالهم هو الحصول على أسلحة عن طريق الشراء بعيداً عن رقابة الحكومة الثنائية وعلمها [77].

وبدأ السلطان يتضجر من تدخل الحكومة الثنائية في شؤونه الداخلية، ومحاولاتها الجادة لإخضاع رعاياه للسلطة المركزية. حيث يذكر أن الرزيقات ومنذ القديم تابعين لدارفور وان موسى مادبو هو سبب كثير من المشاكل. وأنه قد عفى عنه بناء علي رغبة الحكومة الثنائية[78]. وإلا فإن العرف والإرث والتاريخ والقانون يقف لصالحه، وقد تنازل عن كل ذلك نزولاً علي رغبة الحكومة وعفا عنه.

وفي هذا الأثناء حاول سلاطين أن ينتهج سياسة مقتضاها إجبار القبائل المهاجرة من دارفور بالرجوع إلى مواطنها التي هاجرت منها هذا فيما يتعلق بالرزيقات. أما الكبابيش فقد هدد علي دينار من جانبه إبراهيم المليح ناظر الحمر أن لم يقم بمعاقبة الهاربين من حدود دارفور إلى كردفان من قبيلة الكبابيش سيعاقبه علي ذلك. وبذل سلاطين جهوداً لإلزام علي دينار جانب الصبر والحلم. ووجه قبيلتي المعاليا والرزيقات بالخضوع لأوامر السلطان وعدم تجاوز حدود دارفور إلى كردفان. بيد أن هذه السياسة لم تؤت ثمارها[79].

ولما لم يستجب مشايخ المعاليا والرزيقات لمطالب السلطان ولا لنصائح الحكومة جرد عليهم السلطان حملة بقيادة (سليمان تيراب)، واستطاع الأخير هزيمتهم وهرب

(77) خطاب من احمد سالم النور إلي أخيه شيخ الأضية في 1901/6/2 ربيع الأول 1319هـ S.I.R 85/5.

(78) خطاب من علي دينار إلى الحاكم العام بدون رداً علي خطابه في أواخر 1901/6/6م، أول ربيع الأول 1319 S.N.a Intel 7/1/3

(79) A.B. Theobald Op. Cit. PP. 49-50 .

من نجا منهم إلى كردفان محتمياً بشيخ الحمر في كردفان. فأرسل (سليمان تيراب) خطاباً شديد اللهجة إلى إبراهيم المليح يطلب منه فيه تسليم هؤلاء الفارين إليه، وكذا أرسل خطابين إلى كل من مدير كردفان والنهود بهذا الصدد. بيد أن الحاكم العام طلب من ناظر الحمر عدم تسليم هؤلاء المشايخ إليه مما يوحي بأن الحكومة كانت متواطئة ولو بقدر مع هؤلاء الشيوخ. ولم تلبث قوات علي دينار أن قامت بإحراق كاجا سروج الواقعة على حدود دارفور الشرقية لإيوائها بعض اللاجئين[80].

هذه السياسة الثنائية توحي بأن تحركات هذه القبائل كانت بإيعاز من قبلها. ولربما كان الغرض منها إضعاف قوة السلطان المادية والعسكرية وإضعاف مركزه الأدبي والسياسي. لذا ما أن تشعر الحكومة الثنائية بأن السلطان أوشك أن يستأصل شأفتها حتى تتدخل الحكومة لصالح تلك القبائل المتمردة. وتعمل علي توفير مظلة الحماية لها.

وتجرأ الكبابيش علي النهب والسلب وتكررت النصائح بالحسنى من قبل السلطان بيد أنها لم تجد فتيلاً [81]. وبدأ السلطان يشعر بدقة موقفه وتأكد لديه شعور بأن هذه القبائل مدعومة من قبل الحكومة الثنائية فلجأ إلى استفزازها بالكتابة إلى شيوخ الحمر طالباً منهم القدوم إلى دارفور والإقامة فيها ونزع أيديهم من ولائهم للحكومة الثنائية[82]. وفي الوقت ذاته عزم علي الإنتقام من هؤلاء المعتدين بيد أن خطاباً شديد اللهجة من قبل الحكومة جاءه مهدداً ورد فيه ما يلي: (وإذا بقي جيشك قريباً من الحدود فلابد من حصول النزاع بينه وبين القبائل المجاورة ويفضي الحال إلى زعزعتهم فتضطر الحكومة للمداخلة وإرسال عساكر من قبلها) [83] وذلك بعد وصفه لإجراءات السلطان بأنها قد ألحقت الضرر والخراب بالناس وملزماً إياه بإصدار أوامر فورية لإيقاف حملاته علي القبائل المعتدية [84]. مما لا شك فيه أن هذه السياسة الثنائية غايتها أن تغل من يد السلطان وأن تحد من سلطاته وهي سياسة منحازة لصالح القبائل من أجل إضعاف سلطان علي دينار.

---

[80] يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، 245.

[81] خطابان أحدهما من رجالات علي دينار في 1901/9/28م، 1319/6/13هـ. والثاني من علي دينار إلى مشايخ الكبابيش في 1901/10/7م –1319/6/21هـ ،، S.N.A Intell 2/3/14.

[82] من سلاطين إلى علي دينار في 1901/10/21م ربيع الأول 1319هـ S.N.A. Intell 7/3/2

[83] خطاب من السردار إلى علي دينار في 1901/10/21م، 6 ربيع الأول 1319هـ S.N.A. Intell 7/3/2 ،،

[84] المرجع السابق.

بيد أن جيش السلطان لم يأبه لهذه التهديدات وواصل حملاته ضد المتمردين. وعلي صعيد آخر لم تقف الحكومة الثنائية مكتوفة الأيدي فتحركت بسرعة بأن حشدت جزءاً من قواتها علي الحدود لردع قوات السلطان "الذي لم يكن أمامه من سبيل سوى الاعتذار بغية تهدئة الموقف وحتى لا تضيع جهوده هباء أمام هجمات أو غارات ثنائية لم يكن قد أعد لها عدته [85].

ثم ما لبث أن قام بإرسال تهديد إلى ناظر الحمر ذكر فيه أن بعضاً من الأعراب قد اخترقوا حدود دارفور، وقاموا بالنهب والسلب. وأكد له إذا لم ترتدع هذه القبائل فإنه على استعداد لمطاردتها حتى داخل منطقتهم في كردفان[86] وطلب من إبراهيم المليح تسليم ورد ما تم سلبه ونهبه، وإن لا فإن قواته ستدخل المنطقة. بيد أن الحكومة لوحت بقواتها تارة أخرى مما اقتضى انسحاب قوات السلطان وإرساله إعتذاراً ثانياً [87] .

بنهاية نوفمبر عام 1901م ساد المنطقة هدوء، ومنح السلطان الأمان لأهالي (كاجا سروج) بيد أنه رفض منحه لموسى مادبو زعيم الرزيقات[88]. وتجاه نصائح الحاكم العام له بالتحلي بالصبر عبر السلطان عن تذمره وتضجره من غارات القبائل ونهبها وسلبها[89]. فأرسل إلى الحاكم العام خطاباً يعلن فيه عفوه وأمانه لكل القبائل إلا موسى مادبو نتيجة لعصيانه وتمرده [90]. وذكر أن هذه القبائل قد اعتمدت الكسب السهل بدلاً من التعمير والعمل الشريف وتعمير الأوطان وأن ردها في هذه الحال إلى صوابها لا يتم إلا بالقوة[91].

---

(85) S.I.R. 88/4-8. Ist to 30th Nov. 1901 .

(86) خطابين من علي دينار احدهما إلى شيخ الكبابيش ودار حامد في 1901/11/5م وآخر إلى إبراهيم المليح في 1901/11/2م S.I.R. 88/4-8

(87) من علي دينار إلى إبراهيم المليح في 1901/11/24م S.I.R. 89/8-9

(88) A.B. Theobald OP. Cit. PP. 51-54.

(89) المرجع السابق.

(90) من علي دينار إلى الحاكم العام في 1901/12/28م.

(91) نفسه.

الفصـــل الثانـــي

الفـــترة الثـانية 1902-1908

في أبريل عام 1902 بعث علي دينار بالضريبة في هيئة دواجن واعتذر بسوء الحالة الاقتصادية في البلاد نتيجة لتخريب الدراويش لها [1]. وفي 18 أبريل بعث شيخ الحمر خطاباً يستعدي فيه الحكومة الثنائية البريطانية على السلطان علي دينار باعتبار أن جيشه يتكون من فلول الدراويش وأنه لم ينفك عن غاراته على الحمر [2].

أن مسألة الدراويش أصبحت تهمة وخيانة عظمي يستخدمها كل خصم ضد الآخر لإدركه بحساسية الحكومة الثنائية تجاه كل ما يمت للدراويش بصلة. وإن لا فمن المعروف أن للسلطان حساسية مفرطة تجاه الدراويش. وقد تقدم موقفه منهم في الفصل الأول والثاني والثالث من الباب الثاني.

حاول علي دينار أن يمد حدوده إلى حفرة النحاس. وفي الوقت ذاته لم يكف عن تهديداته لقبائل الحدود التي أقلقت منامه. بيد أن هذه القبائل رأت ضرورة القيام بدور الإيقاع بينه وبين الحكم الثنائي البريطاني الامر الذي يعطيها مساحة من الحركة واللعب على الحبل لصالحها. فبعثت بخطاباته التهديدية إلى الحاكم العام وهذه هي ذات مشكلة دارفور الآن التي يحاول بعض أبناء دارفور بوعي أو بدون وعي إلباسها ثوباً عرقياً وإثنياً نتناً يتفق ومعطيات الهيمنة الأمريكية وتفسيرها الكسيح المعوق للكثير من الأحداث وفق استراتيجية مصالحها القومية. وأبدى السلطان في الوقت ذاته ضيقاً من الضرائب البريطانية المفروضة عليه قسراً فطلب إعفاءه منها فورده خطاب [3] تفصيلي

---

[1] A.B. Theobald of. Cit. PP.77.

[2] علي محمود جلا شيخ الحمر في 8 محرم 1320هـ، 18 أبريل 1902م S.N.A. Intel 7/2/17

[3] الحاكم العام الى علي دينار في 13 صفر 1320، 1902/5/20م S.N.A Intel 7/3/4

من الحاكم العام بشأن هذه القضايا مجتمعة ورد فيه: (.... ليس من رأيي أن تطلبوا صريحاً من الحكومة التنازل لكم عن المبلغ...وأن لا تعودوا مرة ثانية إلى كتابة جوابات تهديدية كما فعلتم مؤخراً عندما كتبتم لمشايخ الحمر لأن جواباتكم تلك أرسلها أولئك المشايخ لمدير كردفان وأخبروه أنك تقصد تهديدهم ومحاربتهم... قد أخبرنا أنكم اخذين في كتابة خطابات إلى نصر عندل..... وإرسال كشافين إلى حفرة النحاس مع أنه معلوم عندكم أن حدود دارفور الخط الذي يوصل بين الملم وبحر العرب).

هذه الإشارات الثنائية البريطانية اشتملت علي إغلال أيادي السلطان وتقييد تحركاته تجاه القبائل المتمردة وتضع عقبات أمام توسعه. ولم تشأ الحكومة أن تفك أسره من الضريبة السنوية لأنها حلقة سيادية هامة وخيط عنكبوت ظلت تتمسك بأهدابه الحكومة الثنائية البريطانية من اجل ادعاء تبعيته لها. ولا شك أن محاولات السلطان الفكاك من أسر هذه الضريبة تصب في خانة الاتجاهات استقلالية لديه والتي ظلت الحكومة الثنائية البريطانية تعمل على كفكفتها وحسرها كلما سنحت لها فرصة. وبالرغم من ذلك لم يترك السلطان فرصة تمر دون أن ينتهزها للتعبير عن استقلاله والإنفكاك من أسر الارتباط بالحكم الثنائي وتبعيته المباشرة له. أما الحكومة الثنائية فبالرغم عن عدم رضاها من وجوده في السلطة إلا أنه كان أمراً واقعاً حاولت التعامل معه بحذر بالغ بأن جندت لها جواسيس في بلاطه للإطلاع على سياسته واتجاهاته العدائية أو السلمية(4).

في أغسطس 1902م تجددت شكوى السلطان ضد قبائل الحمر التي تقيم على الحدود لذا كلف الحاكم العام مفتش مديرية كردفان بمهمة حل مشكلة الحدود (5).

وبدأت شكوك السلطان تزداد تجاه نوايا الحكومة الثنائية إزاء سلطنته. فأكد له سلاطين حسن نوايا الحكومة الثنائية البريطانية. وعدم عزمها على تجاوز الحدود المعلومة (لبلاد دارفور)(6). عبارة بلاد الفور ذات دلالة استقلالية لا سيما وإنها قد صدرت من الرجل الثاني في الحكومة.

(4) S.I.R. 95/3 Ist to 30th June, 1902.

(5) خطاب من علي دينار إلى الحاكم العام في 1902/8/21م13جمادي الأولى1320ه ورده في نهاية أغسطس 1902.
S.I.R. 98/6 Ist to 30th Sep. 1902

(6) خطاب من سلاطين إلى علي دينار في 1902/9/30، 23 جمادى الثانية 1320هـ S.I.R. 98/6

خلال شهر أكتوبر كثرت المكاتبات بين الطرفين الثنائي والفوراوي وذلك أثر شكوك السلطان التي تجددت إزاء الحكم الثنائي. وورد إلى مسامعه أن مدير كردفان قادم إلى حفرة النحاس. فنفى سلاطين هذه المقولة وتهدئة لخاطره أتحف السلطان ببعض الهدايا وقام هو بدوره بإرسال هدايا إلى رجالات الحكم الثنائي[7].هذا الجهد المبذول يلقي الضوء علي أن الأمر قد بلغ حداً اقتضاه من جانب السلطان والحكومة الثنائية علي حد سواء. وكانت الحكومة الثنائية البريطانية من جانب آخر تخشى حدوث خروج من قبل السلطان أو قيام ثورة وحدوث تضحيات وخسائر مادية وعددية في وقت لم تكن فيه الحكومة الثنائية علي استعداد لمواجهتها في الوقت الحالي على الأقل.

وفي ديسمبر تجددت المشاكل وبدأت المناورة السياسية من قبل السلطان فقام بإرسال هدايا لسلاطين بمناسبة قدومه إلى النهود[8]. وأرفق ذلك بخطاب ورد فيه أنه قد بلغ مسامعه أن سلاطين يرغب في إرسال مدير كردفان إلى جهة حفرة النحاس بطريق شكا والكلكة (.. وقد نظرنا أن هذه الأمر إذا حصل وصار مرور مدير كردفان بتلك الجهة فلابد وأن تحصل الزعزعة للأهالي والاختلاط مع رجالنا بالحدود... وإذا كان في أمر لازم بحفرة النحاس وضروري أعلموني به فأنا أقوم بقضاءه نايباً عن معالي الحكومة)[9]. أما الهدايا التي أرسلها السلطان فقد أراد بها كسب سلاطين. وأعقب ذلك بما يعكس وجهة نظره تجاه إرسال أي مسؤول إلى داخل حدود دارفور حيث كان يرى في ذلك تدخلاً سافراً في شؤونه الداخلية وتهديداً لوجوده لذا لجأ إلى أسلوب التهديد بقوله: (فلابد أن تحصل الزعزعة للأهالي والإختلاط مع رجالنا بالحدود). ولئلا يعتبر ذلك منه موقفاً عدائياً صريحاً أبدى استعداده لتنفيذ كل ما يلزم بتلك الجهات بالإنابة عن الحكومة وهو من التهدئة الناجمة في مواجهة ذلك الأسلوب الخشن السابق الوارد في ذات الخطاب. وهو لا يرغب في تواجد أي نفوذ غريب في المنطقة يمكن أن يؤثر علي موقفه وموقعه السياسي في البلاد.

---

(7) خطابات بين سلاطين والحاكم العام في 15-19/ 1902/10م، 8 رجب 1320هـ S.N.A Intell 7/3/2

(8) علي دينار إلى سلاطين في 7 رمضان 1320هـ، 1902/12/13م S.N.A. Intell 7/1/4

(9) خطاب آخر من علي دينار إلى سلاطين بنفس التاريخ السابق " S.N.A Intell 7/1/4

ولئلا يتيح أي مجال لتدخل ثنائي تحت ذريعة اختراق الحدود من قبل أهالي دارفور قام بتطبيق أحكام رادعة ضد كل من يتجاوز حدود دارفور إلى كردفان الأمر الذي اقتضى تنبيهه من قبل الحكومة الثنائية [10]. إن هذا الاتجاه الإستقلالي هو توجه مكين يدعمه موروث حكم قديم وقبلية متمكنة. وبالتالي فإن معالجة أزمة دارفور الحالية لابد وأن تضع في إعتبارها هذه المفردات علي هذا المستوى من الوضوح لأن التركيبة الفوراوية (أو الدارفورية) إذا جاز التعبير هي تركيبة متفردة من الناحية الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية والتاريخية والعرقية.

وبحلول 1903م تجددت غارات القبائل (الحدودية) [11] وتكررت تهديدات علي دينار لشيخ الحمر الذي قام بدوره بإرسال تلك التهديدات التي مدير كردفان وبعثها ذلك بدوره إلى الخرطوم واتبعها بوجهة نظره بأن تهديدات السلطان هذه لا تتبعها نتائجها[12] وقد كان تقديره في مكانه حيث أن علي دينار بالرغم من كثرة تهديداته إلا أنه كان يشعر بأنه مغلول اليد وأن دخوله في معركة من هذا القبيل ستضعه في مواجهة مباشرة مع الحكم الثنائي. وقد رأى بأم عينيه ما حدث للدولة المهدية وهو قارئ جيد لمفردات التاريخ. لاسيما وأن هذه القبائل تقيم داخل حدود الحكومة الثنائية. وان ملاحقتها يعني خرق الإتفاق القائم بينه وبين الحكومة والقاضي باحترام السيادة الإقليمية لكل من الفريقين.

وبحلول مارس تحسنت العلاقات الفوراوية الثنائية إذ يشير أحد التقارير إلى أنه قد: (بدأت العلاقات التجارية بين دارفور وحكومة السودان) [13]. وقد أخذت طابعاً واضحاً. ومن خلال الإشارة السابقة يتضح أن هناك فصلاً واضحاً في أوساط الأجهزة الرسمية في الحكومة الثنائية بين حكومة السودان ودارفور. الأمر الذي له مغزاه في مفهوم (دارفور) واستقلاليتها عن حكومة السودان.

---

(10) السردار إلي علي دينار 1902/12/19م، 1320/11/14هـ S.N.A Intell 7/3/3

(11) علي دينار إلي مشايخ الحمر 1903/2/18م، -/1320/12هـ S.N.A. Intell 2/3/14

(12) A.B. Thesbald Op. Cit. PP. 73-74.

(13) S.I.R. 104/27 Ist to 31th March 1903.

وفي أبريل غادرت قافلة تجارية دارفور إلى أم درمان. وبعث علي دينار بخطاب يطلب فيه تزويده بذخيرة وظروف ذخيرة فارغة. وخطاب آخر يفيد فيه مغادرة القافلة لدارفور[14]. هذه المكاتبات تكشف عن انتعاش التجارة الخارجية وتحسن العلاقة الفوراوية الثنائية وهدوء الأحوال. بيد أن السلطان لم يدع تلك الفرصة تمر دون استغلالها ومحاولة التخلص من آثار الضريبة المفروضة عليه من قبل الحكومة الثنائية وأغلالها، وتركيزه علي أن دارفور هي مهد سلطنة آبائه وأجداده ومسقط رأسه حيث يقول: (ولو أنها – دارفور – ديار آباءنا وأجدادنا ومحل المربا – تربيتنا – والوطن لم نر ثمرة كليتا – كلية – ... ونقول أن المجبول عليها سنوي مداركته منا بغاية التعب وهو مبلغ الخمسمائة جنيه والدار لا يكون بها شئ أبداً ولم يؤمل فيها مداركة المبلغ نؤمل المراجعة فيذلك – في ذلك – وتأخير مايتان جنيه... ويكون المربوط ثلاثمائة شفقة بالرعية)[15].

لم يلجأ إلى المطالبة بالإلغاء تماماً ولكنه اتبع أسلوباً عله يفيد في إلغاء التبعة شيئاً فشيئاً. وهو كان بعينه البصيرة يدرك أن هذه الشعرة تصر عليها الحكومة باعتبارها مظهراً من مظاهر سيادتها عليه، لذا كان يعمل ما وسعه الجهد لإضعاف هذه الشعرة حتى يتخلص منها نهائياً. وشكلت هذه الضريبة قيوداً في نظره، إذ كانت ترمز إلى التبعية والخضوع للحكومة الثنائية بصورة غير مباشرة. رغماً عن شعوره بالاستقلال ومحاولته لانتهاز أية فرصة للتعبير عن ذلك. وهذا ما قصده بإشارته أن دارفور (ديار آباءنا وأجدادنا) وهي عبارة ذات دلالة قوية علي الاستقلال والحق التاريخي في الوجود والحكم والتصرف. لذا كان السلطان حريصاً علي التنصل من هذه الالتزامات والفكاك من هذا الإسار ولو جزئياً. وفي 5 يونيو 1903م احتج علي دينار لدى الحكومة الثنائية لإختراق أوربيين غير معروفين حدود بلاده ورفعوا علماً في حفرة النحاس. وردت الحكومة بأن هؤلاء الأوربيين هم حاكم بحر الغزال وبعض الضباط الإنجليز. الأمر الذي دفعه للتذمر ورأي في ذلك تغولاً علي حقوقه في السيادة علي بلاده وإعتداء علي حدوده[16].

---

[14] خطابين من علي دينار إلي الحاكم بتاريخ 25 محرم 1321هـ، 1903/4/28م S.N.A.Intell 7/1/5

[15] علي دينار إلى سلاطين في 25 محرم 1321هـ 1903/4/28م S.N.A Intell 7/1/5

[16] علي دينار إلى سلاطين في 1903/7/1، 29 ربيع الأول 1321هـ" S.N.A Intell 7/1/5

أنظر أيضا: A.B. Theobald. Op. Cit. PP. 65-66

وهنا يجب أن لا ننسى أن حساسية علي دينار من ظهور رجال الحكم الثنائي في حفرة النحاس لها ما يبررها. فعلي دينار وغيره من رجال الفور يعلمون تماماً أن سلطنتهم سيقطت في الماضي علي يد غاز قادم من بحر الغزال: (الزبير باشا) في مثل هذه الظروف لا يستبعد من الحكومة الثنائية وهي قارئة جيدة لمفردات تاريخ المنطقة بذكاء وبوعي أرادت أن تقوم بعملية جس نبضٍ لقوة وإمكانات السلطان، لذا كرر استعداده لتنفيذ أي التزامات تتعلق بهذه المنطقة، دفعاً لأي وجود أوروبي في بلاده. ويعتبر السلطان أن الدخول إلي هذه المنطقة يعني تجاوز الخطوط الحمراء وينذر بخطر إزاء وجوده وسلطته القائمة.

ووضع السلطان في حسبانه غدر الحكومة الثنائية به لذا قام بتهريب السلاح الثنائي إلى بلاده بالاتفاق مع تاجر يهودي يسمى محمد سعيد المالح[17] وكان هذا التاجر يقوم بتهريب الأسلحة إلى دارفور من النهود بمساعدة شريكيه سعيد عامر وحسن حدربي ومساعدة مأمور النهود[18]. بيد أن العجيب في هذه الإشارة أن التاجر اليهودي يسمى محمداً ذلك لأن عدداً من العوائل اليهودية قد دخلت الإسلام في فترة المهدية وان قضية التدين في السودان لم تقم علي الحدة المعهودة في كثير من أجزاء العالم الإسلامي حيث السماحة الدينية هي سمة سودانية خاصة إذ نجد في البيت الواحد: المسلم والمسيحي. وأن قضية التحول الديني لم تثر كقضية خطيرة في السودان عبر التاريخ لأن الإسلام قد دخل هذه البلاد سلمياً ولم يدخلها بالسيف والمسألة مسألة اقتناع أكثر منها إجبار ولربما كان للأمر تفسير آخر كما أشرنا إليه في الهامش(1).

ولقد تجددت مشاكل الحدود مع القبائل تارة أخرى. بيد أن السلطان لم ينس في معرض شكواه التنويه علي ضرورة عدم الإعتداء. لاسيما من مدير بحر الغزال من ناحية حفرة النحاس وفاروجي[19].

(17) اسحاق صالح إلى مساعد مدير المخابرات في 24 ربيع الثاني 1321هـ، 1903/7/26م. ومن الغريب أن هذا اليهودي يسمي محمدا لربما كان ذلك من باب التقية. لأن اليهودي يمكن أن يفعل أي شيء من أجل بلوغ غايته إذ قد يستغرب القارئ هذه التسمية، بيد أن ذلك لا غرابة فيه إذا علمنا الطبع اليهودي الوصولي. إذ بإمكان اليهودي في سبيل تحقيق مأربه أن ينزع جلده الظاهر من أجل تحقيق أهداف إستراتيجية أو كسب مادي رخيص. فكثير من اليهود الآن يوجدون في كثير من الدول العربية تحت أسماء مزورة وتحت مظلة هويات وشركات إنجليزية وأمريكية خدمة لأهدافهم دون علم تلك الدول. S.N.A Intell 2/3/14

(18) Ibid.

(19) خطاب من علي دينار إلي الحاكم العام في 1903/8/26م، 25 جمادي الأولى 1321هـ S.N.A Intell 7/1/5

وطلب السلطان السماح له بالغارات غرباً لتوسعة حدوده، وتمكينه من أداء التزاماته المالية تجاه الحكومة الثنائية[20]. هذه المبررات التي ساقها قد لا تكون هي المقصودة بقدر ما تنم عن تحرك يتسم بكثير من الذكاء. هذا لأن الإنجليز كانوا قلقين من تقدم الفرنسيين نحو أرض النيل بعد هزيمتهم لرابح الزبير- أحد رجالات الزبير باشا الذين رفضوا الاستسلام 1879م بعد سفر الزبير إلى القاهرة. واتجه رابح صوب الغرب حيث أسس دولة إسلامية كبري. وتولى عبء المقاومة الاستعمارية في المنطقة، وقد عمل علي نشر الإسلام ورفع راياته في تلك المناطق. ولدى احتدام المنافسة الاستعمارية بين الدول الأوروبية وتهافتهم علي أفريقيا، دخل رابح فضل الله مع الفرنسيين في صدامات أبلى فيها بلاء حسناً. ولم يرض إن لا إن يقدم روحه شهيداً في سبيل مبادئه التي آمن بها. وقد تمت هزيمته بواسطة الفرنسيين في 21 أبريل 1900م[21] ونتج عن ذلك التهامهم لإمبراطوريته التي تمتد إلى حدود دارفور وبحر الغزال.

وطلب علي دينار تزويده بأسلحة تعزيزاً لموقفه الحربي تجاه الغارات الفرنسية علي الجبهة الغربية، وإن كان القصد تقوية ترسانته الحربية مستقبلاً إزاء الغدر الثنائي. وحتى لا تنتاب الحكومة شكوك تجاه طلباته قام بإرسال الضريبة السنوية. وبالرغم من هدوء الحال نسبياً إلا أن القبائل التي تقيم علي الحدود قامت مرة أخرى بإختراق حدود دارفور. فجأر السلطان بالشكوى بعد التحقيق مؤكداً بأن أوامره قد صدرت إلى رجالاته ومسؤوليه بعدم الإعتداء. فأشار إلى أن (المطلوب عدم اعتماد كلام شفاهي. إنما إذا كانت صدرت أوامرنا بختمنا فهي المعتمدة ونتعامل بما فيها وبخلاف ذلك لا نتعامل بالأقوال). وبهذا أراد أن يبعد عن نفسه تهمة التحريض لرجالاته باختراق الحدود. وفي سبتمبر 1903م جأر بالشكوى ضد مأمور النهود واتهمه بتسميم أحد رعاياه إبراهيم المليح. هذا بالرغم مما تقدم من أن العلاقة بينه وبين إبراهيم المليح ليست علي ما يرام. ولكن يبدو أنه كان ينتحل الأسباب لإبعاد شخصية

[20] علي دينار إلي الحاكم العام خطاب آخر بنفس التاريخ S.N.A Intell 7/1/5

[21] نعوم شقير: تاريخ السودان. تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم دار الجيل بيروت 1981م، ص298-303.

المأمور عن النهود لأنه كما تقدم فإن المأمور كان يشارك في تهريب الأسلحة إلى دارفور. لذا فان تغير سياسة السلطان تجاهه تعني تغيراً في سياسة المأمور وعدم تسهيله لعملية التهريب السابقة.

ويؤكد علي دينار بأنه قائم على العهد القائم بينه وبين الحكومة. وأشار إلى الإعتداء الذي جرى من قبل عبد الرحيم أبو دقل والكباشي بقوله: (ونظراً لما بيننا وبين الحكومة من الإتفاق والوقوف على حالة الإتباع فالرفع لمعاليها واجباً). وفي هذا الأثناء تجدد طلب سلاطين بمقابلته بيد أنه أعتذر بقوله: (تريدون حصول المقابلة الشخصية معي سعادتكم بجبل الحلة للتوصل إلى نتيجة موافقة لمصلحة الحكومة ومصلحتنا ... ولا يخفاكم أن الأمور حركاتها وسكناتها بيد الله ... غير أن في عوايد الآباء والأجداد السابقين لم جرت والعادة أن يقدم صباحاً مسافة يوم واحد... فبذلك تحصل عطلة مقابلتنا .... وبناء علي تطلب سعادتكم قد تعين ولدنا جابر عبد الرحمن نايباً عنا وتحرر معه لصوب سعادتكم ما هو لازم) [22]. في هذا الخطاب يقود السلطان سبباً أوهى من خيط العنكبوت مؤداه أن الخروج تجاه الشرق مناف للعادات السلطانية الموروثة.وإن نتيجته ستكون وخيمة علي السلطان حسب العادات السلطانية الموروثة من الآباء.

وبذا لم يعدم السلطان ما يقتضي عدم تحقيق المقابلة. حيث كان في الواقع يعتقد أن خروجه من الفاشر عاصمته لأي سبب يعني ذلك نهايته. ولم يقبل حتى تلك اللحظة أجراء مفاوضة مباشرة بينه وبين أي أحد من المسؤولين في الحكومة الثنائية. ولعل ذلك يؤكد أن العلاقة الثنائية الفوراوية هي علاقة مرحلية اقتضاها الواقع وأملتها الضرورة، وأن السلطان لم يقم على أمر دارفور بواسطة الحكم الثنائي. وإنما حكم بلاده بنفوذه وسلطانه إعتماداً على حق الإرث التاريخي للسلطنة الفوراوية السابقة. وقد جاء طلب سلاطين بعد حدوث اشتباكات بين قوات الحكومة الثنائية وقوات السلطان وتوغل رجالاته مسافة مائة ميل في كردفان لمطاردة الكبابيش في سودري. واحتج علي دينار على تدخل قوات الحكومة. وأعلن أنه قد أصدر أوامره إلى رجالاته بعدم

[22] علي دينار إلى سلاطين 1903/11/20 رمضان 1321هـ Ibid.

تجاوز حدود دارفور. وأبدي استعداده لحل الأشكال القائم سلمياً[23]. كل ذلك دفعاً لأي تدخل ثنائي أو إجراء مقابلة مع أي مسؤول ثنائي بأي صفة.

ودارت مكاتبات عدة بشأن الإشكال القائم. وقام السلطان بإتحاف القيادة السياسية في الحكومة بهداياه. ونتج عن ذلك حلّ الأشكال لصالح السلطان، وبالتالي حصلت دارفور علي مكاسب في مجال تجارتها الخارجية بأن تم إعفاءء بضائعها من الجمارك المفروضة علي كل التجار من وطنيين وأجانب[24]. سواءً أكانوا قادمين أو خارجين.

وورد السلطان خطاب آخر من سلاطين يحدد فيه حدود دارفور التي ينبغي عدم تجاوزها (فحدها من المُلْمْ بالخط الذي يستمر حتى الحدود الغربية للتعايشة – المَسَلاَتْ ويمتد حتى حدود دار تاما والحدود القديمة بين دارفور وَوَدّاي علي طول الحدود الغربية للزَّغاوَة كُوبي ودار البِدَيَّات. وهذا التحديد تمَ بناء علي الحدود الغربية لدارفور) [25].

ولم يرد السلطان على هذا الخطاب مما يدل على عدم رضاه عن هذا التحديد الذي لا يرضي طموحاته. هذا بالإضافة إلى الغموض الذي احتواه[26]. وفي المقابل تجددت طلباته لتزويده بالسلاح، ويبدو أن الحكومة الثنائية كانت مدركة لإبعاد خطته لذا ظلت تزوده بما يحفظ استمرارية العلاقة ويبقي على شعرة معاوية، وهو يقابل ذلك بالشكر والثناء بالرغم من قناعته من أن ذلك دون ما طلبه ولا يسد رمقه[27].

وتجدر الملاحظة إلى أن السلطان درج من أول يوم على مهر خطاباته بالسلطان علي دينار. بينما تنزع عنه خطابات الحاكم العام هذه الصفة ويعنون إليه بالأمير علي دينار عكس خطابات الرجل الثاني في الحكومة الثنائية سلاطين باشا على وجه العموم الذي درج على مراسلته باسم السلطان علي دينار[28]. الأمر الذي يدل على قدر من الارتباك وعدم وضوح الرؤيا لدي القيادة الثنائية.

---

(23) A.B. Theobald. OP. Cit. PP. 67.

(24) خطابات من سلاطين إلى علي دينار في 1903/12/15م، 16 رمضان 1321هـ S.N.A Intell 7/3/4

(25) سلاطين إلى علي دينار في 1908/12/22، 3 شوال 1321هـ S.N.A Intell 1/1/2

(26) A.B. Theobald. OP. Cit. PP. 69 .

(27) علي دينار إلي سلاطين في 1903/12/14. S.N.A. Intell 7/1/5

(28) السردار إلى علي دينار 26 ديسمبر 1903م، Ibid 7/3/4-5

وفي عام 1904م رفع السلطان شكوى ضد أعيان الحكومة لا سيما مأمور النهود وعبد الرحيم أبو دقل الذي يصفه السلطان بقوله بأنه: (من أهل السوابق وواقعة منه تعديات كثيرة علينا وممن أشاع الأخبار الكاذبة في حقنا وهو من أهل الفتن... أما مأمور النهود ما دام من موظفي الحكومة يتأكد عليه إما يعتدل ويترك أمر الإشاعة ورفع الكلام البطال بالكذب للحكومة أو يعزلوه)[29].

عله أراد بذلك زعزعة ثقة الحكومة في موظفيها وأهل الثقة لديها وإشغالها عن التدخل في شؤونه. ودرءاً لعدائها بعث بتأكيد مفاده أنه موال ومؤيد لكل ما تصدره الحكومة الثنائية من أوامر[30]. وأكد له سلاطين حسن نوايا الحكومة تجاه بلاده وقياداته بقوله: (وإني أوكد لكم طالما تعتمدون على إظهار الطاعة والولاء للحكومة فدوام ملككم على سلطنة آباؤكم يكون أكيدا)[31] إن كلمتي (ملككم)، (سلطنة إباؤكم) ذاتا دلالة موضوعية وقانونية واضحة، ووقع طيب في نفس السلطان – فإذن القضية ليست هي قضية تبعية، كما يتبادر إلى الذهن، وأن حكمه على حد تعبير سلاطين الرجل الثاني في الحكم الثنائي لم يكن منة من الحكومة الثنائية بقدر ما هو حق متوارث، وإحياء لمجد أفل نجمه. وهذه العبارات تجسد قدراً من الاعتراف بحقه في السلطنة، وفي الموروث التاريخي لآبائه وأجداده وهو مستند قوي لأنه اعتراف من الخصم.

في أبريل 1904م تجددت اعتداءات القبائل الحدودية وجأر السلطان بالشكوى بقوله: (وهذه المسالة الذي حصلت من عربان الكبابيش قد شوشت الخواطر تشويشاً... وإن لم حصل لهم – يحصل لهم- إمتثال وخالفوا الأوامر واعتدوا ثانياً يوزن – يؤذن – لنا بصدهم وقبضهم وإرسالهم)[32].

بتلك العبارات يبدي تضجره ويطالب بأخذ الثار له من هذه القبائل، وإن لا فيسمح له بمقاتلتهم وتأديبهم داخل حدود كردفان. وقامت هذه القبائل بشكوى مضادة بغية إضاعة الحق[33]. وقام السلطان من جانب آخر بتكذيب هذه الدعوي وفرض قيوداً

(29) علي دينار إلي سلاطين في 1904/1/1م Ibid 7/3/5 .
(30) علي دينار إلي سلاطين في أواخر يناير 1904 Ibid.
(31) من سلاطين إلي علي دينار في 15 فبراير 1904م Iibid 7/3/5.
(32) من علي دينار إلي سلاطين في 1904/4/4م، Iibid 7/1/6.
(33) من علي دينار إلي سلاطين في 1904/4/10م، 12 محرم 1322هـ S.N.A Intell. 7/1/18.

قاسية على رعاياه بعدم مغادرة حدود دارفور إلا بإذنه حتى لا يدع ذريعة تمتطيها قبائل الحدود ضده(34). وفرض ضرائب على رعاياه فتمرد الرزيقات على ذلك الإجراء. بيد أن الحكومة لم يكن أمامها من سبيل سوي تأييد سياسته الآنفة، فورده خطاب جاء فيه: (وطالما أنكم تحكمون بالعدل والإنصاف بين كافة أفراد الرعية فنحن لا نرغب أن يترك أحد بلادكم علي الإطلاق بدون إذنكم، ثم من جهة ما ذكرتموه عن الرزيقات فقد علمناه جيداً وطالما أن البلاد وهؤلاء العربان تابعين لكم وتحت إدارتكم فلكم تمام الحق أن تحصلوا على ضريبة السن وخلافه)(35).

وقام السلطان بإرسال هدايا إلى كل القيادات السياسية. بما في ذلك المندوب السامي البريطاني في القاهرة الأمر الذي اكسبه أرضية في دوائر الحكومة الثنائية. ونال عطف المسؤولين في كل من الخرطوم والقاهرة لاسيما الجانب البريطاني(36).

وببداية 1905م قام السلطان بتسديد التزاماته المالية دلالة على وفائه بواجباته(37). وفي هذا الوقت قامت قبيلة المعاليا برفع دعوى كاذبة ضد السلطان. وبعد التحقيق أتضح بطلان فحواها. ولذا رأي سلاطين أن إيواءهم يعني إضعاف سلطة علي دينار وإشاعة الفوضى والقضاء على الأمن في دارفور. الأمر الذي لا ترغب فيه الحكومة في الوقت الحالي على الأقل. لذا اقترح أن يرسل علي دينار أماناً لهؤلاء الأعراب وأن يكلفوا بالرجوع لبلادهم(38). هنا تبدو رغبة سلاطين الجادة في معالجة قضايا الحدود وتعزيز موقف علي دينار، وتشجيع الحكومة على اتخاذ التدابير الكفيلة بتعزيز موقف السلطان على الأقل في الوقت الحالي.

ولقد أثمرت سياسة الهدايا التي انتهجها السلطان ثماراً يانعة، حيث وصلته خطابات من كرومر المندوب السامي البريطاني بالقاهرة يشكره فيها على هداياه ويرسل له بندقية وجبخانة (39). لقد تعامل السلطان علي دينار مع الواقع بذكاء وبدهاء

(34) نفسه.

(35) من السردار إلي علي دينار في أوائل يوليو 1904م جمادي 1322هـ S.N.A Intell 7/3/5

(36) من سكرتير الضرائب في 1904/11/16م، 2 شعبان 1322هـ إلي السلطان. S.N.A. Intell 7/3/5.

(37) من علي دينار إلي الحاكم العام 1905/1/4م، S.N.A. Intell 7/1/6

(38) سلاطين إلي الحاكم العام في 1905/1/12م، S.N.A Intell 7/2/19

(39) من كرومر إلي علي دينار في 29 يناير 1905م S.N.A Intell 7/3/6

بالغ، فقد تجاوز أمره الحاكم العام في السودان حيث تمكن من أن يبني جسور الصلة مع المندوب السامي البريطاني في القاهرة ولقد أثمرت جهوده في هذا المجال.

يبدو أن سياسة السلطان هذه كانت ذات اثر على اتخاذ القرار السياسي في الدوائر الثنائية تجاه سلطنة الفور مما يدل على بعد نظر البسلطان وفهمه لما يحيطه من واقع اقتضى ذلك القدر من التعامل، وذلك الأسلوب السياسي الفطن.

بيد أن السلطان بدأ يتذمر من السياسة الثنائية الرخوة في معالجة مشاكل قبائل الحدود التي بلغت حداً لا يحتمل. فبعث بتهديد لهذه القبائل، وبدأت شكوكه تزداد يوماً بعد يوم تجاه السياسة الثنائية فقام بتهديد الحكومة الثنائية مما اقتضى تهديداً مماثلاً ورده من الحكم الثنائي في الخرطوم جاء فيه: (وليكن معلوما لديك... أن كثرة الرجال وتمام معداتها لا يقف في سبيل الحكومة إذا استدعت الحال للقتال لأن الحكومة من القوة وشدة البأس يجعل كل ذلك عديم الجدوى كما رأيت ذلك عياناً في مسالة الخليفة الذي كان يظن نفسه قويا للغاية) [40]. ورغماً عن ذلك فقد سعى سلاطين لحل الأشكال القائم بالطرق الدبلوماسية. فاقترح أن تقوم الحكومة الثنائية بمعاقبة رؤساء المعاليا لخروجهم على سلطة السلطان. وإعلامه بأن الحكومة ليست لديها الرغبة للتدخل في الشؤون الداخلية لسلطنته، ما دام يحكم بالعدل والأنصاف[41]. إن إطلاق صفات العدل والإنصاف على حكم السلطان في هذه الفترة ومن قبل الرجل الثاني في الدولة الثنائية ذات دلالة سياسية، ومغزي هام تدفع كل ما ألصق بالسلطان من قسوة وتجاوز للحد فيما بعد حين ساءت العلاقات بينه وبين الحكم الثنائي. وهو شنشنة غربية قديمة حديثة. فمن كان معهم ولو كان أسوأ خلق الله إنساناً فهو بطل، ومن كان ضدهم ولو كان أكرم خلق الله فهو أسوأ البشر. حيث ما نلاحظه الآن من أن أسوأ الأنظمة وأردئها ما دامت موالية للغرب فهي صديقة وممتازة وعادلة ومنصفة. وما كان ضدهم من أنظمة فهو ردئ وإن مارس تجربة الحرية بكيفية أفضل من الغرب نفسه فهو في استراتيجياتهم وإعلامهم ظالم ومنتهك لحقوق الإنسان ما دام يقف ضد تحقيق مصالحهم. ولا أدل

[40] من سلاطين إلي علي دينار في 1905/2/5م، 13 ذو القعدة 1322هـ S.N.A Intell 7/3/6

[41] آخر من سلاطين إلي علي دينار في 1905/2/5م، 13 ذو العقدة 1322هـ S.N.A. Intell 7/3/6

على ذلك مما أثبته التحقيق مع شيوخ المعاليا واقتناع الحكومة بوجهة نظر علي دينار. وقد أصدر علي دينار عفواً شمل هؤلاء الهاربين مما يدل على حسن نواياه. وقد ترك لهم الخيار في القدوم أو عدمه. وترك أيضا آمر العقوبات لحكومة السودان الأمر الذي يبعد عنه شبهة التشفي والانتقام [42].

وتأزمت العلاقة الفوراية الثنائية مرة أخري بسبب القبائل التي تقيم في الحدود وقامت الحكومة الثنائية باتخاذ إجراءات حاسمة كان القصد منها حماية قبائلها. وأعلم السلطان بذلك حيث ورد في خطابها ما يلي: (ولا يخفاكم أن الحكومة مضطرة أن تحمي قبائلها من مثل هذه التعديات.. سعادة الحاكم وأنا قد رأيت أن أفضل طريقة لمنع حدوث مثل هذه الأمور أن نرسل في الشتاء القادم من كردفان دورية من الهجانة مؤلفة من 10 أو 15 إلى بير الملح) [43].

ونتيجة لذلك فقد هدأت الأحوال حتى نهاية 1905م. وفي نوفمبر من ذات العام قام السلطان بإرسال التزامه السنوي. وأشار إلى أنه هدية منه لأعتاب الحكومة[44]. والإشارة إلى هدية ذات مرمي وهدف وغاية، حيث لا يريد السلطان أن يطلق عليها ضريبة ذلك اللفظ ذو الظلال المقيتة التي لا يستسيغها. لذا نلاحظ أيضا انه قد أكد على هذا المعني في خطاب بعث به إلى السردار. وبناء على هذا الاعتبار كان إلحاحه وطلباته المتكررة بتزويده بما يحتاجه من سلاح[45]. ويبدو أنه كان يعتقد أن إمداده بالأسلحة هو مقابل ما يقوم بإرساله لها. وكانت الحكومة الثنائية قد اكتفت بهذه الدلالة وذاك الخيط الرفيع على تبعية السلطان لها[46]. ويبدو أن الاثنين كانا يلعبان لعبة القط والفأر.

وذاعت إشاعة مفادها أن حرباً دارت بين جيش السلطان والكبابيش فقام السلطان على الفور في هذا الأثناء بنفيها بقوله: (إن عربان الكبابيش ... حضروا ...

---

(42) انظر: A.B. Theobald. OP. Cit. PP. 70-71.

(43) من سلاطين إلي علي دينار في 1905/3/6، 12 ذو الحجة 1322هـ S.N.A Intell 7/3/6

(44) من علي دينار إلي سلاطين في 1905/11/26م، 7 رمضان 1322هـ S.N.A:Intell 7/1/7

(45) من علي دينار إلي السردار في 1905/11/26م، 7 رمضان 1322هـ S.N.A Intell 7/1/7

(46) ثلاثة خطابات آخر من السلطان إلي سلاطين بنفس التاريخ S.N.A. Intell 7/1/7

وأعطيناهم الإذن في جلب معايشهم ... ببطن دارفور والآن اختلطوا هم والأهالي وصاروا حالة واحدة)[47].

وببداية 1906م قامت الحكومة الثنائية باتخاذ خطوة نالت ثناء علي دينار. ألا وهي قرار المفتش العام القاضي بإرجاع المعتدين على حدود كردفان من قبائل الحدود إلي دارفور. ويصف علي دينار هؤلاء المعتدين بعدم التقيد بالأنظمة والقوانين. وتبودلت الهدايا بين الفريقين الثنائي والفوراوي [48].

وكان السلطان علي دينار حريصاً على إبراز دوره القيادي والريادي في الغرب. وأشعار الحكومة الثنائية بأنه على علم بكل ما يجري. وأنه يتمتع بقدر من التأثير على مجريات الأحداث في وداي. وفي خطاب لسلاطين شرح له طبيعة المقاومة الوطنية ضد الفرنسيين وما يجري على مسرح الأحداث هناك [49]. ولا يستبعد من أنه كان على دراية تامة بما يجري بين الدول الأوروبية من تنافس علي المنطقة، ولذلك حاول أن يثير بينها العداوة ويكسب ود أحد المتنافسين. وهو أسلوب سياسي مرحلي ناجح يوظفه السياسي المقتدر المحنك بكفاءة واقتدار.

في هذا الأثناء قامت قبيلة الكبابيش بهجرة جماعية إلي دارفور بدعوى نضوب المراعي في كردفان. فطلبت الحكومة الثنائية إرجاعهم وكذبت ادعاءاتهم [50]. إن القراءة الموضوعية لهذه الفترة التاريخية الهامة تعطي أبعاداً حقيقية لما يجري الآن في دار فور من أحداث، بعيداً عن المزايدات السياسية الوضيعة والتي تدل علي دناءة المقصد ورداءة التفكير وقصر النظر من قبل الفريقين حكومة ومعارضة في آن واحد.

ربما كانت هذه الهجرة القبلية الجماعية قد تمت بإيعاز من السلطان الذي كان يورد في حسبانه حسابات مستقبلية كما تقدم. وعلى صعيد آخر حاول الوشاة نقل إشاعات كاذبة عن السلطان وعن موقفه تجاه الحكم الثنائي فحذر السلطان صانعي

(47) من علي دينار إلي سلاطين في 28 رمضان 1322هـ، ديسمبر 1905م S.N.A. Intell 7/1/7

(48) خطابين من علي دينار إلي المفتش في 1906/1/22، 5 ذو القعدة 1323هـ S.N.A. Intell 7/1/7

(49) A.B. Theobald. OP.Cit. PP.63.

(50) من سلاطين إلي علي دينار في 1906/2/15م، 28 ذو القعدة 1323هـ S.N.A. Intell 7/3/7

القرار في الحكم الثنائي من إلقاء السمع لهذه الإشاعات بقوله: (... أن لا يسمع فينا الوشاة عند الحكومة) [51].

وفي 1906 قام تارة أخري بإرسال التزاماته المالية في شكل أبقار[52]. وبدأت شكوكه تزداد حول تقديرات الحكومة لقيمتها، إذ تبدو هذه الشكوك واضحة حين اتهم مدير كردفان بسوء المعاملة لرسله ومحاولته زرع بذور الفتنة بينه وبين الحكومة. وورد ذلك في قوله (... حصل ذلك من مدير كردفان وعاكسنا ولا قصد له في ذلك إلا فتنة لنا مع الحكومة ثاني، مرة لا يتعرض للأمور التي تخصنا وما نرسله يتعبوا رسلنا ويجرروا مباعة ويوردوا الثمن في خزينة الحكومة)[53].

وطفحت قضية قبائل الحدود تارة أخرى على السطح حيث قام الكبابيش بغارة على الزيادة التابعين لدارفور[54]. ذات القضية الثقافية التي طالما أكدنا عليها في كثير مما كتبناه بهذا الصدد. وهي ذات المشكلة الحالية ومشكلة غد وبعد غد، لا حركة مساواة ولا حركة ظلم ولا مؤتمر وطني ولا شيطان رجيم ممن امتلأت بهم الساحة السياسية السودانية يمكن أن يتجاوز هذه المفردات التاريخية والثقافية الهامة. ويبدو أن مشكلة هذه القبائل قد تطورت ولم يستطع الطرفان تقويم أودها فضربت صفحاً عن ذلك دون جدوى. كما هو الحال الآن، وشعرت الحكومة الثنائية يومها بضعفها تجاه هذه المشاكل العويصة كما هو حال الإنقاذ الآن، وما يليها من حكومات مهما كانت مسمياتها وشعاراتها وطرحها، ما لم تتم دراسة هذه الظاهرة الثقافية ذات البعد التاريخي والإجتماعي بموضوعية وبوعي تام لمخزونها التاريخي والثقافي. وما لم يحدث تغيير جوهري في هذه التركيبية الثقافية والاجتماعية وسبل كسب العيش في هذه المنطقة ستظل كل المعالجات سطحية ورهينة بادعاءات سماسرة السياسة في بلادنا من المتبطلين والمتبطلات الذين يأكلون السحت ويبيعون الكذب من القول. هذه هي قضية

---

[51] من علي دينار إلي سلاطين في 16/5/ 1906م، 28 صفر 1324هـ S.N.A. Intell 7/1/8

[52] خطابين من علي دينار إلي سلاطين في 4/7/1906، 12 جمادي الأولى 1324هـ S.N.A Intell 7/1/8

[53] خطابين من علي دينار إلي كل من سلاطين والحاكم العام في 16/11/1906، 2 رمضان 1324هـ، S.N.A Intell 7/1/8

[54] S.I.R. Nov. 1906:

دارفور أمس واليوم وغداً وستظل ما لم يدرك أهل دارفور والحادبين عليها جذور هذه القضية ويتواضعون علي حلول مرضية بشأنها دون المتاجرة بها أو بيعها في سوق النخاسة الدولية. فهي قضية ثقافية اجتماعية كما قدمت أكثر منها أثنية لأن سكان دار فور مهما تباعدت بينهم الشقة وتباينت الألوان فهم أبناء عمومة. وخلافاتهم ثقافية بين حضر وبدو، أهل زرع وأهل ضرع، مستقرون ورحل، أكثر منها دينية لأنهم جميعاً من أهل الدين والقرآن. وتاريخهم ناصع في هذا أو ذلك الزمان. ولكن يمكن من باب التحليل التاريخي أن نقول أن مشاكل القبائل في دار فور في تلك اللحظة التاريخية كانت مدعومة من الحكومة، كما هو الحال الآن دعم من الحكومة والمعارضة الناظرتين تحت أقدامهما دون وعي تاريخي، ودعم من قبل القوي الأجنبية ذات المصلحة الحقيقية في تفتيت وتجزئة السودان إلي فئات يسهل التقاطه والتهامه. و لربما كان ذلك الخلاف يتم تحت عين الحكومة الثنائية وهي تحبذه ولا تدعمه كل هذه الاحتمالات واردة ولها ما يبررها. وفق خطة بعيدة المدى تهدف إلى إضعاف السلطان. وحاولت الحكومة الثنائية أن تفرض عملتها على دارفور. بيد أن السلطان كان مدركاً لإبعاد ذلك الإجراء السيادي، إذ يعني ذلك قبوله التبعية المطلقة فرفض بذكاء الانصياع لهذا التوجه الثنائي. حيث أشار إلى أنه حاول إلزام رعيته بقبول التعامل بالعملة الثنائية إلا أنهم رفضوا نتيجة لتوحشهم[55].

واضح أن السلطان لم يعجز عن فرض التعامل بالعملة الثنائية نتيجة توحش رعيته ورفضها لاقتراحه. ولكن تم ذلك لعدم رضائه هو ونظرته البعيدة إذ كان يرى في التعامل بالعملة الثنائية فرض قدر من السيادة الاستعمارية والاقتصادية على بلاده. والتعلل بتوحش الرعية القصد منه تجنب الحرج في العلاقات القائمة بين الطرفين. وإلا فإنه يتمتع بنفوذ مطلق، وسلطته نافذة في حدود سلطنته.

وعلى صعيد آخر كان السلطان يرى في غاية علاقته بالخرطوم تبادل المنافع وأنه على الحكومة الثنائية الإيفاء بطلباته ما دام يسُدد لها مبلغاً سنوياً. لذا بدأ استغرابه

[55] من علي دينار إلي السردار في 1906/11/16م، 2 رمضان 1324هـ S.N.A. Intell 7/1/9

لمطالبة الحكومة له بدفع أثمان أشياء طلبها منها بقوله: (وعشما في عادة الملوك أمثالنا ولا كان نعلم أنها ترسلها إلينا بفلوس ... لم كان طلبناها ومع ذلك ما دام استصـوبت الحكومة لأننا ندفعوا أثمانها فلا بأس من أعطى – إعطاء – أثمانها) (56). هنـا وردت إشارات ذات دلالة على الاستقلال مثل (الملوك أمثالنا) وهـي تـدل علـى الفخامـة والتعظيم. ويؤكد لو أنه كان يعلم أن الحكومة تطلب منه ثمناً لهذه الأشياء البسيطة التي طلبها لم يطلبها زهداً فيها. وكان يرى ما دام ملتزماً بدفع التزاماته السنوية فلا غرابـة أن يطلب باليسرى كما أعطى باليمنى. بيد أن الحكومة الثنائية كانت جابية لا تعطي إلا بموازنة العائد بالصادر. وهنا يبدو التباين إذ كان كل منهما يهدف إلى تسخير العلاقـة بالطرف الآخر لصالحه مما يتعذر حدوثه في كل الأحوال.

وببداية 1907م تكررت اعتداءات الكبابيش ونهبوا جمالاً من الميـدوب رعايـا السلطان فحذر من ذلك بقوله: (إن عربان الكبابيش لم يريحوا علينا.. فلزم عرض هذا الأمر ... أولاً: تمنع الحكومة المذكورين من تعدياتهم في بلادنا. ثانياً: نرغـب فـي عدالة الحكومة جلب تلك المواشي ورده لأربابه) (57). هذه هي القضية المحورية فـي دارفور كانت ولا تزال وستظل ما لم يحدث تحول ثقافي واقتصادي هائل يستبدل هـذه الأساليب الحياتية والمعيشية بأساليب أخرى.

لقد أزعجت الكبابيش وغيرهم من قبائل الحكومة الثنائية التي تقيم فـي حـدودها منام السلطان. وشعر بعدم الارتياح إزاء تلك الغارات على رعاياه. والإشارة (ببلادنا) ذات ظلال استقلالية. وفي الوقت ذات يطالب باسترداد ما نهبته هذه القبائل. ولا تزال تقديرات السلطان المستقبلية تحتل حيزاً من تفكيره لذا ما أن تصله كمية مـن السـلاح والجبخانة حتى يتجدد طلبه لكمية أخرى. وأبدى اسـتعداده لشـراء أي كميـة منهـا. وتجاوزت طلباته ومراسلاته بهذا الصدد سلاطين إلى الحاكم العام محـاولاً اسـتغلال صلاته الشخصية به والاستفادة منها في حصوله علي مبتغاة (58).

(56) من علي دينار إلي سلاطين في 1906/12/23م، 23 رمضان 1324هـ S.N.A. Intell 7/1/9

(57) من علي دينار إلي سلاطين في 23 شوال 1324هـ ، 1907/1/6م S.N.A. Intell 7/1/9

(58) من علي دينار إلي السردار في 1907/1/29، 16 ذو القعدة 1324هـ S.N.A. Intell 7/1/8

وبدأ السلطان يتشكك في تواطؤ الحكومة ورخاوتها في معالجة مشكلة قبائل الحدود التابعة لها والمح إلى ذلك بقوله: (ورفعنا أمرهم – الكبابيش – للحكومة مراراً ولم ترد لنا إفادة كلية ولا نعلم السبب في ذلك وهل الحكومة راضية بفعلهم هذا أم كيف وهم مازالوا متمادين علي التعدي ونحن كفينا عنهم يدنا لخاطر الحكومة)(59). فيما يبدو أن السلطان قد وصل الحد المعقول من الصبر ولكنها من جانب آخر هي قضية متكررة واعتداءات يصعب أن تتمكن جهة ما مهما أوتيت من سلطة السيطرة عليها لاسيما في أقاليم شاسعة ومراع واسعة علي هذا القدّر.

وأرادت الحكومة حل الأشكال القائم عن طريق إقامة نقطة مراقبة وحراسة علي الحدود الفوراوية الثنائية. ولما كان وجود مثل هذه النقطة التي تقوم بأمرها قوة ثنائية يهدد كيانه الاستقلالي راوغ الحكومة محاولاً إثناءها عن اتخاذ مثل هذا الإجراء بقوله: (... أن بير الملح لا يخفي علي سعادتكم) لأنها منضمن معادن دارفور... إذا جعلت الحكومة نقطة في ذلك البير تجاورها جملة إنسان طمعان في أموال الناس خصوصاً عربان الكبابيش وما يليهم من العربان الحرامية ... فتحصل بذلك مضايقة ... أفندم سابقاً الحكومة عملت نقطة في كاجا ومع أن كاجا هي منضمن حدود دارفور من ابتدأها إلى الآخر فقطعناه في ضميرنا وتركناه) (60).

تبدو وجاهة نظره لأن بير الملح واقعة ضمن حدوده. وهي ليست داخل حدود الحكومة. وأقامتها في هذه البئر يعني اقتطاع جزء من أراضيه وتهديداً لاستقلاله. وسبق أن أقامت الحكومة نقطة في كاجا. وهي جزء من أراضي السلطان فاعتبر ذلك تهديداً لكيانه المستقل وخطراً علي عرشه وأن تلك الحادثة تركت في نفسه أثراً لا ينساه. إذ أن اقتطاع أي جزء من أراضيه يعني تعدياً علي سيادته. وحاولت الحكومة الثنائية تبرير موقفها وساقت أهم الأسباب المقتضية لإنشاء تلك النقطة علي لسان سلاطين بقوله: (أهم الأسباب التي دفعت الحكومة لإنشاء هذه النقطة هي لأجل منع البديات من الغارة علي الكبابيش ومنع الكبابيش من الغارة على البديات. وبهذه الطريقة

(59) من علي دينار إلي سلاطين في 1907/2/1م، 19 ذو القعدة 1324هـ S.N.A. Intell 7/1/8

(60) علي دينار إلي سلاطين في 1907/5/28م ، 17 ربيع الأول 1325هـ S.N.A. Intell 7/1/9

نتمكن من منع التعديات والغارات وتوطيد الأمن والراحة. وإنني أوكد أن الحكومة لا تقصد على الإطلاق أن تمد يدها إلى بلادكم أو تتداخل في سلطتكم وشؤونكم) (61).

تبدو المغالطة واضحة في ما مضى حيث يذكر السلطان أن هذه المنطقة ليست واقعة في حدود الحكومة ويأتي سلاطين فيقول إن الحكومة لا تقصد على الإطلاق أن تمد يدها إلى بلادكم. وهي قد مدت يدها فعلاً لمنطقة سابقة وأقامت فيها نقطة. الآن تأتي مرة أخرى لتمد يدها وتقيم نقطة على أرض فوراوية بدعوى حماية الحدود من التعديات. وبدأ السلطان يشك في نوايا الحكومة وله الحق في ذلك ويشعر بأن تحركات الكبابيش لا تعدو عن كونها ذريعة لإقامة مثل هذه النقطة والتي سبقتها داخل حدود بلاده. لذا أزداد طلبه واستيراده للأسلحة. وأدركت الحكومة الخطورة تجاه تقوية ترسانته لا سيما بعد تطلعه وإقدامه على الإستيراد من أرض الحرمين فقامت بمصادرة هذه الأسلحة. فاحتج السلطان احتجاجاً لطيفاً بقوله: (وما تنوه به من نحو ضبط الأسلحة والجبخانة في مقابلة عدم إذن الحكومة ... والحالة أننا عند ... إرسال المحمل الشريف من هنا أخبرت سعادتكم ... ولوثوقنا بالحكومة وثقتها بنا وكوننا حالة واحدة... وما دام سعادتكم أجريتم اللازم نحو وضعها بمخازن الحكومة على سبيل الأمان لحين ورود مكاتبتنا إليكم فقد أصبتم ... عهودنا كلها مع الحكومة تماماً ... ولا يسوغ لي أن اجلب شيئاً من الأسلحة والجبخانة بدون معلومتها. وما دام الأسلحة المذكورة محضرة على ذمتنا ولم تكن للتجارة فنرجو تسليمها لأولادنا لإيصالها لنا) (62).

وفي خطاب آخر حاول أن يعرض للأسباب التي اقتضت شراء الأسلحة (وحيث أن أرض الحرمين ملكية أمرت جماعتنا بمشترى الأسلحة لحماية أنفسهم فالآن إنكان – إذا كان – السلاح عجب الحكومة هلترسل – فلترسل – لنا أثمانها بحسب مشتراها التي ذكرناها وإذا استصوبت إرسال السلاح ترسلها) (63).

(61) من سلاطين إلي علي دينار في 1907/6/12م، 30 ربيع الأول 1325هـ S.N.A. Intell 7/1/9

(62) علي دينار إلي سلاطين 1907/11/25م، 16 رمضان 1325هـ S.N.A. Intell 7/1/7

(63) Ibid .

فلئلا يكون فيما سبق ما يدعو إلى الشك في نواياه برهن السلطان على أن شـراء السلاح لم يكن مقصوداً لذاته. وإنما اقتضته طبيعة مهمة المحمل والدفاع عن النفس في بلاد لا أمن فيها ولا استقرار. عل ذلك المسوغ يقنع الحكومة برد أسلحته. وتدرج في حججه من عرض الأسباب إلى أسلوب فيه استفزاز للحكومة علّ ذلك يحرك ساكنا. وليطمئن الحكومة علي ولائه ويضمن إرسال الأسلحة إليه قـام بإرسـال محصـوله السنوي [64].

وقام بشكوى مدير كردفان لأسلوبه غير المستحسن في مخاطبته. وأرسل نموذجاً من كتابات المدير إلى المفتش العام بتاريخ 1907/11/25م، أردف قـائلاً: (إن لويـد مدير كردفان قد رأينا منه جملة أمور يكدر الخواطر ... لأن ألفاظ المكاتبـات التـي تصدر منه ألفاظ غير اعتنا – اعتناء ... إن سعادتكم تعرفوه إذا أراد مكاتبتنا يكاتبنـا مكاتبة مستحسنة ... وهذا بعضاً لجنابكم) [65].

إن مدير كردفان لا يمكن أن تصدر منه عبارات اسـتفزازية تتنـافى والسياسـة العامة للحكومة الثنائية ودون علمها لا سيما وهي حكومة مركزية القرار. وأن تصرفاً كهذا قد يؤدي بالعلاقات الفوراوية الثنائية إلى الجحيم. وطلب السلطان من المفتش لفت نظره إلى مخاطبة السلطان بالأسلوب اللائق.

وحاولت الحكومة إيجاد طابور خامس داخل دارفور. بيد أن السلطان كان لهـذه التدابير بالمرصاد ولعل الإشارة التالية تلقي الضوء على الجهـد المبـذول مـن قبـل السلطان لحماية بلاده وتأمين استقلاله: (وما أقدم لسعادتكم هو أن منكود الحظ محمـد طلعت قدم لدارفور منذ تسعة سنوات بصفة التجارة فوشت به جواسيس السلطان علي دينار أنه ... من الحكومة بصفة جاسوس وأن له إلمام بصنع المدافع والسلاح والبارود فوضعه بالسجن ... مدة خمس سنوات ... أطلق سبيله على شرط أن لايبارح الفاشـر فبقى أربعة أخرى تحت مراقبة رجال المظالم) [66].

[64] Ibid .

[65] خطاب آخر بنفس التاريخ S.N.A. Intell 7/1/9.

[66] اليوز باشا خليل إلى سلاطين في 1908/2/18م ، 1326/1/1هـ S.N.A. Intell 7/3/9.

هذه الشكوى ضد السلطان ترينا إلى أي مدىً كان متيقظاً لتدابير الحكومة الثنائية وتجسسها على بلاده. وأنه كان يبذل جهداً أمنياً عالياً لتأمين بلاده وحمايتها. وأن لديه استخبارات على مستوى عال تكشف خيوط لعبة الاستخبارات الثنائية.

ولئلا تسوء العلاقة الفوراوية الثنائية أو تصل حداً لا رجعة فيه استجابت لطلب سلاطين بشأن الأسلحة المصادرة التي تقدمت الإشارة إليها وبعث سلاطين بخطاب إلى علي دينار بهذا الشأن ورد فيه (... ونظراً لكون الحكومة على ثقة من صداقتكم لها وامتثالكم لأوامرها فقد وافقت على طلبنا وأمرت بتسليم الأسلحة وهي 46 بندقية من أنواع مختلفة و1480 إطلاقة جبخانة كبيرة، 449 إطلاقة جبخانة صغيرة ... وليكن بعلمكم أنه في المستقبل إذا رغب أحد رجالكم يشترى أسلحة وجبخانة من أي نوع كان فعليه قبل المشترى أن يقدم طلباً للحكومة بالأصناف الراغب مشتراها وجنسها والجهة التي راغب المشترى منها [67].

أشتمل هذا لخطاب على إشارات تعكس جهود الجكومة الرامية إلى كفكفة حركة السلطان الرامية إلى تقوية ترسانته وبنائها علي القدر الذي يرضي طموحاته المستقبلية لحماية بلاده وتأمين استقلاله. وكانت الحكومة من جانب آخر ترمي إلى إحصاء قوة وعتاد السلطان.

في هذا الأثناء تعلل السلطان عن تنفيذه لأوامر الحكومة وإيفائه بالتزاماته نحوها بالحصار المفروض على المتمرد سنين حسين [68]. فهو أراد بتلك الإلتفاته التخلص من التبعية الأسمية للحكومة الثنائية وحاولت الحكومة أن تقف موقفاً سلبياً من الحرب الدائرة بين السلطان والقائد المهدوي سنين. فربما كانت تهدف إلى ضرب قوتين وطنيتين ببعضهما البعض. وشعر السلطان بذلك حيث قال (والعساكر المقابلين الحرب يطلبون مساعدة من عدة وجوه والحكومة لا كان تساعدنا لا بجباخين ولا بأسلحة نارية) [69].

[67] سلاطين إلي علي دينار في 17/ 2/1908م، 1326/1/10هـ S.N.A. Intell 7/3/9.
[68] السلطان إلي سلاطين، مايو 1908م A.B. Theobald. OP.Cit. PP. 76.
[69] سلاطين إلي السلطان 1908/8/16م ، S.N.A Intell 7/1/9.

وحاول سلاطين أن يفند ذلك وأن يبرهن على مساعدة الحكومة للسلطان بإطلاق سراح الأسلحة المصادرة [70]. ولكن من المعلوم أن هذه الأسلحة لم تكن مساعدة. وإنما اشتراها السلطان من خارج أراضي الحكومة الثنائية من حر مال سلطنته. فهي لم تكن هبة أو مساعدة منها بقدر ما هي حق تم الاعتداء عليه من قبلها وتحت إلحاحه وطلبه رد عليه.

وفي هذا الأثناء طارت إشاعة مؤداها أن الحكومة جمعت ركابها واعدت عدتها لاستلام دارفور لذا طلب السلطان إيضاحاً بهذا الخصوص [71] فأجاب سلاطين بقوله: (.. أن الحكومة لا تقصد جمع العساكر على حدود دارفور واستلامها منكم ... إن هذا الخبر محض إختلاق ولا نصيب له من الصحة ... إن هذا الخبر المختلق ليس إلا أكذوبة سافلة) [72].

رغماً عن هذا التأكيد إلا أن السلطان كان في قرارة نفسه غير مقتنع تماماً بهذا التبرير الأمر الذي اقتضى تحرير تأكيد آخر من المفتش العام ورد فيه: (عاهدتكم بشرفي أن الحكومة لا تقصد على الإطلاق أن تدخل جنودها إلى دارفور طالما أنكم قائمين بالصداقة نحوها ... وأنها لا تفكر أبداً في إخراجكم من بلد أقامتكم الحكومة عليها وهي كانت تحت أحكام آباؤكم وأجدادكم فيما مضى من أيام) [73].

ورد في هذه التأكيدات أولاً: أن العلاقة القائمة بين الفريقين هي علاقة ندية وليست علاقة تبعية – وهذه الإشارة ذات مغزى استقلالي ثانيها: إن الحكومة هي التي أقامت السلطان على حكم دارفور. وهذه مغالطة تاريخية غير مسلم بصحتها مقدمة أو نتيجة، حيث أن السلطان قد استلم دارفور بالقوة وتغلب على منافسيه وأعلن نفسه سلطاناً دون موافقة أحد. وان علاقته مع الحكومة الثنائية ظرف استثنائي ريثما يتقوى ويعيد الكرة على الحكومة الثنائية نفسها كما حدث في أواخر أيامه. ثالثها: إن دارفور

---

(70) المرجع السابق.

(71) من السلطان إلي سلاطين في 1908/7/22م، 17 جمادي الأولى 1326هـ S.N.A. Intell 7/3/9.

(72) سلاطين إلي السلطان في 1908/12/28م، 26 شوال 1326هـ S.N.A.Intell 7/3/9

(73) آخر من سلاطين إلي علي دينار في 1908/12/28م، 16 شوال 1326هـ S.N.A. Intell 7/3/9.

هي مهد سلطنة آبائه وأجداده هذه حقيقة. رابعها: إن الحكومة لا تفكر في إقصائه عن سلطنة آبائه وأجداده. بهذا أراد سلاطين أن يهدئ من روع السلطان وأن يبدد شكوكه إزاء الحكومة الثنائية. بيد أن عبارة الحكومة لا تفكر أبداً في نزع السلطان فهذا نوع من الاستهلاك الظرفي بحكم العلاقات الراهنة. لأن الخطة الاستراتيجية لوجود بريطانيا في السودان هي الانفرادية بكل حدوده دون استثناء.

وعلى صعيد آخر ما فتئت القبائل التي تقيم على الحدود تواصل هجماتها. ولا زال السلطان يربط بين حركتها ودوافع الحكومة الثنائية لإضعافه وإقصائه. وفي الوقت ذاته كانت الحكومة الثنائية تنظر إلى القبائل الفوراوية من نفس الزاوية. واستغلت هذه القبائل الظرف القائم واستفادت من ذلك تبعاً لطبيعتها البدوية التي لا تلين قناتها لسلطان مركزي أو تخضع لقانون حكومة أو نظام معين مما جعلها تهرب من الجهة التي تنشد تطبيق عقوبة ما عليها إلى الطرف الآخر مثيرة البلبلة ومسيئة التفاهم بين الطرفين. وهي ذات المشاكل الحالية في دارفور. فدارفور هي دارفور من حيث تركيبتها السكانية وأقدارها الثقافية بيد أن الذي تغير الآن هو تسييس القضية وحصرها في ركن آسن من العرقية والإثنية التي تتبرأ منها دارفور وأهالي دارفور عبر تاريخهم المجيد. دارفور القرءان، ودارفور السلطان، ودارفور البوتقة الفريدة.

لذا انزعجت الحكومة الثنائية. ونوهت إلى ذلك بقولها .. (أن نظار قبائل الحمر قدموا لنا عدة تشكيات بخصوص عربانهم الذين يهربون إلى داخل حدود دارفور وتكون في ذمتهم مبالغ مطلوبة منهم من أجل الضرائب المضروبة إلى قبائلهم) [74]. بذا يبدو إستغلال هذه القبائل لوضعيتها هروباً من الإيفاء بالتزاماتها تجاه الجهة التي تقيم بين ظهرانيها.

هذه الفترة امتازت بمطاطية العلاقة بين الفور والحكم الثنائي بالرغم من طولها. وحاول خلالها السلطان جهده لتقوية نفوذه وتثبيت أقدامه. وأبدى حرصاً ملحوظاً بأن لا يخسر جانب الحكومة الثنائية. وحتى لا تتعدد الجبهات ضده إذ كان يواجه سنين من

[74] خطاب آخر من سلاطين إلي السلطان في 1908/12/29م S.N.A. Intell 7/3/9.

الغرب خلال هذه الفترة. و لهذا السبب حاول أن يستفيد من علاقاته معها وأن يستفيد كل ما يمكن الحصول عليه منها لضرب القوة المهدوية الصاعدة على حدوده الغربية، وكانت الحكومة من جانبها ترغب في ضرب القوتين الوطنيتين ببعضهما البعض، ولا يتم ذلك إلا بإستعداء إحداهما على الأخرى، حتى يتسنى لها القضاء على البقية الباقية من قوة المنتصر.

ولقد شكل الكبابيش خطورة بالغة على أمن واستقرار حدود دارفور مما جعل علي دينار يشكو أمرهم. وقد ضاق ذرعاً بالحكومة التي رأى في معالجتها قدراً من التواطؤ. وراودت السلطان الشكوك تجاه الحكومة في معالجتها لقضايا الحدود واتخاذها بعض الإجراءات التي رأى فيها اتساعاً لنفوذها وكفكفة لجهوده التوسعية. أما الحكومة الثنائية فكانت بحكم واقعها واقعة تحت تأثير ظروفها حيث لم تكن على قدر من القوة التي تمكنها من فرض سيادتها الكاملة علي دارفور. لذ قنعت بالسيادة الإسمية عليها. وحاولت أن تفرض عملتها بيد أنها لم تجد إلى ذلك سبيلا. وفطن السلطان إلى أبعاد هذه السياسة فتعلل برفض الرعية لهذا الإجراء. وخلال هذه الفترة بالرغم من طولها لم يتمكن مسؤول واحد من دخول دارفور ولو لساعة واحدة .

ومنذ تولية السلطان زمام الأمر وحتى نهاية 1908م لم يغادر العاصمة قيد شبر كما أنه لم يسمح لأي مسؤول من قبل الحكومة الثنائية بدخول بلاده أو إجراء مفاوضة مباشرة بينه وبين الحكومة الثنائية الأمر الذي يدل على الروح الاستقلالية لدى السلطان.

لقد لعب سلاطين دوراً بارزاً في المحافظة علي مطاطية هذه العلاقات بين الحكومة والسلطان. وكان دوماً يقوم بدور المهدئ للأحوال المتوترة. إلا أنه بالرغم من ذلك لم يحظ ولو مرة واحدة بمقابلة السلطان الذي تعلل واعتذر بعدة أعذار واهية. ولقد يئس سلاطين من مقابلة السلطان فقنع في النهاية بإجراء المفاوضات مع مندوب علي دينار لما لم يكن بد من ذلك.

بإمكان المرء الادعاء بأن هذه الفترة على وجه العموم قد تمتعت بقدر من الهدوء رغماً عن النتوءات التي بدت هنا وهناك من وقت لآخر نتيجة مشاكل القبائل (الحدودية). أو الوشايات أو رفض السلطان مقابلة كل من سلاطين والحاكم بصورة غير مباشرة أو قيام الحكومة بمصادرة الأسلحة الواردة دارفور من الحجاز.

وقد لعب سلاطين دور الوسيط بحكم وضعيته الوظيفية وإمكاناته الإدارية في إزالة هذه العراقيل التي اعترضت العلاقات الثنائية: إلا أنه بالرغم من ذلك استطاع علي دينار أن يحافظ على شعرة معاوية بينه وبين الحكم الثنائي مع إدراكه التام أن الحكم الثنائي لا يرغب فيه ولا يرغب في وجوده ولكنه كان أمراً واقعاً. كما كان الحكم الثنائي بالنسبة لعلي دينار واقعاً لا يمكن تجاوزه دون مراوغة أو لف ودوران. وفي ذات الوقت كان يتمتع بحس أمني عال وبقدرة إستخباراتية جيدة مكنته من البقاء طوال هذه الفترة إذ لو حدث اختراق أمني فاعل لما توانت الحكومة الثنائية في إزالته دون أدنى تردد.

الفصـــــل الثـــالث

الفـــترة الثـــالثة 1909 - 1913م

ببداية سنة 1909م أرسل السلطان على دينار خطاباً إلى الحكومة الثنائية معلنـاً إياها بهزيمته الساحقة لخصمه اللدود سنين والدراويش[1]، عله أراد بذلك إثبات قدرتـه على كسر شوكة أعدائه، ونيل رضا الحكومة الثنائية ذات العداء المستحكم ضد الحركة المهدوية في البلاد. هذا في الوقت الذي طرأ فيه عامل جديد ينخر في جسـد العلاقـة الفوراوية الثنائية، ألا وهو التوسع الفرنسي نحو الشرق، وقد قام علي دينار بإخطـار الحكومة الثنائية باعتداء الفرنسيين على حدوده ووصولهم إلي دار تاما. وفي الواقع بذا يكون الفرنسيون قد خرقوا الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية لاسيما المادة الثانية منها والتي تقضي باحترام الحدود التي تقع تحت نفوذ أي مـن الـدولتين العظميـين[2]. وقصـد السلطان بإخطار الحكومة الثنائية بهذا الاعتداء أن تلعب دوراً بارزاً في كـبح جمـاح الفرنسيين. وان تقوم بدور الوسيط الفاعل في الحفاظ على حدوده. وليكسب موقفه قوة قام بإرسال الضريبة السنوية[3] معلناً ولاءه من جديد مما يدل علي وعي ودهاء ومكر سياسي. وفي الوقت ذاته أعلن احتجاجه على إجراءات الحكومة بشأن حـبس بهائمـه الأمر الذي عرضها لأمراض ضاع بسببها الكثير وذكر بأنه: (سـوف لا نرسـل أي شيء من البهائم إلا إذا أتانا المخابرة من جانبكم)[4] يعني الماشية التي كان يرسلها إلي أحكومة الثنائية لتسديد الضريبة السنوية بأثمانها.

---

(1) A.B. Theobald. Op.cit.pp.26.

(2) S.I.R. 190/62, May 1909.

(3) على دينار إلى سلاطين 1909/7/10م، جمادى الأخرة سنة 1327هـ S.N.A. Intel7/1/11

(4) من السلطان إلى سلاطين في سيتمبر سنة 1909م 5 رمضان سنة 1327هـ I bid.

يبدو واضحاً أنه بمنتصف سنة 1909، طفحت هذه المشاكل مرة أخري على السطح وبات لها أثر واضح على العلاقات الفوراوية الثنائية. مثل مشكلة الفارين من دار فور إلى كردفان. ثم تجددت مشاكل القبائل (الحدودية)، وتكرار حوادث النهب والسرقات والحروبات بين قبائل دارفور وشمال الصحراء في الماضي يؤكد على أن هذه الحروبات الدائرة رحاها الآن بين قبائل دارفور ليست حديثة العهد، وإنما تشكل ظاهرة لها جذورها التاريخية وأبعادها الثقافية وهي لا تزال وستظل كذلك، ما لم تحدث خلخلة وهزة عنيفة وقوية وفاعلة في التركيبة القبلية والثقافية والإجتماعية وكيمياء عقل الإنسان الدارفوري في دار فور خاصة والسودان عموماً شماله وجنوبه وشرقه وغربه، والاستعاضة عن هذه المفردات الاثنية والجهوية والمواعين العرقية الضيقة التي تشبه جحر الضب، بمفردات وطنية تصب في خانة صالح الوطن الأم. وأحسب أننا في السودان بحاجة إلي صياغة مناهج تربوية حديثة غايتها صياغة الإنسان السوداني وفق رؤي وطنية تعالج ضعف الحس الوطني والانتماء القومي لدي المواطن السوداني لتكون قاسماً مشتركاً، ولتخرج به من جحر ماعون القبلية والعشائرية النتن إلي رحاب الوطن الأم، ولحظتها يكون الانتماء للوطن يعلو علي الانتماء للقبيلة والجهة والطائفة والحزب. ومتي نجحنا في هذا المسعى المبارك يمكن أن نبني السودان الجديد وفق رؤية جديدة وبمفاهيم ومواعين حديثة تسع الكل في بلد المليون ميل مربع، وما لم نتجاوز هذه الأطر القديمة وتلكم القيادات السياسية والفكرية والروحية العتيقة لا يقوم لهذا البلد قائمة على الإطلاق. ولا شك أن هذه الصراعات في تلكم الفترة والآن كانت وستظل تقع ضمن سلسلة الصراعات الطبيعية والقبلية في أفريقيا. ولا شك أن إزكاءها كان ولا يزال يتم بتدخل وبدعم أجنبي وبقصر نظر وطني وبعمالة فاضحة كما هو الحال الآن. وفي ظل هذا الفهم يمكن أن يفسر التقدم الفرنسي نحو المناطق التي لم تتناولها الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية بالتفصيل يومها. والتدخل السافر للدول أوروبية الآن في شأن دارفور يقع ضمن هذا الإطار، سواء أكانت ألمانيا أو إسرائيل أو بريطانيا أو فرنسا ذوات الأمجاد التاريخية الاستغلالية في المنطقة والتي

تسمي زوراً إستعمارية [5] – أو هكذا شاء لهـا المترجمـون أن تتـرجم دون وعـي أو إدراك – أو وريثتها الشرعية الولايات المتحدة الأمريكية. الأمر الذي احتمل لحظتها عدة تفسيرات أتاح لفرنسا أن تقنن بموجبه تقدمها تجاه سلطنات المساليت والقمر والتاما وسلا، والتي يعتبرها السلطان علي دينار واقعة ضمن نفـوذه. لـذا اسـتنجد بـالحكم الثنائي [6].

ومن جانب آخر كان السلطان حريصاً على استقلاله لذا عامل الحكومة الثنائيـة بالمثل حين تجاوز رجالاته حدود دار فور لجمع الضرائب من القبائل التي فرت مـن دار فور محتمية بحمى الحكومة الثنائية. ويبدو أن السلطان لجأ إلى هذا التصرف كرد فعل على سلوك سلاطين المتمثل في إرساله خطاباً لقبيلة الرزيقات والتي تعد من قبائل دار فور نتيجة حدوث شجار بينها وبين الدينكا. واعتبر السلطان ذلك تعدياً على حقوقه وسيادة بلاده. واحتج على هذا التصرف بشدة مما اقتضى اعتذار سـلاطين الفـوري بقوله: (لأن المشاجرة حصلت في محل بعيد وعلى حدودنا من جهة بحر الغزال فكتب لهم هذا الجواب) [7]. وبالرغم من وجاهة هذا الاعتذار فإن السلطان حينما سلك نفـس الأسلوب احتج سلاطين على ذلك، مؤكداً أن الحكومة إذا كان لها غرض أو أمر فـي داخل حدود دار فور لا ترسل جنودها إلى داخل الحدود لأجـل إتمامـه بـل تكتـب لجنابكم) [8].

هذه الإشارة تكشف قدرًا من التناقض بين القول السابق واللاحق. وفي الوقت ذاته تلقي الضوء على يأس السلطان من معالجة الحكومة الثنائية الرخوة لمشـاكل قبائـل الحدود. لذا لا عجب أن قام رجالاته بتنفيذ ما يرونه من صواب تجاه هؤلاء الفـارين

(5) لأن مفهوم لفظة أو مصطلح استعمار مغاير تماماً للواقع، فاستعمار تعني في لغة العرب التعمير ومن ذلك قوله تعالي في سورة هود:(هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) الآية (61)، والمعني الشائع يعني الاحتلال والاستغلال ولمعرفـة الغرب لحساسية المواطن العادي في العالم المستغل ضد مصطلح الاحتلال البس الوجود الأجنبـي نفسـه ثـوب زور وبهتان لتمرير أجندته علي المواطنين في البلاد المحتلة، وكما يحدث الآن في العراق وفي أفغانستان وفي كثيـر مـن الأطروحات التي يرددها الكثيرون من النقلين الناقعين في بلادنا وفي بلاد المسلمين والأفارقة دون وعي من أبناء مـا يسمي بالعالم الثالث تصب في هذا الاتجاه .

(6) A.B. Theobald. Op.cit .pp.882

(7) سلاطين إلى السلطان في 1909/10/25م 11 شوال 1327هـ S.N.A. Intel 7/3/10

(8) آخر من سلاطين على دينار في 1909/10/25م 11 شوال سنة 1327هـ S.N.A. Intel 7/3/10

المتمردين على القانون. ويقرر الخطاب الأخير أن هناك اتفاقية معقودة بين الطرفين مؤداها عدم الاعتداء واحترام السيادة الإقليمية لكل من البلدين حيث ورد فيه: (ولا يخفاكم أن دخول جنودكم إلى داخل حدود الحكومة لأجل هذه الغايات مخالف للاتفاقيات المعقودة مع جنابكم)[9].

هذه الإشارة والسابقة لها تؤكد الفصل الواضح بين حدود الحكومة الثنائية وحدود دار فور باعتبارها بلداً مستقلاً ذا سيادة. وعلّ ذلكَ يعتبر مؤشراً قوياً يؤكد على استقلالية هذه السلطة. وأن إجراء أي أمر داخل حدود الطرف الآخر لا بد أن يتم من خلال الطرف صاحب السيادة على أرضه والحدود الواقعة تحت سلطاته.

وبحلول أكتوبر سنة 1909م تجددت مشاكل قبائل الحدود واعتداءاتها، واحتج السلطان على إيواء الحكومة الثنائية لقبيلتي الميدوب والزغاوة ذاتي الأصل (الدار فوري). وهما قبيلتان مشهورتان بالسرقة والنهب يومها وربما إلي الآن. إذن لم يكن النهب المسلح والاعتداءات الجارية على الساحة في دار فور اليوم غريبة على طبيعة التركيبة الدار فورية في التاريخ الحديث والمعاصر. وإن تدثرت الآن ببعض الأطروحات الوافدة علي بلادنا ، فهي إخفاء للحقيقة التاريخية المرة التي ينبغي مواجهتها بموضوعية وشجاعة وتحليل تاريخي ذكي، بغية الخروج من النفق المظلم إلي بلورة رؤية تعترف بالماضي بكل مراراته وحقائقه والحاضر بكل موروثاته ومشاكله ، وصياغة الحاضر واستشراف المستقبل وفق رؤية سودانية محلية بعيدًا عن الأجندة الخارجية. وأما مسألة النهب والصراعات علي الكلأ والماء والمتاع في أفريقيا عموماً هي مسالة طبيعية من صميم نسيج التاريخ الإفريقي والسوداني والعربي عبر التاريخ القديم والحديث والمعاصر. وهو موروث ثقافي واجتماعي على قدر من البدائية عرفته البشرية عبر مساراتها التاريخية ليس في أفريقيا فحسب، وإنما في كل أنحاء العالم. وأشار السلطان في احتجاجه على أن هاتين القبيلتين هما سبب كثير من المشاكل وقد قامت الحكومة الثنائية بتعيينها في الجيش. الأمر الذي يوحي بالقصد في سياسة الحكومة وهو أمر غير مستبعد. لذا قاموا بتهديد رسله وظلوا يتوعدونهم بغزو دار

[9] آخر من سلاطين إلى علي دينار في 1909/10/25م 11 شوال 1327هـ S.N.A. Intel 7/3/10

فور[10]. يبدو أن هاتين القبيلتين كانتا سبباً في إثارة العديد من المشاكل. واستغلتا وضعيتهما بغية الاستفادة من إثارة القلاقل والفتن بين الطرفين. وأبدى السلطان إستعداده في حالة عجز الحكومة عن تقويمهما وإصلاح شأنها أن تردهما إليه وهو كفيل بذلك[11].

في هذه الأثناء أطل زعيم الرزيقات برأسه من جديد مظهراً عداوة أقضت مضجع السلطان الذي رأى أن لا فائدة ترجى من مسامحته والعفو عنه لما أورده في خطابه بقوله: (نحن سامحناه – موسى مادبو – وعفونا وأعطيناه الأمان التام ... ثم انه صار يظاهر جماعتنا بالعداوة ويوريهم أصناف الأسلحة والجبخانة مختلفة الأجناس يهدد بها جماعتنا ويفاشرهم بها ويقول أن هذه الأسلحة والجباخين مرسولة إليه من قبل الحكومة)[12]. ولم يقف موسى مادبو عند ذلك الحد بل تجرأ على التمرد المسلح بأن هاجم رجالات السلطان، الأمر الذي أقلق علي دينار[13]. وبدا يتشكك في نوايا الحكومة إزاءه مصدقاً مزاعم موسى مادبو التي قد لا تكون صحيحة. إذ ربما أراد مادبو بهذا التهديد والوعيد، واستعراض الأسلحة تخويف السلطان وإجباره علي معاملته له معاملة الند. ويبدو أن تدخل الحكومة من وقت لآخر لصالح موسى مادبو أمر يدعو إلى الشك والريبة.

هذا في الوقت الذي شكل فيه الزحف الفرنسي من الغرب صداعاً دائماً للعلاقات الفوراوية الثنائية. وأضحى علي دينار ينظر إلى القضية من زاوية واحدة وبمنظار واحد حيث يقول: (إن جميع حدود دار فور التي ملكوها آبائي وأجدادي ما دمت حياً في الدنيا لا نتركها لدولة فرنسا إلا نكون ميتاً)[14]. إذاً حدود دارفور هي حدود دولة آبائه وأجداده. وأن حكمه لها عن أحقية تاريخية لا منحة. ولم لا؟ وهي تلك الحدود التي لم يتسن لمسئول أوربي حتى سنة 1909م تجاوزها. هذا بالرغم من ولائه الإسمي

(10) من السلطان إلى سلاطين في 1909/10/28م، 14 شوال 1327هـ S.N.A. Intel 7/1/11

(11) من السلطان إلى سلاطين في 1909/10/28م، 14 شوال 1327هـ I bid

(12) خطاب من السلطان إلى سلاطين في شوال 1327هـ نوفمبر سنة 1909م .I bid

(13) نفسه من السلطان إلى سلاطين أواخر شوال سنة 1327هـ منتف نوفمبر 1909م S.N.A. Intel 1/1/2

(14) من السلطان إلى سلاطين أواخر شوال 1327هـ منتصف نوفمبر 1909م S.N.A. Intel 1/1/2

وعلاقته الودية مع الحكم الثنائي. وبمقتضى هذا الحق التاريخي الموروث فإنه يعرب عن موقفه الثابت تجاه أي إعتداء على بلاده. ويؤكد على المقاومة والوقوف بشراسة ما دام حياً. وعله بذلك أراد تنبيه الحكومة الثنائية إلى طبيعة علاقته بها وانه رقم صعب في المعادلة السودانية وفي وجه الوجود الأجنبي بالبلاد.

خشيت الحكومة الثنائية من تطور الأحداث وجرها إلى حرب كبرى مع منافستها في أفريقيا فرنسا. وهذا شان غربي قديم حديث تكرّرت معالجته بشفافية في المواجهة الإنجليزية الفرنسية في أكثر من موقف وموقع في العقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي وفي النصف الأول من القرن العشرين كما تكرر أسلوب المعالجة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي في النصف الثاني من القرن العشرين في كوبا كاسترو. فحاولت الحكومة الإنجليزية بالسودان تهدئة روع السلطان بتلغراف ورد فيه: (نحيطكم علماً بأن حدودكم معلومة جيداً للفرنسيين ... وسوف لا يخترق الفرنسيين حدودكم ... ويجب ألا تخافوا ما دمتم مخلصين ولائكم للحكومة الثنائية)[15]. ولم تدع الحكومة الثنائية هذا الظرف يمر دون العزف على وتر الإخلاص للحكومة الثنائية والولاء لها. إذ حاولت انتهاز هذه الفرصة والإلقاء في روعه أن مساعدته في مواجهة فرنسا رهينة بولائه لها. وفي الواقع أن هذا التلغراف لا يعدو عن كونه تهدئة خاطر، و محاولة غايتها المحافظة على العلاقة القائمة بين الطرفين من غير أن يستتبع ذلك حل جذري عاجل، الأمر الذي كانت له آثاره السالبة من خلال هذه الدراسة على العلاقة الفوراوية الثنائية. وقد شكلت هذه المشكلة قضية هامة في مسار العلاقة بين الطرفين مدة حكم السلطان علي دار فور. وببداية سنة 1910م بعث السلطان بخطاب يعكس فيه وجهة نظره إزاء هذه القضية. حيث أكد علي أن السلطنة إرث له من قديم وكذلك الأقاليم التابعة لها. وأنه لن يتنازل عن هذا الحق قيد أنملة حتى آخر قطره من دمه. وهدد بصريح العبارة أنه سيواجه الفرنسيين في حالة اختراقهم لحدوده[16].

---

[15] تلغراف من مدير المخابرات إلى السلطان في 1909/12/28م A.B. Theobald. Op. cit. pp. 94.

[16] خطابين من ونجت إلى غور ست، في 16-1910/2/17م S.N.A. Intel 1/1/1

ويظهر جلياً أن قضية الغزو الفرنسي لحدود دارفور قد جعلت الحكومة في موقف حرج مع السلطان. وكانت محك تجربة قاسية يصعب تجاوزها دون أن يترك ذلك أثراً بالغاً على العلاقات بين الطرفين. وأبدت الحكومة الثنائية اهتماماً بالقضية، لـئلا تفقـد ولاء السلطان الأسمى لها على الأقل في الوقت الراهن. وحتى لا تضطر من جانـب آخر لتدخل عسكري هي ليست على استعداد لخوضه في ذلك الوقت. لذا قـام الحـاكم العام بإرسال خطابين إلى المندوب السامي البريطاني بالقاهرة فحواهما: (أن الأوضاع في دار فور ووداي أصبحت غير محتملة. وأن تكوين لجان لمفاوضـات سـتتعرض للخطر كما أن أي تحرك في الوقت الحالي قد يهز موقفنا لدى السلطان علـي دينـار فيشك في نوايانا)[17].

وهذين الخطابين كانا رد فعل لخطاب علي دينار إليه حيث أورد في أحدهما قوله: (وفي يوم 16 استلمت خطاباً من علي دينار يشير فيه إلى الغزو الفرنسي لدار مساليت ويطلب إضاءة النور الأخضر له للقيام بهجوم على الفرنسيين. إلا أن سلاطين باشا هدأ من موقفه. وبرّر لـه ذلك بأن المسئولين الفرنسيين في وداي قد ارتكبوا ذلك نتيجـة خطأ. وأرى انه من الأحسن إفهام الفرنسيين بأن دار مساليت داخلة ضمن الحدود الدار فورية. وأن السلطان قد طلب تعويضاً لاخترق حدوده)[18]. يعكس ذلك الخطاب مـدى القلق الذي عايشته الحكومة الثنائية وخوفها من تطور الأحداث وخروج الأمر وانفلاته من يديها. وتؤكد علي ذلك الخطابات التي تداولتها دواوين الحكومة والدوائر البريطانية في كل من الخرطوم والقاهرة. ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر الخطاب الوارد من مدير المخابرات بالخرطوم إلى مدير المخابرات بالقاهرة في 1910/2/17م والذي ورد فيه: (لقد كانت حكومة الخرطوم تكبح جماح علي دينار هذا بالرغم من أن علـي دينار قد هدد بالاستجابة للاستفزازات الفرنسية المتكررة والتي وصلت حـد الاعتـداء على حدوده)[19]. هذه دلالة قوية على القلق الذي عايشته الـدوائر البريطانيـة سـواء

(17) خطابين من ونجت إلى غور ست، في 16-1910/2/17م S.N.A. Intel 1/1/1
(18) خطابين من ونجت إلى غور ست، في 16-1910/2/17م S.N.A. Intel 1/1/1
(19) B.I.D. 1/1/21

أكانت في القاهرة أم في الخرطوم. ومحاولة الحكومة الثنائية البحث عن حل يحفظ لها ماء وجهها لدى السلطان والقوى الأوربية المنافسة لها على الحلبة الأفريقية. هذا بالإضافة إلى المصالح البريطانية ذات البعد الإستراتيجي في المنطقة على العموم.

ولم يقتصر الأمر على المشكلة الفرنسية وآثارها المترتبة على طبيعة العلاقة الفوراوية الثنائية. إذ تجددت الشكوى ضد مأمور النهود ممثل الحكومة الثنائية، وارتكابه لبعض المخالفات المنافية لمبادئ العدالة. حيث قام السلطان بمحاربة تجارة الرق. بيد أن تجار الرق قد وجدوا الحماية من مأمور النهود وبدأوا في الانتقام من رجالات علي دينار القادمين من دار فور إلي النهود: (ويخلصوا منه الطاق طاقين .... وعليه أرجو أن يصدر ..... لمأمور النهود لأنه تاني إذا حصل مشكل علي بعض الناس التابعين لحكومتنا لا يفصل بينهم بذاك الطرف الأولى أن يرسلهم إلي طرفنا)[20]. وردت إشارتان هامتان في هذا الخطاب، أولاهما: محاربة تجارة الرق، وهذا وجه مشرق يلقي الضوء على جانب هام من شخصية هذا السلطان ويضاف إلي رصيده الإيجابي، حيث امتاز بروح إنسانية عالية دفعته لمحاربة استعباد الإنسان لأخيه الإنسان دون وجه حق شرعي. ثانيتهما: أن له حكومة مستقلة، هي التي تطبق القوانين على رعاياها. لذا يرى أن تطبيق أي عقوبة على رعاياه من قبل الحكومة الثنائية يعد تعدياً صريحاً على حقوقه الاستقلالية وحقه السيادي، الذي تنازل عنه الكثيرون من حكام اليوم في بقاع كثيرة من الأرض خوفاً علي كراسيهم القائمة علي كثبان من الرمل، وإرضاء للقوي الكبرى على حساب كرامتهم وكرامة شعوبهم. فهانوا علي أنفسهم واستهان بهم أعداؤهم من كل حدب وصوب وذلك على المستوى الأفريقي والعربي والإسلامي والآسيوي دون استثناء .

وأرفق السلطان ما مضى بخطاب آخر قرر فيه أن حدود تاما ومساليت واقعة ضمن حدود سلطة دار فور منذ زمن بعيد. وبعد مجيئه للعرش تحت حماية الحكومة الثنائية التي يطلب منها أن تبذَل جهدها في إقناع الحكومة الفرنسية بذلك لوقف اعتدائها

(20) علي دينار إلى سلاطين في 1910/2/18م 8 صفر سنة 1328هـ bid 2/2/12

على حدوده، وإن لا فإنه على استعداد ثقة بالله للمقاومة إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً[21]. بذا قرر أصالة هذا السلطنة. وأنها امتداد لجذور ضاربة في شعب الزمان. وأن النظام القائم ما هو إلا استئناف لما كان قائماً. وإن لا لما كان هناك من داع لادعاء الحق التاريخي في هذه المناطق التي أشار إليها.

وعبارة (بعد مجيئ العرش) عبارة ذات دلالة تفيد أن تنصيبه لم يتم وفق إرادة الحكومة الثنائية. لا سيما إذا علمنا الظروف التي وصل فيها إلى العرش والكيفية التي جاء بها. أما الإشارة إلى حماية الحكومة الثنائية فهي مما اقتضاه ظرفه السياسي الراهن، ووقوعه بين مخلب قوتين مفترستين أحلاهما مر. إلا انه قد سبر غور أحداهما فتزلف إليها ولكن بكبرياء وشمم. حيث احتفظ لنفسه بحق التحرك والإستقلال والدفاع عن تراب بلاده معتمداً على قوة كبرى لا تدانيها قوة على الإطلاق أشار إليها بقوله: (ثقة بالله ... إلا أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً). وهذه أمثل صورة للتوكل مؤداها إستنفاذ كل الوسائل المتاحة وإستخدام كل الإمكانيات المستطاعة. ومن جانب آخر لم تهمل الحكومة البريطانية هذه القضية لإدراكها لأبعاد سياسة فرنسا في المنطقة والتي كانت ترمي إلى الوصول إلى أعالي النيل. وذلك في سياق نطاق سباق القوى الأوربية حول – أرض النيل – في العقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي. فإلى جانب بريطانيا كانت هناك فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا[22]. لذا لا غرابة أن أولت الحكومة الثنائية والدوائر البريطانية اهتماماً كبيراً. بيد انه لم يتجاوز المساعي الدبلوماسية حيث أبرق الحاكم العام السلطان بتاريخ 19910/3/26م مفيداً إياه بأن الحكومة الفرنسية قد أكدت بأنها لن تخرق حدود دار فور. وأشار إلى أن الأسلحة التي طلبها السلطان قد تم شحنها من لندن وستصل خلال أيام معدودة. وطلب من السلطان أن يعاقب عدداً من المسلحين الذين اعتدوا على الكبابيش[23].

[21] علي دينار إلى الحكام العام في 20 فبراير 1910م 10 صفر 1328هـ I bid 2/2/12

[22] Patricia Wright: conflict on the Nile. London First edition. By Cox & wyman LTd. 1972p. ix 63 - 60. See also P.M Holt : A modern history of the Sudan from the Funj sultanate to the present day. third. Ed. redwood ltd. London. 1974. p. 104-5.

[23] S.N.A. Intel. 1/1/1.

يبدو أن الحكومة لعجزها عن عمل شيء حاولت أن تكسب السلطان لجانبها بـأي صورة وبأي كيفية، وان تلجأ إلى الوعود الكاذبة والتسويف إذ لا يعقل أن تأتى أسلحة من لندن من أجل السلطان تعزيزاً لسلطته على حسابها في الخرطوم الأمر الذي يمكن أن يهدد استراتيجية احتلال السودان والوجود الإنجليزي في أفريقيا عموماً. بيد أن الوعود الكاذبة أسلوب استعماري قديم حديث معاصر ينخدع به المغفلون من الساسة وتجار السياسة الذين يفتقدون الحس السياسي، والوعي التاريخي والقدرة على التعامل مع مفردات التاريخ بذكاء. كما يبدو من جانب آخر تداخل المشاكل وتشابكها في هذه الفترة وفي هذه المنطقة بالذات، فبالرغم من خطر التوسع الفرنسي وسيطرته على مسيرة العلاقة الثنائية الفوراوية فإن المشاكل الحدودية كانت تطل برأسها من وقت لآخر على منوال واحد ودون انقطاع كما هو الحال الآن.

وقد اعتمدت الحكومة الفرنسية اللجوء إلى المراوغة حيث اعتمد الحاكم العام البريطاني، في تأكيده الماضي على خطاب جراي وزير الخارجية البريطانية إلى غورست بتاريخ 19 مارس 1910م. والذي ورد فيه أن سفير بريطانيا بباريس قد أكد له بأن الحكومة الفرنسية ستبرق قواتها في ودّاي لإخطارهم بعدم اختراق الحدود الدار فورية[24]. فعبارة: (إن الحكومة ستبرق إلى قواتها في ودّاي بعدم اختراق الحدود الدار فورية. هي عبارة تسويفية لتجد القوات الفرنسية في ودّاي مبرراً لتحركاتها الآتية، وفي الوقت ذاته فإنها ستعطي الحكومة الثنائية والبريطانية عذراً أمام السلطان، وهي تشكل مخدراً غايته أن يعوق حركة السلطان وأملاً يعلق عليه حل القضية الراهنة التي أصبحت تشغل جل تفكيره. وطلب الحاكم العام من سلاطين أن يكتب خطاباً إلى السلطان بغية تهدئته وإقناعه بأن الحكومة البريطانية قادرة على حل القضية سلمياً بواسطة سفيرها في باريس. وأنه بصدد إرسال مجموعة لتحديد ورسم خريطة للحدود بين الدولتين ودّاي ودار فور. وطلب منه تهدئة السلطان ما أمكن حتى تتهيأ الفرصة لاختيار ممثلين للبلدين لتحديد الحدود بينهما[25] .

[24] F.O. 407/175. sir F. Bertie to Sir Grey, 18 march 1910.

[25] الحكام العام إلى المفتش العام في 1910/3/26م S.N.A Intel 7/5/11

تلقي الإشارة الأنفة الضوء على مدى التسويف الإنجليزي والحرج السياسي الذي وقعت فيه الحكومة الثنائية. فحاولت إستخدام كل الوسائل والوعود بغض النظر عن جديتها ومصداقيتها في هذه القضية الهامة. حتى ولو كانت هذه الوسائل أضعف من خيوط العنكبوت. لأن الحاكم العام حتى هذه اللحظة قصارى ما يملكه من معلومات لم يتجاوز خطاب جراي الماضي. والذي لم ترد فيه كل هذه التفاصيل الدقيقة. ومن جانب آخر فقد قام سلاطين بالدور المناط به من إرسال تلغراف الحاكم العام إلى السلطان وإرفاقه بخطاب تفصيلي غايته أن يطمئن السلطان على جدية الحكومة الثنائية وقدرتها على الحل[26]. وأدركت الدوائر الحكومية الثنائية من جانبها أن السلطان قد ظل يعلق عليها أملاً كبيراً لحل المشكلة القائمة بينه وبين فرنسا[27].

ومع كثرة احتجاجات السلطان لجأت الحكومة الثنائية إلى تبرير مواقف الحكومة الفرنسية وتحركاتها. لاسيما بعد حدوث أول اشتباك جري بين القوات الفرنسية والقوات الدار فورية في دار تاما. وأبدى السلطان أسفه من موقف الحكومة الثنائية في حربه ضد الفرنسيين محاولاً استفزاز الحكومة علّها تتحرك بقوله: (... إن كانت للحكومة الثنائية مصلحة داخل دار فور أن تسعى لإيقاف هذه الاعتداءات الفرنسية)[28]. فبرر سلاطين التحرك الفرنسي بأنه غير مقصود وهو خطأ غير متعمد وأشار إلى انه بعد الإيضاح سوف لا يتعدى الفرنسيون على حدود دار فور مرة أخرى[29].

هذه الخطوات من الحكومة الثنائية لا تعدو عن كونها تهدئة مؤقتة. وكفكفة لتحركاته خشية اصطدام الجانبين وإحراج الحكومة الثنائية القائمة بحماية المصالح البريطانية في المنطقة.

وشعر سلاطين بضعف أدلته ومبرراته السابقة التي بعث بها إلى السلطان. فقام بكتابة خطاب آخر قاد فيه أدلة تبرر الهجوم الفرنسي على أنه غير مقصود، فحواها أن

---

(26) تلغراف من سلاطين إلى السلطان في 1910/3/26 S.N.A Intel 7/3/1

(27) من الحاكم العام إلى غورست المندوب السامي البريطاني في 1910/4/17م S.N.A Intel 7/3/11

(28) من السلطان إلى كل من الحاكم العام وسلاطين في 1910/4/18م S.N.A Intel 1/1/1

(29) من سلاطين إلى السلطان في 1910/4/23م ربيع الثاني 1328هـ S.N.A Intel 1/1/1

الأهالي هم الذين أوحوا إلى الفرنسيين بأن تلك الجهات تابعة لودّاي: (وقد حدث إيضاح الحدود الفاصلة بين دار فور وودّاي ووافقت عليهاً الحكومة الفرنسية)[30]. وهذا التأكيد جاء باعتباره رد فعل عاجل لموقف السلطان الأخير، والذي اعتذر فيه عن إرسال التزاماته السنوية لانشغاله بجبهة حدوده الغربية[31].

وفي هذه الأثناء حدثت تعديات من عربان البديات والقرعان والميدوب على حدود الحكومة الثنائية. فجأر سلاطين بالشكوى نيابة عن عربان الكبابيش[32]. أملاً في أن يكبح السلطان جماحهم. يؤكد ذلك علي تشابك القضايا واستغلال القبائل الحدودية لوضعها على الحدود. وعدم خضوعها لأية سلطة مركزية وفقاً لطبيعتها البدوية التي لا تدين لقانون أو سلطان بالطاعة المطلقة لتركيبتها الثقافية. وأن تحركها كان وما زال وسيظل يتم بعفوية تقتضيها مصلحتها الوقتية من كلأ ومرعي وسلب ونهب دون إعتبار بالنتائج. إذا قرأنا مفردات الماضي بوعي نستطيع أن نستوعب معطيات الحاضر ونستشرف رؤية المستقبل بعقلانية وبذكاء تاريخي يجنب البلاد والعباد كثيراً من الأخطار المحدقة بهما. وبالتالي فإن ما يجري الآن في دارفور هو مسألة ذات جذور تاريخية ومكانية وعرقية وثقافية وحضارية. بيد أن السياسة وأجندتها قد أضرت بهذه القضية إستغلالاً لها بصورة رديئة ونتنة مما دفع بالقوى الأجنبية وبتشجيع من الجهات المتشاكسة سياسياً أن تحشر أنفها في كل دقائق هذه المنطقة. وفي تقديري أن الحل بيد أهل المنطقة وأهل المنطقة وحدهم وهم كثر يتبوأون مناصب سيادية وقيادية وعسكرية وسياسية قل ما توفرت لسواهم ولكنها البركة التي نزعت منهم مع كثرتهم وأقدارهم الثقافية والإجتماعية. وما يمكن تقريره في هذا المجال انه لا يمكن أن يفرض علي دار فور أي مستوىً من الحلول من الخارج تحت أي مسمى كان . ومهما كانت المبررات لأن هذه قضية سودانية وستظل سودانية مهما حدث من اختراق أو تجاوز في ظل أي فترة من فترات التاريخ الحديث والمعاصر.

---

(30) آخر من سلاطين إلى السلطان في 1910/4/23م ، 13 ربيع الثاني 1328هـ S.N.A Intel 7/3/11

(31) I Bid

(32) I Bid

وعلى صعيد آخر شعرت الدوائر الإنجليزية بخطورة الموقف وأرادت الاستعجال لحل الإشكال الفرنسي الفوراوي القائم دبلوماسياً ودون اللجوء إلى القوة. حتى لا تضطر للتدخل غير المفضل في دار فور[33]. وحتى لا تتهم من قبل الدول الأوربية المنافسة لها بالضعف إزاء القوة الفوراوية المستقلة. لا سيما إذا ما تمادت فرنسا في تعدياتها وحاولت الحكومة الثنائية بسط يدها على دار فور بإعتبارها جزءاً من الأراضي التي تحت حمايتها. وهي في الوقت ذاته مدركة تماماً لنظرة علي دينار وموقفه الاستقلالي وعدم سماحه لأي قوة أجنبية باختراق أراضيه. وإن إقتضى ذلك روحه وزوال سلطانه. ويكفي أنه حتى اللحظة لم يسمح لأي مسؤول أوربي باختراق أراضيه البتة. ووردت للسلطان تهدئة أخرى فحواها: (أن الأوامر المشددة قد صدرت من قبل الحكومة الفرنسية لجنودها وقائدها في ودّاي بعدم الإعتداء. إذا استدعى الأمر إلى تحديد الحدود فإننا سنرسل مندوباً من الحكومة لمقابلة المندوب الذي تعينونه للنظر في هذا الإشكال)[34].

لا يلوح في الأفق ما يستتبع ذلك الحديث من نتائج. إذ لا يزال الأمر غامضاً والمشاورات في أوساط الدوائر البريطانية جارية بصدد تقديم اقتراح يقتضي إرسال مندوبين عن الحكومة الثنائية والحكومة الفرنسية لحل الإشكال القائم. وكانت الحكومة الفرنسية من جانبها لا ترى إلزامية الاتفاقية القائمة بين كل من فرنسا وبريطانيا سنة 1899م حيث لم تنص صراحة على أن كلاً من دار مساليت ودار تاما واقعة تحت حدود دار فور الأمر الذي جعلها تتحرك بحرية تامة[35]. الأمر الذي جعل وعود سلاطين لا تعدو عن كونها تهدئة آنية. وتكررت بعدئذ الاعتداءات الفرنسية ودخلت القوات الفرنسية داري تاما والمساليت وتلطفت الحكومة الثنائية في اعتذاراتها هذه المرة للسلطان مبررة ذلك بأن هاتين الدارين قد آوتا محمد صالح دود مرة السلطان الودّاي الهارب وأن دخول فرنسا إليها ليس بقصد الإستيلاء عليهما[36]. وإنما تم ذلك بقصد مطاردة سلطان وداي..

(33) مدير المخابرات ميرالي بالقاهرة إلى السكرتير الخاص في 24 مايو 1910م S.N.A Intel 1/1/1

(34) المفتش إلى السلطان في 1910/6/5م 16 جماي الأولى 1328هـ S.N.A Intel 1/1/1

(35) أستاك مدير المخابرات بالقاهرة إلى مساعده بالخرطوم في 14/6/ 1910, S.N.A Intel 1/1/2

(36) ملني إلى أستاك في 14 يونيو سنة 1910م S.N.A Intel 1/1/2

ويبدو أن التبرير الفرنسي للتدخل لا يعدو عن كونه ذر رماد في العيون لئلا تثير القوى الأوربية المنافسة في المنطقة. ولكي تغلف أهدافها الاستعمارية التوسعية المكشوفة عللت الاستيلاء بالبحث عن عدو هارب وجد ملجأ لدى هذه الديار. ولا يخفي علي الحكومة والبريطانية حقيقة الأمر ولكنها حاولت بقدر الإمكان عدم إثارة حرب في هذه المنطقة في الوقت الراهن لعدم إستعدادها وضعف حجتها. وشعرت الدوائر البريطانية بدقة الموقف. فأجرى سلاطين اتصالات مكثفة أثناء وجوده في لندن. وأعدت مذكرة ضافية عن الخلافات حول الحدود بين ودَّاي ودار فور وقابل كلاً من وزير الخارجية البريطاني ورئيس الوزراء[37].

وفي هذه الأثناء تحركت جماعة موسى مادبو (الرزيقات) الأمر الذي أغضب السلطان لاسيما في هذا الظرف العصيب وأرسل يتهددهم ويتوعد زعيمهم مادبو وأعلن الحكومة بما سيقدم عليه. ويطلب منها بعدم إيوائه بقوله: (وقد توجهت أفكاري في هذا العام بضربهم وإخراجهم جزاء بما ارتكبوه من العصاوة ... وربما موسى المذكور يهرب ويتوجه إلى الحكومة فنرجو أنها لا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً بل يزيد من عدالة الحكومة سجنه أو إرساله إلينا)[38]. كان بإمكان هذه القوى المحلية الإتحاد وتشكيل خطورة بالغة على القوة الاستعمارية لو تمكنت من تجاوز مطامعها الوضيعة وتفوقت علي أقدارها الذاتية ونظرت بعين البصيرة النافذة. بيد أن ذلك قدر من أقدار هذا الوطن الحبيب بأن يبتلي بقيادات قاصرة النظر لا تنظر إلا تحت قدميها، ولعل المشكلة الأساسية تكمن في تربيتنا التي لا تخلو من اثر صوفي سالب والذي يجعل ذات الفرد هي المحور الأول والأخير علي حساب المصلحة العامة والوطن وما أشبه اليوم بالبارحة، كما أن حب الزعامة وطبيعة القبائل البدوية حالت دون تحقيق ذلك الهدف. وفي المقابل استفادت من هذا الوضع الحكومة الثنائية المحتلة. وحاول السلطان أن يدير خيوط اللعبة ذاتها بذكاء ولكن بعد فوات الأوان كما سيأتي ولم يكن لهذه القبائل (الحدودية) هم سوى السلب والنهب. فهي لا تذعن لسيادة واحدة أو سلطة مركزية ولا

[37] مدير المخابرات بالقاهرة إلى مساعده بالخرطوم في 1910/7/21م A.B.Theobald.op.cit.pp 96

[38] من السلطان إلى سلاطين في 1910/7/24م 17 رجب 1328هـ S.N.A .Intel 1/1/1

تدين لقانون بعينه. هذا التقرير يشير إلى طبيعة وجذور الصراع الدائر الآن في دارفور، فهو ليس حديثاً وليس له أدني ارتباط له بنظام سياسي محدد بقدر ما هو قدر ثقافي واجتماعي يرتبط بطبيعة التكوين السكاني والجغرافي في دار فور. وليت الساسة يدركون أبعاد هذه القضية ويتركوا المتاجرة بقضية دار فور في الداخل والخارج، ويجلسوا علي بساط واحد ليجتمعوا علي كلمة سواء هدفها أولاً وثانياً وثالثاً: السودان ومواطن دارفور الذي لا ناقة له ولا جمل في صراعات تجار السياسة كما قالت فاطمة احمد إبراهيم نائبة الحزب الشيوعي في البرلمان في منتصف الستينات من القرن العشرين.

هذا إضافة إلى أن منطقة دارفور مهما قيل عنها وعن صراعات القبائل فيها ومنذ أزمان بعيدة إلا أنها كانت مقدور عليها محلياً عن طريق الشيوخ والسلاطين ورؤساء القبائل. قبل أن يظهر جيل الفنادق والتكسب السياسي في ظل الغيبوبة السياسية التي تسود المنطقة الأفريقية والعربية كلها والسودان علي وجه الخصوص. ولعل من الأخطاء الكبيرة من الناحية التاريخية في السودان حل الإدارة الأهلية بدلاً عن ترقيتها وتحسين أدائها وتطويرها بما يتلائم مع طبيعة المرحلة. بيد الانسياق من غير وعي في كل مرة مع كل طرح جديد والجري وراء أطروحات الشيوعيين الفاشلين في نهاية ستينات القرن العشرين واستجابة المغفلين النافعين من عسكريين وسياسيين يومها لهذه الأطروحات الفطيرة الفجة دون وعي تاريخي أضر بالبلاد والعباد وكان حصاده هذا الذي نراه ونعيشه الآن . وأهلنا يقولون (اللي ما ليهو كبير يفتش ليهو عن كبير) فقد كان هؤلاء الشيوخ والنظار والعمد مكمن خبرة وحكمة وتجربة فتطاول عليهم من لا اصل له ولا فصل من صنائع اليسار ومن دار في فلكهم دون وعي فقضوا علي هذا الإرث في يوم وليلة دون تدبير بديل يمكن أن يملأ الفراغ. وبشأن الوضع في دار تاما ظل الوضع متوتراً وحاول السلطان أن يستثير حماساً لدى الحكومة الثنائية بنقله مقتل أحد الإنجليز هناك ويعرب عن أسفه البالغ لهذا الأمر بل ويبدي إستعداداً لتدمير دار تاما ثأراً لذلك القتيل. وإن اعترضته القوات الفرنسية فإنه لا يبالي بها [39]. وبتفويض من السلطات البريطانية التقى سلاطين بالمندوب الفرنسي والوزير المفوض في

(39) أخر من علي دينار إلى سلاطين في نفس التاريخ I bid

القاهرة، وناقش معه أمر الحدود بين ودّاي ودار فور وحصل سلاطين من المندوب الفرنسي على تأكيدات مؤداها عدم تكرار الإعتداء من قبل الفرنسيين على دار مساليت ودار تاما. ويقتضي الأمر من علي دينار التعهد بعدم إيواء دود مرة. بيد أن الفرنسيين لم يلتزموا بهذا الاتفاق وقاموا بخرقه مما أثار سخط سلاطين فأرسل مذكرة احتجاج ضافية مضمناً إياها تأكيدات المندوب الفرنسي له بعدم الاعتداء علي دارفور [40] .

وفي الوقت ذاته لم يتوان سلاطين عن إرسال خطاباته المهدئة للسلطان محذراً إياه من الاعتداء أو إيواء الهاربين من القوات الفرنسية، وواعداً إياه بالحلول الجذرية لمشكلة الحدود. بيد أن ما يدور على المسرح حقيقة كان خلاف هذه التأكيدات. وشعر سلاطين في قرارة نفسه بهذه الحقيقة المرة فعبر عنها في رسائله إلى الحاكم العام[41]. واقتنع الأخير بوجهة نظر سلاطين. وكان مقدراً لموقف الحكومة الثنائية إزاء علاقتها بالسلطان. لذا لا غرابة أن أشار في خطاب بعث به الحاكم العام إلى المندوب السامي البريطاني في القاهرة يبين له فيه بأن الحكومة الثنائية في السودان قد بذلت جهوداً مضنية بصدد هذه القضية. وأجرت مفاوضات مع علي دينار بشأن الحدود بين دار فور وودّاي [42]. وتطرق سلاطين في رؤاه تجاه القضية مبدياً تعاطفاً شديداً تجاه السلطان وإحساساً مفرطاً منه بخطورة الموقف حيث أشار في خطابه إلى الحاكم العام: (بأن السلطان غير مسؤول عن السلام ما لم يتم الاعتراف أولاً بحدود دولته التي وافقنا عليها منذ البداية) [43]. وعلي صعيد آخر فان سلاطين كان يقوم بوظيفته علي الوجه الأكمل تجاه السلطان حيث درج علي التسويف ومطاطية الحلول. ومحاولة كبح جماح السلطان والمحافظة على العلاقة القائمة بين الطرفين. وإشعار السلطان بأن الحكومة الثنائية قادرة على حل الإشكال القائم.

يبدو أن هذه التأكيدات قد انطلت على السلطان كما انطلت تأكيدات المندوب الفرنسي على سلاطين من قبل. لذا لا عجب أن أرسل السلطان خطاباً يشكر فيه جهود

(40) S.N.A Intel 1/1/2

(41) سلاطين إلى السلطان في 20 أكتوبر 1910م — S.N.A Intel 1/1/1

(42) من الحاكم العام إلى مدير المخابرات بالقاهرة في 1910/11/18م — S.N.A Intel 1/1/2

(43) سلاطين إلى الحاكم العام 1910/11/23م — S.N.A Intel 1/1/1

الحكومة الثنائية تجاه جلاء الفرنسيين عن كل من داري تاما والمساليت. ووعد بعدم السماح لأي هارب بتجاوز حدوده. أما فيما يتصل بدود مرة فسيدفعه إلى اللجوء إلى فزان أو إحضاره إلى الفاشر لإبعاده عن حدوده [44]. إلا أن مجريات الأحداث في نفس اليوم جعلته يجأر بالشكوى تارة أخرى لتمادي الفرنسيين في تغلغلهم في داري تاما والمساليت، وقد تم قتل رئيس فرقة المساليت تاج الدين إسماعيل (والبقية من معسكر فرنسا لغاية يومه محاصرين) [45] . يعكس ذلك أن الحصار الفرنسي لا يزال مستمراً على هذين الدارين. وأن السلطان من جانبه بدأ يتشكك فيما تقوده الحكومة الثنائية من مبررات ومسوغات بغية الإمساك بأزمة الأمور إلى حين.

وبعث السلطان في نفس اليوم بخطاب ثالث إلى الحاكم العام وذلك لسرعة الأحداث معلناً إياه بما يحدث على الساحة الغربية بقوله: (كان المفتش بشرني بأنه تكلم مع حكومة فرنسا في كيفية دار فور ... وبوقته أرسلنا ... من طرفنا لرؤساء تلك الجهات ونبهنا عليهم في أوامرنا لأنهم يسلكوا الاستقامة ويكفوا ... وقبل وصول الجماعة المذكورين تلقوهم جماعة مرسلون من رؤساء دار مساليت حاملين البوستة لأن جنود فرنسا اعتدوا ورجعوا على مساليت وحاربوهم حرب شديد. ومساليت غلبوا على الجنود الفرنساوية قتلوا رئيسهم المدعو كلناد'ومعه عشرة ضباط . واسفكت دماء عالم كثيرة من الفئتين وقتل رئيس فرقة مساليت المدعو تاج الدين إسماعيل) .

يبدو واضحاً أن السلطان كان عاجزاً مادياً عن مواجهة الفرنسيين فلذلك لم يكن أمامه من خيارات أخرى غير محاولة التعويل على حلول الحكم الثنائي في رد الفرنسيين. ومن ناحية أخرى فالحكومة البريطانية نفسها كانت هي الأخرى عاجزة عن تحرشات فرنسا هذه. لذا لا غرابة أن ازدادت احتجاجات السلطان في الفترة الواقعة بين أكتوبر ونوفمبر سنة 1910م مذكراً سلاطين بقوله: بأن فرنسا من الدول الأوربية العظيمة وأنها تحترم المواثيق وتحترم الكلمة [46].

[44] خطاب من السلطان إلى سلاطين بتاريخ 1910/10/24م في 22 ذو القعدة 1323هـ 1/1/2 S.N.A Intel

[45] السلطان إلى سلاطين في 101910/26م 24 ذو العقدة 1328هـ S.N.A Intel 7/2/12

[46] A .B. Theobald. Op. cit. pp. 97

والواقع خلاف ذلك، فالاستعمار الأوروبي لا يعرف ميثاقاً ولا يحترم كلمة. وإنما القضية بالنسبة لفرنسا يومها هي قضية مصلحة الأمة الفرنسية بغض النظر عن الأمم المستعمرة وبغض النظر عن العهود والمواثيق، وكذا الحكومة الثنائية فان الأمر بالنسبة لها لا يتجاوز حدود المصالح الإنجليزية في المنطقة والتي اقتضت الالتقاء وتقاطع المصالح الذي فرضته الظروف مع السلطان. ولكن بإمكانها التضحية به إن تعارض ذلك مع مصالح أكبر إنجليزية وأهداف استعمارية أوفر للأمة الإنجليزية. أما احترام المواثيق والعهود فهذه مسكنات ومخدرات تستخدم عند اللزوم وعند اقتضاء الحال حينما تكون الأمم المستضعفة هي الأقوى. وما رأيناه الآن في أفغانستان والعراق والسودان من مخالفات ونقض للمواثيق وحقوق الإنسان من قبل الرجل الغربي يؤكد صحة تلكم الدعوي والدليل علي ذلك الإغراءات التي ظلت الولايات المتحدة الأمريكية تقدمها لحكومة الإنقاذ للتوقيع علي الاتفاقات مع القوي المعارضة سواءً في نيفاشا أو أبوجا. وما أن تقوم الحكومة بتوقيع اتفاقية ما حسب طلب وشروط ماما أمريكا حتي تسحب ماما أمريكا وعودها وتأتي بشروط أخري لتنفيذ أجندة أخري علي حسب ما ذكر رئيس الجمهورية السودانية عقب اجتماع الحزب الحاكم بشريكه الحركة الشعبية في شهر مايو 2006م .

ونلاحظ مع قناعة المفتش العام بعدم وجود حل ناجع لهذه المعضلة بيد أنه لازال سادراً في تبريراته هذا بالرغم من عدم قناعته بما يقوده من أدلة وبراهين. مؤكداً للسلطان أن هذا الخرق للاتفاق ناتج عن عدم وصول الأوامر للقيادة الفرنسية في المنطقة. كما أكد على أن الحكومة الفرنسية ليست لديها أي نوايا للاستيلاء أو التدخل في شان دارفور. هذا الكلام ينطوي على سذاجة مقصودة. إذ لا يخفي علي أحد أن القوات المركزية لأي دولة عظمى في قامة فرنسا لا تتحرك إلا بأوامر مركزية ووفق استراتيجية محددة. لاسيما إذا كان هذا التحرك يتضمن مخاطرة متوقعة ويواجه مقاومة مؤكدة للاستيلاء على قطاع كبير يشمل كلاً من داري تاما والمساليت. كما أن هذا المسلك من نتائجه المؤكدة تعريض العلاقات الإنجليزية الفرنسية لأزمة وربما لمواجهة. ولا يشك المرء من أن التحرك الفرنسي كان مبنياً على جانب قانوني وهو

عدم وضوح بنود الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية بشأن الحدود الغربية. كما أن بريطانيا لم تكن في وضع قانوني يمكنها من دفع فرنسا عن التمادي في إعتداءاتها المتكررة علي دارفور. وفي الواقع فإن معالجة هذا الأمر كان يشغل الحكومة البريطانية على أعلى المستويات. وبدأ السلطان يشعر بخطورة ودقة موقفه إزاء تحفز فرنسا وعجز بريطانيا. وعاد سلاطين يدرك ضعف موقفه تجاه السلطان. لذا أخطر الحاكم العام بخطاب أكد له فيه أن الذي جرى على حدود دار فور الغربية يعتبر خرقاً صريحاً للاتفاق الذي تهيأ له مع المندوب الفرنسي بالقاهرة (47).

في هذه الأثناء قام السلطان بضرب عملة محلية 1317هـ أبدى سلاطين نحوها إمتعاضاً وعدم ارتياح، وقاد مبررات بعدم الحاجة إليها لإثنائه عن ذلك (48). يعكس ذلك شعور السلطان المفضي إلي الإنفكاك من رباط الحكم الثنائي الأجنبي. وتأصلت فيه الروح الاستقلالية أكثر وأكثر. ولعل ذلك يرجع إلى خيبة الأمل التي أصابته تجاه ما كان يعلقه من آمال في علاقته بالحكم الثنائي. أما سلاطين وهو الرجل الثاني في الحكم الثنائي كان يدرك أبعاد هذا المنحى الفوراوي بضرب عملة محلية. الأمر الذي سيكون له مردوده غير الإيجابي تجاه العلاقات الفوراوية الثنائية، مما يعمق الروح الاستقلالية لدى الفور. ويعطي فرنسا مبرراً أقوي للتدخل في شأن دارفور.

وبدت خيبة أمل السلطان في القوى الأوربية عموماً بأنها لا أمان ولا عهد ومواثيق لها. ورد عليه سلاطين مدافعاً عن الأوربيين مؤكداً في خطابه لعلي دينار على خطأ اعتقاده بقوله: (أن دولة فرنسا لا عهود لها ولا قوانين ... وأني أؤكد لجانبكم مستحيل للغاية أن تكون مقاصد فرنسا احتلال دار فور فكونوا براحة بال ... إن السبب في كل هذه الفتن والقلاقل هو السلطان دود مرة الموجود على الحدود، فينبغي لجنابكم أن تقبضوا عليه وترسلوه إلى هنا طوعاً أو كرها)(49). حاول سلاطين بهذا التبرير الواهن أن يضيع القضية، وأن يلفت النظر عن مقاصد فرنسا الاستعمارية في المنطقة ... ويحيل الكرة إلى ملعب علي دينار وأن يبرئ ساحة الحكومة الفرنسية

(47) A .B. Theobald. op. cit. pp.97 - 100

(48) من سلاطين إلى الحاكم العام في ديسمبر 1910م ، 1328/12/14هـ S.N.A Intel 1/1/1

(49) آخر من سلاطين إلى السلطان في 14 ديسمبر 1910م ، 1328/12/12هـ S.N.A Intel 7/3/11

بسبب هو غاية في الضعف في مواجهة الأزمة الحالية. وأراد منة جانب آخر أن يشغل السلطان بمطاردة دود مرة بدلاً من رد العدوان الفرنسي علىّ بلاده حتى تتفق القوى العظمى على حل لهذه الأزمة. وألتزم السلطان نصائح الحكومة وقام بترحيل دود مرة بيد أن القوات الفرنسية ما فتئت تهاجم وتعتدي. وعينت لها عميلاً على دار تاما بدلاً من السلطان السابق (عثمان الطوراوي). وفي خطاب من سلاطين إلى الحاكم أكد له فيه أنه قد بذل جهداً في أداء الدور المنوط به إزاء السلطان علي دينار (حتى تظهر نتيجة المفاوضات الفرنسية الإنجليزية بشأن حدوده الغربية) [50]. مما يعني أن دور سلاطين كان ينحصر في المراوغة والتسويف والكذب علي السلطان علي دينار لكسب الزمن. هذا بالرغم من أن كل الدلائل تشير إلى عدم استطاعة الحكومة الثنائية وعجزها لإيجاد حل حاسم لقضية حدود دار فور الغربية، إذ أن ذلك يرتبط بقرار أوروبي يصدر على مستوى عالٍ يحدد مناطق النفوذ لكل من فرنسا وإنجلترا. ومهمة الحكومة الثنائية هي مهمة محددة لا تتجاوز إطار المحلية الإدارية وإبداء المشورة وتقديم النصح والتقارير الضرورية لاتخاذ القرار الصحيح. وعلى صعيد آخر وجد السلطان نفسه بين مخلبي قوتين أهونهما شر. لذا إحتمى بقوة عرف كيفية التعاون معها لاقتناعه بجديتها. وفي الوقت ذاته كان يتوجس خيفة من قوة لا يدري ماهية أطماعها ومداها ألا وهي قوة فرنسا لذا ركن إلى القوة الإنجليزية. وبذلك كان يتبع تكتيكاً مرحلياً دعته إليه الظروف المحلية والإقليمية والدولية.

وبعد انعدام كل المبررات والمسوغات لجأ سلاطين إلى سيرته ودندنته القديمة، بأن على السلطان التحلي بالصبر. وأن لا يتوجس خيفة من التعديات الفرنسية مطمئناً السلطان بقوله: (إن حدود دار فور الموجودة تحت إدارتكم معروفة ومعلومة جيدة عند دولة فرنسا فلا ينبغي أن تخافوا من أنها تتعدى عليكم ... إنما من جهة تعديات حكومة فرنسا على حدودكم فهذا أمر يجب ألا تخافوا منه مطلقاً) [51] . وحاول إلقاء تبعة الاعتداء على قبائل غير تابعة لفرنسا [52].

[50] من سلاطين إلى الحاكم العام في 16 ديسمبر 1910م، 1328/12/14هـ S.N.A Intel 7/3/11

[51] سلاطين إلى علي دينار في 1910/12/21م، 19 ذو الحجة 1328هـ S.N.A Intel 7/3/

[52] سلاطين إلى علي دينار في 1910/12/21م، 19 ذو الحجة 1328هـ S.N.A Intel 7/3/

بدأ التكلف واضحاً والتناقض بيناً في مكاتبات سلاطين في الوقت الذي السلطان يرى إعتداء ماثلاً أمامه على حدوده من قبل فرنسا وسلاطين يطب منه ألا يخاف من ذلك لأن حدوده معلومة لدى دولة فرنسا. وواقع دولة فرنسا خلاف ذلك. كل ذلك ينم عن تهرب واضح من لب الموضوع. ومحاولة تزجية الوقت بأمور ثانوية تلهي السلطان ولو إلي حين حتى يتسنى حل القضية الشائكة وفقاً للمصالح الإنجليزية الفرنسية في المنطقة على وجه العموم ومصالحهما الاستعمارية على وجه الخصوص. ورغماً عن هذه الجهود التي بذلها سلاطين لكفكفة جموح السلطان فإن الصحف الفرنسية وحملتها المكثفة أدخلت الزعر في قلب السلطبان. وتضجر سلاطين من هذه الحملة الإعلامية الفرنسية والاعتداء المتعمد من قبل الفرنسيين على حدود دار فور. وأشار إلى أنه لا يزال مستمراً في سياسته القاضية بإقناع السلطان بأن الاعتداء الفرنسي كان نتيجة خطأ وسوء فهم [53]. وأشار إليّ أنه ظل يعيش في حيرة من أمره تجاه طلب السلطان بإعطائه إجابة قاطعة بشأن الحماية أو السماح له بالدفاع عن نفسه: (ويبدو أن تصريحات الحكومة الفرنسية وصحفها أنها تخيف علي دينار وتعمل على إجبارنا على احتلال دار فور. هذا بالرغم من أنني ضد الفكرة. ولا أستطيع أن أتفادى انتقاد الحكومة الفرنسية) [54].

كانت فرنسا تعتقد أن دار فور خارجة عن نطاق النفوذ الإنجليزي. وظلت الحكومة الإنجليزية من جانبها تعمل جاهدة لإقناع الرأي العام الأوربي بأن السلطان علي دينار تابع لها. لذا يبدو أن فرنسا من جانب آخر .كانت تحاول جهدها لإحراج الحكومة الثنائية تجاه السلطان وإجبارها على الأقدام على احتلال دار فور. إذ ترى في وجود السلطان تهديداً لوجودها في المنطقة . وتحفيزاً للقوى الوطنية للتصدي لمشروعاتها التوسعية في المنطقة. وأكد سلاطين في تقرير أعده بأن السلطان قد تحلى بالصبر اللازم نتيجة للتأكيدات المتكررة من الحكومة الثنائية بواسطة ممثلها سلاطين بأن الفرنسيين سوف لا يعتدون على دار تاما والمساليت. بيد أنه قد سقطت فعلياً كل

(53) سلاطين إلى الحاكم العام أول يناير 1911م، نهاية ذو الحجة 1328هـ S.N.A Intel 7/3/1
(54) سلاطين إلى الحاكم العام أول يناير 1911م، نهاية ذو الحجة 1328هـ S.N.A Intel 7/3/1

الأقنعة والتبريرات التي درج سلاطين على تقديمها أو لبوسها بعد إحتلال الفرنسيين لكل من دار تاما والمساليت. واتهم سلاطين المسؤول الفرنسي عن هذه الحركة لاسيما بعد إطلاعه على مسودة الاتفاق الفرنسي الإنجليزي الصادر في 13يونيو 1899م والتي حددت الحدود بين كلٍ من ودّاي ودار فور وفقاً لما كان جارياً سنة 1882م. إلا أن الأمر كان يبدو خلاف ذلك لما أعده الفرنسيون لهذه الخطوة من حملة إعلامية أخافت علي دينار وحدا به ذلك إلى طلب الحماية أو السماح له بالدفاع عن نفسه. ويورد سلاطين في التقرير المطول نصاً نقله عن كتابه السيف والنار (الطبعة الإنجليزية 1895م، ص 10) يلقي الضوء على المشكلة. ويبين أن دار مساليت كانت دوماً في حرب مع وادي مما يدل على استقلالها عن وداي وأن حدودها خارجة عن حدود وادي) [55]. يبدو أن الاعتداءات وتجاوز الحدود والنهب هي ضربة لازب في الحياة القبلية قديما وحديثاً لاسيما بين القبائل الرعوية والزراعية أو الرعوية والرعوية لإمكانية تجاوز مواشي قبيلة على موضع قبيلة أخرى أو على مزارعها. وفي الحياة القبلية وبناء على التركيبية الثقافية المتدنية فإن الحرب يمكن أن تشتعل لأبسط الأسباب وأضعفها.

وما كان يدور في أوساط الدوائر الإنجليزية سواء في الخرطوم أم في القاهرة أو لندن هو الحل المرتقب لهذه المعضلة، وبحلول يناير تجددت شكاوى السلطان وأعلن نفاذ صبره مشيراً إلى خطورة التحركات الفرنسية بقوله: (ودار تاما الآن عساكرهم فيها ودار قمر كذلك ودار مساليت ودار كتي هؤلاء الخمسة ديار جميعهم حدود دار فور الأصلية ... فإن مساليت أهالي ضمن رعية دار فور شرذمة قليلة بذلوا أنفسهم في سبيل الله قاتلوا في سبيل وطنهم ... فما بال نحن جمهور عالم من المسلمين موحدين رب العباد وموقنين لئلا يصيبنا ألا ما كتب الله لنا) [56]. هذه الإشارة تؤكد أن السيل قد بلغ الزبى وان السلطان راوده التفكير في مواجهة الغزو الفرنسي بمفرده ما دام أن فئة قليلة من رعاياه استطاعت الصمود في وجهه. وفي هذه الأثناء لا تزال المفاوضات جارية في أوساط الدوائر الإنجليزية بشأن الحدود. وساد الجو قلق زائد مبعثه عدم

[55] تقرير حول المشاكل بين فرنسا ودار فور في 10 يناير 9 محرم سنة 1329هـ S.N.A Intel 7/3/1

فهم الفرنسيين للموقف البريطاني الحرج في المنطقة أكد ذلك الحاكم العام بقوله:
our French friends don't seem to understand the situation and I) .[57] trust that nothing will induce our government to give way)

(أصدقاؤنا الفرنسيون يبدو أنهم غير مدركين للوضع إذ لا يوجد ما يغري حكومتنا ويدفع بها إلي التسليم التام) وفي ذات الخطاب يقول: (وأمرنا واضح أنه لا يمكن أن نخرق تعهدنا لعلي دينار حيث أن سلاطين يعتقد أن تحديد قضية الحدود وحلها غير ممكن وغير مرغوب فيه) [58]. وفي فبراير 1911م وصلت مذكرة من وزارة الخارجية الفرنسية لم تنل رضا وموافقة الدوائر الإنجليزية في الخرطوم. حيث احتوت على ما يقضي التدخل العاجل من قبل الحكومة الثنائية في دار فور وخرقها لاتفاقها السابق مع السلطان. وعبر الحاكم العام عن وجهة نظر الحكومة الثنائية بقوله: (ويمكن فهم موقف حكومة السودان تجاه على دينار في ضوء المذكرة المشار إليها - أي التقرير الذي أعده سلاطين - وما كتبه إلى علي دينار في أول مايو 1901، 22 ديسمبر 1903م. الأمر الذي يعرضنا إلى سوء النظر ونقض العهد تجاه علي دينار. هذا بالإضافة إلى أن ما مضى ذكره يتفق وروح الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية في 13 يونيو 1899م. والتي يؤكدها خطاب (جراي) إلى (سونسيو بيكون) في 14 سبتمبر سنة 1910م) [59]. هذه المحادثات والمراسلات الجارية تعكس مدى الاهتمام وقدر الجهود المبذولة من قبل الحكم الثنائي لحل النزاع القائم. وعدم رغبة الحكومة الثنائية التدخل في تورط سافر واستيلاء على دار فور. الأمر الذي قد يعرض أمنها واستقرارها للخطر، وفي الوقت ذاته لا تريد الجكومة الثنائية اتخاذ موقف حاسم أكثر من المفاوضات. هذا بالرغم من اختراق الفرنسيين لحدود دار فور وجأر السلطان بالشكوى لأكثر من مرة منذ سنين [60] .

(56) علي دينار في 1911/1/17م محرم سنة 1329هـ S.N.A Intel 7/2/3

(57) الحاكم العام غورست في 5 فبراير 1911م D.S.A Box 300/2

(58) الحاكم العام إلى غورست في 5 فبراير 1911م I bid

(59) I bid

(60) I bid

ورؤية الحكومة الثنائية تتلخص في أن لا حل للمشكلة في الوقت الراهن ما لم يتم إجلاء القوات الفرنسية. ثم اللجوء إلى تحديد الحدود بين الدولتين. وقد حملت وجهة نظرها تلك إلى القاهرة ومن ثم إلى لندن [61].في هذه الأثناء تجددت اعتداءات الكبابيش وطالب علي دينار الحكومة الثنائية بالتحقيق فيما جري ورد المظالم إلى أهلها. لاسيما وأن هؤلاء العربان قد قاموا بمصادرة أسلحة تخصه وردته من ليبيا [62] . ومن هذه الإشارة يبدو أن السلطان بدأ في تدبير مصدر جديد لتوريد السلاح لبناء ترسانة تؤهله للمقاومة. وأنه كان يستفيد من الوقت لتقوية نفسه وإعدادها لمواجهة الغزو الأجنبي. ولربما لجأ إلى هذه السياسة بعد أن تأكد من تسويف الحكومة الثنائية وعدم مصداقيتها في قضية شحن الأسلحة من لندن كما سبق وأن قررنا.

هذا التحول في سياسة علي دينار– التعويل على قدرته الذاتية – ربما كان أمراً مهماً. ذلك أن السلطان لربما قد استنتج أن تلكؤ الحكم الثنائي في حل مشكلة الاعتداءات الفرنسية قد يكون دليلاً على تواطؤ القوى المسيحية على مملكته. وربما كان لكل ذلك أهمية لتطور أفكاره ونظرته نحو طبيعة الخطر الأوربي – من أنه نوع من الحرب الدينية – وان الرد عليه يتوجب أن يكون في حدود ذلك الإطار في شكل تحالف إسلامي. وعلى صعيد آخر وجد عدد من المسؤولين في الحكومة الثنائية يرون أن على الحكومة عهداً لا بد لها من الإيفاء به تجاه السلطان وهو حمايته إزاء العدوان الفرنسي [63]. واتبعت القوات الفرنسية أسلوب المناورات حيث قامت بالانسحاب من دار مساليت. مما أعطى سلاطين فرصة أمام السلطان ليكتب له مشيراً إلى هذا الإجراء بقوله: (قد عرفنا أن حكومة فرنسا قد أخرجت عساكرها من دار مساليت وان شاء الله سيخرجونهم من دار تاما ... إن خير طريقة في المستقبل لأجل ضمان الأمن والراحة في البلاد هو أن تعين الحكومة كما ذكرت لكم قبلاً بعضاً من الضباط المهندسين وجنابكم تعينون مندوبين من قبلكم) [64].استغل سلاطين هذه الفرصة وحاول

(61) سلاطين إلى الحاكم العام في 5 فبراير 1911م S.N.A. Intel 1/1/2

(62) الحاكم العام إلى مدير المخابرات بالقاهرة ومن الخير إلى وزارة الخارجية البريطانية في 1911/2/24م S.N.A. Intel 1/1/1

(63) كلاتون إلى الحكام العام في 1911/3/1م S.N.A Intel 1/1/1

أن يعمق في ذهن السلطان أن الحكومة الثنائية قد سعت سعياً حثيثاً آتي ثماره. وأجتهد مؤكداً أن الأمر قد أصبح رهين تعيين مندوبين من قبل الأطراف المعنية. والواقع كان خلاف ذلك. لأن الحكومة الفرنسية حتى هذه اللحظة لم توافق على أي من الاقتراحات الإنجليزية بشأن حل الإشكال القائم بين الدولتين بخصوص دارفور.

وارتابت بعض الدوائر الثنائية حول استيراد السلطان السلاح من الشمال. ورأى البعض أن لا مانع من مصادرة ما يمكن الحصول عليه من قوافله القادمة من الشمال والاستيلاء على أسلحته المستوردة على أن لا يمنع رسمياً من استيراد الأسلحة. ووضعت الدوائر الثنائية احتمالين لاستيراده السلاح من الشمال: إما بغية مقاومة الحكم الثنائي مستقبلاً. وإما بهدف تعزيز نفسه حيال الغزو الفرنسي. ويقترح حاكم الأبيض منعه من استيراده بينما يرى حاكم كردفان أن لا يمنع ولكن ينبغي أن يتم إضعافه عن طريق الاستيلاء على بعض مما يستورده من أسلحة. وهذا الموقف بدأ واضحاً بعد شكوى السلطان من استيلاء الكبابيش على أسلحته المستوردة [65]. الأمر الذي يدل على أن حركة الكبابيش واستيلاءهم على أسلحته كان قد تم بإيعاز من الحكومة الثنائية. وأن هذه القبائل قد بدأ استخدامها على شكل طابور خامس لإضعاف شوكة السلطان. هذا بالرغم من الغزو الفرنسي لبلاده من ناحية حدوده الغربية. ولا يستبعد أن السلطان أضحي يشك في نوايا الحكم الثنائي تجاه بلاده. فحاول أن يؤمن مصدراً آخر لتسليحه أو لبناء ترسانة قوية ضد أي اعتداء مستقبلي لا سيما بعد أن رأى تباطؤ الحكم الثنائي وتلكؤه في إمداده بما يحتاجه من سلاح وذخيرة، بل اعتداءه على أسلحته التي استوردها من أرض الحجاز. بيد انه في الوقت ذاته لم يوصد الأبواب تماماً تجاه طلباته المتكررة للحكومة الثنائية بتزويده بأسلحة وجبخانة. لأن ما لديه من أسلحة وجبخانة قد نفقت في حروب أهلية في الصعيد [66] .ونجح سلاطين في أن يحافظ على هذا الخيط الرفيع بإرساله بندقيتين ومائتي طلقة له[67]. إشعاراً للسلطان بأن الحكومة لا تمانع من تزويده بما يحتاجه من أسلحة ولكن بقدر وبحساب دقيق. وقام سلاطين من

(64) سلاطين إلى السلطان في 1911/4/18م ربيع الثاني 1329هـ S.N.A Intel 7/3/12

(65) حاكم الأبيض إلى حاكم كردفان في 1911/4/30، 30 ربيع الثاني 1329هـ S.N.A Intel 1/1/2

(66) السلطان إلى سلاطين في 1911/4/30، ربيع الثاني 1329هـ S.N.A Intel 1/1/2

(67) علي دينار إلى سلاطين في 4 مايو 1911م، 11 جمادي الأولى 1329هـ S.N.A Intel 7/2/13

جانب آخر بتهديد ناظر الكبابيش وتوجيهه بعدم الاعتداء على دارفور وإلا فسيعتبر متواطئاً مع الحكومة الثنائية. وأشار ناظر الكبابيش في رده علي سلاطين بأن هناك عداوة قديمة بينه وبين السلطان. وحاول الأخير استمالته إليه فرفض لذا حاول السلطان الانتقام منه والكيد به [68].

هذه المحاولة كان القصد منها تهدئة السلطان والاحتفاظ بصفحته مفتوحة. ويبدو أن قبيلة الكبابيش قد تجاوزت الحد المرسوم لها، وفجرت في اعتداءاتها مما اقتضى تنبيهها من قبل سلاطين. وإلا فإن هجمات الكبابيش التي أغضبت السلطان على سلاحه كانت بإيعاز من الحكومة. هذا في الوقت الذي هدأت فيه العاصفة الفرنسية على حدود دار فور الغربية. وبدأ السلطان يشكو من ظاهرة جديدة مقتضاها تهرب بعض القبائل من دفع الضرائب ولجوئها إلى أم درمان وكردفان. الأمر الذي سيعطل دفع الالتزام السنوي للحكومة. لذا طالب الحكومة الثنائية بردهم إلى ديارهم بدلاً من إيوائهم [69]. ولم تطل فترة الهدوء تلك حيث عاد السلطان من جديد يشكو الإعتداءات الفرنسية على حدوده الغربية. ويستعجل الحكومة الثنائية في أمر الوساطة المزمعة لحل الإشكال القائم. ويعد بأنه على استعداد تام لتسهيل أمر المفاوض ومعاونته لأداء مهمته حتى يعبر الحدود [70]. جاءت هذه الخطوة بعد خطاب سابق أوضح فيه استمرارية الاعتداءات الفرنسية على حدوده بقوله: (إن جنود فرنسا لم يزالوا من التمادي والتعديات في الحدود ... وعلى الدوام أياديهم متطاولة في الحدود بالضرب ومخادعة الأهالي وتحصيلات الأموال منهم بوجه الخدعة ولم تحصل لنا راحة من جهتهم ... أرجو أن تعملوا الوسايط اللازمة التي ترد جنود دولة فرنسا في التعدي على حدود دارفور) [71]. هذا الخطاب يعكس مدى اهتزاز ثقة السلطان أو ضعفها على الأقل فيما تقوم به الحكومة الثنائية من مساع. وقد راودته الشكوك حول إمكانية اتفاق الطرفين ضده وكشف عن طويته بقوله: (إذا كان تعديهم هذا من معاملة الحكومة فرنتجي

---

[68] سلاطين إلى ناظر الكبابيش في 11 مايو 1911م ورده في 13 يونيو 1911م، 14 جمادي الثاني 1329هـ
S.N.A Intel 1/5/12

[69] السلطان إلى سلاطين في 1911/11/21م ، 25 ذو القعدة 1329هـ S.N.A. Intel 7/2/13

[70] السلطان إلى سلاطين في 1911/11/21م، 25 ذو القعدة 1329هـ S.N.A Intel 7/2/13

[71] السلطان إلى سلاطين في 20ذو العقدة 1329هـ، 1911/11/16م S.N.A Intel 7/2/13

عدالتها أنها تكفهم عنا وتمنعهم من التعديات علينا وإن كان ذلك معاملة بينهما وبين الحكومة فقد فوضنا أمرنا لله ... والموت سبيل الأولين والآخرين وهذا آخر خطابي لجنابكم) (72).

لا شك أن هذا الخطاب وما احتواه من مرارة يشكل مرحلة حرجة في مسار العلاقات الثنائية الفوراوية. حيث بدأ السلطان يشك في العلاقات القائمة بين بريطانيا وفرنسا. وتأكد السلطان من أنه مستهدف من قبل القوتين الأوروبيتين ولحظتها أعلن استعداده لمواجهة كل الاحتمالات(73) . حاولت الحكومة الثنائية إثناءه عن هدفه باللجوء إلى الوعود السابقة. واستجاب السلطان بأمانة للطلب بعدم الاعتداء على القوات الفرنسية وتحلى بالصبر على أمل أن تحقق الحكومة التزاماتها إزاء الاعتداء الفرنسي(74). ورفع شكواه تارة أخرى معلناً أنه بالرغم من التزامه خط الحكومة القاضي بالتحلي بالصبر إلا أن الفرنسيين لا زالوا متمادين في اعتداءاتهم وإقدامهم على جمع الضرائب من رعاياه وهو لم يحرك ساكناً أملاً في حلول الحكومة الثنائية (75). وما أن هدأت الأحوال على الحدود الغربية حتى فتح عليه الكبابيش جبهة أخرى وتوالت شكاوى السلطان ضدهم طلباً من الحكومة إخضاعهم ورد ما سلبوه (76). ونتيجة لتكرار الشكاوى أجرت الحكومة الثنائية تحقيقاً شكلياً لم يأت بثماره المرجوة. لذا اقترح سلاطين تكوين دوريات على الحدود من شأنها رد الاعتداء والمحافظة على الأمن في المنطقة، والحيلولة دون وقوع نزاع بين الأطراف المتنازعة. وأشار سلاطين إلى أن الحكومة الثنائية ستقوم بتكوين دورية تجوب دار الكبابيش لنفس الغرض. وأورد سلاطين إستفساراً في الخطاب الذي بعث به إلى السلطان عما إذا كان الفرنسيون قد دخلوا داري تاما والمساليت أم لا؟ حتى يمكن أن تتدبر الحكومة أمرها إن كانت الإجابة بالإيجاب (77). هذا في الوقت الذي بدأت فيه شكوى السلطان تقوى تجاه الحكومة إزاء معالجتها للمشاكل القائمة بينه وبين الكبابيش أو بينه وبين الفرنسيين.

(72) السلطان إلى سلاطين في أول محرم 1330هـ، 27/12/1911م S.N.A .Intel

(73) P. M Holt op. cit. pp. 125

(74) الحاكم العام إلى كلاتيون في 3/1/1912م S.N.A. Intel 7/5/13

(75) السلطان إلى سلاطين في يناير 1912م S.N.A .Intel/1/1

(76) السلطان إلى سلاطين في 28/2/1912م 10 ربيع أول 1330هـ S.N.A Intel 7/2/14

(77) سلاطين إلى السلطان في 3 ربيع الأول 1310هـ 21/2/1912م S.N.A Intel 7/3/13

بشأن الكبابيش لم يحصل السلطان علي غير الوعود الكاذبة والتباطؤ والميل نحوهم من قبل الحكومة الثنائية وقد أشار إلى ذلك بقوله: (فالآن ما دام كلامي صار عندكم كذب ومنبوذ فأنتم مخيرين – أي علي الخيار بمعنى أنتم أحرار في اختياركم)[78]. وأكد انه قد ردع قبيلتي الميدوب والزغاوة اللتين له عليهما سيادة بغية منعهما من الاعتداء على كردفان وإن شاء الله تاني مرة ما تسمعوا من قبيلة الميدوب أو قبيلة الزغاوة لأنهم ارتكبوا أمراً منكراً فإننا نحكم بكتاب الله وسنة رسوله. وأنتم تحكموا بالقوانين[79].

مما لا شك فيه أن الجزء الأول من كلامه يشير إلى اليأس والإحباط تجاه معالجة الحكومة لرعاياها مما يدل على أن هناك تواطؤاً بينها وبين هؤلاء الرعايا ضده. والجزء الثاني فيه تعريض بقوانين الحكومة. حيث أن الحكم بكتاب الله يقتضي العدل والحكم بالقوانين الوضعية لا يحقق العدالة والردع المطلوبين بين الأطراف المتنازعة. وهذا الخطاب من ناحية يُدل على اعتزازه بقدراته وبهويته الإسلامية وبموروثة الحضاري والثقافي والاستخفاف بموروث الإنجليز القانوني عبر التاريخ. أما مسألة تعديات القبائل وخروجها عن حد المألوف فيما بينها تؤكد على ما سبق تقريره بأن أقدارها الثقافية والاقتصادية ذات دور فاعل في هذه الصراعات فيما بينها. ولم يكن العامل السياسي بأي حال من الأحوال واحداً من العوامل المؤثرة علي ما يجري في دارفور الآن كما يدعي كثير ممن يجهلون تاريخ دار فور وتكويناتها القبلية والثقافية والاجتماعية والحضارية سواء من السياسيين أو تجار السياسة أو من أدعياء الأكاديمية والبحث المجرد أو من الدول ذات الأطماع في هذه المنطقة.

أما فيما يتعلق بالنزاع بين الفرنسيين ودار وفور حول الحدود رأى السلطان أن وعود الحكومة الثنائية لا تعدو عن كونها سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً وأشار إلى ذلك بقوله: (... على أنه سيادتكم كنتم بينتم لأصحاب الحل والعدل بين دولة إنكلترى ودولة فرنسا لأن دار تاما ودار مساليت تابعة لدار فور.

---

(78)السلطان إلى سلاطين 23 ربيع الأول 1330هـ 1912/12/27م S.N.A Intel 7/2/14

(79)السلطان إلى سلاطين في 23 ربيع الأول 13130هـ، 1912/12/27م S.N.A Intel 7/2/14

وكنتم أخبرتمونا على أن دولة فرنسا كفت أيديها من تلك الجهات فهذا كلام ساكت لغاية يوم تاريخه. جنود فرنسا عاملين المتديرات والنقط فيها واستملكوها)[80]. الكلام الماضي يرسم تحدياً مكشوفاً، ويرسم صورة واضحة لإسلامية السلطان واعتزازه بما يملك من تراث. والجزء الآخر مما مضي يعكس مدى درجة الإحباط التي وصل إليها السلطان بشان الوعود التي قطعتها له الحكومة الثنائية. حيث رأى أن هذه الوعود لا تعدو عن كونها سراباً خادعاً هذا فيما يتعلق بالغزو الفرنسي أما عن وجهة نظره بشان اعتداءات الكبابيش المتكررة فهو يرى إما أن تمنعهم الحكومة أو تأذن له بردعهم حيث يقول: (... فان كان عربان الكبابيش ممتثلين لأوامر الحكومة تمنعهم من اعتداءاتهم علينا وإن كان مخالفين أوامر الحكومة فنرجو أن الحكومة تفيدنا وتسرح لنا نأمروا الأهالي يشنوا الغارات عليهم بمثل فعلهم)[81]. مما لا شك فيه أن الذي يشير إليه السلطان في هذا الخطاب يفسر كثيراً من الأحداث الجارية الآن في دارفور، ويؤكد على أن الحراك القبلي في دارفور هو حراك ثقافي بحت يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأقدار هذه المنطقة الثقافية والاجتماعية أكثر منها العرقية والسياسية. وفي هذه الأثناء تزايدت شكوى الحكومة الثنائية إزاء استيراد علي دينار الأسلحة من ليبيا. وقد قام المفتش بتنبيهه بأن ذلك يعتبر إجراءً ممنوعاً وأن حيازة الأسلحة غير مصرح بها. حيث إن بعض القبائل (الحدودية) حاولت استغلال ذلك الموقف ودرج بعض أفرادها على الادعاء بأنهم موفودون من قبل السلطان لاستيراد الأسلحة لكي ما تقوى نفوذها وتبني نفسها حربياً تحت هذه المظلة. الأمر الذي أزعج الحكومة فاقتضى ذلك التنبيه. أما فيما يتعلق بعلاقته بالكبابيش فيبدو أنه لجأ إلى نفس الأسلوب الذى اتبعه الكبابيش في إضعاف موقفه إزاء الحكومة واتهامهم له بتهريب الأسلحة مما حدا بالمفتش العام أن يطلب منه القبض على المعتدين من رجالاتهم وأن يرد الإبل المسلوبة[82].

(80) السلان إلى سلاطين 21 ربيع الأول 1330هـ 1913/2/27م S.N.A Intel 7/2/14

(81) علي دينار إلى سلاطين في ربيع الأول 1330هـ ، مارس 1912م S.N.A Intel 7/2/14

(82) سلاطين إلى السلطان، خطابين الأول 2/24 والثاني 2/28 /1913م 7/2/2 S.N.A Intel

مما لاشك فيه أن المبررات السابقة التي قادتها الحكومة الثنائية لا يستبعد افتعالها لأن الذي أزعج الحكم الثنائي فعلاً هو تزايد قوة السلطان وعجزها في ذات الوقت عن حمايته أمام الزحف الفرنسي. وشعوره هو من جانب أخر بمواجهة الموقف بمفرده ووقوعه بين مخلبي قوتين استعماريتين. ودرجت الحكومة الثنائية على التبريرات. ففيما يتصل بالكبابيش فقد اتهم السلطان مفتش بارا بالتواطؤ مع الكبابيش وأخذ الرشوة منهم مقابل تقاضيه عن هجومهم على الحدود [83]. فقام سلاطين برد الاتهامات التي أوردها السلطان بأن الحكومة بدأت تستمع لأقوال الكبابنيش ضده. ونفى سلاطين أن يكون مفتش بارة قد رفع تقارير ضد السلطان للحكومة الثنائية. وعرض سلاطين بحكم السلطان بالشريعة بديلاً عن القوانين الأوروبية معللاً اعتزازه بها. حيث قال: (... إن الحكومة بقوانينها السياسية ومبادئها المدنية قد انتصرت على الخليفة وشتت شمل أعوانه وأنقذتك أنت وكافة أهل البلاد من مخالب ظلمه واستبداده وسهلت لك العودة إلى بلاد آبائك وأجدادك ... أنكم تفخرون بأنكم قادرون على ضبط الرعية وأنكم تحمونهم بموجب الشريعة المحمدية... أن الحكومة بقوانينها السياسية ومبادئها المدنية قد انتصرت)[84]. بهذا القول كأنه أراد إقناع السلطان بالعدول عن حكمه بالشريعة والإلقاء في روعه أن حكم الشريعة لم يغن عن السلطان شيئاً. لأن الحكومة بنظامها المدني وقوانينها الوضعية حققت الانتصار على نظام جثم على صدر الأمة في زعمه. هذا بالرغم من أن هذا النظام هو نظام وطني قد جاء في شكل ثورة شعبية وصلت الحكم بدعم شعبي منقطع النظير في التاريخ الحديث والمعاصر باستثناء الثورة الإيرانية. وذلك من حيث الفكرة والأدوات والأهداف. بينما الحكم الثنائي كان مظهراً من مظاهر الاحتلال ليس إلا، جاء متدثراً بثوب المدنية والحرية والعدالة زوراً وبهتاناً، والواقع السوداني قبل مجئ الاحتلال كان خلاف ذلك. إذ أن حكم الخليفة عبد الله لم يعد عن كونه حكماً وطنياً إسلامياً، وأن الثورة المهدية كانت تشكل انتفاضة شعبية ضد الوجود الأوروبي بالبلاد، والقوانين التي حكمت بها الثورة البلاد كانت تنبع من عقيدة الأمة ومثلها وبهما تتحقق الأصالة ويتأكد الانتماء. وان الذي جرى على الساحة من انتصار

---

(83) السلطان إلى سلاطين في 1912/2/28م . S.N.A Intel 7/2/14

للجيش الغازي فقد انتصرت قبله المهدية وحققت أضعاف ما حققه الجيش الغازي ولكنه تزوير للتاريخ وتجيير للحقائق. إذ لا يخفي أن الحركة المهدية في عنفوان حركتها هزمت القيادات الإنجليزية في مواقع مختلفة وفي مواطن كثيرة بقوة الإرادة واتحاد الكلمة والتفاف الجماهير حول قيادة كانت أنموذجا فريداً توفرت فيه مواصفات القيادة المثال، وخرج الإنجليز منكسرون يجرجرون ثوب الخيبة والهزيمة. وعلى كل يبدو أن افتخار السلطان بالشرع ... يمثل خطوة أخرى في طريق بلورة اتجاهاته الإسلامية لدرجة أغضبت القيادة الإنجليزية وجعلت الحكم الثنائي يتناولها في المراسلات الرسمية مع السلطان علي هذا المستوى من الجدية ويمنحها هذه المساحة من النقاش بين الطرفين.

وحاول سلاطين في خطابه السابق أن يقرر مغالطة مؤداها أن الذي جاء بالسلطان إلى العرش ليس حكمه بالشريعة وإنما الحكم بالقوانين الوضعية. ومن المعلوم أن السلطان جاء بتخطيط فوراوي خالص مدروس ومستقل تماماً عن الجيش الغازي. وأن السلطان قد انتزع العرش عنوة من منافسيه دون مساعدة أو استمداد شرعية من أحد. وما كان من الحكومة الإنجليزية والقيادة الإنجليزية على كل مستوياتها إلا أن تعترف بالأمر الواقع وتبارك تسنمه عرش آبائه وأجداده عن جدارة لا سيما وقد تربع على دينار على عرش آبائه وأجداده عنوة دون منة أو تأييد من أحد أو جهة.وفي يوليو تجددت شكاوى السلطان ضد قبائل الكبابيش ورد مدير كردفان بقوله: (... أن كل فئة تشكو الأخرى وتتظلم وتقيم على ذلك الأدلة والبراهين وهذا ما يجعلني غير قادر على إصدار قراراً نهائياً)[85]. هذا التقرير يعكس مدي الفوضى واللامركزية التي ظلت تعيشها هذه القبائل التي لا تخضع لسلطة مركزية والتي لا تلين قناتها لقانون أو نظام وفقاً لطبيعتها البدوية وكيمياءها الثقافية.بيد أن ذلك التفلت من الخضوع للأنظمة والقوانين لم يمنع هذه القبائل من الاستفادة منها في إثارة الطرف الآخر. وطلب مدير كردفان أجراء مواجهة بين شيوخ القبائل الحدودية المتنازعة بغية التحقيق على ذلك

---

[84] سلاطين إلى السلطان في 1912/4/21 S.N.A Intel 7/3/13

[85] مدير كردفان إلى السلطان، أول يوليو 1912م رمضان 1330هـ S.N.A Intel 7/3/13

يساعد في الوصول إلى الحقيقة وحتى تتمكن الأطراف الحاكمة من فض النزاع القائم[86] . وفي هذه الأثناء لم يدع السلطان فرصة واحدة تمر دون أن يطلب أسلحة، فبمناسبة بلوغ أبنائه الحلم طلب تزويده بعشرة بنادق لتسليحهم[87].

وفي هذه السنة قام بإرسال الالتزام السنوي للخرطوم. وقد ساد خلال هذه الفترة هدوء نسبي على الصعيدين الفرنسي و(الحدودي القبلي) بيد أن عمليات السرقة والنهب لم تتوقف. مما استدعى طلب تصريح لكل من يأتي بغرض التجارة إلى دار فور... ووافقت الجهات المسؤولة في الحكومة الثنائية على طلب السلطان بهذا الصدد[88].

وبحلول نوفمبر تجددت نغمة المفاوضات بشأن حدود دار فور الغربية، حيث رفع سلاطين مذكرة إلى الحاكم العام دعم فيها وجهة نظره القائلة بتبعية دار تاما لدار فور، وقاد أدلة منها زواج السلطان بابنة سلطان دار تاما. وأكد علي أن اتفاقاً قد تم عقده بين الطرفين قبل قدوم الفرنسيين إلى ودّاي. وأن المندوب الفرنسي وافق على بعث سفارة من السلطان إلى دار سلا[89]. يدل ذلك على أن سلاطين قد أولى أمر الحدود الغربية والحفاظ على علاقة السلطان بالحكومة عناية فائقة. وكان يشكل حلقة وصل ناجحة. وكانت صلته بالحاكم وثيقة، وصداقته به حميمة، الأمر الذي أدى إلى تبني الحكومة الثنائية وجهة نظر سلاطين القاضية بالتصلب تجاه الاعتراف بداري تاما والمساليت أولاً ثم تخطيط الحدود ثانياً. وذلك في أي مفاوضات يمكن إجراؤها بشأن حدود دار فور وودّاي [90].

بذا تكون الحكومة الثنائية قد أوفت بعهودها تجاه السلطان وحققت هدفها الاستعماري القاضي بتبعية دار فور ولو اسمياً لها أثناء الاحتلال. واستغلت الحكومة الثنائية قضية السلطان والالتزامات تجاهه حتى تفوت على فرنسا فرصة التوسع نحو الشرق. كما أنها كانت تخشى من الصدام المسلح أو انحياز السلطان إلى فرنسا إذا لم

---

(86) I bid

(87) السلطان إلى سلاطين في 1912/7/12، 9 رمضان 1330هـ S.N.A Intel 7/2/20

(88) مفتش كردفان إلى حاكمها في 1912/9/24م والرد عليه في 1912/9/26م S.N.A Intel 7/2/20

(89) سلاطين إلى الحاكم العام في 1912/11/12م S.N.A Intel 1/1/2

(90) الحاكم العام إلى اللورد كتشنر في 1912/11/23م S.N.A Intel 1/1/3

يقتنع بجدوى مساعي بريطانيا الدبلوماسية. وحاولت الحكومة الثنائية خلال هذه الفترة توفير طلبات السلطان بقدر. يتضح ذلك من قول سلاطين: (... قد اجتهدت مع جناب مساعد مدير المخابرات وتحصلنا على خمسة بنادق فقط وثلاثة طبنجات وجدناها أما بقية الأسلحة فقد كتبنا عنها إلى أوربا لأجل إرسالها بدون أدنى تأخير) (91). أبدى الحاكم العام موافقته على إجراءات المفتش هذه بتوفير طلبات السلطان وأعرب عن شكره لما وصله من هدايا من دار فور (92).

يلاحظ انه خلال هذا العام حاولت الحكومة الإبقاء على الأوضاع الراهنة كما هي والعمل علي كفكفة نفوذ السلطان واتصالاته الخارجية دون علمها. وحاول السلطان من جانبه أن يخلد إسمه على عادة السلاطين والحكام. حيث وردت الإشارة إلى أنه قد قام بكتابة كتاب يحكي قصة حياته وأرسل إلى وكيله في القاهرة ليقوم بطبع ذلك الكتاب. بيد أن السلطات الثنائية ما أن نما إلي علمها ذلك الأمر حتى بذلت جهودا ملحوظة لإبطال مفعول أخراج هذا الكتاب في حينه. حيث رأت الحكومة الثنائية في طبع ذلك الكتاب الذي أسماه (العمران) (93) خطورة على الوجود الثنائي في البلاد. وكان الحاكم العام يرى أن هذا الكاتب قد يكون لـه أكبر الأثر في إثارة الشعب من جديد ضد النظام الإنجليزي المصري في البلاد(94).

هذا بالإضافة إلى أن طبع مثل هذا الكتاب سيعمق الروح الاستقلالية لدى شعب دار فور. فيما يبدو أن السلطان ما كان ليذر فرصة تمر دون أن يستغلها لصالح بلاده وتوطيد مركزه. ومن جانب أخر يعكس ذلك السلوك الأوروبي مرارة التجربة الغربية التي تتشدق بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان حتى أنها لا تسمح بنشر سيرة ذاتية لشخصية قيادية في وطنها. أن هذه المفارقة العجيبة لم تحدث في العصور الوسطي ولا في التاريخ القديم وإنما حدثت في الربع الأول من القرن العشرين وهو تاريخ معاصر.

(91) الحاكم العام والمفتش العام إلى السلطان في 24– 1912/12/25م S.N.A Intel 7/3/13

(92) الحاكم العام والمفتش العام إلى السلطان في 24– 1912/12/25م S.N.A Intel 7/3/13

(93) لم أتمكن من العثور عليه أثناء جمعي للمادة ولم أحصل على إشارة له في المجموعات التي قمت بدراستها. ولا يخفى أن العثور عليه بإمكانه إثراء سيرة السلطان أن وجد.

(94) يونان لبيب رزق. مصدر سبق ذكره ص 234 – 238.

وحدث من قبل دولة تدعي احترام الدستور وحقوق الإنسان وحق التعبير. مما لا شك فيه أن كتابة سيرة ذاتية من قبل السلطان هو حق مشروع يقره القانون الدولي والدساتير الإقليمية، فكم الآن من إصدارات لا تساوي ثمن الحبر الذي كتبت به تحكي سيرة من لم يبلغ أظفار علي دينار وطنية ومقاومة للوجود الأجنبي بالبلاد، بينما الأحفاد الآن يرتمون في أحضان الغرب ويرضعون من ثديه، إن لم نقل في حقهم أسوأ من ذلك مما نعرفه ومالا يطيق سماعه أهل الأدب والحياء والخلق الرفيع.

وخلال فترة الاحتلال الفرنسي لحدود دار فور الغربية منذ أكتوبر 1909 وحتى نهاية سنة 1912م قام السلطان بالاستعانة بالحكومة الثنائية مرحلياً لدفع الخطر عن بلاده. بيد أن الحكومة الثنائية بالإضافة إلى عجزها عن أن تعمل شيئاً لم تخف مخاوفها تجاه السلطان حيث ظهر ذلك في عبارات دبجت بها معظم الخطابات المرسلة إلى السلطان وهي (ما دمتم مواليا) ... (ما دمتم وافيا) ... (ما دمتم مخلصاً) مما يدل على عدم الثقة ومدى الشك والريبة التي كانت تراود الحكومة الثنائية تجاه السلطان. وببداية سنة 1913م تجددت المباحثات بين كل من انجلترا وفرنسا حول حدود الحدود الغربية لدار فور ودار الخلاف بين الدولتين حول الأولويات. هل يتم بحث ملكية دار تاما ودار مساليت أولاً أم لا؟ فقد كانت وجهة النظر الفرنسية ترى بحث ملكية المناطق المتنازع عليها أولاً. بينما كانت وجهة النظر الإنجليزية ترى ضرورة الاعتراف بتبعية دار تاما ومساليت أولاً لدارفور ثم تخطيط الحدود [95]. هذا ما سبقت الإشارة إليه وببداية سنة 1913م. ونتيجة لهذا الخلاف فقد ترك انجلترا الأمر لجراي وزير الخارجية البريطانية لدعوة فرنسا لعقد مؤتمر ثنائي لبحث ملكية مناطق بعينها[96] سواء في باريس أو لندن ونال هذا الاقتراح تأييد كل من سلاطين والسير ونجت والمعتمد البريطاني بالقاهرة (المندوب السامي). ولكن الحكومة الفرنسية استمرت في تسويف الأمر. وطفق السلطان مواصلاً شكواه ولكن دون جدوى. وبدأ التبرير لهذا التأخير من قبل سلاطين بأن الدول الكبرى مشغولة بمسألة كبرى وهي قضية الصلح بين الدول المتحاربة (دول البلقان وتركيا)[97].

(95) الحاكم العام إلى كتشنر في 1913/1/16م S .N.A Intel 1/1/3

(96) وزير الخارجية البريطانية إلى اللورد كتشنر في 1913/1/17م S .N.A Intel 1/1/3

(97) سلاطين إلى السلطان في 1913/1/21م S .N.A Intel 7/3/4

وفي هذه الأثناء ورد من الحكومة الفرنسية خطاب في معرض ردها على تعيين الحدود مقتضاه بأن هذا لن يتم إلا إذا فرضت الحكومة الثنائية سيطرة تامة علـــى دار فور وأحيل هذا الأمر إلى القاهرة ومن ثم إلى الخرطوم. واعترض عليه سلاطين باشا سنة 1913م. لأن ذلك مكلف كما لا توجد قوة عسكرية يمكنها القيام به بما يلزم لتنفيذ هذا الإجراء. إضافة إلى أن ذلك أن تم يعتبر خرقاً صريحاً للاتفاق المبرم مع السلطان والقاضي بأن يكون حاكماً لبلاده مدي الحياة ما دام مخلصاً وفياً للحكم الثنـــائي. ويردد كتشنر نفس الآراء التي أوردها سلاطين[98] . ولكن يبدو أن فرنسا تنفيذاً لاستراتيجيتها المتعارضة مع استراتيجية بريطانيا في المنطقة كانت تعني ما تقـــول بقيـــة إحـــراج الحكومة الإنجليزية وإضعاف قوتها ووجودها في السودان ومن ثم مصـــر. لقـــد رأى سلاطين والحاكم العام: (إن وقتاً كبيراً قد ضاع في سبيل تبادل وجهات النظر وتجميع الوثائق اللازمة لبحث الأمر) [99]. ويبدو أنهما قد أدركا تسويف فرنسا. وفي المقابـــل تنازلت بريطانيا فاقترحت أن يترك هذا الأمر للوسطاء بعد أن تعزز التقاء المسؤولين المباشرين من قبل الدولتين[100]. ويبدو أن فرنسا قد استمرأت سياسة التسويف. وبـــذل سلاطين كل ما في وسعه لتهدئة السلطان وأنفق آخر ما في جعبته من تبريرات كمـــا مر. وقبل أن ينال الاقتراح البريطاني موافقة الفرنسيين بشأن اقتراح الوسطاء بـــدأت الحكومة الثنائية في تجميع الأدلة اللازمة استعداداً لعرضها على الوسطاء فـــي حالـــة موافقة الفرنسيين [101]. وخلال هذه الفترة قام السلطان بالاتصال المباشر بالفرنســـيين الأمر الذي أزعج الحكومة الثنائية لما بين الدولتين من تنافس استعماري. هذا رغمـــاً عن الصداقة الظاهرة بينهما [102]. ولم يقطع السلطان علاقته بالحكومة الثنائية حيـــث أرسل التزامه السنوي وأعلن المفتش بقوله: (واصلين إليكم أولادنا ... الدودة وما معه لأجل تسديد الجعل المقرر للحكومة سنوياً)[103]. وفي يونيو من ذات العام رفع سلاطين

---

(98) bid

(99) د. يونان لبيب رزق، ص 254 – 256

(100) الحاكم العام إلى كتشنر في 1913/2/2م ورده في 1913/2/4م S.N.A Intel 1/1/3 .

(101) نفسه S.N.A Intel 1/1/3

(102) من سلاطين إلى السلطان في 1913/4/28م S.N.A Intel 7/3/14

(103) السلطان إلى المفتش في 1913/5/26م، 1331/4/23هـ S.N.A Intel 7/3/1

مذكرة تعكس وجهة النظر الرسمية داخل أروقة الحكومة الثنائية. حيث رأت الحكومة في حالة عقد مؤتمر الوسطاء لا بد من استدعاء ثلاثة أشخاص والاستماع لرواياتهم بصدد تحديد الحدود. أول هؤلاء الزبير باشا الذي غزا دار فور سنة 1874م. والثاني سلاطين باشا الحاكم لدار فور (1879-1881). والثالث النور عنقرة حاكم كبكبية (1878-1881) وثلاثتهم أحياء. وقدم سلاطين في 6/20 مذكرة عضد فيها بأدلة قوية تبعية هذه المناطق لدار فور وعدم أحقية ودّاي بها[104].وراودت السلطان فكرة إصدار سجل حافل عن حياته وجمع ذلك في كتاب حاول طبعه في القاهرة كما مر. ولما فشلت محاولته الأولي حاول هذه المرة أن يستغل علاقته بالحكم الثنائي لخدمة هذه القضية بيد أن وجهة النظر الثنائية كانت لا تزال ترى في طبع هذا الكتاب خطورة على الاستقرار السياسي في البلاد. وان ذلك السفر سيخلق منه زعامة دينية وسياسية تشكل خطورة علي الوجود الأجنبي بالبلاد ويرسخ أقدامه. وقد يهز ذلك كيان الحكم الثنائي في البلاد. لذلك حاول سلاطين إثناءه بأسلوب ماكر فيه دهاء مقتضاه أن سيرة الرجال لا تكتب عنهم إلا بعد مماتهم. وان طباعة هذا الكتاب سيؤدي إلى الطعن في شخصيته. لذا يطلب منه أن يؤجل طبعه في الوقت الراهن[105]. هذه محاولة جادة من قبل السلطات الثنائية لعزل السلطان وإضعاف صورة وجوده. ومحاولة محو أي أثر له يمكن أن يشكل جذوة أو رمز مقاومة واعتزاز بالذات ضد الوجود الأجنبي بالبلاد. وفيما يتصل بالحدود فقد ساد الحدود الغربية هدوء تام. وترك الأمر للمساعي الدبلوماسية. ووافق السلطان على فتح حدوده مع ودّاي . بيد أن ذلك الإجراء لم يصحبه هدوء على الحدود الشرقية حيث قام مساعد مدير المخابرات بشكوى رعايا السلطان لما قاموا به من اعتداءات على رعايا الحكومة. ونفى السلطان من جانبه هذه الادعاءات ووصفها بأنها وشايات كاذبة بقوله: (ربما عربان حمر يريدون بها إثارة الفتن والشواشر في دار فور ويلقون لجنابكم فيها الدعاوى الكاذبة)[106].

---

(104) مذكرة سلاطين في 1913/6/20م S.N.A Intel 1/1/3.

(105) المفتش العام إلى السلطان في 1913/7/28م S.N.A Intel 7/3/1.

(106) ثلاثة خطابات السلطان إلى مساعد مدير المخابرات 1913/8/22م، 1331/9/19هـ . S.N.A Intel 7/2/20 .

وعلى صعيد آخر بدأ السلطان يتذمر من تهديدات الحكومة الثنائية تجاه علاقاته الخارجية بدولة فرنسا وذلك بعد يأسه من الوعود التي أضحت كالسراب. مشيراً إلى ذلك بقوله: (وكنتم خابرتموني بعدم المنزعة معهم في الحدود وبشرتموني مراراً إنكم تجرون راحتي منهم في حدود آبائي وأجدادي ولذلك تنازلت عن منازعتهم... وللآن لم يحصل لنا منهم راحة)[107]. هذه العبارات القوية والصريحة تؤكد على أن الحدود التي يحكمها والمنطقة الواقعة تحت سيطرته هي منطقة وحدود آبائه وأجداده، وبالتالي لا مجال لمنة أحد عليه بتنصيبه أو توليته عليها فهي حق وإرث تاريخي دون منازع. أما بشان علاقاته بفرنسا وتهديدات الحكومة الثنائية له فأشار بقوله: (وأما من جهة كوني نواصل فرنسا بصفة الخضوع أو الانكسار فحاشا وكلا)[108]. وعن التهديدات قال: (فأني أرى في بعض المكاتبات التي تصدر لنا من جانبكم تحررون إلينا بالتهديدات فما السبب وعلى أي شيء تهددوني. إذ أني بفضل الله ليسني من الناس الذي يلينهم التهديد واعلموا أني لا أخشى من مخلوق إلا من الله)[109]. هذه هي الشخصية الفوراوية شخصية عنيدة وجبارة. من هذا النص يبدو أن العلاقات الفوراوية الثنائية وصلت حد المفاصلة وظهر السلطان على حقيقته. وبدت شخصيته المستقلة القوية التي لا تلين قناتها لتهديد، وبدأ واضحاً أن الحكومة الثنائية لا تملك إملاء سياسة بعينها عليه وأن التهديد لا يجدي معه فتيلاً. وفي هذه الأثناء قام بتهديد قبيلة الرزيقات[110]. التي ربما رأى في إزاحتها حلاً لمشاكل بلاده الداخلية أو لربما كان قصده من ذلك لفت نظر الحكومة الثنائية إلى قوته وإمكانية المقاومة لها.

واقتنعت الحكومة الثنائية من جانبها بأنه ليس-أمامها من سبيل أو إمكانية لفرض سياستها أو نفوذها على السلطان داخلياً أو خارجياً. وأقرت بذلك على لسان ستيوارت بقوله: (ولا نملك الفرصة لإبلاغ السلطان بأنه يعمل بصورة غير شرعية فيما يتصل بالشؤون الخارجية أو الإدارة الداخلية للسلطنة)[111]. هذا النص يؤكد وضعاً مستقلاً لدار فور ويقرر وجود علاقة خارجية لها. وأن الحكومة لا تملك فرض سياسة معينة

(107) السلطان إلى سلاطين 1913/8/4م، 1331/9/22هـ 1331هـ S.N.A Intel 7/2/15 .
(108) السلطان إلى سلاطين 1913/8/4م، 1331/9/22هـ 1331هـ S,N.A Intel 7/2/15 .
(109) السلطان إلى سلاطين 1913/8/4م، 1331/9/22هـ 1331هـ '' S.N.A Intel 7/2/15
(110) استيورات إلى الباشا في 1913/9/22م S. N.A Intel 1/1/3
(111) استيوارت إلى الخديوي في 1913/9/22م S.N.A.Intell 1/1/3

عليها سواء في الداخل أو في الخارج. ويشير من ناحية أخرى إلي عدم منطقية الوجود الإنجليزي في البلاد. بيد أن السياسية الغربية تاريخها الأسود في أفريقيا من جنوبها إلي شمالها لا تعرف المنطق لا سيما حين يتعارض أمر ما مع مصالحها الاستراتيجية في المنطقة. فيصبح حينئذ منطقها هو منطق الغاب كمّا هو الحال الآن في العراق وأفغانستان والجزيرة العربية وفي آسيا وأفريقيا عموماً. وفي الواقع فقد تمتعت دار فور بهذا الوضع المستقل منذ زمن بعيد حيث يذكر الرحالة (أنو. ف. ميلانسو) عن رحلته عبر دار فور في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. حيث قال: (ومن السودان عبرنا خلال كردفان ومن ثم إلى دار فور)[112]. هذه من الأدلة التاريخية القوية التي وردت في مكاتبات المخابرات الثنائية الرسمية والتي تؤكد علي أن دارفور قد تمتعت بوضعية خاصة ومتميزة عن غيرها من أقاليم السودان المختلفة مما يشكل عقبة في تجاوز الحكومة لحدودها واستيلائها على دار فور من يد سلطان يعتبر أن دار فور هي مهد سلطنة آبائه وأجداده .

وفي هذه الأثناء تجددت مشاكل الرزيقات بإيعاز من الحكومة الثنائية. وهي سياسية غربية قديمة حديثة معاصرة. حيث أن الفت في عضد الوحدة لا يتم إلا عن طريق استخدام عناصر محلية مغفلة نافعة، وبذكاء من قبل هؤلاء الغربيين الذي أصبحوا يمتلكون الآن قدرات أمنية ذات قدرات وإمكانات إعلامية هائلة بإمكانها جعل الحق باطلاً والباطل حقاً، وأجهزة استخبارات تتمتع بقدرة فائقة على تمرير كل الأجندة الخفية دون وعي أو إدراك من أدواتها المحلية المنفذة، أو عن طريق شراء ذمم من لا ذمة لهم ولا خلق كريم ولا أصول لهم أو لهن. لقد رأى السلطان انحرافاً يومها في سياسة الحكومة الثنائية تجاه موسى مادبو. وضاق ذرعاً بعصيان موسى مادبو وقومه وحماية الحكومة الثنائية له وإثنائها للسلطان عن مهاجمته أو تهديده فعبر عن ذلك الامتعاض بقوله: (وأما موسى مادبو جهته معلومة أنها تابعة لنا وجاهر بالعصاوة .. وأمهلناه ولم يرجع عن العصيان وفساده ... وصاروا أهل الدار يتطاولوا ويقتلوا المستخدمين ويتوجهوا لدار موسى يقيموا بها. وكثيراً ما تطاول وسعى في أمر الفساد وما دام أنه بالتبعية لي معاذ الله أن أتركه على هذا الحال) [113]. إن السلطان على

(112) المخابرات إلى الحاكم العام في 1913/10/6م S .N.A Intel 1/1/3

دينار هنا يتكلم باللسان الدارفوري الذي لا يعرف المهاودة أو التنازل. كما ويجسد ترجمة صادقة للتنافس القبلي والطبيعة الجغرافية والتربية والثقافة القبلية في دار فور.

هذا بالإضافة إلى أن مشاكل الحدود الغربية لا تزال تشكل حجر عثرة في وجه العلاقات الفوراوية الوداوية. وقد أشار إلى ذلك سلاطين في مقابلة صحفية بقوله: (أن مشكلة الحدود بين دار فور ووداي لا تزال قائمة ونأمل أن تحل هذه المشكلة بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية إما باتفاقية بين الدولتين أو بواسطة بين الدولتين) (114). من خلال هذا التصريح تتضح نوايا الحكومة الإنجليزية في تجاوز أهل البلاد الأصليين. إذ تنصب إنجلترا وفرنسا نفسيهما وصيتان على مقدرات الأمم والشعوب. وتعمدان إلى تغييبها عن اتخاذ القرارات المصيرية بشأن أوطانها. وهذا بالضبط ما يحدث الآن بواسطة كلٍ من الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا. الأمر الذي يدل على أن مشكلة الحدود لا تزال معلقة. وأن مشاكل الحدود قد تعذر حلها بالطرق الدبلوماسية. وإن لم يتعذر حلها فيمكن أن يقال أن الحلول الدبلوماسية ذات نفس طويل لا يقنع السلطان بجدواها. وفي الواقع فقد تقدمت فرنسا باقتراح مؤداه أن تقوم قوة ثلاثية مكونة من إنجلترا وفرنسا ومصر بغزو دار فور. وتخوفت الحكومة الثنائية البريطانية **من هذا الاقتراح لعدة أسباب:**

أولها: أن وجود القوات الفرنسية في كلٍ من دار تاما ومساليت ومشاركتها في قوات الغزو سيثبت حقها في هذه الأقاليم (الدار فوراوية). وبذات الدعوى التي تمكنت بريطانيا بموجبها من التواجد في السودان يمكن لفرنسا أن تثبت بها حقها الإحتلالي الإغتصابي في هذه المناطق في أي مفاوضات دولية قادمة .

ثانياً: عدم امتداد خط السكة حديد حتى النهود سيزيد من تكلفة الحرب والحكومة الإنجليزية المصرية غير مستعدة لذلك.

ثالثاً: هناك أمل كبير في خضوع علي دينار للحكومة الثنائية (115).

(113) السلطان إلى سلاطين 1913/10/24م، 26 ذو القعدة سنة 1331هـ S. N.A Intel 7/2/

(114) فاينانشيال تايم عدد 23 أكتوبر 1913م D.S.A Box.121

(115) المخابرات في القاهرة في 1913/10/28م S.N.A Intel 1/1/3

وفي هذه الأثناء تجدد عزم السلطان على تأديب الرزيقات وإن كانت الحكومة الثنائية لا تؤيد هذه الخطوة. ولكن حفاظاً على علاقتها بالسلطان قررت ردهم إلى ديارهم في حالة فرارهم إلى كردفان [116]. إرضاءً له ومحاولة لخطب وده ولو إلى حين. وقام سلاطين بالاعتذار عن أسلوبه بشأن علاقات السلطان مع فرنسا بقوله: (... أن جل ما أرمي إليه .. هو أن أخلص لكم النصيحة في كل أموركم وعلاقاتكم وواجباتكم نحو الحكومة) [117]. هذا الاعتذار يوافق موقف الحكومة وضعفها إزاء التدخل في دار فور في الوقت الراهن. إذ إكتفت بالحسنى حيث أنها لا تملك القوة لمواجهة الأمور بحزم في دارفور حالياً. فاقتضت الحنكة والسياسة استخدام مثل هذه الألفاظ الرقيقة والشفافة لتهدئة روع السلطان والمحافظة على وده .

بيد أن السلطان قد ازدادت شكوكه لاسيما بعد أن رأى تجاهلاً من قبل الحكومة البريطانية حقيقة، المصرية اسماً لشكواه وتغافلاً قد يكون مقصوداً إزاء الرد على رسائله فعبر عن ذلك بقوله: (كما أخبرتكم بكلام واقع .هنا لم تعتمدوا قولي ولم تصدقوا كلامي بل تجعلوه مكذوباً .. رفعت لكم مسائل كثيرة مراراً وتكراراً. وما أفدتموني عنها وقد تعجبت من ذلك وان كانت الحكومة نقضت عهدها معي نفاد من سعادتكم لنكون على بصيرة في أمرنا) [118]. ورأى في عدم اعتماد أقواله تكذيباً له. هذا فيما يتعلق بمشاكله لاسيما مع الرزيقات وتهديداته لهم. ومحاولة الحكومة كفكفة جنوحه لتأديبهم من وقت لآخر. الأمر الذي جعله يفقد الأمل ولكنه لم يقطع حبل الوصل ولم يقدم على نقض العهود القائمة بينه وبين الحكومة .

وطلب في ذيل خطابه موافاته بموقف الحكومة حتى يتدبر أمره ويتخذ من الإجراءات ما يحفظ ما وجهه. وهذا التذييل فيه سياسة وحكمة حيث لا يهدف إلى استباق الأحداث والمبادرة بالنقض والعداوة. هذا بالرغم من أن لديه من الدلائل ما يدل على نقض الحكومة لعهودها ومواثيقها من عدم تصديقه والتغافل عن رسائله

---

(116) سلاطين إلى السلطان في 1913/11/27م S.N.A Intel 7/3/14 .

(117) سلاطين إلى السلطان في 1913/11/27م S.N.A Intel 7/3/14 .

(118) السلطان إلى سلاطين في 1913/12/7م 10 محرم 1332هـ S.N.A Intel 7/2/6

ومحتواها.نلاحظ أن هذه الفترة قد طفحت فيها قضايا القبائل الحدودية. وكادت أن تؤدي بالعلاقة الفوراوية الثنائية. لذا حاولت الحكومة التدخل في شؤون السلطان الداخلية فتضجر السلطان من هذا التدخل. وخلال هذه الفترة برزت أيضاً إسلامية توجهات السلطان واعتصامه بمبادئه وافتخاره بتراثه وشريعة ربه بوضوح وجلاء. ويمثل ذلك بلورة تامة لاتجاهاته لدرجة حدت بالحكم الثنائي أن يتناولها في رسائله الرسمية مع السلطان. ووصل السلطان إلى قناعة مؤداها عجز الحكم الثنائي عن حمايته. بل بدأ يتشكك في نواياه تجاه بلاده. لذا فكر في فتح علاقات مع قوى أخرى بإمكانها إنقاذه والوقوف إلى جانبه فحاول الاتصال مع الفرنسيين. الأمر الذي أغضب السلطات الثنائية التي شعرت بعجزها تجاه جنوحه الداخلي أو الخارجي. وبدأت الحكومة الثنائية في نهج سياسة تهدف إلى إضعاف قوة السلطان الحربية. واستخدام بعض القبائل في شكل طابور خامس.هذه الفترة تنبئ بحدوث تغيير جوهري وأصيل في مسار العلاقات الفوراوية الثنائية وذلك من خلال ما مر ذكره من بلورة لاتجاهات السلطان الإسلامية وبروز شكوك ترسبت في أعماقه إزاء مواقف الحكم الثنائي تجاه العديد من المشاكل التي تم طرحها. هذا بالإضافة إلى عجز الحكم الثنائي إزاء التدخل الفرنسي فقي بلاده.

الفصـــــل الرابـــــع

الفـــــترة الرابعـــة 1914- 1916م

تشكل هذه الفترة الزاوية الحرجة في العلاقات الفوراوية الثنائية وقد تأثرت بما عم الكرة الأرضية من أحداث لاسيما الحرب الأوربية الأولى والتي تسمى عالمية تجاوزاً، وإن لا فهي حرب أوربية بحتة من حيث الأهداف.ومن حيث النتائج، ولكن من بـــاب تزوير التاريخ وتجيير الحقائق وتضخيم الأحداث وخلط الأكوام لخدمة أهداف غربيـــة ذات طبيعة استراتيجية أضفي عليها ثوب عالمية وغدونا نردد ذلـــك بـــوعي أو دون وعي. وتركت تلك الفترة جروحاً لم تندمل. كان لها أثرهـــا الواضــــح علـــى مســـار العلاقات بين دارفور والحكومة الثنائية. ولا يخفي أن الغربيين ناجحون فــــي تزويــــر التاريخ وتجيير الحقائق بما يتفق وأهدافهم الإستراتيجية، ويدخل في هذا المعنــــي مـــا يسمي بمنظمات المجتمع المدني و منظمات حقوق الإنسان والديموقراطية والحريـــات العامة الخ ... القائمة التي يرددها ببغاوات العالم الذي يسمي ثالثا دلالة علــــي تخلفـــه وعدم وعيه وأهله بما يدور ويحاك ضده وضدهم. ففي مستهل ســـنة 1914م جـــاءت شكوى من السلطان إلى الحكومة الثنائية بشأن هروب موسى مادبو أحد رعاياه من دار فور إلى كردفان. ووجد هناك مأوى[1].

وبررت الحكومة الثنائية ذلك بأن استقدام موسى مادبو إلى الخرطوم أرادت بـــه تهديد قبيلة الرزيقات إن لم تنصاع لأوامر السلطان فإنها سترخل هذا الزعيم وقبيلتـــه إلى حدود الحبشة[2]. وهذا الرد قد يكون فيه دهاء أرادت به الحكومة الثنائيـــة تهدئـــة خاطر السلطان إلى حين. وهو من باب المسكنات الوقتية إلي حين حسم قضية دارفور مع فرنسا.

(1) السلطان إلى سلاطين في 7 يناير 1914م الموافق 10 صفر 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/1

(2) ثلاثة خطابات من سلاطين إلى السلطان في 8 يناير 1914م الموافق 11 صفر 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/3

وقد قام سلاطين بتبديد شكوى السلطان مؤكداً لـه أن الحكومة لا تـزال علـى عهدها القديم من الصداقة وإن ما إعتور العلاقة الفوراوية الثنائية لا يعدو عـن كونـه سحابة صيف أو أمراً طارئاً يتبدد على صخرة العلاقة المتينة القائمة بين الطـرفين[3]. ويبدو أن السلطان من جانب آخر بدأ يتعامل مع القبائل (الحدودية) بالمثل. مما أدخلـه في حرج إزاء علاقته مع الحكم الثنائي، بيد انه تلافى ذلك باعتذار يلطف جو العلاقـة إلى حين دفعا لذلك الحرج[4]. في هذا الأثناء قامت بعض العناصر[*] التي تستفيد مـن الصيد في الماء العكر بإثارة الفتن والقلاقل رافعة شكاوى كاذبة إلى الحكومة الثنائيـة ضد السلطان. الأمر الذي أزعج السلطان كثيراً. لاسيما بعد استجابة الحكومة لسـماع مثل هذه الشكاوى فقال: (وأما أنا مزهدة نفسي ملكها – دار فور – فـإذا كـان نجـد رخصة من الحكومة بالتوجه للحرمين الشريفين لعائلتي وخدامي فو الله وبالله لا ننتظر يوم واحد في دار فور بل نقوم نتوجه ونتركها لأهاليها)[5]. هذا القول يعكـس مـدى الإحباط الذي وصله السلطان ويكشف عن دور الحكومة الضعيف إزاء نصـرته. لـذا يبدو أنه قد أراد بهذا الخطاب وهذا القدر من العبارات استدرار عطف الحكومة الثنائية حتى تعرض عن هؤلاء المغرضين حيث لا يتوقع منه التنازل بمحض إرادتـه عـن سلطنة يحسب أنها إرث تاريخي لا ينازعه فيه أحد. وقد نصب نفسه دون مشـورة أو موافقة من أحد.

وحق للسلطان أن يتشكك في نوايا الحكومة حيث أن رأيها تجاه قضـية الحـدود الدارفورية الفرنسية لا يزال غامضاً. وبدت الحكومة الثنائية تنقض عهودها شيئاً فشيئاً حيث نرى أن اتفاقها السابق بمشاركة السلطان بمندوب في المفاوضات وإيعازها لــه بذلك قد تلاشى. وأبدت اقتراحاً جديداً وهو ترك الأمر للوسطاء على أن يكون أحـدهم بريطانياً وثانيهما فرنسياً والثلاثة الباقون من أقطار أخرى[6]. مما يدل على عدم إيفائها

[3] ثلاثة خطابات من سلاطين إلى السلطان في 8 يناير 1914م الموافق 11 صفر 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/3

[4] السلطان إلى سلاطين في 1914/3/14م الموافق 18 ربيع الآخر 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/1

[*] نعني بها القبائل الحدودية مثل الكبابيش والرزيقات التي ظلت تنتهز أي فرصة للعدوان .

[5] آخر السلطان إلى سلاطين في 1914/3/14م S.N.A. Intel 7/4/1

[6] كابتن كلايتون إلى اللورد كتشنر في 1914/3/18م S.N.A. Intel 7/4/1٢

بما أبرمته من اتفاق سابقٍ مع السلطان باعتباره صاحب حق ولا شك أن وجوده في مثل هذه المفاوضات ضرورة لازمة. بيد أنها نكصت عن ذلك العهد لأن وجوده في مثل هذه المفاوضات سيضعف ويقلل من نفوذ الوجود البريطاني في المنطقة ويدفع بالكرة لصالح الوجود الفرنسي. هذا النكوص في حد ذاته مؤشر خطير وهام إذ يؤكد علي أن الدول الأوروبية والغربية عموماً في سبيل صالح لعب الورق لصالحها يمكن أن تضحي بكل العهود والمواثيق الإقليمية والدولية والمحلية. وما يحدث الآن وتتقله كل الفضائيات هو تكرار لما حدث في الماضي خلال القرنين المنصرمين من قبل هذه الدول من دون استثناء. وحاول سلاطين أن يقابل السلطان وفق أي شروط يضعها السلطان كما ترك له اختيار المكان والزمان[7]. بيد أن السلطان لم يرد على هذا الطلب في الحال. ويبدو انه لم يكن راغباً في ذلك أو لربما رأى أموراً أخرى أهم من اللقاء في الوقت الحالي. لذا يبدو موقف السلطان غامضاً بشأن إجراء هذا اللقاء. ولكن الذي يبدو للمتأمل أن السلطان كان علي قدر من الذكاء والاعتبار بما حدث لأسلافه في هذه المنطقة من قبل الرجل الأبيض الذي لا يؤمن له جانب. وبعد لأي أرسل خطاباً إلى سلاطين عرض فيه عليه حلاً لمشكلة الحدود بين كردفان ودار فور واقترح السلطان إرسال مأمور أو مفتش من قبل الحكومة ومندوب من قبله لحلها. ولم يتجاهل أمر المقابلة التي طلبها سلاطين بقوله: (وأما عقدكم للنية في إرادة مقابلتي معكم فبعد عودتكم من الإجازة إن شاء الله نفيد جنابكم بالمحل الذي نتقابل فيه والرجاء في الله يحصل الخير)[8]. بدأ يتضح أن السلطان غير راغب في مقابلة سلاطين ولكنه لم يصرح بذلك خوفاً من ردة الفعل التي قد تؤثر على مسار العلاقات بين الطرفين في الوقت الراهن علي الأقل لذا لجأ إلى الحيلة والمماطلة عوضاً عن الأسلوب المباشر الذي لا يتفق والحنكة السياسية والدهاء الدبلوماسي.

وبعد مرور شهر قام السلطان باحتجاج على ما طلبته الحكومة منه إزاء ترحيل المحمل. وأشار إلى أن أمير المحمل كان يحمل مبلغاً كافياً وأضاف: (.... بل ما

(7) سلاطين إلى السلطان في 1914/3/21م الموافق 1332/4/24هـ S.N.A. Intel 1/1/3

(8) السطان إلى سلاطين في 1914/4/23م الموافق 1332/5/28هـ S.N.A. Intel 7/4/1"

فعلتموه كان إكراماً منكم. فكان الواجب أن سعادتكم لا تطالبوني بشيء فعلتوه انتم معروفاً منكم. وأما إن كان قصدكم تمنعوني من طريق الحج فاخبروني ظاهراً لأتركه وأفوض أمري إلى الله)[9]. لقد السلطان بحساسية مفرطة إزاء تصرفات الحكم الثنائي. ودرج على التفسير العدائي لكل ما يأتي إليه من قبل الحكم الثنائي الأمر الذي يدل على تمكن الشك من نفسه. وبالتالي فقد تبلور لديه موقف جديد قد عزم على اتخاذه. إلا أنه لم يتوان ولو للحظة عن محاولاته لاستدرار عطف الحكومة إزاء مطالبه ومواقفه. ولئلا يثيرها ضده فقد عبر عن وجهة نظره بأنه يرى أن هذه التسهيلات وهذه الخدمات هي إكرامية مقابل ما يدفعه للحكومة الثنائية من إلتزام سنوي. وأرفق ذلك بخطاب آخر جاء فيه احتجاج على التدخل في شئونه الداخلية بصورة غير مباشرة، مؤكداً أن الشكاوى التي تصل الحكومة بشأن عدالة حكمه وظلمه للرعية لا تصدر إلا من المغرضين من الحساد (أفواه الحساد المتمردين بالتميمة والغل – الحسد – ، – وذلك لأن – الراحة التي وجدوها في أيامي وفي زمني يعلم الله ورسوله ما فعلها لهم أحد في الملوك الذين سلفوا من قبلي ولا شك إذ أنهم لا يحصل لهم من بعدي)[10]. هذه العبارة الأخير تعرض بالحكومة أو من تحدثه نفسه لحكم دار فور بأنه لا يستطيع توفير الأمن والاستقرار، وتحقيق العدالة بين الرعية كما هو الحال في ظل حكمه. وهي في ذات الوقت تعكس اعتداداً بالذات وثقة بالنفس وافرة ولا تخلو من مبالغة. إذ أن من المعروف إن جده عبد الرحمن الرشيد لم يلقب بالرشيد إلا لعدله وتقواه وعلمه وحبه للعلم والعلماء. فالعلم حرز واقٍ والتقوى مانعة من الظلم. كما أن جده السلطان محمد الفضل قد بسط سلطانه علي رقعة واسعة من الأرض وبسط الأمن في دارفور وما جاورها.

وقد شغلت دار فور خلال هذه الفترة بال الحاكم العام، ويبدو أن هناك تدابير بريطانية تحت الطاولة تتخذ بيد أنها لم تر النور. الأمر الذي اقتضى من الحاكم العام أن يقطع إجازته السنوية في بريطانيا ويأتي فوراً إلى السودان ويسارع لمقابلة سلاطين

(9) السلطان إلى سلاطين في 1914/3/21م الموافق 1332/4/24هـ S.N.A. Intel 7/4/1

(10) السلطان إلى سلاطين في 1914/4/23م الموافق 1332/5/28هـ S.N.A. Intel 7/4/1

والمشاورة معه حول ما يمكن اتخاذه في هذا الصدد، وهذا ما أشار إليه ونجت بقولـــه: (لقد قررت أن أرجع إلى الخرطوم في تاريخ أسبق، كما كنت قد عقدت العـــزم عليــه وذلك أساساً بهدف مقابلتك قبل رحيلك للشمال للتفاكر حول دار فور)[11].

وفي محاولة متكررة لمقابلة السلطان حرر سلاطين خطاباً آخر يطلب فيه مقابلـــة السلطان مرة أخرى. هذا بالرغم من عدم حصوله على الموافقة في المـــرة الســـابقة، وتجاهل السلطان طلبه السابق. يطلب منه هذه المرة حصول لمقابلة ولو لساعات قلائل بقوله: (مقابلة شخصية لمدة ساعات قليلة تأتي بعدة فوائد جمة على البلاد والرعيـــة). ولكنه يبدو أن السلطان كان أكثر ذكاء ووعياً لأن هؤلاء الأوربيـــون لا يـــؤمن لهـــم جانب، ولا يحترمون عهداً أو ميثاقاً، وما حدث في دار فور من قبل جسي للإيطـــالي لسليمان الزبير لا يمكن لعلي دينار أن ينساه بحال. في هذا الوقت الذي شـــعرت فيـــه الحكومة الثنائية بأنه قد فقد الأمل في اتصالاتها الدبلوماسية. وحاول السلطان إجـــراء الاتصالات المباشرة مع الفرنسيين لحل مشكلة الحدود الغربية. حيـــث قـــام الســـلطان بإرسال خطابين إلى حاكم ودّاي الفرنسي يأمل في أحدهما رد البغاة الذين سلبوا مـــن بعض القبائل أموالاً ومواشٍ وهم بدار سلا. وفي الخطاب الثاني عرض لمشكلة بخيت أبو ريشة أحد رعايا الفرنسيين لاعتدائه على حدود دار فور ويطلـــب مـــن الحكومـــة الفرنسية معاقبته وإفادته. وان لا فإني أعامله بمثل فعله أن حصل له مني شـــيء فـــلا تلوموني وما تعملوه يفادنا[12]. هذا الخطاب يوضح أن الســـلطان بـــدأ يتعامـــل مـــع الفرنسيين تعاملاً مباشراً باعتباره كياناً سياسياً مستقلاً وحاول أن يثبت وجوده باعتباره سلطاناً مستقلاً مما أثار شكوك الحكومة الثنائية نحوه. فحاولت إثناءه عن مثـــل هـــذه الاتصالات وذلك التوجه وتزهيده في نتائجها وجدواها. وقام سلاطين بنصـــحه بعـــدم مكاتبة الفرنسيين بقولـــه: (لأن مخاطبتكم لها لا تأتي بأدنى فائدة أو نتيجـــة وكونـــوا واثقين بأننا مهتمين في هذه الأمور)[13]. ولا زال سلاطين يلح في طلب مقابلته ويعدد المبررات المقتضية لذلك ولو لسويعات بقولـــه: (لإن حكومة فرنسا من جملة الأسباب

(11) ونجت إلى سلاطين في 1914/5/9م الموافق 1332/6/14هـ D.S.A Box 223/1

(12) السلطان إلى الكولونيل الفرنسي في 1914/4/18م الموافق 20 جمادي الآخرة سنة 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/1

(13) سلاطين إلى السلطان في 1914/5/20م الموافق 25 جمادي الآخرة 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/3

التي تنتحلها تبريراً لأعمالها فإنها تقول للدول الأوربية إن دار فور ليست تابعة للحكومة الإنجليزية المصرية، إلا بصورة رسمية ظاهرية فقط. وتقرر أقوالها هذه بقولها إنكم منذ رجعتم إلى دار فور لم تقابلوا واحد من رجال الحكومة وأنه للآن لم يتوجه واحد من رجالها إلى دارفور وإن كل ما تعرفه عن دار فور مأخوذ من الأخبار التي ترد في جواباتكم)[14].

هذه محاولة جديدة من الحكومة الثنائية أرادت به أن تحفظ ماء وجهها أمام الدول الأوربية. هذا بالرغم من اقتناعها بوجاهة الأدلة التي قادتها فرنسا بشأن دار فور. فعدم دخول أي مسئول حكومي ثنائي إلى دار فور أو استطاعته مقابلة السلطان لأكثر من خمسة عشر عاماً فيه دلالة استقلالية واضحة وأن دار فور لا تخضع إلا خضوعاً إسميا للحكومة الثنائية. وكان سلاطين يهدف من هذا اللقاء لإيجاد مندوحة تبرر أدعاء الحكومة الثنائية تبعية دار فور لها. بيد أن السلطان من جانب آخر كان يرى أن خروجه من دارفور أو مقابلته لأي شخصية أوربية داخل حدود بلاده أو خارجها قد يعني خلعه وتجريده من سلطانه. وسحب البساط من تحت رجليه. ولم يكن غافلاً عن تدابير الحكومة الثنائية ودعمها لجهات أخرى غيره. وكان حريصاً على سلطنته واستقلالها وحمايتها حتى آخر قطرة من دمه. ولا زال يسعى لتقوية جبهته الداخلية وبناء ترسانته الحربية. ويطلب تزويده بالأسلحة والجبخانة واستجابت الحكومة الثنائية لطلبه ولكن بحذر تام. فجاءته الموافقة بتزويده بالجبخانة. (اللازمة بثمنها الأصلي ... وسيرسل مع الدود عشرة صناديق جبخانة من رمنتون وكرنجل)[15].

وفي المقابل فقد اعتذر السلطان عن المقابلة معللاً ذلك بأسباب صحية نتيجة لرحلته في أرجاء المنطقة. ولم يوصد أبواب الأمل أمام سلاطين حيث ذكر أنه في نيته الالتقاء به ولكن الله لم يرد. وسيتم ذلك إما على الحدود أو أثناء توجهه إلى الحرمين الشريفين[16]. وهذا كله من باب الدبلوماسية الناعمة ومحاولة الحفاظ على الشعرة

(14) سلاطين إلى السلطان في 1914/5/25م الموافق 30 جمادي الآخرة 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/4

(15) I bid

(16) السلطان إلى سلاطين في 1914/6/17م الموافق 22 رجب 1332هـ S.N.A. Intel 7/4/1

القائمة بين الطرفين، إلا أن الحقيقة تؤكد على أن السلطان لم يرد في حساباته ولو لحظة واحدة أن يقابل سلاطين أو أي مندوب من الحكم الثنائي، إذ كان يدرك بعين البصيرة أن مقابلته لأي من المسؤولين يعني خلعه أو تبعيته للحكم الثنائي، وهو يريد أن لا يفهم عنه هذا الأخير، هذا في الوقت الذي آوت فيه الحكومة الثنائية شخصية فوراوية من عائلة السلاطين ويدعى (عبد الحامد) ويبدو أنه بإيعاز من الحكومة الثنائية بدأ الاتصال بالشخصيات ذات الوزن في دار فور بغية التأثير عليها وتوظيفها وتوظيف رصيدها الاجتماعي والسياسي لخدمة المشروع الاستعماري الغربي في البلاد مما أثار حفيظة السلطان وأزعج منامه وأشار إلي ذلك بقوله: (إن عبد الحامد الذي آويتموه أصبح يتصل بالناس هنا ويتآمر معهم الأمر الذي أدى إلى سفك الدماء في السنة الماضية. وإذا كان إدعاؤه صحيحاً بإمكانكم إرساله إلى دار فور ليحكمها وفي المقابل سأغادر دار فور إلى مكة أحب البقاع إليّ من أي مكان آخر. بما في ذلك دار فور. وان لا فأرجو عمل اللازم بمنعه من الاتصال بالناس هنا وإثارتهم)[17]. هذه الحادثة لها دلالتها الموضوعية والمنطقية، أولاً: تؤكد على أن السلطان كان شديد الحساسية إزاء الحكم الثنائي، وثانياً: تشير إلي أنه كان يقظاً إزاء هذه السياسة الغربية الماكرة وكانت لـه عيونه الراصدة، وثالثها: أنه كان لا يرى أن هناك أحداً أحق بهذا الأمر منه، فلذا لا يسمح بوجوده، ورابعها: أنه كان مستعداً لكل الإحتمالات، والتي أكد مراراً بأنه علي استعداد للتنازل إذا تنصلت الحكومة عن التزاماتها نحوه. وفي تقدير الباحث أن ذلك كله كان من باب الإستهلاك السياسي إذ كيف يتأتى لرجل مثله بنى حاضره خطوة مشاها على الأشواك. وشق طريقه علي الصخر أن يتنازل بهذه الصورة أو بهذه السهولة وتلكم السذاجة. لعل ذلك من المستحيلات الصعبة لدي رجل في قامته وتاريخه وموروثه. لقد أضحي السلطان لا يطيق وجود شخصية في دار فور سواه. لاسيما إن وجدت دعماً من الحكومة الثنائية. وقد تمتعت دار فور بمخابرات قوية الأمر الذي يدل عليه كشف أوراق عبد الحامد ومؤامراته في دار فور.

(17) السلطان إلى سلاطين في 1914/6/17م الموافق 22 رجب 1332هـ D.S.A. BOX. 228

في هذه الأثناء بعث موسى مادبو خطاباً للحكومة الثنائية ذكر فيه أنه قد آوى شيخ الماهرية الذي قد هرب من ظلم السلطان ويطالب موسى مادبو بأن تضم بلاده للحكومة الثنائية هروباً من ظلم السلطان[18]. هذا هو ذات المنعطف الخطير وذات المستنقع الآسن الذي تعيشه دار فور الآن استغاثة واستعداء غير مبرر لقوى خارجية لتسوية قضايا ذات طبيعة محلية متكررة وذات جذور تاريخية معروفة وذات دلالة ومغزى ثقافي لا يخفى على أحد. وهو من باب تسييس قضية ثقافية كان يمكن حلها في إطارها الطبيعي عن طريق الشيوخ والعمد والشراتي. يبدو واضحاً أن هذا الكلام على عمومه لا يخلو من مبالغة لاسيما ما ورد في خطابي كل من شيخ الماهرية وموسى مادبو من وصف جائر لدار فور بأنها أرض ظلام وأن كردفان المحتلة هي أرض النور. لا شك أن هذا الوصف الظالم لا ينطبق تمام الانطباق على ما هو جار في دارفور. بيد أن العداء والشحناء بين المتخاصمين تقتضي قدراً من المبالغة في الجأر بالشكوى ويبدو أن روح العداء هي التي إقتضت صدور مثل هذا الكلام.

وقام السلطان بإرسال خطاب آخر يندد فيه بسياسة الحكومة الثنائية الرامية إلى إيواء أعدائه السياسيين لاسيما من أفراد العائلة الحاكمة. الذين ثبت لديه أن لهم اتصالات مشبوهة. وقد نوه لذلك في خطاب سابق وقام مساعد مدير المخابرات هارولد ماكمايكل بنفي ما سبقت الإشارة إليه مؤكداً أن عبد الحامد أحد أفراد العائلة الفوراوية الحاكمة برئ براءة الذئب من هذه الاتهامات التي أوردها السلطان بقوله: (وقد قابلته مراراً ولكني أوكد لكم أنه لم يذكر لي دار فور ولا من فيها)[19]. لربما كانت اتهامات على دينار لقريبه حقيقية حاولت الحكومة تغطية ذلك بالنفي، أو لربما كان الحسد من جراء إيواء الحكومة لأحد أفراد العائلة وإعطائه إمتيازات هو الذي حدا بعلي دينار إلى مثل هذا الاحتجاج والتنديد. وكان السلطان يدرك أن سياسة الحكومة غير مستقرة تجاهه فلربما قد وجدت بغيتها في هذا العميل، وقد رأى السلطان في وجوده تهديداً لكيانه. ولا يستبعد أن تخطط الحكومة الثنائية لذلك أي لإبعاد السلطان

(18) موسى مادبو وشيخ الماهرية حسب الله إلى سلاطين في 1914/7/12م D.S.A. BOX. 228

(19) ماكمايل إلى السلطان 1914/7/28م الموافق 23 رمضان 1332هـ A.N.A. INTEL 7/4/3

عن الساحة السياسية بعد إضعاف موقفه وإحلال أحد أفراد لعائلة مكانه لتجنب الغضبة المحلية وإشباع الرغبة الاستقلالية لدى الرعية بشخصية تضمن الحكومة ولاءها وفق شروط تضعها عليها. شريطة أن يكون ذلك البديل بمثابة كرزاي أفغانستان أو علاوي العراق أو أشباههما من عملاء العالم الثالث. حيث نلاحظ أن الأسلوب الغربي الإحتلالي بالرغم من اختلاف الزمان والمكان والأحداث والأشخاص فيه درجة من الرتابة والتماثل بصورة تثير التقزز لدى من يقرأ مفردات التاريخ بوعي وذكاء. ولكن للأسف أننا امة مكتوب عليها أن لا تقرأ التاريخ ومفرداته بذكاء ودرجنا على أن نلدغ من ذات الجحر مراتٍ ومراتٍ لأننا لسنا بمؤمنين.

وعلى صعيد آخر بدأ عجز سلاطين واضحاً حيث بدأ هارولد ماكمايكل *، في بذل محاولات جديدة مستخدماً دهاءه وسلطته بغية زحزحة السلطان عن رأيه في إجراء تلكم المقابلة وعرض عليه فوائدها بقوله: (حتى يمكنني أن أقنع الحكومة بضرورة إعطائك السلاح والجبخانة لتأييد سلطنتك في دار فور)[20] وطلب منه في خطابات سابقة إقامة العدل وتحقيقه بين رعيته. في الواقع أن هذا الإلحاح المتكرر وهذا الطلب المتوالي من أجل إخراجه من دار فور من أجل المقابلة أو دخول أحد الأوربيين إلى بلاده لمقابلته يزيد المرء شكاً على شكه ويجعل السلطان يرتاب أكثر في أمر هؤلاء القادة. هذا أسلوب إغرائي لم يحرك في السلطان ساكناً بالرغم من ضربه وتراً محبباً لدى السلطان وهو حصوله علي السلاح المطلوب. إلا أن شك السلطان كان قوياً في

*- رجل الاستخبارات والإدارة والسكرتير الإداري والأكاديمي البريطاني فقد كان الإنجليز في السودان يعملون باستراتيجية بعيدة المدي غايتها طمس الهوية السودانية. وقد تركت الإدارة البريطانية هذا الأمر لشخصيات بريطانية استخباراتية أكاديمية علي مستوى عال من الدربة لتلعب أدوارا مزدوجة (فهي استخباراتية وإدارية وقضائية وسياسية ودينية وأكاديمية في ذات الوقت). وقد كانوا أساتذة في كلية غوردون التذكارية لكبار الشخصيات السياسية والاجتماعية والأساتذة السودانيين الذين أصبحوا فيما بعد أرقاماً معتبرة في البلاد بعد خروج الإنجليز حسب الخطة البريطانية لإيجاد البديل الفاعل والوكيل المؤتمن من قبل أسياده في انجلترا لمسخ الشخصية السودانية وفق المواصفات الغربية وقد كان. وبالمناسبة فقد كان هارولد ماكمايكل هو مؤلف كتاب تاريخ العرب في السودان (A History of The Arabs in Sudan) والذي أصبح بتخطيط وباستراتيجية مدروسة مصدراً هاماً في الدراسات السودانية. وهو واضع سياسة وقانون المناطق المقفولة عندما كان السكرتير الإداري في منتصف ثلاثينات القرن العشرين الذي ما زال السودان يعاني من آثاره السالبة سواء في الجنوب أو في غيره من مناطق السودان الاخري.

[20] I bid.

الحكومة، وتدابيرها تجاه سلطنته. بيد أنه لم يترك إشارة ماكمايكل بإقامة العدالة تمر دون احتجاج عليها والتنويه بها. مما حدى بهارولد ماكمايكل مساعد مدير المخابرات أن يعتذر للسلطان صراحة بقوله: (فلا يصح أن يُقال أن رسالتي تهديدية لأني أنصح وأذكر حتى لا يحصل منكم الغلط وكل إنسان في هذه الدنيا عرضة للغلط)[21].

وورود عبارة "سلطنتك" في خطاب رجل مسئول في استخبارات الحكم الثنائي ذات دلالة قوية ومعتبرة بأن هذه السلطنة هي سلطنة مستقلة. في هذه الأثناء بدأت العلاقات الفوراوية الثنائية تدخل طوراً جديداً من صداقة حميمة إلى علاقة فاترة تتسم بروح التحفظ، بل تصل إلى مرحلة اختراق الحدود والقبض والاعتقال من الجانب الآخر. يعكس ذلك طلب السلطان من الحكومة الثنائية إطلاق سراح أحد أقربائه الذي أعتقل بسبب اختراقه مع مجموعة من رجالات دارفور الحدود الثنائية ولم يجب طلبه إلا بعد إستيفاء دراسته تماماً[22]. لم يصل هذا الفتور بالعلاقة الثنائية الفوراوية إلى حد القطيعة التامة. لاسيما وان الحكومة الثنائية وبحكم إدارتها الإنجليزية فعلياً والمصرية اسمياً لم تكن بمعزل عن مجريات الأحداث العالميةّ والمتغيرات الدولية. لذا حاولت كسب جانبه، لاسيما في وقت اشتعلت فيه حرب أسموها كونية زوراً وبهتاناً. وهي حرب أوروبية منطلقاً ومنتهىً كما حدث في حرب أفغانستان والعراق اللتين أسموهما زوراً وبهتاناً دوليتين وهما في الواقع حرب أمريكية بريطانية إبتداءً وإنتهاءً وهدفاً وغاية. فقام ونجت بإعلام السلطان بنشوب الحربّ بين بريطانيا العظمى وبين كل من ألمانيا وتركيا. وزعم له بأن الجيوش الإنجليزية قادمة إلى سيناء وطلب منه أن يقبض على كل من يقوم بترويج الإشاعات ضد إنجلترا وأن يرسله إلى الحكومة الثنائية[23]. لكن يا ترى هل يرضى علي دينار بهذا الدور الوضيع الذي رضي به الكثيرون في السابق، والآن على مستوى السودان أو على مستوى العالم العربي والإسلامي حديثاً وحالياً؟. من حسن الطالع لم يكن علي دينار من هذا النوع الوضيع السافل غاية ووسيلة، ولم تصنعه العناية الإلهية ليقوم بدور البوق والسجان أو الشرطي الحارس

---

[21] I bid.

[22] ماكمايكل إلى ونجت في 1914/8/29م D.S.A. BOX. 228

[23] ونجت الالسلطان 1914م من غير تحديد اليوم والشهر S.N.A. INTEL. 7/4/10

لمصالح الغرب في بلاده. فليته قام من قبره الآن ورأى ما يدور في دارفـور وبقيـة أجزاء السودان من أحداث وكيف غفل أهل البلاد عنها، فألبسوا الحروب والمشاكسات ثوب الأثنية جرياً وراء دعاية وأطروحات الأعداء دون وعي أو بوعي. ولئلا يحـدث صدع في الجبهة الداخلية طلبت الحكومة الثنائية من السلطان التنازل عن حملته علـى الرزيقات. وقد استجاب السلطان لهذا النداء بالرغم من شكواه بتآمر موسى مادبو[24]. أما بشأن المقابلة مع سلاطين أو نائبه فقد اعتذر السلطان تارة أخـري بـأن صحـته لا تسمح له في الوقت الراهن بذلك. واقترح التقاء مندوبين من قبله مع المفتش العـام ومناقشة ما يلزم مناقشته[25]. هذا الأسلوب يعبر عن موقف السلطان الثابت من رفضه المبدئي لمقابلة سلاطين أو غيره من عصابة الحكام المحتلين الأوروبيين بالبلاد . ومن جانب آخر حاولت الحكومة الثنائية أن تكسب ود السلطان بأي ثمن وتحت أي سـقف بأن أرسلت إلى موسى مادبو خطاباً تحذره فيه مـن الكتابـة إلـى رعايـا السـلطان وتحريضهم على الثورة بعد أن وضع السلطان يده على خطابات تحريضية مـن قبـل موسى مادبو. أولهما كان موجهاً إلى المقدم محمد الزين دليل أمـين سـر السـلطان. وثانيهما إلى آدم النور حاكم الهبانية يحرضهما فيهما على الثورة ضد السلطان. وقـام على دينار بإرسال هذين الخطابين إلى سلاطين[26]. بعد الإطلاع على خطاب موسـى مادبو المذكور يتضح للباحث أن هذا الخطاب لا يحتوي علـى تحـريض يـذكر[27]. إلا أنه يبدو أن السلطان كان لا يرغب في أي اتصال يجري بين أحد مقربيـه وبـين خصمه اللدود موسى مادبو.

ومن باب المجاملة والمحافظة على حسن الجوار وبعد إطلاعه على الخطاب رد سلاطين بأن موسى مادبو جاهل ويطلب من السلطان العفو عنه والتجاوز عمـا بـدر منه[28]. هذا الأسلوب يبدو فيه بعض التنازل في موقف الحكومة لربمـا كـان ذلـك لظروف الحرب الأوربية ومحاولة كسب ود السلطان وضـمان جبهتـه فـي الوقـت

---

[24] S.I.R. 242.

[25] السلطان إلى سلاطين ف 1914/9/25م الموافق 15 شوال 1332هـ S.N.A. INTEL. 7/4/1

[26] موسى مادبو إلى محمد الزين في أغسطس 1914 م S.N.A. INTEL 7/475

[27] موسى مادبو إلى محمد الزين في أغسطس 1914م S.N.A. INTEL 7/475

[28] موسى مادبو إلى محمد الزين في أغسطس 1914م S.N.A. INTEL 7/475

الراهن. ولجأ السلطان تارة أخري إلى أسلوب المناورة السياسية حيث أرسل خطاباً وعد فيه بمقابلة سلاطين. ولذا يلاحظ ولأول مرة ومنذ 1898م يرسل الحاكم العام خطاباً يخاطب فيه علي دينار بلفظ السلطان[29]. الأمر الذي يدل على تغيير تام في سياسة الحكومة وبدت حاجتها إلى كسبه واضحة جلية لاسيما وان الحرب التي أسموها الحرب الكونية الأولى بدأت نذرها تلوح في الأفق،وقد سر الحاكم بموافقة السلطان المبدئية لمقابلة سلاطين. ورأى السلطان ضعفاً في موقف الحكومة فعزم على حصول أكبر قدر من المكتسبات. لذا قام باتهام زعيم الرزيقات بالتآمر والاتصال بالأعيان بغية إثارتهم ورد الحاكم العام على هذا الاتهام بنقاط يبدو فيها ضعف الحكومة وموقفها حيث قال: (إن الرزيقات ومنذ القديم تابعين لدار فور وسلطنتكم ولا يمكن لموسى مادبو أن يؤثر عليهم)[30]. إن هذا الأسلوب لا يخلو من تجاهل تام لما ذكره على دينار بشأن موسى مادبو وأثره على قومه وقبيلته. فمن المعروف أن موسى مادبو هو زعيم الرزيقات فكيف لا يكون له أثر على أتباعه. لا شك أن هذا الكلام ينطوي على مغالطة أراد بها الحاكم العام أن يتهرب من أساس القضية. وتجددت شكاوى السلطان ضد رجالات الحكومة الثنائية في كل من كردفان والنهود ورد الحاكم العام بقوله: (إن كل إنسان معرض في حكمه للخطأ)[31].

هذا الكلام فيه قدر من الاستعطاف والتنازل عن روح الكبرياء الاستعمارية حيث كان الرجل الأوربي يعتقد دوماً أنه على صواب. بيد أن ظروف الحرب التي أسموها الحرب العالمية الأولى زوراً وبهتاناً والخوف من حدوث طابور خامس يهدد القوى الاستعمارية في كل البلاد هما اللذان دفعا الحاكم العام للإقرار بهذه الحقيقة وخطب ود السلطان بهذا الأسلوب الذي فيه رقة وتلطف. ولعل مخاطبة السردار لعلي دينار بمصطلح "السلطان المعظم" لأول مرة ذات دلالة سياسية. وفي رده على احتجاج السلطان بشأن وهجرة قبائل من دار فور وهجرهم لها أن ذلك مردة القحط الذي أصاب

(29) سلاطين إلى علي دينار وموسى مادبو 1914/9/1م S.N.A. INTEL 7/475

(30) I bid.

(31) I bid.

دار فور ورأفة الحكومة. وأشار إلى أن الأمر يمكن طرحه على مائدة النقاش بحضور مندوبين من الطرفين[32]. هذا الأسلوب اقتضته ظروف الحرب أما تلك التنازلات فقد إقتضتها المصالح وهذا شأن أوربي قديم حديث، حيث شعرت الحكومة الثنائية بأنها بحاجة للسلطان خشية أن تستميله القوى التركية الألمانية إلى جانبها فيشكل طابوراً خامساً داخل البلاد، فيبطل فعالية مشاركتها.

وحاول الحاكم العام أن ينقل للسلطان ما يدور من أحداث. هذا من وجهة النظر البريطانية بقوله: (الحرب قد نشبت بين دولة بريطانيا العظمى والأتراك الذي هم تحت سلطة ونفوذ أنور باشا. الأتراك في كافة أعمالهم كانوا يسيرون بموجب إشارة دولة ألمانيا ويعملون حسب رغائبهم ... وانتشرت سيطرتهم – الألمان – بين الطبقات الجاهلة من الأمة التركية التي لا تعرف شيئاً عن حقائق الأمور أو مصالح الأمة... إذا تمكن أحد رجال الألمان أو أحد أعوان الأتراك من الدخول إلى دار فور تحت ستار التنكر أو التخفي .. عن طريق السودان أو عن طريق آخر أن تلقوا القبض عليهم وترسلوهم لنا إلى هنا)[33]. نسي الحاكم العام أن السلطان مسلم غيور على دينه واع لواقعه مدرك لما يحيط به. تربطه بالعثمانيين روابط العقيدة وأن رؤاه الإسلامية تجاوزت حدود المحلية أو الإقليمية الضيقة، لذا لا غرابة أن عرض بقوة بريطانيا حال استلامه لخطاب السردار وكذا عرض بسطوتها أو جبروتها مقرراً أن هذه الصفات هي لله رب العالمين.

أما بشأن علاقته بالحكم الثنائي فأشار إلي أنها قد انتهت باختراق الحكومة لحدوده. وذكر أنه قد بلغته أخبار منذ قريب مفادها أن الحكومة قد قررت احتلال دارفور. وأكد أنه لا يعلن العداوة ضد أحد ولكن من بادأه العدوان فسيتوكل هو على الله ويستعينه ويواجه أعداءه[34]. إن هذا الخطاب بهذا الأسلوب يعتبر أول خروج واضح على الدبلوماسية الناعمة التي أعتاد السلطان على نهجها إزاء الحكم الثنائي مما

(32) السردار إلى السلطان المعظم في 1914/11/11م S.N.A. INTEL 7/4/3
(33) السر دار إلى السلطان المعظم في 1914/12/12م S.N.A. INTEL. 7/4/3
(34) السلطان إلي السردار في 1914/12/18م S.N.A INTEI 7/4/10

يعني أنه قد وصل إلى خط لا رجعة فيه مع الحكم الثنائي، وأنه قد حدد سبيله بوضوح وجلاء. ومن جانب آخر، هذا يعتبر أول علاج صريح لانفكاك العلاقة القائمة بين الطرفين. وفي الوقت ذاته احتفظ السلطان بخط الرجعة مشيراً إلى أنه لا يبادئ أحداً بالعداوة. وربما أراد من هذه الخطوة استنفاذ الإمكانات المتاحة وإستغلال الظرف الراهن بغية الحصول على مكاسب تدعم موقفه.وأراد الحاكم العام أن يلبس الوقوف إلى جانب الحكومة الثنائية شرعية تستمد قوتها من الدين وموافقة رجالاته. من أمثال علي الميرغي حفيد مؤسس الطريقة الختمية في البسودان وعبد الرحمن المهدي، والشيخ يوسف الهندي أحد الأعيان والمشايخ. لعل الحاكم العام أراد أن يلقي في روع السلطان وجوب الوقوف مع بريطانيا في حربها ضد ألمانيا وتركيا. بيد أن السلطان عرض بهؤلاء الشيوخ بقوله: (إن فائدة هؤلاء بعد موتهم لا تعود إلا عليهم)[35]. وعرض بالحاكم العام بقوله: (إنك غيرت وبدلت في الإسلام). عله أراد بذلك تسفيه محاولة الحاكم العام إضفاء الشرعية الدينية على الوقوف بجانب الحكم الاستعماري الاحتلالي في البلاد ومغامرة بريطانيا في حربها ضد المسلمين. هذا بالإضافة إلى نظرته إلى القوانين التي تطبقها الحكومة وقد عرض بها من قبل وسخر منها كما مر. ويبدو أن السلطان كان متقدماً في وعيه الديني ومستواه الثقافي حيث تمكن من تجاوز عشعشة الأفكار البالية على عقله من الاعتقاد بصلاحية موقف الشيوخ والزعماء وإن كانوا على خطأ ما داموا أبناء بيوت دينية وتاريخية.حيث ذكر أن صلاحهم أو عدمه يعود عليهم لوحدهم لأن المسؤولية في الآخرة فردية وليست جماعية وبالتالي لا ينبغي لأحد كائناً من كان أن يقلدهم في خطأهم ما دام قد عرف الحق بنفسه.

بهذا الإعلان الصريح بدأت الحكومة تنظر إلى السلطان بعين الريبة والحذر وأصبحت تصلها تقارير دورية عن تحركات السلطان وعددية جنوده، واستغل خصوم السلطان هذه الفرصة بإعطاء معلومات قد لا تكون على درجة عالية من الصحة مما جعل سلاطين يتشكك في صحتها[36]. وهذه مسألة طبيعية وقد تفسر ما يجري

---

(35) السلطان إلي السردار في 1914/12/18م S.N.A INTEI 7/4/10

(36) S.I.R. 80/5-6.January 1914.

الآن في دارفور. وبالرغم مما جرى فان سلاطين لا يزال سادراً في محاولاته الرامية إلى استقطاب السلطان. وزرع الكراهية بينه وبين الفرنسيين طالباً منه عدم مكاتبتهم أو استلام أي رسالة منهم بقوله: (وفي حالة تسلمك مراسلات من موظفي نشوسه بودّاي يدعونك للدخول في اتفاقيات ... الرجاء أن ترد على النحو التالي: عليهم: موظفي حكومة ودّاي أن يقوموا بمثل هذه المراسلات من خلال الحاكم العام للسودان)[37].

بدأ واضحاً أن نشوب الحرب قد آذن بانفصام العلاقة الفوراوية الثنائية وبغروب شمس المغازلة بين الطرفين. ويعكس الخطاب السابق مدى الشك وعدم الثقة السائدة في أوساط القوى الأوربية التي يضمها معسكر واحد. وضعفت ثقة السلطان بالقوى الأوربية الغربية قاطبة، لاسيما بعد أن علم أن فرنسا وإنجلترا قد دخلتا الحرب حليفين. بذا تحققت شكوكه بأن الدولتين الكافرتين تهدفان إلى الإستيلاء على كل شيء[38]. ووفقاً لهذا الاتجاه وافق السلطان على قبول دعوة أنور باشا[39]. وازداد استياء السلطان من الحكومة الثنائية لعدة أسباب أولها: عدم إعطاء الحكومة له ما طلبه من معونة ضد العدوان الفرنسي على حدوده الغربية: (دار القمر – دار مساليت – دار تاما)، **ثانيها:** عدم معاونته بصورة فاعلة ضد تابعه الثائر موسى مادبو. **ثالثها:** ضعف موقفها تجاه القبائل الفارة من دار فور إلى كردفان مثل قبيلة "الزيادية". **رابعها:** رفضها مطالبه المتكررة بالسلاح والذخيرة وكانت تلجأ في غالب أحيانها إلى اتحافه بهدايا هو في غنى عنها وإن زودته بسلاح فبقدر ودون الحد المطلوب[40]. وكانت الحكومة الثنائية من زاوية أخري تنظر إلى السلطان بنظرة مفعمة بالمرارة حيث أثبت التقدم الفرنسي نحو حدود دار فور، أن العلاقات الفوراوية الثنائية أصبحت بحاجة إلى أعادة نظر. ووجدت الحكومة الثنائية نفسها في ضوء هذه العلاقات القائمة مكتوفة الأيدي[41].

---

(37) سلاطين إلى السلطان في 1914/1/19م S.N.A. INTEL 1/1/2

(38) يونان لبيب، مصدر سبق ذكره، ص 376 - 377

(39) المصدر نفسه ص 376 – 377

(40) المصدر السابق ص 373 – 377

(41) المصدر نفسه ص 373 – 377

وأجمل السلطان أسباب عدائه وخصومته للحكم الثنائي في خطاب أرسله إلى علي الميرغني الذي كان يعتبره وكيلاً لـه فيما يلي: **أولاً:** عدم إيفاء الحكومة بإلتزاماتها. **وثانيها:** تضييق الخناق على المحمل المرسل إلى الحرمين الشريفين بالتفتيش عن السلاح والجبخانة التي بدأ في إستجلابها من أرض الحرمين[42]. ولا يدري المرء عما إذا كان السلطان يفعل ذلك عن وعي وإدراك تام لدور ووظيفة علي الميرغني في الحكومة الثنائية أم أنه كان يفعل ذلك بغية خلق مستوى من التشكيك بين الموالين للحكومة. وكانت إجراءات الحكومة تلك طبيعية حيث كانت ترقب بحذر شديد علاقاته الخارجية، متحفزة للتدخل في أي وقت شاءت. وبالتالي بدأت تتخوف من قوته الصاعدة مما يهدد الوجود المصري الإنجليزي في المنطقة بأسرها[43]. وشعرت الحكومة الثنائية بخطورة الأمر لاسيما بعد أن بلغ مسامعها وجود بعثة سياسية سنوسية في الفاشر فسارعت بإرسال جواسيس للإطلاع علي طبيعة الأحوال في دارفور. حيث رأت في ذلك تهديداً لأمن المنطقة[44].

ولم يكن السلطان غافلاً عن هذه التدابير الثنائية. وبعد أن وضع يده علي جاسوس مخابرات الحكومة الثنائية، بدأ يزوده بإخبار مضللة عن قواته وأسراه. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أخذ يضيف أشياء في التقرير السري للمخابرات المرسل من قبل جواسيس الحكومة في بلاطه[45]. الأمر الذي يدل على قدراته وإمكاناته الاستخباراتية، حيث كان يبطل مفعول كثير من المحاولات الثنائية لاختراق صفوفه.

وبدأ السلطان في دواخله يشعر بمرارة إزاء موقف الحكومة البريطانية تجاهه وعبر عن ذلك في خطاب آخر بعث به إلى علي الميرغني مجملاً ومفصلاً الأسباب التي اقتضت وقوفه ضد الحكم الثنائي في البلاد. **أولها:** اعتداء الفرنسيين وعدم فعالية الحكم الثنائي. **ثانيها:** تآمر موسى مادبو وبعض القبائل علي سرقة أسلحته وخيوله وحصولهم على الحماية من الحكومة الثنائية، **ثالثها:** اعتداء الزيادية على حدوده

---

(42) المصدر نفسه ص 373 – 377

(43) المصدر نفسه ص 373 – 374

(44) المصدر نفسه ص 238 –239

(45) تقرير المخابرات في 1915/2/28م S.N.A. INTEL 7/4/10

الشرقية وقيامهم بنفس الدور الذى تقوم به القوات الفرنسية من الناحية الغربية. وفي مقابل هذه الشكاوى اكتفت الحكومة الثنائية بتوثيق شكواه دون اتخاذ أي خطوات رادعة تذكر ضد المعتدين، **رابعها:** نقض الحكومة لعهودها بأن قررت استلام دارفور منذ سنة، **خامسها:** طلب من الحكومة السماح له بشراء أسلحة من الحجاز بيد أنها أدعت أن ذلك ممكن شراؤه من الخرطوم فأرسلت له جزءاً واستلمت ثمن الجزء الثاني ولم ترسله له بعد سفر سلاطين، **سادسها:** أن الكفار يجب أن لا يؤمن جانبهم لقوله تعالى: (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم). وأهاب بعلي الميرغني بعدم موادتهم لأنهم أعداء الله . وذهب إلى أن دار فور محمية وأن حمايتها ربانية. وانه سوف لا يقابل هؤلاء الكفرة ولا يجتمع بهم إلا إذا كانت ليه قوة في جبل الحلة تحمي ظهره من غدرهم المعهود وهذا هو السبب الحقيقي لعدم مقابلته لسلاطين[46].

لعل هذا الخطاب قد تضمن عدة حقائق تلقي الضوء على جوانب هامة وعديدة من سياسة السلطان الخارجية، وتعامله مع الحكم الثنائي حيث كان يرقب خطواته بحذر شديد ويتخذ من الأحداث الجارية عِبَراً تحدد الإطار لأبعاد العلاقة الفوراوية الثنائية، ولقد اعتبر في حماية الحكومة الثنائية للقبائل (الحدودية) قدراً من الغدر ونقض للعهد. ولم يكن غافلاً عما يجري في الدوائر الثنائية حيث دلت معلوماته على أن تخطيطاً ظل يجري أعداده لاستلام دار فور وقوى عنده هذا الأعتقاد بعد تباطؤ الحكومة الثنائية وتحايلها عليه عندما أراد شراء أسلحة من الحجاز بعد.اقتناعه بعدم الجدوى وإمكانية حصوله على ما يطمح إليه من أسلحة من جانب الحكومة البريطانية. وظل يؤكد في النهاية مبدأ قرآنياً إلا وهو عدم موادة الكفار والثقة بهم أوالركون اليهم.لعل هذا السبب الأخير هو الذي اقتضى عدم مغادرته لعاصمته طوال فترة حكمه لمقابلة سلاطين أو غيره من المسؤولين الأوربيين. وكان يعتقد أن لا سبيل للمقابلة ما لم تتوفر لديه القوة الرادعة في نقطة الالتقاء، لذا لجأ إلى الأعذار الواهية. ولعل هذه هي المرة الأولى التي يكشف فيها النقاب بصورة واضحة وجلية عن موقفه الثابت إزاء مقابلة اي مسؤول وروبي وهو موقف يقوم على ثوابت الدين وعبر التاريخ مما يعني انه قاريء جيد لمَفردات التاريخ وقيم الدين .

(46) السلطان إلى علي الميرغني في 1915/3/30م S.N.A. INTEL 7/4/10

ويعكس هذا الخطاب الجهد الذي بذله السلطانُ للاتصال بالقوى الإسلامية الوطنية من مشايخ وأعيان بغية إستنهاضهم لمقاومة الحكم الثنائي اسماً البريطاني حقيقة الخارج عن الملة. مما لا شك فيه أن هذا الموقف يعكس أصالة فكرية وبعداً في النظر إفتقر إليه كثيرون من أمثاله في وقته وفي وقتنا الراهن ممن إرتموا في أحضان الغرب دون وعي أو رشد. ولم تقتصر جهوده علىٰ ذلك بل حاول توحيد جبهة المسلمين الداخلية وخلق طابور خامس في أراضي الحكومة الثنائية فبعث بخطاب إلى زعامة قبيلة الكبابيش يستنفرهم فيه ضد الحكم الثنائي البريطاني ويعدهم بالقدوم إلى دارهم. ويناشد زعيمهم القيام بواجبه نحو الإسلام والعمل معاً لنصرة الإسلام وانه سينال جزاء عظيماً، ويطلب منه الانضمام إليه حين قدومه إلى ديار الكبابيش بيد أن زعيم الكبابيش لم يكن على سعة في الأفق ولم يكن على مستوى الحدث والتاريخ والمسئولية الوطنية شأن كثير من الزعماء الذين عاصروه وكثير من القيادات السياسية والاكاديمية والحزبية المعاصرة. فقام بدور العميل حيث أرسل خطاب السلطان إلى الحكومة الثنائية[47]. إن هذه المحاولات المتكررة من السلطان تعكس قدرته على الحركة والتأثير وأنه كان يتمتع بقدر من الشجاعة وأصالة الموقف، وأن قناعته لم تتبدل لحظة من حيث موالاة الكفار والركون إليهم، وأن مواقفه السابقة وتعامله مع الحكم البريطاني وعلاقته به لم تعد عن كونها تكتيكاً مرحلياً. لعل ذلك التصرف من قبل زعيم الكبابيش وكشفه عن سرية هذه الاتصالات يرجع إلى قصر نظر زعيم الكبابيش وعدم ارتفاعه إلى مستوى الأحداث فكشف بذلك أوراق السلطان، وخططه الرامية إلى تأليب القوى الوطنية ضد الحكم الأجنبي.

وبدت للحكومة الثنائية روح السلطان الإسلامية وأن عداءه لهم أمر يقتضيه الدين، بذا لم ينبّت السلطان عن خلفيته الثقافية وتكوينه الفكري ونزعته الذاتية ذات الاتجاه الإسلامي الواضح. وبدا واضحاً أن السلطان يمكن، أن يقوم بالدور المهدوي ويهدد وجودها في البلاد ولكن من منطلق آخر وعلى مسرح آخر. وبوصول خطاب السلطان علي دينار إلى السلطات الثنائية أبدت الأوساط الثنائية دهشتها إزاء هذا النهج السياسي العدائي. واعتبرت ذلك تعدياً صريحاً وتجاوزاً وعدم اعتراف بالحكومة، وتهديداً

[47] علي دينار إلى زعيم الكبابيش في 9 رجب 1333هـ الموافق 2 مايو 1915م S.N.A. INTEL 7/4/10

لمصالحها مما يشكل طابوراً خامساً يشل الحركة الإنجليزية الإستعمارية في المنطقة[48]. ومن ما هو معلوم أن الثورة المهدية مهما أختلف الناس حول مسبباتها وآثارها إلا أنه لا يختلف اثنان حول ما تركته من اعتزاز بالذات السودانية وإضعاف لهيبة الأجنبي في نفوس العامة، وانقسم الناس يومها إلى معسكرين لا ثالث لهما، أما مع الإنجليز وأما مع الوطن والدين وهو ذات الدور الذي قامت به في العصر الحديث الثورة الإيرانية ومجموعة إبن لادن حيث أن الغرب كان ولا يزال في روع بعض ضعاف النفوس وخائري الإرادة أنه القوة التي لا تقهر والجهة التي لا يرد لها طلب. بيد أن بروز مثل هذه الظواهر الايجابية في تاريخ الأمم ترد الأمور إلى نصابها إذ أن القوة التي لا تقهر أو لا تغالب هي قوة الله وحده .

وحاول الحاكم العام رغماً عن حدة اللهجة الفوراوية أن يهدئ ثائرة السلطان وان ينفي كل الإتهامات. وعزا سوء التفاهم الحادث إلى الوشايات المغرضة من قبل أعداء كل من دار فور والحكومة الثنائية[49]. في هذه الأثناء قام السلطان بغارة على الرزيقات مما حدا بالحكومة الثنائية أن ترسل وحدة تطوف بالنهود. بيد أنها في الوقت ذاته كانت تخشى أن لا يفسر الرزيقات ذلك تعاضداً فيسدروا في عصيانهم ولئلا يتأزم الموقف مع السلطان[50]. وحاولت القبائل (الحدودية) أن تقطع حبال الوصل القائمة بين الحكومة الثنائية ودار فور حيث قام ناظر الكبابيش بإرسال خطاب إلى الحاكم العام يشير فيه إلى الخطوات والخطابات التي وصلته من السلطان وتهديداته له. وأشار إلى أن السلطان علي دينار يريد أن يقوم بثورة شبيهة بثورة المهدي والخليفة عبد الله لتدمير السودان. وإستعدى ناظر الكبابيش الحكومة طالباً منها حمايته من السلطان[51]. في هذا التصرف تبدو النظرة الضيقة وضاعة الهدف والغاية واستعداء الأجنبي لحل قضايا ذات طبيعة محلية. وهو عين ما يدور الآن على الساحة السياسية في الشرق والغرب والجنوب والشمال، فالجانب الذي يعجز عن الصمود والمقاومة يستعين بالأجنبي لتصفية حسابات شخصية وأن أفضى الأمر إلى الادعاء الكاذب. فعلي دينار

(48) نائب مدير المخابرات إلى السكرتير الخاص في 1915/5/25م S.N.A. INTEL 7/4/10

(49) الحاكم العام إلى السطان في 1915/5/28م S.N.A. INTEL 7/4/10

(50) ونجت إلى كلايتون في 1915/5/31م D.S.A Box 31/4

(51) على التوم إلى ونجت في 1915/6/20م S.N.A. INTEL 7/4/10

يختلف عن المهدية فكراً وروحاً ومذهباً وسياسة، فوصمه بأنه يريد أن يقوم بثورة شبيهة بثورة الخليفة عبد الله أسلوب رخيص كما يحدث الآن تحت شعار التهميش والاسترقاق والتطهير العرقي والاغتصاب. وصناعة الأسلحة الكيميائية أو أسلحة الدمار، ومحاولة استعداء القوى الأجنبية لتدمير البني التحتية للوطن كما حدث في العراق والسودان وأفغانستان وهو نوع من التسول الرخيص على موائد الأعداء وهو ضرب من الخيانة الوطنية. ويحدث بصورة ابخس وانتن مما مضي حيث حدثني بعض أعضاء الجالية الكندية بالسودان أن بعضاً من الفاشلين من أبناء هذا السودان المكلوم ممن ضاقت عليهم سبل العيش أو قبضوا في قضايا أخلاقية أو سرقة مال عام وطردوا من الخدمة درجوا على القيام بادعاء كاذب وطلبوا اللجوء السياسي وظلوا يكشفون ظهورهم إمام بعض لجان المعاينات الكندية وبعض السفارات، ويشيرون إلي آثار التعذيب على أجسادهم من قبل حكومة الإنقاذ وهي في الواقع لا تعدو عن كونها آثار سياط قديمة في حلقة من حلقات الأعراس السودانية لا سيما في الشمال لا براز الشجاعة إمام البنات والحصول علي زغرودة وسمعة. أما عن دعاوى الاغتصاب وبقية الدعاوى الباطلة فحدث ولا حرج وما نعرفه يشيب له الولدان.

وبالتالي يبدو واضحاً أن العزف على وتر المهدية وثورتها وتر حساس يقض من مضاجع الحكومة الثنائية البريطانية وظل ويستخدم هذه النغمة كل من أراد أن يستثير غضبة الحكومة ضد السلطان أو تصفية خصومه. وسبق أن استخدم السلطان نفس الأسلوب للقضاء على قوة سنين الصاعدة. وعلى الفور رد حاكم كردفان على ناظر الكبابيش معلناً تأييد الحكومة المطلق لقبيلة الكبابيش واستعدادها لحمايتهم على أن لا يعتدوا أو يدعوا مبرراً معقولاً لاعتداءات السلطان[52]، الأمر الذي يمكن أن يتيح المجال للحكومة الثنائية أن تتدخل لحسم الأمور في الوقت المناسب وبمبررات مقبولة.

وأفصح السلطان تارة أخرى عن عدائه للحكومة وأكد بأن طبيعة هذا العداء نابع من وجوب عدم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء وفقاً لما ورد في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم

(52) حاكم كردفان إلى ناظر الكبابيش في 1915/6/24م S.N.A. INTEL 7/4/10

فإنه منهم)[53]، وأكد للمرة الثانية على أنه مسلم يرجو النصر من الله القادر على نصره. وأعلن رفضه عن دفع ولو قرش واحد للحكومة الثنائية بعدئذ. هذا الإعلان يؤكد انفصام العلاقة الفوراوية الثنائية ومن ثم تواليت تهديداته لناظر الكبابيش وفي الوقت ذاته أعلن السلطان انه لا يضمر القيام بأي اعتداء على الحكومة ولكنه على استعداد إذا ما بادأته الحكومة بالعداوة لأنه يرد بقوة ويدافع عن مكتسباته التاريخية وحقوقه الموروثة. وأكد على نيابته عن المسلمين في الدفاع عن حقوقهم وإحياء السنة النبوية[54] في هذه البلاد ..

إن الفقرة الأخيرة تشير إلى أثر مهدوي ثقافي وفكري فالنيابة عن المسلمين والدفاع عن حقوقهم هذا دور مهدوي واضح مثلته القيادة المهدوية وأنفعل به أهل البلاد طولاً وعرضاً واستجابوا لنداء الحق واطروحات الثورة المهدوية. ولا شك أن السلطان لابد وان يكون قد تأثر خلال حياته؛ بل أثناء وجوده في الوسط المهدوي لفترة من الزمن بهذا النوع من الطرح الفكري المتقدم الذي يؤسس لأرضية الإنعتاق من التبعية والذيلية ويغرس أقدار الثقة بالذات والاعتداد بالنفس. لاسيما وأن عدداً من مستشاريه واداريه كانوا ممن عملوا تحت الراية المهدوية ردحاً من الزمن[55] وإنفعلوا بالدعوة قبل بروز نتانة الجهوية والعرقية والأنانية في فترة الخليفة عبد الله التعايشي التي أفسدت النكهة المهدوية الصادقة ودمغتها بوسائل وغايات دنيوية وضيعة حيث كثرت المؤامرات وضاعت مكتسبات سنوات النضال والكفاح الصادق تحت كل هذه النتوءات المتعفنة. وهذا عينه ما حدث للحركة الإسلامية المعارضة في السودان التي برزت للوجو بشعارات التجرد والصدق والإخلاص وقيام الليل والأخوة الصادقة وصيام الخميس والاثنين ونظام الأسر وحلقات التلاوة وتربية الأسر التنظيمية. ولكن ما إن وصلت إلى السلطة حتى بدأت سوءاتها تتبدى لكل ناظر تترى قبحاً وتشتتاً وتفرقاً وأنانية قاتلة وعرقية وحب ذات بغيض وعدم تجرد مما أفقدها بريقها وأكسبها عزلة وعداء الجميع وأورثها فشلاً في كل المجالات حتي بلغني انه في احدي الوزارات

[53] سورة المائدة، الآية (59)

[54] علي دينار إلى الحاكم العام سنة 1333هـ يوليو سنة 1915م S.N.A. INTEL 7/4/10 S.I.R. 252.

[55] P.M. Holt OP. eit. Pp 125 .

السيادية لما ألقاه الله بينهم من عداوة وبغضاء وحب ذات وأنانية وتربية ترابيـــة كـــان مبدؤها وصية شيطانية من شيطانهم الأكبر- الذي غدروا به قبل أن يغدر بهم- بـــأن يدوسوا علي إخوانهم في سبيل بقائهم في السلطة وقد نفذها الحيران بدقة حتـــي فـــاقوا معلمهم الأكبر وتباروا في هذا المجال واخذ بعضهم ينهش في جسد بعض بل غدا يثق بقبائل اليسار المنقرض وديناصوراته المتحجرة أكثر من ثقته بإخوانه رفقـــاء التـــاريخ والكفاح والنضال حيث قام بعض الوزراء الإسلاميين بأحـــدي الـــوزارات الســـيادية الخطيرة بتكسير قواعد الخدمة المدنية وترفيع احد عشر موظفاً غير كفء مما لا ذمة لهم ولا خلق من الدرجة الرابعة إلي الدرجة الأولي حيث أصبح اقمؤهم وكـــيلاً لهـــذه الوزارة يتحكم في مصائر هذه الآمة المغلوبة علي أمرها بينما ظل مـــن كـــانوا فـــي الدرجة الثانية والثالثة من ذوي الخلق والأمانة يراوحون في مكانهم وهذه مأساة امـــة ومأساة شعب يشيب لها الولدان في وطن لا وجيع له.

يلحظ المرء تطوراً ملحوظاً في العلاقة الفورية الثنائية خلال هذه الفترة الحرجـــة من تاريخ السودان الحديث والمعاصر حيث وصلت منذ مـــايو ســـنة 1915م تقـــارير مؤكدة تفيد بموقف علي دينار الصريح ضد الحلفاء. ولكنه لم يتأكد ذلك بصورة علنية إلا في يوليو سنة 1915م حيث ألغى السلطان ما كان قائماً بينه وبين الحكومة الثنائيـــة من معاملات. هذا بالإضافة إلى كشفه النقاب عن هويته الإسلامية الواضحة. وبعـــد تأكد انحيازه إلى معسكر دول الوسط (ألمانيا - وتركيا وحلفائهما وعدله عن تأييد دول الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وحلفائهما)، اقتضى ذلك أن تتخذ الحكومة البريطانية ضـــده إجراءات كفيلة بحسر نفوده و إضعاف قوته. فأرسلت الحكومة الثنائية البريطانية عدداً من قواتها إلى النهود. وفي المقابل قام السلطان بتعزيز قواته علـــى حـــدوده ولجـــأت الحكومة الثنائية إلى إستخدام الطابور الخامس من رزيقات وغيرهم داخل معسكر علي دينار بغية تشتيت جهوده وتصديع جبهته الداخلية[56]. وهو أسلوب استخباراتي نـــاجح في مجال شل قدرات الخصم وتعويق وعرقلة حركته وجعله ينشغل بنفسه عن أعدائه.

[56] S.I.R. 259/4-5 Fib. 1916.

ولا زال علي دينار يبذل جهده ودون يأس لكسب علي الميرغني الزعيم الروحي لطائفة الختمية إلى جانبه وعدد لــه في خطابه مرة أخرى أسباب الخــلاف ملخصــاً إياها: أولاً: في تفتيش المحمل بحثاً عن السلاح. إضافة إلى الإهانة التي كانت توجـه إلى قادة المحمل من الشيوخ وأشار إلى منعه من إستيراد السلاح من الحجاز، ثانيهــا: عدم محاكمة من ائتمنهم السلطان على أمواله وهربوا بها إلى ديار الحكومة. ثالثهــا: عدم وفاء الحكومة الثنائية بما دفع ثمنه من أسلحة. وأخيراً يطلب من علي الميرغنــي الوساطة بينه وبين الحكومة الثنائية البريطانية لفض هذا النــزاع باعتبــار أن علــي الميرغني وكيلاً لــه لدى الحكومة. فإذا أوفت بشروطها وعهودها فانه سيظل كما كان على عهده معها ويلتزم بما إتفق عليه معها. وان لا فإنه سيظل على موقفه العدائي مع الحكومة حتى يلقى الله تعالى[57]. يبدو أن هذه كانت مناورة سياسية ذكيــة أراد بهــا السلطان كسب الوقت لأنه كما تقدم لم يقتصر أمره على نزاع قائم بينه وبين الحكومــة البريطانية وإنما تعداه إلى استنهاض تام للأمة. ودعوة شاملة لكافة العناصر الوطنيــة الإسلامية بإعلان العصيان المسلح والتمرد الصريح ضد الحكم الأجنبي في البلاد. في هذا الخطاب أراد السلطان علي دينار أن يكسب موقفه موضوعية ولمعرفتــه بمكانــة علي الميرغني ونفوذه لدى الحكم الثنائي والبريطانيين على وجه التحديد رأى الاستفادة من هذا النفوذ. هذا بالرغم من علمه بعدم جدوى موادده الكفرة. وما عرضه من طرح موضوعي يعتبر على درجة من الإقناع والواقعية. حيث أن جهوده الرامية إلى بنــاء ترسانة حربية قوية، ونكوص العهد والاستيلاء على أمواله عنوة وقفل البــاب أمامــه لاستيراد أسلحة من خارج حدود الحكومة الثنائية، هذه كلها أسباب تقتضي شراسة في العداء، لاسيما من قوة صاعدة تعتمد على مواردها الذاتية.

في هذه الأثناء بدأت الحكومة الثنائية في موادة خصوم السلطان وأبــدت نحــوهم اهتماماً لا سيما موسى مادبو[58] مما يدل على بحثها عن بدائل يمكن أن تــوهن قــوة السلطان وجبهته الداخلية وأن تحل محله ولو إلى حين في إدارة شؤون الــبلاد. وأراد السلطان من جانب آخر أن يلعب على الحبل مرة ثانية حيث أرسل خطابين أحدهما إلى

(57) علي دينار إلى السادة الأشراف السيد علي الميرغني في 1915/8/9م 1 S.N.A. INTEL7/4/10

(58) السردار إلى موسى مادبو في 1915/8/29م الموافق 8 رمضان 1333هـ S.N.A.7/4/6

مدير كردفان والآخر إلى الحاكم العام ناشداً فتح المفاوضات بين الطرفين[59]. ولعبت الحكومة الثنائية على نفس الوتر حيث قام علي الميرغني بتهوين المسألة للسلطان مشيراً إلى أن الأسلحة لا يمكن حلها إلا بحضور سلاطين أما المحمل فإنه لا يعرف عنه شيئاً. أما مسألة القبائل فانه سيناقش أمرها مع الحكومة. وأكد له أن الحكومة ليس لها قصد للاعتداء[60]. هذا الخطاب لا يعدو عن كونه مناورة سياسية من قبل الحكومة الثنائية استخدمت فيها ثعلباً من ثعالب السياسية السودانية وخبيراً متمكناً بالمناورة السياسية؛ ويعتبر في تقدير الكاتب من أدهى وأمكر وأنجح الساسة السودانيين في هذا المجال وكانت الحكومة الثنائية تهدف من وراء ذلك الجهد إلى إثناء السلطان عن موقفه ولو إلى حين. لأن الحكومة كانت سادرة في اتجاهاتها بالبحث عن بدائل له وحماية القبائل (الحدودية)، وتنمية قوتها ومعها طابوراً خامساً في دار فور للفت في عضد السلطان. وقامت الحكومة الثنائية من جانبها بجمع معلومات دقيقة عن قوة السلطان الحربية وتحركات جيشه. كما بعثت بعدد من رجالات مخابراتها وعملائها إلى الفاشر لتزويدهم بتقارير وافية عن كل ما تقدمت الإشارة إليه[61]. مما يؤكد على عدم جديتها في مصالحته أو الاعتماد عليه وإنما كانت تعتمد القضاء عليه بإضعاف قوته أولاً، وتأليب أعدائه عليه ثم الاستيلاء على دار فور ثانياً، حاول السلطان توحيد جبهته الداخلية وجمع شمل خصومه وكسبهم إلى جانبه، فأرسل في 16 أكتوبر 1915م خطاباً إلى موسى مادبو أكثر تحديداً ذكر له فيه معايب الحكم الثنائي مركزاً على النواحي الروحية. ومتطلعاً إلى إخلاء وداى من المسيحيين. وأبدى موسى مادبو تخوفاً من السلطان ولكنه وفي الوقت ذاته أضمر في نفسه شيئاً ضد الحكومة الثنائية وفي النهاية أبدى تعاطفاً تجاه علي دينار ووعد بمساعدة جامعي الضرائب وتوالت خطابات علي دينار على موسى مادبو بغية إقناعه بيد أن موسى تردد في النهاية فلم يستجب استجابة تامة ونكص عن وعوده[62]. وتشددت الحكومة في تفتيش رعايا السلطان

(59) السلطان إلى كل من السردار إلى حاكم كردفان S.I.R 259 August 1915

(60) علي الميرغني إلى السلطان في 1915/9/16م S.N.A . INTEL 7/4/10

(61) المخابرات في أكتوبر 1915م S.I.R. 252 Oct. 1915

(62) D.S.A Box 110/6 Macmicheal: Notes on Darfur history. Oct- Nov 1915. p.12-13.

القادمين من الشرق لا سيما من الحجاز واحتج السلطان على هذا التفتيش الذي ضيق الخناق عليه. وهدد مفتش غرب كردفان ليقلع عن هذا الإجراء وان لا فسيفقد منصبه[63].

يبدو أن العلاقات الثنائية قد بلغت حداً لا رجعة فيه، حيث تحددت وجهة كل من الفريقين بصورة واضحة وإنتهى عهد الدبلوماسية والأسلوب الناعم بين الطرفين وكشر كل منهما للآخر عن أنيابه. وتشددت الحكومة من جانبها في تفتيش رسائل السلطان وقوافله الآتية والرائحة لما إنتابها من شك تجاه علاقات السلطان بالحرمين[64]. وقام مدير كردفان بإعلان السلطان بأن الحكومة اتخذت احتياطاتها اللازمة تجاه تهديداته السابقة. وحاولت تهديده وتخويفه وإدخال الرعب بإرسال قوة من الهجانة إلى النهود – وهي مركز تجاري هام غرب كردفان – على أمل أن يؤثر هذا الإجراء الصارم في موقف السلطان. بيد أن النتيجة كانت عكسية إذ استفز ذلك العمل السلطان حيث سارع بإرسال قوة إلى جبل الحلة. ورأت الحكومة الثنائية البريطانية من جانبها أن هذا التعزيز معناه الاستعداد من قبل السلطان لمهاجمة حكومة السودان الثنائية، إذا ما أقدمت على الهجوم على حدوده الشرقية .

لذا قرر ونجت تركيز القوات من كل الأسلحة في النهود تحت قيادة الليفتنانت كولنيل. ب. ف. كالي مزودة بكل ما تحتاجه من إمدادات. وقد كان العدد الكلي في حدود ألفين[65]. وبلغ الأمر منتهاه لا سيما بعد صدور بيان من الخلافة العثمانية بدعوة المسلمين إلى الجهاد ضد أعداء الإسلام. ووصلت نسخ من هذا البيان إلى السودان تدعو إلى الخروج على الجيش البريطاني. وتجاوباً مع هذا النداء أصدر السلطان بيانات يدعو فيها إلى الخروج والجهاد في سبيل الله. وأخذ يعد العدة ويعزز من موقف جيشه ليقوم بحملة ضد الجيش البريطاني المصري بعد موسم الأمطار[66]. يبدو أن

(63) السلطان إلى مفتش غرب كرفان في 1915/11/23م S.N.A . INTEL 7/4/10

(64) مفتش غرب كردفان إلى نائب مدير المخابرات بالخرطوم 1915/12/16م S.A.A. INTEI . 7/4/10

(65) Sir Reginald Wingate: Darfour Campaign: Supplement to the London Gazette -25 Oct 1915. p. 10366-10367

(66) ونجت إلى وزير الخارجية البريطانية في 1916/1/6م D.S.A. Box. 30/1

السلطان بعد أن وصل إلى مرحلة اليأس من فائدة العلاقة الفوراوية الثنائية. واعتملت في نفسه الروح الوطنية وتوقدت في قلبه ومضة إيمانية دفعت به إلى الوقوف بجانب الصف الإسلامي. ولم يكن موقفه موقفاً سلبياً وإنما قام بإصدار بيانات يشن فيها حرباً على أعداء الإسلام من الكفرة اليهود والنصارى. وفي هذه الأثناء حاول استنهاض همم الشيوخ ولأعيان مرتفعاً بهم من مستنقع الاستكانة والخضوع للحكم الثنائي للاستجابة إلى دعوة السلطان العثماني. فأرسل إلى الشيخ يوسف الهندي خطاباً ذكر فيه أن السلطان محمد رشاد وأولاد السنوسي قد قتلوا أعداداً كبيرة من الإعطاء. وإنهم قد أرسلوا تحت إشراف قيس كريم وآخرين ألفين وأربعمائة بندقية و 400 صندوق ذخيرة[67]. بهذه الأرقام والأخبار السابقة أراد إغراء وتشجيع يوسف الهندي للوقوف بجانب القضية الإسلامية ومقاومة الحكم الثنائي في البلاد. ولكن الذي يبدو أن هؤلاء الشيوخ كانوا أضعف من أن يحركوا ساكناً لوضعيتهم الجديدة. حيث تم استقطابهم واستمالتهم وتدجينهم بواسطة النظام البريطاني فأضحوا هجيناً عجيباً ليس بمقدوره الارتقاء إلى هذا المستوى من المقاومة والتضحية.

وتأكد للحكومة الثنائية في هذه الأثناء عداء السلطان الصريح لها وزادت تهديداته وتكرر وعيده لكل من مدير كردفان ومفتش النهود اللذين قاما بإيصال ما وردهما من قبله للحكومة الثنائية في الخرطوم[68]. حدا ذلك بالحكومة الثنائية والقيادة البريطانية إلى العزم على مبادرة السلطان بالهجوم لاسيما بعد صدور بياناته الداعية إلى الالتفاف حوله ومقاتلة الكفار من اليهود والنصارى[69]. وقد جانبه الصواب حين أعلن توقيته للقيام بالهجوم في بداية سنة 1916م فاتخذت الحكومة الثنائية البريطانية احتياطاتها بحبك خطط معاكسة[70]. حيث خشيت الحكومة الثنائية أن تصله إمدادات من الأتراك أو السنوسي الأمر الذي جعلها تفضل المباغتة قبل أن يحين الوقت الموعود[71]. ولا يخفى أن المباغتة أسلوب عسكري ناجح وذلك قبل أن يستجمع الخصم قواه. ولما

(67) علي دينار إلى يوسف الهندي في 1916/1/12م

(68) مفتش النهود إلى نائب مدير المخابرات في الخرطوم 1916/1/16م S.N.A . Intel 7/4/10

(69) ونجت إلى وزير الخارجية البريطاني في 1916/8/6م D.S.A. Box 30/1

(70) ونجت إلى وزير الخارجية البريطاني في 1916/8/6م D.S.A. Box 30/1

(71) I bid.

لم يجد أسلوب الحسنى مع موسى مادبو لجأ السلطان إلى تهديده فاستنجد الأول بالحكم الثنائي[72]. ويبدو انه لجأ إلى هذا الأسلوب بعد أن تأكد لديه أن لا فائدة من مهادنته واستمالته .ورأت الحكومة الثنائية فيه حليفاً قوياً ومركزاً من مراكز القوى والتأثير ضمن استراتيجيتها الجديدة فطلب منه السردار مقابلة نائب المخابرات: "لأن الغايات التي أرمي إليها هي أن أحمي مصالح قومك وأبناء قبيلتك وهذا هو السبب والباعث الوحيد الذي حملني على أن اقترح عليك هذا الاقتراح لأجل تبادل الأفكار والآراء[73]". بدا جلياً أن الحكومة الثنائية واستخباراتها بهذه الدعوة كانت ترمي إلى إجراء مقابلة شخصية مع موسى مادبو للتأكد من ولائه ومدى قدرته على تنفيذ خططها. وهذا الاهتمام يبدو على مستوى عال حيث حظي موسى مادبو باهتمام الحاكم العام نفسه مما يدل على انفصام العلاقة الفوراوية الثنائية. وبدأت الحكومة تفكر بجدية في بعث مقاومة جديدة في دارفور بإمكانها الفت في عضد السلطان. وجد البحث عن بديل يمكن أن يكون مقبولاً لدى أهل دار فور ليحل محل السلطان.

وفي الوقت ذاته أوعزت الحكومة الثنائية إلى علي الميرغني بمواصلة الكتابة إلى السلطان بغية إقناعه بالعدول عن موقفه، ومناقشته لإضعاف عزمه وإشعاره بأن ما لديه من قوة لا يؤهله للوقوف في وجه الحكومة الثنائية. وأكد له أن مصيره سيؤول إلى ما آل إليه حال آل المهدي والخليفة عبد الله، وحاول إقناعه بأن الشريعة لا تمنع من الركون إلى حماية الكفار. وقاد أدلة شرعية ليبرهن له على مصداقية مقولته حيث عرض تلك الأدلة في شكل أسئلة تقريرية فحواها: ألم يحتم الرسول (ص) ببني هاشم في مكة والمطعم بن عدي؟. وألم يرسل أبنته ومن معها إلى الحبشة؟. ولم ينس بذكاء أن يوهن عزيمة السلطان ويلقي الرعب في قلبه بأن عرض بأسلحة السلطان مؤكداً على أنها أصبحت أسلحة ثانوية لا قيمة لها لا سيما بعد اختراع القنابل. ويدعوه إلى عدم الخروج على الحكومة الثنائية[74]. لقد أتبع علي الميرغني أسلوباً دعائياً رخيصاً لصالح الحكومة الثنائية وقام باستخدام وتوظيف مخزونه المعرفي الديني بغية إخضاع

---

[72] المخابرات S.I.R 258/4-5 Jan. 1916

[73] السردار إلى موسى مادبو في 1916/2/2م S.N.A. Intel. 7/4/6

[74] علي الميرغني إلى السلطان سنة 1916م S.N.A. INTEL 7/4/10

السلطان لحكم أجنبي غادر بكيفية مغلوطة ناتجة عن خلط بين الأوراق وتعمية مقصودة غايتها قتل الروح المعنوية لدى السلطان وإتباعه وإشعاره بضعف إمكاناته وإلباس هذا الموقف لبوساً دينياً ولعل هذا أخطر ما فيه أنه أراد أن يضفى علي الخنوع والخيانة والتبعية للغرب في مخططاته الاستغلالية شرعية كاذبة.

لا شك أن أسلوب الخطاب وما قاده مرسله من أدلة يؤكد أن هذا المحتوى قد أوعزت به الحكومة الثنائية إليه. لاسيما الإشارة الأخيرة فيه ونصحه السلطان بعدم الخروج ومحاولة أثنائه عن المقاومة، وكان القصد من العبارات الواردة بإشعاره بأن قواته لا تساوي شيئاً أراد بها بعث الوهن في نفس السلطان وإضعاف عزمه. أما الأدلة الشرعية التي قادها أراد بها إخماد روح الحماس الديني لدى السلطان. بيد أن السلطان كان موقناً بما أعلنه لا سيما وأن الجهاد واجب ضد أعداء الله في الأرض[75]. فيما يبدو أن الحكم الثنائي قد حاول استخدام كل الأسلحة والأساليب المتاحة. لأن استخدام رجالات الطوائف وزعماء القبائل من أخطر الأسلحة سلباً وإيجابا لأنه بإمكانهم إلباس الحق بالباطل والعكس صحيح لثقة العامة بهم .. وكان السلطان يدرك أن الدور المنوط به ديناً هو مقاتلة الذين يلونه من الكفار وبالتالي لم تفت في عضده المحاولات السابقة وقد أعرب عن ذلك صراحة بقوله: (.. قد وجهنا أفكارنا كلية وجزئية نحو قتال ما يلينا من طائفة الذين كفروا عملاً بقول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)[76]. بذا يتضح أن مستنده ديني في عدائه للحكم الثنائي إذ كان يرى في وقوفه بجانب الخلافة العثمانية موالاة للمسلمين وأن وقوفه مع الحكم الثنائي البريطاني موالاة لأعداء الله وهي منهي عنها شرعاً. لذا لم يتنازل قيد أنملة عن موقفه ولعل هذا يلقي الضوء على موقفه من الحكومة البريطانية وعدم مقابلته لأي مسؤول أوربي طوال فترة حكمه.

وقام السلطان بمناشدة شيوخ القبائل لمقاومة الحكم الثنائي في البلاد مؤكداً لهم أن الوقوف مع المسيحيين في حربهم لا يتفق والروح الإسلامية وطالبهم بوقف أي مساعدة

(75) السلطان إلى حاكم ومفتش كردفان 1916/2/7م 3 ربيع الثاني 1334هـ S.N.A. INTEL7/4/10
(76) السلطان إلى أنور باشا سنة 1916م الموافق 1334هـ S.N.A. INTEL 2/3/13

لأعداء الله ودينه. وأتبع ذلك بتهديد مقتضاه محاربة كل من لا يتفق وهذا المفهوم لـئلا تتصدع الجبهة الداخلية للمسلمين وليضمن وحدة مواطنيه وليتفرغ لمواجهة أعـداء الله الكفرة[77]. مما يؤكد على ترتيب الأولويات لديه، لأن تأمين الجبهة الداخلية هـي أول خطوة ينبغي أن يتفرغ منها. إذ لا يخفى على فطنة متأمل أن من أخطر الأشياء فـي تهديد الجبهة الداخلية وجود طابور خامس يمكن أن يهدد الحصون من الداخل ويفـتح ثغرة للأعداء ..

وحرصت الحكومة الثنائية البريطانية على قطع العلاقـات الخارجيـة للسـلطان لا سيما بعد وصول أخبار تفيد أن نوري باشا وسيد هـلال - وهمـا مـن القيـادات العثمانية ذات الأثر والنفوذ - سيصلان دار فور في طريقهما من ليبيا وأن وصـولهما كان يعني تغلغل النفوذ العثماني في دار فور[78]. مما يعني تهديداً مباشراً من الخلـف لخطط دول الحلف في المنطقة. في هذه الأثناء قام موسى مادبو بدور الطابور الخامس مبلغاً عن كل ما يتصل بنشاطات السلطان وتحركاته[79]. الأمر الـذي يـدل إلـى أن كوارث دار فور الحالية هي موروث تاريخي ينبغي دراسته وتحليله وتفكيك طلاسـمه التاريخية وفهم معطيات حاضره في ضوء هذه المفردات التاريخية الهامـة، فالأنانيـة القاتلة وحب الذات وضعف الوازع الأخلاقي والوطني وحـب الزعامـة هـي أدواء عضال سبب كل كوارث هذا البلد وأهله الطيبين. فالسياسة والزعامة في السـودان لا تعدو عن كونها (صعلكة) بالمفهوم السودني أو بالمفهوم الدارجي السوداني (يـا فيهـا يا أطفيها) فالسياسي والزعيم والقيادي خارج السلطة رجل منطـق وعقـل وحكمـة وداخل السلطة أصم أعمى أبكم حيثما يوجه لا يأتي بخير ويكون كلاً علـى زعامتـه يضحك إذا ضحكت ويبكي إذا بكت فيلغي عقله وفكره ويسلم مفاتيح أمره للزعامة وإن كانت أقل منه مستوى وعقلاً وفكراً وإن لا فالويل والثبور. فكل الانقلابات المزعومـة في السودان هي عبارة عن تسليم وتسلم وضيق طرف بطرح طرف آخر دون اعتبار لمصلحة وطن أو أمة فالكل كاذب في دعواه الوطنية أو الشعبية، فالكـل أنـاني إلـى النخاع دون استثناء

[77] D.S.A. Box 10/5/H.A Macmicheal: Notes on Dar fur history (since 1878) Khartoum 1915- Typescript. p.9-11.

[78] نائب المخابرت إلى ماكمايل في 1916/3/6م S.N.A. INTEL. 131/8

[79] ضابط المخابرات السياسي إلى موسى مادبو في 1916/3/10م S.N.A. INTEL 7/4/9

أما السلطان ما فتئ يصدر بياناته النارية معلناً الجهاد. وأوضح أن طبيعة حربه مع الحكم الثنائي البريطاني دينية وانه على كل من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن ينهض ويسارع إلى الجهاد في سبيل الله[80]. هذا موقف بطولي ينبغي أن يسطر بمداد من ذهب لصالح السلطان علي دينار، كما يعتبر واحدة من إيجابيات وجوده في السلطة. ويعكس ذلك فهماً متقدماً قد تجاوز حدود الأثنيات والعرقيات والوقوع في براثن أحضان الاستعمار الغربي بالرغم من خطورة الموقف ودقة الظرف الذي وجد فيه. حيث أن مصلحته الذاتية كانت تقتضي أن يؤثر السلامة على المجازفة، ولكنها المبادئ ورجالات المبادئ، ولكنه التاريخ ورجالاته الذين اصطفاهم الله لأداء هذا الدور لبطولي المتميز. ولقد ركن كثير من القيادات السياسية والروحية يومئذ لهذا الجانب وأثروا جانب السلامة ونالوا نتيجة ذلك الألقاب والأوسمة والأراضي والأملاك مقابل شراء صك السكوت على الوجود الأجنبي في البلاد. وكانوا أردأ سلف لأسوأ خلف ممن بليت وشقيت بهم البلاد ردحاً من الزمن في التاريخ المعاصر حيث كانوا ولا زالوا يشكلون عقبة كأداء في سبيل تقدم ورقي هذا الوطن.

وأعلنت الحكومة الثنائية حربها ضد السلطان واتصلت بزعماء العشائر لاستمالتهم. وتم تعيين الأمير الآي (ب.ف. كالي) وكيلاً عن الحاكم في دار فور بعد غزوها والقضاء على السلطان وأصبح هذا الكولونيل مسئولاً عن إدارة العمليات الحربية في الجبهة الغربية[81]. وتعددت جهود الحكومة بغية تصديع جبهة السلطان وزعماء العشائر إلى محاولة مكاتبة رجالات البلاط الفوراوي ومحاولة إغرائهم وتسليمهم وتهديدهم إن لزم الأمر حتى يتخلوا عن مسئولياتهم ويعلنوا إستسلامهم وبذا تسلم نفوسهم وأموالهم[82].

وبدأت الحكومة حملة إعلامية واسعة النطاق لتشويه سمعة السلطان فبالرغم من الثناء على حكمه والموافقة على استمرارية وضعه لأكثر من ستة عشر عاماً قام وكيل

(80) السلطان في 1916/3/10م D.S.A. Box 128/1

(81) الحاكم العام إلى الشيخ مادبو في 1916/3/10م S.N.A. INTEL 7/4/9

(82) ضابط المخابرات السياسي إلى عدد من رجالات البلاط الفوراوي 1916/3/15م S.N.A. INTEL 7/4/9

الحاكم العام بتوجيه خطاب عام إلى الجنود جاء فيه: (ومنذ الوقت الذي صار فيه سلطاناً لدارفور فإنه كان يمارس الطغيان والظلم حيال مواطني بلده وكان ينوي بصورة دائمة الثورة ضد الحكومة ولكن الخوف وحده هو الذي أجبره على السكوت)[83]. هذا شان استعماري قديم حديث ومعاصر، من رضي بالخيانة والعمالة والخضوع لوصفات الاستعمار الأوروبي أصبح بطلاً وزعيماً قومياً، ومن عارض أو رفض فإنه يصبح بمنطق الاستعمار الغربي خارجاً على الشرعية والقانون والحق. والأمثلة كثيرة كثرة تثير التقزز في التاريخ الحديث والمعاصر وتفوق الحصر فمعظم الأنظمة الديكتاتورية الموجودة في العالم العربي والإسلامي والأفريقي هي صنيعة استعمارية وجدت في الغرب مظلة الحماية وما أن يهدد نظام ما من هذه الأنظمة العميلة المصالح الاستعمارية في بلده حتى ترفع ضده وصفة الاستبداد وكبت الحريات وحقوق الإنسان. تلك الوصفات الجاهزة وما أن تبحر سفن التحرر للتخلص من أسر هذه الأنظمة الاستبدادية الفاسدة حتى يهب الاستعمار الأوروبي بكل ما يملك لحمايتها تحت مظلة من المظلات الجاهزة.

لا يخفى أن كلام وكيل الحاكم العام الأنف لا يخلو من حقيقة فصحيح أن السلطان أضمر العداء للحكومة الثنائية البريطانية منذ أول يوم لتوليه السلطة في بلاده وأن تعامله معها أمر اقتضته ظروفه الحرجة. يبدو ذلك واضحاً من تجنبه للالتقاء بالأوربيين منذ أيامه الأولى سواء باستقبالهم بدار فور حيث كان يخشى من تجسسهم، أو بخارجها حيث كان يتخوف على نفسه من غدرهم[84]. وهم ليس لديهم عهود وتجارب التاريخ المعاصر ماثلة أمام عينيه سواء مع الزبير ود رحمة أو أبنه سليمان الزبير. وحتى في التاريخ المعاصر إذ كثيراً ما نلاحظ أن الدول الغربية عموماً لا تحترم العهود والمواثيق كما حدث لنوريقا في أمريكا الجنوبية وصدام في العراق ونظام طالبان في أفغانستان. رغماً عن أن ذلك كان يمثل خرقاً لمواثيق المنظمة الدولية التي أقاموها هم بأنفسهم. أما الإشارة إلى انه كان ظالماً لرعيته فهذا ما لم نسمعه

[83] كالسي إلى الجنود في 1916/3/13م D.S.A. Box. 127/8

[84] Sir Reginald Wingate .OP. Cit. pp. 10376-8.

طوال الفترة الماضية. مما يدل على أن هذا الادعاء هو استهلاك سياسي اقتضته ظروف العداء الطارئ والفجور في الخصومة وأرادت به الحكومة إيجاد مبرر لأعمالها الحربية في دارفور. ومن المعلوم ومن قراءة الحاضر المعاصر يلاحظ أن الدول الأوروبية والغربية عموماً لا تتورع عن الفجور في الخصومة متي ما رأت أن مصالحها تتهدد. إذ لا تحكمها في هذا الجانب معايير أخلاقية أو إنسانية.

وتقدمت قوات الحكومة نحو جبل الحلة مزودة بكل ما تحتاجه من عتاد وعدد. بيد أن ذلك لم يلن قناة السلطان الذي أعلن عزمه على المقاومة وعلي الصعيد الآخر فقد صدرت الأوامر الثنائية البريطانية باحتلال جبل الحلة وديار قبائل الوسط في بداية مارس 1916م. وفي 16 منه احتلت القوات الثنائية أم شنقة نقطة مراقبة الفور وفي 24 مارس تقدمت القوات الثنائية تجاه جبل الحلة وتم اعتراضها بواسطة قوة فوراوية تقدر بثمانمائة شخص. بيد أن نيران المدفعية بددتها عن أخرها وكان لاحتلال جبل الحلة أثره المعنوي السيئ على قوة السلطان العسكرية ونفوذه في المنطقة[85]. إذ كانت هذه أول محك تجربة ساخنة. وأول إحتكاك مباشر بين القوات الثنائية البريطانية وبين قوات السلطان الوطنية حيث سلكت فيه القوات الثنائية البريطانية أسلوب المباغتة مما أربك حسابات قيادة السلطان الوطنية. إذ لم يكن السلطان يتوقع هجوماً عنيفاً وتخطيطاً مستعجلاً على بلاده قبل حلول نهاية موسم الأمطار نسبة لصعوبة ووعورة الطرق. وكانت استراتيجيته تنبني على تحين هطول الأمطار مما سيكون له أكبر الأثر في تنفيذ خططه الرامية إلى قطع خطوط المواصلات ضد القوات الأجنبية الغازية وإشعال الحرب [86].

ولعل ما حدا بالحكومة الثنائية لاستعجال خطواتها هو استقطاب السلطان لعدد من جنود الحكومة الثنائية. وقد أدت حملته الإعلامية دورها في استقطاب عدد من الضباط المصريين الذين يعملون تحت راية الحكومة الثنائية البريطانية وقيادتها العسكرية، وبالتالي خشيت استفحال أمره لاسيما وأن دعوته قد لقيت قبولاً لدى الوجود المصري مما سيؤثر تأثيراً بالغاً على خطط الحكومة البريطانية في المنطقة.

---

[85] Ibid.
[86] Ibid.

فبعد صدور بيان السلطان الداعي إلى الخروج على الحكم الثنائي البريطاني انضم إليه أحد الضباط المصريين وهو الملازم محمد أفندي عبد الموجود. وقد قام هذا الملازم بعد صدور البيان الحكومي الذي اتهم فيه السلطان بالظلم بتفنيده وذلك بتوجيه بيان إلى إخوانه ضباط النهود، فند فيه دعاوى الحاكم العام الكاذبة. وأكد أن وصف السلطان بالظلم والاضطهاد محض كذب وافتراء. وفند دعاوى الحاكم العام القائلة بأن السلطان يكره كل الوافدين من غير سكان دارفور أن ذلك مجرد أدعاء باطل . وأكد الملازم محمد افندي على صدق دعواه بأن هناك أتراك ومصريون وغيرهم داخل دارفور وداخل جيش السلطان يقاتلون جنباً إلى جنب ضد القوات البريطانية وأعوانهم من المصريين والسودانيين. وفي المقابل لقد أراد الحاكم تسويق دعاية الإثنية وإثارة العرقية التي لم تكن بحال تشبه دار فور ولا أهلها وما لم ينجح فيه الاستعمار الأوروبي في القرن الماضي نجح فيه الآن للأسف بتقدير امتياز بعض أبناء لغفلة القائمين علي أمر دارفور من الطرفين حكومة ومعارضة. حيث كانت دار فور فيما مضى قبلة لكل عنصر مسلم، بغض النظر عن عرقه أو موطنه فهي بلد الإسلام، والجنسية والهوية فيها إسلامية المرء لا لونه كما أراد لها الاستعمار الغربي المعاصر وانخدع بذلك فريق من أبناء دار فور الذين تم التغرير بهم في غياب الإلمام بمفردات المنطقة التاريخية وموروثها الحضاري من قاصري النظر في القرن الحادي والعشرين. وتأييداً لدعواه وبرهاناً على كذب دعاوى الحاكم العام فقد ذكر محمد عبد الجواد بأنه قد استقبل هو شخصياً عند قدومه إلى معسكر السلطان بالهتاف وصيحات الله أكبر، الله أكبر. وأشار إلى وجود أشخاص مبعوثين من قبل السلطان محمد رشاد. وأهاب بإخوانه من ضباط النهود المصريين والسودانيين بالثورة والنهوض ضد الكفرة والمشركين وأعوان الجيش البريطاني الغازي الكافر(87).

هذا الخطاب يلقي الضوء على جوانب هامة من سياسة السلطان وتعامله وسلوكه واتجاهه الإسلامي. وقدرته التأثيرية لجذب عدد من القيادات العسكرية في الحكومة

(87) الملازم محمد أفندي عبد الموجود إلى إخوانه ضباط النهود في1916/3/27م الموافق 13جمادي الأولى 1334هـ
D. S. A. Box. 127/8

الثنائية البريطانية على اختلاف جنسياتها وبالتالي فإن حركته لم تكن حركة إقليمية ذات نزعة قومية محدودة بل امتازت بأنها كانت حركة إسلامية انصهرت في بوتقتها العرقية والنزعة الإقليمية العناصر التي استجابت لها متجردة من كل الانتماءات ما عدا انتمائها للإسلام. وإن كنا لا نملك مزيداً من التفاصيل عن تحركات محمد عبد الموجود إلا أنها من ناحية التاريخ القومي والإسلامي ربما تمثل صفحة ناصعة من صفحاته، هذا لما فيها من دلالات نبيلة وسامية وهي تمثل انعكاساً حقيقياً للروح الإسلامية الحقة. وتؤكد على أن الارتفاع فوق الانتماءات المحلية والإقليمية هو قدر إسلامي بحت ذو نظرة فلسفية غايتها نبيلة. ولا يملك المرء حقيقة إلا أن يعجب بهذه الشخصية التي تجاوزت انتماءها القومي وسلامتها الشخصية فاستعلت بإيمانها على المصالح الوطنية ذات الصبغة والآفاق الضيقة وتطلعت إلى أفق الإنسانية الأرحب متمثلاً في دعوة الإسلام ونداءاته الكثيفة لإقامة العدالة وتحقيق المساواة بين بني البشر على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ومللهم.

وتمثل تحركاته تضحية منقطعة النظير لأن خروجه على قيادته وهو جندي مصري وانضمامه إلى معسكر الخصم الذي لا تجمعه به سوى دعوة الإسلام ما يعتبر خيانة في نظير الأعراف والأوضاع الأرضية، ومن المعلوم أن الخارج علي القيادة في الميدان حكمه الإعدام لا شك أن ذلك الموقف البطولي سيظل يمثل شجاعة وبسالة نادرة لأخوة لنا في مصر ويؤكد على أنهم لم يكونوا على رضاً تام بما يجري على الساحة. بيد أن الجانب المشرق في تحركاته هو أن هويته الإسلامية كانت أكثر أصالة من هويته الإقليمية. وان انتماءه الفكري كان أسمى وأنبل من انتمائه المهني، وفق المفهوم الغربي الاستعماري الضيق ووفق التربية العسكرية الغربية البليدة التي تجعل الإنسان آلة صماء تنفذ وإن كان الأمر خطأ ثم تناقش.

وعلى صعيد آخر فان حركة محمد عبد الموجود ووجوده في معسكر السلطان تنفي نفياً قاطعاً ادعاءات الحكم الثنائي البريطانية القاضية بوصمه بالعنصرية والإقليمية الضيقة وتؤكد أصالة تفكيره ونصاعة اتجاهه الإسلامي، وموضوعية قضيته التي اقنعت عدداً غير قليل من جنود الحكومة وضباطها في النهود وأحدثت صدعاً وسط

القيادة الغربية هناك[88]، الأمر الذي جعل الحكومة تسارع الخطى في استراتيجيتها العسكرية لئلا يبلغ السلطان غايته. واتخذت الحكومة نتيجةً لنجاح سياسة السلطان الرامية إلى تفتيت جيش الأعداء إجراءات صارمة وقاسية ضد كل من اشتمت فيه رائحة التعاطف مع القضية الإسلامية المطروحة من قبل السلطان علي دينار والسلطان محمد رشاد العثماني فقامت بتجريد وحبس بعض القيادات العسكرية في الجيش[89]. يدل ذلك على نجاح سياسة السلطان واتجاهه الإيجابي وطرحه الموضوعي ويؤكد على أن هذه السياسة كان مشكلتها الزمن إذ لو أتيح لها زمن كاف لأتت ثمارها قطوفاً دانية، ولعل ذلك يفسر تعجل الحكومة الثنائية البريطانية واتخاذها لتدابير المباغتة ومباداة السلطان بالهجوم لئلا يأخذها على حين غرة. وفي تقدير الكاتب أن عدم السرية وكشف السلطان لنواياه هي التي حالت دون بلوغ مرماه ولعل ذلك نتج من اختراق استخباري لخططه واستراتيجياته .

لقد كانت قوات الحكومة الثنائية المهاجمة تتفاوت ما بين ألفين وثلاثة آلاف من القوات المحاربة من رجال المشاة السودانيين والفرق السوداء وقوات الهجانة والفرسان من كردفان. ثم عرب شرق السودان "مشاة العرب والهجانة" ثم قوة من حملة البنادق البريطانية معهم أربعة مدافع مكسيم وكذا المدفعية المصرية[90].ولقد كان احتلال جبل الحلة مفاجأة وصدمة بالغة للسلطان الذي كان يعد العدة للتقدم نحو الجبل. لاسيما بعد إصداره بياناً يدعو فيه المسلمين قاطبة إلى الجهاد في سبيل الله وكان مقدراً لقواته أن تصل جبل الحلة في صبيحة 1916/3/22م بيد أنها فوجئت بتقدم قوات الحكومة التي استفادت من القبض على أحد الكشافة الفوراويين الفارين والذي حال قبضه والضغط عليه كشف عن خطة السلطان. وبالتالي نجحت الحكومة البريطانية في أن تحبط خطط السلطان العسكرية وملّك ذلك الكشاف الحكومة الثنائية البريطانية مفاتيح المباغتة والمبادرة المبنية على المعلومة الصحيحة.لذا سارعت قوات الحكومة الثنائية البريطانية نحو جبل الحلة. وفعلاً تقدمت قوات السلطان نحو ذات النقطة إلا أنها قد

---

[88] خطاب من مجموعة المجاهدين بالغرب إلى السردار في 1916/3/18م D. S. A. Box. 127/8

[89] خطاب من مجموعة المجاهدين بالغرب إلى السردار في 1916/3/18م D. S. A. Box. 127/8

[90] يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره ص 384-385 .

فوجئت بوجود البريطانيين وأعوانهم إمامهم لذا رابطت على بعد ميلين من جبل الحلة، وهي تتكون من ثمانمائة فارس على أمل الإحاطة بالعدو بعد سبقه إلى جبل الحلة. بيد أن العدو قد نجح بواسطة نيران مدفعيته الثقيلة من تشتيت قوات الفور مرة أخرى[91]. وعلى الرغم من ذلك فقد تمتعت قوات السلطان بقدرٍ عالٍ من العزم والحزم وقوة الإرادة وتكرار المحاولة. فكلما زحزحت عن موقع تجمعت في موقع آخر مبدية بسالة نادرة وإصراراً عجيباً على الدفاع عن دارها وعقيدتها وسلطانها[92]. وهذا شأن سوداني أصيل حيث يبدي السوداني في ساعات الشدة والنجدة بسالة نادرة وشجاعة عظيمة دفاعاً عن مقدرات بلاده وعقيدته عكس ما عليه أحفاد اليوم من تجار السياسة وباعة الهوى في فنادق أوروبا، فنادق العهر والفسق والفجور وفنادق بعض الدول العربية، ممن أعمتهم أنانيتهم المفرطة وحب الذات عن مفردات التاريخ الوطني المعاصر.

بيد أن استعدادات الحكومة الثنائية البريطانية كان عالياً لا سيما بعد اندلاع الحرب التي أسموها زوراً بالعالمية. وقام السلطان بإرسال خطابات إليها يشتمها فيها ويتوعد (أمنها) بالثبور والهلاك، لذا انصبت جهودها على حماية حدودها الغربية في محاولة جادة للقضاء على هذا السلطان لأزاحته عن المسرح السياسي[93]. ومما يدل على عدم ملائمة توقيت الهجوم الحالي بالنسبة للسلطان أنه راسل عدداً من شيوخ كردفان ووعدهم بالهجوم على الحكومة الثنائية في يونيو ويوليو ويحثهم على النهوض والثورة ضد الكفار والمشركين ومن والاهم بيد أن هؤلاء الشيوخ ورؤساء العشائر كانوا أكثر تأثراً بالدعاية الثنائية البريطانية[94] من دعاية السلطان لاسيما وقد رأوا بأم أعينهم ما حاق بالدولة المهدوية. وقامت الحكومة الثنائية البريطانية بتوزيع منشورات في دار فور وحدودها تحث الشيوخ وزعماء العشائر على عدم مقاومة الجيوش الغازية وتعدهم بالسلام والأمان هذا بعد استيلائها على جبل الحلة[95]. لم يثن ذلك الإجراء

---

(91) المصدر السابق

(92) كالي إلى الحاكم العام في 1916/3/25م D. S., A. Box. 127/8

(93) الحاكم العام إلى وزير الحربية البريطاني في 1916/3/2م D. S. A. BOX. 127/8

(94) S. I. R. 260 march 1916.

(95) D. S. A. BOX 127/8

السلطان بالرغم من عدم استعداده التام وعدم ملائمة الوقت إلا أنه عقد العزم على المقاومة عن وطنه ومجد آبائه حتى أخر قطرة في دمه[96].

يعكس ذلك الموقف رده الحاسم والقوي على تهديد الحاكم له بقوله: (أما تهديدكم لي فأنا لست دنقلاوي – يقصد محمد احمد المهدي – ولست عبد الله التعايشي فأنا بفضل الله سلطان أبن سلطان ورثت الملك كابراً عن كابر وراثة حقيقية وجلست على عرش آبائي وأجدادي بأمر الله الواحد الصمد وما دام أنكم صرتم تهددوني فالله وبالله ولو بسيفي ورأس حصاني أن شاء الله تعالي أقاتل في سبيل الله وأنصر دين الله)[97]. هذا الخطاب ينم عن قوة إيمانية عالية واعتزاز وافتخار بتاريخ أصيل فحينما يعرض بمحمد احمد المهدي وعبد الله التعايشي كأنه أراد أن يؤكد على أن هؤلاء ليسوا من بيوت حكم أو بيوت أمجاد تاريخية في تاريخ السودان الحديث والمعاصر. وإنهم لم يتعاطوا الحكم نتيجة إرث أصول الحكم من آبائهم كما هو الحال بالنسبة له فهو سلطان ابن سلطان مارس آباؤه السلطنة ورضع هو من ثديها وعاش في كنفها عكس المذكورين أعلاه من ذوي التجربة الفجة الساذجة والتاريخ المنبت فأحدهم كان ابن صانع مراكب والآخر كان ابن مشعوذ. ويؤكد هذا الخطاب من جانب آخر على صلابة عوده وقوة شخصيته وقوة عزيمته ومضاء إرادته، فهو شخصية عنيدة لا تستجيب للتهديدات إلا بعناد زائد. وهو يجسد طبيعة الشخصية الفوراوية الصلبة.

وأردف هذا الخطاب بخطاب آخر جاء في مستهله: (إلي السردار الذي يزعم أنه حاكم السودان)[98]. في هذا الخطاب كشف السلطان عن هويته ورؤيته الموضوعية للنظام البريطاني الجديد في السودان فهو لا يعترف به إبتداءً، وإن كل الذي حدث في الماضي كان من باب التعبئة وكسب الوقت وتقوية الذات والمداراة ولكنها بحكمة وروية ودون ارتماء في أحضان القوات الغازية كما حدث بالنسبة للزعماء الثلاثة الذين شكلوا جذور الأحزاب الطائفية الموجودة الآن على الساحة السودانية. فقد كان علي دينار أكثر أصالة ووطنية وقوة وإدراكاً لمقتضيات المرحلة من هؤلاء الزعماء

(96) يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص375.
(97) علي دينار إلى الحاكم العام 7 ربيع الثاني سنة 1334هـ (1 أبريل سنة 1916م) D. S. A. BOX. 128/1
(98) Ibid.

الثلاثة: علي الميرغني وعبد الرحمن المهدي ويوسف الهندي الذين أصبحوا بقدرة قادر وبتأييد ودعم من الإدارة البريطانية مكافأة لهم علي عمالتهم وسكوتهم غير المبرر على مساوئ الحكم البريطاني بالبلاد رموزاً وطنية وقادة سياسيين للبلاد. أما علي دينار بحركته تلك فلقد أشعل فتيلة المقاومة الأولى في الوقت الذي كان يستعد فيه هؤلاء الزعماء لتهنئة انجلترا في انتصارها على تركيا الإسلامية فشتان بين الموقفين، بين موقف الخزي والعار وموقف البطولة والشجاعة. وما أشبه اليوم بالبارحة بين من يرفض التدخل الأجنبي وهو واع لمفردات التاريخ الحديث والمعاصر وبين أغبياء اجتمع تعيسهم على خائب الرجاء ممن أكل الدهر عليهم وشرب، داعين القوات الأجنبية للتدخل، ناظرين تحت أقدامهم وواضعين نصب أعينهم مصالحهم الشخصية والشخصية جداً ومؤملين إسقاط حكومة الإنقاذ بأقذر وسيلة وهي التدخل الأجنبي في البلاد، غافلين أو متغافلين عما يلحق بالوطن من أضرار سياسية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية من جراء التدخل الأجنبي وغير معتبرين بما حدث في العراق وأفغانستان من أحداث يشيب لها الولدان.

وحاولت السلطات البريطانية في السودان يومئذ تبرير الموقف الفوراوي بأن السلطان قد فقد شعبيته لذا اعتصم بالدين[99]. يدل ذلك التحليل الفج ولربما المتعمد على اضطراب في التحليلات السياسية الثنائية البريطانية لموقف السلطان. حيث يناقض ذلك تماماً ما ورد في خطاب القائد البريطاني في المنطقة الغربية (كالى) إلى الجنود الذين تحت أمرته، من أن السلطان ومنذ توليه السلطة لم يكن راضياً عن الحكم الثنائي البريطاني بالبلاد. وأن الحكومة الثنائية البريطانية لم تعينه و إنما وجدته أمراً واقعا فلم تكن لديها الرغبة – لعدم قدرتها– في إزاحته في حينه وهي لم تثبت أقدامها بعد القضاء على ثورة إسلامية قلبت الموازين فأحدثت انقلاباً في الفكر والشعور لدي الأمة السودانية فأحدثت صدي واسعاً تجاوز حدود السودان إلى غيره من بلاد العالم الإسلامي. مما مضى يتضح أن الفريقين كانا يلعبان على بعضهما الآخر. فالسلطان كما ذكرنا من قبل وكما ذكر القائد البريطاني (كالي) لم يكن راضياً بالحكم الثنائي البريطاني منذ البداية، ولقد كان الحكم الثنائي البريطاني من جانب آخر يبادله ذات

[99] يونان لبيب رزق مصدر سبق ذكره ، ص375 376.

الشعور بيد انه كان أمراً واقعاً لا محالة من المعاملة معه ومداراته، وبهذا النظر يمكن أن نفسر سياسة السلطان الخارجية إزاء الحكم البريطاني منذ البداية وحتى النهاية.

ومن هذا الجانب كان تخوف الأوربيين ولا يزال إلى يومنا هذا من وجود الزعامات الدينية أو الجماعات ذات الميول الإسلامية والاتجاهات النزيهة في المنطقة. وفي سبيل القضاء عليها فان الغرب لا يتورع عن أتباع كل الأساليب اللأخلاقية والمنافية لكل القيم والمثل الإنسانية لأزاحتها عن المسرح السياسي والاجتماعي وأن يكبت صوتها وان يكمم أفواهها، لذا لا غرابة آن وزعت الحكومة الثنائية البريطانية يومها منشوراً اتهمت فيه السلطان بالجور في أحكامه وإعدام الكثير من رجالاته وأنه قد تحالف مع الألمان وغيرهم من الأعداء. ونتيجة لذلك فإن حكومة السودان البريطانية قد أعلنت الحرب ضده وتتعهد بتوفير الأمان والرفاهية لكل سكان دار فور، ولكل من يسلم نفسه للحكومة وضمان ممتلكاته وسُتوفر الهدوء والسكينة وتحافظ على النظام بين القبائل. وذكر البيان بأن السلطان قد ولي العبيد وعزل الأحرار وأن الحكومة ستولي الشيوخ مسؤولية الخروج على النظام والعدالة[100]. هي ذات الوعود والأماني الكاذبة التي وعد بها الشعب الفلسطيني ووعد بها العرب في يقظتهم المزعزمة في النصف الأول من القرن العشرين. وخدع بها الشعب الأفغاني والعراقي في بدايات القرن الحادي والعشرين. وانخدع بها عواجيز وثعالب السياسة السودانية في العقد الأول من هذا القرن.

بهذا البيان المخادع أرادت الحكومة الثنائية البريطانية أن تخفي الدافع الأساسي لحرب السلطان. وهو وقوفه بجانب الأتراك ودفاعه عن قضية الوجود الإسلامي الأصيل في المنطقة فأرادت بذكر الألمان تشويه سمعته وتسوية الأمر إذ لا فرق في نظر المتفرج بين الألمان والإنجليز. ولم يشر البيان إلي العثمانيين باعتبارهم قيادة إسلامية رفعت شعاراً استقطب كل غيور على دينه ووطنه، وهي سياسة استعمارية قديمة حديثة لا تخفى على ذي بصيرة ورثتها الآن الولايات المتحدة عن سيدتها في السابق بريطانيا. وقدمت الحكومة أسبابا في غاية الضعف لإعلانها الحرب ضد

(100) بيان إلى عموم سكان دار فور "بدون تاريخ اليوم والشهر 1916م" D. S. A. BOX 126/6

السلطان وعرضت إغراءات للشيوخ ورؤساء العشائر تشجيعاً لهم على التمرد وضربت على وتر حساس لغرس الفرقة بين طبقات الأمة بغية تفتيت وحدتها وإحياء النعرات الجاهلية في أوساطها هذا بعد أن شعرت الحكومة بأن السلطان قد اعتصم بدينه وبربه وحدد وجهته كما ورد في خطابه السابق حيث قال: (الله ربي ومحمد رسولي والقرآن دليلي وأوامره شرعي والمسلمين والمؤمنين أخوتي اعتمد على الله ولا أحد سواه)(101). هذه العبارة تعكس مستوى متقدماً من الفهم والوعي والإدارك متجاوزاً أطر الوطنية الضيقة والأثنية النتنة التي وقع في حبائلها قادة اليوم من أهل دار فور وشرائم السياسية دون وعي وإدراك. وقام السلطان في هذا الأثناء بتعزيز قواته في كل من أم عشيشات وأم كدادة وبروش. وبعد دراسة وإعداد مسبق استطاعت قوات الحكومة الاستيلاء على أم عشيشات أولا ثم أم كدادة ثانياً في 1916/4/4م(102).

وفي هذا الأثناء شعرت الحكومة بأن موقفها يحتاج إلى تعزيز فطلبت من قيادتها في لندن تزويدها بطائرتين هيلوكوبتر وقد تم بالفعل تزويدها بهما وأرسل أحد الضباط لاختيار المكان للهبوط(103) مما يؤكد على أن السلطان لم تكن قوة يستهان بها. وحتى هذه اللحظات كانت الحكومة الثنائية وقيادتها البريطانية لا تملك معلومات دقيقة عن قوات السلطان وقدراته العسكرية(104). مما يدل على أن السلطان كان على قدر عال من الحذر واليقظة ولم تتمكن القوات الاجنبية بكل إمكاناتها وتجاربها وقدراتها من اختراق دار فور والإطلاع على حقيقة قوات علي دينار. هذا في الوقت الذي ظهرت فيه في الأفق مشكلة جديدة وهي أن القوات الفرنسية المرابطة في وداي كانت ضعيفة وقد تجددت هجمات السلطان عليها، لذا رأت الحكومتان إشغاله بمناوشات دائمة في الشرق لإلهائه عن غاراته في الغرب وطرد القوات الفرنسية من موقعها(105). وهذا شأن غريب وقضية تحتاج إلى قدر من التأمل إذ أن الدول الأوروبية كانت تتصارع يومها على كعكة أفريقيا بيد أنها كانت تتعاون سراً وتتحد أهدافها حينما تواجه مقاومة

(101) علي دينار إلى الحاكم العام 7ربيع الثاني 1334هـ، 1916/4/1م D. S. A. BOX. 128/1

(102) Sir. Reginald Wingate: op. cit. pp. 10368.

(103) ونجت إلى الكولونيل كلايتون في 1916/4/4م D.S.A Box 128/1

(104) D.S.A Box 128/1Tel No: 569 Date 3rd April 1916.

(105) كلايتون إلى ونجت في 1916/4/4م D.S.A Box 128/1

وطنية تدافع عن تراب بلادها. وهذا ما حدث في كل من العراق وأفغانستان في هـذا القرن. إذ درجت القوى الغربية بمختلف مشاربها على الاتحاد فيما بينها ضد أي دولة أفريقية أو آسيوية ترفع عقيرتها ضد المصالح الغربية عموماً في أوطانها .

واستقصت الحكومة الثنائية البريطانية عن الطرق الكفيلة بالقضاء على السلطان لا سيما الاستيلاء على مواقع الماء والتي ظلت تشكل نقاط تهديد لأمن وحماية كردفان وفي الوقت ذاته شكلت مواقع إستراتيجية هامة في التقدم نحو الفاشر[106]. وافترضت الحكومة الثنائية البريطانية أن الملاذ الوحيد حينئذ للسلطان سيكون صوب جبل مرة[107] وفقاً لمعلومات سابقة. لذا حث الحاكم العام وكيله في الغرب للإسراع بالاستيلاء على أبياد وتأمين الطريق ووعده بإرسال عشرة شاحنات لمساعدته في مهمته وطلب منه مد طريق الشاحنات الثقيلة من أبي رزقة – طويشة – أبياد أو على الأقل إنشاء عدد من النقاط على طول هذا الخط[108]. لا يخفى مدى الاهتمام البالغ وتكريس الجهود من قبل القيادة البريطانية للحكومة الثنائية ومدى الدوار الذي جعلها السلطان تعيش فيه فنال جل اهتمامها. وبذلت أقصى ما تملك في سبيل القضاء على هذا السلطان الذي أقلق منامها. وبدأت تشعر بأن استمرارية وجوده سيشكل شوكة في خاصرتها ومهمازاً يقلق منامها ويؤسس لهجوم تركي ألماني عليها من الغرب .

ففي أبريل سنة 1916م احتلت قوات الحكومة الثنائية أبياد وأبقت على بعض القوات في كل من أم كدادة وأبياد. وفي 4/11 أبرق الحاكم الصحافة البريطانية والإقليمية معلناً بأن احتلال كل من جبل الحلة وأبياد يعني الاستيلاء على أهم بئرين في الطريق بين النهود والفاشر[109]. لا سيما وأن الحكومة لم تواجه مقاومة تذكر في أثناء احتلال النقطة الأخيرة [110]. ولعل الدافع القوي إلى استعجال الحاكم العام باحتلال هاتين البئرين لما لهما من موقع استراتيجي هام لاسيما بعد انقطاع الأمطار. والمياه

(106) الحاكم العام إلى كلايتون بالقاهرة 1916/4/15م D.S.A Box 128/1

(107) الحاكم العام إلى كلايتون بالقاهرة 1916/4/15م D.S.A Box 128/1

(108) الحاكم العام إلى كالي في 1916/4/8م D.S.A Box 128/1

(109) تلغرافين من كالي إلى ونجت وونجت إلى الصحافة في 10، 1916/4/11م D.S.A Box 128/6

(110) تلغرافين من كالي إلى ونجت وونجت إلى الصحافة في 10، 1916/4/11م D.S.A Box 128/6

عامل هام في مثل هذه الحروب البرية الصحراوية، وأن الاستيلاء عليها في مثل هذه الحالة يؤمن الإمداد المائي. وهذه مسألة من الأولويات في الأدب العسكري ذو القراءة الجيدة لمفردات المعارك العسكرية عبر التاريخ. وحتى هذه اللحظة لم تكن الحكومة الفرنسية على الاستعداد للمشاركة في حملة موحدة مع الحكومة الثنائية البريطانية للاستيلاء على الفاشر. لذا ما أن علمت بتأجيل الحملة على الفاشر حتى تلقت ذلك الخبر بانشراح وأعلنت موافقتها الكلية عليه[111]. مما سبق يتضح أن السلطان باعتباره كياناً وطنياً خطيراً ظل مستهدفاً من قبل القوتين العظميتين المحيطتين به في آن واحد، وإنهما بالفعل كانتا تخططان بإتفاق للقضاء على قوته وإزاحته، تدل على ذلك المراسلات المتبادلة بين الحكومة البريطانية والفرنسية حول إحتلال الفاشر. وأن الحكومة الفرنسية قد زودت من قبل حكومة الخرطوم بكل ما يجري على الجبهة الفوراوية الثنائية قبل الغزو الثنائي البريطاني لدار فور[112].

في هذه الأثناء حرصت الحكومة الثنائية على تأمين كل المنافذ فأجرت إتصالاً مع قائد قوات البحر الأبيض المتوسط المصرية تطلب منه تأمين الحدود الشمالية لئلا يتقدم السنوسيون والعثمانيون أو حلفائهما لنصرة السلطان، وسبق لهذا القائد بعد حصوله على إذن من وزارة الحربية البريطانية أن قام بتزويد قيادة الحكومة الثنائية البريطانية بطائرتين بغية القضاء على السلطان[113].

لقد كان القصد من هاتين الطائرتين إلقاء الرعب في نفس السلطان وإجباره على الاستسلام. وفوضت الحكومة الثنائية قائدها البريطاني على الحدود الغربية باتخاذ ما يراه مناسباً من إجراءات إزاء القضاء على السلطان علي دينار. وفي هذه الأثناء أصيب الجنود الإنجليز بإحباط نتيجة لشربهم الدخان الأخضر[114]. هذا الكلام صادر عن الحاكم العام البريطاني يشكو فيه حالة جنوده وبذا يكون قد شهد شاهد من أهله علي مبعوثي العناية الأوروبية لترقية الشرق الإسلامي والآسيوي والأفريقي. وفي

[111] كلايتون إلى الحاكم العام في 1916/4/11م D.S.A Box 128/6

[112] كلايتون إلى الحاكم العام في 1916/4/12م D.S.A Box 128/1

[113] الحاكم العام إلى أرشيبالد مري في 1916/4/13م D.S.A Box 128/5

[114] الحاكم العام إلى كالي 1916/4/13م D.S.A Box 128/3

الوقع هذا نموذج لحملة الحضارة والمدنية للشرق. وهؤلاء هم حملة لواء الحرية والديمقراطية وهم أسلاف قادة اليوم في الغرب، فليت أمتنا تقرأ تاريخها بوعي ورشد وبذكاء وتأخذ حذرها من الانقياد دون وعي لأطروحات الغرب. ولعل ما يحكى عن الجيش السوداني الذي كونه هؤلاء المحتلون كان شبيهاً بذلك الحال في الممارسة والسلوك من شرب للخمور ولعب للقمار حتى أن الذي لا يشرب الخمر يومئذ كان يعتبر متخلفاً ورجعياً كما حكى لي نفر من الجيل المخضرم الذي عمل خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. وأن تربية اللحية يعتبر كبيرة. ومهما إتفقنا وإختلفنا حول شخصية جعفر نميري وفترة حكمه فإن ما أحدثه في المؤسسة العسكرية لا يمكن أن ينسى من استقامة وتعديل مسار وغرس قيم أصيلة.

وعلى صعيد آخر فإن السلطان قد تمكن من أتباع خطة مقتضاها تجنيد كل طاقات الأمة الفوراوية وغيرها من المخلصين الغيورين من أبناء السودان ومصر، والانتظار في الفاشر وقام بتجميع كل قواه في العاصمة بغية تحصينها ودحر الغزو الأجنبي لها[115]. وفيما يبدو أنه في هذا الجانب قد وقع في ذات الخطأ الذي وقع فيه قبله الخليفة عبد الله التعايشي، وذات الخطأ الذي وقع فيه بعده صدام حسين في العراق في مستهل القرن الحادي والعشرين، ويدل ذلك في مجمله على عدم الاستفادة من عبر معطيات التاريخ المعاصر، ذلك لأن عدداً متفوقاً كهذا العدد وقوة متفوقة كقوة الحكومة الثنائية البريطانية أو قوة الولايات المتحدة وحلفائها يحسن أن تواجه عن طريق حرب العصابات بواسطة تنظيم دقيق وإشارات متفق عليها لا أن تجمع القوات كلها في العاصمة مما يعني تسهيل مهمة العدو بصورة أو أخرى لحصدها. أما حرب العصابات ومحاولة قطع إمداداته لاسيما وهو يحارب في أرض غير أرضه يشتت جهده ويربك خططه.وفي مثل هذه الحالة وتلك الظروف الاستثنائية ينبغي أن يقلص الظل الإداري العسكري، وتعطى القيادات حرية حركة، وهو بلا شك أسلوب ناجح جداً عمل به في التاريخ المعاصر عبد الرحيم شنان في حركته ضد حكومة 17 نوفمبر العسكرية 1958م. وكادت حركته أن تنجح وتؤتي ثمارها لولا أخطاء بسيطة .

---

(115) D.S.A Box 128/5.

وتحت وطأة هذه الظروف الحرجة تزايد إلحاح طلب قائد الحدود الغربية البريطاني بالسماح له بالهجوم على الفاشر حتى لا يفلت زمام الأمر من يده قبل موسم الأمطار. هذا خوفاً من وصول نجدة سنوسية أو ألمانية تركية إلى تلك المنطقة ومعهم مدافع وذخيرة بالإضافة إلى إمكانية قوة دعوة السلطان الدينية التي قد تؤتي ثمارها العاجلة(116) وسط أبناء السودان والذين سبق لهم أن هبوا هبة رجل واحد مع الحركة المهدوية في وجه الغزو الأجنبي للبلاد وذاقت بريطانيا ويلات ذلك وتكبد الجيش المصري بقيادته البريطانية خسائر فادحة وخسرت بريطانيا خبرات قيادية هامة. ورغما عن هذا التحفز فان الحكومة الثنائية البريطانية لم تملك حتى اللحظة ما يكشف لها عن حقيقة عددية القوات الفوراوية وقدراتها العسكرية(117). وهو ما يحسب في صالح خطة السلطان الأمنية، ولكن في تقدير المؤلف لو تمكن من توزيع قواته إلى وحدات صغيرة في شكل وحدات كمين في أماكن متفرقة من دار فور لأمكنه أن يلحق بالقوات الغازية خسائر فادحة. وهو ذات الخطأ الذي وقع فيه صدام حسين في بداية القرن الحالي. وأيدت القيادات البريطانية في كل من القاهرة والخرطوم ولندن مشروع قائد القوات الغربية البريطاني باستعجال غزو الفاشر وأبدت هذه القيادات استعداداً تاماً لإمداده بكل ما يحتاجه. وتأخرت القيادة البريطانية في الخرطوم في موافقتها علي هذا المشروع في البداية لعدم وصول الطائرتين المصدق بهما والتين من المفترض أن يمدا الخرطوم بالأخبار وبريطانيا بما يجري علي مسرح الأحداث وكان قائد القوات الغربية البريطاني من جانب آخر يرى في التأخير تعزيزاً لموقف السلطان(118).

و نتيجة توجس الحكومة الثنائية البريطانية خيفة من الإمدادات السنوسية الألمانية التركية للسلطان تقدمت سريعاً نحو الفاشر الأمر الذي أشار إليه الحاكم العام بقوله: (وإلى هذه اللحظة فإن تحركنا في دار فور قد سار بصورة طيبة ولكن المهمة الرئيسية ما تزال أمامنا بعد، وإذا كانت الأنباء عن الإمدادات العثمانية الألمانية من الشمال صحيحة فربما أجبرت على أن أتقدم في وقت مبكر مما كنت قد قررت)(119).

(116) كالي إلى الحاكم العام في 1916/4/16م D.S.A Box 128/5
(117) الحكام العام إلى الكولونيل فيلوج. تالبوت 1916/4/16م D.S.A Box 128/5
(118) الحكام العام إلى الكولونيل فيلوج. تالبوت 1916/4/16م D.S.A Box 128/5
(119) الحاكم العام إلى السير هنري في 1916/4/17م D.S.A Box 128/1

وسعياً وراء وحدة كلمة الأمة وتهيئتها للنهوض بأعباء الدفاع عن مقدساتها وترابطها قام السلطان بإلغاء الضرائب عن الجميع وأعلن عن التعبئة العامة، مؤكداً عزمه على الدفاع عن السلطنة حتى آخر قطرة من دمه[120]. وهو إجراء طواريء كان لابد منه لكسب قاعدة أكبر من طوائف الأمة لجانبه ولصالح القضية الوطنية الأم. وقام علي الميرغني بدور ثنائي بريطاني بين الحكومة والسلطان، فهو من جانب كان وكيل السلطان ومن جانب آخر كان عميلاً لا يضارع للحكومة الثنائية البريطانية. فقد كانت وظيفته الأساسية ودوره المنوط به هو أن يقوم بدور إحباط محاولات السلطان الرامية إلى صمود المقاومة، وإعداد العدة اللازمة لطرْد الحكم الأجنبي من البلاد. ونصح علي الميرغني السلطان بقوله: (الأسلحة النارية أصبحت غير مهمة في مجال القتال حيث أن البريطانيين اكتشفوا غازاً يستخدم في المعارك على شكل الهبوب وأن هناك شكلاً آخر وهو استخدام القنابل ولذا أصبح استخدام الأسلحة النارية غير ذي جدوى)[121]. هذا مستوى قذر من الحرب النفسية. وهي تعتبر من أخطر أنواع الأسلحة المعنوية الفتاكة لأنه يجعل عزيمة الخصم تخور أمام هذا النبأ الجديد، وهو أسلوب استخدمته الولايات المتحدة في حربها مع أفغانستان والعراق بادعائها إنها اخترعت قنابل يمكن أن تخرق الأرض إلى مسافة مئات الأمتار. مما يعني أن علي الميرغني كان يلعب الأوراق ضمن منظومة الاستراتيجية البريطانية في العالم العربي والإسلامي أكثر منه لاعباً لصالح السلطان باعتباره وكيلاً له. أو القوى الوطنية والإسلامية التي ينتمي لها. وحاول علي الميرغني بدهاء ماكر، ومكر خادع تبرئة ساحة الحكومة الثنائية البريطانية ونفي أن يكون لها أي اتجاه عدائي تجاه دار فور بقوله: (بأن ما جرى من قبل الحكومة لم يكن مقصوداً وأن الحكومة الثنائية لا تنوي اتخاذ أي تدابير معادية ضده ... وإنها تحترم الدين وترعى المساجد ولا تتدخل في الشئون الدينية على الإطلاق .. وان دخول السلطان الحرب سيقود إلى كارثة وهو استدعاء قوة أجنبية الأمر الذي تترتب عليه نتائج وخيمة)[122]. هذا الكلام فيه مغالطة

---

(120) ماكمايل إلى سايمز مدير المخابرات في 1916/4/17م D.S.A Box 128/2

(121) على الميرغني إلى علي دينار في أبريل 1916م D.S.A Box 128/2

(122) على الميرغني إلى السلطان في أبريل 1916م D.S.A Box 128/2

تاريخية وفكرية لأن أوروبا الاستعمارية الاستغلالية لا تخدم الدين إلا في حدود ما يخدم مصالحها الحيوية ومفهوم الدين عندها يختلف عن مفهوم الدين عندنا تاريخاً وواقعاً. ولا تعطي أتباع الإسلام من الحرية إلا في حدود ما يخدم مصالحها الحيوية ويلهي القوة الوطنية عن فضحها ومحاربتها.

مما لا شك فيه أن هذا الخطاب كان يهدف إلى إلغاء الرعب في نفس السلطان وإشعاره بضعفه وعدم قدرته على المقاومة وفيه تدليس لبعض الحقائق الهامة، وقلب لما هو واقع حيث ذكر أن الحكومة لا تنوي اتخاذ أي تدابير معادية، والواقع أنه كان يعلم علم اليقين أن الحكومة البريطانية كانت قد استعدت بقضها وقضيضها، واتخذت كل الوسائل والتدابير الكفيلة بتحطيم قوة السلطان وإجلائه عن عاصمة بلاده واحتلال دياره. أما الإشارة إلى أن الحكومة تحترم الدين وترعى المساجد، هذه العبارة كان القصد منها تخدير الروح الدينية المشتعلة لدي السلطان، وقتل الحماس الوطني والاتجاه الجهادي لدى السودانيين والعمل على أبطال مفعول مجهودات السلطان التي يدعو فيها المسلمين قاطبة لمقاومة اليهود والنصارى. وقد استخدم الاستعمار الأوروبي هذه الزعامات الدينية لتخدير الآمة وضربها من الخلف.

وتكررت طلبات القائد الثنائي البريطاني على الحدود الغربية باستعجال الحاكم العام لإصدار أمره بالهجوم على الفاشر. وعزز رأيه بسببين يقتضيان التقدم الفوري أولهما: أن الأمطار ونزولها لا يساعدان كثيراً على إنجاح عملياتنا بقدر ما يمكن أن تشكل عائقاً كبيراً هذا بالإضافة إلى الأحوال الصحية والروح المعنوية المتدنية للجنود[123]. يبدو أن جنود الغزاة قد بدت عليهم سيماء الاستياء مما حدا بقائد القوات الغربية طلب استعجال الهجوم لئلا تتدنى وتنهار الروح المعنوية للجنود وبالتالي تذهب خططه أدراج الرياح. وخوفاً من أن تجد دعوة السلطان أذناً صاغية لاسيما أن موسم هطول الأمطار يعتبر كسباً يرجح في كفة السلطان لذا أضحت القضية قضية وقت. وقامت الحكومة الثنائية البريطانية بإتباع نفس الخطة التي أتبعتها قبلاً لاحتلال السودان الشمالي بمد خط السكة حديد أولاً فقامت باستعدادات عالية لمد خط السكة حديد إلى

(123) كالي إلى الحاكم العام في 1916/4/16م D.S.A Box 128/6

الفاشر. هذا في الوقت الذي كانت فيه الحكومة الثنائية البريطانية في الخرطوم تطلب من قيادتها الغربية التأني. وأوعزت إلى قائدها البريطاني (كالي) بأن مشروعه لا يزال قيد البحث والدراسة وأمدته بعدد من الجنود[124]. وأبدت الحكومة الثنائية البريطانية من جانبها رغبتها في غزو الفاشر. بيد أن ذلك كان رهين موافقة كل من القيادتين البريطانيتين في كل من القاهرة ولندن. وفي ضوء المعلومات التي توفرت لدى الحكومة الثنائية بالخرطوم فقد أقترح الحاكم العام البريطاني ورجل المخابرات المحنك ريجنالد ونجت على قائده البريطاني كالي إتباع طريق الأبيض – أبو زبد النهود وهو أوفق من طريق الأبيض – الأضية – النهود. ووعده بتزويده بثلاثة طائرات بعد ثلاثة أسابيع من الآن وحذر الحاكم العام قائده من خطأ دقة المعلومات المتوفرة لديهم[125]. مما يعني أن السلطان لو أخذ بزمام المبادرة لأحرز نتائج أفضل لأنّ الخصم الى تلك اللحظة لا يملك معلومات دقيقة عن السلطان وقواته. وفي ذلك الأثناء درست الحكومة الثنائية البريطانية إمكانية التحالف مع القبائل المعارضة والمستقطبة في المنطقة بغية جعلها طابوراً خامساً يعجل بالقضاء على السلطان ومن خلال البحث والتمحيص رأت أن في الإمكان الاستفادة من الرزيقات بعد تحقيق الجيش لقدر من الانتصارات حيث يمكن وعدهم بالمساهمة في تسليحهم وتمنيتهم بتأمينهم في ديارهم[126]. في هذه الفترة قام أتباع علي الميرغني (ومريدوه) في المنطقة بدور المخبرين للحكومة الثنائية البريطانية حيث كتب محمد شيخ إدريس خليفة خطاباً إلى علي الميرغني ورد فيه: أن علي دينار قد أعدم الشيخ محمد سيماوي [127] وعبد الماجد أبو تكية وطلبت الحكومة من استخباراتها في الخرطوم تأكيد ذلك الأمر. فأكدت المخابرات صحته[128]. ولعل لكل قيادة كبوة وسوء تقدير في اللحظات الحرجة، ولها أخطاء لا تغتفر فهذه واحدة من كبوات السلطان وأخطائه الكبرى أن سارت الأمور بهذه الكيفية ودون تحقيق أو جريمة اقتضت ذلك. وإن كانت الحكمة والحنكة السياسية في مثل هذه الظروف الإستثنائية

(124) تلغرافين من الحاكم العام إلى كل من القيادة العامة وقائد القيادة بالنهود في 1916/4/19م D.S.A Box 128/6

(125) الحاكم العام إلى قائد الحدود الغربية ب. ف. كالي في 1916/4/21م D.S.A Box 128/3

(126) الحاكم العام إلى قائد الحدود الغربية ب. ف. كالي في 1916/4/21م D.S.A Box 128/3

(127) هو والد الشيخ علي محمد سيماوي الذي كان ضمن مشيخة معهد أمدرمان العلمي وقد أصبح شيخاً لمعهد أمدرمان الأوسط خلفاً للشيخ محمد الهادي الخليفة خلال ستينيات القرن الماضي ومنزل العائلة الآن شرق سوق العرضة بأمدرمان وابن شيخ علي لاعب الكرة المشهور.

(128) الحاكم بالخرطوم إلى ماكمايل في 1916/4/21م D.S.A Box 128/2

تقتضي جمع الصف وتوحيد الكلمة ومداواة الجروح. لذا ما كان ينبغي على السلطان أن يفقد أهم مستشاريه المؤتمنين كل هذه الفترة نتيجة وشاية أو مؤامرة الأمر الذي أفقده توازنه فيما بعد وأفقده حنكة الشيوخ. هذه المكاتبة دارت بين علي الميرغني وخليفته في الفاشر فلربما قام هو بإيصالها أو أحد أتباعه إلى الحكومة الثنائية البريطانية الأمر الذي يكشف عن دوره المزدوج وهو دور إستخباراتي مما يعني أنه كان أداة من أدواتها وأن ما ناله من حظوة وأملاك ومكانة اجتماعية ودور سياسي كان نتيجة لهذه الخدمات. واستعانت الحكومة الثنائية بالكبابيش لحماية نقاط الاتصال الواقعة بين دار فور والكفرة لئلا يحدث اتصال بين الفور والسنوسية[129].

هذا في الوقت الذي جاءت فيه الموافقة من مساعد قائد قوات الطيران الملكي البريطاني بالإسماعيلية باستخدام الطيران البريطاني في السودان. وأرفقت نشرة تبين الشروط وفوائد استخدامه في طرق الاستطلاع. ووصلت ميناء بورتسودان قافلة بها بعض الصناديق التي تخص سلاح الطيران البريطاني، وعدة شاحنات وبرفقتها ضباط بريطانيون وثلاثون جندياً من مختلف الرتب[130]. ما كان لبريطانيا أن تولي الأمر هذا الاهتمام لولا أهمية هذا الموقع وخطورة الطرق.

ولعل ذلك كله مما يدل على مدى الاهتمام البريطاني بالأمر لارتباطه بموازين القوى المتحاربة ولتأثيره على موقف بريطانيا الدولي في الحرب التي وصفوها بأنها الحرب الكونية يومئذ. وازدادت رغبة الحكومة الفرنسية في تأجيل الحملة الثنائية في الوقت الراهن. إذ كانت تخشى من لجوء السلطان إلى تشاد منطقة النفوذ الفرنسي هذا في الوقت الذي لا تملك بها أي قوة كافية لصده. حيث سبق أن أرسلت جزءاً كبيراً من قواتها إلى الكاميرون وقامت الحكومة المصرية الإنجليزية بتبرير وجهة نظرها وطمأنة الحكومة الفرنسية بأن السلطان على حسب ما وردها من معلومات سيلجأ إلى جبل مرة وأن عملياتها لا تعدو عن كونها دفاعية[131].

---

(129) مساعد مدير المخابرات إلى حاكم مروي في 1916/4/22م D.S.A Box 128/1

(130) نشرة من مساعد قوات الطيران الملكي إلى الحاكم العام في 1916/4/22م D.S.A Box 128/2 – خطابان من ويلسون إلى الحاكم العام ولواء الخرطوم D.S.A Box 128/ 2

(131) ماكما هون إلى الحاكم العام في 1916/4/23م D.S.A Box 128 /2

وأفادت الحكومة الثنائية وقيادتها البريطانية من الكبابيش فسلمت عدداً منهم أسلحة لحماية عدد من النقاط الهامة[132]. مما يعني نجاحها في استقطاب جزء من أبناء البلد وضرب الفريقين ببعضهما البعض، وهي سياسة غربية قديمة حديثة كما حدث في أفغانستان والعراق والسودان عموماً سواء في دارفور أو في شرق أو في جنوب السودان خلال القرن الماضي والحالي. واتبعت المخابرات البريطانية أساليب تمويه عديدة ومتنوعة لخداع السلطان وإشعاره بأن الذي يجرى على الساحة السودانية لم يكن مقصوداً ومخططاً. ووصلت السلطان خطابات عديدة بهذا الصدد بيد أنه قد شك في صحة محتواها وكان ظنه في مكانه وحق له أن يشك[133]. ذلك لان بريطانيا كانت تخطط بجدية لإزالة السلطان عن الساحة. فقد طلب الحاكم العام من المندوب السامي البريطاني في القاهرة تزويده بعدد من رجالات المدفعية الممتازين، وفرقة استطلاعية لكشف المواقع التي تتحصن بها قوات السلطان علي دينار. بيد أن المسؤولين البريطانيين في وزارة الخارجية البريطانية ووزارة الحربية في لندن لم يوافقوا على الخطوات المتفق عليها بين كل من الحاكم العام وقائده على الحدود الغربية لغزو الفاشر تحسباً لحسن العلاقات بين فرنسا وإنجلترا[134].

وحتى تلك اللحظة لم تملك الحكومة الثنائية بيانات كافية عن قوات السلطان[135]. مما يعتبر دليلاً قوياً على استقلالية السلطنة، وأن تبعيتها كانت رمزية اقتضتها طبيعة وجود قوى كبرى في المنطقة. ويدل ذلك من جانب آخر على حسن إدارة السلطان الأمنية وقوة عيونه في عدم السماح لأي أخبار تتعلق بأمن المنطقة أن تتسرب من دار فور بيد أن موقفه ذلك كان ينبغي أن يكون مسنوداً بعمل استخباراتي خارجي ولكن في تقديري يبدو أن هذا النوع من النشاط لم يكن متوفراً لديه. هذا في الوقت الذي لا زالت فيه محاولات الحاكم العام جارية على قدو وساق لإقناع المسؤولين في كل من القاهرة ولندن للسماح له ببدء الهجوم على الفاشر لاسيما بعد قيامه بشرح طبيعة الأرض

(132) نائب مدير المخابرات إلى الحكام العام في 1916/4/24م D.S.A Box 128/3
(133) المخابرات إلى الحاكم العام في 1916/4/24م D.S.A Box 128/3
(134) الحاكم العام إلى الكولونيل كالي في 1916/4/24م D.S.A Box 128/4
(135) الحاكم العام إلى المندوب السامي بالقاهرة ووزارة الحربية في 1916/4/24م D.S.A Box 128/1

وأهمية تنفيذ خطة الهجوم في الوقت المحدد وألا ستدور الدائرة على قوات الحكومة البريطانية[136].

وكان تأني الجهات المسؤولة في العاصمتين ناتج عن النظر إلى القضية من زاوية أكبر تدخل في اعتبارها أهمية العلاقة الإنجليزية الفرنسية وتجنب ما يخدش توثيقها. ولما كان الحاكم العام البريطاني بالخرطوم مصراً على وجهة نظره أعد خطاباً تفصيلياً بعث به إلى وزير الحربية البريطانية مبيناً فيه أهمية الهجوم في الوقت الراهن، وقاد أدلة منطقية لإقناع الوزارة البريطانية بذلك منها **أولاً**: ضرورة إنفاذ الحملة قبل هطول الأمطار لأن التأخير وطول الانتظار يؤثر على الروح المعنوية للجنود. **ثانياً**: لئلا ينتشر جنود السلطان في المنطقة بعد أن تم تجميعهم في الفاشر لحمايتها. أما عن معارضة الفرنسيين للحملة في الوقت الراهن فقد رأى أن دافعها هو الخوف من الاستيلاء الإنجليزي على السلطنات المتنازع عليها بين دارفور والقوات الفرنسية بوداي. وأشار إلى أن الحملة البريطانية قد نجحت في مرحلتها الأولى بالاستيلاء على أم شنقة وأم كدادة وجبل الحلة[137].

وأبدى الحاكم العام تململاً من توجس الحكومة البريطانية خوفاً من أن يؤثر ذلك على العلاقات البريطانية الفرنسية. ورأى أن التأجيل سيؤثر على الروح المعنوية للجنود. لا سيما وأن روح التمرد والعصيان لانتشارها بين الجنود اقتضت فصل البعض وإبعاد البعض الأخر. وأن استمرارية ذلك سيعني جلب قوات إنجليزية للسودان وهذا ما لا تستطيعه بريطانيا في الوقت الراهن.. لذا قرر أن تكون الحملة في منتصف مايو. وفي الوقت ذاته أبدى استعداده لقبول أي اقتراح يصدر إليه من قبل حكومة جلالة الملكة[138]. ولكنه عاد وعزا الموقف الفرنسي إلى المنافسة المعروفة بين البدين على كعكة افريقيا. ويرى الحاكم العام البريطاني بالخرطوم أن أي تراجع بلأي مستوى لا يؤثر على الوجود البريطاني في البلاد فحسب وإنما سيتيح ذلك المجال للقوات السنوسية والعثمانية للإتصال بعلي دينار ويساعد في الوقت ذاته على تقوية وتعزيز

---

(136) الحاكم العام إلى المندوب السامي بالقاهرة ووزارة الحربية في 1916/4/24م D.S.A Box 128/1

(137) ونجت إلى كتشنر في 1916/4/24م S.A Box 128/1

(138) ونجت إلى كتشنر في 1916/4/24م D .S.A Box 128/5

موقفه بعد أن صار معزولاً تماماً عن تلك القوى في الوقت الحالي[139]. إن هذا الخطاب على وجه العموم يصور الحالة النفسية للمسؤولين في السودان حينئذ. ويعكس مدى تخوفهم المتزايد من السلطان وخشيتهم الدائمة من اتصاله بالقوى الخارجية المناهضة للموقف البريطاني في المنطقة. ويعتبر "هطول الأمطار ودخول فصل الخريف بطاقة رابحة ترجح كفة السلطان، لذا فلا غرابة أن بدأ القلق يسيطر على قيادة الحكم الثنائي البريطانية في السودان، مما اقتضى أن ينفق الحاكم العام كل ما في جعبته من دفع وحجج، ونثر كنانة منطقه لإقناع المسؤولين في كل من لندن والقاهرة مستخدماً كل الوسائل وساق كل التبريرات لتأييد وجهة نظره وتلبية إلحاح قائده البريطاني في القيادة الغربية للتقدم في الوقت الراهن وإن لا فإن الفرصة ستفلت من أيديهم إلى الأبد. وستجد قوات بريطانيا بالسودان نفسها في مأزق لا تحمد عواقبه.ولكن رغماً عن هذه التبريرات والمسوغات فلا تزال القيادة البريطانية في كل من القاهرة ولندن عند موقفها الرافض للهجوم والتقدم في الوقت الراهن، وقاد المندوب السامي البريطاني في القاهرة (ماكماهون) أسباباً مانعة من التقدم نحو دارفور **أولها:** عدم تقرير ميزانية الحملة بعد. هذا بالرغم من التعاطف الحادث بين كل من القاهرة والخرطوم والنهود في هذا الجانب، **ثانيها:** مشكلة مدى إمكانية إدارة دار فور إدارة مباشرة وهو ما لا تستطيعه الإدارة الإنجليزية في الوقت الحالي[140]. ولكن يبدو أن الحكومة الثنائية البريطانية بالسودان كانت مصممة على تنفيذ خطتها مهما كلف الأمر. لذا استخدمت أشخاصا عديدين من أمثال الشيخ يوسف الهندي ومحمد حبيب الله الذي كان مقيماً بالفاشر لتزويدها بأخبار السلطان وتحركاته أولاً بأول[141].

وبعد شعور الحاكم العام بتعاطف القاهرة معه بدأ في تنفيذ خطته بالرغم من عدم ورود الموافقة النهائية من كل من القاهرة ولندن. ولدى الشروع في التنفيذ بدأت المشاكل تتوالى على قوات الحكومة الثنائية البريطانية تباعاً إبتداءً من إنعدام للمياه وتعبيد للطريق وطلبات ضرورة زيادة القوة الغربية. وشرعت القوات الثنائية

---

(139) ونجت إلى كتشنر في 1916/4/24م D .S.A Box 128/5

(140) ماكماهون إلى الحاكم العام في 1916/4/25م D .S.A Box 128/5

(141) المخابرات بالخرطوم إلى الحاكم العام بأركويت في 1916/4/26م D .S.A Box 128/3

البريطانية تحركاتها من أبياد على شكل فرقتين، وخطط لهما أن يلتقيا على بعد ثمانية وعشرين ميلاً من مليط . ولكن بالرغم من صواب هذه النظرة العملية إلا إن الحكومة الثنائية كانت واضعة في اعتبارها إمكانية عدم الموافقة البريطانية في آخر لحظة. لذا قام الحاكم العام البريطاني بالخرطوم بمحاولات جريئة عن طريق وساطة عدة أشخاص ذوي صلة وثيقة بصانعي القرار في كل من إنجلترا والقاهرة لكي يؤثروا على اتخاذ القرار في لندن علي وجه التحديد. وطلب الحاكم العام البريطاني في هذه الأثناء من قائده على الحدود الغربية بإعداد خطة بديلة في حالة ورود عدم الموافقة على غزو الفاشر واحتلال دارفور. وأشار إلى أنه قد أرسل خطاباً إلى السلطان طالباً منه الاستسلام دون إراقة دماء وقد قام يوسف الهندي بالوساطة حول هذا الأمر[142]. يشير ذلك إلى أن الحكومة الثنائية البريطانية قد وضعت كل الإحتمالات على الطاولة و شرعت في التعاطي مع كل إحتمال حسب مقتضى الحال. وفي تقديري هذا ما يميز العقلية الغربية عن العقلية الإسلامية والعربية والأفريقية أو الآسيوية المعاصرة في التعاطي مع الأحداث والنظر الضيق والتحليل الفج مما أفقدها كثيراً من المواقع المتقدمة في مواجهة أعداء الأمة من الغربيين .

بالرغم من الاستعجال السابق فإن الخطوات العملية للغزو كانت رهينة بموافقة كل من القاهرة ولندن. هذا بإمكانه إلقاء الضوء علي بعض الخطابات التي يعثر عليها الباحث في تاريخ هذه المنطقة متبعثرة هنا وهناك والتي يحسب من خلالها أن جهوداً سلمية جارية بين الطرفين وهي ليست على حقيقتها. وإنما كانت تهدف الحكومة الثنائية البريطانية من ورائها إلى حفظ خط الرجعة في حالة عدم حصولها على موافقة كل من القاهرة ولندن. هذا في الوقت الذي بذل فيه الحاكم العام البريطاني جهوداً مضنية للتأثير على وزارة الحربية البريطانية والمندوبية السامية في القاهرة لاقناعهما بخطة الحكومة الثنائية ووجهة نظر قائده البريطاني في المنطقة الغربية بالسماح له ببدء الهجوم على الفاشر قبل موسم الأمطار. لأن هطول الأمطار من المؤكد أن يرجح الكفة لصالح السلطان حيث أن الهجوم المباغت الآن في تقدير قيادة الخرطوم البريطانية

(142) الحاكم العام إلى كالي في 1916/4/27م D .S.A Box 1̍28/1

وقيادتها على الحدود العربية هو خير وسيلة لتحقيق نصر عاجل على السلطان على دينار وسيكون معالجة فورية وإدراكاً لحالة الجنود المتردية وإنقاذا لقيادة الحكومة الثنائية البريطانية في الخرطوم وفي القيادة الغربية وحفظاً لماء وجهها أمام جنودها لئلا يتردى موقفها إلى موقف لا تحسد عليه، في حالة تأجيل مواعيد الغزو عن وقته الحالي، والى تلك اللحظة كان الاستعراض يتم بتفصيل دقيق لأحوال الجبهة الثنائية البريطانية في المنطقة الغربية واستعراض وحذر سريع لأحوال الجبهة الفوراوية.

وفي المقابل يمكن أن نلقي نظرة دقيقة على ما كان يجري على الجبهة الفوراوية حيث انتهج السلطان سياسة الصلح وتوحيد الجبهة الداخلية وتقريب ذوي المكانة من شيوخ القبائل. كما حاول إصلاح ذات البين بينه وبين رؤساء القبائل المشاكسة. من ذلك خطابه إلى موسى مادبو رأس الرزيقات في 1916/4/29م حيث شرح له فيه موقفه من الحكم الثنائي البريطاني وأوضح له أن أي مسلم لا يحق له أن يوالي عدو الله ورسوله وينصح له بالطاعة لله ورسوله وأن يحكم بكتاب الله وأن لا يضيع أوامره[143]. بيد أن موسى مادبو كان أسير النظرة الذاتية والمصلحة العاجلة إذ لم يدرك فحوى اللعبة الدولية الغربية ذات الأبعاد الاستغلالية الاستعمارية في المنطقة، فلم يجب الدعوى ولم يلبي نداء السلطان المطالب بوحدة الصف ومقاومة الحكومة الثنائية البريطانية في المنطقة. ومن جانب آخر أقام السلطان ثلاث نقاط جهزها بإعتبارها نقاط دفاع أمامية فعين على إحداها أحمد ود الميرم وعلى الأخرى موسى الزغاوي. وهذه النقاط كان الهدف منها أن تكون بمثابة نقاط أمامية استطلاعية مهمتها الأساسية التنبيه على تقدم العدو، وتدعم خروج السلطان في الوقت المناسب لمفاجأة قوات الحكومة الثنائية قبل وصولها مليط. ولكن أحبطت الروح المعنوية لدى جنود السلطان واسقط في يده حين علم بهزيمة قواته في أبياد. وقد لعبت المخابرات الثنائية البريطانية دوراً بارزاً في تضخيم هذا الأمر إعلامياً[144]. ومعلوم أن بريطانيا كانت تملك آلة إعلامية أشبه ما تكون بآلة الولايات المتحدة الإعلامية الحالية التي تستطيع بواسطتها قلب

---

(143) السلطان إلى موسى مادبو في 1916/4/29م D .S.A Box 128/1

(144) ماكمايل إلى السردار في 1916/4/30م D .S.A Box 128/5

الحقائق وتشويه سمعة من تريد تشويه سمعته دون وجه حق. وترفع أرذل الأرذلين من الخونة والعملاء وأشباه الرجال إلى مقامات القديسين .

واستجابة لطلب القائد البريطاني كالي بتعزيز موقفه وافقت الحكومة الثنائية البريطانية بإضافة الفرقة العاشرة إلى قواته. ولا يزال الفرنسيون على موقفهم يعترضون على الهجوم ولدى إبلاغ ونجت بذلك الموقف الفرنسي وافق مؤقتاً على التأجيل حتى هطول الأمطار. ولكن في الوقت ذاته لم تتوقف محاولاته المتكررة للضغط على مجلس الجيش في لندن للموافقة على بدء الهجوم الذي رفع بواسطة المندوب السامي البريطاني في القاهرة إلى وزارة الحربية البريطانية في 1916/4/16م[145]. وفي الثاني من مايو 1916م جاءت الموافقة من الحكومة البريطانية بالتقدم لغزو الفاشر والاستيلاء على دار فور. وأبلغ السفير الإنجليزي في باريس الحكومة الفرنسية برأي الحكومة الإنجليزية بعدم إمكانية التأجيل إلى ما بعد موسم الأمطار. وأمام الأمر الواقع أصدر الفرنسيون أوامرهم إلى قواتهم في وداي بتسهيل عمليات القوات البريطانية في دار فور.ونتيجة جهود الحاكم ووساطته الشخصية استطاع خلال ثلاثة أسابيع مليئة بالحركة والنشاط والأحداث أن يحصل على موافقة كل من القاهرة ولندن. ومن ثم تجاوز معارضة الحكومة الفرنسية لبدء الهجوم وأداء الحملة لدورها المنوط بها[146]. ولكن مما يدل على عدم موافقة فرنسا تماماً على الخطة تأخرها حيث لم تؤيد القرار إبتداءً ولم تبد استعدادها لذلك إلا في الثامن من مايو لمساعدة بريطانيا في عمليات احتلال دار فور[147].

وعلى الجبهة الفوراوية فإن الانطباع السائد هو أن السلطان سيقاتل خارج الفاشر لربما في مليط وفي حالة فشله سيتجه صوب جبل مرة ومن هناك في أول فرصة تتوفر له سيهاجر إلى السنوسي في ليبيا. وقد قام السلطان بتجنيد عام وبتعبئة شاملة إذ دعا كل قادر إلى الخدمة العسكرية وحمل السلاح ضد العدو الغادر والمحتل الآثم[148].

[145] يونان لبيب، مصدر سبق ذكره، ص 387- 388
[146] السردار إلى دينل في 1916/5/2م السردار إلى دينل في 1916/5/2م D .S.A Box 128/5
[147] السردار إلى دينل في 1916/5/2م السردار إلى دينل في 1916/5/2م D .S.A Box 128/5
[148] ماكمايل إلى الحاكم العام في 1916/5/14م D .S.A Box 128/1

وبدأت تحركات القوات الثنائية البريطانية في دفعتين: الأولــى تحركــت فــي 5/15 والثانية: تحركت يوم 5/16 من أبياد في طريق وعر لا ماء به مسافة 70 ميلاً وقامت طائرتهم البريطانية بالاستطلاع على قرية مليط فوجدتها محروسة مــن قبــل قــوات السلطان التي تقدر بــ 500 جندي وقذفت الطائرة قنبلة بيد أن مدفعيــة علــي دينــار أمطرتها بوابل من النيران الكثيفة حيث أصيب من جراء ذلك أحــد محركاتهــا[149]. الأمر الذي يدل ذلك على مدى قوته واستعداده للمقاومة دون الاعتماد على أية مساعدة خارجية، هذا بالنظر إلى ضخامة الاستعدادات الثنائية البريطانية التي استخدمت أحدث ما لديها من امكانات وقدرات. هذا بالإضافة إلي التدابير والاحتياطات المتخذة ضــده. وقامت الحكومة الثنائية البريطانية في مجال الحرب النفسية وتحطيم الروح المعنويــة لقوات السلطان علي دينار بإصدار منشور حاولت فيه تشويه سمعة السلطان وإضعاف عزم أتباعه. الأمر الذي أغضب السلطان وأثار حفيظته حيث كانت هذه هــي المــرة الأولى التي يرد فيها دارفور منشور يندد بسياسة السلطان الداخلية والخارجية وينــال من شخصه أمام أتباعه، إذ لم يكن بالإمكان توزيع هذا المنشور إلا بإلقائــه بواســطة الطائرات. فقام السلطان بالمقابل بإرسال خطاب شديد اللهجة، فند فيه ما ورد في البيان المشار إليه جملة وتفصيلاً مؤكداً أن الكلام الذي ورد فيه كله كذب. وأبدى اســتعداده التام لمواجهة جيوش الحكومة اعتماداً على الله في حربــه ضــد الكفــار أعــداء الله ورسوله، وعنون الخطاب بالعبارة التالية: (إلى السيد النار "السردار" الطاغية الملعون الكلب). وأشار في خطابه إلى انه سيضع حداً ونهاية لحكــم الكفــار فــي الســودان، وسيقضي على ونجت ورجالاته[150]. إن هذا الكلام على هذا المستوى يدل على مدى الحنق الذي وصل إليه السلطان، ووصف الرجل الأبيض بهذه الصفة الوضــيعة تــدل على الاعتزاز وعناد الشخصية السودانية في حالة توجيه الإهانة إليها، فإنها لا تتورع في أن تتصرف بتلقائية تسقط فيها كل الحواجز وتتجاوز فيها كل السقوف وتتحقق فيها مقالة أبو سن (اللخواجة) الذي قال لــه في معرض رده على أسلوب غير لائق بمكانته

(149) الحكام العام إلى المندوب السامي في 1916/5/14م D .S.A Box 128/6

(150) على دينار إلى السيد النار في 1916/5/17م D .S.A Box 128/3

الاجتماعية وهو شيخ الشكرية إن هذه الشجرة ... ودارت الأيام وجاء "الخواجة" وقد نال وظيفة أكبر فقال لأبي سن أنا أصبحت مفتشاً كبيراً، فقال له أبو سن الشجرة أيضاً كبرت!!. وهي قصة مشهورة لدى السودانيين الذين ليس لديهم كبير إلا الله سبحانه وتعالى .

وقام السلطان باستطلاع تحركات العدو فأخذ يعد العدة لذلك بعد معرفة الطريق الذي سيأتي منه العدو فقام بحفر الخنادق وعمل التحصينات لمواجهة الغزو وبدأ في صبيحة 5/21 التحرك من الفاشر في اتجاه العدو وحفر الخنادق في خط مواز ومواجه لمعسكر القوات الثنائية البريطانية، وأسند قيادة جيشه إلى كل من رمضان وابنه سليمان[151]. في ظل هذه الظروف العصيبة استولت القوات الثنائية البريطانية على مليط في مايو وتم أسر ثمانية من كشافة السلطان نتيجة مفاجأة قواته بسبب إلقاء القنابل من الجو، وتقع مليط على بعد 40 ميلاً جنوب الفاشر، لذا عقد السلطان إجتماعاً موسعاً لمجلسه العسكري الذي قرر مواجهة العدو خارج الفاشر وأقسم الجميع على أحد الأمرين النصر أو الموت[152]. ولكن القبض على فرقة إستطلاع السلطان شل حركته وقطع عنه ذلك الأخبار بتحركات العدو مما أثر على خطته ومعلوماته[153]. وفي 22مايو تقدمت القوات الثنائية بعد استطلاع قامت به طائراتها حتى وصلت إلى بعد إثني عشر ميلاً من الفاشر حيث تعسكر قوات السلطات التي احتلت مركزاً استراتيجياً هاماً[154]. هذا بالرغم من شح إمكانياته المادية والعددية مقارنة بقوات الحكومة الثنائية بطائراتها وقدراتها العسكرية المتفوقة.

ولم تتجاوز قوات السلطان علي دينار يومئذ الثلاثة آلاف والستمائة رجل مسلحين بالبنادق. أما البقية فلا يملكون سوى الحراب شيئاً ،وبدأت هذه القوات هجوماً عنيفاً على قوات الحكومة الثنائية البريطانية. إلا أن نيران المدفعية المتفوقة حصدتها حصد الأفيال وبالرغم من ذلك صمد هؤلاء الأبطال صمود الأماجد من أبناء السودان حتى

[151] ماكمايل إلى الحام العام في 1916/5/27م D .S.A Box 128/5

[152] الحكام العام إلى المندوب السامي في 1916/6/14م D .S.A Box 128/6

[153] الحكام العام إلى المندوب السامي في 1916/6/16م D .S.A Box 128/6

[154] الحكام العام إلى المندوب السامي في 1916/6/14م D.S.A Box 128/5

أن بعضهم سقط على بعد عشر ياردات من خط النار وقتل في هـذه المعركـة قائـده رمضان وابنه سليمان مما كان لـه أكبر الأثر على نفسية السلطان[155].

وبلغت الخسائر الفوراوية في تلك المعركة الألف قتيل وثلاثمائة جريح. وبلغـت خسائر الجيش الغازي حوالي ستة وعشرين قتيلاً وبقي مع السلطان عدد كبير تنقصهم الدربة لا سيما بعد أن خسر الفور خيرة رجالاتهم وقياداتهم المقتدرة في هذه المعركـة غير المتكافئة مع العدو الغازي المعتدي[156]. وحاول السـلطان بشـتى الوسـائل أن يخترق هذا الحصار المفروض عليه من قبل هؤلاء الأعداء الظلمة بفرقة اسـتطلاعية بيد أنها قد حصدت بواسطة نيران المدفعية الثنائية[157]. بعد أن بلغ مسامع السـلطان خبر الهزيمة الثانية في 1916/5/22م انتظر حتى وصول الفارين إليه فأرسل معهـم خطاباً إلى السنوسي لتوحيد الجبهة من جديد لإشعال المعركة خارج الفاشر وصـمدت قواته صموداً لم يزحزحه إلا وصول طائرة بريطانية أنقذت الموقف. وبالتالي كانـت معركة (بيرنقي) هذه تعتبر معركة فاصلة أستطاع الفور فيها أن يحققوا نصراً شـجع السلطان للقيام بالدور الأخير فهجم بقواته من أقصى جنوب المدينة ولكن تحت وابـل من قذائف مدافع وطائرات القوات الثنائية البريطانية تقهقـر[158]. وتقـدمت القـوات الثنائية تجاه الفاشر عاصمة دارفور حيث دارت في أرجائها معركة حاسمة من الساعة الخامسة والنصف صباحاً إلى الساعة العاشرة والنصف صباحاً. كانت بحـق ملحمـة فوراوية من ملاحم البطولة والوطنية السودانية ،وتجسدت فيها روح التضحية والجهاد والإيمان بالمبدأ والدفاع عنه حتى آخر لحظة ورمق. بعدئذ اعتصم السـلطان بقلعـة داخل الفاشر وتقدمت القوات الثنائية البريطانية مسافة ثمانمائة ياردة إلى موقع أحسـن حتى أصبحت على بعد أثني عشر ميلاً شمال الفاشر[159]. بكل المقاييس ما يمكن قوله أن السلطان قد صمد وجنوده صمود الأبطال، وأبدى مقدرة على المقاومة في مواجهة

---

(155) ماكمايل إلى الحكام العام في 1916/6/14م D .S.A Box 128/5

(156) كالي إلى الحاكم العام في 2005/5/25م D.S.A. Box 128/6

(157) كالي إلى الحاكم العام في 2005/5/25م D.S.A. Box 128/6

(158) يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 390-391

(159) كالي إلى الحاكم العام في 1916/6/25م D.S.A. Box 128/6

أحدث ما وصلت إليه أوربا يومئذ بأسلحة تعتبر ضعيفة وبدائية في مواجهة ما تملكه الحكومة الثنائية البريطانية المدعومة من كل من القاهرة ولندن.

ولكن بالرغم من هذا الصمود في وجه القوات الغازية فقد خسر السلطان في هذه المعركة عدداً كبيراً من قواته وخيرة قياداته، بيد انه كان مصراً على المقاومة والصمود إلى آخر رمق من حياته شأنه شأن الأنصار من قبله في كرري وأم دبيكرات[160]. وفي 24 مايو حلقت الطائرة الثنائية البريطانية فوق كل من مليط والفاشر لمدة ست ساعات حيث قذفت قوات السلطان بوابل من النيران. وردت الأخيرة بالمثل الأمر الذي أدى إلى إصابة قائد الطائرة الثنائية البريطانية في فخذه[161]. وكانت قوات السلطان لا تزال صامدة ومتجمعة في الفاشر[162]. وبعد وصول الطائرة ترك السلطان الفاشر متجهاً ناحية بئر الطويل على بعد عشرين أو خمسة وعشرين ميلاً جنوب غربي الفاشر. وبعد فترة قصيرة غادر بئر الطويل بعد أن أقام بها قوة متجهاً صوب جبل مرة، ويبدو أن السلطان علي دينار كان يتوقع هجوماً جوياً حيث حصن الفاشر ببرجين لإطلاق النار على الطائرات[163]. بيد أنهما لم يغنيا عنه كثيراً لمحدودية إمكانياته ولفقده العظيم في معركة سابقة لمعركة الفاشر تماماً حيث فقد خيرة رجاله بما فيهم بعض أبنائه. وفي الخامس والعشرين من شهر مايو سنة 1916م تم الاستيلاء من قبل القوات البريطانية على الفاشر تماماً، وتوالت التهاني من كل من القاهرة ولندن والخرطوم[164]. وفي اليوم التالي لدخول الفاشر اقترح القائد البريطاني كالي على الحاكم العام الإنجليزي بالخرطوم جعل جائزة مقدارها مائة وخمسون جنيهاً لمن يأتي برأس علي دينار ومحمد عبد الموجود[165]. لعل ذلك العرض يغري ذوي النفوس الضعيفة من أتباع السلطان وأعوانه المقربين لقتله والفوز بالجائزة. وفي يوم 25 مايو 1916م قام السلطان علي دينار بمناورة سياسية جديدة، حيث أرسل خطاباً إلى الحاكم العام البريطاني بالخرطوم أشار فيه إلى أنه قد خدع من قبل كبار رجالات دولته وأنه

(160) كالي إلى الحاكم العام في 1916/6/25م D.S.A. Box 128/6

(161) الحاكم العام إلى المندوب السامي في 1916/6/14م D.S.A. Box 128/6

(162) الحاكم العام إلى المندوب السامي في 1916/6/14م D.S.A. Box 128/6

(163) I bid

(164) الحاكم العام إلى كالي في 1916/5/27م D.S.A. Box 128/5

(165) كالي إلى الحاكم العام في 1916/5/26م D.S.A. Box 128/5

دخل في الحرب ضد الحكومة الثنائية البريطانية نتيجة إغرائهم وأنهم انسحبوا منه حين دخلها الجيش الثنائي. وعرض علي القيادة البريطانية الصلح مشيراً إلى عدم رغبته في الحكم والملك. بيد أنه طلب الأمان لــه ولعائلته ومرافقيه ويأمل في أن يوافيه الحــاكم العام البريطاني بالشروط المطلوبة للسلم حقناً للدماء بشترط أن لا تكون هذه الشــروط مجحفة ومقبولة[166].

بهذا يكون السلطان قد عرض موافقته على الصلح وحقن الدماء في غير مذلة كما أبان أنه لا يقبل الضيم. وهنا تبرز فيه الشخصية القوية التي لا تستسـلم دون شــروط مسبقة. ولعله بذلك أراد المراوغة وتهدئة الأحوال حتى يتمكن من جمع شمله ولم شعثه والمعاودة من جديد. ولا يخفي أن هذا العرض الذي تقدم به كان من بــاب المنــاورة السياسية البحتة ومحاولة ذكية لكسب الوقت، لأن الدارس لشخصية السلطان علي دينار يدرك بأنه كان مراوغاً من الدرجة الأولى وأن قناعاته الذاتية لا يمكن أن تتبدل بهــذه السرعة على الإطلاق، ولعل تجربته مع المهدية تعطي خير مثال، فهو ســلطان أبــن سلطان سليل سلاطين إذ يستحيل أن ينزع عنه هذا الجلد جلد العزة والكرامة والمجــد الأصيل ويلبس جلداً آخر جلد الذلة والمهانة بهذه السرعة وبهذه البساطة الساذجة .

وأبدى الحاكم العام رغبته القوية في استسلام السلطان ورجالاته على أن يعطــى مقابل ذلك الأمان وأن تهيئ لــه الحكومة ولعائلته مكاناً آمناً بعد أن يوافق على مقابلة الحاكم العام البريطاني. وذلك بعد إجراء مقابلة أولية مع قمندان الحدود الغربية وترتيب ما يلزم من تحديد عدد الرجالات الذين يمكن أن يصحبوا السلطان إلى الخرطــوم[167]. بعد وصول رد الحاكم العام البريطاني لم يتردد السلطان في الرد على هــذا الخطــاب مبدياً استعداده التام بقبول أوامر الحاكم العام البريطاني. ووعد أنه حالما تنزل الأمطار فسيكون بالفاشر. ونفي وجود رجال ذوي أهمية لديه من رجالات دولته سوى الشــايب شمس الدين ويطلب من القمندان البريطاني موافاته بالمكان الذي سينزل فيــه وتحديــد عدد الرجال الذين سيصحبونه[168].

(166) السلطان إلى السردار في 1916/5/29م الموافق 26 رجب 1334هـ D.S.A Box 101/1
(167) قمندان القوة الغربية إلى السلطان في 1916/5/29م D.S.A Box 101/5
(168) السلطان إلى القمندان في 1916/5/29م D.S.A Box 101/5

إن من يعرف سيرة السلطان وسلوكه السابق مع المهدية في حالة القوة والضعف يدرك المراد من هذا الخطاب الذي لا يعدو عن كون نزولاً على الأمر الواقع والاستفادة من الزمن. ولعله كان يهدف إلى تنفيذ خطة أخرى للانقضاض على القوة الثنائية البريطانية أو الفرار بجلده والالتحاق بالسنوسيين في الكفرة وكان يدرك تماماً أن الزمن في صالحه، وان هطول الأمطار يعني شل حركة الحكومة الثنائية البريطانية والحيلولة دون مواصلة مطاردتها له، وعندئذ يتسنى له أن ينفذ ما يدور بخلده. على صعيد آخر قام القمندان البريطاني بتحديد القوة التي يجب أن تصحب السلطان بأن لا تزيد عن مائة شخص هذا بخلاف عائلته وأولاده الصغار. أما بقية أتباعه عليهم الانتظار خارج المدينة لترتيب ما يلزم من إجراءات واستلام أسلحتهم وهذا يتم بعد إرسال رسول مسبقا أيخبر بقدوم السلطان قبل يوم على الأقل[169]. الآمر الذي يشكك في مصداقية الحكومة البريطانية المعروفة بالغدر الذي هو شيمة غربية أوروبية. ولقد كان السلطان علي دينار اذكي من أن تنطلي عليه هذه التدابير البريطانية الماكرة التي توحي بأن هناك تدبيراً خفياً يجري وراء الكواليس لإيقاع السلطان في قبضتها بكل حيلة ممكنة.

بدا الإجحاف واضحاً وبدأت الحكومة الثنائية البريطانية تفكر في وسائل جادة لإبعاد السلطان علي دينار عن السودان عموماً لئلا يصبح رمزاً للاستقلال في البلاد. ولئلا يقض مضجع النظام الأجنبي الجاثم على صدر الأمة. وفكر الحاكم العام البريطاني جاداً في إقصائه إلى أي مكان خارج السودان. لا سيما مكة بعد وصول الأخبار التي تفيد استسلامه وأكد ريجنالد نجت الحاكم العام بأنه مشغول في الوقت الراهن بأمر الثورة العربية وإشعالها في الجزيرة العربية والتي خطط لها أن يكون على رأسها شريف مكة الحسين بن علي. وأشار إلى نجاح المخطط الاستعماري الأوروبي في ذلك المسعى. هذه هي النكسة العربية الأولى التي ألبست ثوب الثورة زوراً وبهتاناً فهي من مفرق رأسها إلى أخمص قدميها إنجليزية الصنع أجنبية القسمات، فهي غربية فكرة وغاية وهدف، والذين أشعلوها لا يعدو عن كونهم خونة

(169) القمندان إلى علي دينار 9/6/1916م D.S.A. Box. 101/5- 128/5

أو مغفلين فكانوا وقود حركة لم يكونوا من منظريها أو مخططيها أو مفكريها بقدر ما كانوا أدوات صماء بكماء لا تعي إلا إشارة السيد الأبيض الذي كشف حقيقتها في هـذا التصريح، وهذه هي الحركة التي أسماها بعض المغفلين من الكتاب والساسة وبعـض الأكاديميين زوراً وبهتاناً بيقظة العرب وكان الاحرى أن يطلق عليها غفوة العـرب . وتلك هي مصيبة القيادات غبدير الواعية في العالم الثالث التي لا تعدو عن كونها لعباً ودمىً في أيد ساسة الغرب تخون أوطانها وأممها وتبيع عرضها وأرضها بثمن بخس. وتنفذ سياساتهم دون وعي أو إدراك أو حبة ذكاء. وكان المقصود من إرسـال علـي دينار إلى مكة التي ستكون تحت قيادة رجل لا يميل إلى الأتراك أن يتم وضـعه فـي حجز تحفظي وإذا لم تنجح الإدارة البريطانية في تحقيق هذا الغرض فسيتم إرساله إلى مالطا أو عدن أو أي مكان آخر[170] بعيداً عن أنظار وأسماع أهل دارفور والسـودان عموماً وحتي يتم نسيانه تماماً وتخلو الديار من رجل في قامته يرفـع عقيرتـه ضـد الوجود الاستعماري المحتل بالبلاد.

مما لا شك فيه أن هذا الخطاب لـه أهمية بالغة إذ يعتبر وثيقة غاية في الخطورة لأنه خفايا وأسرار السياسة الاستعمارية ودورها الخبيث الماكر في صياغة وتحريـك الأحداث في المنطقة العربية والإسلامية والأفريقية والآسيوية. ويفضح ويعري قامات رجالات كانوا ملء العين والبصر وحسبهم الناسيومها أبطالا ولكنهم كانوا في الواقـع والحقيقة أقزاماً وخونة. كما يعكس هذا الخطاب الدور الاستعماري في المنطقة ومدى الدسائس التي كانت تحاك ضد الأمة الإسلامية على خريطة العالم الإسلامي. ويؤكـد على أن الإخطبوط الإنجليزي كان يلعب دوراً بارزاً بالغ الأهمية في كل ما يجري في منطقة ما يسمى بالشرق الأوسط لاسيما وأن الموقف العربي والحركة الاستقلالية ذات النزعة العرقية كان منطلقها خارجياً منشئاً ومنتهىً لا يمـت إلـى الأمـة أو تراثهـا أو أوطانها بصلة. وإنما هو صياغة غربية شأن معظم الأطروحات الكثيرة التي أصبح يتبناها الآن الأحفاد في دار فور دون وعي وينفذوا مخططات لا تصب في خانة الوطن أو مصلحة شعب دار فور بقدر ما تحقق أجندة غربية أمريكية ذات استراتيجية أشبه ما تكون بإستراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية في كل من أفغانستان والعراق.

(170) الحاكم العام إلى كالي في 1916/6/13م D.S.A Box 129/6

ويؤكد لنا هذا الخطاب على صعيد آخر وطنية علي دينار وأصالته في إنتمائه وروحه الديني وهويته الإسلامية التي لم يرض تحت كل الظروف والضغوط التنصل منها أو التنازل عنها وأن رؤاه الإسلامية ظلت هي الطاغية وإن لم تنج من امتزاجها بحب السلطة، وهذا أمر طبيعي في فرد من سلالة بيت حاكم في المنطقة لأكثر من أربعة قرون مضت، وامتاز البيت الفوراوي بتنظيم سياسي وإداري وقضائي وعسكري، افتقرت إليه كل السلطنات مما ضمن له الديمومة والاستمرارية حتى مجيء هذا السلطان إلى العرش. والذي أزعج بريطانيا بحق هو موقفه العدائي ضد الحكومة الثنائية البريطانية بالسودان واستراتيجية بريطانيا في المنطقة العربية والأفريقية ووقوفه بجانب تركيا. واتخذت سياسته الخارجية بعد اندلاع الحرب التي أسموها الكونية منحى واضحاً، بأن استجاب لنداء دار الخلافة العثمانية وآل على نفسه معاداة النظام الكافر باعثاً بخطابات حادة اللهجة موجهة إلى (حاكم النار) و (حاكم جهنم) يعني بذلك حاكم عام السودان البريطاني، وخشيت الحكومة الثنائية وبريطانيا أن يحدث بعد هطول الأمطار اتصال بينه وبين السنوسيين والأتراك وبذلك يسقط في أيديها ويشكل ذلك الموقف عبئاً ثقيلاً على وجودها. ومن ثم لا يمكن مقاومته أو إزاحته حينئذ[171]. ورغماً عن خطاب الحاكم العام البريطاني السابق بقبول تسليم علي دينار. إلا أنه لم يخف شكوكه من موقف السلطان، الأمر الذي حتم عليه إرسال فرقة من القوات البريطانية للقضاء عليه قبل أن يتمكن[172]. وعزا ذلك إلى وجود أشخاص مثل محمد عبد الموجود المصري الأصل الذي هرب من الخدمة العسكرية في الحكم الثنائي وأنحاز إلى فئة الحق والإسلام. وأصبح ريجنالد ونجت ينظر إلى مراسلات السلطان علي دينار باعتبارها نوعاً من المراوغة حاول السلطان بها أن يهدئ الموقف ثم يحاول فيما بعد أن يقيم سلطنة صغيرة في جنوب دار فور. وهذا ما سبق أن أكدنا عليه وهي سياسة فيما يبدو ناجحة في بعض الظروف ولكن ليست ناجحة في كل الأحوال. بهذا يكون الحاكم العام البريطاني قد أدرك فعلاً أبعاد سياسة السلطان الراهنة لا سيما وأن

(171) الحكام العام إلى كالي في 1916/7/13م D.S.A. Box 129/6
(172) الحكام العام إلى كالي في 1916/6/13م D.S.A. Box 129/7

هذا ديدنه من قبل في مثل هذه الظروف حيث أن موقفه من المهدية يظل خير شاهد. وكان السلطان من جانب آخر يدرك أن المشكلة لا تعدو عن كونها مشكلة زمن وبالتالي عليه أن يكسبها لصالحه بالمراوغة وبواسطة رسائل تذهب منه وتجيء إليه بدون حدوث نتيجة عاجلة وهي نفس السياسة التي اتبعها إزاء الحكم الثنائي البريطاني منذ توليه وحتى مغادرته الفاشر عنوة في مايو سنة 1916م.

ومن باب المراوغة السياسية بدأت مراسلاته تصل الحكومة ويبدي فيها موافقته على أية شروط تعرضها عليه الحكومة الثنائية البريطانية ومنذ نهاية مايو فقد مضى أكثر من شهر والموقف لا يزال كما هو دون تغيير يذكر. وفي 27 يوليو جاءت أخبار تفيد بأن ثورة قد حدثت بين جنود السلطان في معسكره وانه قد جرح وان عدداً كبيراً من عبيده قد هرب بيد أن ذلك لم يتأكد. واقترح القائد البريطاني كالي إذا صح الخبر فعلى قوات الحكومة أن تعاجله بضربة مفاجئة أثناء مقاساته من الجرح والقضاء عليه[173]. ووصلت معلومات مفادها أن السلطان لا زال يحتفظ بعدد من الجنود يقدر عددهم بخمسمائة جندي. ومعهم مئتا حصان ويملك من الأسلحة ألفي بندقية وإتباعه يقدرون بألف رجل بما في ذلك جيشه[174]. هذه إحصاءات وتقديرات المخابرات البريطانية إذ لا يستبعد أن يكون فيها قدر من المبالغة للتقليل والتهوين من شأنه في نظر المسؤولين البريطانيين في الخرطوم حتى يسمحوا للقوات الغربية بالتقدم ومطاردته واللحاق به. وعليه ينبغي على الباحث في مثل هذه الوثائق أن يكون حذراً مما ورد بها من معلومات. ولما لم يكن هناك غيرها كان إعتمادها ضرورة مع احتمال الشك في درجة صحتها ويمكن مقارنتها بما كتبه أشخاص مختلفون في هذا الجانب.

في هذه الأثناء قام السلطان بمحاولات لتركيز نفسه من جديد وتطبيق الإجراءات الكفيلة ببقائه: **أولها:** توفير المال الذي يعد عصبة الإدارة والسلطة وقوامها وذلك بإنفاذ حملة لجمع الضرائب من القبائل المجاورة ونتيجة لرفضها جرد عليها حملة بقيادة أبنائه زكريا وحمزة وسيف الدين وآخرين مثل منصور عبد الرحمن وخير الله مقاصر

(173) كالي إلى الحكام العام في 1916/7/27م D.S.A. Box 129/7

(174) كالي إلى الحكام العام في 1916/8/14م D.S.A. Box 130/1

وجرح في هذه الحملة أبنه زكريا وتقدر عددية الحملة بأربعمائة جندي(175). الأمر الذي يؤكد على أن السلطان لا يزال يمارس سلطاته كاملة غير منقوصة وان خطاباته السابقة لا تعدو عن كونها تهدئة ومراوغة يرمي من ورائها إلى كسب الوقت. ولعل ذلك كله مما يدل على استمرارية السلطان في ممارسة شؤون الحكم في الرقعة التي تحت يده. وان ما كتبه إلى السردار لا يعدو عن كونه ذر رماد في العيون إلى حين.

وتوجست الحكومة الثنائية خيفة من قوة السلطان الحالية وشعرت بخطورته هذا بالرغم من هروب بعض جنوده ممن تأثر بالدعاية الثنائية البريطانية من معسكره، وضعفت نفسه أمام إغراءات الأمان وشدة الحالة التي وصلها السلطان. وواصل علي دينار هجماته على القبائل الضعيفة بغية توفير إحتياجات جنده وأصبحت الحكومة الثنائية البريطانية تترقب الفرصة السانحة للقضاء عليه(176).وأطلقت المخابرات الثنائية إشاعة فحواها أن الجيش الغازي قد أجلى عن الفاشر. فأرسل السلطان فرقة استطلاعية بقيادة ابنه زكريا للتأكد من صحة هذه الأخبار إلا أنها لم تصل الفاشر مما يؤكد على قوة أمله في جلاء القوات الثنائية البريطانية عن الفاشر ودار فور وعودته لعرش آبائه تارة أخرى(177). وفي الوقت ذاته أقامت الحكومة الثنائية نقاط مراقبة قوية حيث جندت عناصر من أهل البلاد لحراسة الحدود من غرب جنوب حلفا وحتى دار فور وعلى امتداد طريق الأربعين وسلحتهم بأسلحة نارية(178). لفرض حصار عسكري على السلطان لئلا تصله أسلحة أو إمدادات سنوسية أو تركية وهذه المحاولة كانت غايتها قطع أي اتصال خارجي مع السلطان.

وعلي صعيد آخر جرت بين الطرفين اشتباكات في 10/16 /1916م أطلقت فيها القوات الثنائية البريطانية النار على قوات السلطان حيث أصابها فزع شديد وتشتت شملها. وشرع السلطان في إعداد العدة للتقهقر إلى كويفا (KOEFA) ولقد جاء في هذه الأثناء ورد طلب من زكريا علي دينار إلى القائد الإنجليزي بالاستسلام وكذلك

(175) كالي إلى الحاكم العام في 1916/9/13م D.S.A. Box 130/4

(176) الحاكم العام إلى ليو وينتال في 1916/9/6م D.S.A. Box 130/4

(177) كالي إلى الحاكم العام في 1916/9/21م D.S.A Box 130/4

(178) Sir Reginald Winsale. op. cip. PP. 10368.

ورد طلب آخر من أحد قادة السلطان في نفس الموضوع[179]. هذا في الوقت الذي لجأ فيه السلطان تارة أخرى إلى المراوغة حيث أرسل خطاباً إعتذارياً إلى (هاردلستون) البريطاني قائد القوات الثنائية الذي كان مكلفاً بمطاردة السلطان وأشار لـه فيه بأنه يرغب في الحضور حالياً إليه بغية الاستسلام[180]. لعل خشية السلطان من نقض الحكم الثنائي لعهوده وتجربته الطويلة معه هي التي جعلته يتشكك في صدق نوايا الحكم الثنائي وتلويحه لـه بالأمان مقابل استسلامه. وفي الرد على تسليم أبنه زكريا رد السلطان بأن أبنه قد مات. وأخذ يلعب بعواطف الحكم الثنائي مرة أخرى بإشارته إلى انه على استعداد للاستسلام إذا ما أعطته الحكومة الأمان وان استسلامه مشروط بذلك أولاً. وقام بإرسال وفد إلى هاردلستون قائد الحملة الإنجليزية المصرية بغية أن يتفاوض معه[181]. إلا أن الأخير عزم على مطاردته والقضاء عليه فقام بحملة على السلطان في 1916/11/15م والذي كان قد اتجه صوب سوغاي (sugai)[182]. ولدى وصول هاردلستون إلى كالوم لم يجد فيها غير الأسلاب ووجد أن معظم رؤوس المية من جهادية علي دينار الذين كانوا معه تركوه وسلموا أنفسهم للجيش الغازي[183].

وبعد وصوله إلى نفس المكان الذي قتل فيه ابن عمه أبو الخيرات جاءته أخبار بان قوات الحكومة الثنائية البريطانية تتجه نحوه وفي آخر يوم لـه صلى الصبح على سجادته وتناول القهوة وبعد سماع أول إطلاق ركب حصانه ومعه أمينة حسن سبيل فأصابته رصاصة من نيران القائد البريطاني هاردلستون في أم رأسه حيث ألقته شهيداً في وادي زول (Zuli) وتم دفنه هناك[184]. وبموته انطوت صفحة ناصعة من صفحات المقاومة الوطنية في البلاد. مقاومة لم تقدها عناصر شعبية كما هو الحال في المنطقة. بل تمتع قائدها بميزة قيادية متفردة وهي أنه كان سلطاناً جمع بين السلطة والروح الوطنية، وخيمت بموته سحابة الفناء على سلطنة عريقة قاومت عوادي الزمن

(179) مخابرات أبياد إلى مخابرات الخرطوم في 1916/10/24م D.S.A Box 130/5

(180) كالي إلى المكتب العسكري في 1916/11/13م D.S.A. Box 130/7

(181) القيادة الغربية إلى المكتب السري في 1916/11/13م D.S.A. Box 130/7

(182) ونجت إلى جراي وزير الحربية البريطانية في 1916/11/12م D.S.A. Box 130/7

(183) تقرير إلى القيادة العسكرية بالخرطوم في 1916/11/8م D.S.A. Box 130/7

(184) Major Boustead: the youth and the last days of Ali Dinar.

لأكثر من أربعة قرون من الزمان. وأصبحت بعدئذ دار فور مديرية من المديريات التابعة تبعية تامة للحكومة الثنائية البريطانية، وعين عليها الليفتانت الكولونيل سافيلي مديراً لها[185].

تعددت التبريرات والدوافع التي ألقت بالسلطان إلى خضم المعركة ضد الحكم الثنائي البريطاني. يرى الحاكم العام البريطاني أن عدم الوصول إلى حلول سريعة وعاجلة بشأن الحدود الغربية أثرت على علاقات علي دينار بالحكم الثنائي البريطاني ومواقفه فأصغى بأذنيه إلى الأعداء وذوي الدعاية الغرضة ضد الحكم الثنائي البريطاني بالبلاد. ونتيجة لذلك فقد قرر منع أي أوربي من دخول دار فور[186].هذا التعليل لا يخلو من ضعف وتغافل وتجاهل تام لبعض الحقائق الماثلة **أولاً**: منذ وصول السلطان إلى عرش آبائه وتربعه على سلطنة أجداده. فمن المعروف أن السلطان قد رضي بالحكم الثنائي البريطاني كأمر واقع. وكذلك الحكم الثنائي البريطاني لم تكن لديه القدرة على إدارة دار فور إدارة مباشرة يوم قضائه على الثورة المهدوية بالبلاد. ولم يكن السلطان شخصياً قد بعث لحكم دار فور باسم الحكم الثنائي البريطاني وإنما أخذها عنوة بسلاحه ورجاله. **وثانياً** : أن السلطان منذ مغادرته أم درمان لم يقابل مسؤولاً أوربياً أو حكومياً بريطانياً من الخرطوم على الإطلاق طوال فترة حكمه التي استمرت لأكثر من ست عشرة سنة. فكيف يستساغ أن يقال أن السبب الرئيسي هو مشكلة الحدود الغربية. وقد رأينا تنصله المستمر من الارتباط الضريبي بالحكم الثنائي البريطاني. **ثالثاً**: حساسيته المفرطة ضد المسيحيين الأوروبيين وعدم اطمئنانه لجانبهم منذ أيامه الأولى. ولا يفوت المرء أن يقرر على وجه الإجمال أن السلطان قد شكل مقاومة وطنية فريدة في المنطقة جمعت بين السلطة والروح الوطنية وتوشح بهوية إسلامية ضد الحكم البريطاني الأجنبي في البلاد. وتزود بروح حماسية لبها غيرة دينية صادقة لطرد أعداء الإسلام من اليهود والنصارى وتطهير البلاد من أرجاسهم. ولعل الفصول التالية تلقي الضوء على أصالة موقفه ومبدأية سياسته وأبعاد استراتيجيته السياسية.

(185) يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره ص 394

(186) Sir Reginald Wingate op. cit. pp. 10366.

وقد أُجهضت محاولاته لتآمر القوى الاستعمارية البريطانية والفرنسية في المنطقة والتي حاولت جاهدة كفكفة مساعيه الإسلامية وجهوده الوطنية. كما أن السنوسيين والأتراك لم يستطيعوا إدراكه في الوقت المناسب فاعتمد في النهاية على موارده الذاتية وعلى ما جمعه من سلاح قطرة عبر السنين حتى استطاع أن يصمد في وجه قوة ذات دربة راقية ومستوى عال إلى حين ولم يرض بالذل ولم تحدثه نفسه بالاستسلام وإنما رضي لها أن تموت في سبيل مبادئه ودينه ووطنه عزيزة كريمة فكان أذكى من كثير من القيادات المعاصرة على المستوى العربي والإسلامي، لأن من يستسلم لأعدائه أو يمسكوا به يتعرض لمذلة وإهانة باطن الأرض خير لصاحبها من ظاهرها كما حدث لصدام العراق.

الباب الرابع

أ- العلاقات بين الحركة الوطنية الفوراوية والحركة الوطنية الليبية السنوسية في الربع الأول من القرن العشرين 1889-1916م

ب- سلطنة دار فور ومواجهة خطر الاحتلال الفرنسي لوداي

الفصل الأول: السنوسية والحركة الوطنية بدارفور

الفصل الثاني: طبيعة الحلف الفوراوي السنوسي

الفصل الثالث: الأسباب التي أضعفت الحلف السنوسي الفوراوي

الفصل الرابع: علاقات دارفور بوداي (تشاد الحالية)

الفصــــل الأول

السنوسية والحركة الوطنية في دارفور

1- تعريف بالسنوسية :

السنوسية تعتبر واحدة من الدعوات السنية الإصلاحية التـي انتظمـت العـالم الإسلامي في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي واستمر عطاؤها بقدر وافـر حتـي النصف الثاني من القرن العشرين. وتعود نشأتها إلي المؤسـس الأول محمـد علـي السنوسي[1] ولقد بزغ فجر هذه الطريقة علي سفح جبل أبي قبيس بمكة (1150هـ أو 1152هـ الموافق 1835م أو1837م). وذلك بعد وفاة الشيخ أحمد بن إدريس وانقسام أتباعه إلى الإدريسية وأتباع محمد بن على السنوسي ..

وتعتبر منطقة الكفرة بليبيا معبراً هاماً للقوافل مما زاد من أهميتها الجارية، فقـد أنشأ فيها محمد المهدي بن محمد علي السنوسي الكبير مؤسـس الطريقـة السنوسـية (ت1902م) مصنعاً للسلاح ومعدات الحرب. هذا بالإضافة إلى ما يحمل إليهـا مـن الساحل وما يحمله الزوار من أشياء من شمال وغرب أفريقيا من النيجـر والنيـل[2]. والسنوسية هي حركة جهادية ودعوية عملية من أقوى الحركات التي قامت في القـرن التاسع عشر.

---

(1) هو محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي ينتهي بنسبه إلي إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة فـي الثلث الأخير من القرن الثاني الهجري ونهاية القرن الثامن الميلادي. وذكر الأمير شكيب أرسلان أنه قد اطلـع علـي تاريخ للعائلة يصل نسبها بعلي ابن أبي طالب. ولقد بزغ فجر المؤسس في بيت علم ودين في بلدة مستغانم بالجزائر في محلة يقال لها الواسطة وذلك في 12 ربيع الأول 1202ه 22 ديسمبر 1785م. وتوفي والده وهو لا يزال فـي طـور الطفولة فتولت عمته التي كانت من كبريات الفضليات العالمات في عصرها يومئذ تربيته ورعايتـه علميـاً وتربويـاً. محمد فؤاد شكري: السنوسية دين ودولة/مصر/القاهرة/ دار الفكر العربي 1948م ص10 وأنظر أيضاً نقـولا زيـادة: صفحات مغربية /لبنان /بيروت/ط1 1966م ص297 .

(2) الجريدة العدد 1417 1911/11/11م بقلم نجيب ناصر D.S.A Box 301/6

إذ قامت فكرتها على أساس روحي ونظري وعملي وبنت فكرتها على الاعتماد على الذات وبثت في روع أفرادها روح العمل والعبادة والعلم، عكس الطرق الصوفية التي اختزلت الحياة إلى الانقطاع والأذكار والتمائم والرقي والخلوة واعتزال الحياة، فهي حركة إيجابية تركت بصماتها على كل من اتصل بها. وكانت نواة المقاومة للوجود الأجنبي في ليبيا وكل المنطقة العربية. واتصفت بالاتزان والقدرة على التأثير في الجماهير.وتميزت بطرح موضوعي أخاذ وهي أول حركة في التاريخ المعاصر والحديث طرحت شعار الاكتفاء الذاتي والاعتماد على الذات وتميزت بنظام إداري وروحي فريد، وبلغ عدد أتباع السنوسية ما يربو علي الخمسة ملايين في العالم. وأصبح لها نظام إداري علي قمته الوكيل ومهمته إطلاع المقدمين علي شؤون السياسة العامة. وهؤلاء بدورهم يقومون بتبليغ الأخوان(3).

واستطاعت بروحها الكفاحية أن تكسب انتصاراً وبنشرها للعلم تمكنت من استمالة أهالي تلك الصحراء والأقطار المجاورة لها لا سيما وان الروح البدوية بخشونتها وجديتها أقرب ما تكون إلى الروح العسكرية بالرغم من ميلها إلى الانفلات. ولكن مع الإدارة المقتدرة والإرادة القوية يمكن تعديلها وتقويمها حسب ما تقتضي مصلحة الجماعة. وهذا ما نجحت السنوسية فيه. فالفكرة الجادة والنظرة الواقعية والطرح المقبول ومصداقية القيادة والقدوة الحسنة أكسبها أنصاراً.

فقد كان لكل زاوية شيخها ومزرعتها يقوم فيها بالعمل التلاميذ وعليها يعتمدون وما زاد من دخل يرسل إلى محمد المهدي(4). فقمن بحركة هذا دورها وتلك فكرتها أن تكون لها صلاتها بالقوة المحيطة بها بغية تبشيرها بدعوتها وإحداث مناطق نفوذ لها. فقد حاولت السنوسية ومنذ فترة مبكرة أن تمد ببصرها إلى دار فور. وتطورت هذه العلاقة حتى أصبحت تشكل حلفاً إسلامياً في المنطقة ضد القوى الأجنبية في عهد السلطان علي دينار.

(3) الجريدة المصدر السابق D.S.A Box 301/6

(4) استطلاع مجلة الهلال السابق D.S.A Box 301/6

2- علي دينار بين المنفذ التجاري والاستقلال:

كان السلطان علي دينار بعد تربعه على عرش آبائه يتطلع إلـى آفـاق أرحـب تتجاوز حدود بلاده. كما أنه كان حريصاً على الاستقلال والانفلات من قبضة الحكـم الثنائي. لذا كان سعيه حثيثاً لإيجاد منفذ تجاري يجعله في حل من مراقبة الحكم الثنائي لقوافله ويؤمن لـه إحتياجاته الملحة من الأسلحة.

وتبدو أهمية هذا الأمر إذا علمنا أن دارفور تعتمد في اقتصادياتها على التجـارة الخارجية. وهي من المناطق الواعدة إقتصادياً على مر التاريخ لما حباها الله به مـن موقع جغرافي ممتاز. وأن حاجتها للأسلحة يومئذ كانت ضـرورة تقتضـيها حمايـة حدودها والدفاع عن استقلالها. والاستقلال هدف استراتيجي بالنسبة للسلطان علي دينار تقتضي حمايته توفير الأسلحة. وتأمين مصادر لتوريده وإمداد البلاد باحتياجاتها منـه. هذه الأسباب تشكل في مجموعها إحدى دواعي الاقتراب بـين الطـرفين السنوسـي والفوراوي. حيث تشكل ليبيا ظهيراً هاماً وواقيا لدارفور.

لذا يلاحظ بمجرد تسلم السلطان علي دينار العرش فكر في الاستفادة من الطريق التجاري الذي يربطه بالشمال مع ليبيا والعلاقة بين دار فور وليبيا هي علاقة عرقيـة وثقافية واقتصادية أزلية ضاربة بشعابها في التاريخ فالمساليت هم من مسلالة الليبيـة. وكذلك المحاميد لهم أبناء عمومتهم في ليبيا، وكانت وستظل العلاقة بين دار فور وليبيا هي علاقة متصلة لا يستطيع نظام سياسي أو تجمع جهوي أن يقطعها. فدار فور كانت وستظل بوتقة انصهار عرقي وثقافي ونقطة ارتكاز وتواصل إجتماعي. وإجـراء أي عملية جراحية على المستوى السياسي تحاول إنكار هذا الوجود العربي الذي امتـزج بالدم الحامي والزنجي لمئات السنين يكون قد تجاوز السـقوف المنطقيـة والعقلانيـة. ويظل بوقاً غريباً يعزف عزفاً نشازاً بكل المقاييس وبعيداً عن الواقع ودراسة مفردات التاريخ الفوراوي بذكاء ووعي. ويعبر موقفه بهذه الكيفية عن بلادة تاريخيـة وتبلـد حسي في مجال الوعي العام. وفي هذه الأثناء زادت شكوك الحكومة الثنائيـة حـول نوعية العلاقة التي يمكن أن تنشأ بين قوتين ذاتي نزعة دينية وما ينتج عن ذلـك مـن

خطر على القوة المصرية الإنجليزية في السودان[5]. وذلك لما عرفت بـه السنوسـية والحركات ذات الاتجاه السياسي الديني من شراسة تجاه القوى الاستعمارية. والسنوسية كما ذكرنا هي حركة جهادية كما هي حركة صوفية ذات توجه سني. كان لأحمد بـن إدريس دفين صبيا بعسير جنوب المملكة العربية السعودية، دور كبير في غرسه فـي أعماق المؤسس محمد بن علي السنوسي الكبير.

وبدأت الحساسية الإنجليزية تجاه نشوء مثل هذه العلاقات منذ اليوم الأول لحكـم السلطان. فقد جاء في أحد تقارير المخابرات ما يدلّ على وجود علاقة بين السنوسـية والسلطان. حيث وردت الإشارة إلى أن رئيس فرقة سنوسية استطلاعية قد دخل الفاشر من غير تأكيد[6]. مغزى هذه الإشارة أن السلطان قد بدأ يتطلع إلى إيجاد منفذ خارجي لتجارته. وفي الوقت ذاته كان يهدف إلى بناء علاقة خارجية تكفل اسـتقلال بـلاده. وتبدو عدم صحة ما ورد في مصدر آخر من أن السلطان بدأ علاقاته مـع السنوسـية سنة 1904م[7]. لما ثبت من أن السنوسي قد أرسل فـي أول ينـاير 1900م أربعـة مبعوثين إلى السلطان علي دينار. وقد استقبلهم هذا السلطان مبدياً مظاهر الود وأخفاهم في بيته ولم يرهم أحد[8].

يشير ذلك إلى إدراك السلطان لأبعاد مثل هذه العلاقة ونظرة الحكومـة الثنائيـة لها. فلا غرابة أن أحاطها بقدر من السرية حفاظاً لإستمراريتها. ويدل هذا الاتصـال المبكر على أن هناك قواسم مشتركة ومنذ اللحظات الأولى لمجيئه إلى سلطنة آبائـه. وأنه كان يعمل وفق استراتيجية محددة في علاقاته بالخكم الثنائي. ولعل ذلـك يفسـره عدم السماح لنفسه بمقابلة أي مسئول أوربي أو السماح لأي أوروبي بـدخول بـلاده لأكثر من ستة عشر سنة.

(5) S.I.R. MAY 1900

(6) Ibid

(7) A.J. Arkell: The conage of Ali Dinar. S.N.R Avol 23 (1940) Part. 2. p. 157

(8) يونان لبيب رزق، مصدر سبق ذكره، ص 238.

وسعت الحكومة الثنائية جادة للتأكد من صحة وجود مثل هذه العلاقة. فكتب أحد رجالات الاستخبارات قائلاً: (إن الأخبار التي أفادتها مصادرنا اتحاد السنوسي وعلي دينار)[9].

هذه الإشارة وهي مبكرة جداً بكل المقاييس تؤكد وجود علاقات بين سلطان الفور والسنوسية. وحري بالسلطان بأن لا يجاهر بوجودها لإدراكه بحساسية الحكم الإنجليزي المصري تجاه الحركات الدينية ذات التوجه السياسي. لا سيما وقد ذاقت إنجلترا الأمرين خلال الحكم المهدي في السودان. وجدير بها أن لا تسمح بتكرار التجربة مع محدودية إمكانياتها الإدارية والمالية. ولعل هذا ما حدا بها إلى متابعة طبيعة هذه العلاقات بحذر دائم. ولدقة الموقف أرسل السلطان خطاباً إلى مدير كردفان بغية تحويل الأنظار عن صلاته السرية بالسنوسية ورد فيه: (الشريف محمد السنوسي في هذه الأيام تحرك قيامه من محله الذي كان به وأتى زاحفاً حتى قرب الحدود برجاله وعموم جيشه وتم وصوله بمحل يدعى النخل القصنار على طريق الأربعين. وبالتأمل أنه قاصد الحج لبيت الله الحرام بطريق دنقلا ولم أمكننا تأخيره)[10].

ربما كان القصد من هذه الإشارة إلباس علاقته قدراً من الشرعية. ولعل تحرك السنوسي نحو البيت الحرام هو ما أشارت إليه صحيفة البصير التي تصدر في الإسكندرية في عدد نوفمبر سنة 1900. مشيرة إلى أن السنوسي قد تحرك نحو دار فور قاصداً الإتحاد مع علي دينار ضد الحكومة المصرية الإنجليزية. إن هذه الإشارة لها دلالتها الموضوعية لأن إشاعة على هذا المستوى لا يمكن أن تخرج من فراغ. لا سيما في هذه الفترة المبكرة من وجود السلطان بدار فور. وفي ذات الوقت تدل على عمق العلاقة ومتانتها وجذورها، مما يعني أن علاقة السلطان بالسنوسية لم تكن وليدة أحداث 1914م فحسب. وفي سنة 1903 لم ترد أي أخبار عن العلاقات بين الطرفين وإستمراريتها. حيث شغل سنين جانباً كبيراً من جهد السلطان وكذلك الزغاوة في الشمال واستطاع السلطان بعد هزيمتهم أن يفتح الطريق إلى الكفرة. فأصبح يستورد أسلحة حديثة من هناك[11].

---

(9) تقارير المخابرات S.I.R. 2/16 Appendix (K) July 1900

(10) علي دينار إلى مدير كردفان في 9 ربيع الآخر سنة 1318هـ يوليو سنة 1900م INTEL 2/5/14

(11) المصدر نفسه.

وفي سنة 1906م عادت المصادر لتؤكد بأن علي دينار قام بمحاولات جادة لفتح طريق إلى الكفرة عن طريق آبار الويطة. ووفق في ذلك حيث أصبح التجار عن هذا الطريق يحضرون الأسلحة من الشمال ويتاجرون فيها لدى الفاشر وأصبح تجار الأسلحة هؤلاء يقابلون مقابلة حسنة[12] في كل من الفاشر والكفرة وطرابلس.

هاتان الإشارتان تكشفان عن الدور المبذول من قبل السلطان ومحاولاته الجادة لفتح طريق تجاري. وتلقيان الضوء على الحاجة المُلحة لإيجاد منفذ تجاري يجعله يتفادى الرقابة المفروضة عليه من قبل الحكومة الثنائية وكذلك مماطلتها في إمداده باحتياجاته من الأسلحة. وشكلت الديار السنوسية مورداً ومصدراً لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لسلطنة دار فور الناشئة.

وبدأ السلطان من جانبه يشجع التجار القادمين من طرابلس حيث استضاف في مارس سنة 1906م إثني عشر تاجراً سنوسياً واشترى كل ما لديهم من أسلحة وأعطاهم حوالي أربعة آلاف ديناراً هدية وتشجيعاً لهم[13].

وقام السنوسي بتشجيع التجار السنوسيين للذهاب إلى دار فور وبيع الأسلحة بتلك البلاد[14]. وتم إيفاد الشيخ عبد القادر الأزرق بوصايا وهدايا وأسلحة لبيعها في دار فور[15].

هذه السياسة الفوراوية يبدو أنها قد حققت جزءاً من الأهداف التي يرمي إليها السلطان، وهي إيجاد منفذ تجاري وإثبات استقلالية بلاده والحصول على مصدر للسلاح يدعم به موقفه ووجوده، ويقوي به ترسانته الحربية تحسباً لأي هجوم أو محاولة عزل له من قبل الحكومة الثنائية التي "لا يُؤمَن لها جانب.

وأبدى أحمد الشريف السنوسي إهتماماً خاصاً بقوافل دار فور وتلقف أخبارها وتزويد السلطان بتحركاتها والتسهيلات المقدمة لها[16]. مما يدل على متانة العلاقة بين

(12) S.I.R. 140/4 MARCH 1906

(13) S.I.R. 140/4 MARCH 1906

(14) محمد عابد الشريف السنوسي 13 رمضان سنة 1326هـ S.N.A INTEL 2/3/12

(15) المصدر نفسه

الطرفين منذ فترة مبكرة. ولعل ذلك كله مما يدفع ما تعللت به الإدارة الثنائية من أن السلطان لم يلجأ إلى السنوسية والدولة العثمانية إلا يائساً من حلول الحكومة الثنائية لمشكلة القبائل والحدود الغربية. بيد أن الأمر أبعد من ذلك وأعمق بكثير في تقدير الباحث من سذاجة هذا التحليل.

ومن خلال ما تقدم يتضح أن العلاقة الفوراوية السنوسية لم تكن وليدة أحداث الحرب التي أسموها زوراً الحرب العالمية الأولى. فهنالك إشارات تؤكد أن علاقات دار فور مع السنوسية ترجع بجذورها إلى فترة متقدمة جداً من حكم السلطان وقد أثارت مخاوف الحكومة الثنائية منذ فترة مبكرة لا سيما استجلابه للسلاح من طرابلس وغيرها[17].

وكان اتجاه السلطان للتسلح تحسباً للمستقبل وتعويضاً عن خيبة الأمل التي أصابته من عدم إمداده بما يحتاجه من سلاح من الحكومة الثنائية وموقفها تجاه ما يدور على حدوده الغربية. وانفتحت بذلك صفحة مشرقة ما بين دار فور والسنوسية فالقوافل ظلت ذاهبة وآيبة. وتجار السلاح السنوسيون طفقوا يفدون على دار فور تترى. والسنوسي يلبي طلبات السلطان من الأسلحة دون قيد أو شرط. ولم يقتصر الأمر على أحمد الشريف وإنما ظل إخوانه يقومون بالدور نفسه[18].

وفي سنة 1912م توافد التجار السنوسيون على دار فور بغية الربح وطلب السنوسي من السلطان مساعدتهم[19]. وبذا ظل المنفذ التجاري الشمالي مفتوحاً تغدو القوافل وتروح والسلطان يبعث رسله لاستجلاب السلاح ويبعث بالهدايا للسنوسي[20].

من جملة ما سبق يتضح أن علي دينار كان حاكماً إسلامياً غيوراً على استقلاله. ولكي يحافظ على هذه الروح الاستقلالية ولكي يثبت أقدامه فلا بد من أن ينال ثقة جيرانه من القيادات الوطنية ذات النزعة الاستقلالية والتوجه الإسلامي. فاعتراف

---

(16) أحمد الشريف إلى السلطان في شعبان سنة 1328هـ الموافق 1910/7/15م S.N.A. INTEL 2/3/12

(17) جمادي الأولى سنة 1329هـ الموافق 1911/34م S.N.A. INTEL 2/3/2

(18) السنوسي بتاريخ 27 محرم سنة 1328هـ الموافق 1911/12/18م S.N.A. INTEL 2/3/12

(19) السنوسي إلى علي دينار بتاريخ 30 ذو الحجة 1330هـ الموافق 1912/11/11م S.N.A. INTEL 2/3/12

(20) علي دينار إلى ابن إدريس السنوسي في سنة 1333هـ الموافق 1915م S.N.A. INTEL 2/3/12

لـــه في كل من مليط وجبل مرة. إلا أن السلطان تماطل في السماح لـــه ببنـــاء هـــذه الزاوية ولعله كان يتخوف من أن تملأ السنوسية فراغ المهدية. وبالتالي يمكن أن تهدد نفوذه وإرثه الحضاري في دار فور. وأبدى السنوسي عـــدم ارتياحـــه مـــن ذلـــك[25] الموقف. هذه المحاولة تعكس الروح التبشيرية الواضحة لدى السنوسية وفي الوقت ذاته ترينا مدى الأناة والحذر اللذين كان يتمتع بهما السلطان تجاه تعامله مع القوى المحيطة لا سيما وهو في بداية المشوار مما يعني أنه كان حذراً إزاء أي نفوذ يمكن أن يشـــكل خطراً على وجوده في دار فور تحت أي مسمى من المسميات.

ولم يكن هذا التماطل ناجماً عن روح عدائية بل فيما يبدو كان اتجاهـــاً سياســـياً بحتاً أملته الظروف الآنية القصد منه تحويل أنظار الحكم الثنائي عنه. حيث أشار إلـــى ذلك الشيخ صابر جبريل أحد رجالات المخابرات الثنائية بقوله: كان علي دينار يتظاهر بعدائه للسنوسية ولكن في الواقع كانت صلته الروحية بالسنوسية قوية. والدليل علـــى ذلك وصول أثنين من مندوبي السنوسي احتفل بهما علي دينار وفي الحفل نسي نفســـه فسأل أحدهما بقوله كيف حال سيدنا. وما أن تنبه إلى وجود مبعوث الحكومة الثنائيـــة حتى إلتفت إن كان لاحظ ذلك أم لا[26]. إذاً كان لهذا التباطؤ مـــا يبـــرره إذ أحاطـــت الحكومة الثنائية السلطان بعدد من الجواسيس بغية الحصول على تفاصيل حـــول مـــا يدور بين السنوسي والفور. وفي السودان ينبغي أن نقرر بأن تعبير سيدنا هـــو تعبيـــر شائع. وقد لا تكون له دلالة موضوعية من حيث تبعية علي دينار للسنوسي. فأي شيخ في السودان يقال لـــه سيدنا، وفي أدب الخطاب السوداني، يعني المصطلح أن المقصود به هو شيخ عالم أو شيخ طريقة

بيد أن صاحب الدعوة كان في عجل من أمره حيث بعث بخطاب آخر يطلب فيه إيضاح عدم الرد على خطابه السابق والذي طلب فيه قبول طريقته واستقباله لـــه حين قدومه قاصداً الحج[27]. هذا في الوقت الذي لم يكن فيه السلطان علـــي دينـــار يملـــك

(25) تقارير المخابرات S.I.R. 42/4 1SH TO 31ST MARCH 1902

(26) تقارير المخابرات S.I.R. 80/5 9TH feb to 8TH march 1902

(27) تقارير المخابرات S.I.R. 80/5 Appendix (A) 9TH feb to 31TH march 1901

الإمكانات الغذائية والأمنية التي يمكنه توفيرها لقوة يفوق عددها على العشرين ألفاً. لذا قام بقفل طريق الأربعين وطريق دنقلا[28]. خوفاً من حدوث انفجار سكاني في بلاده. وخليق بالسلطان أن يتخوف ولما ترتكز أقدامه بعد من قدوم قوة هائلة كهذه. وتحت الإلحاح أجاب السلطان بأنه يؤيد السنوسي. وعن تهيئة مكان له أثناء عبوره اقترح جبل مرة مكانا لإقامته[29]. لم يوافق السلطان وحتى هذه اللحظة ورغم الإلحاح الشديد من قبل السنوسي لإقامة زاوية لـه في دار فور. إلا أنه أبدى أعذاراً لطيفة لا تخرج عن حذ اللياقة ولم يحاول في رده أن يخسر الكفة السنوسية. وفي الوقت ذاته كان حذراً من قوة ذات تنظيم دقيق وإدارة مقتدرة وعقيدة راسخة من أن تتوغل في بلاده. الأمر الذي قد يهدد وجوده وكيانه المستقل. وتأني السلطان ناتج من جانب آخر من معرفته التامة بما تعنيه الزاوية السنوسية التي كانت تعني وحدة إدارية وخلية تنظيمية وسياسية وعسكرية واقتصادية وبعثة دينية ووحدة إعلامية مقتدرة. ولئلا ينقطع حبل الوصل بين الطرفين بعث السلطان بهداياه إلى السنوسي بغية تطييب خاطره. ويذكر بعض التقارير أن السلطان شرع في بناء زاوية للسنوسي في جبل مرة[30].

وجاءت إشارة أخري تفيد: (ولد السنوسي البوسطة سارية فيما بينهم مع السلطان علي دينار قريباً أرسل مخاصيص من طرفه إلى السلطان علي دينار ولغاية الآن رسله موجودين بالفاشر حقيقة حالهم لم تكن معلومة. ومنذ شهرين حضر من الفاشر عثمان محمد الدنقلاوي المشهور بكسار الشنيب المتوطن أم دزمان أخبر أنه بوجوده هناك حضرت بوسطة من ولد السنوسي للسلطان صحبت مخصوص بأمره ببناية زاوية ... إن هذا الخبر سمعه قمر الدين البرناوي المقرب للسلطان)[31]. هذه الإشارات الواردة في تقارير المخابرات تدل على أن الحكومة الثنائية كانت ترغب عن كشب كل ما يدور بين السلطان علي دينار ومحمد المهدي السنوسي بحذر بالغ وبدقة متناهية .

---

(28) المصدر نفسه، وهو ما ذكره الطاهر الحاج عربي بعد رجوعه في مارس سنة 1901م S.I.R. 80/5

(29) المصدر نفسه.

(30) المصدر نفسه

(31) باش معاون مديرية كردفان إلى المفتش العام في سنة 1901م S.N.A. Intel 2/5/2

وهذا الخطاب المتقدم يفيد حسن العلاقة وحملْ في ذيله اهتمام السنوسي بقضية نشر طريقته وتأسيس خلية لها في دار فور وبناء مركز يكون قاعدة انطلاق لها. وتواترت التقارير الثنائية تصف هذا الاتجاه وموقف السلطان بقولها: (أما السلطان فقد كان مصمماً على أتباع السنوسي وكان يرى في ذلك إنقاذه والمحافظة على استقلاله ببلاده وعقيدته قوية في ود السنوسي الذي إنتهز تلك الفرصة فأرسل إليه علماً عليه اسمه والراتب وأرسل له خادمة. واقترح على السلطان إقامة زاوية ومكان للسنوسية في جبل مرة تحسباً للمستقبل إذا هوجمت الفاشر)[32]. ويلاحظ الباحث، أن السلطان لو تمتع بنظرة استراتيجية إقليمية منذ البداية وتجاوز النظرة الضيقة فأقام عدداً من الزوايا للسنوسية في المنطقة لأكسب الوجود السنوسي أرضية صلبة في دار فور تسانده في لحظات الشدة في تثبيت أقدامه ضد الوجود الاستعماري بالبلاد لاسيما حين إعلان الحرب الأوربية الأولى.

هذه التقريرات قد لا تبعد كثيراً عن الحقيقة من حيث اعتماده على قوة ذات جانب. أما من حيث قوة عقيدته يبدو أن السلطان لم يكن اهتمامه بالطريقة عالياً بقدر اهتمامه بفتح الطريق وإستيراد السلاح والتعاطف مع قوة وطنية ذات توجه إسلامي يتعامل معها معاملة الند للند لا التابع للمتبوع. ولعل هذا يفسره تباطؤه وترويه بل تردده في إقامة زاوية بالعجلة التي أرادها (ود السنوسي). ويلقي الضوء عليه أنه كان يبحث عن قوة ذات جانب. لذا لا غرابة أن قام بطرد السنوسيين من بلاده بمجرد موت محمد المهدي السنوسي الشخصية القيادية ذات الجانب[33] المهاب.

ولهذا الطرد مبرراته فلربما لتخوفه من انتشار السنوسية الذي بلغ شأواً بعيد في عهد المهدي حتى بلغت حدود دار فور. وقوة كهذه لا بد من أن يحسب لها حسابها معيداً النظر في علاقاته معها خوفاً من احتوائها له. والسلطان عرف بحساسيته المفرطة ضد أي تدخل خارجي ذا نفوذ قوي أياً كانت دوافعه حرصاً على استقلالية

(32) تقارير المخابرات، خطاب إلى شيخ جمعة بتاريخ 1901/7/2م الموافق 15 ربيع الأول 1319هـ S.I.R. 58/5

(33) تقارير المخابرات، S.I.R. 140/25-27 1st to 31st 1903

بلاده التي كلفت الفور أرواحاً وجهاداً طويلاً[34]. ولعل هذا العيب حرمه من إمكانات السنوسية وقدراتها وخبراتها الجهادية والتنظيمية الفائقة. ولعل الشخصية الدار فورية عموماً هي شخصية مترددة وذات شكوك فيمن حولها. لربما مرد هذا القدر من الحذر في التعامل مع الآخرين ناتج من طبيعة الحياة القبلية المتمردة على السلطة المركزية أو لربما يعود الأمر إلى طبيعة الحياة الرعوية والجبلية في بعض المناطق وأقدار التكوين الفسيفسائي للمجتمع الدار فوري.

ويدرك المرء أبعاد القضية إذا علمنا أن عددية زوايا السنوسية قد بلغت ثمانية وخمسين زاوية. وبلغ من نفوذها أن بعض شيوخها أصبحوا سلاطين[35]. لذا يبدو أن السلطان كان محقاً في تخوفه من قوة محاربة شرسة تتسلح بعقيدة، وتتمتع بقيادة لا ترضى بغيرها بديلاً والتجربة المهدوية لا تزال ماثلة أمام عينيه. ولئلا يخسر الجانب السنوسي نهج دبلوماسية مقتضاها غمر شيوخ الطريقة من أولاد السنوسي الكبير بهدايا. فمن ذلك إرساله مبلغ مائة ريال مجيدي وهدايا تتكون من سمسم وعسل إلى محمد عابد الشريف السنوسي[36] بغية التأثير على أصحاب القرار في المركز. وهو أسلوب قام بإتباعه مع زعامات الحكم الثنائي وله مردودة الإيجابي السريع.وقد سلكته حكومة الإنقاذ مع كثير من الزعامات الطائفية والقبلية والحزبية فتمكنت من كسر شوكتها وقصقصة أجنحتها وتدجينها هذا بالإضافة إلى النفعيين الذين اعتادوا السير في ركاب كل ناعق مادام قادراً على الدفع أكثر .

4- الأطماع الاستعمارية السنوسية في ودّاي وحاجتها إلى ملجأ:

كان الطرفان الفوراوي والسنوسي مدركان لأبعاد التحركات الاستعمارية في المنطقة. وأن ورود إشارة مبكرة توحي بالاتحاد بين الطرفين فهي ذات دلالة ومغزى سياسي ومؤشر إلى ما يدور على المسرح وتتلقفه المخابرات الثنائية[37]. وبدأ التقارب

---

(34) D.S.A. Box 114/12: Military notes on western Egypt. Op. cit. pp. 16-12

(35) مجلة الهلال، المصدر نفسه. D.S.A. Box 301/6

(36) محمد عابد الشريف إلى السلطان علي دينار في 23 رمضان سنة 1326هـ الموافق 1908/9/19م S.N.A INTELL 2/3/12

(37) تقارير المخابرات S.I.R 22/16 Appendix (k) July 1900

بين الطرفين منذ الوهلة الأولى حيث أوفد السنوسي أربعة مبعوثين أخفاهم السلطان في بيته ولم يرهم أحد(38). وذلك نتيجة لما يراود الحكومة الثنائية من حذر تجاه قيام مثل هذه العلاقات بين قوتين وطنيتين ذاتي نزعة دينية واتجاه استقلالي(39).

وفي بداية سنة 1901 بدأ التعاطف يتخذ بعداً آخر حيث بعث السلطان خطاباً إلى محمد المهدي السنوسي يطلب فيه منه القدوم إلى دار فور بيد أن الأخير لم يلب الطلب(40). وفي ديسمبر سنة 1901م ورد السلطان خطاب من محمد السنوسي يطلب منه فيه إذا ما واجه ضغطاً من الحكومة أن يتعاونا ويتحدا (41). الأمر الذي يوحي ببروز اتجاه استراتيجي إقليمي جديد ومنذ الأيام الأولى من تسلم السلطان لكرسي الحكم ويمكن القول لو قدر لهذا التوجه أن يكتمل لأحدث قراءة جديدة للأحداث في المنطقة دون شك.

وبذا تكون العلاقات الفوراوية السنوسية قد اتخذت بعداً سياسياً واتجهت نحو تقارب وشيك أن يؤول إلى حلف خوفاً من الأطماع الاستعمارية في المنطقة.

وتشير الوثائق إلى أن السلطان كان حريصاً على الاتصال بالقوى المحيطة به في محاولة لإيجاد ركن شديد يمكن الركون إليه(42). هذا في الوقت الذي كانت فيه فرنسا وبلجيكا وغيرهما من القوى الأوربية الأخرى تدخل في منافسة قوية مع بريطانيا حول أرض النيل(43). وأوشك السلطان نتيجة خوفه من الأطماع الثنائية في بلاده أن يطلب الحماية الفرنسية. بيد أنه بعد استشارة استقر رأيه على طلبها من السنوسي وجاءه الرد بالموافقة على حمايته. إلا أنه في المقابل طلب منه إقامة زاوية له في جبل مرة. وتوالت الهدايا بين الطرفين. حيث أرسل السنوسي مع رسله هدايا إلى السلطان وخطاباً احتوى ثناء عاطراً عليه وقرىء خطابه في المسجد وقام السلطان في المقابل

(38) يونان لبيب رزق، ص 238- 239

(39) يونان لبيب رزق، ص 238- 239

(40) المصدر السابق.

(41) تقارير المخابرات، S.I.R. 79/10 Appendix (A) 9th Feb. to 31st March 1902

(42) تقارير المخابرات S. I. R. 80/8 9th to 31st March 1901

(43) G. N. Sanderson: England, Europe and Upper Nile first ED. London 1960 P.145

بإرسال أحد رجالاته ويدعي أبو النور محملاً إياه بالهدايا مع ثلاثمائة رأس هدية للسنوسي(44). يبدو توجه جديد في سياسة السلطان علي دينار فيما يتصل بالقوى المحيطة. ويمكن القول أن بروز هذا الاتجاه كان مبكراً جداً مقارناً بفترة حكمه التي إمتدت سبعة عشر عاماً وهو توجه استراتيجي بعيد النظر.

وأتضح أن الأطماع والتكالب الاستعماري هو الذي حدا بالسلطان إلى البحث عن حماية وان التقارب بين الطرفين أمر إقتضته ظروف المنطقة السياسية. وقد صادف تخوف السلطان من الحكم الثنائي ضغطاً فرنسيا عالياً على السنوسية في ودّاى. الأمر الذي إقتضى إنتقال محمد السنوسي من الجغبوب إلى جيرو بالقرب من عاصمة وادي. ونشبت بينه وبين الفرنسيين حروب ضاربة نتيجة لحضور جماعة من أولاد سليمان من كانم وطلبهم إقامة زاوية وإبتعاث من يعلمهم العلم. فبعث معهم أحمد البراني أحد رجالاته وأتباعه. إلا أن ذلك العمل لم ينل رضا بعض أهل كانم فأوشوا إلى الفرنسيين بوشاية فحواها أن السنوسي أرسل جماعة أقاموا زاوية بها سلاح وعتاد. فدارت بين الفريقين معركة نتيجة أعداد الفرنسيين حملة صغيرة انتصر فيها السنوسيون. وعاود الفرنسيون الكرة مع زيادة عددهم إلى ألفين وخمسمائة رجل حيث هزم في هذه المعركة السنوسيون(45).

وشعر السلطان بدقة الموقف وتعاطف مع الموقف السنوسي حيث بعث بوفد رسمي إلى الكفرة مكوناً من عشرين شخصاً، بغية توسيط السنوسي في إنهاء الحرب الدائرة بين ودّاي ودار فور. وكان السنوسي يهدف إلى توحيد جهود السلطانين ضد المسيحيين الإنجليز والفرنسيين(46). عجلت الأطماع الاستعمارية في المنطقة بتعاطف وتكاتف القوى الوطنية الإسلامية. وتجاوزت بها حدود الإقليمية الضيقة والمحافظة على الكرسي إلى المحافظة على بيضة الإسلام والدفاع عن حماه. فورود كلمة مسيحيين في التقرير الماضي ذات دلالة ومغزى موضوعي من هذه الناحية. ولم يقف

(44) S. I. R. 8/8 9th to 31st March 1901 po. cit

(45) استطلاع مجلة الهلال D.S.A Box 301/6. op. cit

(46) المخابرات، ربيع الأول سنة 1326هـ S. I. R. 163/25 March 1908

الأمر عند حد الكلمة بل تعدى ذلك حيث يقول الشريف أحمد السنوسي في خطاب إلى السلطان: (والله إننا في غاية الفرح بكم لأنه للآن ليس هناك محل يعتمد في نصرة الإسلام غير محلكم ... إن شاء الله لم نزل ساعون في الذي ينوبكم من الجبخانة ولو كان مائة ألف)[47]. هذا الخطاب يؤكد على وجود حلف إستراتيجي وتواشق بين الطرفين على المناصرة والمؤازرة وإن لم يتخذ ذلك شكل الأحلاف الحديثة القائمة على المعاهدات والمحاضر والوثائق والجلسات المشتركة بين الطرفين. وذلك لصعوبة الاتصال واستحالة الانتقال. ولكنه يكشف في الوقت ذاته عن متانة وجذور هذه العلاقة القائمة على العقيدة وهي من أمتن الوشائج التي عرفها الإنسان عبر التاريخ .

لا شك أن هذا الجانب من العلاقات السنوسية والفوراوية يعتبر مشرقاً ومضيئاً. وهو بلا ريب يخرج بالعلاقات بين الطرفين من الآفاق الإقليمية الضيقة القائمة على المصلحة الذاتية إلى آفاق الصحوة الإسلامية في وجه التحدي الاستعماري للأمة الإسلامية. ويمكن اعتباره معلماً هاماً في التاريخ الإسلامي الحديث. وإن كلمات أحمد الشريف بحرارتها وقسمها تعتبر قلادة ووساماً يتوشح به السلطان لنفي ما حاولت المخابرات الثنائية إلصاقه به من تشويه لسمعته وحط لقدره، فقد كان حاكماً إسلامياً غيوراً على استقلاله غيوراً على دينه، غيوراً على وطنه، وأصبح قوة ذات وزن ويشكل كيانا يتهدد الأطماع الاستعمارية في المنطقة.

وكانت فرنسا من جانب آخر مدركة لدوره في المنطقة لذا قامت باقتطاع أجزاء من سلطنته مما دعاه إلى التفكير الجاد في بناء ترسانته والاستعداد لأية مواجهة متوقعة بينه وبينها[48]. بذا يبدو أن العداء الفرنسي لكل من السنوسية والفور قد أسرع الخطى بوحدة الفريقين وتماسكهما.

وكانت السنوسية بحاجة إلى ملجأ حصين لا سيما بعد أن اشتدت الوطأة الفرنسية عليها في وداي. ففتح السلطان بلاده أمام اللاجئين السنوسيين وقدم لهم ضمانات كافية

---

(47) أحمد الشريف إلى السلطان في 1911/2/13م الموافق 15 ربيع الأول سنة 1329هـ S. N. A. Intel 2/3/12

(48) تقارير المخابرات، ربيع الثاني 1329هـ S. I. R. 200/6 March 1911

وأماناً مطلقاً. ودخلوا الفاشر بقيادتهم وأسلحتهم وبعد وصولهم اشترط عليهم تسليم أسلحتهم مع ضمان الإقامة الجيدة لهم(49).

لا ينكر المرء ما لهذا الشرط من الوجاهة. إذ أن وجود قوة مسلحة أو كما تسمى الآن بالمليشيات المسلحة داخل بلاده تحت قيادة مستقلة أمر يهدد الأمن العام، ويشكل خطورة على البيئة السياسية في البلاد. وهو ما لا يسمح به أي نظام ينشد الأمن والاستقرار. فهو لم يأنف من إيوائهم. ولم يرفض دخولهم بلاده. ولعل تصرفه هو عين العقل. ويستطيع المرء إدراك سلامة موقفه وتصرفه مما تعانيه الخرطوم الآن التي سمحت بوجود جماعات مسلحة فيما سبق في عهد الحزبية الثالثة والثانية، وبعد اتفاق الإنقاذ مع بعض المجموعات الجنوبية. ولعل أسوأ نتائجه ما يحدث الآن في منطقة الكلاكلة حيث توجد جماعات مسلحة تهدد الأمن والاستقرار مما يتطلب استعدادا أمنياً على درجة عالية من القوات النظامية. وما حدث يوم الاثنين المشؤوم في عدة مدن من عواصم السودان حيث أنفرط عقد الأمن الإجتماعي وفشلت الحكومة من السيطرة عليها بكل أجهزتها و إمكاناتها .

وفي هذه الأثناء دخلت السنوسية في حروب ضارية مع الإيطاليين واستبسلت قياداتها، فلم يقف السلطان مكتوف الأيدي، فهو إن لم يشارك برجالاته وسلاحه فقد شارك بماله. ويشير إلى هذه الحقيقة أحمد الشريف السنوسي بقوله: (فالله يديم بقائكم ويمحق أعداءكم ويمحق بسيوفكم رقاب الطائفة الكافرة الخاسرة الماكرة فان الكفر قد عم وطمّ ولم يكن اليوم ملك على وجه الأرض غيركم. فقد أعزيتم الدين وقهرتم الملحدين)(50).

هذا بعد أن شكره على ما أرسله إليه من مبلغ لدعم المجاهدين وزوده بأخبار الجبهة السنوسية الإيطالية وأعلمه باستيلاء الإيطاليين على المهاجر البحرية حيث يدل ذلك على الاهتمام بالسلطان ودوره في دعم المعركة. وإطلاعه على مجريات الأحداث

(49) تقارير المخابرات S. I. R. 205/5 August 1911

(50) أحمد الشريف إلى السلطان في 1911/12/16م الموافق 25 محرم 1330هـ S. N. A. Intel

الباب الرابع

أ- العلاقات بين الحركة الوطنية الفوراوية والحركة الوطنية الليبية السنوسية في الربع الأول من القرن العشرين 1889-1916م

ب- سلطنة دار فور ومواجهة خطر الاحتلال الفرنسي لوداي

الفصل الأول: السنوسية والحركة الوطنية بدارفور

الفصل الثاني: طبيعة الحلف الفوراوي السنوسي

الفصل الثالث: الأسباب التي أضعفت الحلف السنوسي الفوراوي

الفصل الرابع: علاقات دارفور بوداي (تشاد الحالية)

وعشائر دار فور الآن أكثر من أي وقت مضى. لأنه من المعلوم أن أي تدخل أجنبي لا بد لـه من ثمن وأن ثمنه غالٍ. قد يكون هذا الثمن إنسان وثروة وأخلاق وقيم دار فور، هذا على أقل تقدير، مما يعني بعثرة إرث عقود من الزمان كانت بمثابة تاج من جوهر يرصع جبين إنسان دار فور ويميزه عن غيره.

5- دخول تركيا في الحرب العالمية الأولى والحمية الإسلامية:

إن دخول تركيا الحرب شجع الخديوي والسنوسي وعلي دينار لتوثيق علاقاتهم، لعل هذه مقولة يتبين صدقها من خلال ما سيأتي. وبداية لا بد من لمحة ومسح لما سبق. فان تزويد السلطان المتواصل من قبل السنوسية بالسلاح وإطلاعه على ما يدور في الجبهة الإيطالية السنوسية يعتبر دلالة سياسية عميقة في مجال العلاقات بين الطرفين. وأن الدعم المادي والمعنوي الذي قدمه السلطان للجبهة السنوسية يدل على أن هناك اتفاقاً غير مكتوب بين الطرفين لمواجهة القوى الاستعمارية في المنطقة. كما يدل على وجود تنسيق غير معلن بين الطرفين غايته طرد المستعمر وزعزعة وجوده في المنطقة بغض النظر عن جنسيته، فالاستعمار "هو استعمار في نظر الرجلين سواء أكان إنجليزياً أو إيطالياً أو فرنسياً فالكل يشكل عملة واحدة، فالدين والوطنية والأخلاق والقيم تقتضي محاربته بكل الوسائل. لأن الاحتلال بكل أصنافه وألوانه هو وجه لعملة واحدة .

وقام السلطان بدوره المنوط به من إرهاب لأعداء الله من ناحيته حيث قام بحملة إعلامية هائلة لإيهام الحكومة الثنائية بأنه قد وصلته أسلحة هائلة من السنوسية. وأن عدد جنوده بلغ التسعة عشر ألفاً. ووصلت يده إلى تغيير بعض الرسائل التي كانت تبعث ضده إلى قلم المخابرات الثنائية[52]. مما يدل على وعيه لما يدور حوله وما يحاك ضده.

وفي بداية سنة 1915م أشاد السلطان بجهاد السنوسية ضد أعداء الدين. ودعا الله لهم بالنصر. وأرسل لهم ثلاثين جملاً هدية مساعدة منه في الجهاد ضد أعداء الإسلام

[52] تقارير المخابرات S. N. A. Intel 7/4/10 18TH FEB. 1915

وأرد بين قمحاً. وأرسل أشياء أخرى لبيعها وشراء أسلحة بثمنها[53] من ليبيا. ونلاحظ. أن السلطان ووفقاً لإرثه الحضاري كانت يده دائماً هي العليا ولم تسمح لـه نفسه أبـداً أن تكون يده هي السفلى.

هذه الإشارة لها جذورها وارتباطاتها الإسلامية الواضحة من خلال وورود عبارات أعداء الدين، وأعداء الإسلام ... الخ. كما أن استمرارية الهدايا وهي تشكل دعما مادياً دون انتظار المقابل يدل على مدى بعد نظر السلطان. وتقوية ترسانته أمـر يقتضـيه وعيه لدوره المنوط به في المنطقة. ولعل هذا ينفي الزعم الثنائي الذي دبجتـه أقـلام المخابرات وعبر عنه الحاكم العام بقوله: (لقد اتجهت أنظار الأتراك والجرمان نحـو السنوسية. ولقد تهيأ المجال لوجود عدد من الأتراك كـبـأخ أنفـر باشـا وغيـره مـن الأشخاص ذوي النفوس الشريرة بجانب السنوسي. وحاولوا إقناعه بصـورة مباشـرة أو غير مباشرة لإثارة القبائل الموجودة في مصر والقبائـل المعاديـة فـي دار فـور ووداي. ومن هنا بدأت العلاقات بين دار فور والسنوسية. وأصـبح السنوسـي يأخـذ الأموال التركية بهذه الصورة التي هي أفضل من أن يرمي بنفسه كلية فـي أحضـان الأتراك)[54].

احتوى الخطاب السابق على جملة تناقضات وتجاهل تام لأساسـيات، أولهـا أن القيادة السنوسية هي قيادة إسلامية ذات نزعة استقلالية. ثانيها: أن سـلطان دار فـور حاكم إسلامي غيور على استقلاله ودينه. ثالثها: أن هناك جامعاً مشتركاً بين كل مـن تركيا والسنوسية والفور ألا وهو الدفاع عن الحياض الإسلامية. رابعها: وصف مـن يدافع عن وطنه بالشر أمر يقتضي الوقوف طويلاً . حيث نلاحـظ أن ذات العبـارات تتكرر الآن من قبل الاحتلال الأمريكي سواء في أفغانستان أو العراق دون خجـل أو حياء. ويتجاهل الحاكم العام في الوقت ذاته أن وجوده هو في المنطقة هو الشر عينـه. خامسها: أن التقارب السنوسي الفوراوي كان نتيجة لأحداث الحرب الأوروبية الأولـى وهذا ينافي ما ثبت أنفا من أن العلاقة الفوراوية السنوسية ترجع بدايتها إلى أوائل أيـام

---

(53) السلطان إلى إدريس بن السنوسي في 1915م الموافق 1333هـ S. N. A. Intel 2/3/12

(54) الحاكم العام باركويت إلى الكولونيل فيتز جيرالد في 28 يوليو سنة 1915م D. S. A. Box 131/5

حكم السلطان. وكانت الحكومة مدركة لأبعاد هذه العلاقة. إلا أنها كانت عاجزة عن اتخاذ موقف حاسم تجاه دار فور لظروفها وخوفها من الحيلولة دون حدوث السلام والاستقرار في المنطقة. سادسها: أن السنوسي قد جنى من وقوفه مع تركيا أموالاً فهذا فيه قدر من التجني على حركة عرفت بنظامها الدقيق والتزام أي عضو من أعضائها باقتطاع جزء من دخله لدعم الحركة سنوياً. وهي أول تجربة تحررية بمعنى الكلمة في أفريقيا، حيث طرحت شعار الاكتفاء الذاتي بأن نأكل مما نزرع ونلبس مما نصنع. فالزاوية السنوسية هي خلية حياتية كاملة، يجد الإنسان فيها الأنس الروحي والغذاء الفكري والسعي الاقتصادي والتعليم المهني. وقد بلغ عدد أعضائها الملايين. سابعها: تجاهل وحدة الأهداف وان التوسع الاستعماري في المنطقة هو الذي دفع بالحركتين إلى التكاتف. أما ظروف الحرب الأوربية الأولى فقد دفعت بتركيا لتشجيع القوى الإسلامية الوطنية للوقوف أمام الحلفاء وبالتالي عجلت المواجهة وربما كان استيلاء الحكم الثنائي على دار فور ناجم عن ذلك في المقام الأول إلى جانب الأطماع الفرنسية. ثامنها: أن سلطنة الفور هي سلطنة إسلامية عريقة وهي من (ممالك الثغور). أي في تخوم العالم الإسلامي. فأهلها تبعاً لذلك متشبعون بروح الجهاد والغزو لذا لا غرابة أن استجابوا لباعث الجهاد بتلك الصورة. ودارفور هي مهد خلاوى القرآن وشيوخه ومنها إنداحت سلطنة أورقت بظلالها معظم أنحاء السودان وأمتد عطاؤها حتى طال الحرمين لبضع مئات من السنين دون منٍ أو أذى .

ففي أغسطس سنة 1915م وصل أحمد الشريف السنوسي منطقة جبل الميدوب. ووصل دار فور قيس كريم مبعوثاً من السنوسي وجرت مفاوضات تم بموجبها الاتفاق على تزويد السلطان باحتياجاته من السلاح والذخيرة[55]. ووصلت العلاقات السنوسية الفوراوية يومئذ حد التحالف وتبادل المصالح. ونتيجة لموقف الحكومة الإنجليزية تجاه السنوسية في الحدود الغربية فإن العلاقات السنوسية الفوراوية ازدادت قوة وتماسكاً[56].

---

(55) S. I. R. 253/4 august 1915

(56) من كلايتون إلى الحاكم العام في 1915/12/24م D. S. A. Box 131/6 TELEGRAM

ودرج السنوسي على تزويد السلطان بأخبار الجبهة السنوسية والجبهة الألمانية التركية. حيث نقلت إليه صورة حية عن المعركة الدائرة بين إيطاليا والسنوسية على البر الليبى وبين إيطاليا وألمانيا وتركيا على البحر. وأخبره بأن المعركة ستتحول إلى غرب مصر ومحاصرة طرابلس[57].

ولقد لعب شيوخ السنوسية فى الفاشر دوراً بارزاً في تحسين العلاقات وديمومتها والمحافظة عليها. فكانوا من وقت لآخر يزودون السنوسى بأخبار السلطان واتجاهاته تجاه السنوسية. مما كان له أثر طيب في نفس السنوسى واتجاهه القوى نحو السلطان[58].

وبنهاية سنة 1915م صدر بيان من الخلافة العثمانية داعياً المسلمين إلى الجهاد ضد أعداء المسلمين. ووصلت نسخ من هذا البيان إلى السودان يدعو المسلمين إلى الخروج على الجيش البريطاني. وأصدر السلطان على دينار بدوره استجابة لهذا النداء بيانات مماثلة تندد بالحكم الثنائى وتدعو للخروج عليه[59]. وبذا أعلن خروجه وإنفكاكة بل محددته للحكم الثنائي. وبدأ في استشارة الأعيان من ذوى الأثر الروحي في البلاد- وفى عقر دار الحكومة الثنائية – ينقل إليهم أخبار المعارك. فذكر ليوسف الهندى أن السلطان محمد رشاد وأولاد السنوسى قد قتلوا عدداً كبيراً من الأعداء. وأنهم قد أرسلوا تحت إشراف قيس كريم وآخرين الفين وأربعمائة بندقية وأربعمائة صندوق ذخيرة.

هذه الاستجابة لنداء الخلافة ترقى بالقيادة الفوراوية إلى مستوى القيادات الإسلامية المخلصة في التاريخ الحديث والمعاصر التي لم تلوث تاريخها أو ماضيها بالارتماء فى أحضان القوى الاستعمارية وتنسى عقيدتها وإنتماءها. كما فعلت كثير من الزعامات والقيادات المحلية والإقليمية التي ارتمت في أحضان الاستعمار الأوربي دون قيد أو شروط وكما تفعل الآن كثير من القيادات والزعامات على مستوى دار فور أو السودان أو العالم العربي و الإسلامي، دون وعي ودون اعتبار بمفردات التاريخ الحديث والمعاصر.

(57) خطاب من محمد عابد الشريف إلى السلطان فى 1915/11/5م S.N.A. Intel 2/3/

(58) من كلايتون بالقاهرة إلى الحاكم العام فى 1915/12/25م D.S.A.BOX.131//6

(59) تقرير عن أحوال الجيش الثنائي من الحاكم العام إلى وزير الحربية البريطانية فى 1916/8/6م D.S.A.BOX.130/1

ولم ينته دوره عند حد التأييد وإنما تعدى ذلك إلى المشاركة الفعلية بأن أعلن عداءه للحكم الإنكليزي المصري. وتجاوز حدود بلاده لإحداث ثورة شعبية بغيتها النهوض وتقويض أركان النظام الاستعماري القائم في السودان عموماً.

ولإحداث ثورة في طول السودان وعرضه قام بالاتصال بالأعيان فاتصاله بيوسف الهندي كان من هذا القبيل. ويدل ذلك على وعيه وإدراكه لأبعاد القضية وعدالتها. فقام بتبنيها وطرحها وإعادة عرضها على القيادات السياسية الوطنية في البلاد.

هذا الموقف يلقي الضوء على تعاطفه وتبنيه لقضية كان في قرارة نفسه مقتنع بأنها قضية المسلمين وكل المسلمين. لذا حاول استقطاب القيادات ذات الوزن والثقل الديني والقبلي والثقافي بغية إثارتها وشل حركة الحكومة الثنائية حتى لا تتحرك تجاهه أو تجاه حلفائه في الشمال. واتبع أسلوب الإغراء والتشجيع مع هذه القيادات ناقلاً إليها أخبار المعارك والأسلحة التي وصلته. وفي الوقت ذاته كان يهدف إلى إرهاب الحكم الثنائي.

ولعل عبارته التالية تلقي الضوء على جانب هام من مواقفه حيث يقول: (ولقد أخذتنا العزة الإسلامية والحمية الإيمانية وعزمنا أن نقوم بحول الله وقوته وقدرته في نصرة دين الله لجهاد أعداء الدين الكفرة معاندي الشريعة المحمدية الموجودين حولنا هنا في السودان وقريباً إن شاء الله تعالى نخرج هجرة للجهاد في سبيل الله وسيبلغ مسامعكم ما يصير منا لأعداء الله)[60].

إذاً القضية كانت في نظر السلطان علي دينار هي قضية إسلام وأن مقاومته هي مقاومة ذات طبيعة إسلامية فالدافع لها هو قول الله تعالى: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)[61].

(60) خطاب من علي دينار إلى أحمد الشريف السنوسي بتاريخ 26 يناير 1916م الموافق 23 ربيع الأول سنة 1334هـ
S. N. A. Intel 2/3/12

(61) سورة المنافقون – الآية (8)

لقد اشتعلت في نفسه روح إسلامية بغيتها تمكين دين الله في الأرض وجهاداً لأعدائه. فلم تعد القضية قضية إقليمية أو سلامة شخصية بقدر ما هي قضية الإسلام والمسلمين أجمعين. وبذا أردف قائلاً موضحاً ما آل إليه الحال في السودان الشرقي من موالاة لأعداء الله فذكر أن أهل شرق السودان اتبعوا النصارى الإنجليز في شرق السودان: (والأعيان منهم صاروا يخاطبونا ويرغبوا منا أن نتبع النصارى قصدهم يضلونا). فالحمية إسلامية تجاوزت حدود السلامة الشخصية لإقليمي دار فور وليبيا وتجاوزت كل ذلك إلى الخوف على بيضة الإسلام من التبشير المسيحي. مما يشكل بعداً آخر لصحوة إسلامية كان السلطان علي دينار أحد أركانها. وتدلنا إشارته السابقة إلى أنه كان فتيلة قابلة للاشتعال فك دخول تركيا الحرب صمام أمانها.

ولقد شكلت السنوسية وسطاً نشطاً لربطه بتركيا حيث كانت معظم خطاباته إلى تركيا يتم إرسالها عبر ليبيا مما يدل على الثقة المتوفرة بين الطرفين.

وتوالت تأكيداته في خطاب[62] بعث به إلى أحمد الشريف بقوله: (بأنه عما قريب سيعلن الحرب و الجهاد ضد أعداء الله من الإنجليز الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) وأكد بان كثيراً من أهل السودان الغربي قد اعتنقوا المسيحية. وأن الحكومة الثنائية أقنعت كثيراً من مشايخ الطرق والوجهاء بالكتابة إليه بغية استقطابه إلى الصف المسيحي في حربه ضد المسلمين. ولعله بذلك يشير إلي محاولات علي الميرغني لإقناعه بالعدول عن موقفه والانحياز لصالح الحكومة الإنجليزية والفرنسية في حربهما ضد تركيا وألمانيا.

هذه الإشارة تكشف عن الدوافع الكامنة لحركة السلطان وقيامه ضد الحكم الثنائي في البلاد. بل تنفي كل ما ألحقته به أقلام الاستخبارات وما حاولت به تشويه تاريخه. فهو حاكم مسلم. جعل العقيدة إحدى همومه بل همه الأول حيث أنكر موالاة أعداء الله استجابة للنداء السماوي (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم

(62) خطاب من علي دينار إلى أحمد الشريف السنوسي بتاريخ 28 يناير 1916م الموافق 23 ربيع الأول سنة 1334هـ
S. N. A. Intel 129/7

أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم)[63] وركن إلى الصف المسلم وحركته الحركة التبشيرية في البلاد وأغاظه استمالة أعداء الله لزعماء المسلمين ووجهائهم حتى صاروا أولياء ومناصرين للكفرة من الإنجليز. وأصبحوا لا يهتمون بأمر الإسلام ولا الحركة التنصيرية في البلاد. وشعر بأن موقفه في خطر، وان بلاده وشعبه مهددان بالزحف المسيحي. فكان لا بد له من الانحياز إلى الصف المسلم والركن الشديد. وإن أدى ذلك بعرشه وبحكم بلاده. فموت العز أكرم من حياة الذل والاستعباد.

ونتيجة للخطاب الماضي ذكره قامت السنوسية بتزويد السلطان بكميات من الأسلحة. ووافق ذلك تنفيذ جزء من مشروع عام كان مقتضاه إحداث توافق بين المقاومة السودانية الفوراوية للحكم الأجنبي في البلاد والحركة السنوسية. ومحاولة إضعاف الحكم الإنجليزي في كل من مصر والسودان وإزاحته عن المسرح. حيث أن وجود مقاومة في جنوب الوادي لها أثرها الفاعل في إنجاح الخطة التركية الألمانية السنوسية القاضية بإنهاء النفوذ الإنجليزي على مصر[64] أمر لا ينكر دوره ولا يمكن التغافل عنه من قبل الحلفاء. وهو من زاوية أخرى دور خطير وذو وزن كبير عجزت عن القيام به كل القيادات الوطنية الموجودة بالبلاد يومئذ، كما عجزت عن القيام به كثير من الزعامات الإقليمية على مستوى العالم العربي والأفريقي والإسلامي، فكانت الأقدار أن أثبتت لهذا السلطان تسطير هذه الصفحات المشرفات في تاريخ السودان الحديث والمعاصر بمداد من ذهب.

ولم يأل السلطان جهداً في أداء الدور المنوط به في هذا الحلف حيث قام بإثارة روح المقاومة. وخاطب الأعيان في عقر دار الحكومة الثنائية مهيباً بهم للنهوض والثورة معلناً إياهم الحرب ضد الحكم الثنائي. وناقلاً لهم أخبار الجبهة الإسلامية علّ ذلك يثير فيهم حمية ونخوة إسلامية[65]. بيد أنهم كانوا أحياء أمواتاً عاجزون عن القيام بأي دور ولو أضعف الإيمان، محافظة على حياتهم ومواقعهم المتقدمة في الحكم

---

(63) سورة المائدة – الآية 51.

(64) استجواب جعفر باشا D. S. A. Box 131/8 Sanusas Affairs

(65) من الحكام العام إلى قائد القيادة بالنهود في 1916/4/6م D. S. A. Box 128/1

الثنائي. حيث أن المقاومة ورفض سلطان الأجنبي والانحياز إلى جانب الحق هو قــدر إلهي عظيم. ومن يندب إليه لا بد أن يكون عظيماً، فليس كل من مشى علــى رجلــين مهيئاً للقيام بهذا الدور البطولي الذي يقتضي التضحية بكل شيء ولو بالنفس، وقليل ما هم الذين لديهم الاستعداد للتضحية بأنفسهم. وهــو ذات الموقــف الآن ضــد النفــوذ الاستعماري الإستغلالي والذي تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها في العالم الإسلامي بأجنحته القارية المختلفة. فقليل ما هم أولئــك الزعمــاء والمفكــرون وذوو الأقلام الحرة يقولون لا بملء أفواههم في وجه المشروع الأمريكي الغادر وكثير ما هم الذين يلهثون وراء مسح حذاء أمريكا وقيادتها وحلفائها من أجل البقاء علــى كرســي الحكم ومقابل دريهمات معدودات أو لذة فانية.

الفصـــل الثانـــي

طبيعة الحلف الفوراوي السنوسي

تجاوزت السنوسية بنظرتها وبخططها وبأهدافها حدود ليبيا. وتطلعت إلى العـالم بمعناه الواسع. حيث اضطلعت بدور المبشر للإسلام في أفريقيا. وشكلت الدعوة إلـى الإسلام وتمكينه إحدى همومها. وأعدت نفسها من أول يوم إعداداً يؤهلها للقيام بعـبء الدعوة والجهاد في سبيل الله كما تقدم في الفصل الأول، وقد كانت مؤهلة فكراً وروحاً وتنظيماً وإعداداً وتوجهاً استراتيجياً لهذا الدور وتحملت مسـؤوليتها التاريخيـة وفـق إمكانياتها وقدراتها لو تمكنت من السير وفق أهداف المؤسس بنظره الثاقب وبتخطيطه الدقيق ورؤيته المستقبلية.

وكما رأينا فقد اعتمدت على مواردها الذاتية حتى لا تقع في أحضـان أي قـوى أجنبية وكان هذا هو عين الحق والصواب. إذ أن الاعتماد على المساعدات والمعونات الأجنبية كانت ولا تزال سبباً في فقدان عدد من الدول لاستقلالها ومسـخ شخصـيتها. وأن الأمة لا يمكن أن تفلح وتحقق ذاتيتها إلا بالإعتماد على نفسها وقدرات أفرادهـا. ومحاولة تأهيلهم والرفع من كفاءتهم وهذا ما درجت عليه السنوسية بإنشائها لزواياهـا الكثيرة. وجعل هذه الزوايا خلايا تعليمية وتنظيمية وزراعية وعسكرية وبعثات تبشيرية في أرجاء شمال ووسط أفريقيا وسجلت أسمها بمداد من دماء الشهداء وإخلاص القادة وقامت بدور طليعي في محاربة الاستعمار متسلحة بعقيدتها باحثة عن حقيقـة ذاتهـا. وبهذا ضربت أنموذجاً رائعاً في التضحية والاستبسال والتفاني فـي خدمـة الأهـداف والقيم الروحية، ونجحت في تثبيت معان جديدة في أوساط المجتمعات الإسلامية، وقـد جاءت بطرح متقدم، يتمثل في التحرر السياسي والإقتصادي والاجتمـاعي والروحـي حقيقة لا دعوى، وقد مكنت لمبدأ الاعتماد على الذات ورفض الاستعانة بالأجنبي فعلاً

لا شعاراً أجوف كما فعلت كثير من الحركات المعاصرة سواء أكانت علمانية أو دينية على المستوى العربي أو الأفريقي أو الآسيوي دون استثناء وفي حقيقة أمرها هي عملية حتى النخاع. بيد أن السنوسية فكرة وإبتداءً إسلامياً خالصاً إبتداءً وإنتهاءً وإن كان الأحفاد قد نكصوا تحت وطأة الاستعمار الإيطالي فيما بعد .

وكان السلطان سليل سلاطين سلطنة إسلامية ذات تاريخ عريق في المنطقة، وكان لها دور في نشر الإسلام في هذه البلاد كما تقدم في الباب الأول. ولعب سلاطينها دوراً بارزاً في تمكين الإسلام ونشر العلم والمعرفة في هذه الأقاليم.

ولم تكن عودة السلطان علي دينار إلى عرش آبائه سوى إحياء لسلسلة أمجاد أنفرط عقدها بسقوطها على يد الزبير ود رحمة سنة 1874م بإيعاز من الإدارة المصرية.

وقد تجسدت فيه روح الحاكم المسلم الغيور على وطنه ودينه لذا تطلع من أول يوم إلى السنوسية التي تمثل الفكر الأرحب والرؤى الإسلامية الواسعة. وكان من الطبيعي لقوتين وطنيتين متسلحتين بالعقيدة ذاتا نزعة استقلالية أن يتحدان في كراهيتهما للتغلغل الاستعماري الاستغلالي في المنطقة، وأن يعتمدان على مواردهما الذاتية، لا سيما وأن الأقدار جعلتهما يقفان بين فكي منافسة غربية إحتلالية مستعرة تتداخل مصالحها، فكان لا بد لهما من الالتفاف إلى بعضهما الآخر. ولعل روح الوحدة الإسلامية وطي الخلافات وتجاوز الخصومات والشعور بالواجب في هذا الوقت الحرج من تاريخ السودان الحديث والأمة المسلمة بشقيها الأفريقي والآسيوي هو الذي حدا بالسلطان علي دينار لأن يرسل وفداً مكوناً من عشرين شخصاً بغية توسيط السنوسي في الحرب الدائرة بين دار فور ووداي. ووافق ذلك اتجاهاً سنوسياً يرمي إلى توحيد السلطانين ضد المسيحيين الإنجليز والفرنسيين[1].

مما تقدم يتضح أن السنوسية كانت ترى أن هذه العلاقة تشكل بعداً إسلامياً ذا أهمية بالغة. ودور ملحوظ في محاربة القوى الاستعمارية في المنطقة. لذا لا غرابة أن سعى أحمد الشريف لأحدث وحدة بين كل من سلطان وداي وسلطان دار فور لما في

---

(1) تقارير المخابرات S. I. R. 164/11. Feb. 1908. Safar 1326 H

وحدتهما من إضعاف للقوى الاستعمارية في المنطقة [2]. وكان سلطان دار فور يمثل قوة ذات وزن في المنطقة وله ثقل لا يجهل دوره في كفة موزاين القوى في المنطقة. وبحكم ظروف المنطقة ووعورتها وبعدها عن متناول اليد الاستعمارية بسهولة أصبح سلطان دار فور رقماً هاماً يعول عليه في نصرة الإسلام. ويشير أحمد الشريف السنوسي إلى هذا الجانب بقوله: (والله إننا في غاية الفرح بأنه للآن ليس هناك محل يعتمد في نصرة الإسلام غير محلكم ... حتى كادت ذواتنا ترقص طرباً من صنيعكم الجميل ... إن شاء الله لم نزل ساعون في الذي ينوبكم من الجبخانة ولو كان مائة ألف)[3].

هذا الجانب من العلاقات الفوراوية السنوسية مشرق ومضيء ويخرج بالعلاقات بين الطرفين من الآفاق الضيقة القائمة على المصلحة الذاتية إلى آفاق المصلحة العامة والصحوة الإسلامية في وجه التحدي الإستعماري للأمة الإسلامية. وبذلك يمكن اعتباره معلماً هاماً في التاريخ الإسلامي الحديث.

ففي الوقت الذي أحاطت فيه الأطماع الاستعمارية بالمنطقة من كل جانب تكاتفت القوتان الفوراوية والسنوسية من أجل تقويض وإجهاض المصالح الاستعمارية. وعمل السلطان على خلق علاقات ودية في بداية عهده مع القوة النزيهة التي حملت السلاح متزودة بعقيدتها وتراثها ودفاعها عن الأمة الإسلامية وأوطانها. وقد دعا ذلك الموقف المشرف إلى ثناء أحمد الشريف على بطولة السلطان ونصاعة تاريخه وشجاعته وقوة عقيدته. وتطورت هذه العلاقات حتى أصبحت حلفاً يقتضي وقوف كل من الطرفين بجانب الآخر في المحن وكان هذا الحلف بواعثه دينية. ولقد عبر السلطان عن هذه الحقيقة بقوله: (ولقد أخذتنا العزة الإسلامية والحمية الإيمانية وعزمنا أن نقوم بحول الله وقوته وقدرته في نصرة دين الله لجهاد أعداء الدين الكفرة معاندي الشريعة المحمدية الموجودين حولنا هنا في السودان وقريباً إن شاء الله تعالى نخرج هجرة للجهاد وسيبلغ مسامعكم ما يصير منا لأعداء الله)[4].

---

(2) أحمد الشريف إلى السلطان علي دينار، 19111/2/13 الموافق 15 ربيع الأول سنة 1329هـ
S. N. A. Intell 2/3/12

(3) أحمد الشريف إلى السلطان علي دينار 1911/2/13م 15 ربيع الأول سنة 1329هـ S. N. A. INTELL 2/3/12

(4) علي دينار إلى يوسف النهدي في 26 يناير سنة 1916م ربيع الأول سنة 1334هـ S. N. A. INTELL 2/3/12

فلم يقدم السلطان علي دينار على الدخول في هذه المعركة ضد الحكم الثنائي خوفاً على عرشه أو كرسي آبائه وإن كان ذلك احتمال وارد من وجهة تحقيق البحث وفحص القضية بمجهر المنهج العلمي المحايد إلا أن ذلك النظر لا يسقط وجود الدافع والباعث الديني استجابة لقول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)[5]. وهذه تفيدها إشارته بمقاتلة الذين يلونه. ولقد استفزه التحرك التبشيري وتغلغل النفوذ المسيحي الغربي في البلاد والذي كان يشكل رأس حربة في التغلغل الاستعماري الاستغلالي في المنطقة الأفريقية والآسيوية على حد سواء. وحزّ في نفسه موالاة المسلمين لأعداء الله فعبرّ عن هذه الكارثة بقوله: (والأعيان منهم صاروا يخاطبونا ويرغبوا منا أن نتبع النصارى قصدهم يضلونا)[6] أشار إلى ذلك بعد تأكيداته بأن كثيراً من أهل السودان الشرقي قد اعتنقوا المسيحية.

وفي خطاب آخر[7] أشار إلى سياسة الحكومة الثنائية التي أقنعت كثيراً من مشايخ الطرق والوجهاء وكتابتهم إليه بإتباع المسيحية في حربها ضد المسلمين. وفي الوقت ذاته يعلن وقوفه التام بجانب السنوسية في حربها ضد المسيحيين أعداء الله من الإنجليز الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم. ويتفاءل بأنه سيلحق بهم الهزيمة إن شاء الله.

هذا التوجه الإسلامي وهذا الوعي بإدراك ما يتدبره الحكومة الثنائية ضد الإسلام وإبعاد الكنيسة القبطية عمداً – تلك الكنيسة التي عايشت الإسلام وأهله مدة ألف عام دون حسابات ودون تفرقة دينية – من المسرح وحاول الاستعمار تحجيم دورها العام سواء في الغرب أو الجنوب لا شك أن ذلك أمر كان يتوجب مقاومته والوقوف ضده بشراسة من قبل الجميع. والإشارة إلى أن الحرب بين الإسلام والمسيحية كل ذلك يعطي دلالة على أن هناك صحوة إسلامية وان السلطان علي دينار جزء لا يتجزأ عن هذه الصحوة التي يشكل هذا الاتجاه بعداً لها إذ أصبح الأمر لا يقتصر على السلامة

---

(5) سورة التوبة، الآية 123

(6) علي دينار إلى أحمد الشريف السنوسي بتاريخ 19 يناير سنة 1916م الموافق 23 ربيع الأول سنة 1339هـ S. N. A.; INTELL 2/3/12

(7) علي دينار إلى أحمد الشرف السنوسي في 28 يناير 1916م ربيع الأول سنة 1334هـ D. S. A. Box 129/7

الشخصية لإقليمي ليبيا ودار فور. بيد انه قد تجاوزه إلى الخوف على بيضة الإسلام من التبشير الغربي ذو الأهداف الاستغلالية. والذودُ عن حمى الإسلام وحياضه والدفاع عن حقوق الشعوب المسلمة في وجه التحدي الاستعماري الإحتلالي، الذي تبدى لذوي البصائر من بين الركام الذي مثلته قيادات عربية وإسلامية وسياسية وعسكرية وروحية انخدعت بأطروحات الغرب وبرامجه الإصلاحية في المنطقة يومئذٍ وحسبت هذه القيادات أنها قد وجدت شيئاً ثميناً فإذا بها تلهث وراء سراب أعقبته حقبة استعمارية استغلالية تعتبر من أسوأ الأيام في التاريخ البشري عموماً، وفي تاريخ هذه الشعوب المسلمة على وجه الخصوص، التي انخدعت قياداتها فقادتها بأظلافها إلى الإذلال والإهانة والخنوع والرزوح تحت نير الاستعمار الاستغلالي البشع لعشرات السنين.

واليوم فالتاريخ لا يعيد نفسه، ولكن من لا يقرأ مفردات التاريخ الماضي وعبره وصعوده وهبوطه يقع في أخطاء أفدح مما مضى وهذا مما يحدث الآن على صعيد دار فور والعالم الإسلامي والعربي وعلى محيط السودان بشماله وجنوبه وشرقه وغربه، فالحزبية البغيضة العوراء ذات الشخصية الممسوخة هي التي تقود البلاد ودار فور إلى الهاوية والى الوقوع في قبضة الاستعمار الإحتلالي للمرة الثانية من جديد. وتجري الآن محاولات مدروسة وذات أبعاد إستراتيجية حتمية النتائج إلى إحداث فتنة عرقية ودينية في السودان عموماً ودارفور على وجه الخصوص الأمر الذي يقتضي تضافراً متكاتفاً من قبل المكلفين من أبناء هذا البلد من مسيحيين أقباط وهم شريحة مستهدفة من قبل الغرب لعروبتها بذات القدر الذي تستهدف به الشرائح المسلمة العربية من أبناء دارفور والسودان الشمالي والشرقي مما يحتم اليوم قبل الغد أن تتضافر الجهود لإحداث تيار معاكس جارف لهذه المخططات التي ترمي إلى جعل دارفور رواندا وبورندي أخرى في أفريقيا. ذلك لأن الغرب لا يستطيع أن يصطاد إلا في الماء العكر والسودان الذي يشكل ثوراً ضخماً لابد أن ينْهش من أكثر من موضع حتى يتم القضاء على وحدته وشل حركته الحضارية وبنائه الإجتماعي ودوره الريادي في أفريقيا والعالم العربي.

الفصـــل الثـــالث

الأسباب التي ضعف الحلف

1-الضعف المادي للطرفين وفشل تركيا وألمانيا في الدعم:

كما مر فإن التقارب بين الطرفين السنوسي والفوراوي قد أتخذ شكل حلف ودفاع كل طرف عن مصالح الأخر. وقد تطور الأمر بعد دخول تركيا الحرب مما قوى قوة الآصرة. وقام كل طرف بما هو منوط به في سبيل مقاتلة الذين يلونه. وهـي نظريـة قرآنية تتجاوب والتخطيط العسكري السليم وتتناغم وأحدث النظريات العسكرية في عالم اليوم .

وكانت دارفور في مواردها الاقتصادية تعتمد علي التجارة الخارجية. حيث لايوجد لديها ميناء وإنما كان اعتمادها في تجارتها الخارجية علي طرقها البرية. وقد وجدت أساساً عوائق حالت دون الاستفادة من كل طرقها البرية.

أولاً: طريق ودّاى لم يكن مأمونا كما أنه لم يؤد دوره في تغذية البلاد وتنشيط الحركة الاقتصادية نسبة لوجود القوات الفرنسية واحتلالها لودّاى مما أحدث نوعاً من الحصار الاقتصادي علي دارفور من ناحية الغرب.

ثانياً: طريق الأربعين كان يمثل شريان الحياة الاقتصادية في البلاد وكذا العسكرية حيث كانت ترد عن طريقه تجارة الشمال وتغدو تجارة الجنوب وترد البلاد أسلحة طرابلس وغيرها، فمروره عبر مصر يحول دون الاستفادة منه. ذلك لأن الحكم الثنائي في السودان الشرقي ظل يحول دون التعاون مع مصر لأن لمصر وجود رسمي في نظام حكم الاحتلال. ومصر نفسها كانت واقعة تحت مطارق القناصل الأوربيين والمندوب السامي البريطاني في القاهرة.

ثالثاً: الطريق الشرقي وهو الذي يمر بأراضي الحكومة الثنائية. ويعبر البحر الأحمر إلي أراضي الحجاز وعن طريقه كان يفد المحمل الدارفوري إلي الأراضي المقدسة. فوجود الحكم الثنائي شكل عقبة للاستفادة من هذا الطريق بالصورة المثلى.

وقد اعتمدت دارفور علي مواردها الذاتية. وبالرغم من ذلك قامت بالمشاركات التي سبقت الإشارة إليها في دعم حركة المقاومة في ليبيا. وفي الوقت ذاته كان علي دارفور أن تسلح نفسها لمواجهة الأحداث وتحسباً للمستقبل الأمر الذي شكل عبئاً ثقيلاً علي إقتصاد البلاد. ولم يكن التسلح أمراً سهلاً مع محدودية الإمكانات ومحدودية الموارد ومصادر الأسلحة. فقد قامت الحكومة الثنائية بإجراءات متشددة في تزويد السلطان بما يحتاجه من سلاح، لذا فكر جاداً في فتح المنافذ السنوسية ومع تجدد ظروف الحرب الأوربية الأولي ودخول السنوسية حرباً ضروساً ضد الاستعمار الإيطالي كما تقدم[1]، مع محدودية إمكاناتها الذاتية. هذا في الوقت الذي أعلن السلطان فيه حربه ضد الحكم الثنائي في البلاد مع إمكانات الأخير وقدراته. وكان موقناً بأن المدد سيصله من الشمال. وبالغ في بعض الأحيان في وصف ما وصله من أسلحة وذخيرة[2]. ولعل ذلك كان يمثل ما تصبو إليه نفسه وأيقن بأن السنوسيين والأتراك سيمدونه لتعزيز موقفه. ولربما كان ذلك من باب الحرب النفسية.

وعجزت السنوسية لمحدودية إمكاناتها بإمداده بما يحتاجه من سلاح ونتيجة لشعور القوتين بضعف آلتهما وفشل تركيا وألمانيا بإمدادهما بما يحتاجانه من سلاح وخبرات لمواجهة عدة وعتاد الغزاة لجأ إلي السحر والأوهام[3]. هذا التقرير أوردته المخابرات الأمر الذي قد يشكك في مصداقيته وإن كان من جانب آخر قد لا يستبعد لأن التصوف في غرب السودان بمعناه العام قد أرتبط في بعض مظاهره وممارسته بطقوس سحرية. وفي التاريخ الإسلامي العريض نجد إرثاً معتبراً في هذا الجانب لأن

(1) محمد عابد الشريف إلي السلطان في 1915/11/5م S.N.A. Intell 2/3/12
(2) السلطان إلي يوسف الهندي بتاريخ 1916/1/12م S.N.A Intell 2/4/10
(3) مساعد قيادة المخابرات إلي الحاكم العام D.S.A Box 128/3 24th

الإسلام حركة سلمية في تعاملها وتعاطيها مع الثقافات والتقاليد المحليـــة والوافـــدة. إذ ليس من شيمة الإسلام الاستئصال من غير منطق يسلم به أهل العقـــل الســـليم. لـــذا لا غرابة أن اختلط السحر بكثير من المظاهر العلاجية والوصـــفات الطبيـــة والرقيـــة الشرعية المحلية والوافدة.

وفي مقابل عدم وصول الخبرات الفنية والعسكرية وعجز السنوسي عن ذلك بعث السنوسي إلي علي دينار برجلين يحملان حجراً ورسالة خطية. ويحملان خبراً مفـــاده أن علامة انتصار السلطان أن يلقي بالحجر في قلة مليئة بالماء فيطفح الحجـــر وإن لا فإن ذلك علامة هزيمته وقد حدث العكس. لذا تأثر السلطان بهذا الحدث[4]. هذه مسألة فيزيائية تتم وفق أوزان وكثافات فما دامت كثافة الحجر أكبر من كثافـــة المـــاء مـــن الحتمي أن لا يطفح الحجر إلا إذا تدخلت عوامل قوة خفية. ولعل ذلـــك يصـــب فـــي مصلحة التقرير السابق من أن الرجلين بدءا يلجآن إلى السحر بدلاً من اتخاذ إحتياطات القوة المادية المكافئة لقوة الغزاة من الإيطاليين والإنجليز والفرنسيين .

هذا الخبر على بساطته فيه دلالة واضحة على عجز القوتين وضعفهما المـــادي. وقصور آلتهما الحربية تجاه وعتاد القوى الاستعمارية الإحتلالية في المنطقـــة والتـــي دخلت الحرب بخبراتها وقدراتها الفنية والعسكرية العالية. فحدا بهما ذلك للجوء إلـــى تلك الأوهام.

وفي هذا الأثناء أزداد إلحاح السلطان بغية تزويده بما يحتاجه من سلاح نتيجة شد الضغط عليه من قبل الحكومة الثنائية التي دخلت الحرب بعدة وخبرة عاليـــة. بيـــد أن السنوسي اعتذر عن إمكانية إمداده بما يحتاجه[5]. مما يقرر ما سبقت الإشارة إليه من ضعف القوتين المادي وعدم مقدرة كل من تركيا وألمانيا بإمدادهما بما يحتاجانه مـــن سلاح حتى يقوما بدورهما المنوط بهما.

[4] المصدر السابق April . 1916.

[5] يونان لبيب رزق ص388-389.

2– فشل علي دينار في أحياء الجبهة المحلية :

حاول السلطان علي دينار أن يقوم بدور بارز بعد إصداره بيانات مؤيدة الخلافة العثمانية في الآستانة ومستجيباً بذلك للنداء العثماني وكانت بياناته تؤيد دعوة المسلمين إلى الخروج على الجيش البريطاني. فأتصل بالقيادات الوطنية في البلاد. حيث أرسل خطاباً إلى يوسف الهندي وهو يمثل إحدى القيادات الروحية في البلاد محاولا استثارته ضد الحكم الثنائي. ونقل إليه أخبار المعركة بين تركيا والسنوسية والأعداء من الإنكليز وحلفائهم. فأشار إلى أن السلطان محمد رشاد وأولاد السنوسي قد قتلوا عدداً كبيراً من الأعداء وأنهم قد أرسلوا تحت إشراف قيس كريم وآخرين ألفين وأربعمائة صندوق ذخيرة [6] .

وهذا الخطاب وسواه من الخطابات الأخرى تشكل حملة إعلامية نـاء بحملها السلطان بغية خلق طابور خامس داخل أراضي الحكومة الثنائية. واتبع أسلوب الإغراء والتشجيع، بنقل أخبار المعارك والانتصارات التي حققها الأتراك .

أما الإشارة التي فحواها أنه قد وصلته كميات كبيرة القصد منها إلقاء الرعب في قلوب أعدائه وإغراء هؤلاء الأعيان بالثورة وإعلان العصيان والتمرد على الحكم الثنائي المباشر، ولمحدودية سقفها النضالي ولضبابية فكرها الاختزالي الهروبي وموقفها الخائر إزاء الوجود الأجنبي بالبلاد ومدى خطورته لم يتحرك لها ساكناً. بيد أن هؤلاء الأعيان وهذه القيادات لم تفلح مساعي السلطان لديها لوقوعها تحت التأثير الثنائي. فلم يكتف هؤلاء بالوقوف في الحياد بل كانوا إيجابيين لصالح الأعداء. وقد أغاظ السلطان أن هذه القيادات وشيوخ الطرق (والأعيان منهم صاروا يخاطبوننا ويرغبوا منا أن نتبع النصارى قصدهم يضلونا).[7]

في هذا الخطاب يشير السلطان إلى خيبة الأمل والإحباط الذي أصابه من جراء عناد هذه القيادات وعدم استجابتها. وليتها وقفت عند هذا الحد بل تجاوزت ذلك بالكتابة

(6) علي دينار إلى يوسف الهندي بتاريخ 1916/1/12 S.N.A. INTELL 7/4/10

(7) خطاب من علي دينار إلى احمد الشريف السنوسي بتاريخ 1916/1/26 .23ربيع الأول سنة 1334هـ S.N.A Intell 2/3/12

إليه بغية إقناعه بالتنازل عن موقفه. والانحياز لصالح المشروع الغربي الإحتلالي الاستعماري الكبير في السودان والعالم الإسلامي والعربي ومن هنا تبدو خطورتهم وتفوح رائحة عمالتهم باعتبارهم أدوات وأبواق استعمارية أكثر منهم قيادات وطنية يرجي منها أن تقود مقاومة، أو أن تحدث تغييراً إجتماعياً وسياسياً في البلاد، وهي ذات عملة المجموعات التي تسير الآن بدون خجل أو استحياء في ركاب أطروحات الغرب دون وعي، وتردد مقولاته كالببغاوات دون فهم أو رشد.

- أذن حملته الإعلامية تجاه هذه القيادات لم تؤدِ دورها ولم تفلح في دعوتهم للخروج على الحكم الثنائي في البلاد. ولم تحقق نتائجها المرجوة بخلق طابور خامس يشل من حركة الحكومة الثنائية. هذا بالرغم من قناعته بعدالة القضية. وينكر موالاة هؤلاء للنصارى وهم يرون التبشير في البلاد والنفوذ المسيحي في ازدياد. فقضيته قضية دين ووطن. والغيرة مزدوجة. بيد أن المساعي التي بذلها فشلت في تحقيق نتائجها لاعتبارات عديدة منها محدودية نشاطه في هذه الأوساط أولا. ثانيا: بعدها عن المسرح ووقوعها تحت تأثير الإعلام الثنائي. فنداءات السلطان لا تعدو في نظرها عن كونها نشازاً. ثالثا: لربما يعود الأمر إلي شعورها بضعف دول الوسط وخوفها علي مواقعها وقد رأت بأم عينيها ما حاق بعائلة المهدي والخليفة عبد الله التعايشي. الأمر الذي يجعلها تتردد كثيراً في الإقدام والجرأة حتى لا يحيق بها ما حاق بمن سلف ذكرهم.

3 – تدابير الحكومة الثنائية:

بدأت الحكومة الثنائية ترقب بجدية تامة علاقات السلطان علي دينار بالسنوسية. وعلاقة القوة لسنوسية بدارفور، ومدى أثر ذلك على الحكم الثنائي. وكان طريق الأربعين يشكل الشريان لهذه العلاقات الفوراوية السنوسية، فلذا لا غرابة أن قامت الحكومة الثنائية باتخاذ الإجراءات الكفيلة بإغلاق هذا الطريق أو تشديد الرقابة. وتهديد أمن القوافل الذاهبة والآيبة. فقد استعانت الحكومة الثنائية في هذا الصدد بالقبائل التي تقطن منطقة الحدود الواقعة بين دارفور والكفرة مثل الكبابيش لحماية ورقابة نقاط

الاتصال بين دارفور والسنوسية[8]. وبذا تم زرع الصعوبات أمام الاتصالات الفوراوية السنوسية. ويجد المرء حينئذ المبرر والعذر لاعتذار السنوسية وعدم إمكانيتها لإمـــداده بما يحتاجه من سلاح في وقت الشدة، فقد شكلت الإجراءات الثنائية والتدابير الإنكليزية عقبة كئوداً في سبيل ضعف الحلف القائم بين السنوسية والفور.

ولعل ما تقدم من إجراء يفسر اعتذار السنوسي السابق وعـــدم إمكانيتـــه لحمايـــة قوافله وإمداده بما يحتاجه من سلاح هذا بالإضافة إلي الضعف المادي لكل من القوتين على حدة أو مجتمعين في مواجهة القوي الأوربية ذات العدة والعتاد.

4– تضعضع موقف السنوسية أمام الهجمات الفرنسية الإيطالية:

كانت السنوسية تمثل حركة جهادية قامت بدور فاعل في مقاومة التدخل الأجنبي في شمال وغرب وأواسط أفريقيا. وسبقت الإشارة إلى أنها كانت حركة تبشيرية ذات نشاط واسع. وقد دخلت مع فرنسا في حروبات ضحت فيها السنوسية بكرائم قياداتهـــا. وبذل رجالاتها نفوسهم رخيصة من أجل المبادئ والعقيدة التي آمنوا بها. هذا بـــالرغم من اعتمادها على قدراتها الذاتية وتفوق فرنسا عدداً وعدة. واحتدم الصدام بين الطرفين في وداي[9]. وفقدت السنوسية عدداً وعدة وفقدت كثيراً من مواقع أقدامها الإستراتيجية فهاجر عدد كبير من رجالاتها فراراً إلي دارفور [10].

ولم يقف بلاء السنوسية وجهادها على حدود وداي وحدها وإنما خاضت معـــارك ضارية في شمال أفريقيا ضد الاستعمار الإيطالي وأصبحت السنوسية تقاتل في أكثـــر من جبهة معتمدة على قدراتها الذاتية، وإمكاناتها المحدودة. ولم تقف قوة علـــى وجـــه الأرض مع هذه المقاومة الإسلامية الشرسة ذات النزعة الوطنية الصادقة سوى سلطان دارفور الذي أمدها بإمكاناته المادية، وشاركها بجزء من إمكاناته المحدودة أداء لحـــق الأخوة في الدين. وقياماً بواجب النصرة في سبيل الحق وإقامة شرعة الله في الأرض. وتطهير ديار المسلمين من دنس الاستعمار بشتي مدارسه واتجاهاته. ويؤكد هذا القول

[8] نائب مدير المخابرات إلي حاكم مروي في 1916/4/22م D.S.A BOX 131/8

[9] استطلاع مجلة الهلال السابق D.S.A Box 301/6

[10] المخابرات S.I.R. 205/5 Augest 1911

ما أشار إليه أحمد الشريف السنوسي مخاطباً السلطان علي دينار بقوله (الله يديم بقاءكم ويقهر أعداءكم ويمحق بسيفكم رقاب الطايفة الكافرة الخاسرة الماكرة. فإن الكفر قد عم وطم ولم يكن اليوم ملك علي وجه الأرض غيركم فقد أعزيتم الدين وقهرتم الملحدين[11]، هذا ورد في سياق شكره له علي دعم الجبهة السنوسية مادياً. ونقل صورة حية عما يدور من معارك.

يبدو أن السنوسية بلغت حداً من الضعف وهي ذات العددية الملتزمة والعضوية المتزايدة مما جعلها تنتظر مساعدات السلطان المحدودة الذي يعتبر بكل المقاييس أقل منها تنظيماً وإعداداً. وبالرغم من ذلك فإن ما مضى تقريره يقرر أن السلطان علي دينار كان يمثل قوة إسلامية صاعدة في المنطقة تجسد فيها بعد النظر وتجاوز حدود الإقليمية الضيقة والخوف على العرش، إلى آفاق الأخوة الإسلامية الأرحب. ومناصرة دعوة الحق بغض النظر عن جنسيتها أو مسقط رأسها.

وتحت مطارق الهجمات الفرنسية والإيطالية على السنوسية ضعف موقفها فلم تعد قادرة على إمداد السلطان بما يحتاجه من سلاح وخبرة. لا سيما حينما بدأ موقفه يتخذ أبعاداً خطرة تجاه الحكم الثنائي في البلاد ، كانت السنوسية على الطرف الآخر قد وقعت بصورة مباشرة تحت وطأة الهجوم الفرنسي الإيطالي ووصلت حداً من العجز جعلها ليست بقادرة على إدخال خيط في سم خياط ناهيك عن إمداده باحتياجاته وتزويده بالخبرات الفنية والعسكرية التي يرمي الحصول عليها منها. ولعل اعتذار السنوسي للسلطان عن إمداده بما يحتاجه يلقي الضوء على صدق المقولة السابقة[12]. ويقرر أن القوتين قد وقعتا بين فكي عدو لا يرحم هذا في الوقت الذي لم تتمكن فيه تركيا من إسعافهما في الوقت المناسب بالرغم من أهمية ثغريهما.

---

[11] أحمد الشريف إلي علي دينار 1911/12/16(25محرم سنة 1330هـ) S.N.A Intell 2/3/12

[12] يونان لبيب رزق مصدر سبق ذكره ص388-389.

الفصل الرابع

علاقات دارفور بوداى (تشاد الحالية)

(تشاد) تحت السلطنة الإسلامية والاحتلال الفرنسى:

وداي تعني اسم رجل في لغة الوطنيين وهي إحدى الممالك الإسلامية التي برزت إلي الوجود سنة 1640م. والقطر كان يعرف أول الأمر بدار مابا وأخيراً أصبح يعرف بدار برقو[1] والصلة بين السودان وتشاد تعتبر علاقة أزلية. ولعل الوجود البرقاوي الآن بالسودان خير شاهد على جذور وأبعاد هذه العلاقة. فمعظم العاملين بالبقالات وأصحابها والمالكين لها هم من البرقو، وهم أصلاً تشاديون استقروا وتزاوجوا وانصهروا واندمجوا في النسيج السوداني، وإن ظل البعض منهم محتفظاً ببعض السمات المميزة. ويعتبر البرقو من أنجح العناصر في إدارة واستمرارية هذا النوع من التجارة. وقد نجح قطاع كبير من بني صليح في مسائل المقاولات والمنشآت واستقر جزء من هذا الفرع الأخير في مناطق الشايقية وتبنوا ثقافتهم وأصبحوا جزءاً من ذلك النسيج كالحواجمير (آل حاج نور في منطقة نوري). والبعض الآخر من هذا الفرع موزع على أجزاء كبيرة من السودان شرقاً وغرباً ولم يتداخل كثيراً مع الأجناس السودانية إلا في حدود ضيقة.

يفصل بينها وبين دارفور وادي سونقا [2]. ووداي صلتها بالشرق قوية لاسيما دارفور منذ نشأتها[3].

[1] سلاطين تقرير سنة 1910م S.N.A. Intell 1/1/1

[2] Gostav nachtigal: sahara and sudan trans. by allan. humphry fisher 4 vol. london 1971 vol 4 p. 239

[3] سلاطين تقرير سبتمبر 1910م S.N.A intel 1/1/1

بعد استسلام سليمان الزبير ودرحمة لجسي الإيطالي في 1879م أنفصل عنه أحد القادة – الذي أدرك المؤامرة الأوربية – ويدعي رابح الزبير (وليست له صلة قرابة بالزبير باشا سوي أنه أحد قادته). واسمه الحقيقي هو رابح فضل الله وهو جنوبي من بحر الغزال اشتراه الزبير ود رحمه إنقاذاً لحياته وأعتقه وولاه قيادة عسكرية في قواته لما ظهر منه من قوة وشكيمة وقدرة على التنظيم والإدارة والجدية والمثابرة وقد رفض الاستلام ومعه قوة من رجال الزبير. ولعله بهذا التصرف أثبت جدارة قيادية وذكاء ووعياً فائقاً. فأسس في البداية سلطنة في جنوب غرب بحر الغزال. ومن هناك غزا دار كوتي – كتي واتسعت عملياته حتى دار دنجا. والاثنتان تابعتان لوداى[4].

وبنهاية سنة 1890م اتجهت قواته ناحية الشمال الغربي. وترك على المواقع التي استولي عليها أحد إتباعه ويدعى محمد السنوسي- لا صلة لـه بعائلة السنوسي. بيد أن أباه كان من أعضاء الطريقة السنوسية. ويقال أنه جاء من باقيرمي – حيث حكم محمد السنوسي هذا الجزء الغربي من وداي. وفي سنة 1893م وصل رابح إلـي باقيرمي وطرد سلطانها. وفي السنوات التالية غزا بورنيو حيث هزم سلطانها وحكم هذه المناطق لمدة سبع سنوات[5] إمبراطورية عظيمة الشأن .

لعب رابح الزبير دوراً كبيراً في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في هذه المنطقة علي وجه العموم. وأثره لازال أهالي تلك المناطق يدركونه ويحتفظون لـه بالذكري الطيبة. بيد أن التكالب الاستعماري الاستغلالي الميطن بالحقد الصليبي هو الذي دفع الدول الغربية ذات الثقل السياسي أن تتغلغل في هذه المناطق وتقضي على أية قوة صاعدة يشم منها رائحة الإسلام.

وكان يحكم في الجزء الشرقي والأوسط من وداي في هذه الفترة السلطان محمد يوسف والذي تعاطف مع ثورة الفور ضد الحركة المهدوية. وتدخل للإصلاح بين أبكر إسماعيل سلطان المساليت وأبى الخيرات ابن عم السلطان على دينار، وسليل العائلة

[4] A.B.theobald. Ali dinar the last saltan of dar fur first. Ed western printing service Bristol(1965). P.59-61.

[5] المصدر السابق.

الفوراوية المالكة. لربما الذي قادة إلى اتخاذ هذا الموقف هو خوفه من امتداد نفوذ المهدية إلي دياره. عثر قائد المهدية عثمان آدم على أكثر من سبعين رسالة من البرقاوى (السلطان محمد يوسف) إلى أبكر إسماعيل حرضه فيها على القتال ومناه في بعض منها بالتأييد والمؤازرة [6]. هذه الإشارات تؤكد على التداخل العرقي والسياسي بين هذه المناطق، كما تلقي الضوء على الأحداث الجارية الآن في دارفور وأهمية دور تشاد حكومة وشعباً فيما يدور في الساحة الفوراوية. إذ لا ينبغي أن تعزل عن موائد المفاوضات الدائرة الآن أو في المستقبل إذ تملك تشاد بعض مفاتيح اللعبة في هذه المنطقة بعيداً عن المؤثرات الغربية ذات الأجندة الخفية.

بعد وفاة السلطان محمد يوسف سادت ودّاى انقسامات أسرية على العرش اتفق خلالها رجالات البلاط على اختيار أبنه الأصغر إبراهيم ليكون سلطاناً وهو ابن مملوكة. وبعد فترة شعر إبراهيم بأنه قد وقع تحت قبضة رجالات البلاط فأراد التخلص منهم إلا أنه خسر الجولة وظهر أمامه ثلاثة متنافسين هم أحمد الغزالى، وعسيل حفيد السلطان محمد الشريف، ومحمد صالح (دود مرة أي أسد مرة) ومرة هي قرية تقع على الطريق بين أبشى والفاشر [7] .

هنا يبدأ دور السلطان على دينار إذ تدخل لاختيار أحمد الغزالى ومناصرته على منافسه سنة 1902م وأرسل خطاباً إلى الحاكم العام يعتذر فيه عن تأخير مكاتباته له بسبب انشغاله بأحداث وداي والنزاع الدائر بين أفراد الأسرة الحاكمة هناك. وكأنه أراد بذلك أن يوحي إليه بأنه قد أصبح له دور إقليمي في حسم النزاعات المحلية وفي الدول المجاورة. وأشار إلى أنه قد وجه أمره مع رسل وداي لتنصيب محمد الغزالي ويأمل تسوية الأمور بعد وصول رسله وداي[8].

يتضح أن وداي كانت تشكل إحدى اهتمامات السلطان علي دينار. وكانت حدود سلطنة دارفور الغربية تشكل صداعاً دائماً لعلي دينار. حيث كان يرى أنها تقع ضمن

---

(6) موسى المبارك مصدر سبق ذكره ص173-177.

(7) A.B.Theobald. op.cit pp. 60-61

(8) علي دينار إلي الحاكم العام في 1901/6/16م S.N.A INTELL 7/3/11

حدود دارفور القديمة. وبالفعل نجح في إخضاع سلطنة المساليت التي اتخــذت شــكلاً ووضعاً خاصاً من حيث الإدارة خلال فترة الحكم المصري وأيام المهدية[9].

وفي أقصى الغرب نجح الفرنسيون في القضاء علي رابــح الزبيــر[10]. ووفقــاً للمتغيرات السياسية والتطلعات الاستعمارية في المنطقة إضافة إلي الخلافات الأســرية داخل وداي جعلت القوي الاستعمارية لا سيما فرنسا تطمع في وداي. فبعــد اغتيــال إبراهيم يوسف سنة 1900م أعلن احمد الغزالي نفسه سلطاناً. ولكنه نوفس من قبل كل من عسيل ومحمد صالح (دود مرة) وتم قتله. ونسبة لأن أم محمد صالح (دود مــرة) من غير الأسرة الحاكمة. فقد نافسه عسيل الذي إحتمي بالفرنسيين طالباً حمــايتهم[11]. هذه الإشارة تؤكد دوماً علي حقيقة تاريخية وهي أن الأجنبــي لا يــأتي إلا إذا وجــد مساعدة من المواطنين وهذا ما حدث في تشاد في بداية القرن العشرين وفي الســودان وفي مصر وفي العراق وفي دارفور. المدخل الاستعماري الإحتلالــي لأي بلــد هــو عنصر محلي مجرد من الوطنية ويكون في المقام الأول قــد عجــز عــن المواجهــة وترسيخ أقدامه فيلجأ إلى الاستعانة بالأجنبي. ومن المعلوم أن الأجنبي لا يندفع بصورة مباشرة أو غير مباشرة أو يقدم علي دعم جهة ما إلا إذا كانت هذه الجهة تحقــق لــه أهدافاً استراتيجية ومصالح يرمي إلي تحقيقها. فلا يعطي الاحتلال بيــد إلا إذا ضــمن الأخذ بيد أخرى، وكان أخذه أكثر من عطائه. وهذا عين ما حدث في السودان في بداية القرن الماضي وأفغانستان فردوس الإسلام المفقود في ظل غيبة وعي العالم الإسلامي في نهاية القرن الماضي، وفي العراق في بداية القرن الحادي والعشرين الحالي.

ولما كان الاستعمار يتحرك وفق إستراتيجية وأوليات وبالرغم من وجود مــدخل جيد إلا أنهم لم يقدموا له شيئا لانشغالهم برابح. وفي سنة 1903م أحدق خطــر آخــر بالسلطان علي دينار. ذلك أنه بعد القضاء على رابح سنة 1900م. وبعد مقتــل رابــح والقائد الفرنسي في معركة واحدة. أنشأ الفرنسيون مناطق عســكرية ونقــاط حمايــة.

(9) يونان لبيب رزق مصدر سبق ذكره: ص248.
(10) سبتمبر سنة 1910م S.N.A NITELL.1/1/1.
(11) سبتمبر سنة 1910م S.N.A NITELL.1/1/1.

صحب ذلك تقدم نحو وداي. وبدأت مخاوف علي دينار من أن يلجأ سلطان وداي دود مرة نحو الشرق. إذ من الممكن أن يصبح منافساً خطيراً في دارفور. لذا أضطر علي دينار إلى إرسال قوة لمراقبة تحركات دود مرة قرب الحدود لمنعه من دخول دارفور[12]. وسيأتي تفصيل مؤداه أن لمحمد صالح دود مرة علاقة عرقية بالسلطان علي دينار الأمر الذي يمكن أن يهدد وجود علي دينار في دارفور. وقد حاول السلطان علي دينار في أوائل أيام حكمه أن ينشئ علاقات تجارية مع وداي دون علم الحكومة الثنائية. الأمر الذي جعل الحاكم العام يطلب منه إعلامه بما يجري بينه وبين وداي[13].

ويبدو أن الحكومة الثنائية كانت في شك من أمرها في وجود مثل هذه العلاقة التي تريد أن تكون رقيباً عليها. إلا أن السلطان علي دينار كان يتصرف تصرف السلطان المستقل. ويرى أن له في وداي يداً عليا من حيث اختيار السلاطين وتعيينهم كما مر.

ولكن بلجوء عسيل إلي الفرنسيين وجد ا ذريعة للتدخل فبدأت المناوشات تدور رحاها بين الفريقين دود مرة يساعده السنوسيون وعسيل يساعده الفرنسيون[14]. يستطيع المرء أن يستمد الخلفية السياسية لمشاكل اليوم من أحداث الأمس في هذه الرقعة. إذ لم يتغير على المسرح سوى الأشخاص والأسماء، والمسألة على كل كانت أكبر من النزاعات المحلية. لأن تفكير الدول الأوربية لتوسعة أملاكها في المنطقة وخلق نفوذ سابقان لهذه النزاعات حيث أن كلاً من إنجلترا وفرنسا أبرمتا اتفاقية صدر بشأنها بيان في لندن بتاريخ 1899/3/21م – لتحديد مناطق النفوذ لكلا الدولتين العظميين. وورد تحديد الحدود بين دارفور ووداي بالفقرة الثانية من الاتفاقية[15]. وصدر ملحق لهذا البيان كان أكثر تحديداً لنقاط النزاع وكيفية تسويته في 1899/6/13م[16].

(12) يونان لبيب مصدر سبق ذكره رزق ص248 انظر أيضاً A.B. Tlleobald. Op.cit pp.61.
(13) الحاكم العام إلي السلطان في 1900/1/4م.
(14) تقرير سلاطين سبتمبر سنة 1910م S.N.A INTELL. 1/1/1،.
(15) تقرير أعده سلاطين بشأن النزاع الفوراوي الفرنسي علي الحدود في 1911/11/10م
(16) تقرير أعده سلاطين بشأن النزاع الفوراوي الفرنسي علي الحدود في 1911/11/10م

ووقع الاتفاقية وملحقها كل من وزيري خارجيتي الدولتين ولم تكن دار تاما ومساليت من المناطق المتنازع عليها أصلاً[17] . وقامت هذه الاتفاقيات الأوربية على اعتبار أن إفريقيا منطقة خلو من السكان الذين يحق لهم السيادة. وهي ذات الفكرة العالمية التي تحكم دهاليز المنظمات الدولية الموجودة اليوم. فالأمر كله بيد خمسة دول وقد آل الأمر بعد اختلال التوازن في القوة بعد سقوط الإتحاد السوفياتي وسقوط جدار برلين، آل الأمر إلى دولة واحدة هي التي أصبحت تقرر مصائر العالم وفق رؤيتها ومصالحها، وتتحكم في استصدار القرارات التي يزعم أنها أممية وفق مزاجها وهواها. فهي التي تجرم من تجرم وتبرئ ساحة من تبرئ، دون وجود وحدة معيارية من الناحية الأخلاقية أو القانونية أو الروحية.

وقد كتب سلاطين تقريره المشار إليه ينتقد فيه حكومة فرنسا لعدم تبليغها الحكومة الإنكليزية بالخطوات التي تنوي القيام بها بناء على الأتفاقية المبرمة بين الدولتين. ويتضح للمتأمل قصر النظرة الاستعلائية الغربية التي تجرد أصحاب الدعوى الحقيقية من أبسط حقوقهم في حق تقرير مصيرهم، مما يعني أن الرجل الأبيض كان ولا يزال لا يحترم حقوق الآخرين. وأن كل دعاويه فيما يتصل بحقوق الإنسان والمساواة والديمقراطية هي شعارات غير مستهدف بها جنس آخر من البشر سوي الأوروبيين أو الرجل الأبيض. أما من عداهم من بني الإنسان فهم غير معنيون بهذه الأطروحات. وهذه النظرة هي إرث يهودي بغيض ولكن من زاوية أخرى. حيث يرى اليهود أن من عداهم لا يعدو عن كونهم قطيعاً من الماشية ليست لهم حقوق، وقد دمغت هذه النظرة الانتقائية الاستعلائية الرجل الأبيض في قاراته الثلاث بهذه العنصرية البغيضة مضافاً إليها الاستغلال الإقتصادي والتنافس غير الشريف من أجل الكسب الرخيص، بأي صورة وعبر أي وسيلة، ولو كان عن طريق بيع الإنسان لأخيه الإنسان أو قتله أو سجنه. وبالتالي تتكشف ضحالة رؤية من يجري الآن ويلهث من الدارفوريين وراء الفرج الأوروبي أو الأمريكي الذي لا يعدو عن كونه محاولة جديدة لاستغلال ولاستعمار جديد بوسائل جديدة وبرؤي علمية جديدة !!. والآن القوى الأجنبية هي سبب كثير من الخروقات الإنسانية والأخلاقية في البلاد سواءً على مستوى الإتحاد

[17] يونان لبيب رزق مصدر سبق ذكره ص249 أيضاً .S.N.A INTELL 1/1/2

الأفريقي أو الإتحاد الأوروبي أو القوات التابعة لما يسمي بالأمم المتحدة. حيث نلاحظ أن القوات التابعة للإتحاد الأفريقي جاء بعضها يحمل داء الإيدز بصورة كثيفة للبلد، وليس لهم من شاغل علي حسب إفادة شهود عيان قادمون من دارفور سوى شرب الخمور ومخادنة النساء. والقتل والنهب على أشده في البلاد، فإذا ما قتل فرد من الأجناس العربية يتم التغاضي عن ذلك الأمر، كما حدث لأحد أفراد بني هلبة في شهر أكتوبر2005م. فلم تتحرك حينها القوى الدولية أو المحلية أو الإقليمية. الأمر الذي حز في نفس القبيلة فجهزت ألف فارس بألف جواد وأحاطوا بنيالا مما اضطر الوالي الحالي المهندس الحاج عطا المنان للتحرك كما جاء في المثل: (مجبر أخاك ولا بطل) فلقد تحرك بصورة ملحوظة لإدراك وتحصيل بعض ما اندلق من ماء وجهه ووجه حكومته لتهدئة الأحوال من باب نحن هنا لا أكثر ولا أقل. والتزم شفاهة بالكشف عن الجناة وهو مقيد في حركته وإجراءاته لتوفير الأمن ومعاقبة الجناة بهذا الوجود الأجنبي المفروض علي البلاد فرضاً.

ولا يستبعد أن تكون الخلافات المحلية والانشقاقات بالإضافة إلى المطامع الذاتية لكل منافس قد وجدت دعماً من هذه القوي الأجنبية التي كانت تتطلع إلى الاستيلاء على هذه الرقعة وسلبها خيراتها. وتغريب هذه الشعوب وإبطال مفعول البواعث التي تقتضي وحدتها وتحديد هويتها الإسلامية. فقد كانت الحركة الاستعمارية مدعومة ومصحوبة بحركة تبشيرية ذات كفاءات ومستويات عالية. متدثرة بأحقاد صليبية قديمة ذات بعد إقتصادي مادي بحت، لا تعرف حقوقاً مشروعة أو حق العيش بأمان وسلام لهذه الشعوب في ديارها. لا سيما وقد سقطت ورقة التوت خلال القرن الماضي وهذا القرن الحادي والعشرين عن سوأة الدعاوى الغربية الفارغة. وبدأت تظهر بشاعة عدم مصداقية هذه الأطروحات الكاذبة لكل ذي بصيرة نافذة ،أومن لديه أدنى معرفة بمفردات التاريخ الحديث والمعاصر.

والاتفاقية المشتركة بين الدولتين تشير إلي الغربة عن هذه الديار وعدم معرفتها بها معرفة وثيقة. حيث اكتنف الغموض خط الحدود بين كل من دارفور ووداي. فقد ورد في الاتفاقية أن خط الحدود في المنطقة الواقعة بين خطي طول21، 23 شرقا

سوف يعين بصورة يفصل بها مملكة وداي عما يكون عام 1882م. مديرية دارفور(18).

على وجه العموم أن ضعف القيادات المحلية وعدم اختيارها الوقت المناسب لنشر غسيل خلافاتها – وفي محاولتها لتحقيق أطماعها الذاتية – استعانت بالقوة الأجنبية فشكل ذلك دافعاً قوياً شجع الاستعمار للتغلغل في هذه المنطقة. وتمكن من أن يقاتل كل جبهة على حدة بعد ضرب المتناحرين ببعضهم البعض الآخر. وليت الأمة التشادية اليوم تكون على وعي مما يحاك بها الآن ويدور على مسرح أحداثها من أحداث الأمس وخلفيتها السياسية وكذلك سكان دارفور وقادتها وزعماؤها الآن هم بحاجة لقراءة هذه المفردات بوعي وبتأمل دقيق وبعين ثاقبة وبفكر متأن.

وقام الاستعمار بعدئذ بتصفية كل جيب علي إنفراد. فإن عدم وجود الوحدة لأبناء الوطن الواحد أو الأوطان المتجاورة هو الذي شجع الاستعمار الإحتلالي لدخول هذه البلاد. فيما بين سنة 1902م لجأ الفرنسيون إلي تثبيت أقدامهم بعد قتال مرير مع كل من رابح والسنوسية. وفي سنة 1903م اتهم عسيل بالميل إلي السنوسية وتم اعتقاله مما اقتضى تفرق أتباعه. وقد بدأت المناوشات المتقطعة بين كل من الفرنسيين والوداويين بقيادة محمد صالح دود مرة خلال سنة 1904م، 1905م.

وبدافع من تأمين المناطق الخلفية والحصول علي مواطئ أقدام جديدة قرر الفرنسيون التحرك نحو الأمام مع تعزيز المناطق التي يستولون عليها بنقاط حراسة دائمة. في هذا الأثناء أعلن دود مرة الجهاد. فتقدم جيشه بيد أنه هزم بقيادة محمد بشارة في 16يونيو سنة 1908م. وصارت القوات الفرنسية علي مرمي حجر من أبشي العاصمة. وأثرت هذه الهزيمة على سمعة السلطان دود مرة وهرب عدد من أتباعه شرقاً وغرباً حتى إن بعضاً منهم لحق بمنافسه الذي تم إطلاق سراحه لاستخدامه عند اللزوم من قبل القوات الغازية. وفي نهاية مايو سنة 1909م تقدمت فرقة فرنسية صغيرة تمكنت من الاستيلاء علي أبشي العاصمة الوداوية، وتفرق أتباع دود مرة شذر

(18) المصدر السابق ص250.

مذر. وهرب هو تلقاء الشرق[19]. إن حدوث اشتباكات دامية وغزو أجنبي لبلد آمن يقتضي حدوث حركة هجرة واسعة نحو المناطق الآمنة والبلاد المجاورة. ولعل هذه واحدة من المشاكل التي خلفها الاستعمار الغربي لتظل قنابل موقوتة، يجد بسببها مجالاً لحشر أنفه متي شاء في تقرير مصائر هذه المنطقة أو تلك.

لذا كان السلطان علي دينار على الجبهة الفوراوية يرقب التقدم الفرنسي بعين الحذر والريبة. وقد تزايدت مخاوفه بعد وصول القوات الفرنسية قرب العاصمة أبشي وهجرة أعداد كبيرة إلى دارفور. وقد حصل علي معلومات في غاية الدقة عما يجري علي الجبهة الوداوية الفرنسية. وقد أفاد الحكومة الثنائية بذلك في سنة 1906م[20]. مما يدل على متابعته للأحداث واهتمامه الزائد بوداي. وشعوره بأن ذلك سيؤثر علي سياساته الخارجية وعلاقاته التجارية بوداي وعلى أمنه الإجتماعي والسياسي. لأنه من المعلوم في مثل هذه الظروف يحدث انفلات أمني وانفراط لعقد الأمن الإجتماعي والأخلاقي. إذ يحدث استغلال بشع لحاجة هؤلاء الفارين وأولئك الفارات بصورة تنافي المعايير الأخلاقية والإنسانية من ذوي النفوس الضعيفة. وهذا عين ما حدث في العراق وقبلاً في أفغانستان في نهايات القرن الماضي وبدايات القرن الحالي من تجارة بلحوم البشر الناعمة من أجل الحصول على دريهمات معدودة حيث أضحت الماجدات العراقيات وقبلهن الماجدات الأفغانيات يبعن ويشترين بأبخس الأثمان في سوق النخاسة الدولية نتيجة الغزو الأمريكي وحلفاء أمريكا من شذاذ الآفاق، هذا الغزو الآثم لهاتين الدولتين المسلمتين دون وجه حق وبدعاوى كاذبة لا يسندها منطق، والمسلمون في حالة وهن وضعف يتفرجون مغلوبون علي أمرهم تحت مظلة أنظمة جبانة رعديدة لا تملك الشجاعة لتقول ل: (ماما) أمريكا لا، ناهيك عن أن تشهر في وجهها سلاحاً أو أن ترفع صوتاً.

وقد تأكد أن لهذه المخاوف ما يبررها من الواقع. حيث جاء في أحد تقارير المخابرات[21] أنه نتيجة للحرب الفرنسية الوداوية فإن التجارة بين دارفور ووداي قد

(19) A.B .Theobald. op. cit. pp.62-63

(20) السلطان إلي سلاطين 2/25-1906/3/26م محرم سنة 1324هـ S.N.A. INTELL 7/1/8.

(21) S.I.R. 140/4 march 1903

تأثرت تأثراً ملحوظا. حيث أصبح السن الذي كان يجد طريقة فيما مضـي إلـى وداي يصدر في الوقت الراهن إلى أم درمان.

بذا قد شكل الوجود الفرنسي خطرا أولي أثاره بذت واضحة على تجارة السلطان الخارجية، والتي أراد لها تعدد المصادر والموارد. هذا هو شأن الجبهة الوداوية. أمـا أبعاد العلاقات الفوراوية الوداوية تقتضي تفصيلا بعد هذا العرض الموجز.

يبدو أن السلطان علي دينار فكر في توسعة رقعة مملكته غربا حينما رأي خطراً أجنبيا أراد نهب البلاد وأهلها متناحرون. فقام بهجوم على قبائل المحاميد التي تقطـن وداي وقبض من أبلهم الكثير. فقتل منهم خلقا كثيراً وقبض على جـزء آخـر مـنهم. وكأنه أراد بذلك أخذ حظه من غنائم وداي حماية لمصالحه الحيوية وتاميتـاً لجبهتـه الغربية.

وفي المقابل قام السلطان فى وداي باتخاذ إجراءات صارمة منتهاها القتل لكل من يقوم بزيارة الفاشر كردة فعل لحملة علي دينار ضد المحاميد[22] .

يعكس ذلك أن السلطان الوداوي الحالي لم يكن على وفاق مع سلطان الفور لأنـه جاء بعد خلع السلطان احمد الغزالي الذي رشحه علي دينار سـنة 1902م. وأضـحت قبيلة المحاميد تشكل الدرع الواقي للسلطان الجديد.

وتعرضت دارفور أيضا لغارة من قبل محمد السنوسي أكد ذلك السلطان بقولـه: (ومع ذلك تصادف بأن جماعة الشريف السنوسي غاروا بأطراف ديارنا بـدار الـريح وعينا لهم من لزم لرفعهم)[23].

وتحت ضغط التقدم الفرنسي أراد محمد صالح دود مرة أن يعدد مصـادر دخـل بلاده، وأن يوسع رقعتها من ناحية أخرى فقام بجمع الضرائب مـن المسـاليت سـنة 1905م. وأقدم الأخيرون على قتل الجباة الوداويون فأستدعي ذلك تحرير حملة وداوية عليهم. فنجح السلطان علي دينار في القضاء على هذه الحملة بواسطة قائـده محمـود

(22) السلطان إلي سلاطين في 12ربيع الآخر سنة 1332هـ(1904م) S.N.A INTELL

(23) G.B.Lampen History of darfur, S.N.R, Vol 31 Khartoum (1950) part 2.P. 198.

الداد ينقاوي. واخضع المساليت لسلطانه تماماً. بعدئذ انشغل دود مرة بأمر الفرنسيين. وشجع علي دينار بخيت أبو ريشه بدار المساليت لرفض دفع الجزية التي فرضها عليه الفرنسيون[24].

في مستهل سنة 1906م جاءت شكوى من السلطان علي دينار تفيد قدوم بعض الأعراب الذين يدعون (المغاربة من الغرب نتيجة للحملات الفرنسية عليهم، وتخريب ديارهم فأخترقوا حدود دارفور[25]. لربما كان يعني بذلك المحاميد، لأنه من المعلوم تاريخياً وعرقياً أن المحاميد هم من القبائل المشتركة بين كل من السودان في (دارفور) ووداي (تشاد) وليبيا.

وبنهاية سنة 1907م نصب الفرنسيون عميلهم عسيل بعد إطلاق سراحه ليكون سلطانا على وداي. وكانت أقصى نقاط الفرنسيين في أتيا (125) ميلاً شرقاً، وعلي بعد (100) ميلاً من أبشي العاصمة، واستدعوا دود مرّة لعقد إتفاق معه إلا أنه أجاب بشن غارة يرد بها الفرنسيون تقدمهم فيما بعد.

وبالرغم من عداء السلطان علي دينار لدود مرة إلا أنه كان مهتماً بأخبار وداى والفرنسيين إهتماماً بالغاً. جاء ذلك فى خطاب بعث به إلي الحكومة الثنائية ورد فيه: (وأما أحوال البرقو ما زالوا للآن متقابلين مع فرنسا ولهم مدة طويلة في محلهم وفرنسا في محلهم، ولم ينتجوا نتيجة)[26] .

في هذا الأثناء دارت معارك بين كل من الفور والوداويين مما يدل على قصر وجهة النظر الوداوية. حيث كان يتوجب في مثل هذه الظروف الحرجة من تاريخ المنطقة توحيد الجهود والاتحاد مع القوى المجاورة بدلاً من مصارعتها وتشتيت جهودها وإتاحة الفرصة أمام المحتل المستعمر الذي تتبنى سياسته على فرق تسد.

يبدو أن هذا الاعتداء كان قد حدث من قبل وداي دون وجه حق حيث هدأ المفتش كعادته من ثائرة السلطان بقوله: (أن ما علمته من المحاربة التي حصلت بينكم وبين

---

(24) السلطان إلي سلاطين فبراير سنة 1906م (محرم1324هـ) S.N.A INTELL7/1/8

(25) السلطان إلي سلاطين فبراير سنة 1908(18 ذو القعدة سنة 1326هـ) S.N.A INTELL 7/1/9

(26) سلاطين إلي السلطان في مارس/ أبريل سنة 1908م S.N.A INTELL7/1/8

دار برجو قد كدرني كثير مع علمي أن الذنب عليهم والغلط حصل منهم. ولكنني اعتقد أن خير وسيلة هو أن تسعي لعقد الصلح مع دار برجو ... لاسيما أنـي علمت أن السلطان محمد صالح (دود مرة) ينتسب إليك من جهة والدتك[27].

تلقي هذه الإشارة الضوء على الرابطة العرقية بين السلطانيين. كما أنها تزهد السلطان في تجاوز حدوده وكفكفة أطماعه التوسعية والتي قد تتعارض مع الاتفاقية الإنكليزية الفرنسية. ولقد قام الوداويون بهذا العدوان في الوقت الذي كان السلطان علي دينار يسعى فيه لتوحيد الجبهة الفوراوية الوداوية والإقليمية ضد الغـزاة الفرنسـيين. حيث سبق له أن أرسل في بداية العام الحالي وفداً إلي طرابلس بغية توسيط السنوسي في الحرب الدائرة بين سلطان وداي ودارفور. وطالب بتوحيد جهودهما ضد المسيحيين الإنكليز والفرنسيين[28]. هذه المحاولة ترينا بعد نظر السلطان علي دينـار وإدراكـه لمجريات الأحداث في المنطقة. ومحاولته الجادة للتخلص من ربقة النفوذ الأجنبي فـي بلاده والأقطار المجاورة.

بيد أن هذه المساعي لم تؤت ثمارها حيث تم إغلاق الطريق التجاري بين كل من وداي ودارفور تماما نسبة لسوء العلاقة الفوراوية الوداوية[29] .

ما بين مارس ويونيو سنة 1908م تمكن الفرنسيون من هزيمة جيش السلطان دود مرة حيث تم القضاء عليه في 16يونيو سنة 1908م حينما أراد الاستيلاء على أتيا كما تقدم. ومن حيث المبدأ نصب الفرنسيون عسيل على المناطق الوداويـة باعتبـاره أداة طيعة وعميلاً في يد الغزاة الذين خبروه خلال السنوات التي قضاها معهم[30].

ومنذ أن وطئت أقدام الفرنسيين وداي بدأت شكوك السلطان علي دينار تزداد فـي نوايا الفرنسيين تجاه حدوده[31]. ويبدو أن سوء المواصلات والاتصالات قد حالت دون تكوين حلف قوى وفاعل مع القوى المحلية ضد الوجود الأجنبي فى الـبلاد بشقيـه الإنكليزي والفرنسى.

(27) S.I.K 165/7/feb . 1908

(28) S.I.R 179/4 June 1908

(29) G.D.LAMPEN .op. cit pp. 199/.See also.A.B. Theobald. Op. cit-63

(30) S.I.R 189/7 April 1909

(31) A.B.Theobald. op. cit. pp. 63.

وفي مايو سنة 1909م تم الاستيلاء على أبشي العاصمة الوداوية بعد معركتين حاميتين بين الفرنسيين ودود مرة [32]. بعدها اتجه مرة أخرى دود مرة بلقاء دار مساليت[33]. ومنذ الوهلة الأولي لم يكن موقف الفرنسيين بعد احتلالهم لوداي واضحاً تجاه حدود دارفور. ووجدوا مبرراً بدخول دود مرة إلي دار مساليت حيث أدعوا ملكية وأيلولة دار تاما ودار مساليت لوداي الأمر الذي أدى إلى حدة بين الطرفين أي السلطان علي دينار والفرنسيين[34]. من طرف آخر.

بعد احتلال الفرنسيين لابشي أصبحوا محاطين بأعدائهم من كل الجهات في شبه دائرة. من الشمال السنوسية في أندي. وهناك السلطنات شبه المستقلة في الشرق قمر وتاما ومساليت وسيلا. ودارفور هي أقوي هذه السلطنات شرقاً. وفي الجنوب محمد السنوسي ومعه ما بين (3000) إلي (4000) جندي مسلح. هذا بالإضافة إلي السلطان المخلوع دود مرة والذي تجمع حوله عدد من المواطنين دفاعا عن أراضيهم. لقد كان لدي فرنسا ما بين خمسمائة إلي ألف جندي سنغالي. ولكن بالرغم من ذلك فقد تمكن الفرنسيون من احتلال كل المنطقة التى تشملها وداى. بعدئذ أصدر الفرنسيون أمراً بتسليم كل الأسلحة التي لدى المواطنين في يوليو سنة 1909م. وبعد شهرين فقط من احتلال العاصمة أبشي تحصل الفرنسيون علي 3500 بندقية. مما يعنى عدم وجود خطة حربية رصينة ووجود قيادة عسكرية نافذة ذات نظرة استراتيجية وخطة عسكرية محكمة. إذ لو توفر قدر من التخطيط والتعاون بين القوى المحلية الموجودة لما تمكن الفرنسيون من البقاء والاستمرار إطلاقاً فى هذه المنطقة ولحدث تهديد للوجود الإنجليزي فى الشرق بيد أن ضيق النظر وقصره حال دون ذلك.

وفي الوقت ذاته تحركت فرقة صغيرة من الجيش الفرنسي شمالاً وشرقاً وجنوباً. وفي أكتوبر سنة 1909 طالب الفرنسيون بدار تاما وسيلا وقمر والتي كانت ضمن الحدود المتنازع عليها بين وداي ودارفور[35] بعد أن علم السلطان علي دينار بالأمر

(32) G.D. Lampen. Op. cit. pp 193

(33) . G.D. Lampen. Op. cit. pp 193

(34) A.B. Theobald. Op. cit . pp. 81-82

(35) السلطان إلي المفتش في يوليو سنة 1909م (21جمادي الأولي سنة 1327هـ) S.N.A INTELL 7/1/9

بعث بخطاب إلى السلطان محمد صالح دود مرة بغية إيوائه وتوفير المناخ الملائم له في الفاشر واعلم الحكومة الثنائية بهذه الخطوة [36].

ونتيجة لهذا الادعاء والتدخل الفرنسي في أرض يعتبرها السلطان ضمن حدوده احتج إحتجاجاً شديد اللهجة لدى الحكومة الثنائية. وأوضح موقفه تجاه هذا الاعتداء بقوله: (إن جميع حدود دارفور التي ملكوها آبائي وأجدادي ما دمت حيا في الدنيا لا نتركها لدولة فرنسا إلا أن نكون ميتا ولا نبالي في مدافعتهم ما دام أنهم جاوزوا الحدود وتعدوا علينا نحاربوهم إن شاء الله ولو أننا نكملوا عن أخرنا[37]. وفي هذا الخطاب أول تهديد ضمني للحكومة الثنائية من باب إياك أعني واسمعي يا جارة .

ومن زاوية أخرى يعتبر هذا أول احتجاج رسمي يصدر عن السلطان بشأن انتهاك حرمة حدوده الغربية. ويؤكد على إستراتيجية مؤداها انه يعتقد أن دارفور هي ملك له ورثها عن آبائه وأجداده وان وجوده على رأس الأمر في دارفور هو حق تاريخي وإرث طبيعي. لذا يستحيل أن يتنازل عن شبر واحد من دارفور لأي سبب من الأسباب ومهما كانت الظروف، ويؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أنه على استعداد تام للدفاع عن كل شبر من دارفور حتى آخر رمق من حياته دون هوادة.

لربما هذا الاعتداء هو الذي جعل السلطان يعرض عن أي تعاون بينه وبين السلطان الوداوي الجديد الذي نصبه الفرنسيون. فلم يستحب علي دينار للنداء بفتح الطريق بين الفاشر وأبشي من قبل الحكم الثنائي. بل قام برد فعل معاكس وهو التعاون مع السلطان المخلوع والتلويح له بإعطائه الأمان إن قدم الفاشر[38]. مما يعني تعارض المصالح بين الفريقين الثنائي والفوراري

كان السلطان علي دينار يأمل في عون الحكومة الثنائية لإيقاف المد الفرنسي داخل حدوده. حيث كتب خطاباً في 27 أكتوبر سنة 1909م يفيد بأن الفرنسيين قد احتلوا دار تاما. ويعد ذلك انتهاكاً واضحاً لحدود دارفور[39]. ولعل مما خفى عليه أن العلاقات بين الدولتين تحكمها معاهدات ومواثيق ومصالح مشتركة.

(36) السلطان إلي سلاطين (1327هـ) (1909م) S.N.A INTELL 7/1/11

(37) S.I.R 182/4- 5. Sep . 1909.

(38) A.B.theolbald . op. cit. pp. 92.

(39) السلطان إلي المفتش في نوفمبر سنة 1909م (3شوال سنة 1327هـ).

ولم يقف السلطان عند حد الأمل المعقود، وإنما أراد إلزام الحكومة الثنائية الحجة بأن حدود دارفور معروفة لدي سلاطين. وقد ورد ذلك في قوله: (إن حدود دارفور معلومة عندكم من حالتها الابتدي ولغاية ما صارت بيد الحكومة المصرية ولا يخفى عليكم من حدودها شيء وإذا نحن في تلك المداولات ندافع عنها إلي أن عودها الله في حيازتنا بحماية الحكومة العلية. والآن الفرانسية جاوزوا الحدود ودخلوا بدار تاما حازوها الآن مقيمين فيها وأنها من أصل حدودنا .... وإصدار الأوامر ..... لأن تكف يدها عن بلادنا بحسب القوانين الجاري بها العمل بين الدول وأن لم يكن بين الحكومة ودولة فرنسا قانون يردها ... أفيدونا نتوكلوا علي الله وندافع عن أنفسنا[40].

وفي1909/12/21م جاءه تأكيد من قبل نائب المخابرات يطمئنه بأن لا يخشى شيئا ما دام مخلصا للحكومة الإنكليزية المصرية وهذا نصه .

(with regards to the aggression of the French Government on your frontier, you need never be afraid of this as you are loyal to the Anglo Egyptian Government).

وبالنظر إلى عدوان الحكومة الفرنسية علي حدودكم فينبغي آلا تتخوف منها أبداً مادمت مخلصاً للحكومة الإنكليزية المصرية [41]. يمكن القول بأن الحكومة الثنائية قد بدأت في استصدار المهدئات وفقاً لظروف السلطان. والتلويح له بقدرتها على كبح جماح الفرنسيين وربطها ذلك العمل بمدى إخلاصه لها كان أمراً مقصوداً في حد ذاته. لإشعاره بأن مناصرته ضد الفرنسيين مرهونة بإخلاصه للحكومة حتى تحافظ عليه ولو أسميا. وهي بهذا تريد أن تتكد على أن دارفور تابعة لها وتريد أن تجد لها حجة قانونية أمام الدول الأوروبية عن طريقها يتم إقناع المؤتمر بتبعية السلطان لها بصورة أو أخرى.

أما على الصعيد الفرنسي فقد قامت حملة استطلاع فرنسية في 1910/1/6م دخلت حدود دار مساليت. بيد أنها واجهت نهاية مرة حيث قتل قائد الفرقة في بئر

(40) نائب مدير المخابرات إلي السلطان S.N.a INTELL 7/1/1188

(41) S.N.A INTELL 1/1/2 Major . H. H wade . the Conquest of wadai (1910-1912) the united Service magazine p-641-645

الطويل. وأصبح وضع أبشي مهدداً للفراغ الذي خلفه القائد الفرنسي. وسرعان ما تم اختيار قائد جديد هو مول (Moll) بدلا من سالفه Fiegenchuh[42] وفي تقديري لو أحسن القادة المحليون التوقيت لأحدثوا خللاً في الوجود الفرنسي في المنطقة.

في هذا الأثناء قام السلطان علي دينار بالاتفاق مع دود مرة وتاج الدين سلطان دار مساليت بغزو دار قمر في يناير سنة 1910م. وتم طرد السلطان العميل إدريس منها[43]. الأمر الذي يؤكد على أن أي قدر من التعاون لو توفر في تلك الفترة لأحدث نتائج مرضية. يمكن أن تتمثل في خلق ثغر لا يمكن رتقه من قبل الوجود الإنجليزي والفرنسي على حد سواء.

وفي فبراير سنة 1910م غزا المساليت دار تاما وهرب سلطانها حسين الذي عينه الفرنسيون. بيد أن الفرنسيين سرعان ما استردوا دار تاما[44]. وأستطاع أحد القادة من جيش السلطان – أدم رجال – استعادة السلطنة متوغلا في وداي. وأصبح الفرنسيون علي الحدود الغربية في دارفور في وضع لا يحسدون عليه[45].

رغماً عن هذه الاعتداءات فإن تأكيدات الحكومة الثنائية لعلي دينار جاءت بما يلي: (لقد سبق إخطاركم بأن الفرنسيين لا يجرؤون علي اختراق حدودكم وإذا ما حاولت أي قبيلة من وداي فعل ذلك فعليكم صدهم سلمياً أو حرباً وإذا طلبت منكم الحكومة الفرنسية عمل شيء أو مكاتبات فعليكم أن تلفتوا نظرهم أن ذلك يتم عن طريق الحاكم العام في الخرطوم ... وأننا لا نسمح وسوف نقف في وجه آية قوة أجنبية تتصدى لك)[46]. فيما يبدو أن الحكومة الثنائية كانت عاجزة تماماً عن فعل شيئ في مثل هذه الظروف. وكان كل همها ينصب علي أن تحصل علي دليل يدعم حجتها أمام الدول الأوروبية بتبعية دارفور لها إذ لا يهمها في حقيقة الأمر استمرارية السلطان

(42) G.D. Lampen. Op ,cit .pp 84

(43) A.B.Theoblad op. cit. pp. 84.

(44) A.B.Thesbald. op. cit. pp 84

(45) سلاطين إلي السلطان في 1910/1/19م S.N.A. INTELL. 7/3/11

(46) مساعد المدير المخابرات إلي مدير المخابرات بالقاهرة في 1910/1/19م

S.N.A INTEL 1/1/2 =S.N.A. INTELL 7/2/12

أو عدمها بقدر ما كانت تهتم بإثبات تبعية دار فور والحصول علي برهان وإقرار من السلطان بهذا الأمر .

تقول الحكومة الثنائية ذلك في الوقت الذي كان (مول) يستعد فيه للانتقام لسالفه. ومع قوة لهجة الخطاب، وصدي كلماته الحاد، ألا أنه قد احتوى على قدر من عدم الوضوح ففي الوقت الذي تعلن الحكومة فيه مسئوليتها التامة عن كل ما يجري على الحدود الغربية. إلا أنها تشجعه لصد غارات القبائل الوداوية. ومعلوم أن هذه القبائل تخضع للإدارة الفرنسية وأن اتخاذ أية إجراءات تأديبية وردعية ضدها يعني تدخلاً فرنسياً في شؤون بلاده وكان هو على وعي تام بهذا الأمر.

وتؤكد هذه الوثيقة أن القوى الأوربية في المنطقة لا يأمن بعضها بعضاً. لا سيما وأن الدولتين المعنيتين هما دولتان استعماريتان متنافستان اقتضت المصالح وتضاربها اتفاقهما كما حدث في أفغانستان والعراق والسودان.

قام السلطان علي دينار بأعلام الحكومة الثنائية بما يجري على الحدود الغربية واختراق الفرنسيين لحدوده. وأفصح عن عزمه على التوجه لحسم الأمر رغما عن تهدئه سلاطين له وتذكيره إياه بأن الحكومة الثنائية ستتولي حل المشكلة بنفسها[47]. الأمر الذى يدل على عدم رؤيا واضحة فى السياسة الخارجية للحكومة الثنائية. ففى الخطاب الأول ذاته نلاحظ أنها فوضته فى مواجهة القبائل للوجود الفرنسى. وفى الخطاب الثاني تحاول كبح جماحه وتعده بأنها ستتولى الأمر بنفسها.

بدأت تراود الشكوك السلطان حول صدق وعود الحكومة الثنائية في ردع القوي الفرنسية المعتدية. لذا قام بحسم الأمر فتمكنت قواته من أن تهزم الفرنسيين في معركة حاسمة في دار مساليت. ولعل ذلك كان أول مارثون أو اختبار حقيقي لقدرات قواته القتالية مع قوى أوروبية. ونقل الخبر إلي مسامع الحكومة الثنائية في 1910/2/3م[48] بيد أن الشكوك كانت قوية حول صحة الخبر لدي الحكومة الثنائية[49].

(47) السلطان إلي مفتش غرب كردفان1910/2/3م محرم سنة 1328هـ.
(48) حاكم الأبيض إلي نايب مدير المخابرات في 1910/2/5م (24محرم سنة 1328هـ) S.N.A. INTELL 7/5/11
(49) حاكم الأبيض إلي نايب مدير المخابرات في 1910/2/5م (24محرم سنة 1328هـ) S.N.A. INTELL

إن هزيمة الفرنسيين في ذلك الوقت ذات مغزي ومدلول هام لابد وأن ينال جل التفكير في الدوائر الثنائية علي وجه الخصوص. فهزيمة الوطنيين لقوة أوربية يمكن أن يعني إجراء ذات القاعدة على الحكومة الثنائية. لا سيما وأن الحكومة الإنجليزية لها تجربتها المريرة في السودان من قبل في العهد المهدوي والتي لا يمكن أن تتغافل عنها في الطرح أو التعاطي مع الأحداث المحلية وتحليلها وفق منظور أستراتيجي في إطار مفردات تاريخية معاصرة. حيث أنها منيت بالهزيمة على أيد سودانية من قبل.

وكانت الحكومة الثنائية حتى هذه اللحظة تسعى بكل ما لديها من قوة منطق وحجج بأن لا يتسرع السلطان باتخاذ خطوة عملية لكي تتمكن من إرسال مجموعة لرسم خريطة للحدود بين كل من وداي ودارفور[50].

هذه الوعود شكلت سراباً في نظر السلطان حيث لم يعد يثق في جدية الحكومة الثنائية لإيجاد تسوية عادلة وحماية لحدوده.

في مارس سنة 1910م قام المساليت والفور بغزوة تغلغلت حتى بئر الطويل[51]. الأمر الذي يدل علي فقدان الثقة في خطوات الحكومة وعدم الانصياع لأوامرها. وبهذه الخطوات أراد السلطان أن يلقي في روع الحكومة الثنائية بأنه قادر على تقرير مصير بلاده بنفسه كما عمد إلى أن يبرهن علي قدرته على الردع لكل معتد على بلاده.

وكانت الحكومة الفرنسية غير جادة في وعودها. مما توضحه تأكيداتها للحكومة البريطانية بأنها سوف لا تعتدي أو تخترق حدود السلطان علي دينار. وأنها سوف ترسل تعليماتها بذلك إلى قواتها المرابطة هناك، كما أشار إلى ذلك وزير الخارجية البريطانية بقوله: (لقد وعدت الحكومة الفرنسية بإرسال تعليماتها فوراً تلغرافياً لتفادي أي اشتباك مع علي دينار أو اختراق لحدوده. وأكدت لنا بأن هذه التعليمات ستصل مندوبها فوراً)[52].

(50) G.D. Lampen.op .Cit .pp. 199 7/5/11

(51) جراي إلي غورست في 1910/3/19م S.N.A INTELL.7/2/12

(52) سلاطين إلي السلطان في 1910/3/26م S.N.A. INTELL. 7/3/11

وبناء علي هذا أبرق سلاطين السلطان بقوله: (أن حكومة دولة فرنسا قد أصدرت الأوامر المشددة لجيشها الموجود في وداي بأن لا يتعرضوا بوجه من الوجوه علـى حدود دارفور طالما أنها تابعة لحكومة السودان!! ولهذا السبب فأننا نطلـب منكم أن تعطوا الأوامر الشديدة لجنودكم بأن لا يتجاوزوا مطلقا حدود وداي أو يتعدوا عليها[53].

بيد أن الفرنسيين وبالرغم من هذه التأكيدات الواردة منهم لم يتنازلوا عن الانتقـام من المساليت والفور حيث قام في السابع من أبريل سنة 1910م القائد الفرنسي القسيس جوليان بمطاردة الفور[54]. وهذه طبيعة غربية قديمة حديثة لأن المتبع للسياسة الغربية عموماً يلاحظ إضطرادها فى هذا المجال سواء كانت إنجليزية أم فرنسية أم أمريكيـة. فان إنشاء كلية غردون واستعمار السودان كان محاولة إنجليزية لرد الاعتبار، وكـان القصد من إنشائها إهانة الشعب السوداني الذي قتل غوردون، وكان من المقدر لهـذه الكلية بحق أن تصبح فيما بعد مفرخاً لحملة لواء التغريب الثقافي في البلاد. وقد أنشئت بتبرعات سخية من قبل الشعب الإنجليزي الذي اعتبر فيها رد كرامة مرقها السودانيون بقتل بطل من أبطال الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس علي حسـب زعمهـم. وهذا الذي اعتبروه بطلاً يومها كان غازياً ومعتدياً ومحتلاً لبلد آمن. ولكنه المنطـق الغربي الأعور الذي لا يملك معيارية أخلاقية أو إنسانية في تعاطيه مع الواقع إذ يجعل ببساطة وغباءٍ متناهٍ وسذاجةٍ ممجوجةٍ الحق باطلاً والباطل حقـاً. والبطـل الحقيقـي إرهابياً وخائناً، والخائن لوطنه ودينه والعميل والغادر والمحتل والغازي بقـدرة الآلـة الإعلامية الغربية الضخمة، والإعلام الغربي المأجور يمكن أن يصبح هؤلاء جميعـاً أبطالاً ومفكرون وقادة عالميون وقوميون ولم تلد حواء لهم مثيلاً مـا دامـوا مغفلـين نافعين للغرب وآلات صماء بكماء تخدم ساداتها وكبرائها في الغرب. ولو نظر الناظر إلي تخطيط شوارع الخرطوم فى عهد كتشنر يجد أنه قد تم بخبث علي منـوال العلـم البريطاني إمعاناً في الإهانة لهذا الشعب الأبي. وعلى صعيد آخر لا يخفى على دارس

---

[53] G.D. Lampen op. cit. pp. 199.

[54] السلطان إلي جميع القادة والأمراء والملوك ورؤساء المية تحت قيادة آدم رجال في 1910/4/17م (7ربيع الأخر سـنة 1328هـ) S.N.A. INTELL 2/3/12

للتاريخ أن محاولة فرنسا الآن لفرض عقوبات على السودان في عهد الإنقاذ ومطالبتها بمحاكمته لا تخرج عن هذا الإطار باسترداد حق تاريخى مزعوم لهـــا فـــى دارفـــور وتشاد. ولعلها تريد بذلك أن تتكأ جراحاً كان ينبغي عليها في مقابل ما تقوم به الآن أن تعمل على مداواة هذه الجروح وتصحيح وتعويض ما أحدثته من خراب فـــي الأرواح والممتلكات وسرقته هي وبريطانيا من خيرات هذه المنطقة.

وقام السلطان علي دينار بتوجيه خطاب إلي جميع الأمراء والقادة بحثهم فيه علي الجهاد في سبيل الله والقيام بأمر الله وإعلاء عـــلاء كلمتـــه وســـحق أعدائـــه الكفـــرة المشركين من الفرنسيين مذكرا إياهم بآية التوبة: (أن الله اشتري من المؤمنين أنفســـهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلـــون ......) الآيـــة (111) وأورد طائفة أخري من آيات الله التي تحث على الجهاد[55].

هذا في الوقت الذي كان يتسلم فيه السلطان خطابات متتابعـــة مـــن قبـــل الإدارة البريطانية بغية تهدئته ونصحه للتحلي بالصبر[56]. ويعكـــس هـــذا الخطـــاب روحـــه الإسلامية الواضحة. ويؤكد هذا الموقف الشجاع على إصراره على المقاومة بأي ثمن، واستعداده التام في مجال تحمل مسؤوليته التاريخية والدفاع عن وطنه وشعبه وأمته

وفي أبريل حدثت مواجهة أخرى بين القوات الفوراوية والفرنسية انتصرت فيهـــا القوات الفرنسية وجرح في هذه المعركة قائد السلطان آدم رجال.

وبرر الفرنسيون هجومهم هذا بأنهم قد عثروا على خطابات تشتمل علـــى خطـــة مركزة بين الفور والمساليت ودود مرة والسنوسية للقيام بهجوم موحد على الفرنسيين. بيد أن هذا التحالف بعد هذا الهجوم الفرنسي أرجع الســـلطانين المـــواليين للفرنســـيين إدريس وحسن إلى قمر وتاما على الترتيب. واسترد الفرنسيون كثيراً مما فقدوه وتقهقر الفور. ولجأ دود مرة إلى سلطان المساليت تاج الدين.

(55) أستاك إلي الحاكم العام في كيونيو سنة 1910م S.N.A INTELL 1/1/2

(56) A.B.Theobald. op. cit. pp. 86-88.

ونتيجة للأمطار توقفت المناوشات حتى سبتمبر حيث وصلت الإمدادات الفرنسية. فقام الفرنسيون بحملة تأديبية ضد المساليت. هزم الفرنسيون فيها شر هزيمة[57]. ولا شك أن الهزائم التي لحقت بالفرنسيين قد حفزت علي دينار وجرأته ضد الأوروبيين سواءً أكانوا إنجليزاً أو فرنسيين.

ولعل هذه الهزيمة هي التي أشار إليها السلطان علي دينار في خطابة التالي بعد أن أفصح عن الحدود التي يرى أنها ضمن سلطنة الفور بقوله: (فأما من جهة الحدود التي بين دارفور ودار وداي فهي الحاجز المشهور بالترجه الكاين بغرب دار تاما ودار مساليت الموجود الآن الذي لا يزال واضحاً جلياً وكان تجاوزها العسكر الفرنساوية ودخلوا بالحدود وحضروا بدار تاما وتطاولوا لغاية ما وصلوا بدار قمر وخربوا الدار خراب شديد. وأما عساكرهم الذين دخلوا بهم تاما البعض منهم قتلوهم مساليت. وباقيهم قتلوهم بدار تاما حين حربهم لجنودنا الذين أرسلناهُم لإقامة الحدود. والأخبار الواردة إلينا من جهتهم أنهم صاروا يؤجرون الناس للعسكرية.وتجمعوا قصدهم الإعادة ثانيا ونحن مستعدين قصدنا التوجه إليهم بنفسنا وتأخرنا لأجل دخول الخريف[58].

ولم يخل الخطاب من الإشارة إلي الانتصارات التي حققها المساليت علي الفرنسيين نكاية بهم. ووردت الإشارة إلي أنه كان يري أحقيته بهذا الدور لذا عزم على تقرير مصيرها بنفسه ورسم حدودها مما أدى إلي اشتباك جنوده مع الفرنسيين. وما كان لينتظر أن يقرر أمرها غيره. لأنه كان يرى أنه السيد الوحيد في هذه المنطقة وأن ملكه حق تاريخي وأنه المسؤول عن استعادة أملاك أجداده وآبائه وهيبة أمجاده الغابرة.

ولقد ركز الفرنسيون هجومهم بغية القضاء على السلطان الهارب وانتقاماً للقائد الذي هزمه المساليت وأودوا بحياته[59]. وفي هجمةُ أخيرة قام بها القائد الفرنسي يصحبه فيها حسن الجالنجاوي سلطان دار تاما الذي عينته الحكومة الفرنسية مكان

(57) السلطان إلي الحاكم العام في 26 يوليو سنة 1910م (رجب سنة 1328هـ) S.N.A INTELL 7/2/12

(58) A.B. theobald .op.cit.pp 68-88

(59) تقرير سلاطين عن أوضاع وأحوال دارفور قبل بداية الحكم الثنائي في سنة 1910م
S.N.A INTELL1 /1/2 A.BTHEOBALD . op. cit.pp 102-3.

السلطان عثمان الطوراوي المعين من قبل السلطان علي دينار والسلطان إدريس القمراوي بغية رد الاعتبار وتلقين السلطان درساً لا ينساه .

وفي المقابل قام السلطان علي دينار بإرسال تعزيزات لدار تاما لحماية سلطانها عثمان الطوراوي ضد منافسه حسن الجالنجاوي بيد أنها لم تجد فتيلاً. حيث دارت رحى معركة فاصلة حامية الوطيس تم بمقتضاها دخول دار تاما ثم مساليت. وأودت المعركة بحياة تاج الدين سلطان دار المساليت وجرح دود مرة في 9 نوفمبر سنة 1910م[60]. وبذا فقد السلطان أقوى حليفين له في المنطقة وأضحى في مواجهة مباشرة مع الفرنسيين وعملائهم في المنطقة الغربية .

قد يكون مبرر الهجوم الفرنسي هو إيواء السلطان دود مرة وقد يكون التوسيع الاستعماري الاستغلالي وتأمين الجبهة الشرقية التي سببت صداعاً من أول يوم للقوات الغازية. إضافة إلى الثأر لرد اعتبار السمعة الفرنسية في المنطقة والتي أثر فيها قتل وهزيمة القائد الفرنسي تشوفولت على يد المساليت. هذا مع العلم بأن الدور الثلاث كانت خاضعة لعلي دينار وهو الذي كان يعين سلاطينها[61]. وحقه فيها هو حق تاريخي منذ أجداده الأوائل الذين أوجدوا سلطنة تمتعت بنفوذ وبعلاقات خارجية تجاوزت أفريقيا إلى معظم قارات الدنيا. وشاركت تلك السلطنة في التنمية البشرية والاجتماعية والثقافية فى السودان وفى بلاد الحرمين وكانت قبلة للعلم والعلماء.

ومما يعجب له المرء رغماً عن احتجاج الحكومة الثنائية على الخطوات التي قامت بها الحكومة الفرنسية تجاه كل من داري تاما ومساليت وورود عبارة في تقرير سلاطين السابق مقتضاها الإعجاب بالقائد الفرنسي الذي حقق هزيمة كل من الدارين. وذلك في قوله: " .... يجب أن اعبر عن إعجابي البالغ بشجاعة وبطولة القائد الفرنسي مول: " Moll وضباطه للمغامرة التي قاموا بها[62] .

(60) S.N.A INTELL 1/1/2 Major . H.H Wade. Op. pp 645-646

(61) تقرير سلاطين السابق سبتمبر سنة 1910م S.N A INTELL 1/1/2

(62) سلاطين إلي السلطان في 1910/10/20م S.N.A INTELL 1/1/2

هذا فيه دلالة على أن هناك اتفاقاً غير معلن لتحطيم القوة الفوراوية الصاعدة وأن هناك تعاطفاً أوربياً على وأد أي مقاومة إسلامية نزيهة في المنطقة. وأن الحكومة الثنائية كانت تنظر إلي نزاع الفور ومشاكل الحدود الغربية مع الحكومة الفرنسية بشيء من التربص بغية القضاء على السلطان علي دينار، وأنها كانت تعمل على إضعافه لا على تقويته أو تثبيته.

فلو كانت الحكومة الثنائية تعتبر أن دارفور محمية لها وأن هاتين الدارين فعلا تشكلان جزءاً من حدود الحكومة الثنائية فلا يجرؤ سلاطين على الثناء علي قائد اخترق حدود دولة يخدم هو تحت رايتها. وإن لا فبالرغم من تعارض ذلك مع مصالح دولته التي يخدم تحت لوائها أخذته النزعة العصبية ضد أهل البلاد، وضد أهل الحق الشرعي في تحقيق ذواتهم وتقرير مصائرهم بأنفسهم دون تدخل من أي قوى استعمارية استيطانية.

إلا أن سلاطين لم ينس الدور المنوط به مشيراً إلى المحاولات الجارية على طاولة الحوار بين الحكومة الفرنسية والثنائية وما جرى من اتفاق عبر الاتصالات الدبلوماسية بقوله: (لقد سبق أن أجرينا اتصالاً مع الحكومة الفرنسية بالنظر لشؤون وداي فأتفقت معنا بإرسال التعليمات الضرورية لحكامها بعدم التدخل أو الاعتداء على دارفور)[63]. ويبدو أن السياسة الفرنسية كانت تقضي بالمماطلة والاستفادة من الوقت. ولربما كانت هناك أجندة خفية لأن بريطانيا وفرنسا لم تكن تلك هي المرة الأولي التي يصرحان فيها بأمر ظاهره الرحمة ومن قبله العذاب. هؤلاء الأوروبيون خدعوا العرب في الحرب الأوروبية الأولى بوعود كاذبة كان مؤداها منحهم الحق في تقرير مصائرهم ومصائر بلادهم في الوقت الذي كانت فيه كل من فرنسا وبريطانيا تجتمعان سراً وتتوزعان مناطق النفوذ العربية فيما بينهما، وخدعوا العرب مرة أخرى لأن الأخيرين لا يقرأون مفردات تاريخهم بذكاء ووعي ورشد، خدعوهم في حرب أفغانستان وفي حرب العراق كما حدث من بريطانيا وأمريكا في نهايات القرن الماضي وبدايات القرن الحالي. والقائمة قد تطول عن عدم مصداقية الغربيين ولا يخفى ما

(63) السلطان إلي سلاطين في 1910/11/24م (22ذو القعدة سنة 1328هـ) S.N.A INTELL I/1/2

حدث في حرب حزيران 1967م. والآن هناك محاولات خبيثة أخرى تحاك من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها غايتها تجريد الأمة المسلمة من أي مظهر من مظاهر القدرة على تحقيق الذات والمقاومة. إذ تجري الآن محاولات على قدم وساق لقصقصة أجنحة المقاومة اللبنانية والفلسطينية وتفكيكهما وحرمان الأمة من بصيص الأمل الذي أشعلا جذوته في نفوس أبناء هذه الأمة. والأمر لا يختلف كثيرا بالنسبة للدفاع الشعبي في السودان وهلم جراً. وذلك بعد نجاحها وحلفائها في تفكيك شبكة عبد القادر خان وحرمان الأمة المسلمة من الأبحاث النووية التي قامت ويمكن أن تقوم بها هذه الكوكبة من العلماء المخلصين الذين لم يبيعوا ضمائرهم ومعارفهم مقابل دراهم معدودة للاستخبارات العالمية.

إذن لعبت الحكومة الفرنسية على الحبل مستفيدة من جهود الحكومة الثنائية الرامية إلى شلِّ حركة السلطان والإلقاء في روعه أن الاتصالات الدبلوماسية ذات جدوى. وعاد السلطان من جديد ليؤكد أنه بالرغم من التأكيدات الفرنسية فإن الفرنسيين قد اعتدوا على داري تاما والمساليت[64].

هذا مما دعا سلاطين ليؤكد من جديد: (أن دار تاما ودار المساليت كما ذكرت في لندن أنها كانت تحت إدارتي في الفترة الواقعة بين (1879-1883م) وأن علي دينار ليس مسؤولاً عن السلام ما لم يتم الاعتراف بحدود دولته أولاً[65].

يبدو من مخاطبة سلاطين لو نجت أنه كان متعاطفاً مع السلطان إلى حد لإقناعه بسلامة منطق السلطان. وأن ما يجرى على الحدود الغربية يشكل اعتداء صارخاً على حدود دارفور .

وبذا أبدي تعاطفاً ملحوظاً نحو السلطان وحقوقه المشروعة في تأمين حدوده. ويقرر عدم مسؤوليته تجاه ما يجري على الحدود الغربية دفاعاً عن حدوده واستردادا لكرامته.

(64) سلاطين إلي ونجت في 1910/11/23م (21ذو القعدة سنة 1328). S.N.A INTELL 1/1/1

(65) سلاطين إلي السلطان في 1910/12/14م. S.N.A. INTELL 7/3/11

واستجابة لنداءات الحكومة الثنائية بكف يده عن القيام بآية عمليات ضد الوجود الفرنسي في المنطقة قام السلطان بتوجيه نداء إلى جميع أتباعه بكسف أيسديهم عسن الفرنسيين. هذا بعد أن وصلته تأكيدات جديدة تفيد بأن حكومة السودان قد توصلت إلى اتفاق مع فرنسا بشأن الحدود. والتزمت فرنسا من جانبها بعدم الاعتداء علسي حدود دارفور. ولم يلبث أن فوجئ رسل السلطان بقادمين من دار مساليت ودار تاما يشكون اعتداءً فرنسياً مما يؤكد أن الوعود الفرنسية السابقة لا تعدو عن كونها خدعة. وأشك في أن الحكومة الإنجليزية لم تكن علي علم بتلك التحركات الفرنسية في المنطقة .

وأعلم السلطان الحكومة بما جري طالباً منها أن تكف عنه: (جور الفرنساويين وتصدها بالقوانين السياسية التي بينكم وبينها. وأن لم يكن ذلك أفندم فيدون عاجلاً نتوكلوا على الله ونتربصوا معهم مادامو أنهم قصدونا في أرواحنا ظلماً وعدواناً فنحن لا نبخل بأرواحنا في سبيل الله نحاربهم إن شاء الله).

كان السلطان يعلق آمالاً عريضة في الحلول الدبلوماسية ولكنه في الوقت ذاته لم يرض لنفسه بالهزيمة والاستسلام. وهذه الآمال من باب استنفاذ استخدام الوسائل المتاحة وعدم الإهمال في باب دون طرق. والإشارة إلى بذل الأرواح في سبيل الله ذات دلالة عميقة من حيث إسلامية الرجل واستمساكه بدينه في لحظات الشدة وهذا جزء من الإيمان.

ورد سلاطين على ذلك بخطابين ذكر له في أولهما أنه سيقترح تكوين لجنة لتعيين الحدود. وأن يكون لعلي دينار ممثلون فيها لمقابلة الممثلين الفرنسيين[66].

وعلى صعيد آخر فإن القضية قد شغلت الأوساط الثنائية على مستوي عال حيث يذهب الحاكم العام إلى أن المشكلة تكمن في أنه ليس هناك تحديد واضح للحدود بين دارفور ووداي فلا يعرف المساليت مثلا أين تنتهي الحدود الفرنسية، ومن أين تبدأ الحدود الإنكليزية[67].

(66) الحاكم العام إلي السكرتير الخاص في 1910/11/30م S.N.A. INTELL 1/1/1

(67) المصدر السابق.

هذه العبارة لا تخلو من مغالطة تبدو واضحة في اللهجة الإنكليزية حيث سبق للسلطان علي دينار أن حدد حدود دولته بالموقع الفاصل بينهما وبين وداي. والمساليت يعرفون حدودهم قبل قدوم الغزو الاستيطاني الاستعماري للمنطقة.

وإن كان الفرنسيون والإنكليز يجهلون ذلك فلم يوردوه في اتفاقيتهم فليس ذلك ذنب المواطنين الذين هم أدري بشعابهم. ويمضي الحاكم العام في قوله: (وباحتلال الفرنسيين لأبشي اكتسبوا عداء المساليت وهرب دود مرة إلى المساليت بعد هزيمته وتأثر سلطان المساليت في موقفه تجاه الفرنسيين بموقف أهل دارفور).

ورفض المساليت اللهجة الشديدة التي طلب بها الحاكم الفرنسي في أبشي إقصاء دود مرة أو تسليمه له. وبذا تكونت فرقة فرنسية وقامت بالهجوم على دار تاما ومساليت خسر فيه الفرنسيون الكولونيل مول (Moll) وسبعة آخرين من الفرنسيين وخسر المساليت سلطانهم تاج الدين كما تقدم. وجرح سلطان وداي[68].

أما خطاب سلاطين الثاني فقد جاء فيه: (وردّ إلي تلغراف من بلاد فرنسا في أوربا عرفت منه أنه قد حصل قتال جديد بين المساليت وفرقة من عساكر دولة فرنسا. وأنه قد قتل في هذه الواقعة الكولونيل مولس القومندان وثلاثة ضباط وأربعين عسكري وصف ضباط وجرح تسعة وستون عسكري وأن المساليت خسروا ما يزيد عن ستمائة رجل من ضمنهم السلطان تاج الدين وأولاده وأولاد - السلطان أبكر وأن السلطان دود مرة أصيب بجراح ..... عرفت من جوابكم أنكم تظنون أن دولة فرنسا تريد امتلاك دارفور .... لا تجعلوا هذا الفكر يخطر لكم علي الإطلاق لأن هذا أمر مستحيل وذلك لأنكم تابعون للحكومة الإنكليزية... وقائمين بواجباتكم)[69]. وعزا سبب الحرب إلى مقتل الكابتن فيكنشو في السنة الماضية حينما دخل خطأً إلي دار مساليت.

بدأ واضحا أن أي اعتداء على دار مساليت يعني الاعتداء على دارفور. لأن سلطان المساليت تاج الدين كان يعتبر ممثلاً للسلطان علي دينار لا سيما وأن الفرنسيين قد دمروا الديار وخربوها.

(68) سلاطين إلي السلطان في 1910/12/14م S.N.A INTELL. 7/3/11

(69) سلاطين إلي الحاكم العام في 1910/12/16م (1328/2/14هـ).

القضية كانت واضحة حيث جاء الفرنسيون بالموالين لهم مثل حسن الجالنجاوي بدلا عن عثمان الطوراوي وبإدريس القمراوي أحد أعداء علي دينار[70]. ونتيجة لهذا فكر السلطان جاداً في الخروج من هذه المحاصرة. فشن غارة قتل من جرائها القائد الفرنسي مول (Moll) وبعض الضباط الفرنسيين الآخرين[71]. هذا يعني أنه اشترك في المعركة التي أشار إليها سلاطين والتي قتل فيها السلطان تاج الدين وجرح فيها دود مرة. ولكنه لم يعلن ذلك حتى لا يعيق الجهود الدبلوماسية المبذولة من قبل الحكومة الثنائية .

أجرت في هذا الأثناء الحكومة الثنائية اتصالاً يهدف إلي تذكير الحكومة الفرنسية بتأكيدات القنصل العام الفرنسي (Rox) لسلاطين بأنه سيبرق قواته بأوامر صارمة بعدم التدخل في شؤون دارفور. بيد أن الذي حدث خلاف ذلك[72].

يبدو أن الأمر كان تخطيطاً علي مستوي عالٍ يجري تدبيره في باريس وينفذ على الحدود الغربية. وأن التأكيدات الفرنسية لا تعدو عن كونها مهدئاً وقتياً بغية الاستعداد لإجراء جديد لأنه عقب كل هذه التأكيدات كانت تأتي غارة علي حدود السلطان.

وأدرك سلاطين أبعاد الغدر الفرنسي وعدم منطقيته وواقعيته فضمن ذلك في تقريره الذي أعده عن العلاقات بين دارفور وفرنسا سنة 1911م حين أشار إلي أن الفرنسيين كانت لديهم نية مبيتة لغزو كل من دار مساليت ودار تاما. وذلك انتقاماً للهزيمة التي لحقتهم من المساليت في يناير سنة 1910م. وحاولوا تغطية ذلك بعدة أقنعة منها مطاردة دود مرة الذي حسب زعمهم بأنه قد طفق يجمع أعداداً كبيرة لغزو أبشي واسترداد سلطنته.والأوربيون من طبعهم اختلاق المبررات من أجل تحقيق مصالحهم الحيوية والإستراتيجية في المنطقة التي يريدون احتلالها واستغلالها. وألا لنا أن نتساءل وأن نطرح مجموعة من الأسئلة المشروعة: فهل كان صدام يائري يمتلك سلاحاً نووياً يهدد السلم العالمي أكثر من بريطانيا وأمريكا وفرنسا؟ وهل كانت أفغانستان تهدد الأمن الدولي وتنتهك حقوق الإنسان أكثر من الولايات المتحدة

(70) سلاطين إلي الحاكم العام في 1910/12/17م (1328/12/15هـ) S.N.A INTELL1/1/1

(71) الحاكم العام إلي رسل 1910/12/30م (1328/12/28هـ) S.N.A INTELL 1/1/1

(72) تقرير أعده سلاطين في 10 يناير سنة 1911م عن العلاقات بين فرنسا ودارفور S.N.A INTELL 1/1/2

الأمريكية في غوانتانامو وسجن أبي غريب؟ وهل ما كان فيها يفوق أو يشكل واحد على المليار مما تفعله إسرائيل (دلوعة أمريكا) كل يوم في فلسطين المحتلة ؟ وهل كان السودان يمتلك في مصنع الشفاء أسلحة نووية أو يملك مفاعل نووي؟ وهل في دارفور الآن اغتصاب وانتهاك لحقوق الإنسان؟ وهل .... وهل .... ؟

ومعلوم أن هذا التبرير كان واهٍ جداً لأن الجيوش الغازية دخلت أراضي كل من داري تاما والمساليت تحت أرشاد كل من السلطان حسن الجالنجاوي الأداة الفرنسية بغية تنصيبه مكان عثمان الطوراوي والذي جرت العادة على تعيينه من قبل علي دينار. والسلطان إدريس القمراوي كان عم علي دينار وأحد أعدائه اللدودين[73].

يعكس هذا التقرير أبعاد الغدر الفرنسي والمقاصد المقنعة التي أرادت فرنسا تبريرها بتعليلات متعددة ومسوغات مختلفة فمثلما آوت دار المساليت دود مرة فقد آوت فرنسا خصمه. وفي الواقع أن دخول فرنسا إلي دار المساليت ليس القصد منه هو إخراج دود مرة أو القبض عليه بقدر ما كان القصد منه خلع السلطان تاج الدين والي علي دينار وتعيين أداتهم مكانه. تأميناً لجبهتهم الشرقية وكسباً لمواقع قدم جديد يمكن أن يصلح كبطاقة رابحة في المفاوضات بين الدولتين المحتلتين فرنسا وبريطانيا في مجال توزيع مناطق النفوذ في أفريقيا فيما بينهما .

وكان من الطبيعي أن يعزز سلطان دارفور موقفه وأن يشد من أزر نصيره. ولازال السلطان علي دينار يتعجب من هذا الغزو الفرنسي مع وضوح الحدود الفاصلة لدارفور عن وداي منذ جده محمد الفضل. ووصف الجنود الفرنسيين بأنهم أوباش لا يعرفون شيئا عن الحضارة واحترام القوانين. ويتساءل عما إذا كان اختراقهم لحدود دار تاما ومساليت وقمر يتفق والاتفاقية المعقودة معكم[74].

وفي خطاب آخر وبنفس التاريخ يذكر فيه (فأولاً دار الداجو حدودنا فيها مع دار وداي جبل الكنوز. فالآن هم استلموها ودار تاما لأن عساكرهم فيها ودار قمر كذلك مساليت ودار كبي هؤلاء الخمسة ديار جميعهم حدود دارفور الأصلية[75].

---

(73) السلطان إلي سلاطين في 1911/1/17م (محرم سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 2/1/3

(74) السلطان إلي سلاطين في 1911/1/17م (16محرم سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 13/2/7

(75) القنصلية البريطانية بالقاهرة إلي وزارة الخارجية البريطانية في 1911/1/22م S.N.A INTELL 1/1/1

وتبعية الديار الخمس لعلي دينار ليست بحاجة إلي كل هذه التأكيدات، فهناك عدة براهين علي تبعيتها له منها ما كتبه الرحالة الأوروبيون الذين قطعوا هذه البلاد وزاروها. وهناك الزبير باشا ود رحمة الذي غزا دارفور وهو لا يزال حياً. كما أن الأشخاص الذين عاصروا الثورة المهدية لا يزالون أحياء وسلاطين باشا نفسه كان مديراً لدارفور بعد غزوها (1879-1883م). وتشكل رحلة التونسي سنة 1845م مصدرا حياً وتسجيلاً واقعياً لما شاهده التونسي وسجله. ورحلة ناكتيجال، ج. بروان الرحالة البريطاني (1794م) فلدي هؤلاء جميعا توجد أدلة قاطعة علي تبعية هذه الديار- لا سيما دار تاما ودار مساليت – لدارفور وليست بأي حال من الأحوال تابعة لوداي. وبعد الحركة المهدية لجأ سلاطين إلي هذه المناطق إلي الخارج واحتموا بوداي[76].

يبدو عمق الروح الوطنية، والكراهية لكل ما هو أجنبي وإباء النفوس على الرغم مما قام به الفرنسيون خلال سنتين كاملتين لترسيخ أقدامهم ولتغريب هذه الديار. وإتيانهم بأدوات محلية ضعيفة يمكن توجيهها حسب إرادة الغزاة لم تنجح في حكم البلاد وإدارتها كما هو شأن أدوات أفغانستان والعراق من أمثال كرزاي أفغانستان وجلبي وعلاوي العراق. ذلك لأن شعبية الرجال وحبهم لا تخلقان بالقوة. ولا يمكن أن تصنع أحداهما قهراً. لذا نصب المساليت سلطاناً آخر حسب الفرنسيون أنه سيخلص لهم بيد أنه سرعان ما رفع عقيرته ضد المطامع الفرنسية في المنطقة. الأمر الذي أجبر السلطات الفرنسية للقيام بحملات متكررة أودت أخيرا بحياة الأمير محمد أندوكه سلطان المساليت الذي خلف تاج الدين. فقاموا باستلام دار المساليت [77] عنوة وقهراً مما يعني أن الفرنسيين وأشباههم لا يحترمون إرادة الشعوب وحقها في تقرير مصائرها إلا بالطريقة التي تحقق مصالحهم هم.

وقد بدأ للسلطان علي دينار الاتجاه الفرنسي العدائي واضحاً بواسطة مبعوثيه وبواسطة أعمال الفرنسيين وغزوهم لداري تاما والمساليت وتخريبهما الذي يناقض

(76) السلطان إلي سلاطين في 1911/1/29م (28محرم سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 7/1/13

(77) السلطان إلي سلاطين في 1911/1/29م (28محرم سنة 1329هـ) S.N.A INTELL 1/1/1

تأكيداتهم بعدم الاعتداء [78]. ومحاولات الحكومة الثنائية لكفه عن الحرب والاستجابة الوقتية لاستفزازات القوات الفرنسية.

وشعر سلاطين باشا بدقة الموقف وعدالة مطالب السلطان، وعدوان الفرنسيين عليه واختراقهم لحدوده. وهناك التزام أدبي تجاهه بموجب الاتفاق من قبل الحكومة الثنائية وتأكيداتها المستمرة حيث يقول:" لقد قمت بإرفاق صورتين من خطابين أحدهما من سعادتكم ومؤرخ بأول مايو سنة 1901م. والثاني مني بتاريخ 22 ديسمبر سنة 1903م إلي السلطان علي دينار يحددان الحدود كما كانت تحت إدارتي. ومن الواضح أن دار مساليت ودار تاما كانتا جزءا من توابع دارفور[79]. هذه الإشارات تؤكد أن سلاطين بدأ يشعر بالحرج إزاء مخاطباته للسلطان ولئلا يكون في موقف الكاذب حاول أن يستعجل سلطات الخرطوم لاتخاذ مواقف أكثر إيجابية إزاء ما يتعرض له السلطان.

ثم يضيف قائلا: وبالرغم من أن علي دينار كان يرى في تدخل الفرنسيين في دار تاما ومساليت خطرا عليه إلا أننا استطعنا وحتى الآن أن نحول بينه وبين القتال معهم. ولم تكن الحدود بينهما مغلقة لمدة ثمانية أعوام. وبعد هزيمة دود مرة من قبل الفرنسيين وبناء على التعاليم الإسلامية استقبل علي دينار دود مرة باعتباره لاجئاً يحرم دمه. وزاد غزو الفرنسيين لدار تاما ومساليت من غضبه وتشدد علي دينار تجاههم[80]. هذا الكلام احتوي علي قدر من التجاوز في بعض العبارات لاسيما إصدار الأحكام النهائية بشأن منطقي لسلوك السلطان وسياسته الخارجية.

يعتبر تدخل الفرنسيين اغتصاباً لأرض سلطنة دارفور واعتداء على حدودها وانتهاكاً لحرمتها وللاتفاقية القائمة بين كل من إنجلترا وفرنسا سنة 1899م. حيث لم تكن دار تاما ومساليت من المناطق المتنازع عليها بين الدولتين العظميين[81].

---

[78] سلاطين إلي الحاكم العام في 5 فبراير سنة 1911م (9صفر سنة 1329هـ) S.N.A INTELL1/1/1

[79] سلاطين إلي الحاكم العام في 5 فبراير سنة 1911م (9صفر سنة 1329هـ) S.N.A INTELL1/1/1

[80] تقرير سلاطين في 1911/1/10م (9محرم سنة 1329هـ) S.N.A . INTELL 1/1/2

[81] الحاكم العام إلي المندوب السامي البريطاني في 1911/2/9م S.N.A INTELL 1/1/1

وبالفعل فإن الخطر الخارجي ووحدة العقيدة استدعيا التقاء كل من دود مرة والسلطان علي دينار. واقتنعت الحكومة الثنائية بوجهة النظر الفوراوية بإجلاء القوات الفرنسية أولا ثم اللجوء إلي تحديد الحدود بين الدولتين[82].

لذا كان لابد من تهدئة الأحوال وإلقاء السلاح إلى حين الوصول إلى اتفاق بين الطرفين المتنازعين. ولا زال السلطان يعض على جمر من جراء الاعتداءات الفرنسية والادعاءات بأيلولة كل من دار تاما ومساليت إلي وداى. وفى الواقع فإن التحركات الفرنسية لم تكن مرهونة باعتبار الأحوال السياسية أو الوعود المقطوعة لعلى دينار. هذا بالرغم من التزامة بعدم الاعتداء على أمل ظهور نتائج المفاوضات الجارية[83] بين الدولتين بريطانيا وفرنسا اللتين يحيطان بإجراءات هذه المفاوضات السرية التامة .

وكانت الحكومة الفرنسية مترددة بشان إجلاء قواتها عن المناطق المتنازع عليها. هذا بالرغم من تظاهرها بالاقتناع بعملية تحديد الحدود. بين دارفور ووداى. ومعلوم أن أية مساع ديبلوماسية لا يمكن أن تؤتى ثمارها ما لم يتم الاعتراف مسبقاً للسلطان بحقه المشروع فى كل من دار تاما ودار مساليت[84]. ولكن فرنسا في ذات الوقت كانت تحفزها مطامع استيطانية ومنافسة مع بريطانيا على هذه المنطقة حيث كانت لاتسلم بحق بريطانيا المطلق في دارفور. وكانت بريطانيا من جانبها تحاول أن تمسك بخيوط العنكبوي لتثبت أن لها حقاً تأريخياً وقانونياً في دارفور وتحاول أن تقنع السلطان بالتبعية لها ولو إسمياً لتجد ما تحاجّ به رصيفاتها في المؤتمرات الأوروبية

ومعلوم لدى الأطراف المعنية أن هاتين الدارين كانتا من الناحية التاريخية والواقعية تابعتان لدار فور. ذلك لأن الحكومة المصرية حين احتلالها للسودان أقرت بعدم تبعية هذه الأجزاء لإدارتها[85].

(82) S.I.R.199/9. Feb. 1911

(83) الحاكم العام إلي السكرتير الخاص في 1911/3/2م S.N .A . INTELL 1/1/1

(84) الحاكم العام إلي نائب مدير المخابرات في 1911/4/6م (7ربيع الثاني سنة 1329هـ S,N.A INTELL I/I/I

الحاكم العام إلي أستاك في 1911/4/8م (9ربيع الثاني سنة 1329هـ S,N.A INTELL 1/1/I

(85) سلاطين إلي السلطان في 1911/4/18م (19ربيع الثاني سنة 1329هـ) S.N.A INTELL I/I/I

لعب سلاطين دوراً بارزاً في إقناع السلطان بجدية المساعي الديبلوماسية وبعث بتأكيد عقب انسحاب القوات الفرنسية من دار مساليت للسلطان يقول فيه: (قد عرفنا أن حكومة فرنسا قد أخرجت عساكرها من دار مساليت وإن شاء الله عما قريب سيخرجونهم من دار تاما[86].

لربما كان ذلك تكتيكا من القوات الفرنسية اقتضته ظروفها المحلية ويلوح سلاطين تارة أخري بجدية المساعي الديبلوماسية واهتمام الحكومة ومتابعتها لما يستجد من أحداث بقوله: (قد عزمنا إن تنازلت حكومة فرنسا عن مطالبها في دار تاما ومسلات أن تعين لجنة خصومة لأجل تعيين الحدود وستنتدب الحكومة أثنين من الضباط المهندسين. وبصحبتهم مندوبين من قبلكم. حيث يقابلون المندوبين الذين تعينهم حكومة فرنسا والحكومة الإنكليزية بخصوص دار فور وحدودها. وسنرسل لكم أوراقاً رسمية بهذه الحدود وسيدوم الاتفاق إلي أجيال طويلة بعدكم ويتمتع به أولادكم[87]. اعتراف صريح بأن للسلطان ولأسرته حق وراثي في حكم دارفور. ولو سار السلطان في ركب بريطانيا لضمنت له ذلك ولكن السلطان كان رجل مبادئ. وأصحاب المبادئ لا يبيعونها بثمن بخس. وإن كان هذا هو شأن السياسيين الذين يباعون ويشترون في سوق نخاسة السياسة يميناً ويساراً بأثمان زهيدة مقابل بقائهم وسلامة أبدانهم.

لا يخلو هذا الكلام من إغراء وفى الوقت ذاته ليس فيه. تجاهل لدور السلطان فى المفاوضات وتعيين مندوبين من قبله كما سبق وعده بذلك. كما أن خبراً يتضمن تنازل فرنسا عن ادعاءاتها السابقة فى كل من دار تاما ومساليت مما يبعث الأمل فى جدية المساعي الجارية. ويهدىء من روع السلطان ويبعث في نفسه الأمل بهدوء الأحوال على الجهة الغربية لبلاده

وعبارة أن هذا الاتفاق يستمتع به أولادكم هي مخاطبة للرغبة الإنسانية بحب الملك وإستمراريته فى الذرية من بعد. ولكن في الوقت ذاته فإن لهذه العبارة دلالة موضوعية وتاريخية هامة إذ تتضمن استقلالية السلطان بدارفور.

(86) سلاطين إلي السلطان في 1911/4/29م (30 ربيع الثاني سنة 1329هـ) 7/3/12. S.N.A INTELL 1/1/1.

(87) الصحيفة الفرنسية لاماتير 1911/6/5م (جمادى الثانية سنة 1329هـ) S.N.A. INTELL. 1/1/2.

وفى الواقع فان قوات الحكومة الفرنسية كانت تتحرك بدافع الخوف من القوى المحيطة بها فى وداى. ونتيجة خوفها من دارى تاما ومساليت لتبعيتهما لدارفور[88]. أصبحت ترى الخطر أمامها ذا شقين داخليا وخارجيا وقد عبرت عن هذا المعنى إحدى الصحف الفرنسية بصراحة ووضوح وجلاء، حيث ورد فيها ما نصه. (الأوضاع فى وداى ليست ممتازة. وأصبحنا نشعر بخطر ماثل داخلياً وخارجياً فمن الشرق يمكن الخطر فى دار فور التى تهدد وجودنا فى المنطقة)[89].

وكانت الرؤية الفرنسية لهذه التقنية واضحة حيث أن القوى الفوراوية تشكل خطراً ماثلاً على وجودها فى المنطقة. لذا من الطبيعي أن تتكرر هجماتها على حدودها بغية كسر شوكتها دون اعتبار لأي اتفاق أو معاهدة. ولربما يفسر هذا أن السياسة التي تحرك القوات الفرنسية مرسومة في باريس. وان هذه القوات كانت تحسن تنفيذ ما يوكل إليها من مهام بدقة متناهية.

ونتيجة للهجمات الفرنسية المتكررة حدث انفجار هجرة تجاه دارفور مما شكل عبئاً ثقيلاً على سلطنة دار فور هذا بالرغم من محدودية إمكاناتها والحصار المفروض عليها من الشرق والغرب. وبالرغم من ذلك فقد أجرى السلطان على دينار اتصالات مستمرة لاستقدام دود مرة بيد أنه لم يقرر بعد القدوم آلي الفاشر. وفى هذا الأثناء عينت السلطات الفرنسية سلطاناً على دار تاما. بيد أن قوات السلطان على دينار تمكنت من إعادة الأمور إلي نصابها والمياه إلي مجاريها[90].،وذلك لشعوره بأن تعيين سلطان موال للسلطات الفرنسية يعني تضييق الخناق عليه وتجاوزاً للسقف المسموح به في العلاقات الخارجية في المنطقة.

وتطاولت السلطات الفرنسية فى وداى بان أقدمت على جباية الأموال من الموطنين المقيمين داخل حدود سلطنة دار فور. وتضجر السلطان من ذلك الإجراء غير المبرر بقوله: (ولم تحصل لنا راحة من جهتهم) ويأمل من الحكومة الثنائية أن

(88) المصدر نفسه.
(89) S.I.R. 205/5. August 1911.
(90) السلطان على سلاطين فى 1911/11/5م (14 ذو القعدة سنة 1329هـ) S.N.A. INTELL 7/2/1

تقوم بـ (الوسايط اللازمة التي ترد جنود دولة فرنسا في التعدي-على حدود دارفور)[91]. ولعل كل تلك المحاولات تصب في خانة زعزعة الأمن والاستقرار في دارفور فقد يكون بعضها جس نبض لقوة السلطان،ومدي تمسكه بهذه السلطنات وقدرته علي الدفاع عنها. وهو من جانبه كان يري ذلك من الأمور التي لا تقبل الجدال إذ تشكل سقوفاً وخطوطاً حمراء لا يسمح لأحد بتجاوزها لأن فرض الضرائب وجمعها من المسائل السيادية والتغاضي يعني التنازل عن سيدته على هذه المناطق وتلك الرعية في تلك الفترة.

وضاق السلطان علي دينار ذرعا بسلطان وداي. حيث حاول معه كل الوسائل لاستقطابه ومقابلته فى الفاشر للاتفاق على خطة إلا أن دود مرة لم يزدد بذلك إلا نفوراً، لذا فكر فى مطاردته وقبضه حياً[92]. الأمر الذي يعكس نوعية القيادات ومحدودية سقوفها في المنطقة، ولعل ذلك هو الذي حال دون تعاونها واتفاقها. الكل كان ينظر تحت قدميه ومن زاوية مصلحته الضيقة ولا يدري أن الطوفان قادم كما هو الحال الآن بالنسبة للقيادات السياسية في دارفور سواء كانت بالداخل أم بالخارج والتي لم تعتبر بمفردات التاريخ وبمعطيات الواقع سواء في أفغانستان أم في العراق .

وتأزم الموقف الفرنسي الفوراوى. حيث لاحظ القادمون من بورنو أن الفرنسيين قد قاموا بغزو دار المساليت. وعسكرت الجيوش الفرنسية فى تيرقا (Terga). وفى مقابلها الجيوش الفوراوية. وبدأ السلطان فى استعراض جنوده. هذا فى الوقت الذي أصبح فيه أهل دارفور فى قلق دائم من جراء الاعتداءات الفرنسية المتكررة على حدود دار فور بعد استيلائهم على وداي[93].

وفى ينا ير سنة 1902م تم إخضاع السلطان بخيت أبو ريشة للفرنسيين وعزل السلطان عسيل ووضع مكانه إداري فرنسي هو الكولونيل (largeau). ومنح سلطان المساليت استقلاله بعد أن أمضي اتفاقية مهينة تنازل بموجبها عن ثلث دار مساليت، غربي واديي أسنجا وكوجا[94]. مما يوحي بأن التجربة الفرنسية لم تنجح في استقطاب

(91) السلطان إلي سلاطين في 1911/5/15م (ذو القعدة سنة 1329هـ) S.N.A. INTELL 7/2/13

(92) S.N.A. INTELL 2/2/13. NOV. 1911.

(93) A.B. THEOBALD. Op. cit. pp. 91

(94) مذكرة حول الحدود بين دارفور ووداي في 1912/1/1م (12محرم سنة 1330هـ) S.N.A INTELL 1/1/3

الحكام المحليين فبعد أن بدأت باستخدام العصا والجزرة لجأت إلي استخدام العصا دون جزرة وهو ذات السلوك الاستعماري الاستغلالي المعاصر في أفغانستان والعراق والآن دارفور، لم تحقق التجربة الأوربية مع القيادات الأفريقية هدفها لإيجاد عميل في هذه المنطقة يزجي لها إخلاصاً ويحقق عمالة مستقرة. فهناك أكثر من تجربة فرنسية في المنطقة لم تأت أكلها. إذ تميل هذه القيادات الأفريقية إلي الاستقلال حالما حققت قدراً من النفوذ ونالت التأييد. فالروح الوطنية والولاء للتراب أعمق أثراً وأبعد جذوراً من الإنبتات والتعلق بقوة أجنبية.

لربما تفيد هذه الخلفية في تبرير كثير مما يدور علي المسرح السياسي الآن في معظم البلدان الأفريقية والعربية والآسيوية. فمحمد أندوكه نصبه الفرنسيون بيد أنه سرعان ما خرج عليهم. وأما عسيل فقد عاونه هؤلاء الغزاة ولكنهم سرعان ما اكتشفوا عدم إخلاصه لهم. فسجنوه أول مرة ثم أطلقوا سراحه ونصبوه علي بلاده. بيد أنهم اكتشفوا أيضا بعدئذ عدم ولائه لهم بعد أن تمكن. هذا علي سبيل المثال لا الحصر.

وعلى صعيد آخر لا تزال الحكومة الثنائية في مجال مساعيها الدبلوماسية تقوم بجمع الأدلة التاريخية والواقعية فيما يتصل بالنزاع بين الفرنسيين في وداي والسلطان علي دينار في دارفور. ففي مناقشة للحدود الفاصلة بين دارفور ووداي جاء في مذكرة تفصيلية ما يلي. (من الأدلة التاريخية أن نزاعاً دار بين سلطان وداي ومساليت علي الحدود وتم حسم ذلك النزاع بواسطة مؤتمر حضر فيه ممثلو البلدين. وبعض هؤلاء الوداويين لا يزالون أحياء وأيضاً هناك حجر نصب على الحدود، وعليه نقوش تفيد بأن القبائل على الحدود تدفع الجزية أو الضريبة إلي وداي، ولكنها في المقابل تدفع مقابل الشرب رسماً إلي المساليت. ودارت بين التاما ووداي حروب سابقة[95].

رغما عن هذه المساعي وتحلي السلطان بالصبر حيال الاعتداءات الفرنسية المتكررة، وتعلقه بأمل نجاح هذه المساعي فإن الفرنسيين قاموا باختراق حدوده تارة أخرى. مما أزعج الأوساط الإنكليزية في كل من الخرطوم والقاهرة ولندن[96].

(95) الحاكم العام إلي كلايتون في 1912/1/3م S.N.A INTELL 7/5/13

(96) الحاكم العام إلي كتشنر في 1912/4/25م (14ربيع الأول 1330هـ) S.N.A INTELL I/I/3

وكانت وجهة النظر البريطانية في الخرطوم تذهب إلى عقد مؤتمر ثنائي سواء في لندن أو باريس علي أن يحضره سلاطين باعتباره أعرف الحاضرين بتاريخ دارفور وحدودها[97]. ونلاحظ أنه في هذه الفترة بدأ استبعاد العنصر الوطني صاحب الحق الأصيل. ولاشك أن تغييب العنصر الوطني أمر مقصود لأنه بغيابه يمكن تحقيق الاستراتيجيات وإبرام الصفقات بين الطرفين المتنافسين على نهب أفريقيا دون اعتراض.

وخلال سنة 1912م هدأت الأحوال على الحدود الفوراوية الوداوية الأمر الذي أدى إلي فتح الطريق التجاري بينهما. حيث غادرت قافلة مكونة من مائة جمل ومائتي حمار متجهة صوب وداي[98].

وقد أشار إلى ذلك السلطان بقوله: (فإن التجار والخواجات الموجودين بالفاشر من شدة ما حصل من المضايقة بعدم المخارج لتسكيك البضائع الحوا علينا كثيراً ورغبوا في فتح الطريق لحد دار وداي وكان نحن منعنا ذلك منهم خشية من ضياع حقوقهم. فأعطيناهم الإذن بالتوجه .... وخابرنا بهم قائد جنود دولة فرنسا الحاكم بدار وداي. وتوجهوا من يوم 27 شعبان سنة 1330، 11 أغسطس سنة 1912م[99].

إذن بدأ السلطان يتعامل مع القوى المحيطة به معاملة الند للند وبصورة استقلالية. وحاول أن يفتح صفحة ديبلوماسية مع السلطات الفرنسية في وداي. ولا يخفى أن مخاطبته المباشرة لدولة أوربية دون أخذ أذن مسبق من الحكومة الثنائية يضفي على وضعيته درجة عالية من الاستقلالية في رسم سياسته الخارجية. بيد أن ذلك التوجه لم يكن لينال رضا الحكومة الإنجليزية فى الخرطوم لأنه يدعو إلي شك تعاظم الحكومة الفرنسية فى تبعيته للحكومة الثنائية.

وكما سبقت الإشارة إلى أن القيادات الوطنية في البلاد الأفريقية ميالة إلى الاستقلال وهو طبع قبلي مكين حيث أن الحياة الاجتماعية الأفريقية والتركيبة

---

(97) S.I.R.214/5-6 may 1912I

(98) السلطان إلي نائب مدير المخابرات 9ارمضان سنة 1330هـ(سنة 1913م) S.N.A INTELL 7/2/20

(99) وزير الخارجية البريطاني إلي اللورد كتشنر أكتوبر سنة 1912م S.N.A INTELL I/I/3

الاجتماعية الأفريقية أقرب إلى البداوة منها إلى الحضر فلذا فإن هذا الميل هو فطري مرتبط بالبيئة والنشأة، نلحظ ذلك واضحاً في موقف عسيل الذي قاوم جيش الاحتلال حال تمكنه. وقام بتأييد العناصر الوطنية في المساليت. لذا رأى الفرنسيون أن لا محالة من أيلولة الإدارة المباشرة إلي أياد فرنسية كما تقدم(100). إذ أن الاعتماد علي عناصر وطنية لم يعد مأمون الجانب. الأمر الذي يوحي بان تلك العناصر الوطنية كانت أكثر عمقاً وبعداً فى النظر من القيادات السياسية الحالية. إذ كانت تدرك بثاقب نظرها أن الأجانب إذا أعطوك باليمين سيأخذوا منك بالشمال وإذا عينوك بالشمال سيخلعونك باليمين وهذا ما قاله علي الميرغنى للكاتب السوداني حسن نجيلة حينما سأله عن سبب رفضه الموافقة لأن ينصب ملكاً للسودان فى العشرينات من القرن العشرين من قبل إنجلترا (101).

وفي الواقع فإن السلطان علي دينار امتزجت فيه الروح الوطنية بالروح الديني الفياض. ففي اتصالاته بوداي بعث بخطاباته مع القوافل التجارية إلى بعض الشخصيات والزعامات يستفسرهم فيها عن أحوال وداي وعما إذا كان هناك اعتداء من قبل الفرنسيين علي قافلة الحج الأمر الذي يجب إعلام المسلمين في السودان بصدده(102) حيث أنتدب نفسه للدفاع عن المكتبات الإسلامية وتعيين نفسه حامياً لها .

كما أن الاتصال بالعناصر الوطنية المسلمة في وداي يدل على أن السلطان علي دينار كان يأمل في استنهاض الهمم في تلك البلاد. وأن اهتمامه بقافلة الحج ينبع من دور السلطنة الرائد في حماية الحجيج منذ عهد أجداده وآبائه فكأنه أراد بذلك الحفاظ علي تقليد السلطنة وإحياء مراسمها.

ولهذا الأمر دلالته الوجدانية. ففيه تحديد لهوية السلطان، حيث أراد أن يثبت حقه في الدفاع عن الإسلام وقضاياه وشعائره وحماية الخارجين في سبيل الله ابتغاء مرضاته.

(100) (انظر كتاب ملامح من المجتمع السوداني/السودان/الخرطوم/وزارة الثقافة/د.ت).
(101) سايمز إلي السكرتير الخاص في 1912/11/3م (21ذو القعدة سنة 1330هـ).S.N.A. INTELL 1/1/3.
(102) الحاكم العام إلي اللورد كتشنر في 23نوفمبر سنة 1912م (12ذو الحجة سنة 1330هـ) S.N.A INTELL I/I/3

ويدل ذلك على أن البواعث الدينيـــة لديـــه ذات جـــذور أصـــيلة.-وأن شـــعوره بالمسؤولية إزاء المسلمين وقضاياهم لم تكن وليدة لحظات ضعفه. وأن استمساكه بالدين لم يكن ملاذاً اعتصم به حين فقد الحول والطول. كما حاولت الكتابات الغربية وأقـــلام الاستخبارات العميلة أن تصفه به. وهذا شان إستعمارى قديم حديث معاصر. إذ يمكن أن يتغاضى الغرب عن سوأة الدكتاتوريين وجـــلادى الشـــعوب والظلمـــة إذا أيـــدوا الاستراتيجية الغربية ويمكن أن يلوثوا ويلطخوا سمعة ابرأ الخلق و أطهرهم إذا وقـــف ضدهم وكشف دسائسهم.وإذا أردنا البرهنة على هذا الأمر فإن القائمة ستطول والناظر إلى أحوال وتاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر يصاب بالغثيان من كثرة هـــذه النماذج العميلة والخائنة لأوطانها والخارجة على دينها بنعومة .

ويبدو أن دعوته للجهاد (1914م–1916م) لم تكن طارئة وإنما كانـــت أصـــيلة وكانت حساسيته تجاه الصليبيين الأوربيين المستعمرين مرهفة. ولاشـــك هـــم عكـــس إخوتنا الأقباط الذين عايشوا المسلمين وعايشهم المسلمون قروناً طويلة دون حساســـية وإنما تعاملوا مع بعضهم الآخر كأهل بيت واحد دون تفرقة أو عصبية وفيمـــا يتصـــل بالنزاع القائم لازال السلطان يعلق آمالاً عريضة علي الحلول الدبلوماسية. ولا تـــزال فرنسا تدعي حقاً لها في كل من دار تاما ودار مساليت وتذهب الحكومة الثنائية ووجهة النظر الإنكليزية إلي الاعتراف أولاً بأن دار مساليت ودار تاما هما جزءاً من دارفور ثم المفاوضة[103].

في هذا الوقت أراد السلطان أن لا يقف مكتوف الأيدي لا سيما أمـــام التســـويف الفرنسي والاعتداءات التي لم تتوقف رغماً عن هذه المساعي الدبلوماســـية. لـــذا دأب على خلق طابور خامس داخل وداي. فراسل الشيوخ والأعيان في وداي يحثهم علـــي الثورة والتمرد ضد القوات المحتلة. ولضمان نجاح نشاطه السياسي وتأمينه فتح بـــاب علاقات تجارية مع السلطات الفرنسية. وشعرت الحكومة الثنائية بدقة الموقف خوفاً من أن يفلت زمام الأمر من يدها. وأن تنجح فرنسا في فتح حوار مباشر مع السلطان ممّا يبطل مفعول الوجود الإنكليزي في المفاوضات. لذا لامه سلاطين علي عدم إخباره بما

(103) سلاطين إلي السلطان في 1912/11/25م (في 14ذو الحجة سنة 1330هـ) S.N.A INTELL.7/3/13

جري بقوله: (أن هذه الأخبار وصلت إلينا من حكومة فرنسا .... وإني أطلب منكم أن تكونوا علي الحذر دائما ولا ترسلوا خطابات إلي جهة.حكومة فرنسا. لأن الحكومة هناك تدعي أنكم تراسلون السلاطين هناك بجوابات فيها الكثير من المطاعن والانتقاد علي حكومة فرنسا وتحقيرها[104]. إن هذا الخطاب يؤكد على أن السلطان بدأ يتحرك بفاعلية بغية التأثير على الوطنيين فى تشاد"للثورة على الوجود الأجنبي في البلاد وكانت الحكومة الفرنسية عن طريق استخباراتها ظلت ترقب هذا التحرك بحذر. وبدأت تشعر بخطورته وأثره على وجودها، ولذا حاولت الطلب من الحكومة الثنائية إيقافه.

يبدو أن القوات الفرنسية كانت من جانبها تنتحل الأسباب لتبرير هجماتها علي أراضي دارفور. فمن ذلك هجومها علي الزغاوة الذي أشار إليه السلطان علي دينار مبيناً ملابسات ما جري بقوله: (... والسلطان عبد الرحمن مزني بشارة الزغاوة الكباري بالنظر لأنه مرضان مرض شديد عليل الفراش ... فلا يشعر آلا وقد هجموا عليه جنود دولة فرنسا بيوم الاثنين الموافق 22 ذو الحجة سنة 1330هـ. وفي الحين قتلوه وجميع من وجدوه معه لم يفلت منهم أحد وبوقته رجعوا .... أن جنود دولة فرنسا يصيلوا علينا في كل وقت ويهجموا ويقتلوا رجالنا ثلة بعد ثلة فلا راحة لنا من جهتهم. وعجلوا بما يطمئن البلاد من جهة دولة فرنسا وأن لا أتركونا نموتوا معهم فلا أسفا علينا إذا متنا في ديننا[105]. كلمات ذات دلالة موضوعية وتاريخية تنم عن رجولة وعن نصاعة مبادئ وقيم، ليت الأحفاد يدرسوا هذه المفردات ويتعاطوا معها بموضوعية وبواقعية فدارفور كانت ترى أن دورها هو حماية البيضة لا أن تفتح أبوابها لشذاذ الآفاق ليعبثوا فى دارفور القرءان، دارفور السلطان دارفور الأمجاد. كما هو الحال الآن مع القيادات السياسية التي فقدت توازنها العقلي فاستجابت لأجندة خفية تريد استعادة دورات التاريخ فى السودان مرة أخرى في ثوب استعمار إستغلالي جديد.

(104) السلطان إلي سلاطين في 1912/12/10م(ذو الحجة سنة 1330هـ) S.N.A INTELL 7/2/14

(105) سلاطين إلي سلطان في 1913/1/21م (11صفر سنة 1331هـ) S.N.A. INTELL 7/3/4

تعددت الاعتداءات الفرنسية على دياره. ويرى بأم عينيه رجالاته وأنصاره يتساقطون. لذا حاول الاستعانة بقوى أوروبية وعلق عليها آمالاً كبيرة لإنقاذه مما هو فيه. وعلى الصعيد الآخر لم يأل جهدا في القيام بتعبئة شعبية داخل بلاده لمواجهة الموقف بأن أعد جيشه. وعلي الصعيد الخارجي حاول الاتصال بالقيادات الشعبية الوداوية بغية أثارتها وإقناعها لإعلان العصيان والتمرد ضد الحكم الفرنسي في البلاد.

أما سلاطين لازال يكرر في دندنته القديمة بأن المساعي السلمية الدبلوماسية ستؤتي ثماراً دانية. بيد أن انشغال الدول الكبرى بقضية الحرب في البلقان بين تركيا ودول البلقان هو الذي أخر بحث المسألة[106].

ولكن رغما عن هذه الأحداث التي زعم سلاطين أنها شغلت الساحة الأوربية، فنالت كل اهتمام الدول الكبرى فإن الاعتداءات الفرنسية على حدود دارفور لم تنقطع. أخرها كان على حدود التعايشة أشار إليه السلطان بقوله: (إن فرقة من جنود فرنسا هجمت عليهم وأخذت جملة أموالهم ولا نعلم بالأسباب التي جرت على ذلك[107]).

وفي الوقت ذاته درجت فرنسا على التلويح بموافقتها على طرح الأمر على الوسطاء ليكونوا حكماً في الخلاف القائم على أن لا يكون السلطان علي دينار طرفاً في التمثيل الدبلوماسي للمناقشة[108]. مما لاشك فيه أن إسقاط على دينار من أن يكون رقماً فى المفاوضات هى محاولة القصد منها إسقاط واقعه التاريخي فى هذه المنطقة وهى خطة مرسومة تسير بخطى وئيدة.

ولا يخفى أن الموافقة على هذا الاقتراح من قبل الحكومة الثنائية يعتبر مخالفاً لما قطعته من وعود للسلطان، وفيه استبعاد لصاحب الحق من تقرير مصيره. ولو كانت بريطانيا حريصة على مصلحة البلاد وأهلها لما رضيت بهذا الاقتراح ولكنها كانت تعلم علم اليقين أن حضور السلطان علي دينار سيعزز من موقفه. وقد يجعل الأمر يخرج من السيطرة ولربما كان ذلك إتفاقاً سرياً بين الدولتين المحتليتين واقترحت

(106) السلطان إلي سلاطين في 1912/3/31م (23ربيع الأول سنة 1331هـ) S.N.A INTELL 7/2/15

(107) أستاك إلي الحاكم العام امايو سنة 1913م (24جمادي = الأولي سنة 1331هـ). S.N.A. INTELL 1/1/3

(108) المصدر نفسه.

الخارجية البريطانية اللورد كتشنر ليكون ممثلاً لبريطانيا في مائدة المفاوضات[109]. أهل البلاد أهل الحق الأصيل مغيبون عن حق تقريز مصيرهم!! ولعل هذه الموافقة البريطانية تؤكد ما سبقت الإشارة إليه في إمكانية وجود أتفاق سري بين الطرفين مقتضاه إبعاد العناصر الوطنية من مائدة المفاوضات فيما يتصل بتقرير مصير هذه المنطقة وهو شأن استعماري إستغلالي قديم حديث.

وفي مايو 1913م تأكدت الحكومة الثنائية من"صحة المعلومات التي أوردها السلطان قبل شهرين من أن الفرنسيين قاموا بهجوم علي التعايشة[110]. وكأنهم أرادوا بذلك أن يدخلوا آلي قاعة المناقشة وان يجلسوا علي مائدة المفاوضات وهم في موقف قوة ولهم وجود علي الأرض. وبالتالي يؤكدوا بان لهم شرعية الأمر الواقع في حالة الوصول آلي تسوية بين الدولتين في تقسيم (كعكة) دارفور. وبالتالي فلتذهب الوعود السابقة للسلطان هباء لان المهم في هذه المعادلة هو المصلحة الإنجليزية والفرنسية أولاً وثانياً وثالثاً. وهذا الأسلوب الذي أتبعه الفرنسيون هو أسلوب قديم حديث أتبعته كثير من الحركات المعاصرة وحركاته والتمرد ضد حكوماتها قبل الجلوس علي مائدة المفاوضات. ولعل ذلك يؤكد قوة مخابرات السلطان وصدق أحدوثة.

وفي يونيو سنة 1913م أعد سلاطين مذكرة تفصيلية بشأن النزاع الفوراوي الفرنسي على الحدود بين دارفور ووداي. برهن فّي هذه المذكرة علي تبعية داري مساليت وتاما لدارفور. وركز على أهم **النقاط التي تثبت ذلك حصرها فيما يلي:-**

أولاً: أن الذين حكموا في الفترة ما بين (1874م – 1884م) لا يزالون أحياء ويمكن استجوابهم.

ثانيا: أن جامعي الضرائب من هذه المناطق لا يزالون على قيد الحياة.

ثالثا: أن الحرب التي دارت بين وداي وتاما كانت بشأن المياه التي على الحدود.

رابعاً: أن هناك نقطة علي الحدود يحجز عندها المسافر حتى يأخذ الأذن ذهاباً وإياباً .

---

(109) . S.I.R. 226/6 may 1913

(110) مذكرة أعدها سلاطين في 1913/6/30م. S.N.A INTELL. I/I/3

خامسا: قرية (بورو) التي حاول سلطان وداي في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر أن يجمع منهما الضرائب فدارت بين الفريقين حرب من أجل ذلك لتبعيتها لدارفور .

سادسا: تيربيبا والتي أنشئت إلي الغرب من خط الاتصال تيرقا (Terga) مع وداي اسنَغا (asunga) لتحديد أقصى نقطة نحو الشرق لحدود سلطنة وداي[111].

لا تخفي أهمية وقوة هذه النقاط التي برهن بها سلاطين على صحة دعواه والتي تثبت تبعية كل من دار تاما والمساليت لدارفور. ومن الوجهة التاريخية تشكل حججاً دافعة وبراهين قاطعة. وفى تقديري أن المسالة ليست بهذه السذاجة فهي قضية أطماع استعمارية فى المنطقة ودعوى أوروبية باطلة تؤكد علي أن أفريقيا هي منطقة خلو وملك مباح ولذا هجمت عليها القوى الأوروبية هجمة الوحوش الضارية كما هي الحال الآن. بيد أن الأفارقة حتى اللحظة لم يدركوا أبعاد اللعبة الغربية ونحن فى السودان عموماً وفى منطقة دارفور نعانى من غيبوبة تاريخية من حيث التعاطي والقراءة الذكية والوعى التاريخي. ومن جانب آخر أعدت الحكومة الثنائية هذه المذكرة بغية تقديمها لمؤتمر الوسطاء. بيد أن القضية بالنسبة لفرنسا ظلت قضية استراتيجية عسكرية في المنطقة، وقضية توسع استعماري إستغلالي وجوعة عارمة للحصول علي مستعمرات لا تردها الأدلة ولا البراهين المنطقية. لأن النهمة الاستغلالية الاستعمارية منطقها القوة ودافعها الأطماع. وما قدمته الحكومة الثنائية لم يكن من أجل عيون السلطان بل من أجل إثبات حق النفوذ في هذه المناطق. ولربما هذا ما حدا بها في النهاية أن تتجاهل تمثيله في مفاوضات تقرير مصير بلاده. رغما عن الوعود التي قطعتها علي نفسها تجاهه وله.

ويبدو أن سلاطين قد وجد وتراً وعوداً جديداً للعزف عليهما وهما انشغال الدول الأوربية بالحرب البلقانية التركية وإيطاليا. وأكد بأن حدود دارفور لبعدها عن مسرح الأحداث لم تنل ما تستحقه من اهتمام. بيد أن الأمر سيأخذ مجراه من الاعتبار لا سيما بعد طمع فرنسا في كل من دار تاما والمساليت[112].

---

[111] سلاطين إلي السلطان في 1913/7/28م S.N.A INTELL 7/3/14

[112] المخابرات القاهرة في 1913/10/28م S.N.A INTELL I/I/3

هذا ودون استحياء أخذت فرنسا في عزو كل الإضطرابات في المنطقة إلي وجود السلطان علي دينار. وبدأت تنتحل أسباباً عديدة تبرر غزو دارفور. وتطلعت إلي اكتساح دارفور وإبعاد السلطان عن مسرح الأحداث. وقدمت مقترحاً بهذا المعني للحكومة الثنائية للقيام بعمل مشترك في هذا المجال. إلا أن الحكومة الثنائية لم تكن مهيأة لذلك، لذا لم تبد موافقتها[113]. على هذا الاكتساح لأنها قدرت لو أن ذلك تم فسيكون لفرنسا فى دارفور من الحق ما كان لإنجلترا فى السودان مع مصر حين أدعت مساعدتها وقد تم ذلك باستراتيجية بعيدة المدى بغية إزاحتها عن حقها التاريخي.

إذن القضية كما سبق فهي ليست قضية إقناع أو حق مشروع بحاجة إلي إثبات بقدر ما هو تغول علي حقوق شعوب بأكملها. وكان من قدر السلطان علي دينار في هذه الفترة الحرجة أنه قد تولي مسؤولية بلاده. هذا في وقت تكالبت فيه القوي الاستعمارية علي المنطقة. ورأت أن لا حق لأهل البلاد الأصليين في إدارة بلادهم أو تولي مسؤولياتها. وفي ظل هذا المفهوم فالويل الغادر والثبور لمن يقاوم .

مرة أخري حاول السلطان أن يكسر الطوق وأن يجري مفاوضات مباشرة مع القوى الفرنسية المعتدية. فقام بإرسال خطابين في يوم واحد يشكو في أحدهما أن اعتداءات جرت بين قبائل في دارفور، وما أن تغلب فريق حتى وجد طريقه إلي دار سلا التي وقعت تحت الحماية الفرنسية فراراً من وجه العدالة. فيأمل أن ترد إليه الأموال والهاربين[114] .

ولم يقف الأمر عند حد الاعتداء وإنما تجاوزته إلي تشجيع عملائها على تجاوز حدوده. فمن هؤلاء بخيت سلطان دار سلا. وأشار السلطان علي دينار في خطابه الثاني للقائد الفرنسي إلى أن بخيت سلطان دار سلا قد أعتدي علي حدود دارفور وأكد له بأنه سوف لا يعتدي على أحد تحت إدارة وحماية الحكومة الفرنسية ما لم يخطرها لردعه وأن لا فـ: (إني أعامله بمثل فعله أن حصل له مني شئ فلا تلوموني وما تعملوه يفادنا منكم)[115] .

[113]السلطان إلي الكولونيل الفرنسي في 1913/4/18م (25 جمادي الأولي سنة 1322 هـ) S. N. A. INTELL. 7/4/1
[114]السلطان إلي الكولونيل الفرنسي في 1913/4/18م (25 جمادي الأولي سنة 1322هـ) S. N. A. INTELL. 7/4/1
[115]سلاطين إلى السلطان في 1913/4/25م (30 جمادي الثانية سنة 1322هـ) S. N. A. INTELL. 7/4/3

وفي مقابل هذا السلوك الحضاري والمطالب العادلة لردع المعتدين وتقويم الخارجين علي النظام والقانون قامت القوات الفرنسية بالتوغل مرة أخري في حدود دارفور. إمعاناً في تنفيذ إستراتيجيتها القاضية بإحراج الحكومة الثنائية لاتخاذ خطوة إيجابية إزاء احتلال دارفور عن طريق عمل مشترك وتقسيم المنطقة بين الطرفين في جلسة مفاوضات شأن الضياع الأفريقية الأخرى التي تم احتلالها. ووصلت القوات الفرنسية حتى حدود الزغاوة مما أثار السلطان. هذا في الوقت الذي يلح فيه سلاطين علي السلطان بالتحلي بالصبر ويوحي إليه بأن القضية يمكن حلها عما قريب. ويؤكد له بأنه قد بسط الأمر لسعادة الحاكم العام والمندوب السامي البريطاني اللورد كتشنر(116).

ولكن يبدو من خلال المراسلات التي تقدمت الإشارة إليها من السلطان علي دينار إلي القائد الفرنسي أن السلطان بدأ يفكر جدياً في إجراء المفاوضات المباشرة مع الفرنسيين، بعد أن استبان له عدم جدية الحكومة الثنائية وتكرار وعودها الكاذبة له، وقدر أن هذه المفاوضات المباشرة أجدى حيث رأي أنها أدعى لحسم الأمر. ولربما من ناحية أخرى قد فقد الثقة في دندنة سلاطين ووعوده التي لا تعدو عن كونها سراباً بقيعة .

وفي فبراير سنة 1913م سبق أن أغلق السلطان حدوده مع وداى تماماً وأوقف تجارته الخارجية معها. الأمر الذي يدل على حدوث تطورات هامة. وإحساس بالغ بالخطر من قبل السلطان علي دينار إزاء القوات الفرنسية التي لا هم لها سوي الاعتداء والسلب والنهب.

ربما كان ذلك من الدوافع القوية التي جعلت السلطان يعيد النظر في علاقاته بالقوى الأوربية المحيطة به. وبالتالي ألقي بنظره بعيداً عن هذه القوي التي تضمر له العداء، وتتطلع إلي القضاء عليه، والتي لا يجمعها معه دين ولا وطنية. لذا كان من الطبيعي أن يلبي نداء الجهاد ضد أعداء الإسلام من إنجليز وفرنسيين. هذا إذا علمنا أن الروح الديني والحس الإسلامي كان عميقاً في نفسه. وأن الأثر المهدوي لا يستبعد أن

(116) S. I. R. 247/7. Feb. 1915

يكون قد ترك بصماته علي شخصيته ونظرته للأوربيين من حيث عدم الثقة بهم وانتمائهم. ففقدان الثقة الدائم فيمن حوله من قوي أوربية وشعوره وإدراكه لأبعاد أطماعها في بلاده، وتزوده بالروح الاستقلالية، وتشبعه بفيض إيماني عميق بدينه وتراثه، وتسلحه بالدين يعتبر ذلك من أقوي العوامل التي شجعته لتلبية نداء الدعوة الجهادية في العالم الإسلامي وجعلته يقف وحيداً في هذه المنطقة ضد الأطماع الأوروبية الاستغلالية. وكان على استعداد للتعاون مع أية قوة إسلامية في المنطقة لطرد النفوذ الأجنبي من بلاد الإسلام.

لاشك أن هذه الصفحات المشرقات من تاريخ علي دينار وحكمه لدارفور كما إن الأحداث التى شهدتها دارفور خلال تلك الحقبة الهامة من تاريخها ومن تاريخ المنطقة العربية والأفريقية تشكل أرضية صلبة وقاعدة راسخة ومعطى يتطلب دراسة وتأملاً. وأن أجيال اليوم ينبغي أن تقرأ مفردات هذه المنطقة بوعي تأريخي يقظ وبحس عقلاني متقد راشد. لأن ما يحدث اليوم من سيناريوهات وأدوار لا يعدو عن كونه صدى لأحداث الأمس. وان أي محاولة لجر دارفور لحرب أثنية أو عرقية أو حرب تطهير عرقى لا تعدو عن كونها معولاً لهدم أمجاد هذه المنطقة التى تمكنت باقتدار وبفاعلية أن تغدو بوتقة انصهار لمدة خمسة قرون من الزمان نتجت عنها شخصية سودانية متميزة ثقافة ووجوداً وفكراً وروحاً وخلقاً وقيماً وأعرافاً. وأن وصف ما يدور فى دارفور الآن بأنه حرب بين عرب وزنوج هو ضرب من الهرطقة وقدر من الجنون ومستوى من العمالة المغلفة التى ترمى آلي ضرب السودان فى أهم مفاصلة التاريخية التى يستمد منها وجوده. لان ما ينبغى تأكيده أولاً.لا توجد عرقية خالصة فى أفريقيا فالعرب جاءوا رجالاً بدون نساء فتزاوجوا من أهل البلاد الأصليين وإذا أخذنا بنسبة مئوية فان الساميين جرت فى عروقهم دماء حامية وان الحاميين جرت فى عروقهم دماء عربية ويمكن الرجوع إلي كتابنا بهذا الصدد – العلاقات المكية السودانية عبر التاريخ – لاكتشاف حقائق هذه النماذج وأن بروز.مفاهيم القومية والعنصرية والعرقية هي مفاهيم مستوردة غربية على ماضينا وتاريخنا وموروثنا الثقافي والديني والروحي وإجتماعي .

الباب الخامس

العلاقات بين دارفور والحجاز والدولة العثمانية ومصر

الفصل الأول:

العلاقات بين دارفور والحجاز

الفصل الثاني:

العلاقات الفوراوية العثمانية ومصر

الفصـــل الأول

العـــلاقات بين دارفـــور والحجـــاز

إن صلة سلطنة الفور الإسلامية بأرض الحرمين صلة طبيعية درجت عليها أغلب الممالك الإسلامية في العصور الإسلامية الوسيطة,والحديثة والمعاصرة. وذلك بسبب الحج والذي يحتل مكاناً خاصاً في قلوب مسـلمي شـمال وغـرب أفريقيـا وبـلاد السودان[1].

كما أن مرور طريق حجاج غرب أفريقيا عن طريق البحر الأحمـر بعـد قيـام الممالك الإسلامية في السودان النيلي بالإضافة إلى طريق شمال أفريقيا ربط دار فـور تلقائياً بحركة الحجيج. وبالتالي لقد أضحت تشكل محطة التقاء هامة ونقطـة ارتكـاز ضرورية وبوتقة انصهار عرقي متفردة.

ومما لا شك فيه أن الحج كان يمثل نافذة هامة لهذه الممالك يربطها بمنابع الإسلام وكثيراً ما استقدم وكلاء السلاطين الفور العلماء من الحجاز بتكليف مـن السـلاطين والتزم السلاطين الفور إزاء تلك المسؤولية التاريخية والمكانية التزاماً أدبيا وفعلياً بأداء خدمات أوجبوها على أنفسهم إزاء الحرمين. يعكس ذلك رسالتان بعث بهمـا إبـراهيم قرض (1873– 1874م) آخر سلاطين الفور إلى عبد الله شريف مكة ورد في أولهما (من أمير دولة الفور السلطان إبراهيم إلى حضرة ... الشريف عبـد الله .... وأصـل إليكم الحاج إدريس وصحبته ثلاث آلاف ريال ... يصل حضرتكم وما بـاقي يصـير بتصريفه[2]. إن هذا المبلغ بكل المقاييس كان يشكل إعانة كبيرة ودفعاً قويـاً للسـلطة

---

[1] Umar AL-Nagar "The Pilgrimage Tradition In West Africa Sudan.Khartoum" Khartoum University Press (1972) p. 4 - 34.

[2] دار الوثائق القومية المصرية د /1/3/104.

القائمة في مكة وهو التزام أدبي وروحي ظلت دار فور تقوم به إزاء مكة والمدينة، لمدة خمسة قرون من الزمان بدون من أو أذىً في فترات الشدة وضنك العيش الذي كانت تواجهه بلاد الحرمين. وهو مساهمة كبيرة وذات اثر بالغ. وبالتالي يؤكد بأنه كان للسودان الحالي يد طولى على بلاد الحرمين وإن هذه السلطنات كانت داعماً قوياً ودائماً لبلاد الحرمين دون انقطاع.

ولم يقتصر دعم دار فور على المال وإنما تعداه إلى الرجال حيث ورد في رسالة أخرى لإبراهيم قرض بعث بها إلى شريف مكة (قد أرسلنا الحاج إدريس صحبة المذكورين. ست اغوات – متوجه للحرمين معه صرة لمكة واغوات لخدمة البيت، وصرة لمدينة الرسول ومعها اغوات لخدمة الحرم الشريف)[3].

من هنا يتضح أن دار فور كانت مصدراً هاماً للاغوات. وكانت تقوم بواجب الإنفاق عليهم بعد وصولهم لأرض الحرمين وقيامهم بواجب السدانة. وهذا قدر من الالتزام الطوعي الذاتي يقوم به سلاطين دار فور طوعاً واختياراً تعبيراً عن رابطة العقيدة القوية التي تربطهم بالبيت الحرام والمسجد النبوي الشريف. يشكل هذا الجهد تاريخاً ناصعاً لدار فور ينبغي أن يكتب بمداد من ذهب وحق لدار فور وأهلها أن يفتخروا بهذا التاريخ المجيد. وأن يرتقوا الآن إلى مستوى هذه المكانة التاريخية السامقة لا أن يتقاتلوا من أجل تحقيق ذواتهم الفانية والكسب الرخيص .

وفي الوقت ذاته فقد شاركت دار فور بهذا الجهد المادي السنوي في رفع مستوى الفرد الاقتصادي في كل من مكة والمدينة. هذا بواسطة إرسال صرة الحرمين لإنفاقها على الفقراء في هاتين العاصمتين الإسلاميتين. وبذا تكون قد حققت ما أمكنها من أقدار التكافل الاجتماعي والاهتمام بأمر المسلمين. ولعل الوثيقة التالية تلقى الضوء على ما مر حيث ورد فيها: (من أمير دولة فور السلطان إبراهيم المعتصم بالله تعالى أمين إلى حضرة المتسلم كبير الاغوات خادم الحرم المدني... واصل إليكم ألف ريال وباقي الصرة لكم تفريقها على يد الحاج إدريس[4]. أن كان هذا الأمر قد يحدث في الماضي

(3) دار الوثائق القومية المصرية ج /1/3/104.

(4) دار الوثائق القومية المصرية: المصدر نفسه.

البعيد فان هذا الخطاب قد صدر مثيله في الربع الأول من القرن العشرين. كما يدل ذلك على أن سلاطين الفور كانوا يعتبرون ذلك إلتزاماً أخلاقياً وأدبياً إزاء الحرمين وسلطانها وإزاء ضيوف الرحمن وهو من باب السقاية والإطعام.

غني عن القول أن هذا الارتباط بمنابع الدولة الإسلامية ربما كان يمثل مذاقاً خاصاً ويحتل أهمية عالية في نفس علي دينار. حيث كان يحس بخطر ماثل من التغول المسيحي على الدين الإسلامي يستشف ذلك من مراسلاته مع السنوسي عن طبيعة هذا الخطر حيث أكد في إحداها أن أهل السودان الغربي قد اعتنقوا المسيحية[5]. أما أهل السودان الشرقي فقد اتبعوا النصارى (والأعيان منهم صاروا يخاطبونا ويرغبوا منا أن نتبع النصارى قصدهم يضلونا)[6].

ولا يغفل أن اهتمام السلطان علي دينار بالحجاز ناتج عن إدراكه لدور الحكومة المصرية في القضاء على ملك آبائه بواسطة جيوش الزبير ود رحمة. ولما لم يكن منذ البداية مطمئناً إلى استمرارية التعامل التجاري المعهود بين دارفور ومصر عن طريق درب الأربعين كان من الطبيعي أن يبحث عن منافذ تجارية جديدة لبلده التي تعول كثيراً في اقتصادها على التصدير.

وقد رأينا أن تقاربه مع السنوسي كان يحمل في طياته هذه الأهداف الاقتصادية البحتة إلى جانب الروابط الأخرى. وربما كان يأمل أن تكسو حركة قوافل الحج محاولاته لاستيراد السلاح قناعاً دينياً يحميها من رقابة الحكم الثنائي الذي كان ينظر إلى تلك المحاولات بعين الشك والريبة. وأخيراً يجب أن لا ننسى أن حرص السلطان على المحمل كان وراءه مقصد الدعاية للسلطنة الوليدة والتعريف بها وكسب الشرعية لها من مختلف القوى الإسلامية. ولكي يقر مبدا إرسال المحمل وينتزع اعترافاً ثنائياً بذلك قدم لـه بمقدمة فحواها: (بغاية الوفا إذ كانت المدة الماضية السابقة زمن المتقدمين آباءنا سلاطين دار فور لهم عوا يد وشروط وحدود معلومة وهدايا تقدم لوالى مصره ومحمل يرسل لبيت الله الحرام ويؤذن لنا بإرسال هدية بيت الله الحرام في كل

(5) المصدر السابق.

(6) السلطان إلى احمد الشريف في 1916/1/28م (23 ربيع الأول سنة 1334هـ) D. S. A. Box 129/2.

عام[7]. إن مساعدة مصر ومساعدة بلاد الحرمين وسلطانها في إدارتها كان تقليداً وقدراً موروثاً والتزاماً اقتضته المروءة من قبل سلاطين دار فور. وهو التزام ذاتي دافعه ديني أخوى في المقام الأول مما يوحى بسعة أفق الفور وتفوقهم على ذواتهم فيما مضى عكس ما يجرى الآن على الساحة من ضيق أفق ومحدودية أهداف وذاتية رؤية وقصور نظر لدى كل التنظيمات التي تتولى النظر وإدارة الأمر في دار فور حيث وقعت أسيرة نظرة حزبية وعرقية نتنة، فأرادت تشويه جمال تاريخ يعج بالإنجاز والإبداع والإقدام والابتكار وفعل الخير، حيث اختزلت كل ذلك في جملة أهداف وضيعة غايتها تحقيق الذات الإنطوائية ذات النزعة الضيقة والميول العرقية .

ما مر سرده يؤكد على أن حكمه امتداد لمسيرة فوراوية. وان فترته هي إحياء لمجد سلطنة الفور الإسلامية. لذا لا غرابة أن قام بأداء التزامات السلطنة ومراسيمها وتقاليدها أمعانا في الاستقلال وتأكيدا لحقه في الحكم.

أبدى السلطان رغبة أكيدة في الارتباط بأرض الحرمين حيث طلب من الحكومة الثنائية تيسير الطريق وحمايته لقافلة الحج الفوراوى. حتى يتسنى له إرسال المحمل الذي اعتاد أسلافه على إرساله سنوياً إلى كل من مكة والمدينة. وأجابه الحاكم العام بأنه على استعداد لتسهيل ما يمكن لبلوغ المحمل مجله[8] .

ولئلا يثير السلطان شكوكاً حول الأهداف المستكنة للمحمل أكد للحكومة الثنائية في خطاب سابق أن المحمل هو إرسال هدية بيت الله الحرام. هذا بعد أن قرر أن سلطنة الفور هي سلطنة عريقة ذات أمجاد ضاربة في شعاب الزمن. وذات صلات خارجية قديمة. وهو يبغى نهج سلفه ثم يردف قائلاً: (.... ويؤذن لنا بإرسال هدية بيت الله الحرام)[9].

وهدية بيت الله الحرام هي ما يعرف بصرة الحرمين التي اعتاد سلاطين هذه البلاد إرسالها بغرض تفريقها على فقراء الحرمين. هذا بالإضافة إلى الكسوة وأموال أخري ترسل إلي القائمين بأمر الحرمين لتصريف شؤون بلادهم.

(7) ونجت إلى السلطان أول مايو سنة 1901م (محرم سنة 1319هـ) S.N.A.INTELL. 1/1/2

(8) السلطان إلى السردار في 1900/11م (9 رمضان سنة 1318هـ) " S.N.A.INTELL. 7/1/2

(9) السلطان إلى السردار في 9 شوال سنة 1318هـ (12 يناير سنة 1901م) S.N.A.INTELL. 7/1/2

وبعد حصوله على الموافقة بتسهيل إجراءات المحمل حيث لا منفذ إلا عبر أراضى السودان الشرقي وهى واقعة تحت نفوذ وسيطرة الحكم الثنائي. بدأ يعد العدة لاستئناف ما أنقطع من سيرة أسلافه

وكان السلطان مثل غيره من مئات ملايين المسلمين الذين يتطلعون إلى رؤية بيت الله الحرام وزيارة مدينة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وهو شوق سوداني متين نابع من حب خاص للرسول صلى الله عليه وسلم لدى أهل السودان تعبر عنه أشعارهم العامة والفصيحة وأمثالهم ومأثوراتهم المنقولة في الأدب الشعبي فيما يسمى بأدب المدائح. وعبر السلطان على دينار عن هذا الشوق في خطاب بعث به إلى شريف مكة في سنة 1321هـ، سنة 1902م مبدياً رغبة أكيدة في زيارة الأراضي المقدسة، ويذكر أن من فضل الله عليه أن أعاده إلى عرش آبائه وأجداده. وبعث بألفي ريال مجيدي، آلف منها يوزع في مكة على الفقراء وخدم البيت الحرام. والألف الآخر يقسم في المدينة على نفس الأساس[10]. كرم وإيثار وتضحية ظلت دارفور موئلاً لهذه المآثر. بيد أن ذلك بعيد كل البعد عن ممارسات النهب المسلح الآن وقتل الأبرياء واستعداء القوى الأجنبية على هذه المنطقة التي جسدت طرازاً متميزاً من حيث العطاء والمبادرة إلى فعل الخيرات في يوم من الأيام، بينما أمست الآن لقمة تمضغها كل أجهزة الإعلام وجيفة تتصارع عليها ثعالب وكلاب وخنافس وعقارب وبنات آوى العالم الغربي دون استثناء. وأبناء دارفور ومفكروها وسياسيوها في غيبوبة الوعي السياسي والفكري والإجتماعي غير قادرين على تحمل المسؤولية التاريخية.

يبدو أن هذه الرغبة حال دون تحقيقها خوفه من أن يورط نفسه بمقابلة مسؤولي الحكومة الذين لا يؤمن جانبهم. وعكس في هذا الخطاب شعوره بالنعمة التي منحها الله إياه بإعادته إلى عرش آبائه وأجداده.

وفى العام التالي وصله خطاب شكر على إرسال محمل تلك السنة من قبل أمير المدينة يثنى فيه على حماسه الديني[11].

(10) على دينار إلي شريف مكة فى 1321هـ (1902م) S.N.A.INTELL. 2/3/12

(11) S.I.R. 108/3 Ist AUGUST 1903

وإمعاناً من السلطان في اتجاهه الإسلامي الأصيل حاول القضاء علـى الـدعارة حتى في حدود الحكومة الثنائية. وذلك بإرسال مبعوثين لإحضار كل الداعرات بواسطة إغرائهن بالزواج أو بوسائل أخرى. وبعد إحضارهن إلى الفاشر فمـن تابـت مـنهن ورضيت بالزواج الشرعي عفي عنها ومن لم ترض قضى عليها بالرجم[12].

ولا يخفى أن ذلك الإجراء فيه مطعن على الحكم الثنائي الذي يسـمح بممارسـة البغاء في ظله. ومن البديهي أيضا أن الحكم الثنائي لا يستطيع أن يقـف فـي وجـه السلطان فيما يتصل بأمر البغاء. لاسيما فى بلد لا يزال اثر الثورة المهدية فيه قوى بيد أن الاستعمار من أهدافه الاستراتيجية هو تدمير الجانب الأخلاقي في الأمـة وانتشـار الدعارة إحدى هذه الوسائل التي عن طريقها يمكن أن يبـدد طاقـة المجتمـع ويهـدد كرامته.وهو نهج ماسوني قديم حديث إذ أن كل الانهيارات الأخلاقية والقضـاء علـي رجولة كثير من القيادات السياسية والاجتماعية والفكرية هو عمل مخطـط. كمـا أن اختراق كل الجد ر الأخلاقية في المجتمع المسلم هـو هـدف اسـتعماري ذو أبعـاد استراتيجية. وللأسف أن معظم أشباه الرجال من هذه القيادات بمستوياتها المختلفة هي التي تبوأت المناصب وقادت الأمة إلي البوار والهلاك .

أن هذا الإجراء العملي الذي اتخذه السلطان بصدد تطهير المجتمع المسلم وتنقيتـه من شوائب الفساد. متجاوزاً مفهوم حدود بلاده وأقليمته له دلالته وإبعاده مـن حيـث شمول النظرة الإسلامية التى تمتع بها السلطان. ومن حيث الشعور بالواجـب. وتـدل علي قراءته الذكية لمعطيات الواقع في محاولة جادة لإبطـال المشـاريع الاسـتغلالية الاستعمارية في المنطقة. وبذلك أثبت أنه أذكى من كل القيادات السياسية الآن.

ومنذ أن بدأ السلطان في إرسال المحمل سنوياً إلى الحرمين الشريفين لم يتـأخر سنة واحدة. وأصبح يعين أميراً للمحمل كل سنة ويطلب من الحكومة الثنائيـة تسـهيل إجراءاته حتى يبحر من سواكن حيث يقول سنة 1321هـ : (إني قد وجهت الأفكـار بإرسال الوقف للحرمين الشريفين وقد تجهز والآن قادماً لأرض الحجاز المعـين مـن

(12) S.I.R. 108/3/12 Lst AUGUST 1903

ملوكنا المكرم صالح على ... فغاية الأمل ... يقوموا بواجبات سفره بكافة من معه وتحرروا له لمديرون المحطات بربر ولغاية سواكن .... ولا يأخذون منهم أجرة في ذهابهم وإيابهم)[13].

وحفاظاً على حسن العلاقة معه قامت الحكومة الثنائية مراعاة لشعوره بكل التسهيلات اللازمة للمحمل. وبالفعل قد عاد المحمل (ومن معه من المعنيين بالسلام)[14].

ولم يقتصر دور المحمل على الصرة والأوقاف التى تسدى إلى الحرمين بقدر ما كان يرمى إلى أن يقوم بنشاط تجارى وتبادل اقتصادي يعتبر اتجاهاً أصيلاً في سياسة السلطان الخارجية. حيث أن تعدد المصادر والموارد من الأهداف الرئيسية في سياسة السلطان. وتحت قناع المحمل ولكي يحمي تجارته الخارجية من وطأة ضرائب الحكومة حين مرورها عبر أراضيها. لذا طلب من الحكومة الثنائية أن لا تفرض ضرائب علي صادراته. وأن تسمح، له بحرية التجارة سواء في داخل أراضي الحكومة أو خارجها. وأن يترك تقدير الربح والخسارة والمكاسب الاقتصادية لقادة المحمل بقوله: (لنا أحد عشر قنطار سن فيل ونصف قنطار سن فيل وسبعة عشر مربوع ريش نعام وثلاثين نعام أسود وأربعة وثلاثين رطل ريش ريده مرسوله منا للحجاز ... تعطوهم تصريح بعدم تعرض أحد إليهم .... أن جماعتنا أن وجدوا أثمان السن والريش متحسنة بأم درمان ورغبوا مباعها امنعوا صاحب الدخولية (الضرائب أو الجمارك) بحيث لا يأخذ منهم شيئاً .... وأن لم يوافقهم الثمن وتوجهوا بها للحجاز أعطوهم تصريح بعدم تعرض إليهم).[15] إن المحمل الفوراوى كان يمثل سفارة بكل معانيها الثقافية والروحية والفكرية والإجماعية والتربوية والإعلامية والسياسية والعسكرية.

---

(13) على دينار إلى سلاطين فى 6 رجب سنة 1321هـ (1903/10/6م) S.N.A. INTELL. 7/1/5

(14) على دينار إلى سلاطين فى 1604/9/20م (27/ جمادى الأخرة سنة 1322هـ) S.N.A.INTELL. 7/1/6

(15) علي دينار إلي مفتش عموم السودان في 1906/9/18م (18 شعبان سنة 1324هـ) S.N.A. Intell 7/1/8

وتعدي دور المحمل النشاط الروحي والثقافي الكائن بنقل العادات والتقاليد والمعارف إلي النشاط الذي يقتضي تبادلاً تجارياً واسعاً. ثم النشاط العسكري الذي استدعي استجلاب الأسلحة وتوفير إحتياجات السلطنة من هذا الجانب. فكان المحمل عبارة عن بعثة دينية وعلمية وتجارية وعسكرية ولعل ما يأتي من نصوص يلقي الضوء علي هذه الحقائق حيث يطلب السلطان من الحكومة الثنائية التسهيل للشيخ محمد سيماوي قائد المحمل بقوله: (أن المحمل الشريف تعين من طرفنا ومرسول للحجاز برفقه مرسولنا محمد الشيخ سيماوي، ومن معه من الفقهاء وأولادنا وغيرهم لرغبتنا في سرعة توجههم نرغب حال وصولهم الخرطوم سفروهم بوقتهم بالسكة حديد ويتحرر سواكن يركبهم علي الوابور لجدة ولا يأخرهم).(16)

إشارة المحمل الشريف تحمل أبعاد القداسة للمقصود حتى سمي به القاصدون. المحمل إذن تضمن سفارة كاملة بشتي تخصصاتها من مسؤول عن المحمل ومبعوث تجاري وبعثه توعية وإرشاد .

أما النص التالي فيلقي الضوء علي الجانب العسكري للمحمل حيث يقول علي دينار (في المرة الأولي العرب البدو إن تعرضوا جماعتنا بطريق المدينة وضايقوهم ولأجل ما صار منهم أعطينا جماعتنا أسلحة نارية متوجهين بها لأجل حفظ نفوسهم .... وأيضا أعطوا مرسولنا محمد الشيخ سيماوي أمر كافي تأذنوه فيه بمشتري الأشياء التي تليق بنا ويكون من آلات السلطنة ويجدها هناك يشترى بها ويحضرها إلينا ولا يتعرض له فيها أحد بكافة جهات الحكومة).(17)

يلقي هذا النص الضوء علي الحالة الأمنية التي كانت تسود الحجاز. ويحكي عن الحالة التي كانت تسود هذه المنطقة قبل هيمنة الحكومة السعودية علي منطقة الحرمين الشريفين وما جاورها، كما يلقي هذا الخطاب الضوء علي الدور المنوط بالمحمل لأداء دوره كاملاً بأن يقوم بحماية أفراده من بدو الجزيرة العربية قطاع الطريق الذين درجوا علي نهب كل ما تحمله قوافل الحجيج وزوار البيت العتيق. ومما لا ريب فيه أن

(16) السلطان إلي السردار في 1906/9/8م (18 شعبان سنة 1324هـ) S.N.A INTELL 7/1/8

(17) علي دينار إلي سلاطين في 1906/9/18م (18شعبان سنة 1324هـ).

محملاً في عددية وأهمية محمل دار فور لابد أن يكون كامل الإعداد والعتاد. وذلك مما اقتضى السلطان أن يسلح أفراد محمله لضمان أداء المهمة الموكلة إليهم ولا يفاء بالالتزامات التي أوجبتها السلطنة في عهده علي نفسها سيراً علي نهج أسلافه. ولقد كان محمل دار فور ينوف علي المائتين والخمسين شخصا[18]. مما يدل على عظم الجهد المبذول لأعداده من حيث النظام والإنفاق ووسائل النقل وتكاليف الزاد والحفاظ علي سلامة أفراده، ولعبت الحكومة الثنائية حفاظاً علي حسن الجوار دوراً هاماً في مجال التسهيلات المطلوبة. حيث ذكر المفتش في خطاب للسلطان ما نصه: (أن رسولكم محمد الشيخ سيماوي أمير المحمل ومن معه من الفقهاء والمشايخ قد وصل وقابل سعادة أفندم السردار والحاكم العام وشاهد المحمل وكامل المعدات التي أرسلتموها .... وقد كتبت للحكومة بالخرطوم لمصلحة السكة حديد بأن يرحلوا الشيخ سيماوي ورجالكم .... إلي سواكن. أما السفر من سواكن إلي جده بحراً والحجاز ... أن الوابورات التي تنقل الركاب لا علاقة لها بالحكومة بل هي ملكاً لتجار وشركات أجنبية).[19]

كان السلطان بعد شعوره بموقف الحكومة الحذر تجاه تزويده بما يحتاجه من سلاح قد ازداد حرصه على تعدد مصادر استيراد السلاح. ويبدو أن طلب الأذن بحمل السلاح لحماية المحمل لم يكن صادراً عن غير قصد. بل إن الهدف من ذلك التمويه وجعل الحكومة تغفل جانب تفتيش الأسلحة. ألا أنها كانت حذره تجاه علاقات السلطان بالحرمين الشريفين. وقامت بضبط كميات من الأسلحة تم استيرادها من أرض الحرمين الشريفين رفقة المحمل ويشير السلطان في خطاب احتج فيه علي إجراءات الحكومة السابقة ويفند مبررات الحكومة بقوله: (أن أتباعنا رفقاء المحمل الملكي عادوا من الحجاز وأنهم أحضروا معهم عددا من الأسلحة النارية والجباخين بدون معلومية الحكومة ... والحال عندنا أننا عند إرسال المحمل الشريف من هنا أخبرنا سعادتكم بمقدار الأثنيَ قنطار سن فيل والريش الذي بيد المحمل، ولوثوقنا بالحكومة وثقتها بنا

(18) S.I.R 149/2. 4th. Nov .1906

(19) سلاطين إلي السلطان في 1906/12/3م S.N.A INTELL 7/3/7

وكوننا حالة واحدة معها، وبالنظر أن عربان البدو قطاع طريق الحرمين الشريفين أمرنا أمناء المحمل أن يشتروا الأسلحة النارية من خالص حقنا ليحفظوا بها أنفسهم).[20]

هذا الخطاب تبدو فيه نعومة الخطاب الدبلوماسي. ويعكس مدى ذكاء السلطان وقدرته على المراوغة وانه كان يعد نفسه لليوم الأسود ولكن بنفس طويل، كما يقرر الخطاب السابق دور المحمل العسكري في تسليح السلطنة وتوفير احتياجاتها العاجلة من الأسلحة من ارض الحرمين الشريفين. ولم تكن الحكومة الثنائية بدورها غافلة عن هذا الدور. لذا لا غرابة أن بدأت بتفتيش المحمل ومصادرة الأسلحة المستوردة حتى تضيق الخناق على موارد السلطان الخارجية. وتكون الحكومة الثنائية بهذا الإجراء الإحترازي قد أبطلت مفعول كثير من المحاولات الفوراوية الرامية إلى تقوية سلطانها وترسيخ أقدامها وتمكين استقلالها.

وقام السلطان بجهد ملحوظ بغية تخليص الأسلحة المصادرة والتي استجلبت من الحجاز. وتحت ضغط المطالبة وإلحاحها وافق المفتش العام على إطلاقها[21]. إذن كانت المصادرة هي محاولة من الحكومة الثنائية لأشعار السلطان بأنه تحت المجهر والمراقبة التامة. وينبغي عليه ألا يكرر المحاولة أو ذات الأسلوب مرة أخرى. وبذا تكون الرسالة قد وصلت إلى السلطان على دينار بصورة أكثر وضوحاً وجلاء بهذا الأسلوب الثنائي المباشر.

يؤكد ما مضى أن دور المحمل كان أوسع وأكبر من أداء الفريضة ورفع مستوى الحالة الاقتصادية لأهل الحجاز، وتحقيق قيمة التكافل الاجتماعي بمفهومها الذي يتجاوز حدود الإقليمية الضيقة والوطنية البغيضة إلى ميدان الإسلام الأرحب. هذا بإرسال صرة الحرمين. وإنما كان للمحمل هدف عسكري كما تقدم.

وشعر السلطان بتضييق الخِناق عليه من قبل الحكومة الثنائية ومماطلتها له في إمداده بما يحتاجه من عتاد وسلاح. ولم يكن تفكيره في فتح منافذ أخرى لاستيراد

---

(20) السلطان إلي سلاطين في 1907/9/23م (16 رمضان سنة 1325هـ) S.N.A. INTELL 7/I/9

(21) سلاطين إلي السلطان في 1908/12/17م (15 محرم سنة 1326هـ) S.N.A.INTELL.7/3/9

السلاح أمراً مقصوداً لذاته. بقدر ما دعته إليه الحاجة والتفكير المستقبلي الجاد في توفير احتياجات سلطنته الحربية وخلق علاقات سياسية ينتزع بها اعتراف القوى الإسلامية المحيطة. ويؤكد بها استقلال بلاده تماماً سواء من الحكم الثنائي أو غيره من القوى الاستعمارية الأخرى التي بدأت تتمدد على حدوده الغربية، لأنه أصبح في فوهة نارين أحلاهما مر وبين فكي كماشة. الاستعمار الألماني والفرنسي في الغرب والإنجليزي في الشرق.

وفى سنة 1327هـ أنفذ السلطان المحمل الذي أصبح يعرف في الدوائر الثنائية (بالمحمل الشريف)[22]. إن هذا اللقب بهذا الشكل يضفى على المحمل هيبة أراد بها السلطان أن يحمى تجارته الخارجية في ظلها. ويعكس هذا الاهتمام الفوراوى بالمحمل الذي يعتبر بحق بعثة ديبلوماسية تقوم بدور هام في مجال العلاقات الفوراوية الحجازية.

وبلغت عددية المحمل سنة 1327هـ مائة وخمسة وثلاثون حاجاً تحت قيادة الشيخ محمد سيماوى. ووصل الخرطوم في 1909/11/15م. وسواكن في 11/30/ 1909م[23].

ويبدو أن علاقات السلطان الخارجية بالحجاز تجاوزت حدود إنعاش الحالة الاقتصادية وتحقيق التكافل الاجتماعي في الحجاز إلى مائدة النقاش والمفاوضة المباشرة مع الحسين بن على حول موقفه من تركيا الأمر الذي حدا بالأخير أن يكتفي بالعبارة التالية في رده: (جناب صاحب دار فور الأعز على دينار سلمه الله .... وصل كتابك ولولا حشمة حامله الشيخ محمد لم نجيب عليه وإما ذكر تحرر)[24]. هذا الكلام المقتضب وحدته غير المعهودة تعكس حقيقة مؤداها أن شريف مكة كان متورطاً في علاقته مع الحلفاء حتى النخاع، وأنه كان مخدوعاً حال كثير من القيادات العربية التي لا تعى عبر التاريخ فيما مضى وحالياً. والآن ما يجرى في دار فور هو فصل من

(22) السلطان إلي سلاطين فى 1907/7/10م S.N.A.INTELL. 7/1/ 9

(23) S.I.R. 184/ 4- 5,. Nov. 1909

(24) الحسين بن على إلي السلطان فى 1909/12/7م (25 ذو الحجة سنة 1327هـ) S.N.A. INTELL. 2/3/12

فصول الغباء السياسي والقراءة غير الذكية والواعية لمفـردات الماضـي ومعطيـات الحاضر وفق رؤية استراتيجية. وليت الشريف (شريف مكة) استيقظ من غفوته وسباته العميق واستجاب لنداء العقل وانحاز إلي معسكر الخلافة الإسلامية. ولكنه لـم يفعـل وانجرف مع تيار الكثرة الكاثرة والأغلبية المغفلة وظن أن خلف السراب ماءً.

هذه المحاولة الفوراوية هي في الواقع حث للشريف بـالتزام الجماعـة ووحـدة الصف الإسلامي بمراجعة علاقاته مع السلطان العثماني - العاهل الأكبـر للمسـلمين آنذاك. وكان الهدف من كل ذلك الوقوف أمام تحديات الغرب المسـيحي فـي ديـار المسلمين. مما يوحي بأن السلطان علي دينار بكل المقاييس كان أكثر وعيـاً وذكـاء من القيادات المعاصرة على مستوى السودان بل على مستوى العالم العربي وهو أذكى من قيادات اليوم سواء في الخرطوم أو في دار فور أو في فنـادق العـالم أو حانـات أوروبا.

ويبدو أن تحركات السلطان علي دينار قد تجاوزت حدود مملكته. هذه التحركات لا يمكن أن تنسب أبدا إلى أطماع شخصية. بل هي قد تجاوزت دون شك تلك الآفـاق المحدودة. وفى الواقع فان تلك السياسة في مجملها ترتفع بعلى دينار من حاكم محلـى صغير متسلط - كما تصوره مخابرات الحكم الثنائي في بقية أنحاء السودان من خلال دسائس الاغتيال الشخصي كما مر في الباب الثالث - إلـى طليعـة زعمـاء العـالم الإسلامي الذين أدركوا دون غيرهم ومنذ بدايات القرن العشرين طبيعة ما يتعرض له الإسلام والمسلمون من أخطار من جراء التوغل الأوربي. فأهابوا بالمسـلمين بضـم صفوفهم والوقوف أمام ما يتهددهم. وبينما كان اغلب الدعاة من أولئك النفر من بـين رجال الفكر كالأفغاني ومحمد عبده أو رجـال الحـرب كعرابـي ومحمـود سـامي البارودى، فان على دينار ينفرد عنهم بأنه سلطان سليل سلاطين. ومن هذا الجانب فلم يسبقه سوى محمد احمد المهدى وخليفته الذين تجاوز اهتمام دعوتهما حدود السـودان. ودعيا سائر المسلمين إلى الهبة أمام فساد الحكم التركي.

وهنا يرد سؤال هل كان علي دينار وريثاً لتلك الدعوة ؟. في الحقيقة إن علي دينار انف من التبعية للمهدية أيام دولتها. إلا انه غني عن القول تأكيد تأثره بطرحها للقضايا الأساسية والرامية إلى ضرورة دعوة المسلمين إلى نقاء العقيدة الأولى. وان الخلاص النهائي لا يمكن أن يكون جهداً إقليميا معزولاً. ولكنه يجب أن ينتظم العالم الإسلامي بأكمله. وان مجيئه إلى أم درمان لم يكن عن رغبة حقيقية واقتناع فكرى بالطرح المهدوى ولكن تعبيراً عن قراءة موضوعية وتعاط ذكى مع مفردات ومعطيات الواقع وتكتيكياً مرحلياً إلى أن تحين الفرصة، وقد حانت تلك بمجيء القوات الغازية إلى أم درمان. وبالرغم من ذكاء الخليفة وحذره إزاءه فقد اثبت السلطان انه كان أذكى من الخليفة حيث كان يقوم بتجنيد أتباعه ويعدهم لساعة الانفصال عن الدولة المهدوية واستعادة مجد آبائه.

وتوقف إرسال المحمل بعدئذ لأكثر من عامين. ربما كان ذلك لسوء العلاقة الفوراوية الحجازية نتيجة لسوء التفاهم الذي تعكسه العبارة السابقة. أو لربما نتج ذلك عن سوء الحالة الاقتصادية الفوراوية نسبة لظروف الحرب الفوراوية الفرنسية التي استنزفت جهد البلاد وطاقتها و أنهكت اقتصادها. وقد يكون السبب غير هذا أو ذاك حيث لا تكشف المصادر النقاب عن ذلك. وما مضى لا يعدو عن كونه استنطاقاً واستخلاصاً بل استقراء علَ وثيقة تالية تبينه. ويطلب السلطان من الحكومة الثنائية تسهيل مهمة المحمل وتهيئة الظروف أثناء عبوره[25].

وبالفعل وصل المحمل تحت إمارة الشيخ محمد سيماوى إلى الخرطوم وتوجه من ثم إلى سواكن[26]. وظلت العلاقات الفوراوية الحجازية قائمة على أساس التبادل التجاري والثقافي. وشكلت دارفور لفترة طويلة منْ الزمان مصدراً اقتصادياً هاماً للحجاز. وأضحى الحجاز بدوره مورداً هاماً لتزويد دارفور بالسلاح. وكانت هذه العلاقة على قدر من المتانة وثق عراها الرابط العقدي ولعل ما مضى يمكن إدراكه في ضوء المعطيات التالية. حيث كان المحمل يشكلَ وفد دارفور لأداء الشعيرة الإسلامية

(25) السلطان إلى سلاطين 1631/8/9م (15 شوال سنة 1331هـ) S.N.A.INTELL. 7/2/15

(26) سلاطين إلي السلطان فى 1913/10/16م S.N.A.INTELL. 7/3/14

سنوياً. وفى الوقت ذاته كان هذا المحمل يمثل دفعة اقتصادية هامة للحجاز بما يحمل من بضائع وهدايا و مبالغ لرفع المستوى الفردي والرسمي في الحجاز كما تقدم.

ولئلا تقف الحكومة تارة أخرى حجر عثرة في وجه سياسته العسكرية الرامية إلى بناء ترسانته الحربية. طلب السلطان من الحكومة الثنائية السماح لرسوله بشراء أسلحة وجبخانة من جدة [27].

هذا الخطاب بدوره يلقى الضوء على دور العلاقة الفوراوية الحجازية في تزويد سلطنته بالسلاح اللازم. وبذا أصبح الحجاز منفذاً جديداً عله يعوض مماطلة الحكومة الثنائية في إمداده بما يحتاجه. وتعكس تلك المحاولات التي لا تعرف اليأس بعد نظر على دينار ورؤيته المستقبلية ومدى قدرته على الإمساك بكل خيوط لعبة العلاقات بيده في آن واحد لبلوغ أهدافه وغاياته.

ويبدو أن العلاقة الفوراوية الحجازية قد شهدت تحسناً خلال هذه الفترة. حيث أن وجود هدايا متبادلة بين الطرفين تؤكد على ذلك[28].

ولقد كان للسلطان صلة قوية بالأغوات ونفوذ قوى بينهم. وكان دوره بارزاً في تهذيبهم حيث يلاحظ انه في سنة 1333هـ قام بإرسال خمسة خطابات إلى مستلم الحرمين الشريفين والأغوات يطلب فيها من الأغوات الإنصياع التام والإخلاص في خدمة الحرم الشريف[29].

يبدو أن الصلة بين الاغوات وسلاطين الفور قديمة حيث سبق أن أكد إبراهيم قرض على هذه الحقيقة. وقام السلطان إبراهيم قرض آخر سلاطين الفور (1874م) بإرسال مجموعة من الاغوات لخدمة كل من الحرم المكي والمدني[30].

وكان السلطان من جانب يشعر بوجوب الإنفاق على هؤلاء الأغوات. وفى الوقت ذاته كانوا ينتظرون محمله بفارق الصبر. وقد تستغرب الأجيال الشابة الآن من

(27) السلطان إلي سلاطين فى 1914/4/23م (27 جمادى الأولى سنة1332هـ) S.N.A.INTELL.7/4/1

(28) على دينار إلى مدير المخابرات فى 1914/11/25م (11/ محرم سنة 1333هـ) S.N.A.INTELL 2/3/13

(29) السلطان إلي الشيخ عبيد الحمدى فى 1914/11/25م (11 محرم سنة 1333هـ) S.N.A.INTELL. 2/3/13

(30) دار الوثائق القومية المصرية 1/3/104

السعوديين ممن نشأوا في ظل النعيم بعد استخراج البترول من هذا الكلام بيد أن الكبار من الشيوخ من ساكنى جزيرة العرب يحلون عن تلك الأيام الخوالي بصدق وكيف أن السودان كان للكثيرين منهم بقصد التجارة وتحصيل الأرزاق وان السودان كان بقرة حلوباً بسخاء. نبعاثاً من هذا المنطلق قام السلطان سنة 1333هـ بالاعتذار إلى الشيخ عبيد الحمدى من أولاد الشيخ بخيت مقوم المسجد النبوي مشيراً إلى سوء الحالة الاقتصادية في بلاده وشحها ويبدى اهتمامه وقلقه لما يدور في بلاد الحرمين من حركات وفتن ويعد بأنه سيرسل (ما يجبر خاطركم ويشرح صدوركم عند حضور محملنا)[31].

هذا الخطاب ذو أهمية بالغة في مجال العلاقات الحجازية الفوراوية حيث يكشف النقاب عن طبيعة هذه العلاقة كما انه يعطى قراءة اقتصادية صحيحة لمنطقة الحجاز في الربع الأول من القرن العشرين الذي كان ينتظر محمل دارفور بفارق الصبر. وقد استنكر أحد الأساتذة المناقشين لبحثنا عن سياسة الفور الخارجية وهو من السعوديين النجديين وممن نشأوا في كنف النظام السعودى الحالى بعد استخراج البترول بسنوات عديدة وتمتع المملكة العربية السعودية بوضع إقتصادى مميز. استنكر وردد هذه العبارة ذلك لأنه قد تفتحت عيناه على دولة بترولية لم تنعم بما نعمت به إلا بعد عقد الستينات فى القرن العشرين ولكنها كانت قبل ذلك دولة فقيرة يغترب أبناؤها في طلب المعاش وجلب الضروري من المغاش .. وفى ذات الوقت يلقى هذا الخطاب الضوء على سياسة السلطان الخارجية. ولم يكن السلطان يومها على وفاق مع السياسة العربية القاضية بالخروج على الدولة العثمانية. إذ كان يعتبرها رمزاً إسلامياً لابد من وجوده. وفى الوقت نفسه لم يكن غافلاً عن حركة الأشراف في مكة والمدينة. ولم يخف قلقه واهتمامه الزائد بما يدور في هذه الديار. الأمر الذي يلقى الضوء على بعد نظره وعمق تفكيره لأنه لم يكن على وفاق مع السياسة الأجنبية في البلاد الإسلامية. ولعله كان ينظر إلى الأمر من باب أهون الشرين لأن الاستعمار مهما اختلفت وجهات النظر فهو أشر محض لا ينخدع باطروحاته إلا مغفل متخلف عقلياً ولا ينجرف وراء وعوده إلا متبلد الحس السياسي قصير النظر كما هو الحال الآن على مستوى العالم الإسلامي

(31) على دينار إلي الشيخ عبيد الحمدى فى 1914/11/25م (11 محرم سنة 1333هـ) S.N.A.INTELL.2/3/13

والعربي الأفريقي.وبقراءة سريعة لخارطة العالم الاسلامى نرى بقعاً سوداء كثير من هؤلاء السياسيين والمفكرين و القادة الذين شكلوا أقدار شـؤم ونـزر انحطـاط لهـذه الشعوب وتكلم الأمم فكانو كالغربان حيث قادوا أممهم وشعوبهم إلي حتفها بظلفها دون وعى أو رشد .

ففي الشمال أقام السلطان علاقة طيبة مع القوى الإسلامية الوطنية ضد الاحـتلال الأجنبي. وفى بلاده كان يعد العدة للانفلات من قيد ربقة السـيطرة الأجنبيـة. وفـى الحجاز كان يحث القوى الوطنية بالانصياع للقيادة المحلية. ولعلة بذلك أراد أن يفـتح حواراً مفتوحاً مع هذه القوى الوطنية إلا أن ذلك لم يأت ثماره كمـا تقـدمت إشـارة الحسين بن على في عدم رده على السلطان. لأنه كان قد تورط مسـبقاً ولطـخ يديـه بالتعاون مع الحلفاء فأصبح تخليصه من قبضتهم شبه مستحيل كما هو الحال الآن مـع القوى الإقليمية والمحلية التي وقعت في ربقة فلك القوى العظمى فاضحى أمامها حـل واحد ألا وهو الانصياع المطلق على حساب أوطانها وشعوبها وضمائرها ومورو ثهـا الروحي والأخلاقي. وتسليم المخلصين من أبناء أمتهم لهولا الفرنسيين الذين لا يرقبون ألا ولا ذمة في مسلم أو وطنى غيور وأوضحوا شرطة للقوى العظمى ويقومون بدور الجلادين لشعوبهم لمصلحة المشروع الصهيونى الامريكى والغربى فى بلادهم مقابـل بقائهم في سدة الحكم فباعوا ضمائرهم ووطنيتهم ومصلحة بلادهم مقابـل دريهمـات معدودة فبئس الثمن وبئس القابض وقام السلطان بإرسال خطاب بـنفس المعنـى إلـى مستلم الحرم المدني وشيخ الأغوات محمد سرور يشكرهما فيه على وصـول الهـدايا المرسلة مع الشيخ محمد سيماوى. ويعتذر عن عدم إرسال المبالغ السنوية لانعدام النقد ببلاده. هذا بالإضافة إلى عدم أمن الطريق وقيام الفتن والحركات (والشواشر) وإن شاء الله ما دمنا على قيد الحياة يصلكم منا ما يجبر خاطركم ويشرح صدوركم)[32].

بدأت الحكومة الثنائية تشعر بقوة الرابطة الفوراوية الحجازية و أدركت خطـورة الدور الفوراوى في الحجاز. ولم تغفل أثر ذلك على السياسة الاستعمارية فـي الـبلاد العربية على وجه العموم والسودانية على وجه الخصوص **وهذا ما توضـحه الفقـرة التالية:**

(32) السلطان إلى مستلم الحرم النبوى وشيخ الاغوات سنة 1332هـ S.N.A.INTELL. 2/3/13

أما السلطان فقد اتخذ من المحمل ذريعة للاتصال بالقوى الإسلامية في المنطقة وأراد بناء سياج وطني في وجه القوى الإستعمارية. فبدأ يكتب خطاباته إلى الأغوات وشريف مكة بغية إثارتهم وتوحيد جهودهم وانحيازهم إلى القوى التركية التي تمثل الإسلام وتحمي بيضته. وإنطلاقاً من خطورة هذا الموقف بدأت المخابرات الثنائية تنسج خططها القاضية بتفتيش المحمل في سواكن تفتيشاً دقيقاً. ومن ذلك خطاب أرسله نائب مدير المخابرات إلى المفتش بسواكن يفيده بأن وفد على دينار قادم إلى سواكن وعلى حسب تعليمات الحاكم العام يطلب التسهيلات لهم مع تفتيشهم تفتيشاً دقيقاً وغير ملفت لانتباههم وخداعهم بأن التفتيش جمركي فقط [33].

ولم يكن إحساس الحكومة الثنائية بهذا الخطر كاذباً كما لم تكن الاستنتاجات السابقة ظنية. الأمر الذي يكشف النقاب عن سوء التفاهم الذي حدث بين السلطان والشريف حسين بن على في عبارته السابقة والتي لم تزدنا تفصيلاً على كلماتها المقتضبة بموجباتهم وإغلاق باب الحوار بين الطرفين لفترة من الزمن. ففي 1915/5/30م، ورد خطاب من المفتش بسواكن يفيد بأنه قد عثر على خطابات من على دينار ونداء يحث فيه المسلمين على الجهاد في سبيل الله بالدم والمال ويدعو فيه إلي تأييد السلطان التركي. ومن ضمن هذه الخطابات خطاب إلى محمد سرور أغا وآخر إلى شريف مكة إضافة إلى النداء المذكور [34].

كل ذلك يبين ذلك أن دور السلطان كان فاعلاً لاسيما في علاقته مع الحجاز. وكانت سياسته إيجابية. وقد تولى عبء المسؤولية التاريخية الواقعة علي عاتقة والمتمثلة في الدعوة إلى وحدة الصف المسلم في المنطقة. وندب نفسه بجدارة إلى تسوية الخلافات بين أبناء الأمة الإسلامية وتشجيعهم لطرح الخلافات ونبذ الفرقة والالتفاف حول قيادة إسلامية واحدة. وشكل ذلك السعى الحثيث لبلوغ هذه الغاية شطراً كبيراً من سياسته الخارجية. ففي السودان لقد اتصل بالشيوخ والأعيان والقيادات الإسلامية داخل الأراضي الثنائية بغية توحيد جهودهم وإثارتهم ضد الحكم الأجنبي في

[33] نائب مدير المخابرات إلى مفتش سواكن فى 1915/5/26م 16/ شعبان سنة 1333هـ S.N.A.INTELL. 2/3/13

[34] مفتش سواكن إلي نائب مدير المخابرات فى 1915/5/30م S.N.A.INTELL. 2/3/13

البلاد. أما في الحجاز فقد قام بمجهودات كبيرة لتوحيد الأطراف المختلفة ذات الوزن والثقل السياسي فيها للوقوف بجانب الخلافة الإسلامية. هذا رغماً عما اعتورها من ضعف وسوء إدارة. إلا أنها كانت تمثل رمزاً للوحدة الإسلامية في نظره.

ومما لا شك فيه أن هذه السياسة بأبعادها تلك تشكل خطراً جسيماً على القوى الاستعمارية في المنطقة الإسلامية بأثرها. لذا لا عجب أن عملت على وأد هذه الجهود في مهدها. وسارعت إلى كفكفة أطرافها وحسر آثارها الإيجابية. الأمر الذي يؤكد على أن سياسة علي دينار واتصالاته الخارجية بدت تشكل خطراً على السياسة البريطانية في المنطقة وعلى موقف الحلفاء في الحرب العالمية الأولى.

وبدأت الحكومة الثنائية من جانبها تجند عقليات مخابراتها لوأد هذا الاتجاه بعد إدراكها لخطورته وأبعاده. فبدأت أولا بإجراء تحقيقات صارمة مع رسل السلطان ومبعوثيه. وأضحت ثانياً تفتش قوافله الذاهبة والآيبة[35].

إن هذه السياسة الثنائية آتت ثمارها عاجلة لاسيما إذا علمنا أن الجانبين الفوراوى والحجازي أدركا خطورة الموقف فالغيا من الاعتبار الرسائل الكتابية. واستخدما بدلاً من ذلك الرسائل الشفاهية. وبدأت المخابرات الثنائية تتخذ كافة التدابير للقضاء على سياسة السلطان القاضية بالاتصال بالقوى الوطنية الإسلامية في المنطقة وإثارتها ضد السيطرة الاستعمارية على مقدرات وثروات الأمة الإسلامية. وحثها على الوقوف بجانب رمز الوحدة تركيا.

لذا قامت الحكومة الثنائية بالتحقيق مع الحاج علي كنجارا الذي كان يصحب مجموعة الأغوات - وهم الخصيان الذين يعملون في الحرمين - من الفاشر إلى المدينة. وتم حبسه رهن التحقيق بعد رجوعه من الحجاز وتم حبسه بسجن بور تسودان وهو يحمل رسالة شفهية إلى علي دينار من قبل متسلم الحرم النبوي الشريف[36]. يبرز هذا السلوك ذكاء ودهاء السلطان علي دينار ومدى قدرته على تجاوز العقبات والتعاطى مع الواقع بفاعلية.

---

(35) السكرتير الخاص إلي نائب مدير المخابرات فى 1915/12/20م S.N.A. INTELL. 2/3/13

(36) نائب مدير المخابرات إلي السكرتير الخاص فى 1915/12/20م (8 ربيع الأول سنة 1334هـ) S.N.A. INTELL. 2/3/13

هذه الإشارة السابقة تؤكد أن دارفور كانت مصدراً هاماً للأغوات وأن السلطان علي دينار جرى على نهج سلفه بتزويد الحرمين الشريفين بخدامه. ولقد ظلت مفاتيح التأثير علي هذا الوجود المعتبر من الاغوات بالحرمين الشريفين بيد سلاطين دارفور فحاول السلطان على دينار استثمار هذا الجانب لصالح المشروع الاسلامى الكبير مقابل أبطال المشروع الاستعمارى الاستقلالى في المنطقة .

وتوضح أيضا أن السلطان لم يأل جهداً في الاستفادة من علاقاته الخارجية بالحجاز. ولم يقتصر جهده القاضي بتأليب كل القوى ضد المخطط الاحتلالى الاستعماري في المنطقة على حدود بلاده أو أراضي الحكم الثنائي، وإنما بذل قصارى جهده لكسب الإشراف إلى صف القوي التركية الإسلامية، ويحاول أن يستفيد من صلاته الطيبة بالأغوات بغية التأثير على القرار السياسي في الحجاز. بيد أن الأمر كما يبدو كان أكبر من مجهوداته المحدودة. فقد وقع معظم هؤلاء القادة في العالم الإسلامي في ربقة المخطط الأوربي دون وعي، وبالتالي فإن السلطان على دينار مهما يكن من أمر فهو أذكى من كان ببلاده يومئذ.

وكان الحجاز من جانب آخر يمثل نقطة التقاء لمستشاريه مع رجالات النبلاط التركى. الأمر الذي يسمح بتبادل وجهات النظر. بهذا لم تكن طرابلس هي الوسيط الوحيد لتقوية علاقاته بالأتراك وإنما كانت مكة بمؤتمرها الجامع الذي يؤمه الناس من كل حدب وصوب فرصة مناسبة لالتقاء بالعثمانيين[37].

لقد أرهبت سياسة السلطان الخارجية واتصالاته المباشرة بالحجاز القوى الإنكليزية في المنطقة. ولوحظ أن السلطان دائماً كان لا يبعث على رأس وفد بلاده إلى الحجاز أي شخص سوى مستشاره الخاص الشيخ محمد سيماوى. الأمر الذي له دلالته السياسية ومغزاه الموضوعى من حيث محتوى تبادل الرسائل الكتابية والشفهية التي لا يوثق بشخص آخر لإيصالها واخذ ردها سوى هذا المستشار القدير والشيخ الوقور. وقد وردت إشارة الحسين بن على صريحة لإيضاح هذا الأمر. حيث أجبرته هيبة وسمت الشيخ على أن يقوم بالرد المقتضب السالف.

(37) S.I.R.290/5 march 1916

ويبدو أن الشيخ محمد سيماوى كان ممثلاً ديبلوماسياً بارعاً وسفيراً ممتازاً. وفي الوقت ذاته كان يتمتع بمكانة علمية مرموقة الأمر الذي أهله لأن يكون المبعوث الخاص والدائم للحجاز. وأصبح أهلاً لثقة الطرفين. أخاف ذلك السلطات البريطانية في الحكم الثنائي. وخشيت من تردد هذا الشخص على الحجاز دون أن تتمكن مخابراتها من الحصول منه على معلومات تتعلق بطبيعة العلاقات الفوراوية الحجازية طيلة فترة توليه السفارة بين البلدين(38).

وكان السلطان يتمتع بالمعية أهلته لاختيار عناصر مقتدرة مناسبة لإدارات معينة، أعطاها ثقته فلم تأل جهداً في خدمته والقيام بأدوارها على أحسن وجه.

كانت هناك صلة وثيقة بين سياسة على دينار الخارجية وإرساله المحمل للحرمين الشريفين وما يدور في الرقعة الإسلامية على وجة العموم. حيث يقول في خطاب بعث به إلى السلطان محمد رشاد العثماني: (لقد اعتدنا على إرسال المحمل سنوياً إلى الحرمين الشريفين هدية لخدمة الحرمين الشريفين. ولقد درجنا على النصح والتعليمات لرأس المحمل أن يقوم بالاتصال بكم في الحج ولكن الإنكليز درجوا على تعيين جواسيس يراقبون تحركات راس المحمل ذهاباً وإياباً. ومنذ سنة 1318هـ اعتدنا على إرسال المحمل سنوياً أو كل سنتين في بعض الأحيان من غير انقطاع)(39).

ما ورد من إشارة في هذا الخطاب عله يفسر انقطاع المحمل لمدة سنتين في أيام الشريف الحسين بن على – ربما لسوء الأحوال الاقتصادية.

ويبرز هذا الخطاب دور المحمل والصلة الوثيقة بينه وبين السياسة العثمانية في المنطقة. فلم يكن الوفد مهمته أداء الفريضة فحسب بقدرما كان منوطاً به أدواراً أخرى منها أداء أموال لتوزيعها على فقراء العاصمتين المقدستين، ثانيها: إيصال صرة الحرمين الشريفين إلي شريفي مكة والمدينة لتصريف أمورهما. ثالثها: أداء أموال إلى مستلمَ الحرم الشريف النبوي والمكي توزع على الأغوات. رابعها: إجراء مفاوضات

(38) الحاكم العام إلي اللوردكتشنر ووزارة الحربية فى 1916/4/24م D.S.A. BOX.128/5

(39) السلطان على دينار إلى السلطان العثمانى محمد رشاد 1916/4/1م (8 جمادى 1335هـ) D.S.A. Box. 128L5.

سياسية مع شريفي مكة والمدينة. خامسها: الالتقاء برجالات البلاط العثماني وإن أمكن الخليفة العثماني نفسه لتبادل وجهات النظر حول مستقبل المنطقة وتدارس الأخطار المحيطة بديار الإسلام من وجهة النظر الإسلامية واتخاذ التدابير الكفيلة لدرئها.

وكان السلطان يشعر بأنه مسؤول عن القيام بهذا الدور نيابة عن الدولة العثمانية. لذا كانت محاولته للتأثير على القوى صاحبة القرار في الحجاز. بيد أن القوى الأجنبية كانت محيطة به إحاطه السوار بالمعصم فعملت جاهده على وأد كل جهوده الرامية إلى الاتصال بالقوى الإسلامية في المنطقة. وإبطال مفعول إثارتها ضد الوجود الإستعماري في البلاد.

ولقد أدركت القوى الاستعمارية المعادية للسياسة العثمانية والمناهضة لها دور القوى الوطنية ذات الميول الإسلامية الواضحة. وأدركت أن من أبعاد السياسة العثمانية وحدة الآمة الإسلامية وقهرها للعدو الجاثم على صدر بعض البلاد الإسلامية. وفي الوقت ذاته فإن السياسة الاستعمارية لم تسقط من حسابها التأثير على اتجاهات بعض القوى الوطنية في البلاد العربية لاسيما الحجاز.

ولإدراك السلطان لخطورة الموقف وشعوره بأهمية الوحدة الإسلامية لذا ما أن أعلن الحرب ضد الوجود الإنكليزي في البلاد حتىَ أعلن انحيازه التام للجانب العثماني وقام بالاتصال بالحجاز عن طريق الرسائل الكتابية والشفهية. بيد أن هذه الاتصالات لم تؤت ثمارها لأن اللعبة الاستعمارية في المنطقة كانت بحاجة إلى جهود وطاقات وإمكاناته أكبر متضافرة. وكان مجهوده محاطاً بتدابير محكمة ومدروسة، وطاقاته محدودة، وإمكانات موثقة بحدود بلاده. لاسيما وأن القوى الوطنية في الحجاز كان قد تم استيعابها واستقطابها من قبل القوى الاستعمارية في المنطقة. لذا لا غرابة أن فكر الحاكم العام في إقصاء السلطان في حالة استسلامه إلى مكة. هذا بعد ورود أخبار بأنه قد عزم على الاستسلام. وذكر الحاكم العام في معرض حديثه أنه مشغول بإشعال نار التمرد في الجزيرة العربية ضد العثمانيين على شكل ثورة يكون رأسها شريف مكة وقد نجح في ذلك[40]. ولعل هذه الإشارة من قبل الحاكم العام في السودان في تلك

(40) الحاكم العام إلي كالى فى 1916/6/13م D.S.A.BOX.129//6.

الفترة تلقي الضوء على بعض أسرار اللعبة الإنكليزية الكبرى في المنطقة العربية والأفريقية، وكيف أن كثيراً من القيادات والزعامات العربية والإسلامية كانت دون المستوى من حيث التفكير والتخطيط وأنها قد وقعت فريسة سهلة في شباك الخطط الاستعمارية بدون وعي وإرادة منها. وان شعار اليقظة العربية كان ستاراً لسوأة الاستعمار الاستغلالي لهذه البلاد وتلك الشعوب وما أشبه اليوم بالبارحة وليست القادة والمفكرون وحملة الأقلام يتبقظون من سباتهم وغيبة وعيهم. يبدو أن القضية كانت قضية تسابق على العاصمة المقدسة قبلة المسلمين. وتدل سياسة السلطان الخارجية تجاه الحجاز على بعد نظر ووعي وإدراك لمعطيات فترته. حيث اتجهت أنظاره إلى هذه الديار ومنذ فترة مبكرة بغية كسبها إلى جانب الصف الإسلامي. بيد أن جهوده لم تنل حظها من النجاح لمحدودية إمكاناته ووقوع منافذ اتصاله تحت سيطرة الحكم الثنائي. ويكشف خطاب ونجت السابق وإشارته هذه إلى أن الحركة العربية أو الثورة العربية الكبري أو سمّها النكسة العربية الكبرى والتي قدر لها أن يكون على رأسها شريف مكة قد تمت بايعاز من القوى الاستعمارية في المنطقة. وأنها حققت أهدافاً استعمارية أكثر منها أهدافاً وطنية أصيلة بخروجها على الدولة العثمانية وتمردها على طاعة الخلافة. وهذا الخطاب بدوره يلقى الضوء على وطنية السلطان وأصالة تفكيره ونزاهة صلاته الخارجية.

وإشارة الحاكم العام بقوله: (وقد نجحنا في ذلك)[41]. أي في إثارة شريف مكة ضد الوجود العثماني ترينا إلى أي حد كان للإدارة البريطانية دور فيما جرى بين شريف مكة والدولة العثمانية. وأن تخطيط ما سمي زوراً وبهتاناً بالثورة العربية لم يكن محلياً وإنما نسجت الخيوط في الخارج. وتم استيراد المواصفات والأشكال والكيفيات. وقام بتنفيذها وتحقيق أقدارها أبناء المنطقة. ولذا قررت السلطات البريطانية إبعاد السلطان على دينار في حالة استسلامه إلى (مكة التي ستكون تحت قيادة رجل لا يميل إلى الأتراك - لان تلك القيادة - ستضعه في حجمه وان لا فسأرسله إلى مالطة أو عدن أو أي مكان أخر)[42].

(41) المصدر السابق .
(42) المصدر السابق.

هذا هو قرار الحاكم العام الذي يمثل السلطات البريطانية في الحكم الثنائي في السودان. وكان هو الذي يقوم بدور فاعل في الثورة العربية. وافتخر بنجاحه في إشعالها في الجزيرة العربية بعد فشل جهود السلطان علي دينار في تحقيق أهداف وحدة القوى الوطنية الإسلامية ذات الارتباط العقدي. إذن كان السلطان علي دينار بطلاً إسلامياً وقيادة إقليمية أكثر منها قيادة محلية ينحسر دورها في حدود دارفور. وكان يتطلع إلى لعب دور إسلامي يتجاوز حدود الوطنية الفارغة والعرقية النتنة إلى رحاب العالم الإسلامي ونصرته في كفاحه ضد الوجود الاستعماري في أنحاء الرقعة الإسلامية.

الفصـــل الثـــاني

العلاقات بين دار فور والدولة العثمانية ومصر

سبق القول بأن سلطنة دار فور هي ضمن سلسلة السلطنات والممالك الإســلامية التي انتظمت وسط أفريقيا. وقد احتفظت باستقلالها بيد أنها لم تلغ من اعتبارها الرباط الإسلامي بدولة الخلافة. حيث بادلت هذه السلطنة دار الخلافة الود وكانت لها صلات حميمة مع كل من الخديوية بمصر والسلطنة العثمانية. وهذه الصلات لا تعــدو عــن كونها التزام أدبي. وشعور بواجب التعاون والتكافل.

وهناك وثيقة عبارة عن خطاب بعث به آخر سلاطين الفــور إبــراهيم قــرض (1873-1874) إلى الخديوي جاء فيه: (من أمير مملكة دار فور السلطان إبراهيم ... إلى الخديوي الأعظم ... يكن بعلمكم الزكي أنه قد توفى والدنا محبكم السلطان حســين ألزمنا الله وإياكم الصبر ... وكان هو لــه مودة مع الحضــرة الخديويــة ... وصــل لطرف الحضرة الكريمة الحاج حمزة وأخيه محمود سر تجار دار فور الذي تشــرف بالأعتاب الخديوية حين أرسله الوالد وصحبتهم جوابات ووصايات)[1]. هذا الخطــاب يكشف عن أفق العلاقات الفوراوية الخارجية وأن سقفها كان عالياً وأن صلتها بالخلافة العثمانية ومصر علاقة ندية وود واحترام متبادل.

امتدت فترة حكم السلطان حسين ما بين (1839- 1870م) وتفصح هذه الوثيقــة عن العلاقة الحميمة القائمة بين سلطنة الفور والخديوية في مصر بعد أن عدلت عــن غزو دار فور. وكلمات السلطان محمَد الفضل الساخنة التي تقدمت الإشارة إليها فــي الباب الأول من هذا البحث. والتي يؤكد فيها بأن سلطنة دار فور هي سلطنة إســلامية

(1) دار الوثائق القومية المصرية 1/3/104

ذات تاريخ وروابط حميمة بالسلطات الزمنية في كل أنحا العالم الإسلامي. وبالتالى لا يوجد أدنى مبرر لغزوها في عقر دارها من قبل قوى إسلامي صديقة .

بدأت بعدئذ العلاقة على ما كانت عليه وأصبح هناك مبعوثون ورسائل وأعمال تجارية وهدايا تتم بين البلدين. وحفاظاً على عمق هذه العلاقة قام السلطان إبراهيم بمواصلة المسيرة حيث بعث بخطاب بهذا المعنى جاء فيه: (وصل من أمير دار فور للحضرة الخديوية عشرون سناً من سن الفيل وزنها قنطار وعشرة)[2].

يوضح ذلك أن دار فور قد تمتعت باستقلالها بيد أنها لم تهمل الرباط الفكري والثقافي بمصر. وفي الوقت ذاته لم تغفل عن توثيق علاقاتها بدولة الخلافة التي كانت رمزاً للوحدة الإسلامية. وسبق أن رأينا إنها لم تتجاهل أيضاً الرباط الديني بقبلة المسلمين وبمسجد الرسول (ص). إن هذا الرباط بالحرمين يجسد شوقاً سودانياً خاصاً، ويؤكد على أن دارفور لم تخرج عن هذا الإطار السوداني العام المتمثل في حب الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن هذا المنطلق فإن علاقة دار فور بتركيا هي علاقة اقتضتها وحدة العقيدة والثقافة. بيد أنها لم تصل حد التبعية المطلقة أو الذوبان المطلق في رقعة الدولة العثمانية والخضوع التام لها. وإنما تمتعت دارفور بالسيادة على حدودها واستقلال سيادتها عن أى وجود سياسى ولكنها في ذات الوقت فتحت أبواب التعاون بينها وبين جيرانها وظلت دار فور محافظة على هذا الاستقلال بيد أن الخديوية المصرية نتيجة لأطماع ذاتية ورغبة قوية في الاستيلاء على دار فور التي استعصت على الغزو أكثر من مرة أخيراً وجدت بغيتها في طموح قدير أوعزت إليه بالقيام بذلك الدور. وبحكم الظروف الراهنة للسلطنة ولضعف إمكانياتها العسكرية استطاع الزبير باشا ود رحمة أن يقضي على آخر سلاطين الفور إبراهيم بن السلطان حسين في منواشي في 25 أكتوبر سنة 1875م. بيد أن هذا السقوط الظاهري للنظام السياسي والإداري في دار فور لم يلن القناة الفوراوية. إذ كان الفور يتمتعون بوجود تنظيم فوراوي قدير تمتع

(2) المصدر السابق.

بنظام فريد ودقيق. الأمر الذي جعلهم يحافظون على وجود سلاطين لهم في الظل طوال العهد التركي في السودان والعهد المهدوي. لقد صمد هذا التنظيم وهو يحمل راية المقاومة ويبدي تحدياً لأكثر من ثلاثة وعشرين عاماً. وظل الفور يناهضون كل أنواع الحكم الأجنبي في دار فور أياً كان اتجاهه أو لونه[3]. مما يعني أن هذه المنطقة ظلت عنيدة في الانصياع للمركزية وشرسة في مواجهة التواجد الأجنبي بالبلاد عكس ما يحدث الآن. حيث نلاحظ أن بعضاً من القيادات الفوراوية تطالب اليوم بتدخل دولي في قضية دارفور الأمر الذي يعكس مفارقة عجيبة.

وتوج الفور كفاحهم بتربيع السلطان علي دينار على العرش وتمكن من استعادة الحقوق الفوراوية المسلوبة ولم يتجاهل العلاقة الفوراوية العثمانية. وبدا منه هذا الاتجاه لأنه كان يعتبره إحياء لمراسم السلطنة وعاداتها وتقاليدها بغية إحياء تراث أندثر وكانت محاولته تلك هي مد جسر قد انهار بسبب الأطماع الفردية وسوء التفاهم.

ويؤكد السلطان على دينار في أوائل أيام حكمه هذه الحقيقة بقوله: (بغاية الوفاء إذا كانت المدة الماضية السابقة زمن المتقدمين آباؤنا سلاطين دار فور لهم عوائد وشروط وحدود معلومة وهدايا تقدم لوالي مصر ومحمل يرسل لبيت الله الحرام)[4].

العلاقة القائمة بين دار فور ومصر وتركيا والحجاز هي ليست علاقة تبعية وإنما هي علاقة ودية. تقوم على أساس الندية ولكن تحكمها نصوص التعاون والتكاتف والتآخي والمناصرة الدينية. وفي هذه الأثناء دارت تكهنات في الأوساط الثنائية حول علاقة السلطان بتركيا. لا سيما بعد انطلاقة السلطان علي دينار ومحاولاته المستمرة للاتصال بكل القوى الوطنية الإسلامية في المنطقة وقد تناولت الصحافة ذلك حيث جاء في جريدة مصر ما يلي: بأن السلطان: (قد أرسل وفداً إلى القسطنطينية بواسطة طرابلس وهذا الوفد يحمل معه هدايا للسلطان العثماني في تركيا. ولربما يهدف السلطان علي دينار من ذلك إلى فتح علاقة معه. كما يدل ذلك على وفاء المسلمين

---

(3) الباب الأول من هذا البحث.

(4) السلطان إلى السردار في نوفمبر 1900م الموافق 29 رمضان 1318هـ S. N. A: INTELL 7/1/2

وطاعتهم لسلطان الإسلام وان تباعدت ديارهم. ويقّال إن الهدف من هذه الزيارة هـو إعلان خضوع دار فور للسلطنة العثمانية إلا أن العثمانيين في الوقت الـراهن يعسون دورهم وقوتهم تماماً. وإن كانت حتى الآن لم تبدر من السلطان علي دينار بادرة تـدل على انه تخلى عن ولائه للحكومة الثنائية على الإطلاق حيث أن الهـدايا والضـريبة السنوية لا تزال بينه وبين الحكومة).

هذه الإشارة المبكرة وتلك الاستقراءات لا تخلو من حقائق. صحيح أن السـلطان علي دينار كان يهدف إلى انتزاع اعتراف بوجوده كقوة مستقلة ذات كيان من قبل كـل القوى الإسلامية ذات الوزن السياسي في المنطقة. أما إعلان خضوع دار فور للدولـة العثمانية فهذا أمر بعيد. وتدرك حقيقته باستقراء الكفاح الفوراوي من أجـل اسـتعادة السلطنة ودور علي دينار في استرداد حق أبناء جلدته فـي الاسـتقلال. لان هـؤلاء السلاطين كانوا يدركون جيداً بان قيام أو استعادة سلطتهم هو واجب تاريخي ووطنـي وأن التفريط بالتبعية لأي جهة يعنى خيانة القضية.

وهذه العلاقة المبكرة تدل على الوفاء الإسلامي تجاه رمز الوحدة الإسلامية فـي العالم الإسلامي. ويدل إرسال الوفد عن طريق طرابلس علي بعد نظر السلطان ووعيه السياسي. فلم يقم بإرسال ذلك عن طريق الخديوية في مصر لأنـه أدرى بـالظروف السياسية الراهنة. إذ كان يدرك أن الخديوية واقعة تحت سيطرة النفوذ الإنجليزي لـذا أراد أن يحيط علاقته بتركيا بقدر من السرية لئلا يفسد ذلك عليه علاقته القائمـة مـع الحكم الثنائي الذي يعتبره قدراً من أقداره الراهنة. وفى ذات الوقت لا يريد أن يـرهن إرادته وحركته لهذا القدر. فبدأ يستخدم كل المعطيات وكل الممكنات لتجاوز ما وجـد نفسه فيه من إحاطة أجنبية وقوة معادية في محاولة جادة لكسر طوق هذه العزلة لذا لا غرابة أن قام بالاتصال بإخوانه المسلمين بغية التعاون. لاسيما فـي دولـة الخلافـة المغلوبة على أمرها يومئذ من أجل توحيد الرؤى واتخاذ موقف موحد علـى صـعيد السياسة الدولية. في محاولة جادة لإبطال المشروع الاستغلالي الاستعماري في المنطقة الإسلامية والأفريقية .

وكانت دار فور رغماً عن هذه الروح الاستقلالية على استعداد لمؤازرة المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي، وسباقة إلى التعاون والتآزر مع كل القوى الوطنية الإسلامية، كل ذلك على أن لا يقضي على استقلاليتها وشخصيتها الاعتبارية.

وفي الوقت الذي فتح فيه السلطان علي دينار صفحة علاقات خارجية مع الدولة العثمانية لم يقدم على إشعار الحكم الثنائي بتغيير أحواله أو تبدلها تجاهه. وذلك ليمكن لنفسه ويعيد ثقة الآخرين فيه في إدارة بلاده ومقدرته الإدارية والسياسية وليعيد للأذهان مجد أجداده وآبائه.

ولعل ما يؤكد ارتباط دار فور الوثيق بالسلطنة استخدامها للعملة العثمانية. وهي تشير إلى قدر من التأثير الثقافي والاقتصادي مما لا يغفل دورهما في مجال العلاقات السياسية. ويتبين ذلك من النص التالي الذي جاء فيه علي لسان السلطان علي دينار: (أنه بعث بألفي ريال مجيدي ... ألف منها يوزع في مكة ... والألف الآخر يقسم في المدينة)[5].

وعلي صعيد آخر أراد السلطان علي دينار أن يمد جسراً مع الخديوية في مصر وسعى إلي ذلك بواسطة صديقه القديم سلاطين باشا مفتش عموم السودان. وقد حاول سلاطين أن يحقق لقاء بين الخديوي والسلطان. فقام علي دينار بشكره على هذه المحاولات. ولتطبيع العلاقة بين النظامين طلب علي دينار من سلاطين أن يقترح له نوع الهدية التي يمكن تقديمها للخديوي حيث لم يسبق له التعامل معه من قبل[6].

هذه فيما يبدو أول مبادرة صلة بين علي دينار وعباس حلمي خديوي مصر. وتقدم أن صلات السلطان بتركيا سابقة بسنين عديدة على علاقاته بالخديوية. فلربما أن وقوع الخديوية تحت نفوذ السيطرة الإنجليزية هو الذي أخر حدوث هذه العلاقة، وأضعف من الصلات المباشرة بينها.

(5) السلطان علي دينار إلي شريف مكة 1321هـ 1902م S. N. A. INTELL 2/3/12

(6) علي دينار إلي سلاطين في 1909/7/10م الموافق 20 جمادي الآخرة سنة 1327هـ S. N. A.INTEL 7/1/11

ومرة أخرى لا ننسى أن الخديوية هي التي أزالت سلطنة الفور الأولى على يد الزبير باشا ود رحمة. فمن البديهي أن يكون السلطان متحفظاً بعض الشيء في علاقاته معها. لا سيما وهو يدرك أن الخديوية نفسها تستمد شرعيتها من الخليفة العثماني. فمن الطبيعي إذاً أن يداري الأصل قبل الفرع.

وعلى وجه العموم فإن علاقة السلطان علي دينار الخارجية بتركيا تميزت بأبعاد وآثار يمكن أن تلقى الضوء على طبيعة هذه العلاقة. فهي علاقة عميقة لها جذورها ولها أبعادها السياسية. والعلاقة الفوراوية التركية لم تكن علاقة منبتة برزت فجأة وبحكم ظروف الحرب الأوربية الأولى وحاجة تركيا إلى مناصرة كل القوى الإسلامية في المنطقة. أو تحت وطأة الظروف السياسية للسلطان علي دينار. فمن الناحية التاريخية فإن تسمية عبد الرحمن الرشيد جاءت من تركيا لما اشتهر به هذا السلطان الفوراوي من علم وعدل وتقوى. وقد حكم في الفترة 1787- 1802م(7). وجاء هذا اللقب لصلة سلطنته الوثيقة بدولة الخلافة لعدة قرون خلت.

أما بالنسبة للسلطان علي دينار فان ما ورد في سجلات المخابرات الثنائية ومنذ فترة مبكرة ينفي كل المزاعم السابقة التي بها قد حاولت المخابرات تشويه سمعة السلطان وسياسته الخارجية فيما بعد باعتبار أن سياسته إزاء الدولة العثمانية كانت اضطرارية اقتضتها ظروف عزلته وموقف الحكومة الثنائية. مما لا شك فيه أن موقف السلطان على دينار إزاء الدولة العثمانية هو موقف أصيل ذو أبعاد تاريخية وموروث حضاري لم تمله عليه الظروف فحسب. ولعل ما أثبته الشيخ محمد سيماوي يلقي الضوء على عمق العلاقة وأبعادها السياسية والدينية والثقافية حينما سئل عن التأثير التركي في دار فور لا سيما بعد التغيير في موقف تركيا الأخير. فذكر من العادة أن كل يوم جمعة أن يدعي لسلطان تركيا على المنبر بالاسم. فتح السلطان بلاده ومنذ اليوم الأول للأثر العثماني ولم يقف حجر عثرة في وجه أي جهد عثماني. ولعل الدعوة المتكررة للخليفة العثماني كل يوم جمعة على المنبر تدل على وجود تقليد فوراوى

(7) الباب الأول من هذا البحث الفصل الثاني S. I. R. 184/4 4TH NOV. 1909

متين. ويؤكد ذلك على قوة الرباط بين الدولتين عبر التاريخ. ومما لا شك فيه أن لهذه السياسة ذات الأهداف الواضحة أثر في تشويه سمعته من قبل المخابرات الثنائية وتفسر اتجاه إسدال الستار على الجوانب المشرقة والطيبة في فترة حكمه. مما يدور على ألسنة الكثيرين ممن استهوتهم الدعاية الثنائية بأجهزة مخابراتها المقتدرة. وترك ذلك بصماته على الخلفية الثقافية تجاه السلطان علي دينار لدى الكثيرين ممن لم يطلعوا على سجل حياته أو يتعرفوا على أدواره الإيجابية في المجال الوطني والإسلامي على وجه العموم. ولعل هذا الحكم يطال الكثير مما كتب عن الرموز الوطنية الشجاعة التي تمتعت بنصاعة التاريخ وصلابة المواقف وقوة الرأي إزاء الوجود الأجنبي في البلاد. فحاولت أقلام الاستخبارات الأجنبية تشويه سمعتهم ووصمهم بكل منقصة مع أن الواقع كان خلاف ذلك. وفي المقابل حاولت من رفع شأن أضدادهم ممن كانوا خونة وعملاء وجواسيس. فأغدقت عليهم النعم والأنوال ومنحتهم الأراضي والأملاك في قلب العاصمة المثلثة لا لشيئ سوى مدفوع مقدم لما أسدوه للسلطة الأجنبية من خدمات لا تقدر بثمن. وهذا هو شأن الاحتلال قديماً وحديثاً. وبحلول نذر الحرب الأوربية الأولى كان السلطان علي دينار على علم تام بما يدور وكان موقفه متوطناً. وبدأت الحكومة الثنائية تشكك في نواياه إلا أنها لم تملك أدلة قاطعة تكشف اللثام عن سياسته الخارجية ومواقفه المتوقعة. هذا وكان السلطان على إطلاع تام مما يدور على الجبهة التركية وخططها وتحركاتها. وزود بأخبار وخطط الأتراك. وعلم من مصادر مطلعة أن السلطان محمد رشاد والسنوسي قد انعقدت معاهدة بينهما على محاربة الإنجليز لا سيما في السلوم(8).

هذا مما يرفع الروح المعنوية لدى السلطان علي دينار ويدعوه بشراسة لمناهضة الحكم الإنجليزي المصري في البلاد. والعمل على كسر شوكته في السودان. كل ذلك يحدث في وقت لم تتوفر فيه وسائل الاتصال الحديثة مما يوحي بالإصرار والعزم في التواصل مع الدولة العثمانية والقوى الإسلامية ذات التوجه التحرري في المنطقة.

(8) محمد عبد الرحيم الحاج صالح إلي السلطان، 1914/10/7م S. N. A. INTEL 2/3/12

وفي الوقت ذاته لم تهمل الدولة العثمانية دوره الطليعي ولم تغفل علاقاته السابقة. فقد أرسل إليه أنفر باشا وزير الحربية التركية خطاباً أشتمل على استنفار عام ودعـوة لعلي دينار لمحاربة الحكم الثنائي في البلاد. وبدأ الخطاب بإسباغ الصـفات التبجيلية على السلطان علي دينار. وعرض الخطاب لشرح واف لبداية الحـرب بـين الدولـة العثمانية والإمبراطورية الروسية على حدود البحر الأسود. وأكد أن الروس هم الـذين بدأوا بالاعتداء. بيد أن جنود الدولة العثمانية ردوهم على أعقابهم. وشرح لـه طبيعـة الاتفاق القائم بين الألمان والنمسا والدولة العثمانية مشيداً بانتصـارات الألمـان علـى الفرنسيين. واستثار في علي دينار الروح الدينية ووجوب الخروج على الكفار وسحقهم وإبعادهم من العالم الإسلامي، الذي يجب أن يهب وينتهز هذه الفرصة التي قد لا تتوفر له مرة ثانية في التخلص من نير الاستعباد والذل والاستعمار لأعـداء الله ورسـوله. وذكر بان جنود الدولة العثمانية مئات الألوف يتقدمون إلى قنال السويس. وقد حـاول الإنجليز التقدم إلينا ولكن أسود العرب البواسل ردوهم. وسـرد عـدداً مـن الأيـات والأحاديث تقوية للنداء وطلب منه في نهاية الخطاب أن يكون عاقلاً كما هو متوقـع. وأن يعمل جهده في القضاء على الحكم الثنائي في السودان. وأشار إلى أنه قد أرسـل خطاباً إلى السيد أحمد الشريف السنوسي مع أخيه البمباشي نوري بك وختم ذلك بقوله: (وأرسلت لك خطابي هذا مع جعفر بك وذلك بعد صدور الفتوى من المشيخة الإسلامية أو هيئة الإفتاء وتوجيهها النداء إلى كل المسلمين في العالم الإسـلامي ونـدائها لهـم ومطالبتها لهم بالاتحاد والاستجابة لنداء الجهاد)[9].

بذا بذلت الدولة العثمانية جهداً موفوراً لوضع السلطان في الصورة وممـا يؤكـد على انه كان رقماً استحق كل هذا التنوير وهذا الإسـهاب فـي إطلاعـه علـى أدق التفاصيل. وتم الاتصال معه على مستوى عال في الدولة. وزود بتفاصـيل الوضـع الراهن وأعطى إجابة لكل التساؤلات المطروحة حـول الدولـة العثمانيـة وموقفهـا واتفاقاتها. وهى مسائل غاية في الدقة و تمليك المعلومة الصحيحة جزء من الاعتراف بكينونة المخاطب وقدره ومكانته.

(9) انفر باشا إلي السلطان في 3 فبراير سنة 1915م الموافق 18 ربيع الأول 3 133هـ D. S. A. Box. 129/2

واحتوى الخطاب قدراً من الإغراء بإشعار السلطان أن هذه الفرصة السانحة التي قد لا تتكرر إذا ما أراد التخلص من ربقه القيود الاستعمارية المحيطة به. والإشارة إلى أن الألوف من جنود الدولة العثمانية قادمون إلي قناة السويس لا تعدو عن كونها إغراء، وفي ذات الوقت تكشف هذه الإشارة النقاب عن نوايا وخطط مستقبلية. ومما لا شك فيه أن تحرك السلطان ودوره في شل حركة الإنجليز من الأمور التي قد تساعد حلف ما يسمى بدول الوسط (تركيا وألمانيا وحلفائها).

ومن هذه الناحية فإن الاهتمام به قد يكون أمراً اقتضته المصلحة. وكانت التلبية سريعة وإيجابية من قبل السلطان الذي كان يتوق أبداً ويتطلع إلي الإنعتاق من ربقة التبعية الإسمية للحكومة الثنائية. ومن أهدافه تحقيق الحرية والاستقلال. ومما يعطي المسألة بعداً إسلامياً هو إرفاق صورة من فتوى المشيخة الإسلامية الأمر الذي أولاه السلطان عناية فائقة. لاشك أن هذا العمل الذي قام به السلطان العثماني إزاء علي دينار يشير إلى مدى أهمية الأخير وما يمكن أن يلعبه من دور في هذه القضية المصيرية. ووفقاً لذلك أصدر البيان السابق ذكره داعياً الأمة السودانية بمختلف قطاعاتها واتجاهاتها إلى نبذ الفرقة والاعتصام بأمر الدين والخروج غضبة لله وجهاداً في سبيله بغية إخراج الكفرة أعداء الله ورسوله من ديار المسلمين. وفي الواقع لم يكن بيانه محلياً وإنما كان ذا صبغة عالمية موجها إلى جميع المسلمين بغض النظر عن وطنيتهم أو جنسايتهم أو ألوانهم مهيباً بهم للالتفاف في وقت الشدة حول القيادة الإسلامية ورمز الوحدة الخليفة العثماني.

وما تلي من أحداث كان نتاجاً طبيعياً فبمجرد وصول أنباء الحرب الأوربية الأولى ونشوب الحرب بين تركيا وبريطانيا. أبدى السلطان انحيازه وميله نحو الأتراك علناً. واتخذ موقفاً عدائياً من الحكم الثنائي في أبريل سنة 1915م. وأعلن حينئذ فض ما بينه وبين الحكومة الثنائية من معاهدات واتفاقيات. وأفصح عن انضمامه رسمياً إلي الأتراك الذين كانوا على صلة وثيقة به[10].

---

(10) Sir Reginald Wingate: op. ci: pp 10376.

ولم تكن صلات السلطان بتركيا تتم عبر قناة واحدة وإنما درج على تعدد القنوات التي عن طريقها يستطيع الاتصال بدولة الخلافة. فحين حاولت الحكومة الثنائية أن تضيق الخناق على طريق القوافل المتجهة إلى طرابلس كان هو بدوره قد اتجه إلى منفذ آخر وهو طريق الشرق تحميه مظلة المحمل الشريف. بيد أن الحكم الثنائي كان له بالمرصاد حيث بدأ فى تفتيش المحمل تفتيشاً دقيقاً بغية محاولة العثور على خطاب مرسل إلى أحد المسؤولين الأتراك[11].

وترجم السلطان السياسة العثمانية ترجمة صادقة مصدراً بياناً ونداءً على قرار النداء العثماني يحث فيه المسلمين قاطبة ويهيب بهم أن يجاهدوا فى سبيل الله بالدم والمال. ودعا فيه إلى وحدة الصف والتزام خط الجماعة بتأييد السلطان العثماني. وقام بإرسال نسخة من هذا البيان مع خطاب إلي أحمد الشريف السنوسي وآخر إلى شريف مكة بغية كسبهما إلى جانب الصف العثماني فى جهاده المقدس ضد الكفار أعداء الله وأعداء رسوله[12]. وأولته الدولة العثمانية عناية إهتمامًا خاصاً حيث بعث إليه الخليفة ميدالية، وهدايا فى شكل سيف وسرج ومدفع مزخرف ومسدس ونظارات حقل. وتم إطلاعه على مجريات الأمور ليكون على دراية تامة بالأوضاع[13]. وتم إطلاعه على أحوال الجبهة السنوسية فى الشمال[14] ولعل هذا يعكس أن دارفور وسلطتها السياسية أضحت فى قلب الحدث وغدت أحد اللاعبين الرئيسيين علي مستوى السودان، ولم تقف على الرصيف متفرجة وإنما كانت فاعلة ومثلت وجه السودان المشرق فى وقت قل فيه الشجعان وتوارت فيه كثير من القيادات الوطنية والسودانية والإقليمية عن الأنظار خوفاً من بطش الحلفاء ومداراة لهم.

لم يكن تحرك السلطان على دينار عشوائياً وإنما كان مبنياً على حسابات دقيقة وفقاً للمعلومات التي تيسرت له. وإدراكاً منه بالواقع وشعوراً بالواجب وأداءً للأمانة ووفاء بحق الدين عليه كان انحيازه إلى معسكر الخلافة العثمانية طبيعياً. لذا لم يتوان

(11) نائب مدير المخابرات إلى مفتش سواكن فى 1915/5/19م (16 شعبان 1333ه) S.N.A. INTEL/3//13

(12) مفتش سواكن إلى نائب مدير المخابرات فى 1915/5/30م (20 شعبان سنة 1333ه) S.N.A. INTEL/3/1

(13) نورى بك أخ وزير الحربية إلى السلطان على دينار 1915/8/14م D.S.A.BOX.128/3

(14) نورى بك أخ وزير الحربية إلى لسلطان على دينار 1915/8/14م D.S.A.BOX.128/3

فى الرد على أنور باشا صهر الخليفة ووزير الحربية العثماني بقولـه: (مـن حيـث إنتشاب الحرب ولحد تحرير مكاتبتكم ... قد وجهنا أفكارنا كلية وجزئية نحو قتال مـا يلينا من طائفة الذين كفروا عملاً بقول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) .... إننا منذ إنتشاب الحرب بين جلالة سلطان الإسلام وبين الأعداء الكفار الفساق الإنكليز وفرنسا وما يليهم. فمن وقته قطعت ما بيني وبين الزعماء الملعونين من العلايق الودية وجاهرتهم بالعداوة وأعلنتهم بالحرب، واستعديت بقدر ما يستطعنى من القوة غيرة فى دين الله. ومن وقتئذ ملتفت لورود المخابرة مـن جهة سلطان الإسلام ليفهمني كلمة الموافقة على القيام للجهاد في سبيل الله .... فبادرت قبل ذلك بإرسال مكاتبات لجلالته رأساً ومكاتبات إلى السيد أحمد الشريف السنوسى بما فيه الكفاية للموافقة .... وذلك فهو لما تحقق لدينا أن الجهاد فى هـذا الزمـان صـار فرض عين على كافة المسلمين المنتشرين فى الأرض)[15].

وفى الوقت ذاته لم يكن السلطان عجولاً إنما هدف إلى تنسيق الحركة وأداء الدور المنوط به بانتظار المخابرة وإضاءة النور الخضر. وورود عبارة الانتظـار تـوحي بالتزام تبعية قيادة حربية واحدة. ولعله أراد بذلك أن تتحمل تركيا دورها كـاملاً فـى المسؤولية تجاهه وهو على استعداد للقيام بالدور المنوط به حتى لا يصبـح منعـزلاً فيسهل استئصاله. والمسالة الثانية هي ضمان وحدة الخطة. ولا يغفل المـرء تباعـد المسافات واستحالة المتابعة التفصيلية فى مثل هذه الظروف التـي قـد تـنجح فيهـا اللامركزية. مما يعنى انه كان على وعي وذكاء وقراءة صحيحة لمفردات ومعطيـات المرحلة. وحمل السلطان لواء المبادرة لوحدة الصف المسلم. وأن اتصالاته بالسنوسـى يمكن أن تفسر فى ضوء ذلك. ويمكن أن تصب فى خانة توحيد الجهود وتقوية الجبهة الداخلية، والخروج من إطار المحلية آلي رحاب الماعون الإسلامي الكبير لتلعـب دار فور دورها التاريخي بعيداً عن الإثنية والعرقية والجهوية التي تحـاول الآن جهـات جاهلة بدارفور وتاريخها أن تؤطرها فيها وأن تضطرها إلى جحرها الضـيق الـذي

(15) السلطان إلى وزير الحربية العثماني ووكيل القمندان الأعظم في (1334هـ) (1915م) S.N.A. Intel 2/3/12

سيعزلها عن ماض تليد وموروث خالد. كل ذلك من أجل مآرب شخصية ومصالح ذاتية. أو علي حسب ما يورده عامة السفهاء (يا فيها يا أطفيها). وبالتالي يمكن أن نقول أن السياسة في السودان هي ضرب من (الصعلكة المستترة). فالحزبي حينما يكون خارج إطار الحكومة يفلح في النقد والتنظير، وما أن يركب صهوة أدنى سلطة حتى يصم أذنيه ويغمض عينيه عن الحق وأهله ويلجم لسانه عن قول الحق. وهذا شأنهم جميعاً في السودان طائفيين أو علمانيين بشتى قبائلهم من موسكو إلي واشنطن أو إسلاميين بشتى مسمياتهم وألوان طيفهم من إسلام آباد إلي طنجة.

ولم يخف السلطان مشاعره حتى نحو أحد أصدقائه حينما حاول الأخير التأثير عليه لاتخاذ قرار يقضى بانحيازه إلى دول الحلفاء (بريطانيا – فرنسا وحلفائهما). وأشار السلطان في رده عليه إلى أنه قد علم من خطاب المذكور أخبار الحرب الدائرة بين سلطان الإسلام وبين بريطانيا ويؤنبه على رغبته في أن ينتصر المسيحيون على المسلمين. ويختم السلطان خطابه بأن يسال الله أن يجعل الدائرة على المسيحيين وأن ينتصر الإسلام أهله[16]. هذا تعبير صادق عن مشاعر إسلامية حميمة وعاطفة دينية عميقة، وانتماء حقيقي غير زائف الأمر الذي يجافى ما يدور في دار فور الآن من حيث البداية ومن حيث الأهداف. فدارفور الماضي كانت محور الأحداث على المستوى الإقليمي والعالمي من حيث طموحاتها وأهدافها. والآن يحاول أحفاد هؤلاء الأماجد أن يحشروها في جحر ضب من العرقية والجهوية وحب الذات والكسب الرخيص أموالاً علي حساب تاريخها الناصع وماضيها المجيد وتراثها الفريد. وحاول نوري بك من جانب آخر أن يزود السلطان بكميات من الأسلحة من بنادق وذخيرة كافية. الأمر الذي يشد من أزره ويقوى من عزيمته. أرسلت إليه الأسلحة من ليبيا وفقاً لتعليمات السنوسي بعد تأكده من علاقته الطيبة مع السنوسيين الموجودين في الفاشر[17] .

وشعر السلطان على دينار بخطورة الموقف وعدم تجاوب الأعيان والمشايخ وتأثرهم بالدعاية الإنكليزية في البلاد فأرسل خطاباً إلى السلطان محمد رشاد مطلعاً إياه

(16) السلطان إلى عبد المسيح الانطاكي في 1915/10/26م (17 ذو الحجة سنة 1333هـ) S.N.A. INTEL/4/10

(17) كلايتون إلى الحاكم العام في 1915/12/25م D.S.A.BOX.131/6

على الأحوال الجارية فى البلاد حيث يقول: (فبدى أن النصارى الإنكليز بعدما ملكوا السودان جميع المسلمين بشرق السودان العلماء والفقهاء ومشايخ الطرق وغيرهم ارتدوا وصاروا على ملة النصارى واتبعوهم فى أقوالهم وأفعالهم وخرجوا عن دين الإسلام وأعيانهم صاروا يكاتبونا ويثنوا على دولة الإنكليز ويمدحوها .... وردت لنا بالجرائد شهادات من أعيان السودان وأهالي النواحي مادحين فيها دولة الإنكليز بتمويهات مكذوبة. وقد بلغنا أن جلالتكم أعلنتوا الحرب مع أعداء الدين الكلاب الإنكليز وفرنسا والطليان وكافة النصارى. فالله سبحانه وتعالى هو المسؤول أن ينصر دينه ويؤيده ... ويعلى كلمة الحق فى عموم أقطار الدنيا)[18].

هذا الخطاب يلقي الضوء على علاقة السلطان علي دينار بالحكم الثنائي منذ الوهلة الأولى. فهو يرى أن الحكم الثنائي عبارة عن سيطرة الإنجليز وهي سيطرة ذات وجه مسيحي فى السودان. وإشارته إلى أن الأعيان والعلماء ومشائخ الطرق قد ارتدوا ربما أراد بذلك سير السيدين والشريف يوسف الهندي فى ركاب الحكم الثنائي البريطاني. وترينا هذه الكلمات التي وردت بهذا الشأن مدى غيظه من سلوكهم غير السوي وإتباعهم لأعدائه الكفار وممالأتهم للنصارى ضد المسلمين. لاسيما بعد ورود شهاداتهم التي توحي بعدالة وصلاحية الحكم النصراني فى البلاد. ومعلوم انه لا يحق لأي مسلم موادة الكفار. وذلك بعد أن تعين فقهاً الجهاد ضده وضد أعوانه. وقد وردت بذلك آيات محكمة فى سورة المائدة: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو بأمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) الايه (51)، (52) هذه الآيات تشكل مرتكزاً للسلطان على دينار قوياً فى دعواه واتهامه للذين يسيرون فى ركاب الحلفاء من الزعماء المحليين الذين انحازوا للصف الكافر ضد تركيا دولة الخلافة وحامية بيضة الإسلام.

(18) السلطان على دينار إلى السلطان محمد رشاد 1915/12/25م (23 ربيع الأول سنة 1333هـ) S.N.A. INTEL/3/12

وكان السلطان موقناً فى قرارة نفسه بأن ما جـاء مـن قبـل هـؤلاء الأعيـان والخطابات التي أرسلوها لـه بغية إقناعه للانحياز للإنكليز هي لا تعدو فى مجملها عن كونها تمويهات مكذوبة وقع فريستها هؤلاء الشيوخ والفقهاء والأعيـان – ممـن قعدت بهم الهمم وقصرت نظرتهم عن الشمول. أحاط على دينار رسائله إلى السلطان العثماني بقدر من السرية البالغة. هذا لضمان وصول خطاباته والحصول على ردها حيث قام بإرسال خطاب عن طريق أحمد الشريف بواسطة مبعوث خاص مـن قبلـه. وطلب من السيد أحمد الشريف كتمان أمر هذه الرسالة حتى وصول الرد مـن تركيا وإعطائه لمبعوث على دينار الخاص.[19]

وفى الخطاب ذاته ذكر بأن رسالته للسلطان محمد رشاد تتضمن أموراً فى غاية الأهمية والخطورة. وآثر تزويد مبعوثه بها ليبلغها لأحمد الشريف شفاهة. ويشير إلـى تشديد الرقابة من قبل الإنجليز أعداء الله ورسوله. ويأمل كتمـان السـر والتصـرف بحكمة[20].

يبدو انه أراد أن يحيط خطابه ذلك بالسرية لمّا تضمنه من معلومات فـى غايـة الخطورة والأهمية وهى كشف الخطط الاستعمارية فى السودان التي اقتضت استقطاب كبار رجالات القبائل والمشائخ والعلماء. ووصل بهم الحد إلى أن يصـدروا بيانـات يدعون فيها كل أهل السودان إلى الانضواء تحت راية الإنجليز والفرنسيين أعداء الله. وأن الله تعالى لابد أن يحقق نصره. وإعلان الجهادّ فى مثل هذه الظروف كفيل بتحقيق هذه الغاية. وأرفق مع ذلك الخطاب بعض البيانات والمطبوعات فى جريدة السـودان والتى تثبت صدق مقولته.وليطلع السلطان محمد رشاد علـى حقيقـة الأوضـاع فـى السودان[21]. من خلال ما مضى يتضح مدى قراءة على دينار لمعطيات الواقع قـراءة موضوعية ومنطقية تتسق وسلامة فكرة وتناسق ذاته وأنه كان متفوقـاً علـى زمانـه وذاته تحليلاً وموضوعاً وقراءة وذكاء. فالإسلام فكر والتزام ودعـوة ومنهـاج لـيبر

(19) السلطان إلى احمد الشريف فى 1915/12/25م (23 ربيع الأول سنة 1334هـ) S.N.A. INTEL/3/12

(20) السلطان إلى احمد الشريف فى 1915/12/25م (23 ربيع الأول سنة 1334هـ)
D.S.A. INTEL/3/12 D.S.A.BOX.129/7

(21) على دينار إلى السلطان محمد رشاد فى 1615/12/25م.S.N.A. INTEL/3/12. See also. D.S.A. Box 129/7

جلباباً يلبس ويخلع وفقاً لمقتضى الحال كما فعل غيره ممن فعل في السودان من بعده وفي خارج السودان.

فمنطلق علي دينار في حربه وخروجه على الحكم الثنائي في البلاد مؤسس أولاً: على قناعة ذاتية لحمتها وسداها عدم موالاة الأعداء من الكفار. وقد تواترت النصوص الشرعية دالة على هذه المعاني. ثانيها: أن الكفار قاموا بالاعتداء علي بلاده ولابد من ردهم بالقوة. وهذه من الحالات التي يتعين فيها الجهاد من وجهة نظره وهذا هو عين الصواب شرعاً حيث وردت طائفة من آيات القرآن وأحاديث المصطفى (ص) بهذا المعنى. ومما لا شك فيه أن هذه من الحالات التي يتعين فيها الجهاد وينتقل من فرض الكفاية إلي فرض العين حسب ما هو مقرر في الفقه الإسلامي.

ولعل هذه القناعة بأهداف التحرك وشرعية الموقف العثماني جعلتاه يراسل الأعيان بغية إقناعهم وإغرائهم بنقل أخبار الجبهة العثمانية والسنوسية إليهم ففي خطاب بعث به إلى الشريف يوسف الهندي ذكر له فيه أن السلطان محمد رشاد وأولاد السنوسي قد قتلوا عدداً كبيراً من الأعداء. وأنهم قد أرسلوا إليه تحت إشراف قيس كريم وآخرين ألفين وأربعمائة بندقية وأربعمائة صندوق[22]. تلك محاولة جادة من قبل السلطان لإغراء هؤلاء الزعماء وتحفيزهم للنهوض ضد الحكم الثنائي إلا أنهم كانوا أضعف من أن يحركوا ساكناً أو يقتلوا ذبابة ما لجرح بميت إيلام.

وفي يناير سنة 1916م. فض السلطان ما بينه وبين الحكم الثنائي تماماً وأعلن عداوته له. وقد قصد من ذلك إرهاب الحكم الثنائي وإشعاره بأن موقفه الحالي قد اتخذه نتيجة سياسة عثمانية فوراوية موحدة[23]. وتوالت خطاباته بعدئذ مؤكدة موقفه السابق وميله إلى سلطان تركيا والدفاع عن الأهداف التي وضعها سلطان تركيا نصب عينيه.[24] وتأصيلاً لهذا الدور فقد أرسل خطاباً إلى نائب الخليفة العثماني والقائد العام. في هذا الخطاب يذكر السلطان علي دينار أن سبب إثارته للحرب ضد قيادة الحكم الثنائي في السودان هو الاستجابة الفورية لنداء الدولة العثمانية وتنفيذاً لأمر الله

(22) على دينار إلى السلطان محمد رشاد في 1915/12/25م S.N.A. INTEL/4/10
(23) السلطان إلى مفتش وحاكم ردفان 3 يناير سنة 1916م S.N. A. INTEL /4/10.
(24) تقارير المخابرات S.I.R . 259/4 - 5 .Feb. .1916

بمحاربة الذين يلونه من الكفار. حيث أضفى بذلك بعداً جيداً على موقفه بتأكيده بأنه لا يوجد مسلمون متمسكون بدينهم الحق لا علماء ولا أشراف. وكأنه بذلك يعرض بمن ينتمون إلى الأشراف من أمثال الشريف يوسف الهندي وعلى الميرغني وعبد الرحمن المهدي الذين يقطنون الخرطوم ولم يحركوا ساكناً خوفاً من بطش الإنجليز وغيرهم من الناس الذين يقطنون دارفور. إن هذا الخطاب بمفرداته الأنفة الذكر يوحي بأنه قد يئس من هؤلاء الشيوخ وأولئك الزعماء والأشراف. وأنهم كانوا في حقيقة الأمر دون الدور المنوط بهم تاريخياً في مقاومة المحتل الغاصب، بل أصبحوا بوعي أو دون وعي وبرغبة أو برهبة أبواقاً وأدوات إستعمارية أوروبية كما هو شأن الأحفاد الآن على مستوي دارفور أو على مستوى السودان عموماً. وظل السلطان فى كل مناسبة ينتهز الفرصة ليؤكد على أصالة موقفه وموروث سلطنته إذ يعرف نفسه ودولته بأنها سلطنة قامت منذ القديم وضعفت بمرور الأيام ويصف أسرته بأنها عباسية تنتمي إلى بيت الرسول (ص). وأشار إلى أنه لا يملك فى الوقت الراهن سلاحاً ولا ذخيرة كما هو الحال بالنسبة إلى الدولة العثمانية التي تملك العتاد والرجال بيد أن دارفور تملك إرادة ورجالاً وخيلاً وإيماناً بالله وحده واعتماداً عليه وثقة به.[25] إشارة إلى أنه يملك قوة معنوية وكافة الأسباب الممكنة للنصر ويؤكد بأنه على استعداد لبذل أقصى ما يمكن فى سبيل دينه وعقيدته متى ما توفرت لديه قوة أكبر وعتاد أوفر. و[illegible] الثنائي بخطورة الموقف فاقتضاه ذلك تجهيزات وترتيبات عالية. وشن على السلطان حملة إعلامية قويه بغية تشويه سمعته ووصمه بالخيانة وإلى ذلك يشير القائد الإنجليزي (كالى) بقوله: (إن على دينار قد استلم خطابات من الأتراك و الألمان تعزز من موقفه وتشجعه على الخروج على الحكومة الثنائية. وقصد أولئك من هذا هو شغل الحكومة الإنجليزية وجيشها حتى لا يرسل إلى جبهة أخرى. أما بالنسبة إلى على دينار فانه قد أصبح ضحية لهذا المخطط ليواجه مصيره المحتوم. وأضاف قائلاً بأن السلطان رجل غير متحضر وجاهل غير مهذب وقد أصبح مغروراً ومعتزاً بأمجاده مخدوعاً بمن حوله)[26].

[25] السلطان على دينار إلى انقر باشا بواسطة حسين عارف فى 12 مارس سنة 1916م (8 جمادى الأولى سنة 1334هـ) D.S.A.BOX. 129/3

[26] كالى إلى جميع الضباط وقيادة الهنود فى 191/3/13 D.S.A.BOX.127/8

أراد الحكم الثنائي بهذه الكلمات الفجة أن يشوه سنمعة السلطان وقلب ظهر المجن لــه، مما يعبر عن مدى الغيظ والحنق الذي يعتمل فى نفس القيادة الثنائية الإنجليزيــة تجاه وقوف السلطان فى صف الجماعة المسلمة وعدم موالاته للكفرة والنصارى. وكان الغرض من هذا الخطاب هو تهدئة الأحوال بعد ظهور بوادر التمرد بين قطاع الجيش الثنائي الإنجليزي المصري فى الجبهة الغربية. وحاول بعض من الضباط المصــريين الغيورين علي أوطانهم ودينهم الاتصال بالسلطان والتنسيق معــه رغمــاً عــن إرادة قياداتهم العميلة كما أشار إلى ذلك كالي فى خطابه[27]

ولربما يفسر ذلك الموقف البطولي للسلطان وصف (كالي) للسلطان بأنــه غيــر متحضر وجاهل إلى غير ذلك من ألفاظ السب والشتم التي قصد منها تزهيد الناس فى إتباعه وهو أسلوب سياسي رخيص قــديم حــديث تنتهجــه الحكومــات والأحــزاب والجماعات ضد من يرفع عقيرته عليها أو من ينسلخ عليها. والآلة الغربية الإعلاميــة الحالية تتبع هذا الأسلوب بعلمية ومنهجية دقيقة لحرق أوراق كل من لا يقف ومصالح الغرب فى خندق واحد ... وقد أتت هذه السياسة الثنائية البريطانية ثمارها حين عــاد الناس ضحية للدعاية الإنكليزية حيث حجبت أدواره المشرقة وبطولاته الإيجابية عــن الأمة وعن أجيالها الصاعدة التي أضحت تردد المقولات الغربية بغباء. مما جعل الناس وحتى الباحثين لا يعرفون عنه كثير شيء سوى ما كتبه بعض الباحثين الغــربيين وإن كان ذاك الذي كتب لا يخلو من تحليلات مغرضة هي فى كثير من جوانبها لصالح أمة الكاتب[28]. والآن نحن ندرك ونرى ونسمع ما تقوم بــه الآلــة الإعلاميــة الغربيــة والأمريكية في مجال قلب الحقائق من حيث جعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، والجبــان بطلاً والبطل جباناً وخائناً والمدافع عن وطنه وبلده إرهابياً والبائع لبلــده والإرهــابي الغادر بطلاً قومياً، والجاهل البليد مفكراً والمفكر الحر الذي لا يشق له غبار منبــوذاً، الأمر الذي يقتضي مراجعة شاملة من قبل عقول وأقلام حرة لتاريخنا وفقــاً لوثــائق وتحليل موضوعي ومنطقي بعيداً عن المؤثرات الخارجية فتاريخ أي بلد أدري النــاس

(27) المصدر السابق

(28) انظر A.B. THEOBALD. OP.CIT

به هم أهل البلد لا الأجانب الذين حوروا وبدلوا وفق أهـوائهم كثيـراً مـن الحقـائق التاريخية واجبروا الجيل الأول من الباحثين في بلادنا علي تبني آرائهـم وإرضـائهم حتي يتمكنوا من الحصول منهم علي شهادات عليا من جامعات الغرب، وينبغي الانغتر بحرية البحث والتفكير وحيدة المناهج التي غدت أكذوبة لا تنطلي ألا علي مغفل نـافع أو عميل مباع في سوق النخاسة الماسونية في المؤسسات الأكاديمية الغربية أو الشرقية عموماً. فلكل ثمن سياسياً أم أخلاقياً أم دينيا.

يبدو واضحاً أن السلطان قد تمكن من أن يحدث تمردا داخـل الجـيش الثنـائي البريطاني فى البلاد. وأعرب عن عدالة قضيته ووضوح رؤاه وسلامة منطقه حيـث أقنع كل ذلك عدداً من الضباط والجنود المصريين بسلامة موقف السلطان، وأثبت لهم شرعية الموقف العثماني ووجوب الوقوف بجانبه. وأقتضى ذلك الحكم الثنائي أن يقوم بتصفيات وسط القيادة الغربية وخسران عدد من القوة الغازيـة. وتـم حـبس بعـض الشخصيات القيادية فى النهود[29]، ويئست القوات الثنائيـة وقيادتهـا مـن اسـتقطاب السلطان على دينار وشعرت بخطورته وتهديده لوجودها. ولعل ممـا يؤكـد نزاهتـه ووطنيته وأن كثيرين ممن جهلوا حياته وسيرته وقعوا ضحية الدعاية المغرضة ضـده من قبل الحكم الثنائي ما جاء على لسان الملازم محمد أفندي عبد الموجود الذي وجـه خطاباً إلى إخوانه الضباط والجنود العاملين في الجيش الثنائي، أكد فيه أن الكلام الذي ذكره كالى قائد القيادة الغربية والحاكم العام فى حق السلطان على دينار مـن الظلـم والاضطهاد لا يعدو عن كونه كذباً صراحاً.ونفى الزعم القائل بأن السلطان عنصـري يكره كل الوافدين من غير سكان دارفور، فقرر أنّ ذلك كله كذب محض. فهناك فـي دارفور أتراك ومصريون وغيرهم. وأشار محمد أفندي إلى انه حين قدومه دار فـور استقبل بحفاوة بالغة. وهتف الجنود (الله اكبر، الله اكبر) وأشار أيضاً إلى وجود عـدد من الأشخاص مبتعثين من قبل السلطان محمد رشاد فى دارفور. ودعا محمد أفنـدي الجنود والضباط المصريين والسودانيين في النهود فى ختام خطابه إلى النهوض ضـد الوجود الأجنبي والثورة على الكفار والمشركين وأعوان الجيش الغازي الكافر[30].

(29) مجموعة المجاهدين بالغرب إلى السردار فى 1916/3/18م D.S.A.BOX.127/8

(30) الملازم محمد أفندي عبد الموجود 1916/3/17م (13 جمادى الأولى سنة 1334هـ) D.S.A.BOX.127/8

مما مضى يتضح أن السلطان لم يكن عنصرياً معصوباً بعرقيـــة بغيضـــة كمـــا حاولت الحكومة الثنائية وصفه بذلك. ولم يكن ظالماً حيث صورته الدعاية الإنكليزيـــة متهمة إياه باضطهاد أتباعه. ولعل الكثيرين من الباحثين والمفكرين السودانيين الأوائل وقعوا فريسة هذه الدعاية الاستعمارية الغربية الحاقدة التي تطاولت على شـــموخ كـــل القيادات الوطنية فى القرن التاسع عشر الميلادى وبدايات القـــرن العشـــرين محاولـــة تبخيس دورها البطولى فى التضحية والاستبسال والدفاع عن العباد والبلاد. ولا يخفي أن وجود جنسيات متعددة، وشعار الله اكبر، والاتصال العثماني الفوراوى هـــذه كلهـــا مؤشرات تضع السلطان فوق كل الاعتبارات الإقليمية المحدودة مـــن حيـــث الجهـــد والتخطيط والفكر. فهذه هي دارفور التاريخ والمواقف التي يريد الاســـتعمار الحـــديث والمعاصر وأعوانه أن يقلصوا دورها الريادي وأن يكفكفوا تاريخهـــا ويعملـــوا علـــى حصرها فى دائرة ضيقة وأن يضطروها إلى حجر العضبية والإثنية المظلم.

وقام السلطان على دينار من جانبه بالاتصال بالخديوى عباس حلمى ولعب هـــذا الدور الخطير الشيخ محمد سيماوى فقام بالسفارة بين الرجلين أثناء تواجده فى مكـــة. حيث التقى عباس حلمى وتذكر إحدى الوثائق ما نصه: (لقد ظهر جلياً أن الشيخ محمد سيماوى قد قابل الخديوى المخلوع فى الحج وأجرى معه محادثات الأمر الـــذي كـــان لـــه أثره الواضح على موقف السلطان على دينار تجاه خلع عبـــاس حلمـــى وعدائـــه للخديوى حسين)[31] .

العلاقة بين الخديوى عباس حلمى والسلطان على دينار لم تنشأ بعد خلع الخديوى. وإنما بدأت منذ فترة مبكرة سبقت الإشارة إليها. ولعب سلاطين باشا النمســـاوي دوراً هاما فى نشوء هذه العلاقة. وتؤكد هذه العلاقة أن السلطان على دينار لم يكن يعـــادى حكام مصر أو المصريين بصورة عمياء – على الرغم من أن الخديوية هي التي هدت عرش الفور، وزعزعت أركانه منذ الغزو الأول سنة 1822م بانتزاع إقليم كردفان – يؤكد ذلك ما مر ذكره عن محمد عبد الجواد. وهو مصري المولد والمنشأ والثقافة بيد أن قاسم الدين وهو أقوى من كل القواسم الأخرى دفع به إلى الانحياز إلى جانب الحق.

(31) الحاكم العام إلى كتشنر ووزارة الحربية البريطانية فى 1916/4/24م .D.S.A.BOX.128/3

وفى الواقع أن دارفور هي المنطقة الوحيدة فى السودان التي قد ارتبطت بمصر ارتباطاً ثقافياً مستمراً عن طريق الرواق الدارفورية بالأزهر، واقتصادياً عن طريق مصالح اقتصادية حيوية منذ القدم (طريق الأربعين) – ولذلك فان القول بان الفور كانوا ينظرون إلى هذه العلاقات بصورة عاطفية (حب أو كراهية) أمر لا يستقيم. ذلك لأنها علاقة أزلية وعلاقة ثقافية وروحية توطدت أركانها وتوثقت عراها بعد قيام سلطنته الإسلامية حيث قدمت عوائل مصرية أقامت بدارفور وتمازجت مع أهل البلاد الأصليين، وأضحت دارفور منطقة جذب سياسي واقتصادي وروحي وفكري خلال خمسة قرون إلا قليلا من الزمان. وهي فترة ليست بقصيرة بكل المقاييس.

ويؤكد ذلك أيضاً إدراك السلطان على دينار لاتجاهات النظام السياسي فى مصر. فصداقة على دينار للخديوى عباس ناتجة عن ميول الأخير للدولة العثمانية ووقوفه مع القضية الإسلامية، والتزامه جانب الصف المسلم. وهذه ذات الأسباب التي اقتضته – أي السلطان – الخروج على الحكم الثنائي البريطاني في البلاد وإعلان الحرب ضده. وعداوته للخديوى حسين ناتجة عن كون الأخير أمسي دمية فى يد القوى الأوروبية المعادية التي كانت سبباً فى تنصيبه.

لذا أبدى السلطان معارضة قوية لخلع السلطان عباس حلمى. وعرض بالحاكم العام الإنجليزي وقدرته على تغيير أو تبديل شئ، بقوله أن الملك لله يؤتيه من يشاء. وذكر بأن الحاكم العام أضعف من أن يصل إليه ناهيك عن خلعه. كما أكد بأن عباس حلمى موجود وسيعود إلى العرش[32]. هذا الخطاب قد صدر بلهجة حادة وقوية مما يوحى بأنه رد على مراسلات دارت بين الطرفين – الحاكم العام والسلطان على دينار. وفيه إيماءة إلى ورود تهديد من قبل الحاكم العام له بخلع الخديوى. وأن مصيره سيكون مصير عباس حلمى. وسخر السلطان من الحاكم العام وقدرته على زحزحة شخص أو الوصول إليه وخلعه. ويعكس هذا الخطاب أن الصفوف قد تمايزت وأن المواقف قد تحددت وأن التهديد لم يعد ليجد شيئاً مع السلطان وأن إيمانه قوى بأن النصر من عند الله .

(32) الحاكم العام إلى كتشنر ووزارة الحربية البريطانية فى 1916/4/24م. D.S.A. Box. 128/3

ومعارضة السلطان على دينار لخلع الخديوى نابعة من وحدة الهدف والوفاء لما هو قائم بين الطرفين من اتفاق يلمحه المرء - بين سطور الوثيقة بقوله: أن الخديوى موجود وأنه سوف يعود. هذه التأكيدات لا يستبعد أن تكون ناتجة عن اتصال وتخطيط مشترك بين الجانبين. وبالتالي فإن السلطان قد تجاوز حدود المحلية الضيقة إلى آفاق التنسيق الإقليمي والدولي. وما فتئ السلطان على دينار يؤكد مواقفه الإسلامية ويكرر محاولاته للاتصال بالدولة العثمانية، محاولاً اختراق الحواجز الإنجليزية المصرية. ولكن يبدو أن التدابير الثنائية كانت على قدر من الإحكام حيث يقول السلطان على دينار: (لقد حاولنا إرسال رسلي إلي مصر لمقابلتكم ولكن الإنجليز قاموا بمراقبتهم فلم يتمكنوا من أداء مهمتهم حيث فتشوهم ولم يتركوا معهم شيئاً مما أرسلناه إليكم وحتى الآن ومنذ إعلانكم الحرب سنة 1332هـ . ولم يصلنا منكم خطاب ولا خبر واحد ولكن نحن من جانبنا ما أن علمنا بخبر الحرب وقطعنا صلاتنا معهم. وعند وصول خطابنا هذا إليكم نرجو إعلامنا بالذي يجب اتخاذه من خطوات)[33]. لم يأل السلطان على دينار جهداً فى الاتصال بالدولة العثمانية رغماً عن كل التدابير الثنائية التي قطعت الصلة القائمة بينه وبين الدولة العثمانية. فعمل على فتح قناة أخرى عن طريق الشمال بواسطة ليبيا والثانية عن طريق مصر والثالثة عن طريق الحجاز. بيد أن التدابير الثنائية كانت مطبقة على محاولاته من كل الجهات. ولا يزال السلطان يقرر أن طبيعة الحرب المعلنة من قبله هي حرب طبيعتها دينية.

وفى خطاب آخر كشف فيه السلطان على دينار عن خطط الحكومة الثنائية الرامية إلي مكاتبة عدد من الشيوخ والعمد والمسؤولين فى سلطنة دارفور لإثناء السلطان عن مواقفه[34]. وهو إجراء طبيعي لهدّ البنية من الداخل من قبل الحكومة الثنائية أو خلق ما يسمى بالطابور الخامس لنقل أسرار وخطط السلطان إلي الجهة المعادية له. ولكن من جانب آخر فإن خطاب السلطان المتقدم يدل على تنبهه لما يجرى حوله من تدابير عدائية وإطلاعه على مجريات الأحداث ومتابعته المستمرة وتطلعه

(33) على دينار إلي السلطان محمد رشاد أبريل 1916م (8 جمادى الثانية سنة 1334هـ) D.S.A. Box. 129/3

(34) على دينار ألي السلطان محمد رشاد فى مايو سنة 1916م D.S.A. Box. 129/3

لمعرفة ما يدور في الساحة الإسلامية الواسعة التي تتجاوز حدود دولته. وان ارتفاعه عن الإقليمية الضيقة هو الذي جعله لا يستجيب لمحاولات الحكومة الثنائية. وأن هذا الارتقاء كان ناتجاً عن عقيدة وفكر أكثر من أي شئ آخر.

ولا زال تفكير الحكومة الثنائية قاصراً تجاه سياسة السلطان الخارجية إذ كانت تعتبر أن السلطان قد راح ضحية للدعاية التركية الألمانية. وهذا في حد ذاته يعتبر تجاهلاً تاماً للحركة الذاتية والقناعة العقدية التي شكلت لبنة ثورة على دينار واقتضت عداوته لهذا الحكم الكافر. وهو مستوى من التبخيس المتعمد والتقليل من شأنه واختصار مواقفه البطولية واختزالها لصورة مخلة تزهيداً في الإقتداء به أو إتباعه. وهو أسلوب إستعماري قديم حديث. وسبقت الإشارة إلي أن على دينار هو الذي بدأ بمراسلة السلطان العثماني. ولا يخفى أن المحاولات الإيجابية للاتصال بالدولة العثمانية كانت دوماً من قبل على دينار. والواقع يقرر أن المسألة قد تجاوزت حدود الاستقطاب أو الوقوع فريسة سائغة لدعاية بعينها. فالسلطان على دينار كان مسلماً معتزاً بدينه، وبموقفه الإسلامي، وعداؤه لأعداء الإسلام قد تجاوز كل الاعتبارات وفاق التصورات الثنائية، ولا أدل على ذلك من إشارة الحاكم العام بقوله: (منذ أربعة أشهر من الآن أعلن على دينار الجهاد ومنذ سنة بدأت خطاباته تحمل الشتم وذلك بعد نجاحه في أن يحصل على أسلحة من السنوسية. ولأن خطة الأتراك والألمان هي إشعال حرب في غرب السودان ومصر. وذلك بعد نجاحهم في أن يستقطبوا السنوسي إلي جانبهم واستخدامه كوسيط بينهم وبين على دينار. ونجح الأخير في الاتصال بعلي دينار وإمداده بالسلاح فازدادت لهجة على دينار حدة)[35].

صحيح أن الخطة التركية الألمانية كانت تقتضي إشعال حرب في غرب السودان. ولكن لولا وجود شخص غيور على دينه متسلح بقناعة ذاتية، لما وجدت هذه المقاومة الشرسة من يقودها. ومن المعلوم أن صلات سلطنة الفور بالدولة العثمانية لها أبعاد تاريخية ووشائج روحية منذ ما قبل عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد الذي أطلق عليه لقب الرشيد من قبل السلطان العثماني. وقد كان البلاط الفوراوي مركزاً علمياً ومحوراً

(35) SIR REGINALD WINGATE. OP. CIT. PP..10307-8.

من المحاور الهامة فى العالم الإسلامي وقبلة للعلماء والمحتاجين. ومصدراً لمحمل تواصل عطاؤه لمصر ولبلاد الحرمين مدة خمسة قرون من الزمان فما من حاج إلا وناله قدر من نواله وما من حاكم لمكة والمدينة ألا لدارفور عليه يد ودين مستحق. وعلى وجه العموم حالت تدابير الحكومة الثنائية دون استمرارية الاتصال المباشر بين القوى العثمانية والفوراوية. ولم تتمكن الدولة العثمانية من نجدته وإمداده بما يحتاجه من سلاح وعتاد. ولربما يعود هذا إلي انشغال الجبهة العثمانية بنفسها فى . متعددة. ولم تتمكن ألمانيا أيضاً من إمداد حلفائها بما يحتاجونه. ولم تنجح القوة الألمانية التركية فى تأمين طرق الاتصال وإبطال مفعول التدابير الإنجليزية التي حالت بين هذه القوى الفوراوية وبين حصولها على ما تحتاجه من مدد وسلاح حتى تؤدى دورها كاملاً. ولو قدر لها ذلك لتغيرت معالم السياسة الدولية ولأضحي للسودان شأن آخر.

المصـــادر والمراجـع

المصــــادر و المراجـــع

1- المصـــــادر الأوليــــة :

المادة الأرشيفية (غير منشورة) :

1- SUD INTEL :

Intel	1/1/1-5 (A) 1/30 1/70 2/1/3 -7(B) 2/3/12-14	خطابات من والى السلطان علي دينـــار مـــا بـــين (1899م-1916م) هـــذا بالإضـــافة إلـــى تقـــارير مخابرات، والمجموعـــات غيـــر منظمـــة وتســـمى (منوعات)
Intel	7/1/1-18 7/2/1-20(C) 7/3/1-14 7/4/1-10 7/5/1-13 (D)	خطابات من والى السلطان ما بين (1899-1916م) منظمة ومرتبة تاريخيا منوعات (1900-1914م)

2- Win. Papers:

Intel	30/1-3 (F) 31/1-5 101/5,28-29 104/4-6 112/1 114/12 126/6 127/2-8 128/1-7 129/1-8 130/1-12 131/1-10 223/1-3 (H) 228/1-3 2/1-3 234/5,6, 270/6,300 301/6	تشمل مكاتباتٍ رسمية وشخصية ويوميات ومذكرات مرتبة تاريخياً وتغطي الفترة من (1900-1916م) .

3- أوراق س. S .Papers:

خطابات رسمية وشخصية كسابقتها على وجه العموم	1/1/1-5 1/30 (W) 1/70 2/1/3-7 2/3/12-14	121/1-5 403/6-16 260

4- أوراق MAC :

110/1-7

246/1-10 (M)

5- وثائق مجلس الوزراء:

104/3/1-15(Z) 1869-1885م

305/3و 1899-1919م

مطبوعات SUDAN INTEL REP:

تقارير المخابرات السودانية هي تقارير شهرية يبعث بها مدير المخابرات إلى سردار الجيش المصري ومن ثم إلى وزارة الحربية البريطانية. وهناك يتم طبعها وتوزيعها على الجهات المختصة بشؤون الأمن والمخابرات وكل تقرير منها يغطي شهراً. وقد تم الرجوع إلى التقارير من 60 – 26 ما بين 25 مايو1898– 1916م.

2- المصادر العربية والأجنبية:

LONDON GAZETTE :

أ- الكتب الغربية المطبوعة :

1- إبراهيم فوزي: السودان بين يدي غردون وكتشنر – جزءين – مصر. القاهرة. مطبعة الآداب والمؤيد 1319هـ .

2- أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي: الجغرافيا. تحقيق وتعليق إسماعيل العربي. لبنان . بيروت . المكتب التجاري. الطبعة الأولى – 1970م .

3- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء – 14جزء. مصر. القاهرة. المؤسسة المصرية للتأليف والنشر 1963م .

4- سلاطين باشا: السيف والنار في السودان. أم درمان. طبعة عالم الكتب – 1978م.

5- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت 626هـ). معجم البلدان 5 مجلدات. لبنان. بيروت. دار صابر. (1955 – 1957م).

6- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت 808 هـ): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. مصر. القاهرة . دار الطباعة الخديوية ببولاق – (1284هـ) .

7- عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. تحرير ونشر أ. كوريللي وآخرين – جزءين – ايطاليا. نابولي. معهد الدراسات الشرقية (1970 – 1971م) .

8- لو ثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي – ترجمة عجاج نويهض، تحقيق وتعليق شكيب أرسلان في أربعة أجزاء. لبنان. بيروت. دار الفكر. الطبعة الثالثة 1971م.

9- محمد بن عمر بن سليمان التونسي: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان. تحقيق خليل محمود عساكر. مصطفى محمد مسعد – مصر. القاهرة. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر. 1965م.

10- نعوم شقير: تاريخ السودان. تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم – لبنان. بيروت. دار الجيل. 1981م.

ب- الكتب الأجنبية المطبوعة:

1- E. A. Wallies. Budge (1857–1934). Egyptian Sudan. Its History and monuments 2vols. USA. New York. Boston public library 1978.

2- Gustavo Nachtigal: Sahara & Sudan. wadai & Darfur voyage (1874). trans. by Allan. G. B. & Humphrey Fisher. England. London 4vols. (1971).

3- H. A. Macmicheal: A history of the Arabs In the Sudan & Account of the Peoples who preceded them of the tribes Inhabiting Darfur. 2. Vols .England .Cambridge 1922.

4- W. S. Churchill: the river war. London. Eyre & Spirttiswood ltd. third ed. 1951.

2- المصـــادر الثانويـــة:

جـ- المصادر العربية والأجنبية الحديثة:

أ- العربيـــة :

1- توماس. و. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبــراهيم، عبــد المجيــد عابدين، إسماعيل النحراوي. مصر. القاهرة. مكتبة النهضة المصــرية. الطبعــة الثالثة. (1947م) .

2- الشاطر بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط. مصر. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1972م.

3- صلاح الدين محمد كردوس: جغرافية العمران في مديرية دارفــور- الســودان. الخرطوم. جامعة القاهرة فرع الخرطوم. 1977م .

4- عبد الكريم غرايبة: دراسات في تاريخ أفريقية العربية (1918- 1958م) سوريا. دمشق . جامعة دمشق. الطبعة الأولى. 1960م.

5- عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها إلــى العصــر الحديث. لبنان. بيروت. دار الثقافة للطبع والنشر- 1967م.

6- محمد عمر بشير: تاريخ الحركة الوطنية في"السودان (1900- 1969م). ترجمة هنري رياض ووليم رياض، الجنيد علي عمر. لبنان. بيروت. جامعة الخرطــوم. 1980م.

7- محمد عوض: السودان الشمالي سكانه وقبائله. مصر. القاهرة. لجنة التأليف والنشر. 1951م.

8- محمد فؤاد شكري: السنوسية دين ودولة. الطبعة الأولى - مصر. القاهرة. دار الفكر العربي. 1948م.

9- موسى المبارك الحسن: تاريخ دارفور السياسي (1882- 1898م) السودان. الخرطوم - جامعة الخرطوم. 1964م.

10- نقولا زيادة: صفحات مغربية. لبنان. بيروت - دار الطليعة. الطبعة الأولى. 1966م.

11- يونان لبيب رزق: السودان في عهد الحكم الثنائي الأول (1898- 1924م). مصر. القاهرة. معهد البحوث والدراسات العربية. 1976م .

ب- الأجنبية :

1- A. B. Theobald: Ali Dinar the last sultan of Darfur (1898–1916). USA. Bristol. Western printing service ltd. 1965.

2- A. J. Arkell: A history of the Sudan from the earliest times to 1821 .England. London 1961.

3- L. A. Fabunmy: the Sudan in Anglo – Egyptian relation a case study in power politics. England .London. 1964.

4- P. M. Holt: A Modern History of the Sudan. From the fung Sultanate to the present day. Third Ed. redwood burn. London. 1974.

5- P. M. Holt: the History of the Sudan from the coming of Islam to the Present day. England London. .third Ed. 1979.

6- Patricia Wright: Conflict 0n the Nile: the Fashoda incident of 1898 .England. London. Cox and wy man ltd – First Ed 1972.

7- Rexson Ofahey: the growth and Development of the Kiera Sultanate of Darfur .England. London.

8- Omar al– Nagar: the Pilgrimage Tradition in the African west. Sudan. Khartoum. Khartoum University. 1972.

PERIODICALS
S.N.R. KHARTOUM:

1- A..C. Beaton, the Fur. Vol. 29 Part 1 (1948) 1–38 .

2- A . J Arkell:- Darfur Antiquities (1) Vol 19 (1936) P. 301–10.

3- The Coinage of Ali Dinar Vol 23 Part (1) (1940). P.151– 60.

4- The History of Darfur A.D 1200–1700. Vol 32 Part (1) (1951) P. 38 – 68.

5- The History of Darfur Ad 1200–1700 Vol33 (1950) P. 207–37.

6- G. B. Lampen, History of Darfur. Vol31 Part 2 (1950) P.177 – 209,.

7- J.E.H Boustead: The Youth and Last Days of Ali Dinar Vol 22 (1939) P. 149–53.

8- Samuel Bey Atiya, Senin and Ali Dinar. Vol.7 Part 2 (1924) 63 – 69.


Bibliotheca Alexandrina
06666618
